جامعة القاهرة
كلية دار العلـــوم
قسم التاريخ الاسلامـــى
والحضارة الاسلاميـــة

المجتمع المغولى فى عصر الاباطرة العظـام
(من جنكيزخان الى قوبيلاى خان)
(٦٠٣ هـ ـ ٦٩٣ هـ)

رسالة ماجستير
مقدمة من الطالب

صبرى عبد اللطيف سليـم

اشــراف

الأستاذ الدكتور / أحمد جاب الله شلبى
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلاميـة
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

لقد كان من عظيم الشرف أن يتفضل استاذى الكريم الاستاذ الدكتور/ أحمد شلبى أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بقبول الاشراف على عملى هذا .

ولكم أفادنى كثيرا فى العديد من الملاحظات التى أوشكت أن تغيب عنى وأفاض على هذا البحث الكثير من وفرة علمه وثراء فكرة . رغم كثرة مشاغله واهتماماته ـ ولقد كان ما كتبه عن المغول وعن الحضارة الاسلامية خير معين أفادنى فى ادراك مدى تأثر المغول بالحضارة ومدى تأثير الحضارة فيهم .

وانى لاتوجه لسيادته بعميق شكرى وامتنانى فانه لم يعلمنى حرفا فحسب بل أفاض على علما وحضارة . فأرجو الله أن يثيبه عن عملى هذا خير الجزاء.

كما أتوجه بخالص شكرى وعرفانى الى الاستاذ الدكتور / فؤاد عبد المعطى الصياد الذى لم يبخل على هذا البحث بأية معلومات أو ارشادات بل وأرشدنى الى العديد من الكتب التى أضافت الى هذا البحث الكثير .

كما أتوجه بالشكر الى الاستاذ الدكتور /
الذى تفضل بقبول المشاركة فى مناقشة هذا البحث واخراجه الى دائرة النور .

وجزى الله أساتذتى الكرام عنى خير الجزاء .

تقرير لجنة الامتحـــان

الفهـــرس

الموضـــــوع | الصفحـــــة

الفصل الثانى

(حياة المرأة بوجه خاص)

الفصل الثالث

(الامراض الاجتماعية)

الفصل الرابـــع

(الملامح الاجتماعيـــــة)

الباب الثالث ٢٣٣–٤٠٤

(الحياة العلمية والدينية)

الفصل الاول

(العلوم والفنون والاداب)

الموضـــــــوع الصفحـــــــة

الفصل الثانى

(آديان المغـــــول)

الباب الرابع ٤٠٤_٥٤٦

(الخاقان الاعظم وشئون الحكم)

الفصل الاول

(الحياة الخاصة للخان)

الفصل الثانى

(شئون الحكم والحياة الرسمية)

الفصل الثالث

(السياسة والاقتصاد فى المجتمع المغولى)

الفصل الرابع

(الحياة العسكرية عند المغول)

المقدمـــــــة

مما لاشك فيه أن دراسة موضوع المغول وثارهم فى الحياة العامة والحضارة بوجـه خاص يعتبر من الموضوعات الحيوية التى تتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ الاسلامى والحضـارة الاسلامية ٠

ولقد كانت الفترة التى ظهر فيها المغول تمثل النسبة للمسلمين خاصة فترة مـن أحرج فترات حياتهم منذ أن ظهر الاسلام فى ربوع شبه جزيرة العرب حتى الان ٠ اذ تـواءم الغزو المغولى مع امتداد الحملات الصليبية منذ عهد القديس لويس التاسع ، فأصبح المسلمون بين شقى الرحى كما يقولون على حين كانت تفتقر بلادهم الى القيادات السياسية والعسكرية كماابتعدوا هم انفسهم عن كثير من روح الاسلام فاجتذبتهم الوان من حياة الترف والنعيـم ومالوا الى الاستمتاع بمباهج الحياة ٠ لهذا لم يكن لهم نصيب من القوة او الثبات فى وجـه المغول ٠

ومن الجدير بالملاحظة أن ما كتب عن المغول حتى الان لايكاد يفى بحاجة المكتبة الاسلامية التى مازالت تحتاج بالتأكيد الى مزيد من الدراسات فى هذا المجال ٠

حقا ٠٠ ان كتابات دقيقة وممتازة سبقت فى هذا المجال غير أنها عالجت الموضـوع من ناحية الترتيب الزمنى فغلب على معظمها تتبع الوقائع الحربية التى خاضها المغول منـذ ظهور جنكيزخان على مسرح الاحداث السياسية فى منغوليا حتى نهاية المغول واضمحـلال امبراطوريتهم الواسعة ٠

ولقد كانت مهمة هذا البحث التنقيب عن الجوانب الاخرى بن الاثار التى خلفهـا الدمار والهلع وخصوصا فى عنفوان حركات الغزو الاولى فى عهد جنكيز خان وأوكتاى ومنكـو وهولاكو٠

وهذه الجوانب وهى تتمثل فى المسائل الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية كانـت عادة ما ترد فى المصادر والمراجع عفوا لخاطر فقد كانت تأتى على شكل شذرات لايربط بينهـا خيط اتصال من قريب أو بعيد٠

مصادر البحـث :

(أ) المصادر العربية :

يعتبر ما كتبه ابن الاثير المتوفى سنة٦٣٠ هـ من ابرز المصادر العربية التى تتحدث عن المغول على الاطلاق٠ وكان هو نفسه قد أحجم عن الكتابة حتى نصحه بذلك بعـض أصدقائه ـ فرأى أن من الخير أن يستجيب للنصح وأن يسجل أحداث الغزو ٠

وقد تناول ابن الاثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) غزوات المغول حتى سنة٦٢٨هـ اى فى عهد جنكيزخان وأوكتاى ٠ ويتضح فى ثنايا الكتاب مدى التأثر الجارف الذى استحـوذ على ابن الاثير من جراء ما اقترفه المغول من جرائم عند غزو المدن الاسلامية اترار وبخـارى وسمرقند فجاءت سطوره مشحونة بالعاطفة متأججة بالغضب عليهم والنفور منهم ٠

وخطورة هذا الامر تتضح فى مدى تأثير ابن الاثير فيمن نقلوا عنه فيمابعد من المؤرخين كابن واصل صاحب كتاب(مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) وابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية فى التاريخ) والحنبلى صاحب كتاب(شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) وابن شاكر الكتبى فى كتابه(فوات الوفيات والذيل عليها) بل ان كثيرا من الكتاب المحدثين نقلوا أيضا عن ابن الاثير دون تعليق فوافقوه فى كل ما كتب أيا كان رأيه فيما يكتب.

ومن المصادر المهمة أيضا كتاب (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى) لمؤلفه النسوى وقيمة هذا الكتاب تظهر فى ان مؤلفه كان معاصرا لاحداث الهجوم المغولى حيث شغل منصب الوزارة للسلطان جلال الدين منكبرتى فى مدينة (نسا) غير أن اصرار كاتبة على التزام المحسنات البديعية المتكلفة كاد أن يؤثر أحيانا على قيمته التاريخية.

ومن الكتاب المعاصرين للاحداث أيضا ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ) صاحب كتاب(تاريخ مختصر الدول) وكان ابن العبرى أحد كبار الاسقافة اليعقوبيين فى حلب أثناء غزو هولاكو لها فبادر الى تقديم فروض الولاء للمغول .

ويتناول هذا الكتاب أخبار دولة المغول حتى نهاية حياة الايلخان (أرغون) سنة ٦٨٤هـ وبلغ من قيمة ا لكتاب أن ترجم الى عدة لغات أجنبية ومن الكتاب الذين تأثروا بابن العبرى رزق الله منقريوس الصدفى صاحب (تاريخ دول الاسلام) وعباس العزاوى صاحب كتاب(تاريخ العراق بين احتلالين) وغيرهما وخطورة هذا التأثر تتمثل فى أن ابن العبرى لميستطع أن يتخلى فى أثناء الكتابة عن انتمائه الدينى باعتباره من رجال الدين المسيحى.

ومن الكتاب المعاصرين للاحداث فى فترة متأخرة نسبيا ابن طباطبا صاحب (كتاب الفخرى فى الاداب السلطانية) غير أن نزعته الشيعية أثرت فى كتابته ويتجلى ذلك فى دفاعه عن الوزير الشيعى ابن العلقمى ولقد تأثر به كتاب كثيرون منهم الدكتور جعفر حسين خصباك فى كتابه(العراق فى عهد المغول الايلخانيين) والدكتور حسن ابراهيم فى كتابه (تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الرابع) وحسن الامين فى كتابه (الغزو المغولى)، وغنى عن البيان مدى خطورة هذا التأثر.

ومن الكتاب الذين عاصروا الاحداث أيضا ابن الفوطى مؤلف كتاب(الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى أخبار المائة السابعة) ، وترجع أهمية ما كتبه ابن الفوطى بالاضافة الى المعاصرة الى أنه تولى الاشراف على المكتبات التى أقامها الجوينى فى بغداد والطوسى فى تبريز مما أتاح له ثقافة عميقة ودراية تامة بما كان يجرى حوله من أحداث .

وأهم ما يصادف الباحث فى كتابى المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك) و(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) وكذلك(صبح الاعشى فى صناعة الانشا) للقلقشندى هو مايذكره كلاهماعن مواد قانون (الياسا) الذى التزم به المغول بعد جنكيز خان لفترات طويلة.

وعلى نفس النمط تقريبا سار القرمانى صاحب كتاب(اخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ) وان عابه أحيانا التمسك بالمحسنات البديعية المتكلفة .

٢ - المصادر الفارسية :

وتلك لاغنى عنها على الاطلاق عند كتابة تاريخ المغول الذى كتب أول ما كتب فى عهد المغول الايلخانيين فى ايران منذ عهد هولاكو خان.

وتظهر قيمة بعض هذه المصادر فى أن أصحابها كانوا معاصرين للاحداث ومتأثرين بها ومؤثرين فيها أحيانا مثل عطا ملك الجويني صاحب كتاب (تاريخ "جهانكشاى") أى تاريخ قاهر العالم (جنكيزخان) فقد كان الجوينى على صلة بالامير (أرغون) الاويراتى حاكم ايران قبل عهد الايلخانيين فكان هذا الامير يصحبه فى زياراته لمنغوليا ليسجل له ما يجرى هناك أثناء عقد (القوريلتاى) أى الاجتماع العام. ولقد أفاد الجوينى ولا شك من ذلك كثيرا . ثم تولى الجوينى الادارة المدنية فى بغداد منذ عهد هولاكو وحتى وفاته سنة ٦٨١ هـ ، مما أتاح له أن يكون على صلة وثيقة بالاحداث فى عصره.

ولقد أعطى هذا كله قيمة ممتازة لما احتواه كتابه (تاريخ جهانكشاى) .

ويلى ذلك فى الترتيب الزمنى الكتاب الشهير (جامع التواريخ) لرشيد الدين فضل الله الهمذانى وزير السلطان محمود غازان." أى أن رشيد الدين كان يشغل وظيفة رسمية فى البلاط وتحت يديه السجلات الرسمية للدولة . بل ان غازان نفسه قد ساعد فى ذلك حين أعطى رشيد الدين السجل الرسمى لتاريخ المغول منذ عهد جنكيزخان بل وافاض كثيرا من المعلومات التى كان هو شخصيا يعرفها أو من حوله ممن كانوا على دراية بهذا التاريخ .

وتتضح قيمة الكتاب فى اتساع دائرته وارتفاع مستوى الاداء فيه حتى انه ليعد بحق موسوعة ممتازة فى تاريخ المغول والامم التى اتصلت بهم حتى مطلع القرن الثامن الهجرى.

ولعل ذلك يفسر سبب اعتماد المراجع الاوربية والمعاصرة على ما ورد بهذين السفرين خاصة وبالمصادر الفارسية بوجه عام .. ولقد أفاد هذا البحث من ذلك كله بطريقة أو بأخرى.

٣ — <u>كتب الحضارة :</u>

وهى الكتب التى تتناول خصائص الحضارات وقدراتها على هضم الغزوات العسكرية بمرور الوقت بل وتهذيب الغزاة وصقلهم ووضعهم فى مكانهم الصحيح بالنسبة لحضارات البشرية. ومن أفضل ماكتب فى ذلك وأفاد البحث فائدة عظمى :

(أ) <u>موسوعة النظم والحضارة الاسلامية :</u> للاستاذ الدكتور أحمد شلبى

وقد أفادت البحث كثيرا فى التخطيط العام الذى انتهجه ،وبأفكار واضحة عن تكوين الحضارات ومقوماتها وبخاصة الحضارة الاسلامية، مما أتاح لهذا البحث الحكم على موقف المغول من الحضارة سلبا وايجابا.

ولا يقل عن ذلك فى الاهمية ماورد فى (موسوعة التاريخ الاسلامى) عن تاريخ المغول فى عهد (جنكيزخان — هولاكو — تيمور لنك).

(ب) <u>سلسلة مقارنة الاديان :</u>

وقد أفاد البحث منها كثيرا عند الكتابة عن أديان المغول حيث تعرض صورة واضحة عن البوذية واليهودية والمسيحية والاسلام.

(جـ) <u>كتب الحضارات العامة :</u>

وتلك أفاد البحث منها فيما يتعلق بحياة المغول فى الصين ومنغوليا ومنها :

— تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) لادوار بروى.
— شجرة الحضارة لرالف لنتون .
— قصة الحضارة لول ديورانت .

٤ — كتب الجغرافيا وعلم السلالات :

وقد أتاحت فرصة طيبة للتحقق من أماكن وجود القبائل المغولية والتركية التي جاورتها وكذا اعطاء صورة واضحة عن حالات المناخ والتضاريس والرياح والامطار فى منغوليا وما حولها .

كما ساعدت هذه الكتب كثيرا فى بيان اثر البيئة فى التكوين الجسمى والنفسى عند المغول .

أما النتيجة المهمة التىساعدت فى الوصول اليها فكانت التفرقة فى الاصل بين المغول والاتراك ،وعلى عكس معظم الاراء فى هذا الشأن .

وبالاضافة الى ذلك أوضحت هذه الكتب العديد من الظواهر الاجتماعية عند المغول مثل .. التبنى — علاقة الاسر المغولية — الزواج ، وتنقسم هذه الكتب نوعين :

(أ) كتب الجغرافيين القدامى :

منهم زكريا بن محمد بن محمود(القزوينى)صاحب(كتاب اثار البلاد وأخبار العباد) ، فقد أفاد البحث فى اعطاء صورة واضحة عن بعض المدن الاسلامية كالرى وأصفهان وسمرقند قبل الغزو المغولى وبعده .

أما كتبه ابن بطوطه فى كتابه (تحفة النظام فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار) وهو رجالة عربى زار معظم بلاد المغول بعد حوالى قرن من الزمان فيعطى كثيرا من الانطباعات عن نتائج الغزو المغولى والاثار التى ترتبت عليه وعلى استقرار المغول بين الشعوب التي خضعت لهم .

(ب) كتب الجغرافيين المحدثين :

وقد أفاد البحث منهم فكرة واضحة — بالاضافة الى ما سبق — عن السلالات والاجناس البشرية بصفة عامة ومن هؤلاء :

- كتاب .. أنماط من البيئات للدكتور جمال حمدان
- كتاب جغرافية السلالات البشرية للدكتور ابراهيم رزقانه
- كتاب تطور الجنس البشرى للدكتور محمد السيد غلاب.

٥ — المراجع الاجنبية :

وتتميز هذه بأنها لا تعرض للحدث كما هو وانما تلقى عليه ظلالا من الرأى والذى يمكن أن نسميه فلسفة الحدث التاريخى غير أن هذا أيضا له خطورته فكثيرا ما تحكمت في هؤلاء نزعاتهم الدينية و اتجاهاتهم العنصرية غير أن هذا لايقلل كثيرا من قيمة هذا المرجع التى من أهم مؤلفوها :

أ — المستشرق الروسى بارتولد

وله ثلاث مؤلفات تتميزبالدقة البالغة والجدة واتساع دائرة البحث بالقياس الى غيره من الكتاب الاوربيين . وهى :

- تاريخ الترك فى آسيا الوسطى .
- تاريخ الحضارة الاسلامية
- تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى .

ب – المستشرق المجرى أرمنيوس فامبرى :

ويمتاز كتابه (تاريخ بخارى) بالاحاطة التامة بمعظم ما يرتبط بتاريخ هذه المدينة وخصوصا فى عهد الجنكيزخانيين والجغتائيين التيموريين كما يسميهم . غير أن نظرة التعصب تظل أحيانا من بين ثنايا الكتاب خصوصا عند الحديث عن الاسلام كحضارة أو نظم وادارة ولا يقلل هذا من قيمة الكتاب كثيرا ، لانه يتناول تاريخ تركستان بالاضافة الى تاريخ بخارى .

ج – المستشرق الانجليزى جرانفيل براون :

ويتميز كتابه (تاريخ الادب فى ايران من الفردوسى الى السعدى) بالاضافة الى النواحى الادبية الى عرض لبعض المواقف الاجتماعية فى حياة المغول .. رغم أنه لا يكاد يرى فى المغول من عناصر الايجاب سوى مزاياهم العسكرية .

د – المؤرخ الامريكى هارولد لامب :

وقد ركز فى مؤلفيه (جنكيز خان امبراطور الناس كلهم) ، (جنكيز خان و جحافل المغول) على حياة جنكيزخان تركيزا واضحا ومفيدا كما أنه استقى معظم معلوماته مما كتبه الراهب وليام روبرك مبعوث الكنيسة الكاثوليكية الى بلاط المغول فى (سرائ) و (قراقورم) مما اضفى على كتاباته الكثير من الواقعية والدقة ، وهو نفس المنهج تقريبا الذى اعتمد عليه ول ديورانت وادوار بروى ورالف لنتون وغيرهم فقد اعتمدوا بالاضافة الى مذكرات وليام روبرك على مذكرات الراهب الذى سبقه دى بيلانو كاربينى الذى زار بلاط المغول فى عهد الخاقان الاعظم كيوك . وأيضا الى ما كتبه الرحالة التاجر البندقى الشهير ماركوبولو الذى أمضى عشرين عاما فى كنف الخان الاعظم قوبيلاى فى الصين .

ومن المؤكد فان البحث أفاد تماما من الاطلاع على هذه المصادر المختلفة التى تحدثت عن تاريخ المغول غربية أو فارسية او أجنبية بالاضافة الى كتب الرحلات والجغرافيين ، وكتب الحضارة الاسلامية . كما استفاد البحث مما كتبه الدكتور فؤاد الصياد عن المغول فى كتبه .

- المغول فى التاريخ
- مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى
- الشرق الاسلامى فى عهد الايلخانيين (أسرة هولاكو)

فقد كانت هذه المؤلفات الثلاث مما أفاد البحث كثيرا وبخاصة عن حياة المغول فى منغوليا وايران وماحولها فى اتجاه الغرب كالمواقع الحربية التى خاضها المغول ضد المماليك الشام والاناضول وحتى حدود العراق .

كما أفاد البحث أيضا مما كتبه المؤرخين الفاضلين رحمهما الله :
الدكتور مصطفى طه بدر فى كتابيه

- محنة الاسلام الكبرى (زوال الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول)
- مغول ايران بين المسيحية والاسلام.

والاستاذ حافظ أحمد حمدى فى كتابيه :

- الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى .
- الدولة الخوارزمية والمغول .

بقى فى نهاية الحديث هنا أن أشير الى كتاب وثائقى على درجة عالية من الخطورة والاهمية • ذلك هو كتاب الدكتور محمد ماهر حمادة (وثائق الحروب الصليبية والغزوالمغولى) فصاحبه استاذ متخصص فى فنون المكتبات العامة • ومن هنا فالكتاب يعرض الوثائق والرسالات التى تبادلها المغول مع خصومهم وحلفائهم وعلى سبيل المثال يعرض الكتاب رسالة الايلخان المسلم أحمد تكودار الى السلطان قلاوون فى مصر فيورد نص الرسالة عند رشيد الدين والمقريزى والقلقشندى وابن كثير وغيرهم ويقارن بين صيغ هذه النصوص مجتمعة •

محتويات الرسالة :

يتضح من عنوان الرسالة "المجتمع المغولى فى عهد الاباطرة العظام من جنكيز خان الى قوبيلاى قا آن من ٦٠٣هـ - ٦٩٣ هـ ، انها تتناول حياة المغول فى عصر القوة العسكرية•• الذى ينقسم فترتين بصفة عامة : فترة الصراع الحربى المرير ضد الشعوب الاخرى غير المغولية وتمتد الى نقطة الهزيمة فى عين جالوت على أيدى المصريين سنة٦٥٨هـ لتبدأ فترة جديدة هى فترة الاستقرار بين الشعوب المغلوبة والتعايش معها والامتزاج بها•

على أن الرسالة تبدأ فى الواقع قبل هذا التاريخ ٦٠٣ هـ لتتناول حياة جنكيز خان قبل توليه عرش الخاقانية وتمتد الى ما بعدسنة ٦٩٣ هـ الى نهاية عهد غازان خان المسلم فى سنة ٧٠٣ هـ ، لان ماجرى فى عصر غازان يعتبر نتيجة حتمية لما سبقه من أحداث•

أبواب الرسالة :

وتنقسم الرسالة الى أربعة أبواب :

الباب الاول : المجتمع المغولى (تكوينه ومظاهر حياته)

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :

الفصل الاول : (بيئة المغول)

ويتناول عرض جغرافى للبيئة التى نشأ فيها المغول ثم بيان أثرها على التكوين الجسمى والنفسى عند المغول وكذا معالجة لاصل المغول وصلتهم بالاتراك وأشهر قبائلهم فى منغوليا•

الفصل الثانى: (عناصر السكان)

ويشمل الحديث عن الرعاة - الزراع - الصيادين - المحاربين - التجار - الصناع العبيد - الجاليات الاجنبية •

الفصل الثالث : (الحياة العامة)

ويشمل الحديث عن العواصم المغولية - الاسواق - المنشآت الاجتماعية ووسائل التسلية عند العامة- المآتم والاحزان - المقابر وطقوس التشيع والدفن•

الباب الثانى : (النظام الاجتماعى والاسرة فى المجتمع المغولى)

ويشتمل على أربعة فصول :

الفصل الاول : (حياة الاسرة فى المجتمع المغولى)

ويتحدث عن موقف الياسا من الاسرة وبعض الظواهر الاجتماعية المهمة على مستوى الاسرة ثم يعرض الى السكن المغولى والطعام عند المغول والمظهر العام للافراد•

الفصل الثاني (حياة المرأة بوجه خاص)

ويحتوى على المكانة الممتازة للمرأة فى المجتمع المغولى وأشهر نساء المغول ودورالمرأة فى الشئون السياسية و العسكرية والدينية وكذا واجباتها على مستوى الاسرة ثم يعرض لعلاقة الزواج فى المجتمع المغولى .

الفصل الثالث : (الامراض الاجتماعية)

ويشتمل علي بيان لاهم هذه الامراض وموقف الياسا منها.

الفصل الرابع: (الملامح الاجتماعية)

ويشتمل على التكوين الاجتماعى عند المغول (الاسرة ــ العشيرة ــ القبيلة) .

وكذا مدى قدرة المغول على التكيف مع الطبيعة والتوافق مع المجتمع وعرض لبعض الظواهر الاجتماعية البارزة فى المجتمع .

الباب الثالث (الحياة العلمية و الدينية)

ويشتمل على فصلين اثنين :

الفصل الاول : (العلوم والفنون والآداب)

ويتناول النشاط التعليمى عند المغول والمؤسسات العلمية والادبية لديهم وحركة الترجمة والتأليف وكذا حركة البناء والتعمير والفنون المختلفة .

الفصل الثانى : (أديان المغول)

ويشتمل على دور رجال الدين وأثرهم فى الحياة الدينية، الحرية الدينية عند المغول والطقوس ودور العبادة وأثر الاديان المختلفة على حياة المغول (الشامانية ــ البوذية ــ اليهودية ــ المسيحية ــ الاسلام) .

الباب الرابع (الخان الاعظم وشئون الحكم)

وينقسم هذا الباب اربعة فصول :

الفصل الاول : (الحياة الخاصة للخان)

ويشتمل على بيان لتطور مقر الخان وحرسه ودور الاتباع المقربين ثم الحياة الخاصة للخان (ثقافته ــ هيئته ــ زواجه ــ وفاته) .

الفصل الثانى : (شئون الحكم والحياة الرسمية)

ويشتمل على نظم البروتوكول ،المؤتمر العام(القوريلتاى) الكيفية التى يتعامل بها الخان فى بلاطه مع الاخرين.

الفصل الثالث(السياسة والاقتصاد فى المجتمع المغولى)

ويشتمل على النظام الادارى والاجهزة المنبثقة عنه، وعلاقة الاقتصاد بالسياسة فى المجتمع المغولى .

الفصل الرابع (الحياة العسكرية)

ويشتمل على عرض عام لمختلف القضايا العسكرية مثل تكوين الفرق المعسكرات ــ التخطيط للحرب ــ الاسطول الحربى ... الخ

خاتمة الرسالة : وتدور حول نقطتين أساسيتين :

١ ــ لماذا صمد المجتمع المغولى ؟ ولماذا انهار ؟
٢ ــ أثر المغول فى الحضارة سلبا وايجابا ؟

الجديد الذى توصلت اليه الرسالة :

١ ــ تعتبر خطة البحث ذاتهاتخطيطا جديدا لانها عالجت الموضوع بشكل مختلف اذ أضحى التركيز على الجانب الاجتماعية والثقافية والدينية ٠٠ ونظم الحكم والادارة وتكوين الجيش المغولى ٠

٢ ــ يعتبر البحث قاعدة جديدة يمكن أن تتفرع عنها بحوث مستقلة فكل ناحية من نواحى البحث تصلح لان تكون بحثا مستقلا فى حد ذاته ٠

٣ ــ يقول البحث أن المغول منفصلون عن الاتراك من ناحية أصل الجنس ومعظم الاراء السابقة نرى ان المغول أتراك او العكس ٠

٤ ــ عرض البحث لتقسيم أهم القبائل المغولية بشكل جديد أكثر شمولا وتحديدا عن ذى قبل ٠

٥ ــ عرض البحث لعناصر السكان فى المجتمع المغولى بشكل أوضح مع بيان الظروف المختلفة التى كانت تحيط بكل هوءلاء ٠

٦ ــ عرض البحث للعواصم العديدة التى ظهرت فى دولة ا لمغول غير قراقورم مثل بكين ، ببريز ، آلماليق ، سرائ الاولى والثانية، ٠

٧ ــ الترميز على الجوانب الاجتماعية عند المغول مثل الاوقاف ، المستشفيات ، الملاجئ

٨ ــ بيان كيف ان المغول يستمتعون بأوقات فراغهم ٠

٩ ــ وقفة مع طقوس المغول الغريبة اثناء الجنازات وأسباب اخفائهم لمقابر الخانات٠

١٠ ــ عرض ظواهر اجتماعية نادرة فى المجتمع المغولى مثل (التبنى ــ ا لفخر بالانساب وراثة الابن لاصغر) ٠

١١ــ بيان طبيعة العلاقات داخل الاسرة المغولية وخارجها ٠

١٢ ــ عرض صورة كاملة لتكوين السكن المغولى وكل مايتصل به ٠

١٣ ــ التركيز على الحياة اليومية عند المغول مثل الطعام ، والنوم ،والمظهر العام للافراد ، والنظافة ٠

١٤ــ بان المكانة ا لممتازة للمرأة فى المجتمع المغولى ٠

١٥ ــ عرض سريع لاشهر نساء المغول ٠

١٦ــ بيان دور المرأة المغولية فى ممارسة الشئون السياسية والعسكرية والدينية والاجتماعية ثم عرض مركز لعلاقة الزواج داخل المجتمع المغولى ٠

١٧ــ عرض لاهم الامراض الاجتماعية التى كانت تعترى المجتمع المغولى وبيان موقف الياسا منها ٠

١٨ــ رسم صورة واضحة للتكوين الاجتماعى عند المغول على مستوى الاسرة والعشيرة والقبيلة ثم الدولة ٠

١٩ــ عرض لاهم الظواهر الاجتماعية البارزة فى المجتمع المغولى ٠

٢٠- توضيح مدى قدرة المغول على تحقيق التوافق والتكيف مع ظروف المجتمع المغولى.
٢١- بيان كيف تغيرت نظرة المغول الى العلم والعلماء وأهم المؤسسات العلمية التى ظهرت فى عهدهم .
٢٢- بيان نشاط حركة الترجمة والتأليف فى عهد المغول .
٢٣- عرض تطور الفنون المختلفة نتيجة للاتصال بين الحضارات فى عهد المغول .
٢٤- بيان مراحل التطور الدينى عند المغول ودور رجال الدين وأثر الاديان فى حياة المغول .
٢٥- عرض سريع للحياة الخاصة للخان المغولى (ثقافته - هيئته - الزواج - الوفاة)
٢٦- تطوير اساليب العمل السياسى لدى المغول فى مختلف شئون البروتوكول .
٢٧- بيان طبيعة النظام الادارى عند المغول وعلاقة الاقتصاد بالسياسة فى هذا المجتمع
٢٨- رسم صورة واضحة عن كل ما يتعلق بالجيش المغولى وبخاصة الاسطول الحربى.
٢٩- بيان الاسباب التى أدت الى سرعة انهيار الامبراطورية المغولية .
٣٠- بيان أثر المغول فى الحضارة سلبا و ايجابا .

الصعوبات التى واجهت الباحث :

١ - عدم العثور على بعض الكتب المهمة التى ترتبط بالبحث وتؤثر فيه .
٢ - عدم وجود ترجمات لمعظم المصادر الفارسية التى تتناول هذه الحقبة الخطيرة مثل الجوزجانى صاحب كتاب (طبقات ناصرى) ووصاف الحضرة صاحب كتاب(تاريخ الوصاف) وغيرهما .
٣ - التضارب الشديد فى آراء معظم المؤرخين فيما يتعلق ببعض المواقف كدفاع الكتاب الشيعة عن ابن العلقمى مثل ابن طباطبا ، حسن الامين، الدكتور جعفر حسين خصباك ، وآخرين.
٤ - اصرار بعض المؤرخين على الدفاع عن المغول بالحق أو غيره - وفى الجانب الاخر تمسك الكثير من المؤرخين بالهجوم على المغول وبيان مثالبهم .
٥ - طول فترة البحث فهو يمتد الى أكثر من مائة عام من حياة هذا المجتمع ويشغل مساحة تبلغ معظم آسيا وجزءا من أوربا.
٦ - تركيز معظم المؤرخين على النواحى العسكرية دون غيرها من النواحى الاخرى كشئون الاقتصاد والسياسة أو الشئون الاجتماعية .
٧ - ندرة ما كتب عن تاريخ التركستان والقبجاق فى عهد المغول .

وفى نهاية المطاف أكون قد قصدت بهذا العمل ارضاء وجه الله الكريم أولا ثم مؤازرة ما بذله من جهد الاستاذ الدكتور أحمد شلبى الذى تفضل بالاشراف على البحث وتوجيهه وارشاده فى الكثير من الخير.

وانى لارجو الله أن يلقى عملى هذا قبولا عنده سبحانه وتعالى وأن ينال استحسان القراء.

والله الموفق لما فيه خير العباد .

الباحث

الباب الأول

المجتمع المغولـــــى

تكوينه – مظاهر حياتـــــه

الفصل الأول

بيئة المغـــــول

١ ـ جغرافية السكان (بيئة الاستبس)
٢ ـ أثر البيئة فى التكوين الجسمى والنفسى عند المغول ٠
٣ ـ أصل المغـول ٠
٤ ـ القبائل المغولية :

- قيـــات ٠
- التتـــار
- الاوبـــرات
- المركيـــت
- التانجـوت
- الكرايـــت
- النايمـــان
- القراخطائيـون

(الكرايت، النايمان، القراخطائيون) قبائل مغولية تركية

- الاويغـــور
- القرغيـــز
- القارلـــوق

(الاويغور، القرغيز، القارلوق) قبائل تركية خالصة (اشتد اختلاطها بالمغول)

بيئة المغـــــول

الموقع الجغرافـــــى :

كان المغول فى الأصل قوما من الرعاة يعيشون فى الهضبة الآسيوية الفسيحة التـى تعرف بهضبة منغوليا وهى تمتد من أواسط آسيا الى جنوبى سيبريا وشمالى التبت وغربـــى منشوريا وشرقى التركستان (١) وبعبارة أخـرى تنحصر بين جبال (آلتاى) غربا وجبـــال (خنجان) شرقا ٠

وجدير بالذكر أن هضبة منغوليا التى تضم مجموعة واسعة من الأراضى التى ينـدر وجود الماء فى بعض جهاتها تكوّن حاجزا منيعا بين الأقاليم الحارة فى الصين وبين الأراضـى الباردة فى سيبريا" (٢) وبهذا التحديد يمكننا أن نقول ان حياة المغول تدخل ضمن اطـار منطقة الاستبس" ٠ (٣)

التضاريـــس :

يمكن تقسيم هضبة منغوليا التى تقع فى قلب آسيا وقد أحيطت من جميع الجهـــات تقريبا بسلاسل جبلية مرتفعة (٤) على النحو التالى :

١ ـ المنطقة الشماليـة :

ويتمثل الجزء الغربى منها فى وادى البحيرات الذى يفصل بين سلسلتى (آلتـــاى) فى الجنوب و(قانو أولا) فى الشمال (٥) وتنساب بين جبال هذا الجزء الفروع العليـــا لأنهار أوبى وينسى ولينا ٠ (٦)

أما الجزء الشرقى فيتمثل فى نطاقات الأودية النهرية التى تتألف منها أنهار سيلنجـا الذى يتجه صوب الشمال الشرقى ليصب فى بحيرة بيكال بالاضافة الى أنهار كرولين وأونـــون وهما من روافد نهر أمور ٠ (٧)

٢ ـ المنطقة الجنوبيـة :

وتشمل صحراء جوبى التى تشغل النصف الجنوبى من منغوليا حيث تمتد فى شكـل هضبة مموجة السطح يتراوح ارتفاعها بين ٢٧٠٠ : ٤٥٠٠ قدم فوق منسوب سطح البحـر ولا تشغل الكثبان الرملية سوى ٥٪ من جملة مساحة هذه الصحراء على حين تغطـــى الحصباء معظم جهاتها ٠ (٨)

---

(١) د٠ أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، جـ٧ ،ص ٧٣٥٠

(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ،ص ١٠٨

(٣) استبس ٠٠ كلمة روسية بمعنى أرض فسيحة بلا شجر ولكن تغطيها الأعشاب المعتدلة ثم توسع معناها ليشمل كل السهوب فى أواسط القارات خاصة آسيا٠
د٠ جمال حمدان، انماط من البيئات ، ص ٥٤٠

(٤) د٠ يوسف فايد: جغرافية المناخ والنبات ،ص ٢٣٧

(٥) د٠ محمد خميس الزوكة : آسيا٠٠ دراسة فى الجغرافيا الاقليمية ص ٣٥١

(٦) د٠ مصطفى طه بدر ، محنة الاسلام الكبرى ،ص ٤٩

(٧) د٠ محمد خميس الزوكه : آسيا، دراسة فى الجغرافيا الاقليمية ص ٣٥٢٠

(٨) المرجع نفســه ، ص ٣٤٩٠

ولا يوجد بهذه المنطقة أنهار الا على الحافات فقط اذ تسير من جبال خنجان بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حتى تصل الى جوبى.(١)

وهذه التضاريس على ما فيها من وعورة اكسبت المغول قدرة فائقة على ممارسة الوان الحياة الخشنة والقتال فى مختلف الميادين سواء أكان ذلك فى السهول الجرداء أم الهضاب ام المرتفعات الشاهقة حيث لم يقف حاجز طبيعى أيا كان نوعه حائلا دون المغول فى غزواتهم فالاستاذ ج.ف. انستد يقول" فى شمالى هضبة التبت تقع مرتفعات البامير (سقف العالم) ويجرى من هذه المرتفعات الى الشمال الشرقى جبال (تيان - شان) وغيرها من الجبال المتاخمة لهضبة منغوليا وتركستان وتمثل هذه الجبال والأحواض المرتفعة بالاضافة الى هضبة التبت ما يعرف (بآسيا الشاهقة) قلب القارة الآسيوية".(٢)

وعلى الرغم من ذلك فقد انساح المغول جنوبا فى اتجاه الصين واسقطوا أسرة سونج التى كانت تحكم أقاليم الصين الجنوبية وكانت تتخذ مدينة "هانج تشو" عاصمة لها(٣) وكذلك سقطت فى أيديهم مملكة الثانجوت وكان المغول قد اسقطوا قبلا أسرة كين Kin التى سيطرت على ممالك الصين الشمالية واتخذت من بكين - خلف السور العظيم - عاصمة لها كما اتجه المغول شرقا صوب كوريا وغربا فى اتجاه ممالك القراخطائيين وممالك الدولة الخوارزمية فى الجنوب الغربى فأوقعوا بكل أولئك تقريبا فى وقت وجيز لا يتعدى بضع سنين.

<u>المنــــاخ :</u>

السمة الغالبة على المناخ فى المنطقة التى عاش فيها المغول هى القارية(٤) وهذا المناخ القارى واضح تماما بين الفصول الأربعة بل وبين الليل والنهار ، ولذا فمناخ هضبة منغوليا شديد القسوة يندر وجود نظير له فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة او البرودة وفى جفافه الشديد وكذلك فى قوة الرياح العاصفة التى لاحد لها.(٥)

ويقول هارولد لامب " ان المناخ لايثبت على حال واحدة حتى فى أواسط الصيف وان الرعد والبرق الذى يودى بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع كما أن الثلج يتراكم بكميات وفيرة . والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب الى حد يصعب معه بقاء الرجل على سرجه.(٦)

<u>الريــــاح:</u>

تهب الرياح الشديدة فى معظم أيام السنة فتحمل معها الحصى وترسله الى مسافات بعيدة فتكون مواجهتها بذلك مستحيلة(٧) وهى فى الفضاء المنبسط الخالى من الاشجار قوية وقد تكون عاصفة جدا أحيانا ولذلك فالغبار قاعدة الصيف وتكاد تكون الأعاصير الثلجية قاعدة

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ،ص ١٠
(٢) ج.ف. أنستد: عرض جغرافى للعالم ص ٢٣
(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٥
(٤) د. يوسف فايد : جغرافية المناخ والنبات ، ص ٢٣٧
(٥) د.مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ، ص ٤٩
(٦) د. هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص٦، ترجمة بهاء الدين نورى.
(٧) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ،ص ٤٩.

ثابتة وهى عادة ما تكون مميتة لكثير من القطعان وتأتى هذه الأعاصير من الشمال دائما [(١)] ، أما فى الجنوب فتهب الرياح الموسمية الشرقية التى قد تأتى معها ببعض الامطار. [(٢)] ويقـــول عن أثر الرياح فى حياة المغول " أما الخطر الأعظم فى البرارى فمصدره عواصف الشتاء الثلجيـة عندما تهب ريح الشمال عبر بحيرة بيكال المتجمدة مكتسحة كل شئ فى طريقها ". [(٣)]

الأمطـــــار :

تمثل هضبة منغوليا اقليما داخليا قفرا فالجبال المحيطة بهذه الهضبة تمنع الريـــــاح الدائئة الممطرة فى فصل الصيف من السقوط . ولهذا فالمطر قليل يكاد ينحصر فى فصـــــل الربيع وأوائل الصيف فهو مطر تتذبذب كميته فى هذا الاقليم من سنة لأخرى. [(٤)]

وهناك فترتان من الجفاف الأولى فى قلب الصيف والثانية فى قلب الشتاء حيث تتجمـد الرطوبة الموجودة فى التربة وبهذا فالمناخ المغولى يتميز بالجفاف الشديد بصفة عامة. [(٥)]

ولعله يمكننا تتبع حركة فصول السنة على النحو التالى:

× الشتـــــاء :

يعتبر الشتاء أطول فصول السنة وتستمر البرود غالبة فى معظم العام اذ يتجمد الماء فى المنخفضات حتى شهر مايو من كل عام" ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب فى شهـر أغسطس" .

وتنخفض درجة الحرارة حيث تصل فى بعض الجهات الى ٥٨ درجة تحت الصفر [(٦)] " ، وكثيرا ما اضطر المغول الى طلاء أبدانهم بالشحم اتقاء للبرد والرطوبة ومع هذا فليس مـــــن النادر أن تراهم يجمدون بفعل البرد القارص [(٧)] .

ولهذا يمثل الشتاء فترة حرجة تؤدى الى التجمع فالرياح الشديدة الدورة والسرعة تمثل خطرا يتهدد الانسان والحيوان ولامناص من الاحتماء السريع بالأودية العميقة للأنهار حيث توجد أروقة غابية تتكسر عليها حدة الرياح وحيث يوجد مرعى أغنى نسبيا . [(٨)]

× الربيـــــع :

وهو فصل الحركة السريعة لأنه فصل قصير تتحسن فيه الأحوال المناخية عن فصـــل الشتاء ولابد من البحث سريعا عن مراع أكثر وفرة فى الغذاء والاستقرار ويمثل أواخر هـــذا

---

(١) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٥٥
(٢) د. يوسف فايد : جغرافية المناخ والنبات ،ص ٢٣٧
(٣) جنكيز خان وجحافل المغول ، ص ٣٢
(٤) د. على حسين الشلش : الاقاليم المناخية ص ١٣٠
(٥) د. محمد محمود الصياد : هذا العالم ،ص ٢٦٧
(٦) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ٤٩
(٧) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٣١
(٨) د. جمال حمدان : انماط من البيئات ،ص ٥٧

الفصل فترة يسر نسبى حيث يسقط المطر وينمو المرعى ويزدهر.(١)

× الصيـــف :

وهو فصل قصير أيضا تبلغ درجة الحرارة فيه ٦٠ درجة مئوية.(٢)

ولهذا يحترق المرعى تحت أشعة الشمس فتبدأ حركة الهجرة من جديد سعيا وراء المرعى ونظرا لأن غنى البقعة الواحدة بالمطر والمرعى يتفاوت من سنة لأخرى فان الارتباط بـــأرض معينة يصبح شيئا لا أهمية له ولذا لا تظهر ملكية المرعى فى هذا الفصل كما تظهر فى فصـل الشتاء.(٣)

× الخريـف :

وهو فترة يسر نسبى تتحسن فيه الظروف المناخية – كفصل الربيع – ويسقط بعـــض المطر فى القطاع الجنوبى من هضبة منغوليا ولذا فالحركة الرعوية أبطأ ويمكن للحيوان أن يسمن على أنه فى أواخر هذا الفصل يشتد البرد وتلزم العودة السريعة الى منازل الشتاء السابقة.

ولعله يتضح مماسبق أن الاستقرار المناخى يكاد ينعدم فى هضبة منغوليا فالأمطـــار قليلة ومتفاوتة من مكان لآخر ومن فصل لغيره والرياح لا تكاد تهدأ والحرارة تنخفض وترتفـــع فى معدلات غاية فى التباين، والجفاف قائم فى فصلين من فصول السنة.

كل ذلك يجعل ظاهرة المرعى المستقر الثابت لاوجود لها فى معظم فترات السنـــــة ، ومن ثم فحياة التنقل والترحال هى السمة الغالبة على حياة السكان فى المجتمع المغولـــــى

النبـــات:

فى بيئة الاستبس يمنع برد الشتاء نمو الحشائش والنباتات العشبية ولكنها تستأنـــــف نموها فى الربيع وأوائل الصيف بنوع خاص.

وفى منتصف الصيف تذبل الحشائش ثم تموت نتيجة للحرارة الشديدة ومع الخريف يحدث نمو آخر واضح وان كان أقل شأنا فى بعض النباتات قبيل أن تختفى بحلول فصل الشتاء(٤) وبصفة عامة تختلف كثافة هذه النباتات العشبية حسب كمية المطر ودرجة الحرارة والرطوبة.

واذا كان الجدب يمثل ظاهرة واضحة فى معظم الجهات فى هذه البيئة الا أن أكثـر الجهات جدبا وفقرا فى الحياة النباتية شمالى صحراء جوبى وحوض تاريم.(٥)

وكما يؤثر المناخ المتميز لبيئة الاستبس على الحياة النباتية فانه يجعل وجود الأشجار فى هذه البيئة أمرا شبه مستحيل لأن هذه الاشجار تحتاج الى رطوبة كافية فى التربة السفلى والى هدوء فى الرياح.(٦)

---

(١) د.جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٥٧
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١١
(٣) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٥٨
(٤) ج.ف.أنستد: عرض جغرافى للعالم ص ٢٣
(٥) د.يوسف فايد: جغرافية المناخ والنبات ص ٣٥٨
(٦) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ، ص ٥٥

على أن ذلك لم يمنع من وجود بعض الأشجار حول ضفاف الأنهار كما أن سقـــوط الأمطار على جبال التاى وتيان شان وغيرهما قد يسفر عن وجود شجرى فيها وتعد البتـــولا والأرز والشربين أهم الأشجار المنتشرة على سفوح مرتفعات منغوليا.(١)

الحيـــوان :

مشكلة الحيوان فى هذه البيئة هى قلة الغذاء والماء والغطاء النباتى ولذا فالحيوانـات الرئيسة قادرة على العدو والحركة السريعة أى من الحيوانات العداءة ويظهر هذا فى حوافرهـا كالخيل والغزال(٢) ولعل الطبيعة قد حبتها سمة العدو السريع فى هذه البيئة المكشوفة لأنها وسيلتها الوحيدة لمواجهة الحياة القاسية والافلات من الأعداء المتربصين.

وبالاضافة الى ذلك كان لديهم من الدواب ما يأكلون لحمها ويستخدمونها فى الركوب... وتلك تتمتع بقدرة عجيبة على الاحتمال والصبر فانها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبـات ولا تعرف الشعير.(٣)

أثر البيئة فى التكوين الجسمى والنفسى

من المعروف أن البيئة تترك بصماتها على حياة الانسان فى أى مجتمع كان ولعـــل ذلك يكون أكثر وضوحا فى البيئة الرعوية وبخاصة بيئة الاستبس النادرة فى اختلافها عن نمـاذج الحيوات الأخرى .. وعلى هذا فقد كان للبيئة أثر كبير فى حياة المغول وفى وتكوينهـــم الجسمى والنفسى.

أولا : التكوين الجسمـى :

يتمتع المغولى بتكوين جسمانى خاص يسهل تمييزه عن غيره من الأجناس الأخـرى اذ يمتاز المغول عموما بالقامة القصيرة والمتوسطة وشكل الرأس العريض، والسحنة المغولية لها سمات خاصة فالوجه عريض والبشرة صفراء سميكة والجبهة مرتفعة والأنف صغير وعظام الوجنات ناتئـة مما يبدو الأنف معه كأنما هو غائر فى الوجه كذلك فالعين المغولية منحرفة ذات جفن ثقيل(٤) كذلك تميز المغول بالشفاه الغليظة والذقون الجرداء كما كانت شعورهم سوداء خشنة مسترسلة وسيقانهم قصيرة معوجة وأجسامهم مكتنزة كالكتل".(٥)

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك ميزة أخرى توجد فى حوالى٩٠٪ من المغول وهـــى وجود الاسنان الكبيرة ذات الشكل الجاروفى.(٦)

ويرى الاستاذ(فلير) أن اللون الضارب الى الصفرة الذى تتصف به سلالات المجموعة المغولية يرجع الى أن الموطن الأصلى للمغول يمتاز بتطرف المناخ القارى مما يعرض أهلـــه لتقلبات المناخ بين الحار والقارس البرودة فكان لزاما لذلك أن يكون جلد الجسم السطحـــى

---

(١) د. محمد خميس الزوكة: أسيا .. دراسة فى الجغرافيا الاقليمية ص ٣٥٣
(٢) د. جمال حمدان: أنماط من الثبات ،ص ٥٦
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ١٣٨
(٤) د. محمد السيد غلابه: تطور الجنس البشرى، ص٢٩٧
(٥) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ،ص ٧
(٦) د.يسرى الجندى: السلالات البشرية ص ٢٦٢

سميكا مما يبعد الأوعية الدموية وبالتالى يعطى البشرة لونا ضاربا للصفرة"• (١)

ولعل فقر البلاد وقلة الغذاء وقسوة المناخ قد انعكس أثرهم فى نحول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منذ أمد بعيد كما أن البشرة السميكة والجفون المسترخية التى حباهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التى يتعرضون لها فى معظم أيام السنة• (٢)

أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم أوقاتهم على ظهور جيادهم ذات الركاب القصيرة ولهذا اتضح فيهم التناقض البين بين رشاقة فروسيتهم وبين مشيتهم القميئة المضحكة• (٣)

ويؤكد ادوار بروى أثر البيئة على التكوين الجسمى عند المغول حيث يقول" كان المناخ القاسى قمينا بتقوية صحة الأقوياء وبالقضاء على السقماء فى سن مبكرة فلا عجب اذ كان الشعب المغولى شعبا جلدا قوى الشكيمة فقد كان طبيعيا أن تفضى حياة القناصين الشظفة أو الرعاة فى قلب البطاح الى تطوير الأجساد وفقا لمقتضيات البيئة• (٤)

المغول خارج بيئتهم (الاستبس) :

واذا لاحظنا أن البيئة قد أكسبت المغول صفات جسمانية معينة كالجذع الضخم والقفص الصدرى القوى والسيقان المقوسة والبصر الحاد فانهم قد حملوا معهم نفس هذه الصفات خارج بيئة الاستبس وذلك أن العناصر المغولية التى استوطنت الهند خاصة اقليم البنغال كانت تمتاز بالرأس العريض والأنف المتوسط الميال الى الاستعراض والقامة القصيرة التى تتراوح بين ١٥٨ـ١٦٢ سم والشعر الكثيف على الرأس والجسم•

وقد جاءت هذه العناصر المغولية عن طريق المداخل الشمالية الشرقية للهند عبر ممرات الهملايا الشرقية• (٥)

وواضح أن هذه الصفات لا تختلف عن الصفات السابق الاشارة اليها الا فى مسألة الأنف ولعل مرجع ذلك الى التزواج بالأهالى فى اقليم البنغال •الذين ينتمون الى الجنس القوقازى •

مما سبق يتبين لنا أن المغولى سواء أكان فى بيئة الاستبس أم خارجه كان يتميز بصفات جسمانية واضحة لايختلف عليها ولا يقلل من ذلك استثناء على هذه المواصفات فمثلا كان جنكيز خان طويل القامة فارع الطول وحتى عندما جاوز الستين من عمره كان لايزال قوى البنية له جبهة عالية ولحية طويلة ناحلة وعينان صفراوان لاترمشان كعينى القطط• (٦)

---

(١) د• محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ص ١٤٩

(٢) د• مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٨

(٣) د• جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٦٠

(٤) د•ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٢٦٣

(٥) د• محمد الشرقاوى: ملامح الهند وباكستان ،ص ١٢٩ ،
د• محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ص ٢٩٤

(٦) الكاتب الصينى •ف•بان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٧
د• بارتولسد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٤٣

ثانيا : التكوين النفســى :

يمكننا القول أن راعى الاستبس المغولى كان يحمل طابع بيئته فى صورة صفات وخصائص اجتماعية ونفسية معينة قد تبدو ثابتة راسخة حينا وتبدو متغيرة متقلبة حينا آخر ويبدو أن نظرة المغول الى طبيعة العلاقات فيما بينهم كانت تختلف عنها فى العلاقات مع غيرهم.

فالمغولى لا يكذب قائده او زعيمه القول أبدا ولكنه مع الأعداء كذوب مخاتل لا التزام له بشئ من القيم أو المثل كالتى عرفت فى الفروسية عند المسلمين الفاتحين أو الفرسان النبلاء فى العصور الوسطى فى أوربا.

وسنحاول قدر طاقتنا استكشاف ملامح الشخصية المغولية فلعل ذلك يلقى الضوء على بعض مواقفهم حيال المجتمع الذى عاشوا فيه أو المجتمعات التى صارعوها.

أ ـ روح الجنديـة :

وتعد من أبرز سمات الشخصية المغولية، فالمغولى كان يعتبر نفسه محاربا خالصا فى خدمة الخان وأن حياته فى مجملها قد ارتبطت بالحرب المتصلة التى لاتنقطع.

ولعل ذلك الاحساس قد صار شيئا عاما لايرتبط بالرجل فقط وانما بالمرأة أيضا بل وبالخان نفسه" فعندما أخذ جنكيز خان يتحسس أثار الجروح التى كانت تغشى جسمه وجد أنه لم يكن قد عرف طوال الأعوام الأربعة والخمسين التى عاشها ـ آنذاك ـ سوى أعمال القتال التى لا هوادة فيها ولارحمة".(١)

ولما كان المغول مقاتلين بالفطرة فقد أجادوا فنون القتال وبرعوا فيها لدرجة جعلت بعض المؤرخين لايكاد يرى مزية لهم الا فى نظم حياتهم العسكرية(٢).

وفى الحقيقة كان للفروسية عند المغول مركز ممتاز فالمغول على اختلاف أعمارهم كانوا يقضون حياتهم على ظهر الحصان(٣).

فاذا ما حاولنا المقارنة بين روح الجندية عند المغول وعند غيرهم اكتشفنا مدى التفوق المغولى فالصينيون كانوا أثناء تفوقهم على قبائل الاستبس الرحل مشاة يعتمدون على كثرة العدد فلماتراجعوا أمام المغول احتموا وراء الأسوار العالية التى لم تجدهم شيئا أمام اصرار المغول وعنادهم.

أما خوارزم شاه (السلطان علاء الدين) فقد قال عنهم "انهم جنود ممتازون ومحاربون بسلاء لم أر لهم نظيرا فى الصبر على القتال والثبات فيه"(٤) والحق ما شهدت به الأعداء.

ويؤكد النسوى ذلك فى كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى.يقول : "وتمكن فى قلب السلطان علاء الدين من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما اذا ذكروا فى مجلسه يقول انه :

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ٩١

(٢) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٣

(٣) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ، ص ٦١

(٤) الكاتب الصينى .ف.يان. جنكيز خان سفاح الشعوب ، ص ٨٢

لم ير كرجالهم اقداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب.(١)

ومن المعروف أن هذا الشاه كان يمتلك آنذاك أكبر الجيوش الاسلامية ورغم ذلك لم يثبت للمغول فى معركة واحدة بل ظل يفر أمامهم من مكان الى مكان حتى مات غما فى جزيرة نائية فى بحر قزوين تاركا أعباء الدولة المتداعية على كاهل ولده وولى عهده جلال الدين منكبرتى الذى تداعى — بعد جهاد — أمام المغول أيضا . أما عن جنود الخلافة فى دار السلام فان الجندية كانت بلا روح حيث كانت الحياة العسكرية تمر بأحلك لحظات القصور والترهل. فلم تكن لتعدو أن تكون مجرد شكل خاو لا كيان له ولا قوة فيه يقول صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية نقلا عن صديقه ملك الدين محمد بن آيدمر الذى يقول : "كنت فى عسكر الدويدار الصغير لما خرج لمقابلة المغول بالجانب الغربى من مدينة السلام (بغداد) فى واقعتها العظمى سنة ٦٥٦ هـ فالتقينا بهم بنهر بشير من أعمال دجيل — فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ،وتحته فرس عربى وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفى يده رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولاسلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكسرة فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الأمر ما كان.(٢)

وهكذا كان ارتباط المغول بروح الجندية الحقة عاملا حاسما من عوامل النصر الذى أحرزوه كما كان الضعف والخذلان والمظهرية من عوامل هزيمة القوى المناوئة لهم.

ب — <u>الطاعة المطلقة</u> :

وقد ارتبطت الجندية عند المغول بمفهوم تأصل فى أعماق هذا الشعب الصلد وهو الطاعة المطلقة للقادة والثقة التامة فيهم ولعل ذلك كان يمثل فى البداية امكانية المواجهة أو النجاة من خطر الطبيعة الهوجاء وكذا القدرة على خوض الصراعات المتعددة مع القبائل الأخرى حول المرعى فى بيئة الاستبس القاسية(٣) وعلى هذا فقد دأب رجال القبائل بارادتهم على أن يبذلوا لسادتهم الطاعة العمياء وأدرك سادة القبائل من التجارب المريرة أنه لابد لهم أن يطيعوا الخان". (٤)

وهكذا كان المغول أطوع الناس الى أسيادهم (وقادتهم) فهم يبجلونهم ويوقورنهم ولايخونونهم فى القول أوالعمل". (٥)

وقد سأل جنكيز خان ذات مرة أحد قواده.. ماذا يقول الجنود فيما بينهم — فأجاب أنهم يقولون انهم كادوا يأتون على جميع ما تحت أيديهم من الأغنام وأن الخيل قد آتت على العشب كله حتى الجذور ولكنهم يقولون أيضا ان الخاقان أعلم منا بكل شئ وأنه لاريب سيقودنا عما قريب الى حيث نجد شبع البطون بطون الانسان وبطون الخيل على السواء.(٦)

---

(١) الفسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٤٨

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٦٩

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٣

(٤) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ص ٤١٧

(٥) هارولد لامب : جنكيز خان ،امبراطور الناس كلهم ص ٢٨

(٦) الكاتب الصينى ف. يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٠٧

ويقول براون " لقد كان المغول يمتازون بالنظام وطاعة الرؤساء.(١)

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الاخلاص أيضا كان دعامة لروح الجندية عند المغول فالاخلاص كان عند جنكيز خان فوق كل اعتبار كما كانت الخيانة لديه خطيئة القبلى التى لا تغتفر فالخائن قد يسبب محو الاوردو (قرية الخيام) بكاملها أو قد يوقع الفرسان فى الفخ(٢).

ومن خلال هذا المفهوم بدأت دولة جنكيز خان رسميا سنة ٦٠٠ هـ(١٢٠٣م) وبين الوعد والوعيد التف اكثر المغول حوله وأعلنوا طاعته ووعدهم جنكيز خان بأنه سيفتح بهم الأرض ويملكهم الثراء الذى يحيط بهم وبدأ بذلك عهد جديد للمغول(٣).

والحقيقة أن جنكيز خان كان يدرك تماما كل مايتعلق بحياة المغول ومتطلباتها لذلك كانت وعوده دائما مرتبطة بالثراء والافلات من الفاقة والبؤس فى البيئة القاسية فى منغوليا.

وفى نظير ذلك كان لايقبل من جنوده بديلا عن الطاعة والاخلاص ولقد كان المغول جميعا على ثقة تامة فى موهبته القيادية فلو أن جنكيز خان أمر عشرة جنود بمهاجمة الف جندى من جنود الأعداء لما تمهلوا لحظة كى يفكروا فى الأمر ، لأنه لايخالهم شك فى أنهم سوف ينتصرون.(٤)

ويمكننا أن نضيف فى هذا المقام أن طاعة المغول عامة لجنكيز خان كان ترجع الى اعتقادهم بأنه مؤيد بقوة السماء ففى فترة الصراع القبلى فى الاستبس قبل أن يتمكن من احكام السيطرة على المغول جميعا وعندما أحرز الخان الصغير (تيموجين) نصرا عظيما على أعداء تبلغ قوتهم ضعف قوته ان لم تزد انتشر النبأ فى أرجاء اقليم الاستبس أن تيموجين تعينه قوة السماء.(٥)

يقول صاحب مفرج الكروب " وصار هذا الرجل (جنكيز خان) بمثابة نبى يرجعون اليه فى كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه".(٦)

فاذا ما حاولنا أن نلقى نظرة على مدى الطاعة والاخلاص عند القوى الرئيسة المناوئة للمغول هالنا الأمر الى درجة كبيرة ذلك أن بعض القادة الصينيين لماشعروا بتخاذل الامبراطور وضعفه انضموا الى جنكيز خان القوى المسيطر وعملوا فى خدمته.(٧)

وفى عهد (اوكتاى) ابن جنكيز خان وعند قيام المغول بالاغارة على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة سونج يقدمون المعاونة للمغول طمعا فى أن يكون لهم

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٣
(٢) هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٢٨
(٣) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٨
(٤) الكاتب الصينى ف.بان : جنكيز خان سفاح الشعوب ،ص ٩٧
(٥) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٤٢
(٦) جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ج٤ ص ٣٧
(٧) هارولد لامب: جنكيز خان ، وجحافل المغول ص ٨٢

نصيب فى أراضى الصين الشمالية فلما خابت آمالهم نشبت الحرب بينهم وبين المغول الذين وجدوها فرصة سانحة كى يضموا الى أملاكهم أراضى سرة سونج أيضا. وقد تم ذلك بالفعل فى عهد خلفاء أوكتاى. (١)

أما السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد فقد كان يعانى من تسلط أمه تركان خانون عليه وعلى شئون الدولة يقول النسوى وزير السلطان جلال الدين منكبرتى" واذا ورد عنهاوعن السلطان توقيعان مختلفان فى قضية واحدة لم ينظر الا فى التاريخ فيعمل بالأخير بكافة الاقاليم. (٢)

ولقد حاول جنكيز خان بدهاء استغلال الوحشة والتنافر بين السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد وأمه تركان خاتون ولذا سارع عقب استيلائه على مدينة (اترار) فسير اليها دانشمند الحاجب وهو من خواصه وكانت حينذاك بخوارزم يقول" قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق وهاأنذا قد قصدته بمواطأة من امرأته ولست بمتعرض الى ما تحت يدك من البلاد فان أردت ذلك بعثت الى من يستوثق لك منى فتسلم لك خوارزم وخراسان وما تتاخمها من قاطع جيجون". (٣)

ولعل هذه الرسالة ـ على ما فيها من خداع ـ تكشف عن تداعى الدولة الخوارزمية وفقدان السيطرة عليها من قبل الحكام الخوارزميين.

ولقد كان جيش السلطان الخوارزمى كثير العدد ضخم العتاد ولكنه كان يفتقر دائما الى روح الجندية الحقة والطاعة للقواد والالتزام بالمصلحة العامة للدولة بل كان القواد أنفسهم منقسمين متنابذين فمعظم قادة هذا الجيش كانوا من قبيلة تركان خاتون فى حين كان جلال الدين الابن الاكبر للسلطان وولى عهده ينتمى من ناحية أمه الى قبيلة أخرى من التركمان الذين كانوا يكونون فريقا مستقلا وينزلون فى معسكر مستقل. (٤)

ويقول بارتولد عن شخصية السلطان الخوارزمى ومدى احكام قبضته على جيشه " والواقع أن أخلاق محمد خوارزمشاه كانت تناقض العظمة الظاهرية لدولته وتناقض القابه الطنانة فقد كان عاجزا تماما عن كبح جماح عساكره وحماية الأهالى فى البلاد التى فتحها من أعتداءتهم ولعل هذا يفسر كيف ساءت العلاقات بينه وبين خان سمرقند فى سنة ١٢١٣ مما دعا الثانى الى الانضمام من جديد الى القاراخطاى (٥).

وكلام بارتولد هنا ينصب على الفترة التى سبقت الغزو المغولى.

ويسوق النسوى موقفا عجيبا يدل على مدى الانقسام الذى أصاب الدولة الخوارزمية بعد وفاة السلطان محمد علاء الدين ونهوض ابنه جلال الدين منكبرتى فى مواجهة جنكيزخان. يقول حدثنى بدر الدين هلال الخادم .. قال .. قلت لها أى لتركان خاتون. هلمى

---

(١) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى ج٤ ص ١٥٠
(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٩٩
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٣
(٤) الكاتب الصينى ف. بان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٦٨
(٥) بارتولد: تاريخ الدولة فى آسيا الوسطى ص ١٥٧

نهرب الى جلال الدين ولد ولدك ، وفلذة كبدك فان الاخبار قد تواترت بشوكته" قالت : "بعدا له وسحقا ٠٠ وكيف يهون على أن أكون فى نعمة ابن (أى جيجاك) وتحت ظله يعنى أم جلال الدين بعد ولدى ٠ ازلاغ شاه وأق شاه والأسر عند جنكيز خان وما أنا فيه من الذل والهوان أحب الى من ذلك" وكانت تبغض جلال الدين بغضا شديدا٠ (١)

وفى بغداد كان جيش الخلافة عاجزاحتى عن حماية دار السلام نفسها وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وجيشها من محاولة الخلافة الاستعانة بالمغول فى مواجهة السلطان الخوارزمى محمد علاء الدين ثم التهالك المستمر على ارسال مندوبين عن الخلافة لحضور حفلات تتويج بعض خلفاء جنكيز خان (كيوك ــ منكو) ٠

وفى الحقيقة لم يكن زمام الأمور فى بغداد مركزا فى يد واحدة بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شئون الدولة بل كانوا متنازعين متباغضين كل منهم يدبر المؤامرات للاخر ويسفه رأيه عند الخليفة ، وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الارادة ضعيف الشخصية فترتب على ذلك أن اتسعت شقة الخلاف بين هؤلاء الساسة واستحكم العداء بينهم٠ (٢)

ويكفى دلالة على خور عزيمة الخليفة أنه كان كلما ذكر بخطر المغول يقول : "ان بغداد تكفينى ولا يستكثرونها على اذا نزلت لهم عن باقى البلاد ولا أيضا يهجمون على وأنا بها وهى بيتى ودار مقامى" (٣) ٠

ج ــ <u>الاقدام والمخاطرة :</u>

وهى سمة ترتبط بروح الجندية أيضا وقد فرضتها عليهم البيئة الرعوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم فقد كان عليهم أن يواجهوا الشدائد بثغر باسم وألا يخضعوا أمام قسوة الطبيعة أوصعوبة المواقف ولعل من أكبر الأمثلة على حب المخاطرة عند المغول المناورة العجيبة التى قام بها جنود جنكيز خان عند نهر السند حيث التقوا بجيش السلطان الخوارزمى جلال الدين فى معركة طاحنة فقد ارتقى بعض المغول قمة جبل عال سقط من أعلاه العديد منهم صرعى ولكنهم فى النهاية تمكنوا من الالتفاف حول ميمنة جلال الدين الشجاع وأبادوها ٠

وفى الحقيقة لم يكن اعجاب المغول بالشجاعة والابطال متوقفا على وجودها بينهم بل لقد امتد هذا الاعجاب الى درجة امتداحها ولو كانت عند الاعداء " فعندما رأى جنكيز خان عدوه جلال الدين الذى فقد جيشه فى مواجهة المغول يخرج من الماء على الشاطئ الآخر لنهر السند وسيفه فى يده ٠٠ أخذ يحملق لحظة فى سكون ثم صاح مدفوعا بغريزته معبرا عن اعجابه بشجاعة جلال الدين ما أسعد الأب الذى ينجب مثل هذا٠ (٤)

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٩٧
(٢) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٥٨
(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٥
(٤) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣١

وشجاعة المغول فى القتال أمر لاشك فيه أكدته انتصاراتهم الباهرة فى مختلف الميادين العسكرية ،يقول ابن الاثير" سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا انه قال من حدثكم أن المغول انهزموا وأسروا فلا تصدقوه واذاحدثكم أنهم قتلوا صدقوا فان القوم لايفرون أبدا وقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر". (١)

ورغم أن الكرج كان يدينون بالمسيحية وأن هذه الحادثة قد تبدو موقفا فرديا غير أن الأمر لايخلو من الدلالة على شجاعة المغول ففى حصار المغول لمدينة حلب اشتدت بسالة المدافعين عنها حتى جرح الأمير (قورجيان) ، (أوجو سوكورجى) ، (صارق قورجى) وهم من قواد جيش المغول فى عدة مواضع من أجسامهم وبخاصة وجوههم فكان الملك هولاكو يعطف عليهم ويشجعهم بقوله " كما أن اللون الأحمر يكون زينة النساء فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم". (٢)

د - العنصرية :

كثيرا ماكان المغول يعتقدون فى أنفسهم التميز على سائر الأجناس الأخرى. وربما كان دافعهم الى ذلك توالى انتصاراتهم وتسابق الكثير من الأجناس المختلفة الى خدمتهم. ولهذا اعلن جنكيزخان أن المغول شعب الله المختار وأن لهم جميع خيرات الأرض اينما وجدوها وأما سائر الشعوب والقبائل فقد خلقوا لكى يكونوا عبيدا لهم وخدما". (٣)

ومن الانصاف أن نقول أن هذه السمة لم تقتصر على المغول وحدهم دون غيرهم منذ قديم الزمان - فقد كان لليهود القدماء شريعة خاصة بهم لايستطيعون التحرر منها فى معاملاتهم مع "الآخرين" وكان الاغريق يطلقون على غيرهم البرابرة ولم يجد أفلاطون أى حرج فى اتخاذ الرقيق منهم وان وجد ذلك جريمة كبرى بالنسبة للاغريق. وكان لقب المواطن الرومانى شرفا كبيرا تسبغه روما على رعاياها من أبناء الأمم الأخرى. (٤)

وفى عصر المغول كان الشاه محمد علاء الدين سلطان خوارزم يزعم نفسه سيف الاسلام المسلول وخليفة الاسكندر الأكبر فى البأس والحول والطول". (٥)

وفى مصر والشام عاش المماليك حياة ارستقراطية عنصرية فقد رفضوا الزواج ببنات الشعب المحكوم حتى تظل طبقتهم متميزة دوما.

وفى العصر الحديث - أثناء الحرب العالمية - ظهر شعار رفعة الالمان النازيون يقول (المانيا فوق الجميع) ومازال التفرقة العنصرية حتى الآن قضية العصر فى اسرائيل وجنوب افريقيا.

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ١٢، ص ١٧٧
(٢) رشيد الدين فضل الله الهمذانى: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٠٧
(٣) الكاتب الصينى ف. يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٦
(٤) د. محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ص ١٣٩
(٥) الكاتب الصينى ف .بان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٣٦

اذن فوصف المغول بالعنصرية وان كان يقرر حقيقة الا أنه فى الوقت ذاته لايصفهم بشئ انفردوا به دون غيرهم من غالبية الدول أوالعصبيات المختلفة على أن العنصرية عند المغول قد ارتبطت بسمة أشد قسوة وايذاء . وهى التكبر والاستعلاء فقد اكتشف الرحالة الهولندى الجرئ وليم روبرك الذى زار بلاد المغول فى عهد باتو حفيد جنكيزخان" . ان حراسه كانوا قوما مستكبرين يعتقدون أنهم أرفع شأنا من الآخرين اذا لم يرضوا بالسير فى حراسته طويلا . " (١)

ولقد وجد رحالة آخر هو كاربينى الذى زار قراقورم عاصمة الخان الأعظم من المغول سلوك المتكبر الفخور الذى لايطاق فهم مهما عاملوا الغير بكرم وعز فمعاملتهم هذه ممزوجة بالازدراء والاستخفاف يقول "اننا شاهدنا فى ديوان الامبراطور المغولى دوق روسيا الأكبر ونجل ملك الكرج وغيرهما من سلاطين ورجالات عدة و كلهم مسلوبو الاحترام والوقار حتى أن التتار الذين عينوا لخدمتهم تجدهم يتقدمون هؤلاء الأسرى الشرفاء فى أماكنهم فى الجلوس رغم حالتهم المنحطة. (٢)

اذن لم يكن المغول يضعون أنفسهم فى مكانة تناسبهم حضاريا ولكنهم بلا شك وضعوا أنفسهم فى مكانة تناسب كفاءتهم العسكرية أو قل تناسب الاستذلال والمهانة حيث وضع الاخرون انفسهم بالنسبة للمغول .

اذ لما سقطت بغداد فى أيدى المغول ارتعدت فرائص سلاجقة الروم المسلمين وتملك الرعب قلب السلطان عزالدين كيكاوس لان جنوده الذين وقفوا فى وجه القائد المغولى (بايجو) عادوا اليه منهزمين ، فأخذ يبحث عن مخرج من هذه الورطة" فأمر بصنع حذاء ملكى فى غاية الجودة ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه للملك هولاكو أثناء معاتبته اياه، وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة، قبل عز الدين الارض وقال" ان أملى أن يشرف الملك رأس هذا العبد(يقصد نفسه) بوضع قدمه المباركة عليها" فرق له هولاكو خان ، ورفعت (دوقوز) خاتون من قدره وتشفعت فيه" . (٣)

فلماذا اذن لا يشعر المغول أنهم من عنصر فوق البشر جميعا ، ولماذا لا يتعالون على غيرهم مادام هؤلاء قد تهالكوا على اظهار مختلف ألوان المذلة والخنوع الى أبعد الدرجات.

ونود فى هذا المقام أن نوضح أمرين :

أولهما : أنه اذا كانت الطبيعة القاسية فى بيئة الاستبس قد فرضت على المجتمع المغولى أن يكون — على اختلاف طبقاته — مجتمعا تعاونيا بالدرجة الأولى فان جنكيز خان قد نجح فى تسخير هذا المجتمع كله فى خدمته وخدمة أسرته التى أطلق عليها لقب الأسرة الذهبية فمنحها حقوقا طبقية وعسكرية واسعة كما نجح فعلا فى ترسيخ مفهوم الارستقراطية الطبقية لدى المغول الذين نظروا جميعا الى غيرهم من الشعوب الأخرى نظرة يملؤها التعالى والكبرياء يقول الدكتور هارولد لامب " وكان لشعبه الذى يضم كل من يطلق عليهم اسم مغول صحراء جوبى امتياز وسيادة على الاسرة من الشعوب الأخرى" . (٤)

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥١

(٢) د. هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ،ص ٥٤

(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٠١

(٤) د. هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٢٩٠

وعلى هذا فقد نصبت الياسا على أنه لايجوز للافراد الخاضعين للمغول تشغيل أى مغولى فى أى عمل كان". (١)

ان جنكيز خان وضع المغول فى مكانة أعلى فوق الشعوب الاخرى.. ووضع نفسه وأسرته فوق المغول جميعا.

ثانيهما : أن التسامح الدينى أوتعدد الاديان فى المجتمع المغولى لاينفى عن هذا المجتمع صفة العنصرية فالمغولى النابه جنكيزخان قد تفادى ببراعة كل ما يمكن ان يجلبه التعصب لدين واحد على حساب تصفية الأديان الاخرى من متاعب.

وفى الحقيقة كان المغول يضعون الدين فى مكانة ثانوية وكان اهتمامهم الأول هو الانتماء الى الجنس المغولى وكذا سرعة الاستجابة لأوامر الخان الاعظم الذى يطمع دوما فى الولاء التام من قبل المحكومين حيال كل ما يصدر من أوامر وأحكام.

(هـ) صفات أخرى :

١ ـ الصبر :

عنوان قوة الاحتمال وهو خصلة ممدوحة ولا شك والتحلى به فى غير سلبية أو عجز يكسب صاحبه احترام الاخرين ويمنحه القدرة على مجابهة الصعاب والتخلص المناسب من المشاكل والمعضلات.

وقد عرف عن المغولى أن صبره يفوق الوصف فعلى الرغم من قوة شهيته الى الطعام والتى كانت تدفعه لالتهام كمية كبيرة من اللحم فى الوليمة الواحدة نجده يصبر طويلا على آلام الجوع لثلاثة أيام أو أربعة ، " ولاشك أنهذه القدره العجيبة قد أفادتهم فى الحروب فائدة عظمى لأن الجندى فى ميدان القتال يكون مهتما بالنزال والطعان أكثر من اهتمامه بالطعام وملء البطون". (٢)

وفى الحقيقة لم يكن المغولى صبورا على الطعام أو فى الحرب فقط بل امتد صبره الى مواجهة الجفاف وقسوة المناخ وندرة الماء والكلأ. فالصبر سلاح استمده المغولى من البيئة وشهره فى وجهها. (٣)

٢ ـ الكرم:

من العجيب أن يتوائم الفقر والكرم فى بيئة الحرمان الاستبسى وهو فى الحقيقة يوازى توائم الغنى والبخل فى بيئة الثراء فى مجتمعات أخرى ، ولقد اشتهر البدو ـ رغم فقر بيئتهم ـ فى أى مكان بالكرم ولايزال حاتم الطائى حتى الان رمزا للكرم العربى البدوى لايعفى أثره.

والكرم هنا ضرورة ووسيلة لتفادى خطر داهم موقت فهو من سنن الاستبس الرعوى لانه من وسائل ومظاهر التساند والتعاون لمواجهة البيئة الفقيرة الترحلية وهو بذلك ضرورة

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٢٩
(٣) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦١

بقائية تطورية(١) .

٣ ـ الصراحة :

الانسان مرآة البيئة كما يقول علماء الاجتماع • وعلى هذا فالبيئة الفسيحة تمنح أصحابها انطباعا بالصراحة والوضوح •

والبدو فى أى مكان اشتهروا بالصراحة يستمدونها من بسطة البيئة وبساطة العيش وعلى هذا فقد كان المغولى ـ كغيره من الشعوب ـ سكان البوادى والقفار ـ صريحا فى الحق جريئا فى ابداء رأيه ـ لا يتردد ولايلين ، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة" • (٢)

وأحيانا قد يحدث استثناء على القاعدة فيلجأ البعض الى الكذب أو التمويه أو الاخفاء وهذا ما لم تغفله الياسا •• التى نصت على أن من تعمد الكذب قتل" وقسوة العقوبة هنا تكشف رفض البيئة لوجود الكذب فيها• لأن حياة الخطر المتوقع التى كان يعيشها المغول فى بيئة الاستبس لم تكن لتسمح بحدوث هذا الكذب• (٣)

أصل المغول

عاش المغول ـ كما ذكرنا ـ فى الهضبة الاسيوية الشاسعة التى تمتد من أطراف الصين الى أواسط اسيا وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ولذا صارت تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعى المتغيرة• (٤)

هل المغول أتراك ؟

وعلى هذا فالتباين والاختلاف سمة الحياة فى البيئة المغولية • وقد اختلفت الاراء تبعا لذلك حول تحديد أصل المغول فالكاتب التركى م•م• الرمزى يرى أن المغول أتراك اذ أنهم ينتسبون الى ترك بن يافث بن نوح عليه السلام • يقول : " ولما كثرت أولاد الترك وأحفاده بمرور الزمن انشعبوا على شعوب كثيرة وقبائل شتى وانتشروا فى أطراف أراضيهم وجوانبها واشتهر من بينهم كل عصر بل قرون متطاولة قبائل كثيرة مثل التتار والمغول والقبجاق والخرز وبجناك وغيرهم بحيث عد كل واحد منهم قوما مستقلا حتى وقعت الشبهة• لذلك فى كونهم من الترك واحتيج فى اثبات ذلك الى النقل والتأييد وامتازت قبيلة التتار من بين تلك القبائل قديما وحديثا بمزيد من الاشتهار حتى استعمل لفظ التتار مرادفا للفظ الترك خصوصا عند أهل أوربا• (٥)

---

(١) د• جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٥
(٢) د• عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٦
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٨
(٤) د• ابراهيم العدوى : العرب والتتار ،ص ٢٢
(٥) م•م• الرمزى : تلفيق الأخبار وتلقيح الاثار ج ١ ص ٢٦•

وابن الاثير يرى أيضا أن المغول اتراك .. يقول "ان التتار ـ (المغول) ـ انما هم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام ما يزيد على ستة أشهر. (١)

ويسوق ابن الاثير حادثة وقعت أثناء حصار جنكيز خان لمدينة سمرقند تؤكد ذلك ـ فقد حدث أن الجند الخوارزمي وكانوا أتراكا ولما ضاق بهم الحصار قالوا مشيرين الى المغول "نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الامان فأجابهم المغول" (٢).

ويسوق حادثة أخرى ..." وأرسل التتار (المغول) أثناء صراعهم مع الروس لأهل القبجاق .." نحن وأنتم من جنس واحد وهؤلاء ليسوا منكم حتى تنصروهم. (٣)

ويقول النسوى كاتب السلطان جلال الدين منكبرتي الذى عاصر صراعه مع المغول : "وقبيلة اللعين (جنكيز خان) هي المعروفة بالتمرجى سكان البرارى ومشتاهم موضع يسمى (أرغون) وهم المشهورون من طوائف الترك بالشر والغدر". (٤)

والى مثل هذه الآراء ذهب المؤرخون أبو الفدا ، وابن الوردى وابن خلدون وابن عربشاه والحنبلي والدياربكري (٥) وتبعهم فى ذلك كتاب معاصرون كثيرون. (٦)

لكن المستشرق المجرى ارمينوس فاميرى يرى أن المغول ليسوا اتراكا وانما يشبهونهم نتيجة للتجاور المكانى وبعض الصلات الاخرى يقول :" وفى صحراء جوبى كان المغول وهم شعب يشبه الترك الى حد ما فى اللغة والسحنة يقيمون منذ زمن موغل فى القدم ويعيشون عيشة بؤس بدوية وسط اقليم مجدب موحش لايلقى أحد من جيرانهم اليهم بالا ، بل لقد كان اسمهم غير معروف لقرون طويلة". (٧)

فاذا انتقلنا خطوة أخرى وجدنا من يقول "يعتبر المغول من العنصر الأصفر ، ومكانهم الأصلى منغوليا وهى التى أعطتها اسمها على ما يبدو ومعروف أن الأتراك لاينتمون الى العنصر الأصفر الغالب فى شرق آسيا والذى يتميز بمواصفات جسمانية لايتوافر أغلبها لدى الأتراك (٨)

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ١٢ ، ص ١٣٩

(٢) المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ١٤٢

(٣) نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ١٤٩

(٤) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٩

(٥) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٢٣ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ج٢ ص ١٣٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ، ص ٥٠٦ ، ٥١١ ، ابن عربشاه : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ١٦ ، الحنبلي : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٥ ص ٦٥ الديار بكرى : الخميس فى انفس نفيس ج ٢ ص ٣٦٨

(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج٤ ص ١٤٥ ، د. حسن خليفه : الدولة العباسية ، قيامها وسقوطها ص ٢٣٨ ، د. رجب عبد الحليم : انتشار الاسلام بين المغول ص ١٤.

(٧) ارمنيوس فاتيرى : تاريخ بخارى ص ١٦٣

(٨) د. محمد ماهر حماده: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٦٥

يقول أحد اساتذة علم الاجناس والسلالات " وفى القرن الثالث عشر خرجت دفعات تركية فى ركاب المغول تحت قيادة جنكيز خان لكن الاتراك ليسوا من المغول من ناحية السلالة وان اتصلوا بهم بحكم الجوار وأخذوا الكثير من عاداتهم". (١)

وهذا الرأى يفصل بحزم بين المغول وبين الاتراك الذين اتصلوا بهم .

وهناك اراء أخرى ترى استقلالية الجنس المغولى عن غيره من الاجناس البشرية الاخرى تماما وأن هذا الجنس المغولى قد امتد انتشاره الى مناطق عدة مجاورة أثر فيها كثيرا. تقول الدكتوره دولت صادق" ان السلالة الأساسية التى تسود مناطق واسعة من آسيا هى بلاشك السلالة الصفراء التى تمتاز بالشعر المسترسل والوجه المستدير والانف الدقيق والعيون المائلة وكذلك ببروز عظام الخدين وعرض الرأس وتنتشر هذه السلالة فى منغوليا والصين وكوريا. (٢)

ومعروف أن الاتراك لا ينتمون الى السلالة المغولية الصفراء كما لا توجد عندهم العين المغولية المائلة.

ويقول الدكتور ابراهيم زرقانه" كانت الشعوب المغولية العريضة الرأس تستقر حول الهضاب الوسطى فى اسيا ولكن يظهر أن الجنس المغولى الحقيقى قد تفرع فوق هذه الهضاب نفسها ثم فى فترة ضنك نزحوا الى المنخفضات المجاورة .

وقد كانت الهضاب الغربية لاسيا منطقة تخص جنسا آخر عريض الرأس يضم فروعا طويلة القامة وفروعا قصيرة القامة وليس هذا الجنس مغوليا مطلقا وانما هو الجنس الألبى الذى يمتد من جبال هندكوش الى بريتانى . وفيما عدا الجنس الالبى يعتبر غرب اسيا وطنا لمجموعتين أخريين من عراض الرأس هما الاتراك والاوجريانز، فلاشك أن هاتين المجموعتين من أصل مشترك ويعتبران فى العادة حالة وسطا بين أسلاف النورديين من ناحية وبين الالبيين من ناحية أخرى مع حدوث اختلاط فى بعض الأحيان وفى بعض المناطق مع المغول. (٣)

وهذا الرأى يتضمن الاشارة الى أن المغول ليسوا اتراكا وانما قد يختلطون بهم .

ويؤكد أحد الجغرافيين الذين عالجوا قضية نشوء الاجناس البشرية أن الجنس المغولى كانت له نشأة خاصة فى أواسط آسيا. (٤)

وفى تقديرى أن هذا الرأى لايناقض الرأى القائل بأن الانسان وحيد النشأة . أى أن السلالة البشرية كلها انحدرت من أب واحد فى مبدأ الأمر ثم لما تفرق أبناؤه فى جهات العالم المختلفة حيث تسود فى كل منطقة بيئة طبيعية خاصة ذات ظروف معينة من تضاريس ومناخ فقد أخذت كل جماعة تتشكل حسب ظروف هذه البيئة وساعد على ذلك أن الانسان كان فى بدء نشأته عجينة لينة فى يد الطبيعية تشكله بحسب ظروفها من سهل أو جبل ومن حر أو برد أو رطوبة أو جفاف فلما تقادم عليه العهد ثبتت له الصفات التى اكتسبها واصبحت جزء من تكوينه الجسمانى لايتغير أو يتبدل مهما غير الانسان بيئته الطبيعية وبذلك انقسم الناس الى أجناس لكل جنس صفاته الجسمانية الخاصة. (٥)

---

(١) د. محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ص ٢٥٣

(٢) د. دولت صادق : جغرافية العالم ص ٢٢

(٣) د. ابراهيم زرقانه: جغرافية السلالات البشرية ص ٦، ٧

(٤) د. محمد عوض : سكان هذا الكوكب ص ٣٩

(٥) د. ابراهيم زرقانه : العائلة البشرية ص ١٣٨.

ويستدل الجغرافيون على تمييز

ويقسم الجغرافيون الاجناس البشرية الى ثلاثة أجناس رئيسة هى الزنجى ، المغولى ، القوقازى ويستدلون على تمييز الجنس المغولى بالاضافة الى ملامح الوجه الى تكوين الشعر فالمغولى يتسم بشعر مستقيم طويل لايلتوى ولايتجعد خشن الملمس عادة فتحت الميكروسكوب يكون قطاع الشعرة المغولية قريبا من الدائرة وبعد فالمغولى قليل الشعر فى الوجه والجسم.(١)

وبؤكد ذلك الرأى (النشأة الخاصة للجنس المغولى فى أواسط آسيا) رأى اخر يضيف اليه أن فرعا من المغول خرج فى وقت مبكر وعبر مضيق بهرنج الذى يفصل شمال شرق آسيا عن شمال غرب أمريكا (الاسكا) ثم انتشرفى الامريكتين (٢) وكان هذا النوع يحمل أهم الصفات المغولية وهى الشعر البسيط المسترسل . والعين المنحرفة وعظام الوجنات البارزة وسمى هذا النوع بالامريكيين الاصليين وعندماشاهدهم الاسبان الذين ا كتشفوا العالم القديم والذين ظنوا انهم وصلوا الى الهند اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر.

أما فى جنوب اسيا فقد وقفت جبال الهيملايا أحيانا كحد فاصل بين مغول التبت والمجموعات القوقازية التى تعيش فى سهول الهند(٣).

وعلى هذا تنقسم مجموعة الاجناس المغولية Hono Mongolieus الى ثلاثة شعب :

١ – المغول الاصليون بشرق آسيا.
٢ – مغول الملايو بجزر الهند الشرقية.
٣ – الهنود الحمر بأمريكا.

على أن الفروق بين هذه الشعب الثلاث طفيفة وتعتبر الشعبة الأولى أدق صورة للجنس المغولى تتمثل فيها أظهر صفات هذا الجنس وهى العين المغولية أو العين المائلة فان هذه العين لاتوجد الا فى شرق آسيا.(٤)

وخلاصة القول أن المؤرخين الاسلاميين فى معظمهم يميلون الى الاعتقاد بأن المغول ينتمون الى الاتراك بل ان الجغرافى القديم زكرياء بن محمد بن محمود القزوينى يميل الى ذلك أيضا حيث يقول فى تعريف التاتار– "هم جيل عظيم من الترك أشبه بالسباع فى فظاظة الخلق وصلابة البدن وغلظ الطبع وحبهم الخصومات وسفك الدماء وتعذيب الحيوان وخروجهم من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما رواه أبو برده عن أبيه قال : كنت جالسا عند رسول الله عليه السلام فسمعته يقول : " ان أمتى يسوقها قوم عراض الوجوه صغار الأعين كان وجوههم المجان المطرقة ثلاث مرات حتى يلحقوهم بجزيرة العرب اما السابقة فينجو من هرب منهم وأما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض وأما الثالثة فيهلك كلهم ، قالوا من هم يارسول الله . قال هم الترك. أما والذى نفسى بيده لتربطن خيولهم الى سوارى مساجد المسلمين.(٥)

---

(١) د. محمد عوض : سكان هذا الكوكب ،ص ٤١
(٢) د. محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص ٣٢٢
(٣) د. يسرى الجوهرى : السلالات البشرية ص ٢٦١
(٤) د. يوسف فايد: الأسس العامة للجغرافيا ص ١٣٣
(٥) القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٨١

وهذا الرأى يوءكدأن المغول من الاتراك ٠٠ ويستند الى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) دون سند صحيح ثابت٠

وفى مقابل هذا الرأى وعلى النقيض منه كما أشرنا جاء رأى الجغرافيين المحدثين الذين يوءكدون استقلالية العنصر المغولى٠

فاذا توقفنا عند موءرخ درس باستفاضة كتاب جامع التواريخ لموءرخ المغول الكبير رشيد فضل الله وجدناه لا يشير الى انتماء المغول الى الترك أوغيرهم وفى كتابه المغول فى التاريخ يحدد أماكن القبائل المغولية والتركية على أنهما عنصران متجاوران ليس أكثر٠ (١)

كما أن المستشرق الروسى بارتولد الذى تخصص فى دراسة أحوال الترك و تركستان لم يشر فى أى من كتبه العديدة عن وحدة الاصل بين المغول والاتراك٠٠ ومثل ذلك ينطبق على هارولدلامب وبراون وارمنيوس فامبرى وغيرهم ٠

فاذا تأملنا قول استاذنا الدكتور أحمد شلبى " يمكننا أن نقول فى ايجاز دقيق ان المغول جزء من شعب التتار، وان جنكيزخان وهو أبرز قائد فى جماعة المغول استطاع ان يرغم أكثر جماعات التتار على الاعتراف بسلطانه ومن‌هنا برز اسم المغول حتى أصبح مرادفا لكلمة(تتار) وأصبح اكثر التتار ينسبون أنفسهم للمغول، مما جعل من الممكن أن‌نتحدث عن المغول أو التتار دون‌خلاف ذى بال٠ (٢)

وهذا الرأى وان كان يدور فى تفسير العلاقة بين المغول والتتار الا أنه لم يقل بأن المغول ينتمون الى العنصر التركى ٠

والرأى الذى أميل اليه أن‌المغول ليسوا اتراكا ويوءكد ذلك فى تقديرى الاسباب الاتية:

أولا : اختلاف الصفات الجسمية للمغول عنها لدى الاتراك فالعين المائلة والانف الافطس والقامة القصيرة والشعر الخشن المسترسل كلها صفات لانجد ماينا ظرها عند الاتراك أو غيرهم فى الغالب٠

ثانيا : المواقف التاريخية للمغول مع الاتراك ومنها على سبيل المثال :

أ) ان الجنود الخوارزميين الذين استسلموا للمغول أثناء حصار سمرقند بدعوى علاقة الجنس المشترك مع المغول قد قتلواجميعا بعد الاستيلاء على أسلحتهم ومتاعهم٠

ب) ان المغول الذين أرسلوا الى أهالى القبجاق زاعمين انهم من جنس واحد وطالبين ألا ينصروا عليهم الروس أو اللان قد استداروا على أهالى القبجاق فابادوهم واستردوا ما كانوا قد أرسلوا اليهم من هدايا على سبيل التمويه مما يوءكد" أن المغول لم يحاولوا الاتحاد عمليا مع الاتراك فلم تكن المحادثات التى يجرونها معهم الا ضربا من الخدع الحربية المألوفة عندهم" (٤) على الرغم من أن جيش المغول كان يحتوى على عناصر تركية كالاويغور والقارلوق وغيرهما ممن قبلوا العمل تحت امرة المغول٠

---

(١) د٠فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ/ موءرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى
(٢) د٠بارتولد: تاريخ تركستان من الفتح العربى حتى الغزوالمغولى، تاريخ الترك فى اسيا الوسطى، الحضارة الاسلامية٠
(٣) د٠احمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص٧٣٥
(٤) بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٦٣

ثالثا : ان الرسائل التى بعث بها جنكيزخان الى الشاه الخوارزمى أو الى أمه تركان خاتون لم تشر الى اشتراك المغول والخوارزميين فى أصل واحد مشترك وأقصى ما أشارت اليه احدى هذه الرسائل هو أن جنكيزخان كان قد اعتبر مكانة السلطان الخوارزمى لديه بمنزلة أعز أولاده.

وهذا معنى لايفهم منه صلة الأصل المشترك ذلك لأن السلطان الخوارزمى قد ثارت ثائرته لان هذه المنزلة بمفهوم عصره كانت تعنى أنه تابع لجنكيز خان وليس فى مكانة الند أوالنظير.

ولعل المؤرخين الاسلاميين كابن الاثير والنسوى وابن عربشاه وغيرهم كانت لهم وجهة نظر خاصة فى أهل الشرق فكل من ليس عربيا اوفارسيا أو صينيا فهو من الترك وقد تبعهم فى ذلك مؤرخون محدثون كثيرون ، ولعل مما أكد هذه النظرة لديهم عدة عوامل منها :

أولا : التجاور المكانى :

وذلك أن العديد من القبائل التركية البدوية كالاويغور والقرغيز والقارلوق ... الخ كانت تعيش مجاورة للقبائل المغولية فى هضبة منغوليا او على مقربة منها ونشأت بينهما علاقات متعددة تجارية أو حربية أو تصاهرية.

ثانيا : التقاليد البدوية المشتركة :

فقد أدى هذا التداخل السابق الى نوع من التشابه بين المغول والأتراك فى بعض العادات والتقاليد يقول بارتولد " كان الترك ــ من بين سائر القوميات ــ أقرب الى المغول فقد كانت التقاليد البدوية فى اسيا الوسطى تزيد الترك قربا من المغول " (١)

ثالثا : التشابه اللغوى :

وذلك أن المغول قد أخذوا الخط الاويغورى عن الترك يقول الدكتور أحمد الساداتى مترجم كتاب تاريخ بخارى للمستشرق المجرى أرمنيوس ڤامبرى" برغم ضعف ما بين التركية والمغولية من الصلة فى ناحية النحو الا أن ثلاثة أرباع الالفاظ فى اللغتين واحدة (٢) . ويقول بارتولد" فاذا نظرنا الى عامل اللغة وجدنا أنه فى شمال الاويرات كان القرغيز الناطقون بالتركية يسكنون حوض ينسى أو نهر (كه م) كما يسميه الترك وكان جيران النايمان على نهر ايرتيش هم القاكلى والقبجاق ثم القارلوق فيما يظن وهؤلاء جميعا من الناطقين بالتركية. (٢)

رابعا : المعتقدات الدينية :

كان المغول فى بادىء الأمر شامانيين وقد كان الاتراك كذلك . ثم انتشرت بينهم الاديان السماوية مثل المغول تماما ، يقول بارتولد"ان المصادر البيزنطية تحدثنا بأن الرؤساء العسكريين الذين يقعون فى أسر الترك كانوا يذبحون عادة الى جوار قبر الخان ولا شك أن أساس هذا التقليد يرجع الى عقيدة توحد عند شعوب أخرى

---

(١) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ،ص ١٦٣

(٢) ارمنيوس ڤامبرى : تاريخ بخارى (ترجمة الساداتى) ص ١٦١

(٣) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ،ص ١٥٣

شامانية وهى أن القتلى يصبحون فى العالم الآخر خدما لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم (١) وواضح أن بارتولد يقصد بقوله" شعوب أخرى شامانية" المغول وطوائفهم.

فهذا التقليد الغريب وهو قتل الادميين أثناء مرور جنازة الخان اعتقادا أن أرواحهم ستصحبه لخدمته فى العالم الآخر وجد عند المغول وعند الاتراك معا.

وطبيعى أنه مع حركة التجارة والدعاة والبعوث التبشيرية والحروب القبلية التى لاتنقطع ظهرت لدى الترك والمغول على السواء الأديان جميعها.

اذن فهذه العوامل او بعضها قد دفع البعض الى القول بأن المغول كانوا أتراكا او أن الاتراك كانوا مغولا ، وهو رأى كما أسلفنا ليس بدقيق.

وعندما نتتبع القبائل المغولية سوف يتضح لنا مدى الخلاف الذى دار حول بعضها أهى قبائل مغولية أم تركية خالصة أم تركية غلب عليها الطابع المغولى ــ وسوف نتناول ذلك بالتفصيل عند الحديث عن هذه القبائل بعد قليل.

أجداد جنكيزخان والصين :

دأب الصينيون على تحريض القبائل فى منغوليا الواحدة منها ضد الأخرى كى تشتغل تلك القبائل فى حروبها الداخلية فيظلون هم سادة الموقف كذلك رأى الصينيون ان ذلك التناحر يجعلهم بمأمن من غارات تلك القبائل البدوية التى كانت تعمد الى الاغارة والسلب خاصة فى فترات الجفاف الشديد الذى كان يجتاح مراعيها فى منغوليا ،ولكن الأمر لم يكن ليخلو من الاشتباك العسكرى بين الصينيين وتلك القبائل وكثيرا ما فرض الصينيون سيطرتهم على هضبة منغوليا وعمدوا الى أخذ الجزية من بعض القبائل لفترات طويلة.

ولما اشتبك المغول مع الخطا (الصين الشمالية) هوجم المغول على حين غرة وأنزل الخطا بهم ضربة قاضية ومات فى أثناء ذلك الجد السابع لجنكيز خان وكان يدعى (دوتومينين) وكان له تسعة أولاد وأمهم (مونولون) وأكبر الاولاد (قايدو) خان الذى يعدمن أبرز اجداد جنكيز خان. (٢)

وسرعان ما بدأت محاولات التوحيد على أيدى (قايدو) الذى جمع العائلات المغولية حول قبيلته الخاصة (قيات) فأسس بذلك المملكة المغولية الجديدة وأسند ادارتها الى حفيده (كابول) (٣).

اشتد ساعد المغول شيئا فشيئا فأقاموا علائق صداقة مع الخطا المقيمين فى شمال الصين ودعى (كابول) الى بلاط كين الامبراطورى فأدهش من استضافوه بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة للطعام. (٤)

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٤

(٢) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ٦٨

(٣) ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٥٨

(٤) المصدر السابق نفسه ، جـ ٣ ،ص ٣٥٩

د. طه مصطفى بدر: محنة الاسلام الكبرى ،ص ٧٤

ولما انقلب كابول فيما بعد عليهم لم يقاوموه الا مقاومةضعيفة لانشغالهم بمحاربة السونج (حكام الصين الجنوبية) فتخلوا له أخيرا عن بعض المراكز الحصينة فى شمالى نهر (سى – ينغ) وتعهدوا بتقديم خراج سنوى له من الأبقار والأغنام والحبوب.(١)

وهكذا تغير الموقف ولو الى حين حيث اصبح المغول يفرضون الجزية على من كانوا يفرضونها عليهم.

وعاد الصراع التقليدى بين المغول والتتار الى الظهور مرة ثانية فتحالف التتار مع الخطا وأحرزوا على المغول نصرا سريعا زالت على اثره الملكية المغولية وعادت الاحزاب والقبائل المغولية الى الفوضى والاضطراب .

واذا كان كوتولا بن امباكاى وهوابن عم(كابول) قد نظم القبائل المغولية – قدر استطاعته – فى حلف مفكك فان مملكته قد تفككت بعد وفاته فاستطاع امبراطور(كين) فى الصين الشمالية أن يوطد سيادته على المنطقة المغولية كلها.(٢)

ولكن المغول على الرغم من أنهم ظلوا فرسانا رحلا يعيشون على طريقة أسلافهم الهون تقريبا ، الا أنهم سرعان ما نقضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية.(٣)

وعلى الرغم من ذلك لم يرث (يسوكاى) حفيد (كوتولا) الا شطرا صغيرا من الحلف القديم غير أنه زاد فى سلطانه وذيوع شهرته ما أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وصموده فى مواجهة الصينيين ومساعدته لطغرل خان زعيم الكرايت فى صراعه مع ذويه من أجل تثبت ملكه.(٤)

وبعد وفاة يسوكاى بهادر سنة١١٦٧م – ٥٦١ مرت فترة طويلة من الهدوء بين المغول والصينيين حتى تفرغ لهم جنكيزخان بعدأن استوى خانا أعظم على قبائل المغول سنة ١٢٠٦م :٦٠٣ هـ فشرع بعد ذلك فى مهاجمة أملاك الامبراطور الذهبى حتى سقطت فى يده بكين العاصمة سنة٦١٢هـ/١٢١٥م.

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٥٩
د. طه مصطفى بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٧٤
(٢) د.ستيفن رينسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ،ص ٤١٠
(٣) هـ.جـ. ويلز: موجز تاريخ العالم ص ٢٣٦
(٤) د.ادوار بردى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٥٩

القبائل المغولية

فى دراستنا للقبائل المغولية ينبغى أن نعنى بأنواعها وبأماكن وجودها ومدى أهميتها فى تكوين المجتمع المغولى وعلاقتها بجنكيز خان على وجه الخصوص ، ولهذا فعند الحديث عن أنواع هذه القبائل نرى أن يكون ترتيبها على النحو التالى :

أولا : قبائل مغولية خالصة : " قبيلة جنكيز خان "

١ ـ قيات
٢ ـ التتار
٣ ـ الاويرات
٤ ـ المركيت
٥ ـ التانجوت

ثانيا : قبائل مغولية تركية :

وهى القبائل التى اختلف المؤرخون حول تحديد أصلها مغولية أو تركية وفى نفس الوقت كانت تشكل موقعا جغرافيا وسطا بين القبائل المغولية وبين القبائل التركية الخالصة التى كان لها وجود فى منغوليا كالقرغيز والاويغور :

١ ـ الكرايت
٢ ـ النايمان
٣ ـ القراخطاى

ثالثا : قبائل تركية خالصة " اشد اختلاطها بالمغول "

١ ـ الاويغور
٢ ـ القرغيز
٣ ـ القارلوق

وسنتابع هذه القبائل لنتعرف عليها وعلىمواقعها الجغرافية على الخريطة فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كما سنحاول أن نبين الكيفية التى تمكن بها جنكيزخان من احتواء كافة هذه القبائل تحت سلطانه حيث كانت لديه وسائل عدة منها التفاوض أوالتحالف أو التصاهر او الحرب فى خاتمة المطاف .

أولا : القبائل المغولية الخالصة

١ ـ قيات :

وهى قبيلة جنكيز خان التى ولد فيها وموقعها على الضفة اليمنى لنهر (أونون) أى فى الاراضى الروسية الان . وكان يسوكاى بهادر زعيما لهذه القبيلة . وكان قد اشتهر بالشجاعة فى مواجهة الاعداء وبخاصة التتار مما جعله رجلا ذا مكانة عالية فى نفوس الزعماء المحيطين به ورفع بالتالى من شأن قبيلته (قيات) .

قيات ـ كلمة مغولية معناها السيول المتدفقة . دائرة المعارف الاسلامية مجلد (٧) عدد (٤٠) ص ١٢٦

وقد أطلق هذا الزعيم المغولى(يسوكاى) اسم(تيموجين) ومعناه الحديد على مولوده الاكبر تخليدا لذكرى انتصاره على الزعيم التتبرى (تيموجينا) . ولكن المنية أدركت يسوكاى على أثر سم دسه له التتر فمات الأب عندما كان الابن فى سن الصبا فانتقلت زعامة القبيلة الى شخص آخر. (١)

وكان (تيموجين) عند وفاة والده سنة ٥٦١هـ/١١٦٧م فى الثالثة عشر من العمر وكانت تركته مثقلة لايقوى على حملها مثله فقد كان الوريث الشرعى لرئيس القبيلة الراحل .. لكن أكثر أقاربه انفضوا عنه وكذلك الاتباع وهكذا استغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت طاعته وأسلمت القياد الى حاكم جديد.

وعندما توطد الأمر للزعيم الجديد لم يشعر بالاستقرار التام فقد كان هناك من يطالب بحقه الشرعى فى وراثة زعامة يسوكاى بهادر لهذا أخذ يطارد تيموجين وفعلا تمكن من القاء القبض عليه الا أن تيموجين تمكن من الهرب بمعاونة بعض الغرباء فقد أعطى الصبى بعض الطعام واللبن الرائب وقوسا وسهمين ففر الى عرض الفلاة. (٢)

وهكذا اتيح لتيموجين أن يفر من وجه أعدائه فبقى طريدا لعدة سنوات عاشت الاسرة خلالها على صيد السمك وحيوانات الصيد الصغيرة فلما بلغ السابعة عشرة حاول لأول مرة أن يتخذ من أصدقاء والده حلفاء له وعلى أقل تقدير أمكنه أن يذهب اليهم لامتسولا بل زعيما له أتباعه من بعض الفرسان. (٣)

وفى الحقيقة لعبت أم تيموجين دورا هاما فى انقاذه من ورطته فقد حاولت كثيرا أن تجمع كلمة القبيلة حوله بعد وفاة والده. ثم وقفت الى جواره بنفسها أثناء فترة طرده وتزوجت من زعيم يدعى(ايجيكه) وبهذه الوسيلة التحقت قبيلته(قونغ قومار) بتموجين فصارت تابعة له مما ساعده كثيرا فى نجاحه على مناوئيه. (٤)

وكان بوسع تيموجين أن يعتمد بالاضافة الى جهود أمه العاقلة المدبرة(هولولون) على عشيرة والد خطيبته(بورتاى) الذى كان أحد الزعماء الأقوياء فى طائفة القنصرات وكانت صلته مع يسوكاى بهادر وطيدة للغاية .

كما كان يمكنه الاعتماد على خان الكرايت(طغرل)الذى شرب مع يسوكاى نخب الصداقة الابدية التىتحتم على أى منهما مساعدة أولاد الثانى فيما اذا دعت الحاجة الا أن تيموجين تردد فى طلب الاستعانة بأى منهما فى بادىء الأمر وذلك حسب قوله بأن زيارة المفلس لاصدقائه لا تجلب غير العار والاحتقار، وصمم الا يزور طغرل كلاجئ وانما كحليف. (٥)

وبالاضافة الى كل ما عاناه(تيموجين) فقد كان هناك خطر المركيت وهم قوم متوحشون فى الشمال وكان لهم ثأر ضد والد تيموجين الذى اختطف من بين ظهرانيهم احدى نسائهم وتدعى"هولولون" وتزوجها فأنجبت له أربعة أبناء أكبرهم تيموجين. (٦)

---

(١) د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٧ ص ٧٣٨

(٢) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٢٣

(٣) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٩

(٤) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ٧٤

(٥) د.عبد السلام فهمى :تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣١

(٦) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١٢

ولما كان والد تيموجين قد اختطفها ليلة زفافها فى احدى غاراته على قبائل المركيت وتزوجها اغتصابا ومع انها كيفت حياتها وأصبحت أما لتيموجين الا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد أن تهب لاخذ الثأر فى يوم من الأيام مهما طال الزمن. (١)

وهكذا قدر لبورتاى زوجة تيموجين أن تقع أسيرة فقد اختطفها الميركيت المغيرون وسلموها الى واحد من محاربيهم انتقاما من أسرة تيموجين الذى فر أمام الهجوم المباغت الجرىء. (٢)

واضطر تيموجين فى مواجهة ذلك أن يتجه غربا الى حيث قبائل الكرايت طلبا للعون لان قبيلته لا تملك بمفردها القدرة على مواجهة المركيت المتوحشين .

ولم يرفض (طغرل) طلب(تيموجين) فتمكن بمعاونة الكرايت من الثأر واسترداد زوجته وان ترتب على ذلك اثارة الشكوك حول صحة نسب ابنه الاكبر حوجى – أى الضيف (فى لغة المغول).

وقدر لتيموجين الذى اكتملت قوته بعد صراعات مريرة مع مختلف القبائل المغولية والتركية ان يقرر توحيد رحل السهول المحاربين فى اقليم الاستبس تحت قيادته. (٣)

وكما أتاح له ذكاؤه الفطرى العملى ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشئون العائلية فى الظروف الحالكة السابقة فقد أتيح له ايضا محاولة تجديد الملكية المغولية فحمل لقب الخان الاعظم واختار لنفسه اسم جنكيز خان" فى سنة٦٠٣هـ/١٢٠٦م واصدر دستوره الشهير المعروف بالياسا". (٤)

وعلى هذا فقبيلة (قيات) قد تمتعت بشهرة ذائعة وقوة غالبة مما حفظ لها مكانة عالية وسيادة و اضحة ومرد ذلك يرجع الى أمرين :

أولا : <u>الموقع الجغرافى :</u>

ذلك أنهذا الموقع بالقياس الى صحراء منغوليا كان يعد موقعا ممتازا تطمع كافة القبائل فى الاستحواذ عليه ، فقد كان لمغول قيات نوع من السيادة المطلقة فى(جوبى) الشمالية على عهد (كابول خان) جد(تيموجين) الاكبر ، وعلى عهد والده (يسوكاى) فقد خصوا أنفسهم بأجود المراعى ، وكانت هذه المراعى قبلة الانظار لوقوعها فى شمال رمال جوبى الزاخرة بين وادبى النهرين الصغيرين الخصيبين" كولن" و"أونون" حيث التلال مكسوة بأشجار التبولا وحيث الصيدوافر والمياه موجودة لذوبان الثلوج كما أن البرد فيها ليس قارصا شتاء كغيرها". (٥)

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ،ص ٢٩
(٢) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٤
(٣) المصدر السابق نفسه ،ص ٤٦
(٤) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٨
(٥) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٣

ثانيا : براعة زعماء القبيلـــة :

وتلك موهبة خاصة تتمثل فى الخبرة العسكرية والقدرة على مواجهة الاخطار والاعداء، والحفاظ على ترابط القبيلة وتماسكها الاجتماعى • وعلى سبيل المثال كان كابول جد جنكيزخان رجلا مهابا له علاقات سياسية مع الصين الشمالية وكان التتار يرهبونه ويخشون لقاءه دون معاونة من غيرهم ويسوكاى الذى قهر التتار ـ كما أشرت ـ تمكن أيضا من قهر قبائـــل الميركيت الاشداء فى الشمال وكان متحالفا مع خان الكرايت الذى يعد أقوى الملوك المجاوريـن له انذاك• أماجنيكز خان وخلفاوءه فمقدرتهم معروفة واضحة وسنتناول الحديث عنهم تباعـــا • ويكفى جنكيز خان أنه قد استرد ملك أبيه ووحد القبائل المغولية تحت زعامته واستن لهـــا (الياسا) وقهر كل القوى الخارجية التى اعترضت طريقه كماسبق القول •

أيا كان الأمر فقد ظلت هذه القبيلة تمثل بيت الرياسة عند المغول اذا استمـــرت محتفظة بهذا المركز لفترات طويلة بعد وفاة جنكيز خان ونورد على ذلك مثالين :

أولا : يقول ابن عربشاه" وقبيلة جنكيز خان هم المتفردون باسم الخان والسلطـــان لايقدر أحد أنيتقدم عليهم ولايمكن لاحد أن ينتزع ذلك الشرف من أيديهم ولو قدر أحد علـى ذلك لكان تيمورلنك الذى استخلص الممالك وسلك المسالك فرفع"سيور غاتمش" دفعا للمطاعـــن وقطعا للسان كل ظاعن" • (١)

ويشير ابن عربشاه الى أن تيمورلنك بعد أن قتل السلطان حسين حاكم سمرقند أقام مكانه من جهته شخصا يدعى(سيور غاتمش) من ذريةجنكيز خان وذلك حتى يضفى على أعمالـه صفة الشرعية ولو موءقتا•

ثانيا : يقول بارتولد" وفى خوارزم" فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ـ وبعد أن توفى الحاكم(آنوشه) انتقل الحكم الى أيدى البطون البدوية التى حافظت على المبـــدأ القائل بأنحق اعتلاء العرش مقصور على أبناء جنكيزخان • وهكذا كان الكازاك يستقدمون مـــن الاستبس الخانات المغلوبين ـ انذاك ـ فيولونهم العرش" • (٢)

ولعل ذلك يعكس مدى المكانة التى حظت بها قبيلة جنكيزخان فى نفوس المغـــول وغيرهم على امتداد الزمن •

٢ ـ التتـــار :

وكانوا يقطنون المنطقة الشمالية التى تحد شمالا بنهر ارخون وسلنجا وشرقا باقليـــم شمالى الصين وغربا بمنازل المغول وجنوبا باقليم التبت ومملكة التانجوت•

والتتار بحكم موقعهم كانوا أقرب قبائل البدو الى حدود الصين • التى لم تسلم مـــن غاراتهم السريعة المفاجئة طلبا للاسلاب والمغانم •• فليس غريبا أن يقال أنهم كانوا السبـب فى بناء سور الصين منذ عهد بعيد•

والتتار الذين كانوا فرسانا محاربين كانوا رعاة وكانمنهم الصيادون • غير أنشهرتهـم

---

(١) عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ١٦

(٢) تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٥٣

فى القتال ذاعت بين معظم قبائل الاستبس حولهم ، فقد كانت قبائل التتار من أشهر قبائل الجنس الاصفر (المغولى) بطشا وجبروتا فى أقاليم آسيا ويذكر المؤرخ رشيد الدين أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما وانهم كانوا أثرياء (١) .

وقد يبدو الحديث عن الثراء موافقا للبطش والجبروت اما الرفاهية والتنعم فكلاهما لا يناسب حياة البداوة التى عاشها التتار ولعلها مسألة نسبية بالقياس الى غيرهم من القبائل المغولية الأخرى .

عموما . لم يكن التتار أقل توحشا من المغول وان كانوا - فيما يبدو اكثر منهم ثراء . وربما فسر ذلك بعض اسباب الصراع بينهما والتى كانت تتركز بشكل أساسى حول الماء والعشب والسيادة على القبائل فى منغوليا .

ولما كان التتار يعادون المغول ويعتبرونهم من الد اعدائهم فقد كان طبيعيا أن ينظر اليهم جنكيز خان بحذر بالغ ولكن كان عليه أن ينتظر الفرصة الملائمة . فما آن انتهى جنكيزخان من حسم الصراع الداخلى فى قبيلته (قيات) وانتهى الامر لصالحه تفرغ لهم وحيث أنه كان مدفوعا بقوة الحقد عليهم والرغبة فى الانتقام منهم فقد قام ومعه جنوده بالاجهاز عليهم واستئصال شأفتهم" . (٢)

وقد هيأت الظروف لجنكيزخان فرصة الانتصار عليهم والقضاء على سلطانهم "اذ لما أرسل الامبراطور الذهبى الذى كان يحكم خلف السور العظيم فى أرض الصين جيشا لمعاقبة التتار الذين كانوا أقرب القبائل الرحل اليه انتهز جنكيز خان الفرصة للتدخل فى الأمر فلما تقهقر التتار أمام جيش الصينيين الذى كان معظم جنوده مشاه يصعب عليهم اللحاق بفرسان التتار انقض جنكيز خان وحلفاؤه من الكرايت - انذاك - على التتار وحطموا قوتهم فاضطروا الى الاستسلام لجنكيزخان الذى لم يضع الفرصة السانحة" . (٣)

وكالعادة كانت الابادة هى أسلم الطرق عند جنكيزخان حتى لايبقى هناك من ينغص عليه أو يشتت انتباهه على مر الوقت وعلى هذا فقد أصدر جنكيزخان أمرا قاطعا بألا يبقى واحد من التتار على قيد الحياة وتنفيذا لهذا القرار صار جنود المغول يقتلون كل من هو تترى اعتقادا منهم أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد الذى كان متوارثا عند المغول" . (٤)

وسواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا أم خاطئا فمن المؤكد أن التتار قد تعرضوا لمحنة شديدة على أيدى جنكيزخان بحيث أن من تبقى منهم قد انصهر فى بوتقة المغول تماما .

وعلى الرغم من هذا كله فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم. (٥)

مما سبق يتضح لنا أن التتار كانوا كقبائل مستقلين عن المغول ومعادين لهم - ولم يحل ذلك دون انتمائهما الى جنس واحد مشترك هو الجنس المغولى.

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولةالمغولية فى ايران نقلا عن رشيدالدين جـ١ ص ٦١

(٢) د. عبدالسلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فىايران ص١٦ نقلا عن رشيد الدين جـ١ ص٦١
د. ستيفن رينسمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١٠

(٣) د. هارولدلامب : جنكيزخان وجحافل المغول ، ص ٥٨

(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص١٨ نقلا عن رشيد الدين جـ ١ ص ٦٢

يقول حسن الامين " تقع منازل التتار شرقى منازل المغول وهم فى الاصل فرع من المغول وتشابه ملامح التتار والمغول وخصائصهم البشرية والاجتماعية كان له أثره فى اختلاط مفهوم التتار ومفهوم المغول على كثير من المؤرخين" (١).

٣ ـ المركيت :

ويسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوبى بحيرة بيكال وهم من جنس مغولى وكان لهم جيش قوى ذو بأس فى الحروب" (٢)

وقد قال عنهم هارولد لامب : " وهم قوم متوحشون يقطنون شمال التندرا فى موطنهم الذى يسمى العالم الأبيض المتجمد وقد كانوا يصطادون الحيوانات ذوات الفراء وفى الشتاء كانوا يستخدمون الوعول فى جر الزحرفات فوق الطرق الجليدية" (٣).

ويبدو أن هؤلاء المركيت كانوا أقرب الى امتهان حرفة الصيد لقربهم من مناطق الغابات حيث الاشجار والثلوج فى الشمال البارد.

وقد سبق الاشارة الى صراعهم ضد "يسوكاى بهادر" زعيم قبيلة (قيات) المغولية ثم فى مواجهة ابنه الاكبر جنكيزخان الذى استطاع أن يشن عليهم حربا شعواء فلم ينج من سيوف قواته الا القليل . وذكر رشيد الدين فضل الله ذلك فى كتابه جامع التواريخ اذ قال "لم ينج من سيوف جنكيز خان وجنوده الا بعض الهاربين أو من استطاع الاختفاء لدى اقاربه أو من كانوا لايزالون أجنة فى بطون أمهاتهم" (٤).

وجدير بالذكر أن جنكيز خان لم يقو على مواجهة المركيت منفردا حيث انه لم يسترد زوجته منهم الا بمعاونة الكرايت .. ويكفى هذا دلالة على قوتهم فقد كانوا شعبا مستقلا من شعوب المغول له قوته ونفوذه.

ولم تكن الهزيمة أمام جنكيزخان ـ فيما يبدو ـ نهاية المطاف بالنسبة للمركيت فلعل آخر مقاومة أبدوها فى مواجهة المغول كانت اشتراك أميرهم الفار عقب هزيمته مع كوجلك أمير النايمان الهارب بدوره من وجه جنكيزخان فى الاستيلاء على عرش القراخطائيين فى التركستان الصينية. (٥) غير أن الأحداث فيما يبدو قد تطورت سريعا لصالح جنكيزخان الذى أرسل جيشا كبيرا تمكن من قتل كوجلك أمير النايمان والقضاء على أتباعه ، فانتهت بذلك آخر فرص العصيان لدى المركيت والنايمان فى آن واحد.

٤ـ قبائل اويرات

وهم من القبائل المغولية التى أثرت بشكل واضح فى الأحداث السياسية فى عهد جنكيز خان ومن تلاه ، وهم من أصل مغولى ويقيمون فى المنطقة الواقعة بين نهر (أوتن) وبحيرة بيكال (٦)

---

(١) حسن الامين : الغزو المغولى ص ٣٤

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٩ نقلا عن رشيدالدين جـ١ ص ٩٠

(٣) د. هارولدلامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٣٤

(٤) د.عبدالسلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فىإيران ص١٥ نقلا عنرشيد الدينجـ١ص٧٣

(٥) المصدر السابق نفسه ،ص ٣٩

(٦) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٩.

ويبدو أن قبائل الاويرات كانت تنتقل على مقربة من المنطقة التى كان يعيش فيها الاتراك القرغيز عند منابع نهر ينسى .. فقد كانت " وتسمى هذه المنطقة" سه كبر موره ن) وتدل هذه التسمية على أن اللسانين التركى والمغولى كانا متداخلين فان كلمة" سه كيز)، تركيه بمعنى ثمانية وكلمة (موره ن) مغولية بمعنى نهر".(١)

وهذا الرأى يشير الى التجاور المكانى والتقارب اللغوى بين المغول والاتراك غير أن اللغة وان كانت دليلا على التجاور أوالاتصال فانها لاتصلح أن تكون وسيلة لتحديد الأجناس كما سبق القول.

كان الاويرات كثيرى العدد ويتكلمون بلغة تختلف قليلا عن لغة القبائل والطوائف المغولية الأخرى ، وقد تشعبوا الىعدة شعب الا أنهم كانوا يأتمرون بأمر ملك واحد ولما جاء جنكيز خان خالفوه بعض الشئ فى البداية وناصبوه العداء الا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الطاعة والخضوع وقد صاهرهم جنكيزخان فيما بعد".(٢)

ونتيجة لصلة التبعية هذه فقد صار مقررا أن تساهم قبائل اويرات فى حروب جنكيزخان الذى كان مصمما على اهلاك كوجلك (ابن ملك النايمان) الذى فر والتجأ الى ملك القراخطائيين فى التركستان الشرقية كذلك كانت هناك الحروب العديدة التى خاضها المغول ضد الدولة الخوارزمية والتى بادرت مختلف القبائل المغولية الى المشاركة فيها حتى تحظى بشرف النصر ونيل الغنائم .

ولعل أول شخصية ذات تأثير سياسى من قبائل الاويرات قد ظهرت على مسرح الاحداث كانت شخصية الأمير ارغون انما الاويراتى حينعينته الامير توراكينا خاتون فى أثناء فترة وصايتها على العرش الخاقانى(٦٣٩ ـ ٦٤٤) هـ حاكما عاما على ايران ومايليها فى اتجاه الغرب.

وكان من الطبيعى أن يصحب هذا الامير معه أكبر عدد ممكن من بنى جلدته الاويرات حتى يكونوا عونا له وسندا.

وكان هذا الأمير غايةفى النشاط فقد حضر(القوريلتاى) الذى عقد سنة٦٤٤ هـ لتولية كيوك وكذلك القوريلتاى الذى نصب فيه منكو سنة٦٤٨ هـ ـ كما استقبل هولاكو بعد خروجه فى حملته الشهيرة فأقام له فى ايران عدة ولائم سنة٦٥٣هـ وفى اثناء حصار مدينة بغداد سنة ٦٥٥ هـكان هذا الامير مصاحبا لهولاكو منذ بدء الحصار..(٣)

ولم يعد لهذا الأمير نفس المكانة عقب استقرار هولاكو خان فى عاصمته(مراغة) غير أن اتباعه من الاويرات كانوا ولاشك موجودين فى ايران ففى أثناء ولاية الايلخان المسلم احمد تكودار (٦٨٠هـ /٦٨٣هـ) قدم الشيخ على الاويراتى فى رمضان سنة ٦٨١ هـ وكان قد أسلم وخدم الفقراء وتبعه جماعة من أولاد المغل فسار بهم الى الشام ومصر ومثل بحضرة السلطان (قلاوون) فى قلعة الجبل فى ثامن عشر من ذى القعدة ومعه أخوته الأنوش وعمر وطوغى وجوبان وجماعة غيرهم فأحسن السلطان اليه ومن معه ورتب بعضهم فى جملة خاصته"(٤)

---

(١) د.بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الصغرى ص ١٥٢

(٢) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٣، ١٤

(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٦٥

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٧٠٩

أما الشخصية الثانية .. فهو الامير (نوروز) بن الامير أرغون السابق وكان مسلما حسن الاسلام رغّب غازان فى الاسلام ووقف الى جواره فى وجه الايلخان بايدو حتى تحقق له النصر عليه فأعلن غازان اسلامه بفضل هذا الامير الذى علمه بعض آيات من القرآن الكريم .

غير أن هذا لم يمنع من أن طائفة من الاويرات كان لها موقفا مختلفا عن موقف الامير (نوروز) يقول عنهم أبو الفدا عندما وفدوا الى مصر فى عهد السلطان المملوكى كتبغا (٦٩٤ /٦٩٦هـ) .. "وفى سنة ٦٩٥هـ قدم من المغول نحو عشرة آلاف انسان خوفا من غازان وكان مقدمهم يقال له (طرغيه) من أكبر أمراء المغول مزوجا ببنت منكوتمر بن هولاكو ويقال لهذه الطائفة الاويراتية وكان سبب قدومهم أن مقدمهم (طرغية) هو الذى اتفق مع بايدو على قتل ابن عمه كيخاتو فلما ملك غازان قصد امساك طرغية وقتله أخذا بثأر عمه كيخاتو فهرب طرغية وجماعته المذكورون بسبب ذلك ." (١)

ويشير هذا القول الى انحياز طائفة الاويرات هذه الى جانب بايدو حتى نجح بمعاونتهم وغيرهم من المغول فى ازاحة الايلخان كيخاتو مستغلا ما ارتكبه هذا الاخير من انحرافات أخلاقية فكان أن اعتلى عرش الايلخانية سنة ٦٩٤ هـ فلم يلبث أن هب غازان فى وجهه وانتزع منه الحكم ثم أمر بقتله وتم ذلك فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ بعد أن جلس على العرش مدة سبعة أشهر". (٢)

وهكذا وجد الاويرات أنفسهم وجها لوجه أمام غازان فلم يعد أمامهم ملاذ سوى الرحيل صوب مصر - عدو الايلخانيين التقليدى . حيث بادر السلطان المملوكى كتبغا الى استقبالهم بحفاوة بالغة" وأنزلهم بالساحل قرب (قاقون) وأدر عليهم الارزاق وأحضر كبراءهم عنده الى الديار المصرية وأعطاهم الاقطاعات الجليلة وواصلهم بالخلع وقدمهم على غيرهم. (٣)

وبالطبع كان كتبغا - وهو مغولى الأصل - يحتاج اليهم كى يساندوه فى الاستمرار فى الحكم عقب ازاحة الناصر محمد بن قلاون عن الحكم فى فترة ولايته الاولى (٦٩٣/٦٩٤هـ) حيث كان الصراع على الحكم محتدما بين أمراء المماليك كل يحاول قدر جهده وامكانياته.

وعلى هذا فقد أدى احتضانه لهم وميله اليهم واهتمامه الشديد بهم الى اثارة الامن والاحقاد عليه من قبل امراء المماليك خصوصا عندما ظهر انهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية". (٤)

وفى سنة ٦٩٦ هـ ازيح السلطان كتبغا عن الحكم فى مصر وكذلك "قتل الامير (نوروز) بن ارغون الاويراتى بأمر السلطان محمود غازان". (٥) نتيجة للخلاف الذى وقع بينهما بسبب اضطراد نفوذ هذا الامير والمؤامرة التى دبرت له حيث اتهم بالتآمر سرا مع المماليك فى مصر.

---

(١) ابو الفدا : تاريخ المختصر فى أخبار البشر جـ٤ ص ٣٣، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٠٨، ٥٤٧

(٢) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٨

(٣) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٤١

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢

(٥) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٧

وهكذا أسفر الخلاف عن حقيقته بين المماليك فى مصر وبين السلطان غازان الــذى كان يعتبر نفسه أقوى حاكم مسلم فى عصره. والذى ازداد حنقه على المماليك بسبب العـداء التقليدى من جهة وبسبب انهم كانوا يأوون — من وجهة نظره — انصار عدوه السابق (بايــدو)

وفى الجانب الاخر اختلط المماليك فى مصر بهذه الطائفة (الاويرات) وامتزجوا بهــا وتصاهروا رغم أنهم كانوا يأنفون عن تلك المصاهرة مع المصريين ويذكر المقريزى أكثر من زيجة لامراء من المماليك تزوجوا بنساء من الاويرات .

والغريب ان هذه الطائفة حاولت الاستيلاء على السلطة فى مصر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية (٦٩٨هـ/ ٧٠٨ هـ) يقول المقريزى" واشتد حنـــق الطائفة الاويراتية الذين قدموا فى ايام العادل كتبغا من أجل من قتل من أمرائهم فى أيــام السلطان المنصور (لاجين) ومن خلع (كتبغا) واخراجه الى صرخد ومن استبداد البرجية بالأمور وعزموا على اثارة الفتنة وصاروا الى الأمير قطلوبرس العادلى وأقاموه كبيرا لهم واتفقوا علــى أن "برنكاى" أحد المماليك السلطانية و"الوص" أحد كبراء الاويراتية يهجم كل منهما علـــى الاميرين بيبرس وسلارا ويقتله ويعيدون دولة كتبغا". (١)

ولقد كان مصير هذه الفتنة الفشل حيث تمكن مماليك السلطان الناصر محمد بـــن قلاوون من اخمادها وقبضوا على الاويراتية ومن ازرهم من المماليك وشنق منهم خمسون رجــلا جزاء الجرم الذى ارتكبوه .

وهكذا لعبت قبائل اويرات دورا بارزا موثرا فى الاحداث سواء فى موطنها الأصلــى ايام جنكيزخان أم خارجه فى ايران ومصر..

٥ — التانجـــوت :

وهم من المغول الذين أقاموا فى الأطراف الجنوبية لهضبة منغوليا مجاورين لحـــدود الصين الغربية انذاك يقول الدكتور محمد السيد غلاب "يسكن المغول منطقة السهوب الواسعة والهضاب العالية التى تبدأ من منشوريا وسيبريا الشرقية حتى هضبة منغوليا وهؤلاء هـــم المغول بادق معنى للكلمة ومنهم التانجوت". (٢)

ويقول عنهم بارتولد" التانجوت قوم من أهل التبت وكانوا يقطنون فى جنـــوب منغوليا المتاخمة للصين". (٣)

ويبدو أن التانجوت — وهم مغول على أية حال — كانوا دائمى الترحال — شأنهـم شأن غيرهم من الرعاة — يتحركون فى المنطقة ما بين جنوبى منغوليا وشمالى هضبة التبت — فكيف بدأت علاقتهم بجنكيز خان قبل أن يستوى خاقانا اعظم على قبائل المغول (٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦م).

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨٨٣، ٨٨٤
ابن خلدون : العبر فى ديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤١٣
(٢) تطور الجنس البشرى ، ص ٣٠١
(٣) تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ٤٦، ١٤٨.

تمكن جنكيز خان فى الفترة مابين (٦٠٠هـ/٦٠٣هـ) من هزيمة أقوام من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحدود الشرقية للتركستان" (١).

فاذا استنتجنا – بحكم الموقع الجغرافى – ان التانجوت كانوا أحد هذه الأقوام التى هزمها جنكيز خان عند حدود التبت أدركنا أن خضوع التانجوت لجنكيز خان كان خضوع المغلوب المهزوم غير أن احد المؤرخين يرى أن تبعية التانجوت لجنكيز خان كانت أختيارا لا قسرا ، يقول ففى سنة١٢٠٧م استولى جنكيزخان على دولة (تانجوت) الواقعة على حدود الصين الغربية وكان قد أخضعها امبراطور كين (امبراطور الصين الشمالية) منذ آن قريب فألقت بنفسها فى أحضان ذلك الفاتح الجديد" (٢)

عموما وجد التانجوت أنفسهم بعد هذه التبعية مضطرين لمشاركة جنكيز خان فى حروبه ضد أعدائه وخصوصا قبائل النايمان . وحينما قتل رئيس التانجوت لأنه وقف الى جانب جنكيزخان ضد النايمان بادر جنكيز خان الى مد يد العون لأسرته وثبت أبنه على العرش وزوجه من ابنته وحفظ السلطان فى بيته" (٣).

غير أنهذا كله لم يخل دون أن يفكر التانجوت فى التمرد على سلطان جنكيز خان المنشغل انذاك بحروبه خارج منغوليا فبادروا الى نزع التبعية واعلان العصيان مما أغضب جنكيزخان عليهم غضبا شديدا لدرجة أنه بمجرد عودته الى منغوليا استدار متوجها بجيشه نحوهم" (٤) حيث قام بحملته الأخيرة على مملكتهم التانجوت فى شمالى التبت لان ملكها أعلن الثورة على الحكم المغولى" (٥).

لكن المرض حال بين جنكيزخان وبين أن يتم هذه المهمة بنفسه ولانه كان يدرك خطورة موقف التانجوت وأهمية موقع بلادهم فقد وكل هذه المهمة الى ابنه تولوى الذى نهض بالامر كله تماما بعد ساعات من وفاة أبيه... ولقد كان المغول مدركين تماما خطورة أمر التانجوت ولهذا عمد اوكتاى الى تدعيم السيطرة عليهم قبل الشروع فى أى هجوم جديد ضد الصين.

ثانيا : قبائل مغولية تركيـــة

١ – الكرايـــت

وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة فى صحراء جوبى ، وجنوب بحيرة بايكال وشمالى مملكة التانجوت .

يقول الدكتور الصياد" ولا يعلم على وجه الدقة ما اذا كان هؤلاء الكرايت من المغول أم من الاتراك ولكن من المعروف ان كثيرا من رؤسائهم كانوا أتراكا (٦) " وهو قول

---

(١) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٣
(٢) عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ص ٦٣
(٣) د.السيد الباز العرينى : المغول ص ١٥١
(٤) رزق منقريوس الصدفى: تاريخ دول الاسلام جـ٣ ص ٢٧٣
(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٨٨
(٦) المصدر السابق نفسه : ص ٨٠

له دلالة خاصة فاذا كان الرؤساء أتراكا والكرايت انفسهم من المغول فلعل ذلك كان فى الفترة التى خضعت فيها منغوليا لسيطرة الاتراك الاويغور او الاتراك القرغيز فلعلهم كانوا حكاما وكان مغول الكرايت محكومين أوتابعين .

فاذا قبلنا ان الكرايت كانوا من الاتراك ورؤساءهم أيضا من الاتراك فان هذا يعنى أن الكرايت ينتمون الى العنصر التركى لا المغولى . ولكن الدكتور الصياد يعود فيقول "وقد ظلت قبائل الكرايت مدة القرنين الخامس والسادس الهجريين من أقوى اقوام المغول اذ استطاعوا أن يخضعوا أغلب الطوائف فى الأطراف وأجبروهم على الدخول فى طاعتهم أو دائرة نفوذهم (١) . بل فهذا الرأى يقرر مغولية الكرايت أثناء ظهور جنكيزخان على مسرح الاحداث السياسية ويجعل لهم التفوق العسكرى على جيرانهم المغول ممن اشتهروا بالقوة والشجاعة مثل التتار والمركيت وغيرهما .

واذا لم نجد فى كتاب بارتولد" تاريخ الترك فى آسيا الوسطى " أدنى اشارة الى أن الكرايت من الاتراك اتجه تفكيرنا الى تغليب الرأى القائل أنهم من المغول غير أن الدكتور ستيفن رنسيمان يقرر أن "الكرايت شعب بدوى ينتمى الى أصول تركية" (٢) وهى نفس العبارة التى رددها الدكتور عبد السلام فهمى اذ يقول" الكرايت شعب بدوى ينتمى الى أصول تركية" (٣) غير أن هذا الكاتب نفسه يعود فينقل عن الدكتور الصياد قوله السابق " وقد ظلت قبائل الكرايت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) اقوى قبائل المغول واستطاعوا اخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم" (٤) فيرجع بنا الى القول بمغولية الكرايت.

وهكذا رأينا مدى اختلاف الاراء حول تحديد أصل الكرايت . ليس بين المؤرخين . فاذا مادققنا النظر فى الموقع الجغرافى لهذه القبائل وجدناها تجاور العنصر المغولى المتمثل فى قبائل قيات والتتار والمركيت والتانجوت كما تجاور أيضا العنصر التركى المتمثل فى الاويغور والنايمان والقارلوق .

ويبدو أن هذا الموقع الجغرافى قد أثر فى حياة الكرايت فعلى الرغم من حياة البداوة التى كانت تحيط بهم فانهم كانوا يفضلون ممارسة التجارة على حياة الرعى أو الصيد فقد كان (أونك) المسن خانا لقوم يختلفون تماما عن الفرسان الرحل ولما كان قومه الكرايت يعيشون فى مناطق قريبة الى طرق القوافل فانهم كانوا يتجرون على نطاق أوسع من غيرهم مع العالم الخارجى" (٥) .

ولعل ذلك يدفعنا الى القول بأن الكرايت كانوا أكثر تمدنا وتحضرا من غيرهم كما كانوا على صلة طيبة بامبراطورية الصين المتحضرة .

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩
(٢) د. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٠
(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٤
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤
(٥) هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٥.

ويؤكد ابن العبرى أهمية الكرايت فى حياة جنكيزخان فيقول " كان المتولى على قبائل الترك المشارقة أونك خان من القبيلة التى يقال لها كرايت وكان تموجين فى ملازمة لخدمة (أونك) خان من سن الطفولة الى أن بلغ حد الرجولة. (١)

ويشير ابن العبرى هنا الى الفترة التى عاش فيها تموجين (جنكيزخان) حائرا شريدا عقب وفاة والده مسموما على أيدى التتار .

ويبدو أن اتصال تموجين بملك الكرايت كان مرهونا بمعاهدة خاصة. اذ أن (أونك) خان كان قد تغلب على عمه الذى ينافسه على عرش الكرايت بمعاونة رئيس مغولى هو (بيسوكاى بهادر) والد جنكيزخان فصار أخا له بحكم ما تعاهدا عليه واقسما من يمين فهيأت هذه الصداقة ليسوكاى مكانة رفيعة بين زعماء المغول غير أنه مات قبل ان يستقر خانا أعظم للمغول. (٢)

وقد استطاع (أونك) ان يهزم التتار تلبية لرغبة بلاط (كين) وبهذا صار أقوى ملك فى منغوليا وقد منحه امبراطور كين تقديرا له على أعماله اللقب الصينى للملك وهو وانج Wang وعرف (أونك) هذا فى التاريخ بلقبيه الملكيين الصينى والتركى وهما (وانج خان) وقد بدا (تيموجين) آنذاك – تابعا لهذا الملك. (٣)

وعلى هذا ارتعدت فرائص بعض زعماء القبائل شرق بحيرة بيكال رعبا من سيطرة (وانج خان) واتباعه الكرايت وجيوشه الزاحفة نحو الغرب فأرسلوا الى (تيموجين) يطلبون النصح أو قل ليكشفوا عن الخطوة التى كان ينوى اتخاذها فى مسألة علاقته بالكرايت. (٤)

ولما كان ابن (أونك) خان يخشى نفوذ (تموجين) على والده فقد اتجه الى (جاموكا) أحد زعماء القبائل المغولية وكانت تربطه بتموجين صلة القرابة وكان يسعى الى الحصول على زعامة مغول (قيات) لنفسه لذا قرر هو وابن (أونك) خان ان يحطما تيموجين. (٥)

فلا غرو أن انقضت جحافل المغول على الكرايت فى قلب مدنهم ومراعيهم فأخذ الكرايت على حين غرة ففر ملكهم بصحبة ابنه تجاه الغرب البعيد حيث قتلهما رجال القبائل التركية اما (جاموكا) فقد أسر حيا حيث أعدم على الطريقة المغولية فقد أخمدت أنفاسه اذ أن المغول لايسمحون بأن يسيل دم ملوكهم أو أمرائهم على الارض.

وهكذا فقد رأينا اختلاف الرأى حول أصل الكرايت. وسواء أكانوا مغولا أم أتراكا ، فلقد أثروا فى حياة جنكيزخان اكبر تأثير.

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٤٣
(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١١
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩
(٤) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٤
(٥) المصدر السابق نفسه ،ص ٥٨

٢ ــ النايمــان :

وهم من الاتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى ويقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخن ومنحدرات جبال آلتاى وحول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق (١) . خاصة شمالى بحيرة بلكاش وهى الأراضى التى تفصل تركستان القديمة عن سيبيريا. (٢) أى من شمالى نهر أرخن الى نهر ارتيش ولقد كان النايمان فى عهد جنكيزخان يسكنون الجزء الغربى من منغوليا أى المجاور لمملكة الكرايت ولكنهم كانوا فى نزاع وشقاق مع تلك الطائفة. (٣)

ويرى المستشرق الروسى بارتولد أنهم من المغول اذ يقول وقد كان هناك كتاب أرسله قس نسطورى فى اسيا الوسطى الى الجاثليق فى بغداد تحدث فيه عن هجوم قام به قوم منقسمون الى ثمانية قبائل ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم المغول المسمون (نايمان) ومعروف أن كلمة (نايمان) بالمغولية بمعنى ثمانية وفى الكتاب ان القوم المهاجم كان منقسما الى ثمانية قبائل. (٤)

والرأى السابق ــ فيما يبدو ــ يرى أن النايمان من المغول وليسوا من الاتراك وهو رأى له أهميته اذا ما قدرنا أن المستشرق الروسى بارتولد كان من أبرز المتخصصين فى دراسة تاريخ الترك فى اسيا الوسطى .

ويرى الدكتور عبد السلام فهمى أنهم من الاتراك اذ يقول" وهم من الاتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى فقد كانوا يتكلمون اللغة المغولية كما كانوا بدوا رحلا يقيم بعضهم فى مناطق الجبال الوعرة والبعض الآخر فى الصحارى وعموما فقد كانوا رغم تركيتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغول. (٥)

ويفهم من هذا الرأى ان النايمان كانوا أتراكا يشبهون المغول ولكن صاحبه يعود فيقرر فى نفس المؤلف غير ذلك اذ يقول" وفى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤م) أغار جنكيز خان على قبيلة النايمان المغولية وهزمهم عند حدود (اكتاى) (٦) فوصف قبيلة النايمان بالمغولية يشير الى مغولية النايمان ويناقض الرأى السابق لنفس الكاتب حول أصل النايمان.

فاذا ما رجعنا الى الموقع الجغرافى وجدنا النايمان أقرب الى القبائل التركية كالقرغيز والاويغور والقارلوق والى التركستان بصفة عامة أكثر منها الى القبائل المغولية.. فاما عن علاقتهم بجنكيز خان فقد كانت عدائية منذ معركة آلتاى . ذلك أن تايانك خان" رئيس قوم النايمان قد عرف أن "تيموجين" الذى تغلب على الكرايت وقتل طغرل خان رغم ما بينهما من عهود وتحالف سوف يهاجمه ويقضى عليه فاستعد لمحاربته سنة ٦٠٠ هـ فما كان من جنكيزخان الا أنه قد حمل حملة موفقة على (تايانك) خان وتغلب عليه وأصابه بجرح بليغ فتوفى بعد قليل متأثرا بجراحه وبذلك سيطر تيموجين على تلك الطائفة. (٧)

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٩

(٢) عباس الغزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ٨٣

(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠

(٤) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢١

(٥) تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٤

(٦) تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٢

(٧) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٨

ولما كان كوجلك بن تايانك خان قد فر الى بلاد القراخطائيين حيث اشتد ساعده فقد سارع جنكيز خان فأرسل جيشا كبيرا بقيادة" جبة نوبون" الذى قتل كوجلك وأرسل رأسه الى جنكيز خان فى منغوليا ثم أعمل المغول سيوفهم فى كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضوا عليهم جميعا سنة٦١٥هـ. (١)

ومعنى ذلك ان جزء من النايمان قد صاحب كوجلك فى فراره نحو ممالك القراخطائيين فكان مصيرهم فى النهاية القتل العام على يد المغول. ويكفى للدلالة على قوة هذا الشعب ومدى معارضته لجنكيزخان أن المغول قد استغرقوا خمسة عشر عاما فى محاربة هذا الشعب العتيد. ويؤكد ذلك قول ستيفن رنسيمان" يعتبر النايمان من الامم القوية التى اخضعها جنكيز خان لحكمه سنة١٢٠٤م /٦٠٠ هـ ، بعد معكة عنيفة دارت فى شقير مأوت حيث تعرض مصير سلطان جنكيز خان للخطر. (٢)

والى مثل هذا ذهب هارولد لامب يقول :" فقد أصر خان المغول العنيد الذى لم يكتف بانتصاره على الكرايت على قيادة جحافله نحو الغرب حيث أودية النايمان ليقهر هذا الشعب القبلى العنيد الذى كان يناصبه العداء. (٣)

فاذا ما أدركنا أن اخضاعهم كان فى سنة ٦١٥ هـ أى بعد معركة شقير فأوت بخمسة عشر عاما أدركنا مدى قوة هذا الشعب ومدى الجهد الذى بذله جنكيز خان للسيطرة عليه.

٣ - القراخطائيون :

وقد اختلفت الاراء حولهم فبعض المؤرخين يرونهم من المغول والبعض الاخر يراهم من الاتراك ووليام لانجر يرى أنهم من المغول يقول" والمغول الخطائيون (بلاد الخطا) استطاعوا زمن مؤسس الاسرة (يى لوباوتشى) ٩٠٧ - ٩٢٦م ان يفتتحوا جميع بلاد منغوليا الداخلية وكذلك ست عشرة مقاطعة شمالية فى الصين واعترف الجميع بسيادة هذا الملك حتى الايغوريين". (٤)

ويؤكد بارتولد على مغولية القراخطائيين فيقول" والظاهر أن طرد الترك من منغوليا مرتبط بالقوة التى وصل اليها قوم من المغول فى بداية القرن العاشر وهم الخطاء، وقد أقام هؤلاء دولة قوية فى شمالى الصين سموها (خطاى) " (٥)

ويشير ادوار بروى الى الصلة بين المغول والخطا فيقول" اشتد ساعد المغول شيئا فشيئا فأقاموا علاقات صداقة مع الخطا أبناء جلدتهم المتحينين المتحضرين" (٦) فهو يشير الى الزيارة التى قام بها"كابول"وهو (من أجداد جنكيز خان) الى بلاط" كين" فى الصين الشمالية.

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤
(٢) تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١٦
(٣) جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٦
(٤) موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩١٧
(٥) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٩٦
(٦) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٥٩

ويقول رزق الله الصدفى " الخطا قوم من التتر الشرقيين (يقصد المغول) تملكوا بلاد الصين الشمالية وجزء من بلاد التتر" (١) .

ولكن الدكتور حلمى أحمد يرى أن القراخطائيين ليسوا مغولا فحسب بل هم أتراك أيضا . يقول " ينتمى القراخطائيون الى عدة قبائل تركية مغولية وكان أفرادها يسكنون أقصى الصين ويعتنقون الوثنية" (٢) .

ويرى الدكتور عبد السلام فهمى أنهم من الاتراك وان اتضح فيهم الطابع المغولى وذلك حين يتحدث عن العلاقة بين كوجلك أمير النايمان الهارب من وجه جنكيزخان وبين كورخان ملك القراخطائيين وكانوا قد هاجروا من شمال الصين واستقروا فى التركستان الصينية يقول : " وكان كورخان يخشى ضيفه كوجلك فهو تركى مثله وأن كانت عقليته مغولية بماتحمل من معانى الغدر واللوءم والخيانة" (٣) .

ويرى الدكتور براون أنهم من الأتراك فيقول " ان السلطان الخوارزمى (أتسز) دبر الثأر لنفسه من (سنجر) السلطان السلجوقى بأن حرض عليه الكفره من الاتراك الخطائيين . (٤)

وكذلك يرى الدكتور عبد النعيم حسنين أنهم من الاتراك فيقول " كانت القبائل القراخطائية مجموعة من القبائل التركية التى سكنت شمالى شرقى ايران فى عهد السلاجقة" (٥)

والقلقشندى يصرح أنهم من الأتراك ، يقول " الخطا بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الاخر، هم جنس من الترك بلادهم متاخمة لبلاد الصين" (٦) .

ويرى الدكتور فوءاد الصياد انهم من الأتراك ايضا اذ يقول " الأتراك القراخطائيون كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى كانت تقع مابين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق" (٧) .

فاذاماعدنا للحديث عن تاريخ القراخطائيين فى شمالى الصين وجدنا حالهم هناك قد تدهور كثير حيث"تمكنت قبائل تونجس جورشن من خلع حكامهم الخطائيين فىمنشوريا واستطاعت هذه القبائل أن تستولى على أراضيهم فى الصين بفضل ما لقيت من مساعدة من بعض الصينيين ى عام(١٠٢٢/١٢٠٣م) (٨)

---

(١) تاريخ دول الاسلام جـ٢ ص ٢٠١
(٢) السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ١٠٦
(٣) تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٩
(٤) تاريخ الأدب فى ايران ص ٣٨٤
(٥) سلاجقة ايران والعراق ،ص ١١٦
(٦) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٨٣
(٧) المغول فى التاريخ ص ٦
(٨) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ٣ ص ٩٢٣.

وهكذا اضطر اخر ملوك أسرة(ليأو) وهوالاسم الذى أطلق على حكام القراخطائيين فى شمال الصين ، اضطر الى الهجرة تجاه الغرب فاتبعه بعض شعبه على حين ظل البعض الاخر فى شمال الصين خاضعا للامر الواقع هناك ، فلما قوى جنكيزخان وأعلن الحرب على حكم(الالتون خاتون) أى الأسرة الذهبية التى حكمت شمالى الصين اعلن شعب ليأو الثورة مؤيدا جنكيز خان . وقد درج المؤرخون المسلمون على اطلاق اسم(قراخطائيين) على كل الخطأ سواء من هاجر منهم الى الغرب أو من بقى فى الصين" (١) .

ويبدو أن هذه الهجرة قد استغرقت وقتا طويلا نجح بعده القراخطائيون فى الاستيلاء على مدينة (بالاساغون) عام (٥١٨هـ ١١٢٤م) واتخذوها عاصمة لدولتهم" . (٢) ثم بدأوا غزواتهم فى اتجاه الشرق فأخضعوا مملكة(كاشغر) ثم اتجهوا نحو الشمال الشرقى ليؤدبوا القرغيز اعداءهم القدامى وكذلك خضع لهم الاويغور .

وفى سنة١١٣٧ بدأوا يتدخلون فى شئون تركستان الغربية وغلبوا خان سمرقند بالقرب من خجند وفى سنة١١٤١م هزموا السلطان سنجر السلجوقى فى صحراء قطوان شمالى سمرقند، "والواقع أن القار اخيطاى ـ كما يقول بارثولد ـ لم يذهبوا بعيدا بل وقفوا عند حدود جيجون ومع ذلك استولوا بعد قليل على مدينة بلخ الواقعة جنوب هذا النهر ودخلت تحت حكمهم معظم البلاد الاسلامية بتركستان ومن بينها بخارى وخوارزم. (٣)

فلما بدأت دولة الخوارزميين فى القوة والانتشار دخل تحت حكمها بخارى وسمرقند وخوارزم .. وان كان السلطان الخوارزمى اتسز قد قبل اعطاء القراخطائيين الجزية اتقاء لشرهم وحتى يتفرغ لمهام اخرى .

وقد ظلت هذه الدولة قوية الى حين قدوم كوجلك أمير النايمان الهارب من وجه جنكيز خان حيث ظهر كوجلك أول الأمر تابعا لكورخان الخطا فجمع جنودا غفيره من طائفة النايمان وكل جندى مغولى فر من وجه جنكيز خان وشكل من أولئك وهؤلاء جيشا سرعان ما تكامل عدده وعدته وانضم اليه حاكم الميركيت الفار من بطش جنكيزخان وبعض من اتباع كورخان نفسه حتى صار جيشه أقوى من جيش القراخطائيين. (٤)

وعندما نشب القتال بين القراخطائيين وكوجلك واتباعه دارت الدائرة على جيوش القراخطائيين وأسر ملكهم كورخان وزج به فى السجن حيث توفى بعد عامين . أما الخوارزمشاه فقد أمر جيشه باعمال السيف فى رقاب البقية الباقية من الجيوش القره خطائية المنهزمة أو الجنود الفارين من أرض المعركة، "فلم ينج منهم الا القليل تحصنوا بين جبال تركستان" . (٥)

أما كوجلك خان، ملك طائفة النايمان المنتصر، فانه اعتلى عرش القرة خطائيين وأخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة فأخضع عددا كبيرا من القبائل وكان بعضها

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٢٢
(٢) د. عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ص ١١٦
(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٣
(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٩
(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٦٠٧

تابعا للمغول فوسع املاكه حتى شملت الاقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية (١) .

وهكذا سقطت دولة القراخطائيين تحت وطأة المغول الفارين من منغوليا أولا ثم بمساهمة فعالة من السلطان الخوارزمى ثانيا .

وفى تقديرى . ان اتهام الخوارزميين بابادة دولة القراخطائيين فيه كثير من المبالغة لان المعركة الحاسمة التى دارت بين كورخان القراخطائيين وبين جوجلك لم يتجاوز دور الخوارزميين فيها أكثر من القضاء على البقايا المنهزمة من الجيوش القراخطائية وفى اعتقادى أن الخوارزميين كانوا سيقومون بنفس الدور لو دارت الدائرة على كوجلك واتباعه فقد قاد السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد جيوشه ووصل الى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية انماجاءت لتوءازره" . (٢)

يقول أستاذنا الدكتور أحمد شلبى " ويتجه كثير من المؤرخين الى لوم علاء الدين لانه قضى على ملوك ما وراء النهر فهدم بذلك السور الذى كان يحول بين المغول وبين البلاد الاسلامية ولكننا لا نوافق على هذا الاتجاه ، فان بلاد ما وراء النهر التى لم تقو على صد خوارزمشاه ما كان يمكن أن تقف سورا أمام المغول" . (٣)

وفى الحقيقة فان مصير دولة القراخطائيين كان أكثر تأثرا بالزحف المغولى من الشرق منه بتحركات خوارزمشاه (٤) خصوصا وأن أطماع جنكيز خان كانت ظاهرة واضحة اذ لايعقل أن المغول كانوا يكتفون بمركزهم فى آسيا الوسطى ولاينساحون نحو الجنوب الغربى والقرائن تؤيد ذلك فان كل غاز لاقليم تركستان كان لابد وأن يغير عاجلا أو آجلا على الهضبة الايرانية" . (٥)

وفى تقديرى أن المغول كانوا قادمين بعوامل دفع قوية منها الانتصارات الهائلة فى جبهة الصين ومنها متابعة كوجلك خان أمير النايمان الهارب ومنها الاستمرار فى حركة الغزو الخارجى درأ لخطر عودة القبائل المغولية الى الصراع فيما بينها .

وجدير بالذكر أن نقول هنا " ان سلاطين القراخطائيين رغم أنهم لم يكونوا مسلمين ولم يقبلوا الدخول فى الاسلام — كانوا فى أغلب الأحيان حسنى السيرة عادلين اذ كانوا يأمرون عمالهم برعاية قوانين الدين الاسلامى" . (٦)

وعلى سبيل المثال ولى كورخان القراخطائيين على بخارى اتمتكين ابن الامير بيابانى ولما عزم على الرجوع اوصى به الى الاستاذ الامام أحمد عبد العزيز وكان امام بخارى وأمره

---

(١) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٤٤
(٢) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ج١٢ص ١٢٦ ،الذهبى: العبر فى خبرمن غبر ج٥ ص١٦
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ١٠٦
(٣) د.أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج٧ ص ٧٤١
(٤) د.بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٥٢
(٥) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٥٤
(٦) د.احمد حلمى : السلاجقة فى التاريخ وفى الحضارة ص ١١١
عبد العزيز جنكيزخان: تركستان قلب اسيا ص ٥٩، ٦٠

أن يصدر فى أعماله كلها عن اشارته ، ولما خلا الجو لاتمتكين ظلم الناس وشرع يصادر أهل بخارى فذهبت طائفة من البخاريين وفدا الى الكورخان وتظلموا فكتب هذا الى اتمتكين على طريقة أهل الاسلام :

" بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ يعلم اتمتكين أنه ان تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا وسخطنا منه قريب ليفعل اتمتكين ما يأمر به أحمد وليأمر أحمد بما أمر به محمد والسلام" ٠ (١)

ثالثا : القبائل التركية

الاتراك الأويغور :

وكانوا يسكنون المنطقة الواقعية شمالى شرقى التركستان الصينية يقول عنهم "أرنولد توينبى" وكان الأويغور شعبا تركيا انتقل من البداوة الى الاستقرار" ٠ (٢)

ويبدو أن الأويغور قد تعاظمت قوتهم الى درجة جعلتهم يسيطرون على منغوليا فترة من الزمن اذ تحدثنا المصادر الصينية بأن الأويغور قد حلوا محل دولة الاتراك الغز فى منغوليا سنة٧٤٥م وكان المقر الرئيسى لخاقان الأويغور يقع على نهر أرخون" ٠ (٣)

غير أن الأتراك القرغيز قد نجحوا فى الاستيلاء على منغوليا بدورهم فتراجع الأويغور الى التركستان مرة أخرى لان القرغيز اجبروهم على النزوح الى حوض نهر تاريم حيث أقاموا لهم دولة هناك" ٠ (٤)

ولما هاجر القراخطائيون من شمالى الصين واستقروا فى التركستان وبسطوا نفوذهم على المنطقة دخل الأويغور فى طاعتهم ، بعد سنة ٩٢٤م وكانوا حينها يسكنون تركستان الشرقية وقد عرض عليهم الخطا العودة الى منغوليا لكنهم كانوا قد تعودوا فى تركستان على الحياة الزراعية وعلى حياة الحضر" ٠ (٥)

أما عن علاقة الأويغور مع الصين فقد كان الأواغر المقيمون بتركستان أصدقاء للصين ولذا ورد فى تاريخ الصين التنويه بخدماتهم فى مواضع كثيرة (٦) ٠

وطبيعى أن ترتبط هذه الصداقة بالموقع الجغرافى الذى تقيم فيه قبائل الأويغور أما عن كيفية تطور العلاقة بين الأويغور وجنكيز خان فيبدو أن ملك الأويغوريين كان قد سمع عن شهرة جنكيزخان وانتصاره على القبائل المغولية فانتهز الفرصة وثار على القراخطائيين

---

(١) النظام العروضى السمرقندى : جهار مقالة ص ٣١ ،ترجمة د٠ عبد الوهاب عزام ، د٠ يحيى الخشاب ٠

(٢) تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٨٠

(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ٤٥

(٤) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩

(٥) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢١

(٦) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ٤٣، ٤٤٠

وقتل حاكمهم ثم أرسل رسله الى جنكيزخان ليقدموا له فروض الخضوع ثم سار بنفسه فى سنة ٦٠٦ هـ لزيارة جنكيزخان وقدم له جملة من الهدايا الفاخرة فرحب به الخان وأكرم وفادته" (١)

ومنذ ذلك التاريخ صار الأويغور من أتباع جنكيزخان ومناصريه، فلما كان ملكهم "ايديقوت" ومعناه فى لغة الترك المرسل من الله - قد قال لجنكيزخان "آمل من كرم الخان الاعظم ان أكون خامس أولاده" فقد انتبه الخان الى أنه يقصد التزوج بابنته فأعطى احدى بناته اليه (٢) وسواء أصحت تلك الرواية عن زواج ابنة جنكيز خان من ملك الأويغور أم لم تصح فهى دلالة على قبول جنكيزخان لوفادة الأويغور جميعا وارتياحه لانضوائهم تحت لوائه.

ويبدو أن الأويغور قد اشتركوا - بعد هذا التاريخ - فى غالبية المعارك التى خاضها جنكيز خان خاصة ضد الدولة الخوارزمية حتى أنهم أنهكوا من كثرة حروبه واشتاقوا الى العودة الى وطنهم ولهذا سمح لهم الخان ان يعودوا الى وطنهم ناحية جوبى" (٣)

وهكذا انصهر الأويغور فى بوتقة فتوحات جنكيزخان وذابت دولتهم بين طيات الامبراطورية المغولية المترامية الاطراف. وفى الحقيقة "كانت مدينة الأويغور ظاهرة فعلى الرغم من أن سلطانهم قد أخذ فى التداعى فان مدنيتهم قد امتدت الى الكرايت والنايمان نظرا لان بلاد الأويغور كانت تقع بين هذين الشعبين التركيين. (٤)

وهكذا كان الأويغور أكثر الاقوام التركية تمدنا وحيث انالبعثات التبشيرية المسيحية كانت ترد من ايران على بلاد الاويغور فان ذلك كان سببا فى انتشار احدى شعب الخط السريانى بينالاويغور الذين صاروا يكتبون بالتدريج لغتهم التركية الخاصة بهم بذلك الخط وسرعان ماعرف بالخط الاويغورى" (٥) فلا غرو ان صار هذا الخط - فى عهد جنكيزخان - هو الخط الذى كتب به المغول لغتهم بل وقانونهم الشهير" الياسا" . يقول فسرعان ماابتكر الأويغور أبجدية للغة التركية استندت الى الحروف السريانية" (٦) . وهذا العمل يعطى دلالة على مدى التحضر الذى وصل اليه الاويغور الذين ظلوا يؤدون دورهم فى خدمة المغول كأفراد بعد أن تحللت دولتهم وانقرضت. "فالأويغور رغم أفول نجمهم السياسى كدولة ظلوا يلعبون دورا ثقافيا وسياسيا بارعا عند المغول فقد عهد اليهم جنكيز خان بتأديب أولاده كما أقاموا على ديوانه ودواوين ابنائه من بعده بل وصل نفوذهم لدى سادتهم ان كانوا عمال المغول فى أغلب البلاد الاسلامية التى فتحوها. (٧)

هذا - وقد أخطأ المستشرق المجرى أرمنيوس فامبرى فى كتابه تاريخ بخارى (ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى) حين ظن أن الأويغور هم المجاورون للدولة الخوارزمية مباشرة بل ذهب الى انهم فرضوا الجزية على هذه الدولة لسنوات طويلة. (٨)

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٩

(٢) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٨٥

(٣) هارولدلامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١١٢

(٤) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤١٠

(٥) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٠

(٦) ستيفين رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١١

(٧) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايرانص ١٩

(٨) ارمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى من ص ١٤٧: ١٦٠.

والحقيقة أن القراخطائيين هم الذين جاوروا الدولة الخوارزمية وفرضوا عليها الجزية وليس الأويغور. ، فعندما طمع خوارزم شاه فى الامتناع عن أداء ما كان مقررا عليه لملك الخطا، فسار ملك الخطا الى خوارزم سنة٥٩٤ هـ وحصرها وأقام عليها مدة". (١)

وهكذا نرى أن علاقات الأويغور مع الخوارزميين لم تكن علاقات جوار أو صراع عسكرى.

(٢) الاتراك القرغيز :

وهم من القبائل التركية التى امتدت حركتها مابين حوض نهر الينسى حيث يقع موطنها الأصلى الى شمالى الصين.

"وتدل أوصاف الصينيين للقرغيز على أنهم كانوا مغايرين من الناحية الانثروبولوجية لغيرهم من الترك فلقد كان شعرهم أشقر وعيونهم زرقاء وأيدت المصادر الاسلامية فيما بعد المصادر الصينية فالكرديزى وهو مؤرخ ايرانى عاش فى القرن الحادى عشر يقرر أن شعر القرغيز كان أشقر وأن ذلك أدى الى الظن بوجود قرابة بين القرغيز والصقالبة". (٢)

ويكفى للدلالة على قوة القرغيز أنهم حينماغزوا بلاد الأويغور أجبروهم على النزوح الى حوض نهر تاريم فصار الأويغور ـ رغم تحضرهم ـ تابعين للقرغيز الذين انتشرت دولتهم فشملت منغوليا كلها وشمالى الصين وجزءا من التركستان .

وبهذا صار المغول على اختلاف قبائلهم فى منغوليا خاضعين لسيطرة الاتراك القرغيز ولكن قدر لهذا الانتشار أن ينحسر ويتقلص فمنذ القرن العاشر الميلادى تحرر المغول من الوصاية التركية التى فرضها عليهم الاتراك القرغيز" (٣)

ولكن كيف تحرر المغول ؟ ومن الذى حررهم ؟

يبدو أن فرعا من القراخطائيين كان يحكم فى النواحى الشمالية من الصين باسم "الخطا" قد تمكن من طرد القرغيز من هذا المكان (٤) " .

وغالبا فان هذا الطرد لم يتوقف عند اقصائهم عن شمالى الصين فحسب بل امتد لما هو أبعد من ذلك كثيرا حيث اعيد القرغيز الى موطنهم الأصلى. يقول بارتولد" وقد طرد الخطاى القرغيز من منغوليا ولابد أن يكون هؤلاء القرغيز قد عادوا الى حوض نهر الينسى فقد كانوا فى العهود التالية يسكنون هناك". (٥)

وهكذا تمكن القراخطائيون ـ أثناء ازدهارهم فى شمالى الصين ـ أن يرغموا القرغيز على التراجع عن شمالى الصين ومنغوليا فتقهقروا عائدين الى حوض نهر الينسى .

وعندما اضطر القراخطائيون الى الهجرة بعد طردهم من شمالى الصين واتجاههم صوب الغرب حيث تمكنوا من الاستيلاء على مدينة (بالاساغون) سنة٥١٨هـ /١١٢٤م واتخذوها

---

(١) رزق الله الصدقى: تاريخ دول الاسلام جـ٢ ص ٢٠٥
(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٣١
(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٥٨
(٤) د.حلمى أحمد : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ١٠٧
(٥) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٠.

مقرا لحكومتهم فانهم وجهوا عساكرهم نحو الشمال الشرقى ليؤدبوا القرغيز وهم أعداؤهم القدامى" . (١)

وهكذا هزم القرغيز أمام القراخطائيين للمرة الثانية..وما يعنينا من القرغيز بالدرجة الأولى هو مدى علاقتهم بالمغول منذ عهد جنكيز خان " فبعد أن جلس سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م على عرش القبائل المغولية شرع يوسع دولته على حساب الأقاليم المجاورة فتغلب على طوائفهم. (٢)

وبذلك خضع القرغيز لسلطان جنكيزخان غير أن هذا لم يستمر الا لفترة من الزمن فقد أعلنوا العصيان فيمابعد سنة ١٢١٨م ولكن جوجى الابن الاكبر لجنكيز خان انقض عليهم بعد أن عبر ثلوج نهر الينسى ونكل بهم" (٣)

ومنذ ذلك التاريخ والقرغيز تابعون للمغول. فلم تظهر لهم أية معارضة فى مواجهة القبيلة الذهبية التى استقرت فى جنوب روسيا تحت زعامة جوجى بن جنكيزخان وخلفائه . واستمرت هناك حوالى ٣٠٠ عام فى عهد ابنائه.

٣ - أتراك "قارلوق "

وتقع بلادهم جنوب مملكة الأويغور اذ كانت تشمل كل الحوض الأسفل لنهر تاريم وهؤلاء الأتراك كانوا يوصفون باستقامة القامة وجمال الوجه". (٤)

والقارلوق من خلال موقعهم هذا كانوا أقرب القبائل التركية التى اتصلت بالمغول الى بلاد الاسلام ذلك أن اقامتهم فى الجنوب الغربى لحوض نهر تاريم جعلتها على مقربة من أملاك الدولة الخوارزمية... وعلى هذا فقد كان القارلوق مسلمين وكانوا تابعين للقراخطائيين النازحين من شمالى الصين ، ولم يتوقف الامر عند التبعية فقد اشتركوا معهم فى محاربة الاتراك المسلمين فى الغرب" فعند(قطوان) بالقرب من سمرقند عام ٥٣٦هـ - أى قبل ظهور جنكيزخان على مسرح الاحداث السياسية - أبلى القارلوق والقراخطائيون بلاء شديدا فتمكنوا من هزيمة السلطان سنجر السلجوقى هزيمة نكراء". (٥)

وفى عهد جنكيز خان كان القارلوق يقيمون شمالى نهر ايل أى كانوا ينتشرون فى الأراضى التى تمتد الى مسيرة عشرين يوما شرقى فرغانة". (٦)

وأما عن علاقتهم بجنكيزخان فقد كان ملكهم(أرسلان) خان أول حاكم مسلم خضع للمغول "(٧) ويبدو أن هذا الخضوع السلمى كان سنة١٢١١م أى قبل الاشتباك بين

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٣
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٠
(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٥٥
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠
(٥) د.عبد النعيم حسنين: سلاجقة ايران والعراق ص ١١٧
(٦) د.بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٧٥،٥٠
(٧) (أرسلان) كلمة تركية بمعنى(أسد) د.بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٩، ١٥٦.

جنكيزخان والسلطان الخوارزمى علاء الدين ،ومن المحتمل أن القارلوق قد اشتركوا فى الهجمات الاولى التى شنها جنكيز خان على الخوارزميين · فلعل ذلك يفسر لنا موقف الحامية الخوارزمية فى اثناء حصار جنكيزخان لمدينة بخارى ، حيث توقفت هذه الحامية عند القتال وقال بعض رجالها" ان هوءلاء من جنسنا ·· أى أتراك مثلنا ــ ولا يقتلوننا" فلعلهم اشاروا الى القارلوق الذين كانوا فى خدمة جنكيز خان ــ آنذاك ــ (١) والذى كان يضعهم فى مقدمة جيشه ليتلقوا الصدمة الأولى فى المعركة ·

ولعل هذا ما حدا بأحد المستشرقين أن يقول" ولقد وجد المسلمون فى جيش جنكيزخان حتى قبل فتوح المشرق" · (٢)

ولعله قد وضح من خلال الاستطراد السابق لمواقع القبائل المغولية أو التركية التى جاورتها فى منغوليا ان الاستقرار الدائم فى مكان ثابت لا يتغير يعد ضربا مستحيلا فى غالب الأحيان وذلك ــ فى رأيى ــ لعوامل عدة منها :

أولا : الظروف المناخية وطبيعة تكوين التضاريس :

فهذه الظروف الجغرافية قد جعلت من بلاد المغول فى معظمها قفرا مجدبا وترتب على ذلك انتشار الصراع الدموى حول الماء والكلأ ومن هنا أدى ذلك الى احتلال بعض القبائل القوية لمواقع غيرها كذلك هجرة بعض القبائل الضعيفة الى مناطق أخرى خشية تسلط أوسيطرة القبائل الأخرى الأقوى عليها·

ثانيا : الطبيعة الرعوية :

فالقبائل المغولية التى احترفت الرعى ودأبت على التنقل والترحال · وراء المرعى وجدت فى الاتساع الشاسع لهضبة منغوليا حرية الحركة · فانتقلت هنا وهناك ولم تستقر فى مكان ثابت·

ثالثا : النزعة العدوانية وحب التملك والسيطرة :

وتلك نزعة تساير حياة البدو الرعاة فتجعل من الحرب وسيلة حياة عادية مألوفة استظهارا للقوة والبأس وتعويضا عن قلة الموارد الطبيعية ولذا عاشت القبائل المغولية فى معظمها بين كر وفر فلم تعرف للاستقرار سبيلا حتى جاء جنكيزخان فصرف أنظار المغول عن الحروب الداخلية الطاحنة الى الفتوحات الخارجية فاتقى بذكائه شر هذه النزعة المدمرة·

رابعا : العصبية القبلية الاستقلالية :

فقد رأت هذه القبائل المغولية فى استقلالها حياتها ولهذا فان فكرة الانضواء تحت زعامة أعلى من رئيس القبيلة لم تكن ذات أهمية لدى المغول ، وهذا ما عبر عنه جنكيزخان بقوله ذات مرة ·" كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائما أن العقول والقلوب المتباينة لايمكن أن تكون فى جسد واحد · ولكنى أريد أن أثبت أن ذلك عمليا ممكن ولهذا

---

(١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ١٤٢

(٢) د·بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٠·

فسوف أبسط نفوذى على جميع جيراننا (١) .

وكان ذلك يعنى بطبيعة الحال اعلان الحرب على الاخرين وبالتالى احتواء ديارهم او طردهم الى أماكن بعيدة ما لم يسارعوا بتقديم فروض الولاء والطاعة.

خامسا : القوى الأجنبية المجاورة :

وتلك تميزت بالتفوق العسكرى فى بادئ الأمر كالصينيين الذين فرضوا الجزية على المغول وأرغموا التتار على التقهقر وتحالفوا مع الكرايت أحيانا ، أو الاتراك من الغز والقرغيز أو الاويغور وكل منهم دانت له السيطرة على منغوليا كلها فترات من الزمن. وعلى سبيل المثال فان الغز الأتراك أقاموا بمنغوليا فى القرن السادس دولة كبرى لم ير مثلها من قبل ولم يفقها سعة من بعد الا دولة المغول. (٢)

حقا ان هذه القوى طردت من منغوليا فالصينيون والغز طردهما المغول والأويغور طردهم القرغيز ،والقرغيز طردهم القراخطائيون الا أن ذلك المد والجزر ترك بالطبع أكبر الأثر فى حياة المغول وفى استقرارهم فى منغوليا .

على أن كل هذه العوامل مجتمعة لم تحل أمام ارادة جنكيز خان الصلب النابه الذى استطاع بمهارة وقوة توحيد كافة القبائل المغولية والتركية فى هضبة منغوليا تحت سلطانه ثم توجيه طاقتها القتالية الى مصارعة القوى المجاورة وتحقيق النصر عليها فكان له ما أراد.

---

(١) هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص
(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٠١.

الفصل الثانى

عناصر السكـــــــان

١ ـ الرعـــــاة ٠
٢ ـ المـــزارع ٠
٣ ـ الصيـــادون ٠
٤ ـ المحاربـــون٠
٥ ـ التجـــار ٠
٦ ـ الصناع وأرباب الحـــرف ٠
٧ ـ العبيـــد ٠
٨ ـ الجاليات الاجنبية ٠

تنظيم المجتمع :

نجح جنكيز خان سنة٦٠٣ هـ فى اخضاع كافة القبائل المغولية لسلطانه ،وكذا القبائل التركية التى جاورتها فى منغوليا فاستوى بذلك خاقانا أعظم للمغول وذاعت شهرته فى آسيا كلها وأوربا أيضا .

وكان جنكيزخان يدرك تماما أن هناك فارقا كبيرا بين السيطرة العسكرية التى تعتمد على القوة العسكرية وحدها وبين تكوين مجتمع قوى متكامل العناصر والامكانيات ولهذا حاول قدر طاقته أن يتوصل الى تحقيق هذا المجتمع بكل طريقة ممكنة وقد تمثلت محاولاته فى أمور عدة منها :

أولا : حمل المغول على الالتزام بتطبيق قواعد الياسا :

وتلك احتوت على تشريعات متنوعة" فقد حددت الياسا ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات ، وماهومقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب فضلا عن مبادىء القانون المدنى والتجارى" (١).

ثانيا : انهاء المنازعات والحروب القبلية الداخلية :

وكانت حيلة جنكيز خان بارعة ونافعة فى آن واحد فقد عمل على تفريغ الطاقة القتالية للمغول بتوجيههم للمشاركة فى حركة الغزو خارج منغوليا وحفزهم بنيل المغانم والاسلاب.

ثالثا : تنمية الأوضاع الاقتصادية :

فقد بادر جنكيز خان الى تنشيط حركة التجارة وتشجيع التجار وتأمين الطرق وكذلك تنظيم الضرائب وضبط حسابات الدولة .

رابعا : الاستفادة من تجارب الآخرين :

وتلك مزية خطيرة تمتع بها جنكيز خان وخلفاؤه ولهذا اختار الوزراء والمستشارين من الأمم المغلوبة فظهرت الدواوين والسجلات والاختام ومختلف شئون البروتوكول .. الخ.

على أن جنكيزخان رغم ذلك كله كان يفضل تمسك المغول ببداوتهم وكان يخشى انفتاحهم على أساليب حياة الحضر ومافيها من رفاهية ورغد ولكن أنى له ذلك وقد اتسعت حركة الغزو وتعددت الشعوب التى خضعت للمغول وبدأ عامل التأثير والتأثر ينشط لصالح الشعوب المغلوبة. وبدأ يتحقق ما كان يخشاه جنكيزخان.

هذا. وقد وجد جنكيزخان نفسه مضطرا لتقسيم الامبراطورية التى أقامها بين أبنائه على النحوالتالى .

١ - الوطن الأم منغوليا ، وجعلها من نصيب ابنه تولوى باعتباره اصغر الابناء. كما يقضى نظام الوراثة عند المغول .

---

(١) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ص ٤١٣.

٢ ـ مملكة التركستان وبلاد ما وراء النهر ، وجعلها من نصيب جغتاى ثانى أولاده.

٣ ـ مملكة جنوب روسيا والقبجاق ، وجعلها من نصيب باثو بن جوجى اكبر أبناء جنكيز خان والذى توفى ابوه جوجى فى حياة جنكيز خان نفسه.

أما أوكتاى ثالث ابناء جنكيز خان فقد اختاره ليكون خليفة له بعد وفاته لما كان يرى فيه من بصيرة واتزان ومقدرة .

وبالطبع كانت هذه الممالك مختلفة من حيث الطبيعة الجغرافية والنشاط السكانى مما أدى الى تباين واضح فيما بينها فى مختلف النواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ولعله يمكننا أن نقول ان المجتمع المغولى على عهد جنكيزخان وخلفائه الأول (أوكتاى ـ كيوك ـ منكو) كان لايزال تحت التكوين بصورة تدريجية. فاوكتاى (٦٢٦ـ٦٣٩هـ) كان مشغولا بالاجهاز على السلطان الخوارزمى جلال الدين وكذا تدعيم سيطرة المغول على أوربا الشرقية التى تداعت تحت ضربات المغول فى البلقان والمجر وبولندا كذلك كان على أوكتاى أن يعاود غزوالصين الشمالية وكوريا وأن ينازل حكام الصين الجنوبية أيضا. أى أن عهده كان امتدادا لحركة الغزو التى بدأت فى عهد جنكيز خان .

وأماكيوك (٦٤٤ـ٦٤٦هـ) فكانت ولايته لفترة قصيرة لم تسمح باحداث تغييرات تذكر. فسرعان ما توفى بعد عامين من توليه اشتد خلالهما الخلاف بينه وبين باتوخان زعيم القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا وقد برهن منكو (٦٤٨ ـ ٦٥٧ هـ) على عقلية متزنة وسعة أفق فاهتم بضبط أحوال الدولة وتنظيم الادارة المالية والضرائب كما أوفد أخاه هولاكو فى حملته الشهيرة على ايران غير أن منكو هذا توفى فى الصين فى احدى حروبه هناك. وبوفاته اشتعلت نار الحرب الأهلية بين أخويه (قوبيلاى) و(أريق بوقا) من أجل العرش فنصب الأول نفسه خانا أعظم فى الصين ونصب الثانى نفسه فى منغوليا". (١)

وقد أفلح قوبيلاى فى انتزاع السلطان من أخيه وسجنه حتى مات . وبذلك انتهى الأمر الى قوبيلاى قا ان (٦٥٨ ـ ٦٩٣هـ) وهى فترة ولاية طويلة تزيد على أكثر من ثلاثين عاما بدأها بأن هجر العاصمة الأم (قراقوم) وذهب ليقيم فى بكين متخذا منها عاصمة مركزية للامبراطورية.

وفى عهده بدأ التكوين السياسى للامبراطورية يستقر وظهرت دولة الايلخانيين فى ايران ثابتة راسخة وهى التى أسسها هولاكو (٦٥٣ ـ ٦٦٣هـ) متخذا من مراغة باقليم اذربيجان عاصمة له .

غير أن الاستقرار الذى حظى به المجتمع المغولى على عهد قوبيلاى كان مشوبا بطابع المحلية الى حد كبير. فكل منطقة ـ رغم التزامها بكافة حقوق التبعية للخان الاعظم قوبيلاى قا ان ـ قد حظت بالوان من الاستقلال.وعليه فقد وضح التأثير الاقليمى على المغول فى معظمهم فقوبيلاى ومن معه تأثروا بالحضارة الصينية الى أقصى درجة وخلفاء جغتاى بن جنكيز خان تأثروا بما عايشوه فى بخارى وسمرقند وسائر مدن التركستان وتأثر هولاكو وبنوه

(١) د.بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٨

بالحضارة الايرانية ومثل ذلك كله حدث للمغول فى جنوب روسيا منذ عهد بركة خان حفيد جنكيز خان الذى أشهر اسلامه وتأثر واتباعه بالمسلمين ٠

ويمكننا أن نقول ان السكان فى المجتمع المغولى كانوا يمثلون عناصر عدة تعيش فى صحبة الخان المغولى وتتأثر بماحولها من مقومات الحياة المختلفة فى البلاد المفتوحة" ففى العادة كان السكان الذين يصحبون الخان يمثلون جميع الطوائف من قواد الجيش الى القضاة والكتاب والصناع وغيرهم" ٠ (١)

وبالطبع كانت هناك عناصر أخرى كالعبيد ورجال الدين والجاليات الأجنبية ، وهذا ماسنحاول ايضاحه فى هذا الفصل ٠

أولا : الرعـــاة :

كان المغول ـ كما ذكرت ـ يمثلون سكان السهوب فى الاستبس الأسيوى وهى بيئة رعوية متأصلة فمن الطبيعى اذن أن يكون المغول رعاة فى المقام الأول ٠ يقول استاذنا الدكتور أحمد شلبى " وكان منهم جماعة الرعاة التى تعيش بجوار المراعى" ٠ (٢)

وقد استلزمت الحياة الرعوية التى عاشها غالبية المغول كثرة الانتقال من مكان الى مكان جريا وراء المرعى والماء" حتى صار الانتقال وعدم الاستقرار فى مكان معين من أهم الصفات التى يمتاز بها الشعب المغولى" ٠ (٣)

وبدهى أن المناخ المتقلب كان يتدخل فيحرك القبائل المغولية شمالا وجنوبا فقد كانت هذه القبائل تتجه نحو الشمال عندما تذوب الثلوج وتتكشف الأرض ويظهر فيها الكلأ ثم تنحدر نحوالجنوب فى فصل الشتاء عندما تغطى الثلوج تلك الاصقاع مرة أخرى" ٠ (٤)

ويصور ويلز هذا الانتقال على أنه قد صار بمثابة عادة تعود عليها الرعاة المغول فى بيئة الاستبس يقول" وهذا الانتقال شمالا وجنوبا صيفا وشتاء٠انما هو على جارى عادة اهل السهوب" ٠ (٥)

وعلى الرغم من ذلك كله فكثيرا ما تعرض المغول لمواجهة خطر فقر المراعى وقلة الماء اللازم لاستمرار حياة الانسان والحيوان على السواء فاندفعوا صوب ممتلكات الدول المجاورة الغنية طلبا للرزق ولكن بصورة غير انسانية أضرت بالاخرين ضررا بالغا٠

"اذ لم يكن استيلاؤهم عليها استيلاء من يرغب فى الاستقرار والاستثمار وانما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة دون عناء اوجهد" ٠ (٦)

---

(١) د٠فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٧
(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ،ج ٥ ،ص ١٩٧
(٣) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٠٩
(٤) د٠حسن خليفة: الدولة العباسية قيامها وسقوطها ص ٢٣٨
(٥) معالم تاريخ الانسانية المجلد الثالث الطبعة الثالثة ص ٩٢٦
د٠ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٣٢
(٦) أ٠د٠أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج٧ ص ٧٣٥

وطبيعى أن يرتبط الرعى كحرفة بتربية قطعان الحيوان التى يعيش عليها الراعى وعلى ما تجود به من أصواف وألبان ولحوم ٠

(أ) تربية الماشيـة :

كان الانتقال من مكان الى مكان ـ كما ذكرت ـ عاملا ضروريا فى حياة المغـــول حركته عوامل كثيرة منها السعى وراء الماء المفتقد أو البحث عن المرعى الجديد وكذلك الافلات من خطر الطبيعة القاسية والأعداء المتربصين ٠

وعلى هذا فالحركة السريعة سمة من سمات حياة المغول فى بيئة الاستبس غيـــر أن ذلك لم يحل دون ان تكون هناك محاولات جادة لتربية قطعان الحيوان المختلفة ومنهـــا الماشية ، ذلك أن حجم القطيع ونوعه كانا من مقاييس الثراء لدى المغول ٠

وبالطبع لم تخل تربية الماشية من صعوبات"فالسهوب المغولية أكثر جفافا ومستواهـــا أكثر ارتفاعا وفيها مناطق واسعة مجدبة مثل صحراء جوبى وهى على وجه العموم أفقر مـــن أن تكون تربية الماشية فيها شيئا يدر الربح ولكن هذه المراعى فى الوقت ذاته كانت كافية لرعـــى الأغنام والجمال والخيول ٠ (١)

اذن فالمشكلة الأساسية فى تربية الماشية هى قلة الماء الذى يؤدى افتقاره الـــى تهديد حياة الحيوان بشكل مباشر٠ والكاتب الصينى ٠ف٠يان يورد هذه المشكلة على لســان التاجر الجرجانى المسلم محمود الخوارزمى الذى كان يعمل فى خدمة جنكيزخان يقول " ان المغول والتتار شعوب من أهل الرعى فى السهوب وينتجعون لقطعانهم المرعى حيث كان الماء لأن العشب فى ديارهم كثير والماء نزر قليل " ٠ (٢)

ولعل كثرة العشب مردها الى كثرة الثلوج المتراكمة فى هذه البيئة خلال فصل الشتـاء وقلة الماء مردها الى التربة الرملية التى لا تحتفظ بالماء الناتج عن ذوبان تلك الثلوج لفتـــرة كافية فتظهر أعشاب كثيرة لكنها تذوى بسرعة وتموت٠

غير أن بعض المناطق الشمالية فى بلاد المغول حيث العديد من روافد انهـــار كرملين وأتون والينسى كانت تمثل مجالا صالحا بعض الشئ لتربية الماشية تماما كما هو الحال مع قبائل قيات والاويرات المغولية٠

أما خارج منغوليا وعلى ضفاف الانهار القريبة كنهر الفولجا فقد وجد المغول فرصة أكبـــر للرعى فى غير افتقار مُلح الى الماء٠ فقد لاحظ الراهب وليم روبرك الذى زار بلاد المغـــول أيام (باتو) خان على مرمى النظر من نهر الفولجا وعند قرية روسية على الشاطئ الشرقـــى أن المغول كانوا يرعون قطعانهم" (٣)

والقضية الثانية ٠ وهى توفير العشب بشكل ملائم ووقت مناسب كانت تواجه صعوبـــة الندرة فى فصل الشتاء بالذات ٠ اذ أن مشكلة الاقتصاد الرعوى هى فقر المرعى شتاء ولـــذا

---

(١) د٠رالف لنتون: شجرة الحضارة ، جـ٢ ص ١٦٢

(٢) جنكيز خان ، سفاح الشعوب ص ٩٥٠

(٣) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٧١

يلزم توفير العلف لهذا الفصل ولايتم هذا بقطع الحشائش بل بترك رقع منها بلا رعى حتى تجف وهى قائمة تحت شمس الصيف" • (١)

وعلى هذا فقد انتظمت حركة قطعان الماشية وفقا لظروف المناخ ففى الشتاء تنزل القطعان الى بطون الأودية حيث المناخ أقل بردا وتبقى فيها طيلة أشهر الربيع لان أعشاب البورات انذاك خير ما تأكله الماشية ثم تعود فى الصيف الى منحدرات الجبال حيث المناخ أقل حرارة" • (٢)

ومن هنا يمكننا أن ندرك كيف أفلح المغول فى استخدام بطون الأودية فى الافلات من البرد الشديد فى فصل الشتاء وكذا استخدام منحدرات الجبال فى الهرب من ارتفاع درجة الحرارة فى فصل الصيف ، فقد كانوا يهاجرون فى هذا الفصل من السهول الى الجبال ولايتركونها الا اذا انعدم العشب فيها وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع ماشيتهم" (٣) •

(ب) تربية الأغنام :

يبدو أن المغول كان يربون الاغنام فى أعداد هائلة تفوق بالطبع أعداد الماشية التى كانت أقل نسبيا لانها لاتتلائم تماما مع قسوة الشتاء وفقر المراعى• (٤)

وتمثل الاغنام بكثرتها العددية مصدرا مهما لانتاج اللبن والصوف غير أنها وان كانت تمثل العدد الاكبر من حيوانات الرعى عند المغول الا أنها كانت تتعرض لخطر الموت فى فصل الشتاء• فقد كان هذا الفصل من القسوة بحيث تموت معظم مواليد الخريف من الغنم ولهذا فان الرعاة كانوا يلجأون الى ضبط النسل بشد لباس لبدى حول وسط الخراف• كما أن عجائز الغنم التى يخشى أن تهلك فى الشتاء كانت تذبح فى الخريف الذى هو لذلك فصل اللحم الموفور وان كان خشنا على أن أهمية الغنم الأساسية تأتى فى لبنها وصوفها" • (٥) فقد كانت تعطى كميات كبيرة من الصوف الذى يحتاجه المغول خصوصا فى فصل الشتاء حين يشتد البرد وتتكاثر الثلوج •

(ج) تربية الابل :

عرفت الصحارى فى شبه جزيرة العرب الابل وافتن العرب فى اقتنائها ونظموا القصائد حولها • وكذلك عرف الجمل فى بيئة الاستبس المغولية ولكنه فيما يبدو مختلف بعض الشئ عن نظيره فى بيئة العرب• اذ أنه من النوع (ذى السنامين) ويسميه رشيد الدين (البكترى) ويقال ان أصله الاول هضبة منغوليا حيث استوئنس هناك من قبل المغول• (٦)

وهذا الجمل يستعمل فى الحمل وهو أفضل فى مقاومة الشتاء القاسى وبجانب لبنه ولحمه كان يمتاز بفروة شتوية من الشعر ينفضها ربيعا حيث تتخذ للنسيج" • (٧)

---

(١) د•جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦١
(٢) د•رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٦
(٣) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغولية ص ١٠٩
(٤) د• رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٦
(٥) د• جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٠
(٦) د•رالف لنتون: شجرة الحضارة ،جـ ٢ ص ١٦٩
(٧) د• جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٠

وبالطبع ان الفروة الغزيرة تمثل حماية طبيعية لهذا الحيوان المهم• الذى يعتبر دلالةعلى قدرة المغول على التكيف مع الطبيعة والاستفادة بكل ما فيها استفادة تكشف عن اصالة حرفة الرعى عندهم بالرغم من اعداده لم تكن بنفس حجم أعداد الحيوان الأخرى•

(د) تربية الخيل :

تعتبر تربية الخيل من أهم ما يميز الرعاة فى منطقة الاستبس المغولية فالخيل هى التى مكنت المغول من الاقامة أوالتحرك فى هذه البيئة القاسية• وفى الحقيقة فان قطعان الخيل الغزيرة هى أثمن ما يملكه المغول وهى مصدر قوتهم الحربية" (١)•

لان الحصان فى بيئة المغول يعتبر مفتاح السهوب للسكنى والاستثمار البشرى فانه هو الذى يلائم هذه السهوب للانسان بل هو عصب الاقتصاد الرعوى كله وبقدر عدده تتحدد الثروة والقوة• وهذا العدد بدوره يحدد غنى أو فقر المراعى الطبيعية وترعى قطعانه منفصلة عن بقية الحيوان بحيث تنال أطيب المرعى" (٢)

ولم يتوقف الأمر على أن الخيل كانت مقياس الثراء المادى أوالقوة العسكرية بل انها كانت أفضل وسيلة يضبط بها الراعى حركته الرعوية فى هذه البيئة المترامية فقد كانت تمكنه من ارتياد منازل الماء والكلأ بسرعة تكفى للافلات من خطر الطبيعة ، فبدون الخيل لم يكن بمقدورهم ان يقودوا قطعان الحيوانات الاخرى وأن يرحلوا بسرعة فائقة الى أماكن نائية هربا من الجليد أوالجفاف فى الصحراء" (٣)•

ولم تكن حركة المغول الرعوية مرتجلة أو هوجاء بل انها ـ وبواسطة الخيل ـ كانت غاية فى الدقة والسرعة فى نفس الوقت• فقد احترف المغول الرعى والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل حتى كانت حركاتهم وراء الرزق تبدو زحفا حربيا سريعا" (٤)•

وهكذا فالخيل قد صنعت للمغول وجودا وكيانا من خلال مساهمتها الاقتصادية الفعالة فقد كانت من أهم مصادر انتاج اللبن وكذلك اللحم أيضا•

وجدير بالذكر أن الخيول المغولية كانت رهينة البيئة منحيث التكوين فقد كانت قصيرة القوائم سريعة العدو يظهر ذلك من حديث الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا الذى أشرت اليه فى الفصل الاول عند وصف المبارزة بين بعض فرسان المغول وفرسان بغداد مثل سقوطها على يد هولاكو ويؤكد وصف ابن طباطبا ما أورده أحد المؤرخين الصينيين من ان المغول كانوايستخدمون خيلا قصيرة القوائم ، سهلة الحركة فى عصبية حتى أنها لتشبه فى عدوها الخنازير البرية اذا طاردتها كلاب الصيد" (٥)•

كذلك كانت تلك الخيول تتمتع بقدرة غريبة على الصبر والاحتمال فقد كانت تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات (٦)•

---

(١) جون هامرتن: تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٣٨
(٢) د•جمال حمدان: انماط من البيئات ص ٥٩
(٣) د• هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠
(٤) د•ابراهيم العدوى: العرب والتتار ص ٢٥
(٥) الكاتب الصينى ف• يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ،ص ١٤٩
(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص ١٣٨

وتأتى الأهمية العظمى للجواد بالنسبة للمغول فى منفعته كحيوان يستخدم فى الحرب، فالمغول كانوا يستخدمونه فى الركوب او فى حمل المتاع ولكنهم لم يستخدموه أبدا فى الجر" (١)

وربما لأنهم كانوايستخدمون الثيران فى أعمال الجر فقد جعلوا الخيول مقصورة على أعمال القتال والصيد كما أن الخيول اذا استخدمت فى الجر زادت قدرتها على التحمل ولكنها فى الوقت نفسه تفقد رشاقتها وقدرتها على العدو السريع وذلك ما كان يكسبها قيمتها الحقيقية فى نظر المحاربين المغول.

وعلى هذا فان قطعان الخيل كانت تأتى فى المقدمة من حيث الأهمية تليها قطعان الاغنام بكثرتها العددية وفوائدها العديدة ثم تأتى الماشية بلحومها والبانها وفى نهاية المطاف نجد الجمال البكترية ذات السنامين". (٢)

من الامور الطريفة أن موقف المغول تجاه الحيوانات التى عايشوها فى بيئة الرعى كان قائما على الانتفاع بها الى أقصى درجة ممكنة دون أن يكون هناك ادنى ارتباط عاطفى بها. اذ لم تصف قصصهم البطولية أية خيول أو كلاب شهيرة فالحيوانات تولد بالجملة وتستهلك بالجملة أيضا وربما كان السبب فى ذلك هو أن الحياة فى الهضبة المغولية كانت صعبة لدرجة لاتسمح بأى ارتباطات عاطفية مع الحيوانات الأليفة. (٢)

أثر الرعى فى حياة المغول :

تركت حرفة الرعى بصماتها واضحة فى حياة المغول منخلال قوانين ملزمة فرضت الطبيعة القاسية معظمها وعادات متوارثة عن الأجداد تقبلها الخلف عن السلف دون محاولة للتغيير فقد كان ا لمغول فى معظمهم قبائل من البدو الرعاة تحكمهم قوانين وعادات ويخضعون لرئيس القبيلة ويطيعونه طاعة عمياء وهكذا كانت حياتهم تتفق مع بداوتهم وفقر بلادهم". (٣)

ويحاول احد المؤرخين أن يربط بين حرفة الرعى والسياسة فيقول "كانت مهارة المغول العجيبة فى حكم الجماهير المتباينة ترجع الى الخبرة التى اكتسبوها من رعى قطعان الحيوانات المختلفة". (٤)

فلعله يقصد أنحرفة الرعى قد علمت المغول الصبر والجلد والمناورة وهى أمور قد تكون ملائمة للسيطرة العسكرية على الجماهير المغلوبة ولكنها لا تصلح لممارسة شئون الحكم والاستقرار على المدى الطويل .فهناك نظم حضارية كالدواوين والبروتوكول واقامة المرافق العامة. .. الخ وكلها أمور لم يكن المغول على علم بها وبخاصة قبل خروجهم من منغوليا.

ولقد قال أحد الحكماء المستنيرين لجنكيز خان عقب انتصاراته على الدولة الخوارزمية " لقد استطعت أن تقهر امبراطورية من فوق صهوة الجواد ولكن ليس بوسعك ادارتها من فوق صهورة هذا الجواد". (٥)

---

(١) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٧
(٢) المرجع السابق نفسه ، جـ ٢ ص ١٦٩
(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٠
(٤) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٣
(٥) المصدر السابق نفسه ،ص ٨٨

عموما فان حرفة الرعى قد اكسبت المغول صفات عديدة كلها الخشونة والقسوة • وتلك ساعدتهم على تحقيق النجاح العسكرى ولكنها لم تجدهم شيئا أمام الحضارات المجاورة•

وهكذا وجد المغول أنفسهم بمرور الوقت وبعد اتصالهم بالأمم الاخرى واقامتهم فى خارج منغوليا واستقرارهم هناك• وجبروا أنفسهم يعدلون عن حرفة الرعى الى غيرها فاحترف معظمهم الحرب باعتبارها مورد رزق أفضل ووسيلة لمكانة اجتماعية أميز وخصوصا عقب الانتصارات المذهلة التى حققها المغول فى مواجهة دول مجاورة عريضة الثراء كالصين وخوارزم•

ثانيا: الـــزراع :

لم تكن الزراعة لتحظى فى نظر المغول بمكانة لائقة لأنها بطبيعة الحال تقوم على الاستقرار الذى لم يألفوه علاوة على أنها سمة حضارية لا تجتذب البدو الرحل اليها غالبا وبهذا كان يقوم بالزراعة عادة فلاحون توابع من غير المغول أو عبيد من الواحات المجاورة على أن بعض فقراء عائلات المغول أنفسهم كانوا يقومون ببعض الزراعة" • (١) أى لم يكن هناك سوى عدد قليل من الزراع الذين كان ينظر اليهم على أنهم أقل مكانة من غيرهم" (٢) على أن الرياح الشديدة وهى احدى موانع الاستقرار الزراعى فى بيئة الاستبس لم تكن المانع الوحيد فهناك التضاريس الوعرة والمناخ المتقلب والجفاف ، وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهات صحراء جوبى – مستقر المغول – بحيث لم تشاهد الا فى أماكن متفرقة• (٣)

وفى الحقيقة كان عامل الكراهية للزراعة فيما يبدو أقوى من كل هذه العوامل "فالمغولى يكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة فعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السهول الخصبة أحيانا لا أنهم لم يحاولوا زراعتها• (٤)

ولكن هذه الكراهية الشديدة لم تمنع – أحيانا – من أنهم كانوا يبذرون حبوب الدخن الذى ينمو دون حاجة الى عناية خاصة ولعل هدفهم الرئيسى من ذلك أن يكون هذا عملا احتياطيا ضد المجاعة• (٥)

أى أن الاقتصاد الرعوى اعتمد على بعض الزراعة فحيث تسمح الظروف بتحويل مجرى مائى صغير للرى تختط القنوات وتقسم رقع للدخن والقمح والشيلم• (٦)

وبدهى ان ذلك كان يتم فى أضيق الحدود والكميات المتاحة نظرا لقلة المياه وطبيعة التربة وصعوبة المناخ كما سبق القول •

موقف المغول من الزراعة خارج الاستبس :

عمد المغول فى بدء غزوهم الى تدمير كافة مظاهر الحضارة المحيطة بهم خاصة الزراعة غير مبالين بما ينال الاخرين من ايذاء وضرر فقبل الهجوم على ممتلكات الدولة

---

(١) د• جمال حمدان : أنماط من الثبات ص ٦١
(٢) د•هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص٣٢
(٣) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص١٠٨
(٤) د•عبدالسلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٢
(٥) د•رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٦
(٦) د•جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦١

الخوارزمية قال جنكيز خان لجنوده" ان الطقس فى بلادهم صيف دائم والفاكهة عندهم تخرج منها الارض الوانا لانعرفها ولا تخطر لنا على بال ، وأراضيهم الخصيبة تنبت المحاصيل ثلاث مرات فى كل عام ولا تضن عليهم يوما بالطعام للناس والاغنام فهل من العدل أن نترك أرضا غنية الى هذا الحد ، لنأخذ من أرضهم ونسوى مدنهم بالارض ، ثم نحرث مواضع المدن ونبذر فيها الشعير فنجعلها مراعى لخيلنا فهل انتم على أهبة الاستعداد للقيام بهذه الرسالة التى تمليها عدالة السماء. (١)

ومن هذه الخطبة يمكن ان نستشف امورا عدة:

أولها : الرغبة الجامحة فى الاستيلاء على خلاصة جهد الاخرين دون أدنى رحمة أو وازع من ضمير.

ثانيها : كراهية المغول للزراع والزراعة كعمل يمارس فجنكيزخان يود تحويل الأراضى الصالحة للزراعة الى مراعى لخيوله.

ثالثها : الهاب حماسة الجند المغول واستثارة عزائمهم بايهامهم أن تدمير هذه الاراضى بعد الاستيلاء على خيراتها انما هو واقع تحتمه ارادة السماء فماذا كانت نتيجة ذلك ؟

وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب حيث قامت امبراطورية المغول على تعاسة الناس وشقائهم" (٢)، وبخاصة المزارعون .

وعقب الاستيلاء على بخارى وقف جنكيزخان ونظر الى جنوده الذين يملأون الميدان وقال بصوت جهورى خشن " جنودى البسلاء ان القوم قد حصدوا الغلال قبل نضجها وأحرقوها حتى لاتجدوا طعاما لكم ولخيولكم ولكنى أعلم أن أهراء الغلال داخل المدينة ملأى فهل حل لكم فخذوا منها شبع بطونكم وبطون خيولكم". (٣)

وهذا الخطاب انما هو تكرير لروح الاثارة التى اعتمد عليها جنكيز خان فى تحريك النزعة العدوانية لدى جنوده فالثابت تاريخيا أن الخوارزميين تملكهم الفزع من الهزائم المتلاحقة لقواتهم والفرار المستمر لسلطانهم المنكود محمد خوارزمشاه. فلم يحرقوا زرعا ولم يحصدوا غلالا عندما هاجمهم جنكيز خان بعنف وضراوة . فعنصر المفاجأة والهول الذى أوقعه المغول قد أحدثا الشلل التام فى دولة خوارزم شاه. فماذا كان مصير الفلاحين أنفسهم ؟ وهل توقف الامر عند تدمير حقولهم وبساتينهم فقط؟

يقول فامبرى" والفلاحون كانوا قد قتلوا جميعا أوارغموا على الانضمام الى الجيش المغولى قسرا (٤) وخلاصة هذا الرأى أن الفلاحين قد صرفوا تماما عن الزراعة التى كرهها المغول اما بالقتل واما بالاسر كى يعملوا تحت امرة الجيش المغولى فى أى شئ آخر غير الزراعة كتعبيد الطرق اومهاجمة الاسوار فى المدن التالية التى يزمع المغول مهاجمتها ، فهو مصير مظلم فى نهاية الامر.

---

(١) الكاتب الصينى ف.يان ، جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١١٩

(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٢٨

(٣) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٩

(٤) تاريخ بخارى ، ص ١٨٠ ، سيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٤ د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٧٥.

ويقول أستاذنا الدكتور أحمد شلبى عن الزراعة فى ايران والعراق فى عهد المغـــــول الايلخانيين" وقل الاهتمام بالزراعة لان من زرع أرضا كان غير مطمئن الى حصاد زرعـــه .. وقد ارتكب هولاكو تخريبا شاملافى السدود والانهار — فلم يعد من الممكن ضبط هذه الأنهـار عند الفيضان كما سبب ضعف النشاط الزراعى ووضع العوائق دون ان تستعيد البلاد سابـــق مجدها الزراعى".(١)

وليت الامر توقف عند هذا الحد فقد عمد المغول الى الاجهاز على خصوبة العـــراق باتمام مابدأه "هولاكو" من تحويل معظم اراضيها من حالة الزراعة بوسائل الرى النظامى الـــى (فلوات) تسرح فيها الرعاة من قبائل البدو".(٢)

على أن المصيبة الكبرى كانت تكمن فى الضرائب الباهظة وفى التكاليف الكثيرة التـــى كان يزرح تحت وطأتها الاهالى وبخاصة الزراع فقد بلغ الأمر حدا جعل كل محصولهم لايكفـــى لغطاء نصف التزامهم من الضرائب ".(٣)

وعبثا حاول الأمير المسلم مسعود بيك ان يصلح من حال الزراع فى منطقة التركستـــان وبلاد ما وراء النهر غير أن الحروب التى لا تنقطع بين المغول أنفسهم فى هذا العهد حالت دون تحقيق ذلك.

وفى ايران كان عهد غازان خان المسلم فاتحة خير على البلاد كلها" فقد سارع الـــى اعادة الحياة الى الاراضى المهجورة وعمل فى الوقت نفسه على زيادة رقعة الاراضى المزروعـــة وأمر بأن يوضع تحت تصرف الفلاحين كل مايلزمهم من بذور ودواب وشدد على محاسبـــة المسئولين الحكوميين عن ذلك ،كما اهتم بوسائل الرى داخل ايران وخارجها من المناطـــق التى يسيطر عليها فأمر بانشاء الأنهار والترع الجديدة ، كان بينها ترعة اقيمت بالقرب مـــن الكوفة تكلفت ١٠٠ر١٠٠ دينار"(٤).

وهكذا غير الاسلام من نظرة الاحتقار والازدراء التى دأب المغول عليها حيال الـــزراع والزراعة كما أن الاستقرار بين أهالى البلاد المفتوحة ومعظمهم من المزارعين أدى مع مـــرور الوقت الى تغير هذه النظرة التى أثبتت التجارب أنها لم تكن عملية أو ذات أفق بعيد.

ثالثا : الصيادون

لم يكن الصيد عند المغول مجرد هواية يسعد بها الافراد أويتلذذون كما كان هـــو الحال عند غيرهم من الأمم التى اتخذت الصيد وسيلة للترفيه أو الرياضة ، فلقد كان الصيـــد ضرورة حياة اقتضتها الظروف المحيطة بالمغول ، الذين حملوا معهم الى حياة المراعـــى أسلوب حياة الصيادين الذين كانوا لايرون فى الحيوانات الا أنها مصدر للحصول على اللحـــم والملبس وحتى فى أيام الغزوات المغولية ظل الصيد عملا نفعيا اكثر منه عملارياضيا.(٥)

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٦٢

(٢) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٨١

(٣) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٨٧

(٤) د.فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عصر أسرة الايلخانيين ص ٣١٧

(٥) د. رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٦٩

ففى أثناء الانسحاب عقب احدى المعارك الحربية ضد الكرايت استدعى (تيموجين) ابنه الاكبر جوجى وطلب اليه ان يعاود حملة الصيد الكبير من جديد — صيد الحيوانات البرية — فقد كانوا — آنذاك — فى حاجة أكثر من ذى قبل الى لحوم الحيوانات وأغطية الخيام.(١)

وفى الحقيقة كان الصيد وسيلة للافلات من خطر الجوع بالدرجة الاولى . فجنكيزخان الذى ينسب الى قبيلة من الرعاة اضطر فى شبابه بعد أن اغتصب منه اقاربه وعشيرته قطعانه الى حياة بائسة مع اسرته الصغيرة — وهى حياة صيادى الحيوانات وصيادى السمك"(٢)

وقت الصيد :

وبدهى أن يكون زمن الصيد العام فى غير أوقات الحرب ففى الياسا شرع جنكيزخان القيام بصيد عام كل شتاء لاستمرار التدريب الحربى وتجهيز الارزاق وأوجب على كافة الأفراد الامتناع عن الصيد من بداية شهر مارس الى أكتوبر من كل عام(٣) حيث يترك هذا الوقت للحرب والحكم"(٤)

فالصيد العام كان يمثل قضية عسكرية مهمة فى تقدير جنكيزخان وتحديد موعده اشارة الى ضرورة الالتزام بوقت خاص فى السنة يلائم الصيد وكان ذلك عادة فى فصل الشتاء نتيجة لشدة البرد والحاجة الماسة الى الغطاء والغذاء اما فى الصيف فصل الشمس المحرقة والحرارة المرتفعة فامكانية الصيد فى هذه البيئة المفتوحة محدودة الى حد كبير وفى الخريف تشتد الرياح فيعجز الصيادون جبالها عن متابعة حركة الحيوان.

اذن فالشتاء كان فصل الصيد المميز عند المغول فجنكيز خان بدلا من أن يدعهم يستريحون فى موسم الشتاء الجليدى كان يأمرهم بالخروج فى حملات الصيد الكبير.(٥)

على أننا يجب أن نقدر أنه كانت هناك حالات صيد فردية لا ترتبط بوقت معين فى السنة وتلك كانت تحتمها ظروف الحاجة أو المكان .. الخ .

أمير الصيد :

ولما كان للصيد مكانة عظيمة لدى المغول فان أمير الصيد كان يختار بدقة وعناية فائقتين وكان جنكيزخان يعامل جوجى دائما على أنه الابن الاكبر فمنحه لقب أمير الصيد.(٦)

ويبدو أن جوجى نفسه كان شغوفا بعمله كأمير للصيد فلم يبال بما يلاقيه فى سبيل تنفيذ مهام هذا المنصب."(٧)

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٣
(٢) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٣
(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ ج١٣ ص ١١٨
(٥) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٣
(٦) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٤
(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦

وفى الحقيقة لم يكن منصب أمير الصيد منصبا شرفيا وانما كان يحتاج الى كفاءة عالية ودراية تامة بمتطلبات الصيد كافة . بل وكان يحتاج الى معاونة الرجال الحكماء وكبار السن كى يعاونوا على عمل الترتيبات الكافية للايقاع بالحيوانات المفترسة.

وعموما فامارة الصيد كانت وقفا على الامراء المغول بصفة خاصة فقد كان يشرف على ميادين الصيد كبار هؤلاء الامراء الذين يصطحبون معهم الخواتين والسرارى ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات.(١)

فالأميرات والسرارى كن يشتركن فيما يبدو كمراقبات لعمليات الصيد من باب الاستمتاع بما يجرى فيه من أحداث وبطولات لا تقل عما يحدث فى ميادين القتال.

حلقات الصيد :

يقول ابن كثير فى البداية والنهاية نقلا عن الجوينى" وكان جنكيزخان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع الحيوان شئ كثير لايجد كثيره.(٢)

ويفهم من هذا أن المغول بنوا فكرة الصيد عندهم على محاصرة الحيوانات كلها فى دائرة معينة تضيق بالضغط المستمر من محيط هذه الدائرة وصولا الى مركزها فى نهاية فترة الصيد . لكن المساحة التى أشار اليها الجوينى . تبدو مبالغ فيها خاصة اذا ما وضعنا فى اعتبارنا وعورة التضاريس واشتداد البرد وتراكم الثلوج فى فصل الشتاء.

أما الكيفية كان يتم بها احكام المغول قبضتهم على حيوانات الصيد البرية، فتتلخص فى "أن الامير جوجى كان يقود فصائل الفرسان فى حين كانت كل فرقة تعسكر عند العلم الذى يميز موقعها وكأنهم فى حالة حرب ضد جميع الحيوانات البرية . وعندما يلحق بهم تيموجين خان ومعه حرسه الخاص وقواده المختارون كان يعطى الاشارة فيبدأ الصيد الكبير بعد ذلك يبدأ(تيموجين) الخان باقتحام منطقة الحيوانات المائجة مستخدما سلاحه هذه المرة فقد يطعن بسيفه نمرا يهاجمه أو يرشق بسهامه جسم تيتل سريع ثم كان عليه بعد ذلك أن ينسحب الى قمةأحد التلال ويراقب الصيد من هناك تحت سرادق منصوب.

وبعد ألخان يأتى دور زعماء القبائل الاخرين والضباط فى قتل حيوانات الصيد ويتذكر كل رجل تماما الحيوانات التى صرعها.

وفى المساء كان الصيادون يشعلون دائرة من النيران ثم يمر الضباط على الحراس فى دوراتمنتظمة كما لو كانوا فى معركة حربية.(٣)

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٢
(٢) البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٨
(٣) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٤

ويكشف هذا كله عن مدى الجدية والالتزام والحرص فى اتمام عملية الصيد حيث كان المغول يستعدون استعدادا كافيالائم أهميتها فى حياتهم ، واذ كان القنص يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط والحراس وبروض لاجله المئات من الصقور بالاضافة الى الحيوانات السنورية الصغيرة التى تروض لقنص الطرائد الكبيرة والى أسراب كلاب الصيد (١) .

ولما كان المغول قد تعودوا على الصيد فى موطنهم الأصلى بحكم ظروف المناخ والتضاريس فقد كان جنكيز خان كثيرا ما يردد " اننا نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا الصيد وليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا" (٢) .

وعلى هذا انتقلت مهارة الصيد التى تعودها المغول معهم خارج بيئة الاستبس التى عاشوا فيها ، ولما عبر هولاكو نهر جيحون سار يتجول على شاطئه بقصد التفرج والمشاهدة، ولما ظهر من بين الغابة كثير من الاسود ، أمر هولاكوفرسانه أن يضربوا حلقة حول هذه الحيوانات ولما كانت الاسود تخيف الخيول فقد ركب الفرسان الابل البكترية واصطادوا أسدين (٣) فاذا ما وصلنا الى عهد غازان المسلم (٦٩٤ ــ ٧٠٣هـ) ورغم أن البيئة الايرانية تختلف أيضا عن بيئة الاستبس فى منغوليا من حيث ظروف المناخ والتضاريس الا أن عادة الصيد ظل قائمة ولها مكانتها ومتاعبها التى تعود على الايرانيين بالضرر حتى ان غازان اضطر للتدخل" فرفع عن كاهل رعيته كثيرا من الاعتداءات التى كان يرتكبها الصيادون وضباط الصيد وسائقى البغال والجمال الخاصة بالخان وكلك اتباع الخوانين والامراء والقواد" (٤) .

أطفال المغول والصيد :

دأب المغول على اشراك اطفالهم فى الصيد لما يتحقق من جراء ذلك من مزايا تنفع عند النمو والكبر فعندما يخرج الرجال للصيد ينطلق الاطفال مقلدين الأباء جريا وراء الارانب والجرذان لصيدهما . (٥)

وهكذاكان للأولاد الصغار فرص يظهرون فيها مهارتهم وعدم اكتراثهم وفى الحق كان الصيد يدرب الصغار على مطاردة الاعداء الادميين ووضعهم فى موضع حرج . (٦)

أما أطفال الخان فعلاوة على اشتراكهم مع بقية الاطفال فى التدريب على الصيد كان لهم دور آخر يبرز مكانتهم أمام الجميع فقد جرت العادة أن يأتى أطفال الخان الصغار اليه ويتقدموا بطلب السماح للحيوانات الباقية على قيد الحياة بالهرب فيجيبهم الخان الى طلبهم ثم يقوم الجميع بجمع جثث الحيوانات المقتولة . (٧)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) ج٣ ص ٣٦٢
(٢) هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٥
(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ ، مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٤١
(٤) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٣٥
(٥) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٦
(٦) د. هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٥
(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦

أنواع الصيــــد :

تعددت أنواع الصيد لدى المغول فكان هناك مثلا صيد الاسماك يقول أستاذنــا الدكتور أحمد شلبى " وفيهم صيادوا السمك الذين يعيشون بجوار البحيرات والانهار" ٠(١)

على أنه يجب ألا نحسن الظن بالصيد فى مجال الاسماك فالبحيرات قليلة والانهـار نادرة فى أقصى الحواف الشمالية لمنغوليا٠ ولعلها كانت بعض الروافد الصغيرة أوالمستنقعـات الناجمة عن ذوبان الجليد٠

وكان هناك صيد البر فى أراضى السهوب المنبسطة فى بيئة الاستبس الذى تحدثت عنه توا فى الصيد العام ٠

وبالاضافة الى صيد الاسماك وصيد البر ، كان هناك صيادو الغابات ، وهؤلاء كانوا يقيمون فى أقصى الشمال وكان الصيد حرفتهم الاساسية التى لاتتقيد بزمن معين فهـــم لايمتلكون ماشية أو خيولا بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعات اليدوية كالنجـــارة والحدادة ، وكانوا يحتذون النعال الخشبية شتاء ويتوكأون على عصى طويلة للسير للتزلـــج على الثلج ويحتذى بعضهم نعالا من العظم المصقول تساعدهم على التزحلق على الجليـــد واللحاق بالحيوانات" ٠(٢)

ولقد سبق الاشارة فى الفصل الاول الى قبائل الميركيت الذين كانوا من ساكنـــى الغابات وكيف كانوا يفضلون الصيد على أى مهنة أخرى ٠

وجدير بالذكر أن الصيادين الذين احترفوا مهنة الصيد دون غيرها كانوا ينظــرون الى الاخرين نظرة زراية واستخفاف ، يقول بارتولد نقلا عن جامع التواريخ لرشيد الديـــن " واذا كانت حياة الزراعة فى نظر البدو نوعا من العبودية لا يطاق فان حياة البدو كانـــت كذلك فى نظر القبائل التى تعيش على الصيد" ٠(٣)

وهكذا كان القناصون يحتقرون الرعاة مع أنهم دونهم تحضرا" ٠(٤)

ولعل ذلك يرجع فى رأى هؤلاء القناصين الى ما تتميز به حرفتهم ـ الصيـــد ـ من شجاعة وصبر وذكاء وخبرة فى اقتناص الحيوان مما جعل الرعى ـ من وجهة نظرهـــم ـ حرفة لا تتحقق فيها كل هذه المآثر بنفس الدرجة٠

رابعا : المحاربـــون

كان المحاربون ـ فى أثناء القتال ـ يمثلون غالبية السكان أوالقادرين على المجالدة فى المجتمع المغولى حيث كانوايتجهون فورا الى حيث يأمر الخان الاعظم ٠ فقد كان كـــل مغولى مجندا فى خدمة دولته ومستعدا لحمل السلاح وخوض غمار القتال اذا ما أشار عليـــه جنكيز خان بذلك٠(٥)

(١) أ٠د٠ أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٣٦

(٢) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٢

(٣) تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٥٤

(٤) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٢

(٥) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٨

ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يمارسون الفروسية وأعمال الحرب بل ان النساء اشتركن – عند الضرورة – فى هذه المهام .

وبالطبع لم يكن لدى المغول سن معينة للتجنيد فى الخدمة العسكرية كما هو معروف الان . وانما كان لديهم التزام بالعمل العسكرى لفترة طويلة من العمر . اذ فرضت التقاليد عند الاقوام البدوية من المغول والاتراك ان سن التجنيد للخدمة العسكرية يمتد ما بين الرابعة عشرة حتى الخامسة والخمسين .(١)

كذلك كان العجز أو القصور عن أداء هذه الخدمة يكلف صاحبه خدمة بديلة" فقد كان على الشخص الذى يعفى من الخدمة العسكرية ان يقدم خدمات مجانية للخان لمدة من الزمن" .(٢)

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان المغول كانوايشكلون مجتمعا عسكريا بالدرجة الاولى فالحروب الداخلية كانت شبه متصلة بين القبائل والصراع فى مواجهة الطبيعة القاسية لا يكاد ينقطع وحملات الصيد العام لاقتناص الحيوان تستمر كل شتاء .

وبعد أن تمكن جنكيز خان من توحيد القبائل المغولية تحت رايته وقرر أن يوجه طاقاتها القتالية الى الحروب الخارجية ظهرت طبقة عسكرية احترفت القتال دون غيره من الاعمال . فلم يعد لها عمل سواه .

وبازدياد الانتصارات العسكرية الباهرة فى مجالات عدة واسعة زاد افتتان المغول بالحرب كعمل أو حرفة فلم يعد ينظر اليها باعتبارها عنوانا للشجاعة أو وسيلة قبلية للدفاع عن النفس وانما أضحت موردا للرزق تتصاغر الى جواره الحرف الأخرى كالرعى أوالصيد أوالزراعة ... ولهذا كان يمر بمحطات البريد المغولية فرق الشباب المتلهفين على الانضمام للجيش فقد كانوايحسدون رجال الحرب المحنكين العائدين الى الوطن وهم يحملون بالغنائم من سيوف وجواهر ودروع" .(٣)

ولعل اندفاع شباب المغول الى الالتحاق بالجيش يوضح الدافع وراء ذلك وهو الرغبة فى الحصول على العائد المادى السريع .

وربما كان ذلك مبررا للتفسير الاجتماعى الكامن وراء تكوين الجيش المغولى، والذى يقرران أكثر جنود جنكيز خان كانوا من الفقراء والمحتاجين ، حتى يكونوا أكثر طاعة وأقدر على الكفاح ، وأحرص على النصر" .(٤)

ونلاحظ على هذا التفسير عدة أمور :

١ – أنه استخدم اسم التفضيل (أكثر) فلم ينكر وجود بعض الاغنياء فى جيش جنكيز خان غير أنه لم يحدد لنا مكانهم فى الجيش او علاقة ثرائهم بوجودهم فى مراتبه خاصة أن

---

(١) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٣٥١

(٢) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

(٣) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢١

(٤) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٩ نقلا عن الجوينى تاريخ جهانكشاى جـ ١ ص ٢٢

الترقية الى مناصب القيادة العسكرية كانت فى نظر جنكيزخان تقوم على الكفاءة والخبرة وليس على الثراء أوالوراثة٠

٢ ـ انه استخدم مصطلح" الفقراء والمحتاجين" ٠٠ وهو مصطلح من الصعب قبوله خاصة فى عهد جنكيزخان حيث لم تكن الاوضاع الاجتماعية فى بيئة المغول المقفرة تسمح بوجود التميز الطبقى على هذا النحو فقد كان من العسير وجود التباين الاجتماعى بين المغول فى هذه الفترة الحرجة من تاريخهم ومع الظروف المناخية التى تواجههم والخطر المحدق بهم٠

٣ ـ انه يرى أن الفقر والحاجة كانا مصدر الطاعة و الكفاح والحرص على النصر لدى جند جنكيز خان ٠٠ والحقيقة ان المغول قد توارثوا هذه الصفات جيلا عن جيل موقنين بالاضافة الى فقر البيئة ـ ان هذه الصفات هى وسيلة النجاة من خطر الطبيعة والاعداء المتربصين ومدعاة للترابط الاجتماعى أيضا ولعله يمكن قبول هذا الرأى على اعتبار أن جنكيز خان قد استغل فقر البيئة المغولية وجد بها فى تحريك الدوافع القتالية عند معظم المغولية فانطلقوا لاكتساح المجتمعات المجاورة ذات الثراء العريض٠

غير المغول فى الجيش :

ادى اتساع حركة الغزو وانتشار المغول فى معظم أرجاء أسيا الى احتياج المغول الى جيوش جرارة تمكنهم من مواصلة الفتح والاحتلال فكان عليهم أن يستخدموا غيرهم فى تنفيذ المهام العسكرية المختلفة وهكذا بدأت الجيوش المغولية الفاتحة تضم تحت راياتها أجناسا أخرى غير مغولية٠ تحارب وتسميت فى القتال دون أن يكون لها أدنى حق او نصيب من الغنائم لو قدر لها أن تفلت من الموت أثناء الحرب على أيدى أعداء المغول او بعدها على أيدى المغول أنفسهم ٠

وقد اتخذ المغول فى سبيل تحقيق زيادة أعداد جيوشهم المحاربة وسائل منها :

أ ـ التجنيد الاجبارى:

استن المغول هذا النظام كى يستفيدو ا بطاقة الشباب من أهالى الامم المغلوبة عوضا عن الجزية او بالاضافة اليها وفقا لما تقتضيه الظروف ،يقول الدكتور وعلى سبيل المثال كان على الروس دفع ضريبة الدم ويقصد بها تقديم الرجال المطلوبين للعمل فى جيش ساداتهم المغول فكان الامراء الروس يختارون صفوة شبابهم فى القرن الثالث عشر لتقديمهم الى المغول (١) " ولقد ذكر كاربينو ـ أحد معتمدى البابا انوسنت الرابع ـ أنه كان عدد عسكر الخان (باتو) ٦٠٠ر٠٠٠ جندى منهم١٥٠ر٠٠٠ من المغول والبقية كانوا أخلاطا وبينهم مسيحيون". (٢)

فاذا تذكرنا أن استيلاء المغول على معظم جنوب روسيا تم فى عهد جنكيزخان نفسه ثم استمر المغول محتلين لها قرابة ثلاثة قرون فيمابعد فليس هناك ما يمنع ـ فى تقديرى ـ من أن يستمر هذا النظام طول فترة بقاء المغول فى روسيا أو فى غيرها من الأمم

---

(١) د٠سعيد عبد الفتاح عاشور: اوربا العصور الوسطى ،ج ١ ص ٦٢١

(٢) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٧١

المغلوبة التى خضعت لسلطانهم ٠

وفى عهد قوبيلاى قا آن ٠ كان الجنود المسلمون والمسيحيون يجلبون من أماكن بعيدة للمشاركة فى حروبه فى الصين (١) اذ دأب المغول على تجنيد المسلمين فى صفوفهم من عرب وفرس وأتراك وكان بعض هوءلاء يجبر على الذهاب الى الصين مع المغول حيث بقوا ضمن جيوشهم واستوطنوا هناك بمضى الوقت" (٢) ٠

(ب) الأسرى :

كان جنكيز خان قد روع كل من حوله من الشعوب عندما كان يلجأ الى ذبح آلاف الاسرى أثناء عودة جيوشه الظافرة من حروبه فى الصين (٣) ٠

وكان على جنكيز خان وقد حقق الرعب المنشود وتخلص أيضا من موءنة الاسرى ان يستعيد فى ذاكرته ما كان يفعله أسلافه الاقدمون الذين استخدموا الأسرى فى الأعمال الحربية الشاقة واشهرهم أتيلا الذى ابتليت به روما فى عصور سابقة (٤) ٠

وهكذا رأينا جنكيز خان ومن جاء بعده يستغل الأسرى بكل صورة ممكنة وهو ما أشار اليه ابن الاثير فى قوله" وكانت عاداتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل فى المسلمين الاسارى وهم بنجوه منه" (٥) ٠

تلك اذن سياسة دموية تستهدف الاستفادة من الاسرى ثم التخلص منهم دون شفقة أو رحمة٠

(جـ) فرق التحالف :

بدأت أغلب هذه الفرق تظهر فى الجيش المغولى منذ عهد جنكيز خان الذى استخدم كتائب من الاويغور والقارلوق فى الهجوم على أملاك الخوارزميين منذ عام ٦١٥هـ٠

ونهج هولاكو نفس السياسة خصوصا عندما تسابقت القوى المسيحية سواء فى غرب اسيا أم فى غرب أوربا وبتأييد من البابا فى روما على التحالف مع المغول ضد المسلمين فى مصر والشام٠

وعلى هذا فقد اشتركت نسبة كبيرة من النساطرة والكرج والأرمن فى جيش هولاكو الزاحف على بغداد وهوءلاء كانوا أول من اقتحم اسوار المدينة وكانوا لا يقلون عنفا عن المغول أنفسهم تجاه أهل بغداد عند سقوطها (٦) فى يد هولاكو٠

---

(١) أرنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ص ١٧٩
(٢) د٠رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٥
(٣) فهمى هريدى : الاسلام فى الصين ص ٦٢
(٤) ادوار جيتون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها جـ٢ ص ٢٨٢
(٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ١٤٥
(٦) د٠ السيد العرينى : المغول ص ٢٢٤

وتكرر نفس الموقف عند غزو (ميافارقين) حتى أصبح واضحا أن المسيحيين الشرقيين عندئذ كانوا يعتقدون أنهم بسيرهم فى ركاب المغول ضد المسلمين انما يقومون بحروب صليبية جديدة (١) تستوجب عليهم المساهمة بكل ما يمكن تقديمه وخصوصا فى النواحى العسكرية.

ولقد ظل (هيثوم) ملك أرمنية مخلصا لماجرى التفاهم عليه مع المغول فتردد كثيرا على بلاط الايلخانات وبذل المساعدة العسكرية كما دعت الحاجة اليها وحارب الأرمن جنبا الى جنب مع المغول فى آسيا الصغرى والشام". (٢)

وظلت هذه السياسة مستمرة أغلب عهد الايلخانيين حتى أنه فى سنة ٦٨٠ هـ عندما تمكن السلطان قلاوون من هزيمة المغول بقيادة منكوتمر بن هولاكو عند ظاهر حلب كان جند المغول فى هذه المعركة نحو ثمانين ألفا منهم خمسون ألفا من المغول والباقون كرج وأرمن وعجم وغيرهم". (٣)

وفى الحقيقة لم يكن المسيحيون وحدهم هم الذين ساهموا بفرق عسكرية فى جيش المغول فان بعض أمراء المسلمين - على سبيل المثال - كبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٤) والاتابك ابى بكر سعد بن زنكى السلغرى حاكم اقليم فارس (٥) امدوا جيش هولاكوا قسرا بالرجال والمال قبل هجومه على بغداد.

خامسا : التجار

لم يكن المغول - فيما يبدو - تجارا بالمعنى المفهوم لهذه الحرفة فى عصرهم فقد كانوا كما أسلفنا رعاة فى المقام الأول كما كانوا صيادين فى فصل الشتاء أوحيثما اقتضت الضرورة ومحاربين فى معظم الأحوال دفاعا عن المرعى أو طلبا له.

غير أن التجار الأجانب من الصينيين والايرانيين والخوارزميين كانوا يمثلون حلقة الاتصال بين هذا المجتمع البدوى وبين المجتمعات المجاورة ليس فى مجال التجارة فحسب بل فى مجالات أخرى عدة.

وقد صار هؤلاء التجار وبخاصة المسلمون ذوى مكانة ممتازة لدى جنكيز خان فقد كانوا استشاروه الاول وعاونوه معاونة كبيرة فى محاربة العالم الاسلامى. (٦)

هذا .. ولقد شغل بعضهم منصب السفير فوق العادة مثل محمود يلواج الجرجانى الذى اوفده جنكيز خان الى السلطان الخوارزمى علاء الدين فى أول اتصال رسمى بين الدولتين

---

(١) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ١١١٤
(٢) د. السيد العرينى: المغول ص ٢٠٤
(٣) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٢٨
(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١١٩
(٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ٤ ص ٩٤
(٦) بارتولد: تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٣

آنذاك ٠

كذلك فقد أرسل جوجى بن جنكيزخان حسن حاجى الذى كان تاجرا ثم التحق بخدمة جنكيزخان برسالة الى أهل سقناق يدعوهم الى التسليم ولكنهم هجموا عليه وقتلوه فسار اليهم جوجى على رأس جيشه وحاصر المدينة حتى سقطت فى يده ونصب ابن حسن حاجى حاكما عليها ٠ (١)

ويكاد محمود يلواج وابنه مسعود أن يكونا أشهر تاجرين تعاملا مع المغول وقد شغل أولهما منصب الحاكم العام فى بكين فى الوقت الذى تولى فيه الثانى الحكم فى بلاد ما وراء النهر ، والحق أنهما بذلا جهدا مشكورا فى محاولة تحقيق الاستقرار ابان حكمهما ٠

ولا يغيب عن الذهن الدور الذى لعبه التجار المسلمون فى نشر الاسلام بين المغول خاصة فى الفترة التى سبقت الغزو المغولى للبلاد الاسلامية فقد كانوا يمثلون مدارس متنقلة لبث التعاليم الاساسية للاسلام وسط ظروف غير عادية وصعبة ٠

* مكانة التجار:

قد رأينا اذن مدى أهمية التجار لدى المغول ٠٠ فعملهم لم يكن مقصورا على التجارة فحسب بل امتد الى اعمال أخرى اهم فى نظر المغول آنذاك سأشير اليها بعد قليل ٠

لكن مايعنينا هنا هو مكانتهم الاقتصادية او ثقلهم التجارى فهؤلاء التجار كانت لهم فى ذلك العصر ما للمصارف المالية من المكانة فى الزمان الحديث فقد كانت أوامرهم بصرف مبالغ طائلة تنفذ دون مناقشة أو ضمان سوى سمعتهم ، سواء أكان ذلك فى أقصى الشرق أو الغرب ٠ (٢)

وعلى الرغم من هذه المكانة فان الياسا التى شرعها جنكيز خان كان تعامل التجار او تنظر اليهم بجزم فهى تنص على" من أعطى بضاعة فخسر فيها ، فانه يقتل فى المرة الثالثة" ٠ (٣)

ولم يكن هذا هو التهديد الوحيد الذى ينذر بالخطر فى حياة التجار ٠ فبعد عشرين عاما من وفاة (أوكتاى) كان التجار ولا ذنب لهم لايكادون يجتازون بلدا الى بلد آخر حتى يقتلوا بسبب الحروب بين الحكومات المغولية ٠ (٤)

وليس أدل على ذلك من أحداث سنة ١٢٦٢م حين أمر هولاكو بعد أن هزمه بركة بالقرب من ترك Terek أن يقتل كل التجار الاتين من بلاد عدوه ورد بركة بقتل التجار الوافدين على بلاده من بلاد هولاكو" ٠ (٥)

---

(١) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٥٨

(٢) الكاتب الصينى ٠ف ٠يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٩

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٠

(٤) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٩٥

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٥ ٠

لكن هذا لايدفعنا الى التسليم بضياع آمن التجار والتجارة فهذه المواقف من قبل بعض الحكام المغول كانت فردية وموءقتة فى أغلب الحالات وبالتأكيد لم تكن لتشمل كل الطرق التى تجتازها قوافل التجارة.

فلنحاول اذن اكتشاف بعض طرق القوافل فى آسيا فى العصر المغولى فلعل ذلك يوضح لنا الموقف الحقيقى للمغول نحو التجار، والذى عبر عنه جنكيز خان عندما ارسل الى خوارزم شاه فى شأن التجار يقول له" من المعهود عن الملوك أنهم لايقتلون التجار لأنهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسه (١)

طرق القوافل :

كانت التجارة البرية فى أواسط آسيا بين الصين وبلاد الاسلام ذات شهرة ذائعة الصيت حيث ان الطرق التجارية معروفة ومألوفة ومأمونة فى غالبية الاحيان. حتى أنه من كثرة تردد قوافل التجار الى الصين برا فتح الطريقان المنظمان على ظهر الجبال بآسيا الوسطى كى ترتبط عواصم الصين بعواصم البلاد المجاورة ويعرف أحد الطريقين فى الكتب الجغرافية باسم(نان لو) أى الطريق الجنوبى والاخر باسم(بيلو) أى الطريق الشمالى وبينهما تقع صحراء (جوبى) فالطريق الجنوبى يمر جنوبى نهر (تاريم) الى ختن حيث يصعدا على هضبة (بامير) ثم ينزل غرب جيجون الى(خيوة) أو عن جنوب هذا النهر ذاهبا الى نهر (أندوس) والبنجاب بشمال الهند. أما(بيلو) او الطريق الشمالى فيمر شمالى نهر(تاريم) الى كاشغر ثم يمر بطريق (تيراك) الى سيمون وسمرقند حيث يوجد طريقان ، أحدهما يذهب بصاحبه جنوبا الى (خيوة) والاخر ينعطف ناحية الجنوب الغربى الى مرو عاصمة خراسان. (٢)

وبدهى أن الحروب التى شنها المغول ضد الدولة الخوارزمية اوحكام الصين قد أدت الى توقف حركة التجارة واغلاق معظم طرق القوافل البرية مما هدد بكساد تجارى خطير.

فلما وجد جنكيز خان نفسه مضطرا الى انتهاج سياسة جديدة تعيد الازدهار للتجارة سارع الى تأمين التجارة بين شرقى آسيا وغربيها وتوسيع نطاقها فحرص على تأمين الطرق والضرب على أيدى اللصوص. فزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله يسمون (قراقجية) أى مستحفظين وكلفهم بأن يرافقوا كل اجنبى يحمل تجارة الى معسكرات المغول (٣).

وبذلك فتح الطريق التجارى القديم بين ايران والصين حيث ان جنكيزخان لم يدخر وسعا فى القضاء على الدول والقبائل التى كانت تعترض هذا الطريق ولاتوءمن طرق القوافل (٤)

ولعل جنكيز خان كان يرى فى ذلك أعظم وسيلة للوصل بين المجتمع البدوى الفقير الذى يعيش فيه المغول وبين المجتمعات الاخرى المجاورة ذات الثراء العريض.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١١٩

(٢) بدرالدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص١٢

(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٠،
د.حمدى حافظ: تاريخ الدولة الخوارزمية والمغول ص ٦٩

(٤) د. فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩٦.

ولما كانت بخارى وسمرقند وخجند كلها مراكز تجارية هامة تسير فيها القوافل الى منغوليا حيث مر الخان الذى كان يشجع التجار كى يترددوا على بلاده ويبعدهم بكل حماية ممكنة فقد كانت محطات البريد المغولية تمثل حلقة الاتصال بين الطرق جميعها حيث كانت القوافل التى لاحصر لهاتتهادى عند مرورها بهذه المحطات وهى تحمل الثمين من البضائع الى مواطن المغول ٠ (١)

ويبدو أن جنكيز خان قد نجح فعلا فى مهمة تأمين طرق التجارة اذا ضحى بوسع القبائل الضخمة ان تجتاز فى اطمئنان قارة آسيا من أقصاها الى أقصاها (٢) فعلى سبيل المثال سارت هذه القوافل فى آمان وسلام من قمم تيان شان الشاهقة الى السور العظيم لانه شجع على ارتيادها تلك المناطق (٣) ٠

فى الحقيقة لم يكن جنكيز خان هو الحاكم المغولى الوحيد الذى أولى اهتمامه بالتجارة وطرق القوافل فقد عرف ذلك أيضا عن غيره من الخانات المغول فقد بدا ادراك قوبيلاى لاهمية التجارة فى عنايته الفائقة بالطرق وحرصه على تأمين المسافرين فيها باقامة مخافر بها كبيرة أوصغيرة عند المواطن التى قد تتعرض فيها لخطر اللصوص٠ (٤)

فكثر تردد التجار المسلمين على الصين حيث كان قوبيلاى دائما يسعى الى توثيق الروابط الاقتصادية بينه وبين الايلخانيين فى ايران ونتيجة لذلك ازدهرت التجارة وعم الرخاء٠ (٥)

وفى عهد قوبيلاى انضمت قوافل من التجار الايطاليين لأول مرة فى التاريخ الى القوافل الاسيوية التى كانت تجوب أقطار الهند والصين" (٦) ومن خلال ذلك سمح لماركوبولو ومن معه فى نهاية القرن الثالث عشر بالقيام برحلتهم المشهورة الى أرجاء الصين" ٠ (٧)

وفى ايران وفى عهد أبناءهولاكو حظت طرق القوافل داخل ايران بنوع من الرعاية فقد كان هنالكعشرة الاف رجل يحرسون الطرق الرئيسة التى تمر منها قوافل عديدة فى أمان (٨) ولقد عنى الخان المسلم غازان باستقرار الامن فى بلاده وبخاصة على امتداد طرق القوافل وشجع حركة تبادل التجارة مع جنوة وفينسيا حتى لقد كان هناك مبعوثون لكل منهما فى (تبريز) لتنظيم عملية التبادل التجارى" ٠ (٩)

وهكذا كانت السياسة العامة لدى خانات المغول هى تأمين طرق التجارة وتدعيمها بالحماية فاذا شذ أحد هوءلاء الخانات عن هذه القاعدة نتيجة لموقف شخصى او ظروف سياسية

---

(١) هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٠
(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٢٨
(٣) هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٨
(٤) جون أ٠هامرتن: تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٨
(٥) د٠ فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٣٦
(٦) د٠ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٥٥٥
(٧) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٨٠
(٨) دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٧
(٩) د٠ صادق نشأت ومصطفى حجازى : صفحات عن ايران ص ٧٥

فان هذا لا يوءثر للموقف العام للمغول فى هذا الشأن. وعلى هذا فان الظن القائل بأن انتقال النفوذ والسلطان الى ايدى العناصر التركية والمغولية الخشنة الطباع كان موءذنا بالقضاء على التجارة النامية بين أوروبا والمشرق ليس له حظ كبير من الصواب (١) ومرد ذلك – فى رأيى – يرجع الى مدى حاجة المجتمعات البدوية الى التبادل التجارى المستمر مع المجتمعات المجاورة لذا لم يكن هناك مناص من تأمين الطرق التجارية من والى بلاد المغول ومن حماية التجار بكل وسيلة ممكنة.

الطرق البحرية :

ليس أدل على استقرار النشاط التجارى أو اتساعه من كونه لم يعد قاصرا على طرق القوافل البرية وحدها بل امتد أيضا الى استعمال الطرق البحرية زيادة فى سرعة الاتصال أو تجنبا لصعوبة قد تعترض الطريق البرى أحيانا.

يقول بارتولد " وانتفع تجار أوربا ومبشروها بالطريق البحرى من الثغور الايرانية الى الهند واصلين زيادة على طرق القوافل المارة بآسيا الوسطى". (٢)

ويوءكد ذلك ادوار بروى اذ يقول" وقد نشطت العلائق التجارية برا وبحرا مع ايران حين تولت آنذاك عائلة هولاكو المغولية". (٣)

هذا .. وأحيانا ما كان التجار هم أنفسهم الذين يبحثون عن طريق بديل للطرق البرية المألوفة فيلجأون الى طرق بديلة تنتهى بهم الى الساحل ، فقوافل تجار الحرير الذين خافوا من غارات المغول الذين عمدوا الى نهبهم اثناء فترات الحروب أو من سوء معاملة التجار الايرانيين لهم بحثوا عن طريق آخر الى الاجتماع مع التجار الصينيين بسواحل الهند فاختاروا أن يشقوا طريقا فى جبال التبت نزلوا منه الى الساحل وانتظروا وصول مراكب التجارة القادمة من الصين هناك". (٤)

ومما هو جدير بالذكر أن المغول الذين استخدموا اسطولا حربيا حاولوا به احتلال اليابان لم يفكروا فى استخدام أسطول بحرى فى التجارة مثل مافعلت بعض المدن التجارية فى ايطاليا كجنوة والبندقية .

وقد يرجع ذلك الى طبيعة الموقع الجغرافى لمنغوليا التى كانت هضبة داخلية لا تطل على سواحل بحرية أو الى طبيعة المغول انفسهم الذين كانوا بدوا لم يألفوا البحر بعد.

غير أن هذا لم يمنع أن تقوم الثغور الايرانية والهندية والصينية بدور كبير فى استقبال وارسال السفن التجارية أثناء السيطرة المغولية فى عهد قوبيلاى وغازان.

---

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ،ص ٨٠
(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٨
(٣) تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٧٩
(٤) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ١٧.

التبادل التجـــارى :

ذكرنا فيما سبق أن البيئة المغولية كانت قفراء فقيرة فى انتاج المحاصيل الزراعيـــة علاوة على كراهية المغول أصلا لحرفة الزراعة التى رأوا فيها مهنة لا تليق بهم كرعـــــاة أو صيادين أو محاربين الأمر الذى لم يجعل عند المغول حاصلات زراعية أو منتجات صناعيـــة يمكن تبادلها خاصة وأن الصناعة التى يعرفها البدو عادة ماتكون صناعة أولية لسد احتياجـــات البيئة ذاتها كالحدادة أو النجارة وما يشبه ذلك٠

اذا كان الأمر كذلك فماذا كان يصدر المغول لغيرهم ؟

وفى الحقيقة لم يكن عند المغول شئ يصدرونه غير الأغنام والجلود والفراء أمـــا الصادرات الأخرى الأعظم شأنا والتى كان يحملها تجارهم فكانت فى حقيقة أمرها تمثل أسلابهم من الشعوب المغلوبة التى قهروها٠

أيا كان الأمر فقد سيّر جنكيزخان جماعة من التجار الأتراك ومعهم شئ كثير مـــن النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ما وراء النهر(سمرقند) و(بخارى) ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى(اترار) (١) ومن هنا نعرف خلو البلاد المغولية من صناعة النسيج ، وكذلك فان النقرة حين تنهب من الشعوب ثم تذاب وتكدس ليقايض عليهـــا بالكسوة فان ذلك يكون معرّفا فى البدائية والشراسة٠ (٢)

ويرى أحد المؤرخين أن سبب احتكاكهم بدار الاسلام حاجتهم الى الكثير من المـــواد الغذائية التى يفتقرون اليها بحكم قوة بلادهم وندرة انتاجها الزراعى وكذلك قيام خوارزمشـــــاه علاء الدين محمد بمنع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها" ٠ (٣)

وهذا الرأى يؤكد ضعف الاقتصاد المغولى من جهة ويكشف عن أسباب هجـــــوم المغول على الدول المجاورة ذات الثروات العريضة وصاحب هذا الرأى يؤكد علـــى أن تعرض المغول للبلاد الخوارزمية لم يكن عفويا بسبب مقتل تجارهم فى اترار كما يروى ٠ وهـــو رأى جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار٠

ويبدو أن التبادل التجارى قد أصبح أكثر حيوية فيما بعد ففى عهد هولاكو صـــدرت ايران الطنافس والسروج والات الوقاية المعدنية والأدوات البرونزية والاوانى المزدانة المزركشـــــة وما الأثر الصينى البارز فى التزاويق الفارسية سوى نتيجة للعلاقات التجارية بينهما" (٤)

وهكذا عمل المغول على تدعيم حركة التبادل التجارى فالانتاج الايرانى مدعم بالاثـــر الصينى والعائد المادى النهائى مرجعه الى المغول بالطبع وهذا غاية الامر٠

الواردات المغولية :

كانت هذه الواردات تمثل بالنسبة للمجتمع المغولى خاصة بعد ظهور جنكيز خـــان وانفتاح عيون المغول على الدول المجاورة لونا من الحضارة التى تتطلع اليهم نفوسهم٠٠ بـــل

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٢

(٢) حسن الامين : الغزو المغولى ص ٤٨

(٣) د٠ محمد القزاز: الحياة السياسية فى العراق فى العصرالعباسى الاخير ص ٢٩٨

(٤) ادواربروى : تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) ج٣ ص ٣٧٩

وأحد الدوافع التى حركت اطماعهم فى الغزو الخارجى •

وكثيرا ما كانت هذه الواردات تأتى مقنعة فى شكل هدايا ينتظر أصحابها من المغول بديلا اكثر جدوى من المقابل المادى• فقد قدم تجار القوافل المسلمون الى جنكيز خان هدايا من العاج المحفور والحرير الموشى اللامع والأبسطة والمصابيح الفضية ثروات لم يكن يعلم عنها شيئا من قبل• (١)

ولم تكن الهدايا هى الطريقة الوحيدة لوصول هذه الواردات وانما كان هناك التبادل التجارى الرسمى وكانت القوافل التجارية تقوم بدورها فى اتمام هذا التبادل التجارى•

فقد بعث خوارزم شاه وفدا برئاسة بهاء الدين الرازى الى الصين ثم سافرت فى أثره قافلة تجارية من مملكة خوارزم شاه وتوغلت الى منغوليا عن طريق شمال (تيان شان) وكانت بقيادة ثلاثة من التجار الكبار وهم أحمد الخجندى وابن أمير الحسن وأحمد البلخى وكان هوءلاء قد حملوا معهم المنسوجات المزركشة بخيوط الذهب والقماش الزنجانى فحضروا (مقر) جنكيز خان بقراقوم فى مرافقة بهاء الدين الرازى"• (٢)

فاشترى منهم جنكيز خان ما معهم وردهم بغاية الاكرام واصطحبهم بعض تجار المغول ليشتروا له من نفائس البلاد وطرائفها وأرسل معهم رسولا الى السلطان محمد خوارزم شاه يقول" ان التجار وصلوا الينا وقد أعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الاطراف فينبغى أن يعودوا الينا سالمين آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق فى ذات البين"• (٣)

ومما يلفت النظر ان التجار الذين أوفدهم جنكيزخان الى خوارزمشاه أول مرة كانوا مسلمين بل وكانوا من رعايا الدولة الخوارزمية •• اذ كانت القافلة المغولية بقيادة ثلاثة من كبار التجار المسلمين الذين صاروا فى خدمة جنكيزخان وهم محمود الخوارزمى وعلى خواجه البخارى ويوسف كتكا الافرارى فحملوا الهدايا الثمينة الى الشاه باسم جنكيزخان والتمسوا منه أن يحافظ على الصداقة بينهما"• (٤)

وهكذا"بدا جنكيزخان يمد نشاطه الى بلاد الاسلام بأن أرسل الى علاء الدين خوارزمشاه رسالة يطلب فيها أن يفتح بلاده لعلاقات تجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول• (٥)

ووجد السلطان الخوارزمى نفسه مضطرا للموافقة على قيام علاقات تجارية مع المغول فتبودلت التجارة بين الدولتين المغولية والخوارزمية واخترقت جموع التجار من المسلمين والصينيين الطرق التجارية فى أواسط آسيا"• (٦)

---

(١) هارولدلامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٩٤
(٢) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٧
(٣) رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ٢ ص ٢٦٩
(٤) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٧
(٥) د• أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٤٢
(٦) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٦٩

التجار والجاسوسية : التى يبنبغى أن تناط بالتجار فى عهده

كان جنكيز خان برى أن المهمة الأساسية التى يبنبغى أن تناط بالتجار فى عهده كانت تقوم أن يكونوا طابورا خامسا له بين صفوف أعدائه لأن خطته الاساسية فى الهجوم كانت تقوم اولا على معرفة اكبر قدر ممكن من المعلومات العسكرية والاقتصادية عنهم ولهذا كان دائما يستقبل التجار بنفسه ويكثر من سوءالهم" حتى لقد أخبره التجار الذين كانوا يتوافدون الى (قراقورم) أشياء كثيرة عن مدينة الحدائق (سمرقند) ،و(بغداد) التى يحكمها الخليفة" (١).

وبالاضافة الى ذلك كان التجار يقومون بمهمة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها فقد كانوا يروجون أنباء تزايد قوته وامتداد نفوذه حتى لقد " تلقى الخان على غير انتظار رسالة من الخليفة العباسى تتضمن التماس عون جنكيزخان ضد السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد" (٢).

ولم يكن اشتغال تجار المغول بالجاسوسية أمرا يخفى على اعدائهم دائما "فقد أدرك حاكم (اترار) أن تجار المغول يقومون بعمليات تجسس مريبة فمنعهم فى أحدى تجولاتهم وصادر أموالهم وقتل بعضهم" (٣).

وذلك بعد أن اكتشف أنهم ليسوا تجارا اذ هم يسألون الناس أسئلة لا علاقة لها البتة بالتجارة مما أكد لديه أنهم عيون لجنكيزخان (٤) فكان أن كتب الى السلطان بحقيقتهم فانتهى الأمر الى التخلص منهم ووصول خبرهم الى جنكيزخان (٥).

ولم يكن موقف التجار المغول فى اترار دون غيرها بل من الموءكد أن هوءلاء التجار لعبوا هذا الدور الخطير فى مدن أخرى". فقد كان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون الى خراسان وغيرها وكانوا قد تعلقوا من قبل على أمراء المغول فكتب لهم فرامين ، فلما فتحت بغداد كلف الأمراء لهم من يحرس بيوتهم" (٦) وما كان ذلك الا نظير خدماتهم فى هذا المجال.

وهكذا لعب التجار الذين خدموا المغول دورا مهما فى حياتهم فكانوا المستشارين والسفراء والحكام الاداريين والجواسيس ايضا. ولقد قدر المغول لهوءلاء دورهم فاحتفوا بهم وأجزلوا لهم العطاء.

---

(١) د.هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٤

(٢) المصدر السابق نفسه ،ص ٩٥

(٣) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص٧٤٢

(٤) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١١١

(٥) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ١١١ ، عبد العزيز جنكيزخان . تركستان قلب آسيا ص ٦٤

(٦) ابن القوطى: الحوادث الجامعة فى أخبار المائة السابعة ص ٣٢٩.

الصناع والحرفيـــون

اذا تذكرنا أن المجتمع المغولى كان بدائيا بدويا أدركنا أن الصناعة لدى المغول كانت أولية تقوم على مجرد سد الاحتياجات الضرورية للحياة اليومية .

اذ عادة ما ينصرف المغول فى أوقات فراغهم الى صنع اللبد والسبور والسروج وعدد الخيل والجعاب والاسلحة والهياكل الخشبية للمظال والعربات ويعدون كذلك الجلود والفراء" .(١)

وهكذا كان وقت الفراغ من الأعمال الأساسية كالرعى أو الصيد أو الغزو هو الوقت الملائم للقيام بهذه الصناعات أو مثلها عند المغول .

يقول الدكتور جمال حمدان " وأما صوف الاغنام فيجز ويصنع لبدا بالندف والضرب والنقع والكبس فصناعة اللباد بهذا صناعة جمعية تستدعى تكاتف الايدى العاملة المختلفة أما اللباد نفسه فأهم مادة خام للمسكن والملبس" .(٢)

والقول بأنها صناعة جمعية تستدعى تكاتف الايدى العاملة المختلفة لايعنى أنه كانت هناك مصانع خاصة للنسيج او صناع متفرغون له . وانمايعنى أن جميع أفراد الاسرة الواحدة أوالعشيرة مطالبون بالتكاتف – فى أوقات الفراغ – لاتمام هذا العمل حتى تجد الأسرة شيئا تلبسه أو خياما تسكنها . وبالاضافة الى ذلك كان المغول يجدلون من أوتار عضلات الحيوان الحبال والقيود كما كانوايستخدمون قرون الحيوان فى صنع اقواس قوية" .(٣)

ولو تأملنا ما سبق لوجدنا أن اعتماد المغول فى صناعاتهم الأولية كان يقوم أساسا على الحيوان وخاصة الأغنام التى كانت ذات أعداد وفيرة فأخذوا منها الصوف والجلد والقرون .

وقد كانت هذه الصناعات – رغم بساطتها – كافية لسد احتياجات المغول لو أنهم قبعوا فى منغوليا ولم ينساحوا خارجها للاحتكاك بالشعوب المجاورة.

ومما لاشك فيه أن المغول قد انبهروا بتقدم الحرفيين والصناع المهرة فى البلاد المفتوحة والدليل القاطع على ذلك أن المغول كانوايفتكون بالسكان فى كل المدن المفتوحة التى دمروها ولايبقون على قيد الحياة سوى طبقة الحرفيين او الصناع أو من يحتاجونه فى أعمال أخرى شاقة(٤) .

وكل هؤلاء الصناع والحرفيين المهرة والفنانين كانوا يدخلون فى نطاق الاسرة(٥) وعلى هذا فقد بعثوا بهم الى بلاد المغول ومن عارض كان نصيبه القتل(٦) فقد كان عليهم أن يذهبوا الى قراقورم ليزينوا قصر الخان الاعظم.(٧)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام(القرون الوسطى) جـ٣ ص ٣٦٣
(٢) أنماط من البيئات ص ٦٠
(٣) د.هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٠
(٤) براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٤
(٥) برتولد: تاريخ الحضارات الاسلامية ص ١٢٥
(٦) هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص٦٢
(٧) سـيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٤

ويبدو أن الابقاء على الصناع والحرفيين والفنانين كان سياسة عامة التزم بها خانات المغول كلهم (١) اذ أن احتياج المغول الى المهرة من الصناع فى البلاد المفتوحة كان يدفعهم دائما الى الابقاء عليهم وارسالهم الى منغوليا ليعوضوا النقص الحاد فى الصناع المهرة هناك.

ولنحاول الان أن نستعرض بعض نماذج للتقدم الحرفى فى بعض المدن التى تعرضت للغزوالمغولى .. فأهل جرجانية كانوايبالغون فى التدقيق فى صناعاتهم فالسكاكون يعملون الالات من العاج والأبنوس والنساء يعملن بالابرة فى صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والاعمال الدقيقة" . (٢)

هكذا كان حال جرجانية قبل أن يدخلها المغول فماذا فعلوا بها وبأهلها.

يقول الدكتور الصياد" وبعد تدمير مدينة جرجانية فان أرباب الحرف والصناعات الذين كان عددهم يربو على ١٠٠ر٠٠٠ شخص قد أرسلوا الى الأقاليم المغولية ". (٣)

وقد يبدو الرقم مبالغا فيه غير أن الدلالة ذاتها واضحة.

وكذلك كانت مدينة الرى قبيل الغزو المغولى متقدمة فى صناعة الاخشاب " وبها الالات والاثاث المتخذ من الخشب الخلنج وهو خشب بطبرستان لانطف فيه ويحمل الى الرى فيتركه أهلها فى الخرط ويلطفونه ثم يزوقونه بأنواع التزاويق ومن الرى يحمل الى جميع البلاد" . (٤)

وأما صناعة النسيج فى اصفهان قبل الغزو المغولى .. فقد كانت مشهورة أو كان لصناعها يد باسطة فى تدقيق الصناعات فلا نرى خطوطا كخطوط أهل أصفهان ولا تزويقا كتزويقهم حتى ان نساجها ينسجون خمارا من القطن طوله أربعة أذرع ووزنه أربعة مثاقيل . وقس على هذا جميع صناعاتهم" . (٥)

أماسمرقند التى كانت أشهر مدن آسيا الاسلامية على الاطلاق "فبعد استيلاء المغول على سمرقند أخذوا الصناع أسرى ليخدموا دولة المغول وجيشها وكان عددهم ثلاثين ألفا من المهرة (٦) . ولا سيما نساجو الحرير والقطن منهم فقد الحقوا بخدمة زوجات جنكيزخان وأقربائه بوصفهم أرقاء نافعين أو سيروا مع الخان المغولى نفسه الى خراسان ومنهم من أرسل الى جغتاى وأوكتاى ولدى جنكيزخان وكانا اذ ذاك فى طريقهما الى خوارزم (٦) .

---

(١) د.محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٧٧

(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٢٠

(٣) المغول فى التاريخ ص ٧٥

(٤) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٧٦

(٥) المصدر السابق نفسه ،ص٢٩٧

(٦) الكاتب الصينى" ف.يان" : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ٥٠

(٧) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٦٤

وفى مدينة خوارزم "وعقب اقتحام المغول لنواصيها فرزوا الصناع والحرفيين الى ناحية وكانوا مائة ألف ثم قتلوا الباقى كلهم". (١)

ومثل ذلك حدث فى مدينة مرو (٢)

كان المتوقع من جراء سياسة المغول أن تنتقل هذه الصناعات الى منغوليا وتزدهر فيها . فهل تعلم المغول فنون هذه الصناعات؟ وهل اعتمدوا على أنفسهم فيها أوطوروها ؟

ليس بين أيدينا دليل على ذلك .. غير أن هذه الصناعات قد عادت للازدهار مرة أخرى فى مواطنها الاصلية بل واستعادت مكانتها فى فترات تالية بعد أن خفت وطأة الغزو المغولى المدمر.. تلك التى اصابت الصناع والصناعة فى وسط آسيا آنذاك بموجه من الذعر والهلع . " فقد أدت هذه الحركات العنيفة الى أن يفر خوف الاسر وسوء المعاملة كثير منهم من وجه المغول الى الجهات التى يمكن أن يحتموا بها فلجأ بعضهم الى الولايات الجنوبية من ايران واستظلوا بحكامها كذلك هرب كثيرون منهم الى الأقطار التى تقع فى الغرب ووفد الى مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية كثير من الصناع والفنانين". (٣)

وغنى عن البيان اتساع شهرة الصين التى عرفت منذ القدم الانتاج الزراعى الوفير المتنوع وكذلك ازدهرت التجارة فيها بل وتفوقت فى العديد من الصناعات كصناعة نسج الحرير وصناعة الورق والتصوير والخزف والنقش وكلها صناعات تحتاج الى مستوى راق من الاداء والاتقان.

وبالطبع لم تكن سياسة المغول تجاه صناع الصين لتختلف عنها مع غيرهم. بما قد يدفعنا الى القول بأن الهجوم المغولى على الدول المجاورة لم يكن فى حقيقة الأمر الا رد فعل جارف أمام الشعور بالنقص الحضارى الحاد، والرغبة الجامحة فى الاستحواذ على ثروات الآخرين او تدميرها ، لم تكن الامحاولة تعويض لهذا النقص الذى عانى منه المغول كثيرا.

خلاصة الأمر. لم يكن لدى المغول صناعات تضاهى صناعات الأمم حولهم وبالتالى فان افتقارهم الحاد الى الصناع المهرة دفعهم الى جلبهم بالقسر من كل مكان وطأت أقدامهم ثراه.

العبيد

عرفت طبقة العبيد فى كافة المجتمعات البشرية السابقة منذ القدم عرفها قدماء المصريين والاغريق والفرس والرومان والعرب فى جاهليتهم وصدر اسلامهم .. وكذا غيرهم من الامم.

وطبقة العبيد - بلا شك - طبقة دنيا تعيش فى قاع المجتمع وتسخر فى خدمة السادة الأقوياء ذوى الثراء والنفوذ .. وهؤلاء غالبا ما يمثلون الطبقة الأعلى فى المجتمع وعلى رأسهم الخان وأسرته . وقواده ووزراؤه.

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٠
(٢) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٨٠
(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٧٩

وطبقة العبيد عند المغول تشمل الخدام والحرفيين وأصحاب الصناعات اليدوية ولا مانع أن يقوم كل هؤلاء بأعمال الزراعة التى رأى فيها المغول مهنة غير كريمة لاتليق بهم ".

لكن هل كان هناك عبيد من المغول أنفسهم .

يبدو ان الحياة القاسية فى منغوليا والتى جعلت من السلب والنهب وسيلة لتعويض فقر المرعى أو سد الجوع قد حتمت وجود طبقة العبيد فىهذا المجتمع كظاهرة اجتماعية واقتصادية .

ونتيجة للحرب وتغير ظروف المناخ وطبيعة الحل والترحال فان هؤلاء العبيد كثيرا ما انتقلت ملكيتهم الى آخرين أى (سادة جدد) . ولعل هذا ما حدا بأحد المؤرخين أن يقول " ولم يكن لديهم أرقاء الا القليل " (١) فلعله قد استنتج من ظاهرة فقر المراعى وتدنى المستوى الاقتصادى اعتماد الأسرة المغولية على نفسها دون خدم من خارجها.

غير أن ادوار بروى يتحدث عن العبيد لدى المغول قبيل فتوحات جنكيز خان فيشير الى ثلاثة مصادر ساهمت فى تكوين هذه الطبقة، وهى الاختطاف ، الانضمام التطوعى من قبل بعض الفقراء ، تبرع بعض عامة الشعب بأحد أبنائهم لاحد القادة اعترافا بخدمة سابقة. يقول "يختطف العبيد من تكتلهم اثناءحرب خاسرة او غزوة يستلب فيها الفتيان ،وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهبون أنفسهم لتكتل غير تكتلهم او بعض أبناء عامة الشعب يقدمهم آباؤهم لاحد القادة، أو أحد المحاربين اعترافا بخدمة سابقة. (٢)

ويستطرد ادوار بروى الى نوع آخر عجيب من العبودية. فيقول "يحدث أن تستعبد قبيلة كاملة اذا غلبت على أمرها ، بينماتخضع قبائل أخرى بملء ارادتها الى قبائل أعظم شأنا " . (٣)

ويكاد يكون الفارق الكبير فى القوة أو الثراء بين القبائل هو السبب فى هذه العبودية الجماعية التى توشك ان تكون الفرصة الوحيدة للافلات من الهلاك.

والى مثل هذا ذهب ستيفن رنسيمان .. اذ يقول " وجعل جنكيز خان للعشائر الحرة اعدادا كبيرة من الارقاء الذين اتخذهم من القبائل التى قاومته ثم قهرها ومنح أقاربه وأصدقاءه الالوف من الارقاء ففى القوريلتاى الذى انعقد سنة١٢٠٦م بذل لكل من أمه وأخيه عشرة الاف أسره وجعل لكل من أبنائه الصغار خمس أو ست ألاف أسرة. (٤)

<u>العبيد من خارج المجتمع المغولى</u> :

كان هناك مصادر عدة لاستجلاب العبيد فى خدمة السادة من المغول الذين تبدلت أحوالهم بعد فتوحات جنكيزخان وأبنائه . تلك الفتوحات الواسعة التى حولت كافة الخاضعين عبيد لدى المغول . (٥)

---

(١) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٤

(٢) ادواربروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٦

(٣) تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٦

(٤) الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١٦

(٥) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٩.

١ – الاسـرى :

استطاع المغول بذكاء أن يحسنوا الاستفادة من الاسرى -- على كثرتهم وتنوعهم – لهذا انتقوا من يصلح منهم فحولوهم الى عبيد يعملون فى الحرف اليدوية او الصناعات البدائية او فى تعبيد طرق الجيش والى ما غير ذلك من مختلف الاعمال الشاقة٠٠ وعلى سبيل المثال ففى مدينة سمرقند أسر جنكيزخان ثلاثين ألفا من الصناع وأرسلهم عبيدا الى أبنائه المتعددين" ٠ (١)

ويبدو أن الأسرى الصينيين الذين كانوا يتمتعون بمواصفات خاصة كان لهم شرف الخدمة فى مجلس جنكيز خان كان الخدم الصينيون الذين لايسمع لهم صوت يذهبون ويجيئون وراء ظهر الحاضرين، يقدمون الطعام فى صحاف من ذهب والنبيذ الأحمر فى كئوس من خالص الابريز" ٠ (٢)

وقد يحدث أن يكون الوقوع فى الرق ذا صبغة دينية متعمدة "فبعد اقتحام المغول مدينة حلب بيع معظم الأسرى – وكانوا مسلمين – فى أسواق الرقيق فى مملكة أرمنية الصغرى وفى المدن الصليبية بالشام" ٠ (٣)

وخطورة الأمر هنا أن المسلمين قد صاروا رقيقا لدى أعدائهم من المسيحيين فلعل ذلك كان يعكس صدى التقارب بين المغول وبين حلفائهم المسيحيين الشرقيين أو الغربيين على السواء٠

ومن الغريب أن تحول بعض خانات المغول الى الاسلام لم يغير موقفهم فى تحويل الأسرى الى عبيد" اذ لماقتل غازان خمسين ألفا من الاكراد الذين عضدوا خصمه(نوروز) وأسر منهم خلقا كثيرا بيع الصبى الجميل المراهق ومن هو أكبر منه باثنى عشر درهما" ٠ (٤)

٢ – العجز عن سداد الضريبة :

كان المغول يفرضون مختلف أنواع الضرائب والخراج و الجزية على الشعوب الخاضعة لهم وكثيرا ما كان هذا كله يثقل كاهل الأهالى فيعجز البعض منهم عن السداد فيفقد حريته هو أو أولاده٠٠ يقول القلقشندى عن الخراج فى مملكة القبجاق "ان لسلطان هذه المملكة على جميعهم خراجا يستأديه منهم وأنهم ربما طولبوا بالخراج فى سنة ممحلة (عسيرة) لوقوع الموتان بدوابهم أو سقوط الثلج ونحوه فباعوا أولادهم لاداء ماعليهم من الخراج" ٠ (٥)

وعندما وكل الى الأمراء الروس انفسهم تنفيذ هذه المهمة أخذ هؤلاء يجمعون الخراج لساداتهم المغول ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ومن عجز عن الدفع بيع بيع الرقيق" ٠ (٦)

---

(١) سيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٢
(٢) الكاتب الصينى ٠ف ٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٠
(٣) د٠سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٢٥
(٤) الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج٢ ص٣
(٥) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٦
(٦) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ جزء٤ ص ١٥٩٠

وبالطبع لم يكن ماحدث فى روسيا الا صورة لما يحدث فى غيرها من البلاد التى خضعت لسلطان المغول٠

٣ ـ هدايا الخان :

ادت الانتصارات الهائلة المدوية التى حققها جنكيز خان وحلفاوءه الى ايقاع الرعب فى قلوب كثير من الملوك والحكام فلجأ معظم هوءلاء الحكام الى محاولة استرضاء جنكيز خان وقواده وكثيرا ما كان هذا الاسترضاء يشتمل على هدايا باهظة تحتوى فى معظمها على الكثير من العبيد والجوارى والخصيان الذين يكلفون بالعمل فى خدمة المغول٠

العبيد فى الياسا :

من البدهى أن تهتم الياسا بالعبيد لأن وجودهم كان حتميا فى هذا المجتمع القبلى الحربى ٠٠ يقول القرمانى ٠٠ ومن أحكام الياسا المظلمة " استعباد الاحرار وتوارث الفلاح والاكار"٠(١)

فقانون جنكيز خان يرى أن الحر يمكن أن يستعبد فيصير عبدا ويورث أيضا كالمتاع مهما كان نوع العمل الذى يوءديه٠٠ وما أشق ما يوءديه العبد من أعمال الفلاحة اوا لحدادة والخدمة٠(٢)

الى هنا وقانون المغول لم يأت بشئ جديد أو مخالف لما كانت عليه قوانين الأمم السابقة ٠ غير أن العقوبة التى وضعها هذا القانون لمن يساعد العبد اذا هرب كانت صارمةللغاية ٠ يقول د٠ عبد السلام فهمى : اذ مما شرعه جنكيز خان فى الياسا أنه لا يجوز ايواء العبد الهارب ، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للاعدام وان الشخص الذى يعرف مكان العبد الهارب ولم يخبر السلطات عنه يعرض شخصه لنفس العقوبة"٠(٣)

اذن من يحمى العبد الهارب يقتل ومن يتستر عليه يقتل والقتل فى الياسا كثير بل انه يوشك أن يكون العقوبة السائدة لكل المخالفات ٠ فالقضية هنا ليست أهمية العبد بقدر ما هى قضية مخالفة السلطات أو محاولة اخفاء أى شئ عنها ٠

ولم يكن القتل نظير الايواء أو التستر فحسب بل ان الاطعام اوتقديم الكسوة كان لهما نفس النصيب من العقاب ٠ ٠ فمن جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا "من أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل"٠(٤)

على أن الياسا تورد نصا يدفعنا الى الوقوف عنده وتأمله٠ اذ تقول" الأولاد الذين يولدون من أصل عبودى لهم نفس حقوق الأولاد الشرعيين"٠(٥)

---

(١) اخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٥
(٢) د٠ ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٦٦
(٣) د٠عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥
(٤) د٠ السيد العرينى: المغول ص ٦٣
(٥) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

فهذا النص يدلنا أولا على كثرة هؤلاء الاولاد بدليل ان وجودهم قد صار ظاهرة ملموسة لم يملك المشرع أن يتجاهلها • وهو يدلنا أيضا • على فكرة المساواة بين الولد الشرعي والولد من أصل عبودي •• واعتقادي أن المساواة هنا ليس مطلقة الا من ناحية كون الاب مغوليا في الحالين• فابناء السيد المغولي متساوون في بعض الحقوق سواء أكانت الام حرة أم عبده • عموما فهذه نقطة ايجابية – أو لنقل أقل قسوة من بقية الاحكام في الياسا وان كانت تومئ الى أن أبناء الاماء ليسوا شرعيين•

حرية العبيد :

ذكرت فيما سبق أن العبد كان يورث ضمن المتاع الذي يرثه الأبناء عن الاباء ولا سبيل الى حرية هذا العبد المسكين الا بالاعتاق • وهو أمر نادر الحدوث كما يقول بروي" ويصبح العبيد كلهم جزءا من أملاك العائلة التي تقتنيهم ويوزعون مع الاملاك، ويدخلون في مهر الفتيات ويرافقونهن عند أزواجهن ، عبوديتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق"(١)•

ويمكننا أن نتخيل أسباب هذا الاعتاق النادر• الذي يمكن أن يتم نظير خدمات غير عادية•• أو لحظة كرم حاتمي غير متوقعة • غير أن هناك سببا أكثر ندرة يورده وليام لانجر• اذ يقول " جمع الوزير (يي •لوچوتساي) ٤٠٣٠ من المتعلمين وأعتق ربع هؤلاء من الرق نتيجة للامتحانات الادبية التي عقدت للوظائف الحكومية"(٢) في الصين•

وقد يبدو هذا الامر عجيبا•• غير أننا نرى هذا الوزير المصلح الصيني الأصل يلتمس كل وسيلة ممكنة للاصلاح الاجتماعي والاداري مع حرج مركزه باعتباره رجلا غير مغولي ملتزما في نفس الوقت بقوانين جنكيز خان الصارمة•

الجاليات الأجنبية

ويقصد بها العناصر الاجنبية التي تعيش في كنف الدولة أو في دائرة نفوذها وقد تكون ممثلة لنفسها فقط أي مهاجرة من موطنها الاصلي لسبب أو لاخر كالبحث عن الرزق اوالفرار من الاذى أو من الاضطهاد الديني ••• الخ•

وقد تكون هذه العناصر منتمية لكيان أكبر ترعى مصالحه عند الدولة المضيفة أوترمز اليه على الاقل•

ومنغوليا منذ القدم وباعتبارها منطقة صحراوية كانت تدخل في اطار حركة الهجرة وراء الماء والكلأ • فالاتراك مثلا كانوا كثيرا ما يدخلونها او يخرجون ساعين وراء الرعي أوالسلب والنهب•

---

(١) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٦

(٢) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج٣ ص ٩٢٦

ولقد سبق أن أشرنا الى وجود قبائل تركية شاركت المغول العيش فى هضبة منغوليا بل وناصبتهم العداء أحيانا .. كالأويغور والقرغيز والقارلوق وغيرهم.

وقبل ظهور جنكيزخان على مسرح الاحداث السياسية كانت هذه القبائل التركية قد وصلت الى درجة من اليأس بحيث صار كيانها قويا فى منغوليا الصفراء وسط شعوب المغول والتتار.

ولما تمكن جنكيز خان من احتواء كافة القبائل تحت لوائه مغولية كانت أم تركية - لم تعد هذه القبائل التركية تمثل جالية أجنبية فقد انصهرت شأنها شأن غيرها فى بوتقة الغزو الخارجى.

فلاعجب اذن ان يطلق بعض المؤرخين على المغول أنهم أتراك أو على الاتراك أنهم مغول فمرجع ذلك - فى رأيى - الى هذا الانصهار العجيب الذى نجح جنكيز خان فى تحقيقه.

على أنه كانت هناك جاليات أجنبية من أنماط أخرى ظهرت فىحياة المغولواستطاعت ان تتعايش معهم أو لنقل أنها اضطرت - احيانا - الى التعايش معهم بصورة آو بأخرى.

أولا : الرعايا الاوربيون :

كان من نتائج الغزو المغولى الذى اجتاح معظم أجزاء أسيا وشمالى شرق أوربا ازالة الحواجز المختلفة بين هذه الاجزاء مما أتاح فرصة أكبر للاتصال بين آسيا وأوربا ، وعلى هذا تحرك الكثير من المغامرين الاوربيين صوب الشرق أملا فى اكتشاف المجهول ونيل الثراء ومن أمثال هؤلاء ما ركوبولو وذووه فلقد أمضى ماركو فى الصين عشرين عاما عاد بعدها الى ايطاليا حيث خلب الناس هنا بما يجرى فى الشرق البعيد حتى قيل ان اكتشافات (ماجلان) التى وقعت فى القرن الخامس عشر الميلادى لم تكن الا صدى لهذا كله.

وتعطينا الرحلة التى قام بها الراهب وليم روبرك الذى اجتاز جنوبى روسيا متوجها الى (قراقورم) فى بعثة دينية وسياسية فى آن واحد بعض الاشارات عن وجود جاليات أوربية فى منغوليا فقد صادف هذا الراهب أوربيين كثيرين من هنغاريا (المجر) وأمرأة من متزلها بيت جميل متزوجة من مهندس روسى وواحدا من أمراء روسيا العظام والتقى كذلك برجل من متز أيضا تزوج من روسية ودخل فى خدمة زوجة نسطورية للخان الكبير، وكان بالبلاط المغولى أيضا مواطن باريسى اسمه وليم بوشيز يشتغل بصناعة الحلى ، صار من أقرب الناس عند منكو، وكان قد تزوج من هنغارية تجيد الحديث بالفرنسية". (١)

ومن المؤكد أن هناك عناصر أخرى لم يتبح لروبرك التعرف عليها خلال اقامته فى عاصمة المغول غير أنهؤلاء ولاشك كانوا يكونون جالية كبيرة تعمل فى خدمة المغول ولم يكونوا فى الغالب من الاسرى أوالعبيد.

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٨٥،
د. هارولدلامب : جنكيز خان" جحافل المغول" ص ١٥٤،
د. السيد العرينى : المغول ص ٢٠٠

ولقد تمكن عدد كبير من المرسلين من رهبانيات الدومنيكين والفرنسيكان أن يتوغلوا بعيدا الى أواسط آسيا وأن يقموا مراكز للتبشير وابراشيات" (١) وأولئك كان وجودهم يمثل كيانا أكبر ينتمون اليه وهوحركة التبشير الكاثوليكى التى قادتها الكنيسة الأم فى روما.

ثانيا : مستعمرات التجار :

سبق الاشارة الى أن التجار الذين عملوا لدى المغول كانوا فى الاعم الأغلب غير مغوليين. ولهذا كانوا فى حاجة الى ايجاد نوع من الترابط فيما بينهم أو بين فئات منهم ولهذا عمدوا الى اقامة مستعمرات لهم يقول : ففى عهد الخان الاعظم قوبيلاى قا آن توافد التجار الاجانب على الصين من عرب وفرس ومسيحيين شرقيين وغربيين ،وهنود وماليزيين فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائلة من بيع توابل جاوا والهند بأرباح مرتفعة جدا". (٢)

وفى تبريز الايرانية الخاضعة للمغول كانت هناك جالية تجارية ايطالية كبيرة .بين مدينتى جنوة وفينسيا على عهد غازان". (٣)

ولم تكن تبريز أو الصين فقط مستقرا لمستعمرات التجار الاجانب اذ لما احتدم الصراع بين ايلخانات المغول فى ايران والمماليك فى مصر واتخذ ذلك الصراع من سوريا مسرحا له تحولت التجارة الاوروبية الى جنوب روسيا حيث شجع المغول القبجاق التجار الايطاليين على تكوين مستعمرات لهم فى كفا Kaffa وفى تانا Tana وفى غيرهما من المدن الواقعة فى نطاق البحر الاسود". (٤)

ثالثا : المعلمون الأجانب والمترجمون :

لما كانت الأمية منتشرة بين المغول كما هو الحال فى المجتمعات البدوية فقد كان المغول فى حاجة ماسة الى من يعلمهم أو يعلم أولادهم. كما أن انتشار حركة الغزو واتصال المغول بغيرهم من الامم ممن يتكلمون لغات متباينة غير المغولية قد أبرز أهمية وجود مترجمين عديدين. ولهذا سارع جنكيز خان وأتباعه الى الاستعانة بالمعلمين الاجانب الاكفاء " فكان المعلمون الصينيون والارمن والفرس يساعدون كل من كانوا يتكلمون لغات مختلفة حتى يمكنهم ان يحدثوا بعضهم بعضا" (٥) وبالطبع كانت كل جنسية من هؤلاء تحرص على أن تقيم مجتمعه فى شبه استقلال عن غيرها.

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٥٥٥
(٢) المصدر السابق نفسه ، ج٣ ص ٣٨٨
(٣) دونالد ولز: ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٧
(٤) حافظ احمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٥٩
(٥) هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٥٤

رابعا : الصناع والحرفيون :

وأولئك قدر لهم أن يفلتوا من القتل العام الذي شنه المغول على أهليهم خاصة في خضم الغزو الأول ، وهؤلاء الصناع أو الحرفيون كانوا ينتمون في الغالب الى مدن عدة في آسيا الوسطى مثل خوارزم ، والري ، وسمرقند، وبخارى ، ومرو، وجرجانية بل والـى بعض مدن الصين وروسيا . فكلهم رغم اختلاف أجناسهم قد صاروا يكونون جالية أجنبية قـدر لها أن تعيش بين المغول وتخالطهم .

ولم يكن هذا ما حدث في عهد جنكيزخان فحسب بل ان أبناءه قد التزموا هـــذا النهج أيضا فاوكتاي نقل رحوته منتصرا من الصين " وقفل الى مواضعه القديمة وبنى بها مدينة سماها (ارذوباليغ) وهي مدينة قراقوم ، وجعلها عاصمة ملكه واسكنها خلقا من أهل الخطـــا وتركستان والفرس ونحوهم"(١) ويعني أن هؤلاء في معظمهم كانوا صناعا وحرفيين .

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٤

الفصل الثالث

الحياة العامة فى المجتمع المغولـــى

١ ـ العاصمة المغوليـــة ٠

٢ ـ الاسواق (نظام المقايضة)٠

٣ ـ المنشــات الاجتماعيـــة :

مخصصات الاوقـــاف

أ) المستشفيات

ب) الملاجـــئ

٤ ـ وسائل المرح والتسلية عند العامة

أ) تناول الخمر ٠

ب) الموسيقى والغناء٠

جـ) مباريات ركوب الخيل والمصارعة والمبارزة٠

٥ ـ المآتم والأحـــزان٠

٦ = المقابـــــر :

أ) تشييع الجثمان

ب) طقوس الدفـــن

جـ) اخفاء المقابـــر

د) تطور بناء المقابر

العاصمة المغوليـــة

قراقـــورم* عاصمة المغول المركزية فى منغوليا وقد اكتسبت شهرة فائقة فى العصور الوسطـــى لا تقل عن شهرة جنكيز خان نفسه ٠

وأغلب الظن أن هذه المدينة كانت تقع على نهر (أورخون) بالقرب من المقـــر الرئيسى لخاقان الاويغور ابان سيطرتهم على منغوليا سنة٧٤٥م (١) كما سبق القول ٠

وقد بنيت هذه المدينة على الارجح فى أيام نفوذ الكرايت ــ وكانوا جيرانا للاويغـور المتحضرين ويشتغلون بالتجارة لوقوع منازلهم على طرق القوافل ٠ ولابد أن ذلك الموقـــع هو الذى حفز جنكيزخان لاختيارها قاعدة لملكه بعد أن تغلب على خان الكرايت واستولـــى على عاصمته سنة١٢٠٢م٠ (٢)

فهذه المدينة كانت فى الأصل عاصمة لخان الكرايت ثم سقطت فى يد جنكيز خـــان فاتخذها عاصمة له وهى ــ كمايقول هاروللامب ــ مدينة عجيبة فى بابها فهى عاصمة البـرارى شيدت بيوتها من الطينو القش اما طرقاتها وأزقتها فلا انتظام ولا نظام فيها ومن حولهـــا كانت ترتفع قباب خيام اللباد الاسود"٠ (٣)

وقد حاول جنكيزخان تطوير عاصمته الجديدة حتى تبدو فى صورة تلائم مكانتـــه وسيادته التى بسطها على معظم جيرانه ولهذا دأب على ارسال الاف الصناع والحرفيين اليهـــا من أهل المدن التى أخضعها حتى ينهضوا بعبء تزيينها وتجميلها وتوسيعها أيضا٠ ومن المؤكد أن هؤلاء قد أضافوا اليها الكثير فقد كان منهم الصينيون والخوارزميون والايرانيون٠ أى مـــن اهل الفن والخبرة فى شئون التشييد والزخرفة والذوق ٠

رأى أوكتاى وقد خلف أباه منذ عام ٦٢٦ هـ أن يعمل على توسيع العاصمة ونشـــر العمران فيها حتى أن بعض المؤرخين يعتبرونه المؤسس الأول لها"٠ (٤)

---

* قراقورم ــ كلمة مركبة من مقطعين (قرا) وهى مغولية بمعنى(أسود) ، (قـــورم) وهى تركية بمعنى(رمال) أى الرمال السوداء ٠٠ غير أن القلقشندى قد ضبطهـــا بغير(الراء الثانية) فقال(قراقوم) "بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومـة وواو ساكنة وميم" انظر القلقشندى صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨١ ، ٤٨٢
وليس صحيحا ما قيل انها سميت بهذا الاسم لقربها من جبال (قراقورم) اذ أن هذه الجبال تقع شمالى غرب جبال الهيملايا مجاورة لجبال هندكوش٠

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤٥
(٢) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٢
(٣) د٠هارولد لامب : جنكيز خان ، امبراطور الناس كلهم ص ٨٠
(٤) هـ٠ج٠ ويلز : موجز تاريخ البشرية ص ٢٣٦

والحقيقة أن أوكتاى امضى معظم أيام حكمه فيها وفى نواحيها حيث شيد بها أبنية فخمة بمعاونة الصناع من أهل الصين والمسلمين" (١) ثم بنى بها وحولها عددا من القصور" (٢).

اذن فالمدينة آخذة فى الاتساع وقد ظهرت فيها القصور على غير مألوف عادة البدو وأوكتاى – كما فعل أبوه – أحضر لها الوف الصناع وأرباب الحرف وجعل لها – من خلال أسوارها – بضعة أبواب أحدها خاص بالخان الاعظم والثانى لاولاده والثالث للخواتين والرابع للعامة" (٣).

وبالاضافة الى ذلك طلب أوكتاى من مهندسيه أن تقام "له عاصمة أخرى قريبة يأوى اليها فى الربيع، فشيدها المهندسون المسلمون وأطلق عليها (قرشى سودى) يصفها الجوينى" أنها بناء جميل مرتفع زين بأنواع النقوش الجميلة وأعدت فيها الفرش وهيئ له فيها عرش جميل" (٤).

وهكذا أصبحت هناك عاصمة فرعية او منتجع للخان الاعظم بالاضافة الى العاصمة المركزية (قراقورم) التى لم يكن السكان فيها من المغول وحدهم كما سبق القول.

ويبدو أن (أوكتاى) كان يقدر قيمة الموقع الجغرافى المهم لقراقورم فلعله رأى "أن يفيد من موقعها فى ادارة منغوليا التى تقع فى وسطها تقريبا وكذلك فى توثيق الصلة بين الموطن الاصلى لاسرة جنكيزخان عند منابع نهرى (أونون)، و(كيرولين) وبين اقطاع أوكتاى على نهرى (ارتيش) و(أميل)" (٥).

ومع اتساع العاصمة (قراقورم) تعددت فيها الاحياء السكنية" فبالاضافة الى حى السفراء كان هناك حى لأرباب الدين تطل فيه معابد البوذيين القديمة والجوامع المشيدة من الحجر، وكنائس النسطوريين الصغيرة المقامة من الخشب" (٦).

وعلى هذا يمكن القول أن العاصمة المغولية (قراقوم) فى عهد أوكتاى كانت أعظم شأنا واتساعا منها فى عهد جنكيز خان اذ يمكن ملاحظة الفرق بين حياة الفقر السابقة وحياة الاستقرار فى قراقورم فهذه هى الاسطبلات الواسعة التى تحتوى على مرابط لقطعان الخيول الاصيلة الممتازة من جياد والخان وها هى ذى مداخر الحبوب والغلال وقد امتلأت لاتقاء أيام

---

(١) د. بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٥٠

(٢) د. بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٢

(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٧٩ نقلا عن جهانكشاى جـ١ ص ١٩٢

(٤) المصدر السابق نفسه جـ ١ ص ١٩٣

(٥) د. السيد العرينى : المغول ص ١٦٤، ١٦٥

(٦) د. هارولد لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم.

المجاعات والقحط وانك لتجد فيها الذرة والارز للرجال والعلف من التبن للخيل وهناك بيوت الضيافة وقد فتحت لايواء السواح والسفراء الزائرين الوافدين من أنحاء آسيا برمتها. (١)

ولم تسمح الفترة القصيرة التى تولى فيها كيوك خان (٦٤٤-٦٤٦هـ) باجـراء أى تغييرات تذكر فى قراقورم غير أن منكوخان (٦٤٨-٦٥٦هـ) رأى أن يستكمل جانبا مهما فيها. وذلك بأن يعيد تنظيم عمل الدواوين الحكومية . فاستدعى طائفة من الايرانيين المستنيرين وطلب اليهم تنظيم الادارات والدواوين فى قراقوم على أسس سليمة". (٢)

وهكذا ظلت (قراقورم) فى عهد منكو محتفظة بكيانها ومركزيتها فقد كانت ملتقى البعثات الاجنبية التى تفد على المغول كما كانت المقر الشرعى لعقد المؤتمرات العامة (القوريلتاى) ومنها تخرج الجيوش الى الجهات المتعددة ذلك بأن منكو أن لما جلس على العرش وبعد أن فرغ من نظر المظالم وجه عنايته الى ضبط الممالك وترتيبها وأرسل الجيوش الى الاطراف والحدود. (٣)

بكين العاصمة الجديدة :

ولماتوفى منكوخان شب النزاع على الحكم بين أخويه (أريق بوقا) الذى كان مقيما فى قراقورم وبين (قوبيلاى) الذى كان يحارب فى جبهة الصين وانتهى الصراع الى هزيمة (اريق بوقا) وأسره ثم وفاته فى السجن وأصبح قوبيلاى خانا أعظم للمغول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م .

وسرعان ما اتجه قوبيلاى الى تغيير مقر العاصمة خارج منغوليا وان لم يكن بعيدا عنها اذ انتقل الى ين تشنج سنة١٢٦٤م حيث أسس مدينة"خان بالق" وهى بكين الحالية" (٤) فلعله قد تشبع بروح الحضارة الصينية الى حد كبير أو أنه أراد الابتعاد عن جو الدسائس والمؤامرات التى انتشرت فى قراقورم من أجل الصراع على الحكم.

وهكذا شاد الخان الاعظم قوبيلاى قا أن عاصمة جديدة للبلاد فى بكين كانت لروعتها وكثرة عامرها موضع اعجاب من يزورها من الغرباء فقد شيدت فيها القصور وازدهرت العمارة ازدهارا لم تر الصين له مثيلا من قبل". (٥)

ويصف ماركوبولو بكين وصفا دقيقا".. وكان ارتفاع الأسوار لايقل عن خمسين قدما وأما سمكها فعشرون وكان عليها على أبعاد متساوية صروح ثمانية وتبرز أبراجها فوق الاسوار التى تتخللها أبواب ثمانية كذلك وأهم هذه الصروح وأكبرها هو ما كان فى ناحية الجنوب، وهو يخص الامبراطور وفق الرسم المغولى القديم وهذه الصروح فوق الاسوار كانت تستخدم مخازن لعتاد الجيش وعلى كل بوابة كان يقف حرس قوى يستبدل فى أوقات معلومة ويقوم وراء السور الخارجى

---

(١) د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٠

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٩.

(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ نشر كاترمير المجلد الثانى جـ١ ص ٢٢٢

(٤) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٢٨

(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٦.

مباشرة منتزه أو حديقة يليها سور آخر على نمط السور الاول ولكنه دونه فى الضخامة وله نفس عدد الابواب السالفة" ٠ (١)

وأصبحت بكين مشهورة على السنة التجار اذ فيها معادن الفضة والقان الكبير ينـزل بوسطها فى قصر عظيم ثم هى مدينة واسعة الاقوات رخيصة الاسعار وبها أنواع الفواكه الكثيـرة وليس بها موالح غير أنه يعمل بها السكر وبها من الزرع والجمال والخيل والبقر والغنـم مالايدخل تحت الاحصاء" ٠ (٢)

ولعله يمكننا أن نستنتج مدى استقرار الأوضاع الاقتصادية للمغول فى عهد قوبيلاى ، حين نرى أن مدينة بكين كانت تفضل العاصمة القديمة قراقوم فى كثير من الوجوه كالموقـع الجغرافى ، واتساع النشاط التجارى والتحضر الاجتماعى ٠

x اتساع العاصمة :

أدى امتداد النشاط التجارى فى بكين وازدياد كثافة السكان فيها وكذلك استقـرار الحكم المغولى فى عهد قوبيلاى الى ضرورة توسيع العاصمة الجديدة وزيادة ضو احيها ٠ "الـتى اثنتى عشرة ضاحية كانت تحيط بها فى اتساع كبير وكثافة فى السكان تفوق كثافتهم بالمدينة التى كانت تكتظ بهم ومعظم هوءلاء السكان كانوا من التجار الكبار فقد كان يدخل المدينة كل يوم ما لايقل عن الفعربة محملة بالحرير ،وهوا لنسيج الشائع الذى كان يرتديه الناس من كـل الطبقات فلم يكن عجبا اذن ندرة استخدامهم لنسيج القطن وثمة دليل أوضح يقوم على الـرواج التجارى بالمدينة يتمثل فى ذلك العدد الكثير من النزل (الفنادق) التى كانت هنـاك لاستقبال التجار والزوار" ٠ (٣)

تلك هى بكين عاصمة المغول والتى قدر لها أن تكون آخر عاصمة مركزية للمغـول فى الصين ٠ والعجيب أن هذه المدينة لم تنهر كما انهارت قراقورم بزوال نفوذ المغول فيهـا ٠ فقراقورم قد انطمرت الان وتلاشت معالمها تحت كثبان (جوبى) (٤) على حين لاتزال بكين حتى اليوم عاصمة مزدهرة٠

العواصم الفرعيـة :

ادى اتساع الامبراطورية المغوليةمنذ عهد جنكيزخان الى ضرورة تقسيمها بين أبنائـه على النحو الذى أشرت اليه فى مطلع الفصل السابق وترتب على ذلك ظهور عواصم فرعيـة استمدت كيانها من هذا التقسيم الادارى٠ ومن اصرار حكامها فيما بعد على الاستقلال الفعلـى عن سلطان الخان الاعظم وان كان هذا الاستقلال لم يظهر عمليا الا عقب وفاة منكو الخـان الاعظم سنة٦٥٧ هـ وهذه العواصم هى :

---

(١) جون ٠أ ٠هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٦

(٢) القلقشندى: صبح الاعشى جـ٤ ص ٤٨٠

(٣) جون ٠أ ٠هامرتن: تاريخ العالم جـ٥ ص ٢٤٨

(٤) د٠هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٠

أ - سراى :

وقد بناها باتوخان زعيم القبيلة الذهبية وكان تقع شرقى نهر الفولجا جنوبى روسيا فصارت عاصمة له ولخلفائه"(١) ومنها انطلقت فتوحات المغول وسماها (سراى) أى القصر " ولقد قام بركة خان ببناء عاصمة اسلامية له سماها (سراى) الجديدة صوب شرقى اوربا ، وكانت قريبة من (سراى) القديمة التى أنشأها وهى التى سميت فيما بعد (سراى) بركة وربما كانتا مدينة واحدة بدأ باتو باتوخان والمدينتان تقعان على الضفة الشرقية لنهر الفولجا ثم نمت وازدهرت كمركز تجارى يموج بخليط من السكان فى بنائها وأتم بركة هذا البناء المغول والترك والروس"(٢).

أيا كان الأمر فقد اتخذ مغول القبجاق مقرهم شرقى نهر الفولجا حيث حكموا جنوبى روسيا فترة تقارب ثلثمائة عام.

ب - المآليق :

وتقع جنوبى نهر ايللى وقد اتخذها جغتاى بن جنكيز خان مقرا(٣) له ولابنائه من بعده.. وتعتبر مركزا مستمرا لحركات الغزو التى قادها الجغتائيون ضد بركة خان وضد قايدو حفيد أوكتاى بل وضدالايلخانيين وخرجت منها فى خاتمة المطاف حملة لمهاجمة الخان الاعظم فى بكين لكن غالبية هذه الحملات لم تكن موفقة لكنها تسببت فى كثير من الخراب لمدن التركستان وبلاد ما وراء النهر وخصوصا بخارى وسمرقند.

ج - مراغة :

وكانت عاصمة هولاكو مؤسس أسرة الايلخانيين فى ايران وقد اختار موقعها فى أذربيجان ليكون على مقربة من الأحداث التى تجرى فى العراق والشام من ناحية وآسيا الصغرى ومملكة الكرج من ناحية أخرى . كما أنها يمكن أن تكون رأس مثلث مع المآليق وسراى عاصمتى الجغتائيين والقبيلة الذهبية. وقد أقام فيها هولاكو مرصدا للعالم نصير الدين الطوسى.

د - تبريز :

وتقع على مقربة من مراغة وقد اتخذها أباقا بن هولاكو عاصمة لدولته واحتلت فى عهده مكانة ممتازة "ساعدها على ذلك انها لم تصب باضرار جسيمة ابان الغزو المغولى الاول وان كان يرجع السبب فى ازدهارها الى الاخوين شمس الدين محمد الجوينى وعلاء الدين عطاملك الجوينى.(٤)

وقد ظلت محتفظة بمكانتها فى أيام السلطان محمود غازان المسلم وصارت فى عهده مركزا هاما لالتقاء القوافل فى آسيا كلها وازدهرت بها التجارة ونشطت فيها الصناعات الايرانية الشهيرة ، بل واستقلت تماما عن التبعية للخان الاعظم فى بكين.

---

(١) ياسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٦

(٢) د. رجب عبد الحليم: انتشار الاسلام بين المغول ص١١٣

(٣) د.السيد العرينى : المغول ص ١٦٢

(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٥٤، ١٥٥

الأســـواق :

يخيل للمرء أن المغول – شأنهم شأن البدو فى كل مكان وزمان .. كان لهـم أسواقهم التى يجتمعون فيها لتبادل السلع بينهم أو مع غيرهم ولعل هذه الأسواق كانـت تقام فى أيام معينة معلومة لديهم.

وفى عهد جنكيز خان كان نظام المقايضة هو النظام السائد فى الاسواق المغولية، وكانت النساء المغوليات تنهض بمسئولية شراء مستلزمات بيوتهن من الأسواق . فيشتريـن بالمقايضة كل ما هو ضرورى لهذه البيوت.(١)

ولم تكن النساء وحدهن هن اللاتى يقمن بعملية البيع والشراء" اذ كان أربـاب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء ويمدون المدن المغولية المتنقلة(المعسكرات) بما يلزمها من الحاجيات".(٢)

وينبغى أن نتذكر أن هؤلاء الصناع والحرفيين كانوا قد استجلبوا من قبل المغـول الى منغوليا للانتفاع بخبرتهم ومهارتهم لكنهم – فيما يبدو – قد كلفوا بأعمال أخرى متصلـة بالتجارة والأسواق ومن ذلك اعطاؤهم مالا او بضاعة ومحاسبتهم على نتاج عملهم فكان يطبـق عليهم وبصرامة ما شرعه جنكيزخان فى الياسا (من أعطى بضاعة فخسر فيها ثلاث مرات فانـه يقتل فى الثالثة)(٣) وهذا العقاب الحاسم يوضح لنا أهمية التجارة وحرص المغول علـى النجاح فيها أوالحصول على اكبر قدر ممكن من المال من خلالها .

لكن كيف كانت الصورة التى تقام عليها الأسواق المغولية ؟

يبدو أن ذلك كان يتم بفرش البسط على الأرض وعرض البضائع عليها بحيث تكـون ظاهرة لمن يرغب فى المقايضة عليها . فقافلة المغول التى وصلت مدينة أترار الخوارزميـة فى عهد جنكيز خان بسط رجالها السجاد وعرضوا فوقه البضائع".(٤)

ويبدو أن محطات البريد المغولية – وكانت تمر بها القوافل وتتوقف عندها كثيرا – قد صارت مركزا لبعض الأسواق حيث كانت الفرصة مهيأة لتبادل بعض السلع .

وربما كان اهتمام المغول بتأمين طرق التجارة – كما أسلفنا – هو السبب الرئيسى فى أن ظهرت أسواق من نوع جديد مختلف فقد أسست البندقية وجنوة أسواقا تجارية فـى القرى ومستعمرات فى بلاد فارس"(٥)

ويتحدث القلقشندى عن الأسواق فى ايران فى عهد هولاكو وابنائه وحيث كانت تقـام على مقربة من مقر الخان يقول" وحول (أوردو) الخان تأخذ الامراء والخواتين منازلهم وتنصـب هناك مساجد جامعة وأسواق متنوعة يوجد بها من كل ما فى أمهات المدن الكبار الا أنالاسعار

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٦
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٨
(٣) المقريزى: الخطط ج ٢ ص ٢٢٠
(٤) ف.يان الصينى : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١١١
(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٩

تغلو حتى يصير الشئ بقيمة مثليه او اكثر لكلفة الحمل ومشقة السفر" (١) وبالطبع كان (اوردو) الخان يتحرك وفقا لنظام المصايف(بيلاق) والشاتى(قشلاق) * فتتحرك الاسواق تبعا له ٠

المقايضة :

ذكرنا منذ قليل أن نظام المقايضة كان النظام السائد فى عهد جنكيزخان الذى لم يمل الى أسلوب المساومة مع التجار العرب أو الاتراك الذين قدموا الى قراقورم من الجنوب ، فان مال هوءلاء التجار للمساومة صادر أموالهم دون عوض ، هذا وان سلموا كل ما لديهم اليه نالوا منه الهدايا الثمينة ولهم فيها المكاسب الوفيرة" (٢) ٠

اذا كان هذا شأن الخان مع التجار فماذا كان يفعل المغول أنفسهم الذين تعودوا على نظام المقايضة؟ يبدو أن المغول لم يكونوا قد تعلموا دفع ثمن ما يأخذون من البضائع فهم يعطون التجار قضبانا من الفضة أوالذهب أو أى أشياء أخرى وغالبا ما كان تجار القوافل يجمعون ثروة طائلة أثناء رحلة واحدة (٣) ٠

وفى الحقيقة كانت هذه الثروة الطائلة هى الدافع القوى الذى حرك التجار صوب قراقورم ثم بكين بعد ذلك٠ يقول ادوار بروى" وقيام الامبراطورية الجنكيزخانية قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر السير فى البيد ولكن منغوليا ليست وحدها من أفاد من ذلك اذا أن نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية" (٤) ٠

وعلى ذلك فان نظام المقايضة قد ظل معمولا به حتى عهد قوبيلاى ، وقد أشار الى ذلك ماركو بولو الرحالة الايطالى شاهد العيان الذى عاش فترة طويلة فى بلاط قوبيلاى يقول ادوار بروى " ويبدو أن نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها فى عهد قوبيلاى أو أن ما يجوز قوله أن ماركوبولو قد افتتن آنذاك بمشاهدتها" (٥) ٠ ولعل مرجع ذلك كثرة التجار فى بكين وتنوع مواد التبادل ٠٠ وأثر خبرة التجارة فى الربح أو الخسارة

المنشات الاجتماعية

عندما تفكر الدولة فى اقامة المنشآت الاجتماعية وتشرع فى تنفيذ ذلك كى تحقق الخير لعامة الناس وتساعدهم على ممارسة شئون حياتهم فى اطار اجتماعى متحضر فانها تعبر بذلك عن اتجاه حقيقى نحو الاستقرار والتطوير٠

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٧

* (اوردو) معسكر الخان ، (بيلاق) معسكر الصيف (قشلاق) معسكر الشتاء٠

(٢) هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ، ص ٨٠

(٣) هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٥

(٤) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٨

(٥) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٨

وفى عهد جنكيزخان لم يكن لدى المغول فرصة تحقيق شئ من هذا كله فقد كانوا مشتغلين بالحرب والغزو كما أن نظرتهم الى الشعوب الاخرى كانت لاتزال مشحونة بالعداء والكراهية.

فلما انتهت فورة الغزو واستقر كثير من المغول بين أهالى البلاد المفتوحة واتصلوا بهم وانفتحوا على طرق حياتهم وأنماط سلوكياتهم عمدوا الى اقامة منشات اجتماعية عديدة ساهمت بقدر كبير فى معالجة جوانب اجتماعية وعلمية مهمة.

مخصصات الأوقاف :

الأوقاف فى الأصل فكرة اسلامية تستهدف تخصيص بعض مصادر الدخل العام أوالخاص كأرض زراعية او قطيع من الحيوان أو منجم أو غير ذلك لخدمة أغراض دينية اواجتماعية.

والأوقاف بهذا المفهوم اتجاه انسانى النزعة يسعى لتحقيق الخير العام لأكبر قدر ممكن من الرعية التى تحتاج الى نوعية خاصة من المساعدة ،ولقد أدرك بعض الحكام المغول قيمة الاوقاف ودلالتها على شخصية الحاكم وعلى مدى انتمائه الى الدين الاسلامى ففى الرسالة التى بعث بها السلطان أحمد تكودار (٦٨٠ - ٦٨٣هـ) الى السلطان قلاوون فى مصر. تأكيد على انه قد أمر ببناء المساجد والمدارس وخصص الأوقاف فى سائر مملكته" (١) فلما قتل هذا السلطان المسلم على يد ابن أخيه (أرتمون) وتسلط اليهود عليه أضر ذلك بالمسلمين وبنفقات جوامعهم وأوقافهم" (٢).

وعندما ازدادت الصلة بين المغول والمسلمين فى اسيا الوسطى وايران وخوارزم ظهرت منشات الاوقاف فى معظم الارجاء الخاضعة لسيطرة المغول - وفيما عدا الصين فان ظاهرة الاوقاف كان لها سمات واضحة منها :

(أ) الأثر الاسلامى :

ذاك أنها كانت اسلامية الطابع والادارة اذ لم يفكر أصحاب أية ديانة أخرى - على تعدد الأديان انذاك - فى اقامة مثل هذه الاوقاف على ما فيها من تكافل اجتماعى وتعليمى.

(ب) تخصيص الاشراف عليها للشخصيات العامة الاسلامية :

ولعل الهدف من ذلك هو ضمان أن تكون أموالها بمنأى عن التبديد أو اساءة الاستعمال وكذلك ضمان وصول الخدمات العامة التى تقدمها الى مستحقيها بعدالة ونزاهة.

وفى عهد منكو الخان الأعظم فان أمه الأميرة (سرقويتى) شيدت مدرسة عالية مشتملة على ثلاث طبقات ببخارى ووقفت عليها أوقافا لا تعد ولا تحصى وفوضتها الى الشيخ سيف الدين الباخزرى" (٣) وهو عالم دينى كبير ورجل تصوف معروف.

وفى عهد هولاكو خان (٦٥٤-٦٦٣هـ) تولى العالم الكبير الفيلسوف نصير الدين الطوسى مهمة الاشراف على جميع الاوقاف فى جميع البلاد التابعة للايلخانية. (٤)

---

(١) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٩

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ٣٥١

(٣) الرمزى : تلفيق الأخبار وتلقيح الاثار جـ٢ ص ٢٤

(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٠، دونالدولبر.. ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٣

ونصير الدين الطوسى أشهر شخصية عامة فى ذلك الوقت وبخاصة منذ أن التحق بخدمة هولاكو بعد غزو المغول لقلاع الاسماعيلية سنة٦٥٤هـ.

ولما تولى أباقا حكم الايلخانية ٦٦٣هـ استمر نصير الدين فى عمله (١) حتى توفى سنة٦٧٠هـ ، بعد أن ازدهرت مختلف المنشآت الاجتماعية التى انبثقت عن الاوقاف وبخاصة المدارس.

وفى عهد غازان خان (٦٩٤ – ٧٠٣هـ) اسندت الى الوزير الشهير رشيد الدين فضل الله الهمذانى مهمة الاشراف على الاوقاف التى كان بعضها فى(تبريز) حول مقبرة غازان حيث شيدت عدة مبان كان أهمها مسجدا ومدرستين ومستشفى ومكتبة ومرصدا وملجأ للايتام واخر للاطفال المشردين. وكانت هذه الموءسسات تندرج تحت اسم أبواب الخير" (٢).

ولم يكن الامر مقصورا على(تبريز) العاصمة وحدها فقد أنشئ فى بغداد والحلة وأصفهان وشيراز والموصل مكان سمى" دارالسيادة " تخصص لال البيت وجعل وقفه ليصل الى الفقراء والمساكين" (٣).

غاية الأمر أن الأوقاف الاسلامية جاءت دلالة اجتماعية مهمة أكدت اتجاه بعض خانات المغول الى تحقيق أعمال الخير فى مجالات عدة منها :

١ـ الموءسسات الاجتماعية :

كالمستشفيات والملاجئ والسجون.

٢ ـ الموءسسات التعليمية والتربوية :

كالمساجد والمكتبات العامة والمراصد والمجامع اللغوية والمدارس بما فيها من طلاب ومعلمين ووسائل تعليمية. وعلى سبيل المثال كان الى جانب المهمة الأساسية التى يوءديها مرصد مراغة تحت اشراف نصر الدين الطوسى دار للفقهاء والفلاسفة والاطباء وعليها أوقاف لخدمتها" (٤).

وكانت هذه الدار مقر اقامة موءثث للمعلمين على اختلافهم بما يتيح لهم أداء عملهم فى أحسن وجه .

ولم يكن المعلمين وحدهم مناط الرعاية بل الطلاب أيضا كانت لهم مخصصات معلومة من الاوقاف تصرف لهم يوميا. يقول حسن الامين "وجعل نصر الدين الطوسى لكل واحد من دارسى الفلسفة ثلاثة دراهم يوميا ولكل واحد من دارسى الطب درهمين ، ولكل واحد من دارسى الفقه درهما ولكل واحد من دارسى الحديث نصف درهم. (٥)

---

(١) على ظريف الاعظمى: مختصر تاريخ بغداد ص ١٣٣

(٢) د. فوءاد الصياد : موءرخ المغول الكبير ص ١٢٧

(٣) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٦١

(٤) المقريزى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور زياده جـ١ ق٢ ص ٤٢

(٥) حسن الامين : الغزو والمغولى ص ١٥٦

وهكذا نجح الطوسى فى تشجيع العديد من الطلاب على الاقبال على دراسة الفلسفة والطب بعدما كان الأمر مقصورا على علوم الفقه والحديث • ولعله من الافضل أن يوءجل فى هذا الفصل الاشارة الى المنشآت التعليمية والثقافية التى اسهمت الاوقاف فى كثير منها الى الحديث عنها ضمن الحياة العلمية والادبية عن المغول فى الباب الثالث•

وسنكتفى هنا بالحديث عن بعض المنشآت الاجتماعية التى ساهمت الاوقاف بقدر كبير من الرعاية والدعم ومنها :

أولا : المستشفيات :

لا يستطيع المرء أن يجزم بوجود المستشفيات فى المجتمع المغولى البدوى فى عهد جنكيزخان • فذلك أمر لايخالف طبيعة المجتمع البدوى المتنقل كما أن مهنة الطب فى ذلك الوقت لدى المغول – أن صح هذا التعبير – كانت مقصورة على طبقة السحرة الشامانيين وكانت أقرب الى الدجل والشعوذة والخرافات منها الى المعرفة •• وجنكيز خان نفسه كان متأثرا بهوءلاء السحرة الى حد كبير اذ عندما سمع عن أطباء وسحرة يملكون حجرا يسمونه حجر الفلاسفة يحولون به الحديد الى ذهب نضار وفى وسعهم – ان اذن – ان يركبوا له أكسير خاصا أمر مستشاره الصينى "يى •ليو جوتساى" أن يرسل الى أطراف الامبراطورية لكى يحضر خيرة السحرة والاطباء الى مقر قيادته ومعهم العقاقير المقوية التى ترد الشباب وتمنح الخلود" •(١)

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فانها تشير الى عدم وجود طبيب عالم ملازم لجنكيزخان حتى بعد أن صار امبراطورا •• بل كان عليه أن يبحث هنا وهناك عندما يفاجئه المرض • فاذا كان هذا هو حال الخان الاعظم فما هو حال الرعية؟• فاذا نزل بالرجل منهم المرض لزم خيمته فيغرسون عند ذلك على بابها قناة رمح تعلوها شفلة سوداء تحذيرا للقوم من الاقتراب من المكان وكانوا يسمحون عادة لخدم المريض بالقيام على خدمته على ألا يختلطوا من بعد ذلك بغيرهم ، فان لم يكن له أتباع ترك فى عزلته حتى يبرأ أو يقضى" •(٢)

وبالطبع كان رجل الدين الشامان يأتى للاشراف على هذا المريض فيعالجه بأساليب بدائية لا تمت للطب بأدنى صلة • غير أن المغول نتيجة لتدنى مستواهم الحضارى كانوا يعتقدون فى صحة ما يفعله هوءلاء وبالطبع غالبا ما كان تنتهى حياة هذا المريض بصورة أو بأخرى" •• وعندما يدخل هذا المريض فى النزع الأخير يترك وحيدا سواء أكان له أتباع أم لم يكن أما من يصادفه سوء الحظ فيكون الى جوار المريض حين تحضره الوفاة فانه يعزل عن الناس جميعا مددا متراوحة فى الطول" •(٣)

هذا فى الوقت الذى ارتقى فيه علم الطب عند المسلمين الى درجة كبيرة فقبل ظهور جنكيزخان على مسرح الأحداث السياسية كانت المستشفيات التى أنشئت فى عهد

---

(١) الكاتب الصينى •ف•يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٠٢

(٢) جون• أ• هامرتن : تاريخ العالم جـ٥ ص ٢٤١

(٣) جون أ•هامرتن : نفس المصدر جـ ٥ ص ٢٤٢

العباسيين مفخرة للمسلمين (١) وعلى سبيل المثال تلك المستشفى التى أقامها أبو بكر الرازى فى بغداد على أن اتصال المغول بالشعوب المتحضرة حولهم ورغبتهم الأكيدة فى الاستفادة بكل جديد وتشجيعهم للعلماء ادى الى تغيير حلى خاصة فى عهد قوبيلاى الذى نظم اعانات للمرضى الذين أنشئت لعلاجهم المستشفيات (٢) .

وفى عهده أيضا أصبح من مساعدات الدولة للرعية فى السنوات القحط تأسيس المستشفيات ومستوصفات العجزة" (٣) .

أما فى دولة هولاكو وبنيه فى ايران والتى احتوت فيما احتوت عاصمة العباسيين (بغداد) فكان طبيعيا أن يكون عدد المستشفيات أكثر وأوفر ، فقد كان الاهتمام بالأطباء أوضح وأفضل ففى مرض هولاكو كان هناك دار للاطباء بها من كتب بغداد كثير وعليها أوقاف لخدمتها" (٤) .

فاحتواء هذا المرصدالذى أقامه هولاكو فى مراغة تشجيعا للعالم نصير الدين الطوسى على دار للاطباء ومكتبة طبية وكذلك تخصيص أوقاف للانفاق عليها كلها أدلة على وجود مستشفيات فى مراغة عاصمة الدولة انذاك أو لنقل على الاقل انها دليل على نهضة طبية لاحت بعد الدمار الشامل الذى سببه الغزو المغولى الأول .

وفى عهد أباقابن هولاكو (٦٦٣ــ ٦٨٠ هـ) انشأ علاء الدين الجوينى الحاكم المغولى للعراق آنداك جملة من المستشفيات وأجرى عليها الجرايات" (٥) .

وفى تبريز اقيمت مستشفى ضمن مجموعة من الانشاءات العامة التى عنى بها تجديدا ، وانشاءً ففى دائرة المعارف الاسلامية مادة (تبريز) انه أنشئ فى عهد المغول عدة منشات منها بيمارستان والى جوارها مكان يسكن فيه المشرفون عليها وأوقف عليها جزء من مبالغ جملتها مائة تومان من الذهب للانفاق عليها" (٦) .

وبالاضافة الى ذلك شيد غازان العديد من المستشفيات لعلاج المرضى كما حث الاهالى أيضا على البناء والتشييد فسارع الأمراء والوزراء والاثرياء فى المساهمة بنصيبهم فى هذا المجال" (٧) .

---

(١) د. أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٤٢، ١٤٣

(٢) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٠

(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٠

(٥) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٥

(٦) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص٨١ نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية مادة تبريز ص ٥٤٥

(٧) د. فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٢٣٢

وهكذا فانشاء المستشفيات تم فى عهد توبيلاى سواء ما كان منها فى الصين أو ايران أوالعراق ٠٠ ومعنى ذلك أن التفكير فى انشاء مستشفيات العلاج قد تأخر حتى نهاية عهد منكو ٦٥٧هـ ، ورغم ذلك فهذا الانشاء يعد أحد دلالات التطور فى التفكير عند المغول الذين انتقلوا من أساليب الشعوذة والسحر فى معالجة المرضى الى الاهتمام باقامة المستشفيات٠

ثانيا : الملاجىء:

عندما تفكر الدولة فى اقامة الملاجىء لايواء من يحتاجون للرعاية والاحتماء فانها تكون قد تجاوزت مرحلة النمو الى مرحلة الاستقرار ولعل ذلك يومىء بأن الامبراطورية قد تبلورت بشكل ثابت منذ أوائل عهد قوبيلاى قا ان الذى كان أول وأقوى الحكام المغول فى الصين٠ ومما يذكر له بالخير أنه قد أنشأ الملاجىء لايواء العجزة والضعفاء والظاعنين فى السن"(١)٠

فلو تأملنا من كان تشملهم الرعاية فى هذه الملاجىء لوجدنا نظرة انسانية صرفة تقوم وراء انشائها سواء أكان المستفيد بذلك هم المغول أنفسهم او رعايا من الشعوب الخاضعة لهم" ففى بغداد وفى أثناء عهد أباقا بن هولاكو أنشأ علاء الدين الجوينى جملة من الملاجىء وأجرى عليها الجرايات"(٢)٠

اذن زاد عدد الملاجىء وأجريت عليها الاعانات وخصصت لها الاوقاف وهو موءشر يدل على اهتمام الدولة بالجوانب الانسانية والاجتماعية ٠

وقد تبدو هذه الصورة أكثر وضوحا وأدق نظاما فى عهد غازان فالملاجىء تولى اهتماما أكبر بالاطفال الايتام والمشردين والارامل وتجعل مسئولية الاشراف على ذلك كله للوزير نفسه وليس لأى شخص سواه٠ ففى تبريز شيدت عدة مبان منها ملجأ يسع مائة طفل يتيم يطالعون القرآن الكريم ويحفظونه ويعطون مائة مصحف ويشرف عليهم خمسة من المدرسين ويقوم بالخدمة خمسون من الخدم، وملجأ آخر للاطفال المشردين ، وثالث للأرامل تنزل فيه خمسمائة أرملة وتتدرج كل هذه الاعمال تحت اسم" أبواب الخير" أيضا(٣)٠

فأى فرق بين هذا العمل الانسانى وبين ما تقوم به الدول المتقدمة ،فالملاجىء ليست مكانا للايواء فقط بل هى مكان لتلقى العلم حيث خصص فيها مدرس لكل عشرين طالبا ٠ كذلك الخدمة تلقى اهتماما واضحا لأن خمسين خادما فى الملجأ الواحد يعد دلالة على مدى الاهتمام بتقديم الخدمة الاجتماعية والرعاية الانسانية وبدهى أنه كانت هناك حالات اجتماعية عديدة أو موءقتة تزيد عن الطاقة التى يمكن للملاجىء استيعابها غير أن الدولة كانت تنظر اليها بعين الاعتبار أيضا فقد عنيت حكومة أباطرة المغول الأوائل فى الصين برعاية الأيتام والمرضى المسنين"(٤) بالاضافة الى الملاجىء السابقة ٠

ويبدو أن قوبيلاى قا أن رأى ان ينظم هذا الامر وأوجد تنظيما تعين الدولة بمقتضاه بالاضافة الى الايتام والمرضى الشيوخ من العلماء(٥) وهذا الموقف الانسانى الكبيريدل

---

(١) د٠ فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٣٦
(٢) حسن الأمين: الغزو المغولى ص ١٨٥
(٣) د٠ فوءاد الصياد : موءرخ المغول الكبير ص ١٢٧
(٤) تشتسر آ٠بين: الشرق الاقصى ص ١٦
(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٥

على مدى اهتمام الدولة بالعلماء اذا كبروا فى السن وعجزوا عن الكسب فى سن الشيخوخة٠

ويؤكد ماذهب اليه وليام لانجر اذ يقول " ونظم قوبيلاى اعانات لمواساة المسنين من طلاب العلم واليتامى والعجزة" ٠ (١)

ويخيل الى أن المقصود بالاعانات فى مثل هذه الحالات هو تقديم المساعدات المالية التى توفرها الدولة لكافة هؤلاء المحتاجين بصورة دورية أو منتظمة تكاد تقترب مما نسميه اليوم بالمعاش٠

وقد تكون هذه الاعانات فى شكل مساعدات عينية أيضا فقد كان من أدلة مساعدة الدولة للرعية فى سنوات القحط توزيع الأطعمة والألبسة بالمجان والاحسانات اليومية فى فناء القصر" (٢) ٠

كذلك يمكن أن تكون المساعدة فى شكل اعفاء من الضرائب فقد كانت الاعفاءات الضريبية تتم فى حالات الوفاة وضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية والجفاف٠٠ الخ وهذا ما سوف نوضحه عند الحديث عن الضرائب والاعفاء منها٠

وسائل التسلية والمرح عند العامة

ذكرت أن حياة المغول كانت قاسية خشنة فى مواجهة الطبيعة من جهة وفى مواجهة الاعداء من جهة أخرى٠ غير أن الانسان كفرد وكذلك الجماعات أيضا ينبغى أن يكون فى حياتها أوقات ولو قليلة تتحلل فيها من التزامات الحياة الرتيبة بما فيها من جهامة وصرامة وتأنس الى لحظات من التسلية والمرح بالطريقة التى تألفها أو ترتضيها ٠ فالعرب فى شبه الجزيرة مثلا كان يجدون فى قرض الشعر متعتهم الاولى وربما ذاع صيت انسان واتصل بكبراء القوم او بالملوك لانه يجيد القريض كذلك كان العرب يجدون متعة أخرى فى الاستماع الى الشعر وترديده ٠ والمغول شأنهم شأن البدو فى كل مكان كانت لديهم بعض وسائل للتسلية والمرح تلائم طبيعتهم التى جبلوا عليهم ٠

أولا : تناول الخمور :

وهى عادة انتشرت منذ عرف الانسان كيفية استخراج النبيذ من العنب أو من العسل المخمر أوغيره ٠ فلعل الشراب واحد من وسائل التسلية والهروب من الجفاف الذى كان يكتنف حياة المغول بما فيها من قسوة ورتابة ٠

عموما فقد استخدم المغول القوميس بصفة أساسية ٠٠ وهو لبن الأفراس المخمر فى صنع الخمور التى غدت وسيلة التسلية الأولى٠

وفى الحقيقة كان المغول قد تعودوا على شرب الخمر جميعا رجالا أم نساء يقول جون هامرتن" وكان النساء يشاركن الرجال الشراب " (٣) أى يشربن مثلهم ٠

---

(١) موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٠

(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٧٧

(٣) موسوعة تاريخ العالم جـ ٢ ص ١٦٨

فالخمر قد صارت عادة سيئة " اعتاد المغول عليها بين ما اعتادوا من خصال سيئة" (١) .

وهذا التعود وصل الى درجة الافراط كثيرا خاصة فى الحفلات أو مجالس الشراب . حيث كان المغول بوجه عام يفرطون فى شرب الخمر وفى نهاية أى حفلة ناجحة كنت ترى المدعوين وقد أصبحوا صرعى فاقدى الوعى" (٢) .

وكان لمجالس الشراب نظام خاص يلتزم به أثناء تناول الخمور أو لنقل فى بداية هذا التناول . فعقب ان يترك الفرسان سلاحهم عند مدخل اليورت (الخيمة) يجلسون عن يمين رئيس القوم يشربون ويصفقون بين نغمات الربابات المنفردة الاوتار وقبل كل جرعة من الشراب يخرج أحد الخدم مسرعا فيسكب حسوة على الارض فى كل جهة من جهات الريح الأربع أما فى السهل فقد كان هناك جمع من الفرسان يمطون أذان رفاقهم كأنهم يريدون توسيع حلاقيهم لابتلاع اللبن المخمر وخمرة الارز ابتلاعا سهلا" (٣) .

فللخمر مكان داخل الخيمة الكبيرة يجلس الفرسان فيه عن يمين رئيس القوم والنساء عن يساره . وخارج الخيمة جمع اخر قد لعبت الخمر بروءوسهم فأخذوا يمارسون أنماطا من السلوك غريبة فيها طابع العنف والبلاهة والهذر المقيت" اذ كانوا يتبادلون أقذع ألوان السباب وأقذر الألفاظ" (٤) .

ثانيا : الرقص والموسيقى والغناء :

ويبدو أن هذه كلها كانت وسائل مصاحبة لتناول الخمور . فالمغول كانوا يحبون الرقص ولكن على طريقتهم البدائية الغريبة . فقد كانوا يرقصون وما كانوا يرقصون الا أنهم كانوا يقفزون وينطون وبأرجلهم أحذية من جلود الدببة" (٥) . وفى الشتاء وعندما كان الثلج يكسو مناطق الاستبس كان المنشدون المتجولون يقبلون على ظهور جيادهم وكان هوءلاء الرجال المسنون والعميان أحيانا ينشدون بأصوات طنانة قصص أجداد القبيلة الأولين (٦) .

واذا كانت هذه الوسائل قد استعملت داخل بيئة المغول أنفسهم فى منغوليا فماذا كانوا يفعلون خارج هذه البيئة . يقول عطا ملك الجوينى" وعقب الانتصار فى بخارى فان المغول احضروا كئوس النبيذ والمغنيات من المدينة وصاروا يشربون ويسمعون ويرقصون ويغنون وفق أصول غنائهم والحانهم" (٧) .

وغالبا ما كانت سعادة المغول او انغماسهم فى ألوان اللهو تنحرف بهم الى المبالغة والاسراف الى درجة التلذذ بتعذيب الاخرين ولو كانوا من أهل الوقار أو العلم فماذا يعنى

---

(١) د.براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٣
(٢) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٧
(٣) هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٢٢
(٤) د.ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٦
(٥) د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٢٢
(٦) د. فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٦٢ عن تاريخ جهانكشاى جـ١ص ٨٠، ٨١
(٧) أرمنيوس فانبرى : تاريخ بخارى ص ١٧٠

المغول غير الاستمتاع الى أقصى درجة ممكنة يقول فامبرى " وفى بخارى سبق كبار الشيوخ والعلماء البارزين ليقوموا فى خدمة الجند المغول فى مجالس الشراب أو ليؤدوا لهم الرقصات وفق رتم المغول على توقيع الالات الموسيقية"(١).

ثالثا : مباريات المصارعة والمبارزة :

لعلنا ذكرنا من قبل أن المناخ القاسى فى منغوليا ما كان ليعطى السقماء فرصة الاستمرار فى الحياة ، ومن هنا فالبقاء للقوى الصلب . والمغول اشتهروا فى الغالب بقوة البنية وصلابة الجسم . ومن هنا تولدت لديهم الرغبة فى ممارسة المصارعة على ما فيها من عنف يصل أحيانا الى درجة القتل ، ولا غرو أن هذه اللعبة العنيفة تعد مغولية الاصل انتشرت فيما بعد فى كوريا واليابان وغيرهما.

وقد كان المغول يهتمون بالمصارعة اهتماما خاصا ويعلمونها لابنائهم منذ الصغر ففى سن الشباب المبكر كان (تيموجين) المصارع الأول بين أقرانه"(٢) لانه امتاز تيموجين بقوة البنية العظمى وبمقدرته على الابداع وكانت له طريقته فى تكييف نفسه مع الحادثات ومن ثم قد أصبح مجليا بين المصارعين بالرغم من نحافة بنيته"(٣).

وهكذا فان المصارعة كوسيلة تسلية وتنمية للقوة وجدت رواجا بين المغول الذين افتتنوا فيها وبرعوا حتى غدت عنوان قوة الشباب منهم .

وبالاضافة الى مباريات المصارعة كانت هناك مباريات المبارزة والفروسية وركوب الخيل حيث كانوا يتسابقون على ظهور الخيل مسافة عشرين ميلا فى الفلاة ذهابا وايابا"(٤) وهكذا كان المغول فى أوقات السلم يعقدون المباريات بينهم وربما رصدوا لها الجوائز وفى الحقيقة كان المغول يحرصون أشد الحرص على مزاولة ضروب مختلفة من الرياضة فقد كانوا مغرمين بالمصارعة والمبارزة وركوب الخيل جميعا وكانوا يجدون لذة فى مشاهدة المباريات التى تقام لهذا الغرض"(٥).

المآتم والأحزان

تحدثنا عن وسائل المرح والتسلية عند المغول فى الصفحات الماضية ولذا يتحتم عرض الوجه الآخر المتمثل فى الاحزان والمآتم وهو وجه يحمل دليل شدة أو عنوان مشقة وما أكثر الشدائد والمشقات فى مجتمع البدو حيث الطبيعة قاسية لا ترحم ووسائل الحياة أولية بدائية والاعداء محيطون من كل صوب على أن الاحزان فى قوتها وعمقها تكاد ترتبط بالحدث لما فيه من رهبة وقسوة.

---

(١) أرمنيوس فابيرى : تاريخ بخارى ص ١٧٠

(٢) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٥٠

(٣) د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٠

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٩

(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٢

وأول فجائع الموت التى واجهت (تيموجين) فى مقتبل حياته كانت وفاة والده "يسوكاى بهادر" مسموما على أيدى أعدائه من التتار. غير أن المحن التى توالت لم تسمح لتيموجين أن يستشعر الحزن فقد كان عليه وهوالابن الاكبر أن يقرر مصير الاسرة وسط الاخطار المحيطة بها ومصيره هو على وجه الخصوص.

وكانت فجيعة المغول الاولى عندما بلغ جنكيزخان مصرع حفيده توجين ابن جغتاى الذى كان يحبه كثيرا (١) وحدث ذلك أثناء حصار مدينة (بامبان) ولما كان جنكيز خان هو الذى نص فى الياسا على "أن لايجوز البكاء على الميت، فانه أقام جنائز دامية بالا تمتد الايدى الى الغنائم، بل لابد من تدمير كل شئ، ولايجوز الابقاء على حياة الاسرى، وأطلق على المدينة اسم (موباليق) أى المدينة اللعينة". (٢)

غير أن هذه الاحزان داخل جنكيز خان قد تفجرت عند وفاة ابنه الأكبر جوجى فى مملكته بالقبجاق. يقول بارتولد" ومن شعر الاحزان الذى ينسب الىجنكيزخان أنه لما بلغه نبأة وفاة ابنه جوجى قال يرثيه :

أرأيت الى العير يروعه الصياد
فينأى عن صغيره
فكذلك ثُكلت ولـدى
أرأيت الى سرب البط
يتشت فى كل اتجـاه
فهكذا فارقت ابنى البطل. (٣)

فاذا ما أدركنا أن جوجى فى هذاالوقت كان فى حوالى الخمسين من العمر، وأن أباه قد ساهم بطريقة أو أخرى فى قتله ادركنا مدى شعور الاب بالذنب فقد تسرع جنكيز خان حين كلف اخاه بالذهاب الى القبجاق وقتل جوجى لانه تخلف عن حضور القوريلتاى وفضل أن يستمتع بالصيد. (٤)

وسواء أصحت نسبة هذه الأبيات التى أوردها بارتولد أم لم تصح فانها دليل على الحزن العميق الذى انتاب الخان وقد تجاوز السبعين من عمره تقريبا. على أن فجيعة المغول العظمى انما كانت فى وفاة جنكيز خان نفسه فقد افتتن المغول به لدرجة أنهم توهموا أنه أقوى من الموت لكنه مات فكان موته مفاجأة لهم فجرت احزانهم .. يقول هارولدلامب " وعندما كان نعش جنكيزخان متجها الى أرض الوطن صرخ (ترخان) أشيب الشعر قائلا : "انقضضت كالصقر فيما مضى .. أما الآن فتحملك عجلة صارة وتتقدم بك الى حيث اللانهاية. يا خانى! ! اتركت حقا زوجك وأولادك وندوة شعبك .. ياخانى ؟! لقد قدمنا محلقا فى العز والعظمة فيما مضى .. أما الآن فسقطت وهويت يا خانى ! !" (٥)

---

(١) الكاتب الصينى .ف .يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢١٧
(٢) د. السيد العرينى: المغول ص ١٣٥ ، ١٣٦
(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص ١٥٦
(٤) الكاتب الصينى.ف .يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢٢٣
× القوريلتاى : الاجتماع العام تحت اشراف الخان الاعظم والتخلف عنه يستوجب الاعدام.
× الترخان: رتبة عسكرية كبيره له امتيازات خاصة فى الجيش المغولى.
(٥) جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٠

فهذا الرثاء من أحد ضباط جنكيز خان يكشف لنا عن حزن عميق كذلك يبين كيف رفع جنكيزخان من شأن المغول ويومىء الى مستقبل غامض من بعده.

ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين بكوا جنكيز خان فالنساء أيضا كن يعرفن قيمة هذا الرجل فى حياة المغول ويقدرن نتيجة غيابه فمع العربة التى كانت تقل الجثمان من جوار هضبة التبت مرورا بالصين عاد المغول الى البرارى مع ريح الشمال وعند كل مخيم مغولى كانت النساء تخرجن ومعهن أطفالهن ينحن مشيعات وكن يولولن قائلات " فى وقت الحشائش كان الخان يطعمنا وعنما تهب ريح الشمال فى الشتاء كان يدفئنا أما الان وقد ذهب فالماء الحلو لم يعد يجرى فى أنهارنا كما اختفت الظلال من أشجار حدائقنا" (١) وهى عبارات تحمل معنى الحزن العميق فى صيغ مجازية مؤثرة.

واستمرت أحزان المغول على وفاة جنكيزخان عامين توقفت خلالها حركة الغزو الخارجى وتقلصت من ذهول الصدمة وطوال هذين العاملين كان الابن الاصغر لجنكيز خان يتولى مهام تدبير الامور ولم ينته هذا الحزن الا بمراسم الاحتفال التى اقيمت عند تولية "أوكتاى" بن جنكيزخان (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) خاقانا أعظم مكان أبيه فوجدها المغول فرصة لانهاء حالة الحزن والاكتئاب فملأوا الدنيا سرورا وبهجة عقب المراسم لكنهم ظلوا ثلاثة أيام يقيمون الولائم ترحما على روح الفقيد جنكيز خان.

وبصفة عامة. فعند الوفاة كان المغول يعلنون عنه بالصراخ والعويل الذى لايستمر طويلا (٢) كماكانت هناك مظاهر للمشاركة الوجدانية تتم لتخفيف الاحزان منها أن أسرة الميت تعفى من الضرائب لمدة عام كامل (٣) كما كان المغول – فيما بينهم – لايتعرضون لمال ميت" (٤) ولو ترك ملء الارض ولايدخلونه خزانة السلطان" (٥).

وعلاوة على ذلك كانت هناك زيارات منتظمة لقبر الميت قد تستمر لمدة ثلاثين يوما بأكملها .. ويتجدد العويل عند القبر اذا كان الميت من علية القوم" (٦).

أما اسم الشخص الميت فقد يمتنع القوم عن استخدامه لاجيال تالية" (٧) غاية الامر أن الاحزان فى حياة المغول ارتبطت عادة بالموت لكن ايا كانت أحزانهم فان ما ارتكبوه من جرائم وشناعات فى حق الشعوب الاخرى كان أكبر بكثير من أحزانهم تلك التى كانت تتحرك عندما تتوقف حياة أحد الخانات او القواد، وما أكثرهم فى حياة المغول.

---

(١) د.هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٦
(٢) جون أ.هامرتن: تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٢
(٣) المصدر السابق نفسه ، جـ ٥ ص ٢٤٤
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ جـ١٣ ص ١١٩
(٥) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٤
(٦) جون أ.هامرتن: تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٢
(٧) المصدر السابق نفسه ، جـ٥ ص ٢٤٣

المقابر وطقوس الدفن

درج المغول على اخفاء خبر الموت خاصة اذا كان الموتى من ذوى الشأن أوالأهمية حتى لايترتب على اعلان هذا الخبر ضرر قد لا تحمد عقباه. فان كان المتوفى هو الخان نفسه فان اخفاء خبر وفاته يكون اكثر الزاما فعند وفاة جنكيز خان ، لم يعلن فى الحال خبر وفاة الخان العظيم وانما بقى العلم مرفوعا فى مكانه المعتاد كما أخذ الضباط يدخلون الى الخيمة ويخرجون منها وقد رشق رمح فى الأرض أمام مدخل الخيمة وأبعد الحراس الأفراد العاديين عن الخيمة بحجة أن جنكيز خان قد أمر بذلك". (١)

وفى الحقيقة كان اخفاء خبر موت جنكيزخان مرتبطا بأمر هام وهو الهجوم على قبائل التانجوت التى أعلنت العصيان فى أواخر أيام جنكيزخان ولهذا فالمغول لم يعلنوا خبر وفاة جنكيز خان وتكتموه حتى باغتوا التانجوت وقهروهم فمما لاشك فيه أن تسرب خبر الوفاة كان كفيلا باستشراء الثورة التى أعلنها التانجوت.

فالاخفاء له سبب عسكرى يبرره. ولعله يذكرنا بما فعلته شجرة الدر حين أخفت خبر وفاة زوجها السلطان نجم الدين ايوب حتى لايطمع ذلك الخبر الفرنسيين ويوهن من عزائم المصريين فى منازلة عدوهم .

أما فيما يتعلق بالاشخاص العاديين فلم يكن لدى المغول مايستوجب هذا الاخفاء اذ لاضرورة تحول دون اعلاء نبأ الموت ولا خطورة فالمغول يشابهون غيرهم فى هذه النقطة ولايختلفون عنهم.

تشييع الجثمان :

ليس بين أيدينا دليل على أن الجنائز لدى المغول كانت تقام بالنسبة للعامة كما يحدث عند المسلمين. وأغلب الظن أن هذه الجنائز كانت مقصورة على الخانات الكبار أو الامراء من بيت جنكيزخان حيث كانت تتحرك المواكب الجنائزية مصاحبة لجثمان الخان الميت فى موكب جنائزى طويل يسير ببطء فى المسالك الجبلية حتى قلب البلاد المغولية القديمة". (٢)

ويصف هارولد لامب جنازة جنكيز خان بقوله" فلما ذابت الثلوج بدأ الجيش رحلة العودة الى أرض الوطن ومن جميع الجهات اتى الفرسان لكى يسيروا الى جانب العربة التى حملت جثة الخان العظيم وأخذوا يقولون بعضهم لبعض " لقد كان كالنسر الطائر يبحث عن فريسته ولم يسبق ان كان له بيت ولا مستقر". (٣)

اذن كانت جثة الخان الميت توضع على عربة يحيط بها الحرس الخاص له ويتجمع حولها الفرسان الأشداء وفى أثناء الجنازة كانت تتبادل كلمات الرثاء حول شخصية الخان الراحل.

---

(١) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٥
(٢) ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٣
(٣) جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٦

قتل الأبرياء أثناء مرور الجنازة:

وتلك ظاهرة قد أشار اليها العديد من المؤرخين فهى تحمل معنى القسوة المفرطة التى لايغفرها أى سبب وراءها . خاصة وأن الضحايا فى هذه الحالة قد يكونون من المغول أنفسهم . يقول جون هامرتن " وثمة رسم قاس رهيب آخر كان يتصل بدفن الامراء فحين كان يبدأ موكب تشييع أحدهم الى مثواه الاخير، فان كل من تصادفه حاشية الامير من الناس فى طريقها توردة حتفه لتوه حتى لقد بلغ عدد القتلى فى احدى المرات عشرين ألفا من الرجال والنساء والاطفال الذين كانت كل جريرتهم أنهم لم يكونوا على علم بمرور الجنازة" .(١)

وقد يبدو الرقم(عشرين ألفا) مبالغا فيه الا أن هذه المذابح نفسها تؤكد بشاعتها الى درجة يصعب تصورها . فماذا عسى أن تكون الأسباب وراء قتل جميع الذين يصيبهم الحظ النكير بأن يصادفوا جنازة الامبراطور أثناء نقلها الى مقرها الأخير؟ ربما الخوف من أن يتسرب نبأ موته قبل اعلانه رسميا .(٢)

أولعلهم أرادوا ان تصحب أرواح هؤلاء القتلى الخان المريع فى رحلته الى خارج العالم والانتقال الى السماء" .(٣)

ولهذا كانوا كلما مروا بمخلوق من حيوان أو انسان قتلوه بلا تحرج وهم يقولون "اذهب الى امبراطورية ما وراء السحاب واحترم مولانا هناك بإخلاص وصدق وولاء" .(٤)

فلعلهم رأوا فى مسألة قتل الحيوانات أيضا أن تتجسد أرواحها وتنهض بعبء خدمة الخان فى حياته الثانية !!

ويؤكد ادوار بروى على مسألة قتل الحيوانات أيضا . غير أنه يرى أن ما يفعله المغول فى هذا الشأن انما هو أمر عرف منذ القدم عند الصينيين والاتراك الغز يقول : "وعلى غرار مادرج الغزو الصينيون يقتل المغول جميع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن أمام طقس من طقوس الذبائح يرافقه ذبح الخيول أيضا . أم أننا كما يزعم رشيد الدين (مؤلف جامع التواريخ) أمام تدبير احتياطى للمحافظة ما امكنت المحافظة على سر وفاة الملك. ومهما يكن الأمر فان المجزرة التى أودت بحياة ٢٠٠٠ ضحية أثناء جنازة (منكو) لازالت تعتبر أمرا غريبا غير عادى" .(٥)

وكان الجند الذين رافقوا جثة منكوخان الى مقرها الاخير فى جبال التاى قد قتلوا فعلا أثناء الجنازة ما لايقل عن ٢٠٠٠ شخص "(٥) .

وهكذا رأينا ظاهرة القتل العام التى يقوم بها فرسان الخان الميت والتى تشمل الادميين والحيوانات أيضا بغية اخفاء خبر موته أو اعتقادا فى صحبة أرواح القتلى والحيوانات له فى عالمه الجديد ! !

---

(١) تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٢

(٢) د. براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٦٧

(٣) هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٦

(٤) الكاتب الصينى.ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢٢٤

(٥) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٣

(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٢٥٣ نقلا عن دوسون، تاريخ المغول ، جـ ١ ص ٣٨٤.

طقوس الدفـــن :

كان للمغول طقوسهم الخاصة عندما تصل جنازة أحدهم الى القبر" فالمغول ينظرون الى الفرد منهم نظرة احترام وتقدير ويعتقدون أن حياته لن تنقطع بالموت ومن ثمه كانوا يضعون مع الميت فى قبره بعض وسائل الحياة التى يعتزبها أو يتصور أنها قد تعينه هنالك. " فكان جنكيز خان يحمل فى أسفاره تابوتا فوضعوه فيه وجعلوا الى جانبه فى تابوته الضخم سيفه ، ودرعه ، وخنجره ، وقوسه ، وكأس شرابه". (١)

ولا يقتصر الامر على ذلك فهناك التكفين فى أحسن زى ووضع الثروات والطعام والشراب مع الميت بل والخيول الحية أيضا . يقول جون. أ. هامرتن " وطقوس الدفن تختلف باختلاف مقام الميت وفى كل الاحوال يكفن الجثمان فى أبهى حلل صاحبه ويدفن معه ما يقدم اليه من جواهر مع مقادير من الطعام والشراب وغالبا ما تساق فرس مع مهرها وحصان مسرج ملجم لتشارك كلها سيدها فى مثواها فى حين يذبح القوم بظاهر القبر حصانا ثانيا يولمون لحمه للمشيعين. (٢)

وهناك أمر أكثر غرابة وقسوة من كل ما سبق فقد كان المغول يدفنون مع موتاهم من آن لاخر بعض القرابين الادمية". (٣)

فاذا قدرنا أن هذه القرابين البشرية كانت تدفن مع الميت اذا كان من علية القوم لخدمته ادركنا مدى قسوة هذه الطقوس وبشاعتها .

قتل العذروات :

تقليد غريب ينبع من نفس الفكرة الوثنية السابقة التى تقول بأن أرواح القتلى تصاحب الخان الراحل كى تؤنسه فى حياته الثانية..!!

وكانت هذه الوثنية المثيرة للنفوس حقا تظهر حين كان المغول يختارون الفتيات الحسناوات ثم يقومون بقتلهن وتقديمهن قربانا لروح الاباطرة .. فبعد وفاة جنكيز خان اختاروا أربعين فتاة عذراء (٤) كلهن بارعات فى الجمال ومن نسل الامراء والنبلاء ثم ألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الزينة ،وأثمن الجواهر ، وأركبوهن أجود أنواع الجياد ، ولكنهم قتلوهن فى النهاية كما قتلوا جيادهن معتقدين فى ذلك الاجراء ارضاء لروح جنكيزخان. (٥)

ولا يدرى المرء السر فى العدد (أربعين) الذى افتتن المغول به ، ففى الجانب الاخر كانوا يقدمون للخان الجديد أربعين فتاة عذراء للخدمة فى قصره وليختار منهن زوجات له ولمن يتبعه .

---

(١) الكاتب الصينى. ف. يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ٢٢٤

(٢) جون. أ . هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٢

(٣) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٨ ، د. مصطفى طه بدر.. محنة الاسلام الكبرى ص ٦٩

(٤) د. براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٦٧

(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٥٢

ويبدو ان الجمال والعذرية وشرف الاصل كلها شروط فيهذا القربان المربع وكذلك الثياب الفاخرة والزينة والجواهر والجياد كانت شروطا أخرى كى يرضى الخان الراحل وتهدأ روحه.

ويبدو أن هذا القربان الجماعى كان يجرى وفقا للتقاليد والعادات المرعية عند المغول فعند جلوس اوكتاى على العرش سنة ٦٢٦هـ - أى بعد وفاة جنكيز خان بعامين - نبح أربعين فتاة وكثيرا من الخيل على روح أبيه" (١) فسحقا لهذه الروح التى لاتستريح حتى بعد وفاة صاحبها الا بسفك دماء الرجال والفتيات الجميلات والحيوانات أيضا.

اخفاء المقابـــــر :

وعقب اجراء طقوس الجنازة والدفن كان المغول يلجأون الى اخفاء مكان المقابر وبخاصة مقابر الخانات الكبار. " فقد أخفى الفرسان الذين قادوا عربة جنكيز خان كل أثر لها كما أخفوا القبر الذى حفروه فى غابة من الاشجار ورفضوا ان يبوحوا بسر المكان ومن وقت لاخر وحتى اليوم يدعى الباحثون انهم قد عثروا على مقبرة جنكيزخان ولكن الحقيقة هى أنها لم يعثر عليها للان". (٢)

وعادة اخفاء مقابر الخانات والملوك عند المغول لم تكن تقتصر على حكامهم فقط بل شملت الملوك من أعدائهم أيضا ، يقول ابن الفوطى . وهومؤرخ معاصر الاحداث الغزو المغولى " والمغول فى دفنهم الخليفة المستعصم جروا على سننهم وتقاليدهم ، اذ دفنوه فى مكان مجهول وعفوا أثر قبره". (٣)

وهذا الرأى يخالف ما أورده ابن بطوطه اذ يقول :" ان قبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدى والهادى......الخ وكذلك قبر المستعصم وهو أخرهم وعليه دخل التتر (المغول) بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وذلك فى سنة٦٥٤" (٤).

ونحن نرجح رأى ابن الفوطى لاعتبارات عدة :

١ - أنه موءرخ معاصر لاحداث الغزو المغولى على بغداد على عكس ابن بطوطة الذى لم يكن معاصرا لها.

٢ - ان المستعصم لم يذبح كما زعم ابن بطوطة فالمغول لايريقون دماء الملوك الكبار - وهذا الذبح لم يقل به الا ابن بطوطة وحده .

٣ - ان دخول المغول بغداد كان سنة ٦٥٦ هـ وليس سنة٦٥٤ هـ كما قال ابن بطوطة.

اذن فالمغول قد تعودوا على اخفاء مقابرهم أو لنقل مقابر ملوكهم وظل هذا التقليد متبعا حتىعهد غازان كما يقول الدكتور الصياد " وفى شوال سنة ٧٠٣ هـ كانت وفاة

---

(١) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج٤ص ١٥٠

(٢) هارولد لامب: جنكير خان وجحافل المغول ص ١٤٦

(٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٢٧

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج١ ص ١٥١

غازان خان بالقرب من قزوين فنقلت جثته بمظاهر الاحترام والاجلال الى تبريز وأودع جثمانه فى مقبرته ولم يحدث فى دولة المغول ان كان لاحدهم قبر ظاهر قبل غازان خان". (١)

ولعل ذلك يدفعنا الى التفكير فى الكيفية التى كان المغول يقيمون قبورهم عليها والتى انتقلت من الشكل البدائى فى عهد جنكيز خان الى البناء المعمارى الكامل فى عهد غازان خان.

بناء المقابر :

درج سلاطين المغول وامراؤهم على أن يدفنوا موتاهم فى مواضع بعيدة عن العمران". (٢)

ويتحدث هارولد لامب عن اللحد الذى دفن فيه جنكيز خان فيقول " ولم يكن هناك ما يشبه المقبرة وانما كان قبرا حفر فى الثرى ونمت فوقه الأشجار" (٣). ولعله استنتج أن المغول كبدو لم تكن لديهم امكانية بناء المقابر تحت الأرض.

ويصف جون هامرتن الصورة التى يقام عليها القبر يقول" وكان القبر يقام فى مكان سرى حتى لاتصل اليه أيدى اللصوص فيسلبون ما به من كل ثمين وغال وكان القبر عادة يحفر فى بعض جوانب تل وكان كهفه عظيم الاتساع". (٤)

اذن فالقبر حفرة واسعة فى جانب احدى التلال وهى كافية لاستيعاب جثمان الميت وما يوضع معه من أشياء ، كذلك هو فى مكان يسهل اخفاؤه وطمسه حتى لايستولى عليه اللصوص وهذا القبر الذى كان حفرة محدودة مطمورة صار فيما بعد بناية ظاهرة فى عهد قوبيلاى (٦٥٨ – ٦٩٣هـ) الذى كان متشبعا بالحضارة الصينية الحد كبير اذ يبدو أن بناء المقابر الملكية فى عهده كان له اتجاه خاص. اذ كان الامبراطور يفرض حمايته على بعض المواقع فى أراضى أصحاب الاقطاعيات التابعين له يدفن فيها أعضاء الأسرة الملكية". (٥)

وهكذا كان قوبيلاى يحدد أماكن معينة فى كل اقطاعية تخصص كمدافن لأفراد البيت الحاكم. وهذا يشير الى انتقاله واضحة من بناء القبور المخبأة الى بناء المقابر الثابتة المحددة المعالم.

ويوضح جون. أ. هامرتن مدى اهتمام قوبيلاى بالصحة العامة فى بكين خاصة فيما يتعلق بقضية دفن الموتى. يقول" ووجهت فى بكين بعض العناية الى الحالة الصحية فى المدينة فى عهد(قوبيلاى) وهى تتضح على الأقل فى مشكلة دفن الموتى فكانت الجثث ما يحرق منها أو يدفن تحمل الى ما وراء حدود الضواحى الخارجية للمدينة". (٦)

---

(١) موءرخ المغول الكبير ص١٣٨ نقلا عن حمد الله المستوفى القزوينى، تاريخ كزيدة ص٥٩٥

(٢) د. فوءاد الصياد: المصدر السابق ص ٣٢٧.

(٣) جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٦

(٤) تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٢

(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٩

(٦) تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٨

ويبدو أن مدينة الصين قد أثرت فى قوبيلاى الى حد كبير جعلته لا يرى مبررا للتقيد بكل ما كان يفعله أسلافه الاقدمون فى منغوليا الذين كانوا يعمدون الى اخفاء قبور موتاهم.

وعلى الرغم من محاولات الاخفاء هذه والتى عمد اليها خانات المغول الأول الا أن بعض المؤرخين حاولوا - على الاقل - اكتشاف أهم المناطق التى دفن فيها حكام المغول المشهورون فجنكيز خان كان قد دفن فى منغوليا عند مصب نهر أوتون وكرولين (منازل قبيلة قيات) واختفى قبره فى ناحية من غابة تقع فى هذا المكان". (١)

أما الرأى الذى يقول بأن المغول عندما مات جنكيز خان جعلوه فى تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هناك (منغوليا) فليس بصحيح". (٢) لانه يخالف الحقيقة من جهة ولانه يخالف ما درج عليه المغول من اخفاء قبور خاناتهم.

أما جوجى بن جنكيزخان فيقول" بارتولد عن قبره (وكان أوردوا جوجى على المجرى الأعلى لنهر أرتيش وتقول المصادر القديمة انه مدفون هناك ، وان كان قبره قد ظهر فيما بعد فى مكان بعيد نحو الغرب وهو مدينة (صارى صو) الواقعة فى ملك شيبان بن جوجى". (٣)

ولم يوضح بارتولد الكيفية التى كان عليها قبر (جوجى) والأرجح انه كان مثل قبر أبيه الذى توفى بعده بستة أشهر فقط.

وعندما توفى اوكتاى بن جنكيزخان سنة ٦٣٩ هـ نقل جثمانه الى ضفاف أعالى نهر (ارتيش) حيث دفن بجبل (بولدوق قسر) الشاهق الذى تكلله الثلوج والذى يبعد مسيرة يومين عن هذا النهر (ارتيش)" (٤)

وفى سنة ٦٤٦ هـ دفن كيوك بن أوكتاى بمنطقة ايميل القريبة من جبال اكتاى (٥) وبالقرب من نفس المكان دفن الخاقان الاعظم منكو بن تولوى سنة ٦٥٧ فى جبال (التاى) عقب المذبحة الشهيرة التى أجريت فى أثناء جنازته.

أما هولاكو خان الشهير فان المؤرخين يذكرون صفة قبره ويحددون مكانه. يقول ابن أبى الفضائل" ولما هلك هولاكو بمرض الصرع وكان هلاكه ببلد مراغة نقل جثمانه الى قلعة (تلا) ودفن بها وبنوا عليه قبة" (٦)

ويقول رشيد الدين .. " لما مات هولاكو خان سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م أقيم له

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٨
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٨
(٣) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٣
(٤) د. بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧١
(٥) د. بارتولد: نفس المرجع السابق ص ٦٨١
(٦) مفضل ابن أبى الفضائل: النهج السديد ج ٢ ص ١٤٥، الذهبى العبر فى تاريخ من غبر ج ٥ ص ٢٧٩ ، الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٧٩

ضريح كبير على جبل (شاهو) المواجه "الدهخو اركان" وتمت مراسم العزاء فى معسكراته، ودفن فى تابوته فى تلك المقبرة". (١)

وأشار المؤرخين الى اقامة ضريح أو قبة فوق قبر هولاكو تعنى أن القبر كان ظاهرا واضح المعالم وتعنى أيضا أن المغول تأثروا بمن حولهم فى بناء المقابر الظاهرة للعيان، بعد أن كانت سرا من الاسرار، غير أن مقبرة غازان خان المسلم تعد بحق علامة مميزة من علامات العمارة الاسلامية فى ذلك الوقت ٧٠٣ هـ ولقد أشرت عند الحديث عن المنشآت الاجتماعية فى هذا الفصل الى ما الحق بها من مدارس وملاجئ ومستشفى للعلاج وأماكن عديدة لابواب الخير.

"وكان غازان قد أمر المهرة من المهندسين والعمال أن يقيموا فى شمالى غرب تبريز مقبرة له حتى تخلد ذكراه بعد وفاته وقد استمرت عمارة القبة وتوابعها خمس سنوات اذ كان الشروع فى بنائها عام ٦٩٧ هـ وتمت سنة ٧٠٢ هـ وقد تحدث المؤرخون عن عظمة تلك القبة ووصفوها بأنها كانت أعظم قبة بنيت حتى ذلك التاريخ". (٢)

ويبدو أن غازان قد تأثر بما كان عليه ملوك المسلمين قبله وبخاصة السلطان السلجوقى سنجر الذى كان قد ابتنى لنفسه مقبرة عظيمة فى مدينة (مرو).

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٤١

(٢) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير ص ١٢٦ نقلا عن حمد الله القزوينى نزهة القلوب ص ٧٦

الباب الثاني

النظام الاجتماعي والأسرة

الفصل الأول

حياة الاسرة فى المجتمع المغولـــــى

١ ـ الياسا وتنظيم الأسرة المغولية .

٢ ـ ظواهر اجتماعية (وأد الأطفال ـ التبنى ـ الفخر بالانساب ـ وراثـة الابن الاصغر) .

٣ ـ الطاعة فى الأســرة .

٤ ـ علاقات الأسر المغوليـة :

ـ التنافـــس

ـ الصداقة أوالتعاون

(التحالف الاخوى ـ الجوار ـ المصاهرة ـ صلة الرحم ـ تقديـم العزاء ـ مولد الصبى) .

٥ ـ المسكن المغولى :

ـ خيمة (اليورت) ـ مادة الصنع ـ التحميل على العربات ـ الشكـل الدائرى .

ـ تنظيم المسكن من الداخل

(الجدران ـ الاثاثات ـ الموقد ـ فراش النوم ـ المقاعد ـ التمائم)

ـ النظافة للمسكـــن .

ـ تطور المسكن المغولى .

٦ ـ الطعـــام :

ـ خطر الجوع ـ الياسا والطعام ـ خنق الحيوان وتحريم ذبحه .

ـ مجلس الطعـــام .

ـ تناول اللحوم (الدواب ـ لحوم الصيد ـ الميتة والدنس) .

ـ لحوم البشر ـ شرب الـــدم .

ـ حفظ اللحـــم .

ـ الالبان (حفظها ـ منتجاتها من الزبد والجبن والكوميس) .

٧ ـ المظهر العام للأفراد :

ـ السمت والهيئة ـ الثياب ـ تطور الزى المغولى ـ ملابس النســـاء الياسا وغسل الثياب ـ النظافة العامة .

اليasa وتنظيم الأسـرة :

كان المغول يعيشون فى بيئة بدوية بسيطة ، وكذلك كانت حياتهم بسيطة للغايـة وفطرية وكان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة". (١)

ولقد توارث المغول هذا كله عن الآباء والأجداد فلما جاء جنكيزخان عمل علـى تقنين كل ذلك فى قانونه الذى أسماه الياسا ، وهوعبارة عن مجموعة آداب وتقاليد كان المغول قبل عهد جنكيزخان يتبعونها فلما جاء جنكيزخان وضع قوانين محددة ربطبها علاقة الفـرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالمجموع وعلاقة المجموع بالملك ، وسميت هذه القوانين (ياسا) " (٢)

وبالطبع لم يكن جنكيزخان ليغفل عن الأسرة باعتبارها من أهم الخلايا فى كيـان المغول الاجتماعى على الاطلاق اذ هى النواة الاجتماعية وهى العائلة المغولية الواسعة التـى تشمل الأب وأبناءه وزوجاتهم فرعاية الاف الرؤوس وسقيها وحلبها تحتاج الى عدد كبير مـن الأشخاص ولهذا كلما كانت الأسرة أكبر زادت ثروتها من القطعان بينما اذا كانت الأسرة صغيرة تعين عليها أن تتخلى عن الفائض من القطعان". (٣)

فالزيادة العددية ضرورة ملحة والشباب فى الأسرة له مكانته ودوره الذى كان يتعـدى الاهتمام بالقطعان الى جوانب أخرى لا تقل أهمية عنه " اذ كان على شباب الاسرة أن يقوموا بصيد الأسماك من الجداول والأنهار التى يمرون بها وهم أيضا مكلفون بالتفتيش عن المراعـى الجديدة ومراقبة الطريق لاتخاذ حذرهم ازاء المغيرين". (٤)

فالشباب عماد الأسرة المغولية – وكل أسرة – اذ أنه يمثل القوة الحركية الفعالة التى تنهض بمسئولية تنفيذ كافة التكاليف وكذا مواجهة الخطر وتأمين حياة الأسرة كلها.

أطفال المغـــول :

حرص المغول على الاهتمام بأطفالهم حرصا كبيرا. لانهم عندما يكبرون سيصبحون سند الأسرة وعونها فى مواجهة الشدائد والمحن ، كما أنهم يكسبون أسرهم – بكثرة عددهم – مكانة متميزة بين عائلات العشيرة كلها ، ولربما كانوا السبب الرئيسى فى نيل

ولما كانت الطبيعة فى بلاد المغول قاسية لاترحم فقد كان عليهم أن ينشئوا أطفالهم على الخشونة والجلد وقوة الاحتمال ولهذا كانوا يخرجون مع الكبار فى حملات الصيد – كما سبق القول – فيدربونهم وهم فى الثالثة من أعمارهم تدريبا جيدا على رمى السهام والمطاردة والتخفى وأشياء كثيرة . فاذا ما اشتد عود الصبى بدأ تدريبه على فنون المصارعة وركوب الخيل والمبارزة.

وكان الصبيان يحاولون بشتى الطرق اظهار مهارتهم فى التجارب العملية ففى أيـام القحط كان الطفل منهم يصبر على الم الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا بل يحاول ما أمكـن أن يتظاهر بالمرح كأنه لايعانى شيئا". (٥)

كذلك كان المغول يختبرون نمو قوة أطفالهم فمع كل مرحلة سنية من مراحل النمـو

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٣
(٢) أ.د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج٧ ص ٧٣٨
(٣) د. جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٣
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٢٩
(٥) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦١

يعطى الصبى قوسا أكبر ويزداد حجم القوس مع زيادة القوة البدنية وهكذا الى أن يصل الى أكبر درجة ممكنة، ولعل أكبر دليل على ميزة هذه الطريقة ان قوس المحارب المغولى رغم قصر قامته – كان أكبر من قوس المحاربين الآخرين وكان فى العادة يحتاج لقوة رجلين حتى يمكن ثنيه٠

على أن هناك دليلا أهم من ذلك كله يدل على مدى اهتمام المغول بالاطفال من الناحية العقلية٠ اذ بعد أن اكتشف جنكيزخان مدى التحضر الذى يحيط به من قبل خصومه على حين يعانى هو وأتباعه من الأمية والجهل أمر بأن يتعلم أطفال المغول الخط الاويغورى (١) بل وحث المغول على ضرورة الاهتمام بهذا الأمر، ولهذا كان أحفاده على درجة من العلم تفوق ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم – مثل منكو ، قوبيلاى، وباتو، وبركة، تكودار، وغازان ٠٠٠ الخ ٠

هذا – وقد ارتبطت الأسرة المغولية بعدة ظواهر اجتماعية تستلفت النظر لأن معظمها يكاد يكون خاصا بالمغول يتميزون به على غيرهم من شعوب البدو٠٠ ومنها :

١ – انعدام وأد الأطفال :

عرفنا أن بعض القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية كانت تلجأ الى وأد البنات خاصة وأن البنت لاتنهض بعبء القتال وهى معرضة للوقوع فى الأسر بما يعرض شرف الأسرة والقبيلة للعار علاوة على ضعفها أحيانا عن القيام بأعباء الحياة الشاقة الأخرى كالرعى وكان الفقر يشكل عاملا حاسما فى قضية الوأد التى قد تمتد من قتل البنات الى الأولاد أيضا، ومن هنا جاء قوله تعالى :"ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا" (٢) وكذلك" ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم" (٣) فهل كان المغول يقتلون أولادهم ؟

يقول الدكتور جمال حمدان (٤) : ولا يعرف المغول وأد الأطفال الذى هو من الفقر الجغرافى وحتى الابن المتلاف يرحب به عند عودته" فالمغولى لا يقتل اطفاله خشية املاق ولايغلق فى وجه ابنه باب العودة اذا ما انحرف عن جادة الطريق، اذ أن كل فرد فى الأسرة مهما كان شأنه له عمل يؤديه فى خدمة الأسرة التى هى فى أمس الحاجة اليه ٠

٢ – ظاهرة التبنى :

بدهى أن التبنى يمثل مظهرا واضحا للتكافل الاجتماعى اذ أنه يعالج بعض نتائج قسوة البيئة أو الحروب المدمرة أوالفقر أو العجز وعلى هذا فهو أكبر من أن يكون مجرد انتفاع بما يقدمه المتبنى عندما يكبر من خدمة أو جهد للعائلة المغولية ٠يروى " ويضاف الى العائلة المغولية ابناء بالتبنى من الايتام والمخذولين والمفقودين وهؤلاء وان كانوا غرباء عن الكيان

---

(١) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٢٣٧ نقلا عن الجوينى٠٠ تاريخ جهانكشاى ج١ ص ١٧٠

(٢) سورة الاسراء – الاية رقم (٣١)

(٣) سورة الانعام – الاية رقم (١٥١)

(٤) انماط من البيئات ص ٦٣

المماليك كانوا يتمتعون بالحقوق نفسها التى يتمتع بها الاولاد الشرعيون ولكن عند وفاة الأب لاينالهم سوى نصيب قليل جدا لايقاس بماينالة الأبناء الشرعيون". (١)

ويلاحظ على هذا القول ما يلى:

(أ) أنه لم يحدد نوعية الاضافة أهى اختيارية يحددها أو يقبلها رب الأسرة أم أنها التزام يفرضه رئيس القبيلة على كل أسرة مغولية عقب الحروب أو المجاعات أوالكوارث الطبيعية. وأميل الى القول أن التبنى كان يتم باختيار الأسرة ورغبتها.

(ب) ان أولاد التبنى كانوا فى حالة اجتماعية سيئة أمس الحاجة فعلا الى أى صورة من صور الرعاية الاجتماعية.

(جـ) أن الحقوق التى لم يوضحها القول والتى كان يتساوى فيها الأبناء الشرعيون والأبناء بالتبنى كان يقصد بها حقوق التربية والطعام والملبس والمسكن فقط لاغير.

(د) أن الميراث الذى أشار اليه بروى كان عادلا الى درجة كبيرة. فلا يعقل أن يتساوى الابن الشرعى مع غيره فى ميراث الأب . خاصة فى مجتمع رعوى يهتم بالنسب اهتماما كبيرا.

٣ - ظاهرة الفخر بالأنساب :

ذكرت أن الأسرة المغولية كانت شديدة التمسك بابنائها ليس بدافع الحاجة اليهم فحسب وانما بدافع التفاخر بالقوة وزيادة الأعداد واتصال النسب والأبناء أنفسهم يعتزون بهذا النسب ويفتخرون به يقول الدكتور جمال حمدان (٢) " ولايخرج الابناء عن الأسرة حين يكبرون مما يجعل الوحدة دموية فيشتد الفخر بالأنساب وتحفظ الانساب بشغف واهتمام".

وعلى هذا فاهتمام المغول الشديد بمسألة النسب يؤكد حرصهم على صراحة علاقات الارتباط بين الرجل والمرأة عندهم . وينفى فى نفس الوقت ما تردد حول اباحتهم التى لاحدود لها حتى قال عنهم أحد المؤرخين " ولايعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف أباه" (٣). كما أن الياسا لم تغفل الحديث عن الزواج والزوجة وواجبات الطاعة .. الخ مما يؤكد اعتزاز المغولى بنسبه كبدوى وكراع.

٤ - وراثة الابن الأصغر :

يكاد يجمع معظم المؤرخين على أهمية مكانة الابن الاصغر بالنسبة لقضية الوراثة فى الأسرة المغولية يقول ابن العبرى (٤) : ومن عادة المغول أن الابن الأصغر لايقتسم ولا يخرج من بيت أبيه . واذا مات الأب فهو يتولى تدبير شئون المنزل".

وهذا القول يشير الى أن الابن الأصغر لايدخل فى ضمن قسمة الميراث كذلك لايخرج من بيت أبيه لزواج أو خلافه وهو الذى يتولى تدبير شئون البيت عقب وفاة أبيه.

ولم يوضح لنا ابن السبب فى عدم اشتراك الابن الاصغر فى الميراث لكن بارتولد (٥) يوضح الامر بعض الشيئ فيقول " وقد اتبعت قاعدة من قواعد القانون المغولى بمقتضاها يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لابنائه الكبار بحسب سنهم ويترك الجزء الاهم

---

(١) د. ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ،جـ ٣ ص ٣٦٠
(٢) أنماط من البيئات ص ٦٣
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ١٣٨
(٤) تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٨
(٥) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٦٥

لأصغر أبنائه" . فالقانون المغولى لايغفل حق الأبناء الكبار فى الميراث بل ويراعى سنهم أيضا غير أنه يضع فى الاعتبار الابن الأصغر فيمنحه الجزء الأكبر من الميراث يقول الدكتور جمال حمدان (١) " وفى الأسرات الغنية بالقطعان قد يمنح الأب أبناءه الكبار عند زواجهم جزءا منها ويخصص لهم مراعى شتوية جديدة يستقلون بها ولكن الابن الأصغر يظل دائما مع أبيه ليرثه حين يموت وهذا هو نظام وراثة الابن الاصغر".

غير أن الدكتور ادوار بروى يجعل هذه الوراثة للابن الثانى لا الاصغر يقول : "الابن الثانى وحده - حتى بعد زواجه - يبقى فى خباء أبيه لانه هوالذى يصبح بعد وفاة أبيه حارس الدار ويرث خباءه والادوات والمراعى العائدة له، ويتقاسم الاخرون ما تبقى من الاملاك ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى الارتباط بالتكتل". (٢)

ويبدو أن المقصود بالحقوق التى يحصل عليها الابن البكر بعد وفاة أبيه هى أن يخلفه فى زعامة الأسرة والسيطرة عليها ،لكن تحديد الابن الثانى بوارثه كل شئ ليس صحيحا على الأرجح.

ويظهر أن تخصيص الابن الاصغر بهذه الميزة فى الميراث يرجع الى "أنه يكبر ببطء ولا يتعجل موت أبيه" كما يقول أحد المؤرخين الصينيين (٣) ويعكس هذا أن أحد الابناء الكبار قد يطمع فى الثروة اوا لمكانة فيترقب وفاة الاب او يحاول التعجيل بها.

الطاعة فى الأسرة المغولية

كان المجتمع المغولى كما ذكرت مجتمعا رعويا قبليا بالدرجة الأولى ،والنظام القبلى كما نعلم له مستويات عدة فهو يتدرج من مستوى القبيلة الى العشائر فالبطون فالافخاذ ثم الى الأسرة باعتبارها النواة الأولى التى يتباين تعداد من أسرة الى أخرى.

والقبيلة المغولية كثيرا ما كانت تعانى المتاعب فى مواجهة الطبيعة القاسية التى تدفعها دوما الى الترحال وراء المرعى أو الماء أو فى مواجهة الأعداء الذين يتربصون بها طامعين فى انتهاب ما لديها من قطعان أو متاع .

ومن هنا فان الخطر الدائم حتم ضرورة الترابط الكامل داخل القبيلة الواحدة على كافة مستوياتها والأسرة باعتبارها النموذج الأمثل المصغركان عليها أن تكون مترابطة دائما الى درجة كبيرة وملحة. وهذا الترابط كان يتحقق عادة بوجود سلطة عليا مسيطرة داخل الأسرة مستحقة للطاعة التامة من بقية أفراد الأسرة ، ولقد صرح جنكيز خان فى ألياسا بأنه يغضب اذا علم بولد لا يطيع أبويه أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الأكبر أو بمخالفة المرأة لزوجها" (٤) فانعدام الطاعة داخل اطار الأسرة يغضب جنكيزخان لانه يكره العصيان أو التمرد أيا كانت الدوافع أو الاسباب لان ذلك يهدد بتبديد الطاقة واهدار قوة الجماعة واضعاف شأنها.

---

(١) أنماط من البيئات ص ١٦٤

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٥

(٣) الكاتب الصينى .ف .يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٠٢

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠

وغضب الخان لايتوقف عند مجرد التهديد وانما يمتد الى العقاب المباشر. فقد كان يعاقب بشدة كل من لم يسمع كلام أبيه من الاولاد والاخ الاكبر من بين باقى الاخوة والزوجة من زوجها" (١)

وهكذا رأينا أن الطاعة الأسرية واجب حتمى والتزام لا مناص منه فهو أسلوب وقاية للاسرة يحول دون تفككها ، وهذه الطاعة كما رأينا كانت تدور حول علاقات عدة :

أ - طاعة الأبناء لأبيهم .
ب - طاعة الأخوة لاخيهم الأكبر.
جـ - طاعة الزوجة لزوجها.

طاعة الأب :

سلطة الأب فى الأسرة المغولية قوية حاسمة ودكتاتورية غالبا حيث لامجال لأخذ الرأى أو تبادل المشورة فمتطلبات الحياة بسيطة واضحة تحتاج الى سرعة فى التلبية وكفاءة فى التنفيذ ولا متسع هنالك لنقاش أواعتراض. وعلى سبيل المثال لم يكن تيموجين ليجروء على معارضة أبيه اذا ما اتخذ قرارا ما". (٢)

وسيطرة الأب على الأمور فى أسرته كاملة مستمدة من عادات وتقاليد متوارثة ومستندة أيضا الى ما يتمتع به هذا الأب القوى من مواصفات شاملة تؤهله لقيادة اسرته، فالأب هو المسيطر فى الأسرة المغولية ويملك معظم القطيع وينظم التحركات والانتقالات بل هو الحاكم والقاضى والمعلم". (٣)

وأمام المسئولية الكبيرة الملقاة على عاتق الأب كان موقف الأبناء ايجابيا فقد كان عليهم ان يخضعوا تماما للآباء" (٤). وجدير بالذكر أن هذه العلاقة أو ما يناظرها من علاقات الطاعة فى المجتمع المغولى كانت تجرى على التلقائية والتعود غير أن هذا لايمنع من حدوث حالات فردية تخرج عن هذا الاطار. فتولوى بن جنكيز خان لم يكن قد خالف والده الا مرة واحدة ثم لم يعد الى ذلك بتاتا". (٥)

وكيف يعود وجنكيز خان حريص كل الحرص على التزام الجميع بالطاعة التامة فى أسرته وفى أسرة غيره ، فقد حدث أن عاتب جنكيز خان صهره (منليك) والد (بورتاى) زوجته الأولى قائلا" انك لم تعلم أولادك الطاعة بالرغم من افتقارهم اليها". (٦)

على أن الطاعة الكبرى التى ناء بها ظهر جنكيز خان كانت عصيان ابنه الأكبر جوجى عندما امتنع عن حضور (القوريلتاى) الذى عقده جنكيز خان وتعلل بالمرض ولم يكن مريضا ، فاستحق الموت عقابا على عدم التزامه بالطاعة. (٧)

---

(١) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ١٣٢
(٢) د. هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١
(٣) د. جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٣
(٤) د. رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٤
(٥) د. هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١٤
(٦) د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٣٥
(٧) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول صـ ١٣٨

فقد كان جنكيز خان يرى أن أى مخالفة له أو للياسا لابد أن تقابل بعقاب صارم يردع الاخرين ويعيدهم الى جادة الصواب.

طاعة الابن الأكبر :

ينوب الابن الاكبر عن أبيه فى الاسرة المغولية وبخاصة عند غياب هذا الأب عن النهوض بمسئولياته لسبب أولاخر ، وطاعته ملزمة لمن هم دونه سنا من الأخوة الصغار فهو الاكثر تجربة وحنكة يقول د. رالف لنتون (١) " وكان الأخوة الصغار يخضعون للاكبر سنا من اخوانهم".

وهذا الترتيب – بلا شك – قد أوجد ميزة يتفوق بها الابن الاكبر على اخوانه الصغار فاستحق الطاعة منهم وبالتالى أصبح مرشحا لنيل مكانة الأب فى الاسرة بعد وفاته. ولقد كان تيموجين بوصفه أكبر الابناء يلزم اخوانه – بعد وفاة أبيه – بضرورة طاعته وعدم مخالفته وفى أواخر أيامه هو حض أبناءه على التزام الطاعة لاخيهم الذى سيتولى أمرهم من بعده ، فقد أخبرهم جنكيز خان بما ينوى أن يفعله بعد وفاته فقال" سأعطى كل واحد منكم أمة ليحكمها ، ولكن واحدا منكم يجب أن تكون له السيادة على الثلاثة الاخرين ،وعليهم طاعته كما تطيعونى أنتم الان". (٢)

طاعة الزوج :

الزوج رب أسرته ولاشك وزوجته ملزمةبطاعته وخروجها عن هذه الطاعة يستجلب غضب الخان ويستوجب عقابها – كما أشرت منذ قليل – لان موقفها هذا يضعف من كيان زوجها وأسرتها التى تكون مهددة بالتفكك والانهيار.. ولذا كان جنكيز خان حريصا على تدعيم استقرار الاسرة المغولية" بحض الازواج ضرورة السيطرة المطلقة على مقدرات أسرهم. (٣)

علاقات الاسر :

لم يكن بوسع الاسرة المغولية . شأن أى أسرة أخرى – أن تعيش بمعزل عن بقية الأسر الأخرى المحيطة بها.

وبدهى أن أى علاقة بين طرفين لابد أن تحمل أحد اتجاهين : صداقة وتعاون أو صراع وتنافس. وكلا الأمرين قد يحدث تلو الآخر نتيجة لتغير الظروف أو الأوضاع خصوصا فى بيئة التغير السريع (الاستبس) .

أولا: علاقات التنافس :

مما لاشك فيه أن كلعائلة مغولية كانت تسعى لكى تنال شرف السيادة على من جاورها من الأسر الأخرى التى تنازعها نفس الاتجاه غير أن هذه العائلة كان لابد لها أن تتماسك فيما بينها أولا وحتى لا تتعرض لخطر انحدار مكانتها الاقتصادية والاجتماعية بين الأسر الاخرى وعلى هذا فقد كان من مقومات سلطة الأب المطلقة قدرته على تحقيق التماسك التام والنظام الصارم فى العائلة كجبهة بازاء العائلات الاخرى فى منافسات المرعى والمنزل الشتوى والا العائلة اقتصاديا اجتماعيا" (٤) واضطرت الى الاعتماد على غيرها. بالتالى

---

(١) شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٤
(٢) د. هارولدلامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٢٥
(٣) د.رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٤
(٤) د. جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٣

أصبحت فى مكانة أقل من غيرها.

والمقصود بالمنزل مكان الاقامة الذى تنزل الاسرة فيه والذى يكون موضع صـــراع وتنافس خاصة فى فصل الشتاء.

وقد يشتد الصراع والتنافس بين العائلات حتى يرقى الى مستوى الصراع بين العشائر فقد كانوا يمارعون بعضهم للسيطرة على فى فصول الشدة والجفاف وكانوا يعتبـــرون أنفسهم مسئولين عما يفعله أى واحد منهم فى تلك المنازعات.(١) وهذا ما يمكن أن نسميـه بالعصبية القبلية التى هى احدى سمات حياة الرعاة فى أى مكان والتى كان يرتب عليـه كثيرا سداد الدية او النهوض للحرب اوالاعتزاز بالانتماء الى نسب معين من جهة الاب.. الخ

غاية الأمر ، أن التنافس بين العائلات كان أحد علامات العلاقات فيما بينها وكانت دوافعه تكمن فى طلب السيادة أوالصراع حول المرعى او التعصب القبلى.

ثانيا : علاقات الصداقة أو التعاون :

وتكاد تكون هذه العلاقات هى الغالبة على طبيعة الاتصال بين العائلات المغوليـة التى كانت فى حاجة ماسة الى الترابط والانضواء تحت مظلة النظام القبلى وحتى تتفرغ لمواجهة الاخطار الخارجية. ولقد كان لهذا النوع من العلاقات نماذج عدة منها :

(أ) التحالف الأخـوى :

وكثيرا ما كان يحدث هذا النوع الغريب بين عائلتين تنتمى كل منهما الى قبيلـــة مختلفة ويتم ذلك عادة بعد حلف اليمين فى حفل عام تتبادل فيه الهدايا وتقام فيه وليمـــة كبرى ثم يتبادل الرئيسان نخب الصداقة والتعاون الايجابى بينهما ويصبح كلاهما ملزما بمعاونة الاخر فى شتى الظروف يقول بروى (٢) "وقد تقوم عن طريق حلف اليمين بعض(الاخـوات) خارج نطاق العائلة فقد يحدث أن يعقد رجلان ينتسبان الى تكتلات(عشائر) مختلفة اتفاق صداقة يوطده بالضرورة تبادل الهدايا ويحتفل به بوليمة ورقصات طقسية، وبعد أن يصبحـا أخوين محلفين يلزمان بتبادل المساعدة فى شتى الظروف".

ولعل هذا النظام هو ما اتبعه(بيسوكاى بهادر) والد جنكيزخان عندما تعاهد مـع خان الكرايت على التعاون فى درء الخطر. ذلك التعاون الذى أفاد منه جنكيزخان فيما بعـــد باسترداد زوجته من قبضة الميركيت وأن كان هذا التحالف قد تم على مستوى أكبر وهو المستـوى القبلى مما يعطى انطباعا أن هذا التحالف كان يمكن أن يتم على كل المستويات.

(ب) الجـــوار :

علاقة الجوار علاقة قوية الدعائم - بلا شك - فهى تعتمد على التعود اليومـــى والاشتراك فى مواجهة الخطر الواحد وهى بالتالى علاقة تقوم على المساندة الفعالة والمشاركـة الوجدانية .

وفى بيئة قاسية كبيئة المغول فان علاقة الجوار تبدو فى غاية الأهمية وليـــس أدل على مدى قوة هذه العلاقة من أن جنكيزخان فى الياسا ، جعل الجار مسئولا عما يفعلـــه

---

(١) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٥

(٢) تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٦

جاره فقد ورد فى الياسا مطالبة الجار بالجار". (١)

(ج) المصاهــرة:

وهى واحدة من أبرز العلاقات الاجتماعية التى كانت تدعم الصلات بين الأسر المغولية بل هى أقوى دعائم التحالف بين العشائر وايضا المجتمع البدوى فى أى مكان يهتم بقضية النسب ويراها رابطة قوية قادرة على ازالة الكثير من أسباب الخلاف وتدعيم الصلات يقول بروى (٢) وقد يحدث أن يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات ويكــون اذ ذاك تكملة مفيدة للتحالف بين التكتلات فى المجتمع المغولى" والمقصود بالتكتلات هنا العشائر التى تنضوى تحت لواء القبيلة الأم التى يسعى الجميع الى تدعيم الروابط بين أبنائها.

(د) صلة الرحــم:

وهو مصطلح اسلامى صرف استعرته للتعبير عن نوعية مميزة من العلاقة الاسرية فى المجتمع المغولى ،وأقصد مدى ارتباط الابن بأمه فى هذه الأسرة. ذلك الارتباط الــذى كثيرا ما يتعرض للانفصام ، كأن تتزوج الام برجل آخر غير والد الابن، أوتؤول ميراثا الــى أحد أبناء زوجها الراحل - كماهى عادة المغول - أو أن يكون ابنها أسرة أخرى جديــدة خاصة به. غير أن الصلة بينهما تظل قائمة لا تتقطع مطلقا اذ كانت هذه الصلة القوية التى تربط الابن بأمه صلة وثيقة بصفة خاصة تستمر مدى الحياة" (٣) وبالطبع فان هذه الصلــة وما يترتب عليها لا تظل صلة فردية فى العادة اذ سرعان ما تتحول فى معظم الحالات الــى رابطة تصل ما بين عائلتين أو أكثر.

(هـ) تقديم فروض العزاء :

وذاك يعد مظهرا من مظاهر الترابط الاجتماعى بين الأسر المغولية لأنه يحمــل طابع المشاركة الوجدانية فى الضراء حيث تحتاج الأسرة الى من يخفف أحزانها ويواسيهــا، "فلما توفى الخان الاعظم كيوك سنة ٦٤٦هـ ارسلت الأمير سورقوينى زوجه كولوى بــن جنكيزخان وهى أكبر الخواتين يومئذ الى زوجة الخان الراحل (قول‌قاميش) رسولا تعزيهــا وحمل اليها ثيابا وأشياء أخرى" (٤) وكذلك فعل (باتو) زعيم القبيلة الذهبية (٥) "

(و) مولد الصبــى:*

اعتاد المغول أن يحتفلوا بميلاد الصبى عقب ولادته مباشرة وهو احتفال لايتكــرر مرة ثانية غير أنه مظهر يعكس مدى حب المغول للمولود الذكر وكذا فهو فرصة للمشاركــة

---

(١) القرمانى: اخبار الدول وأثار الأول ص ٢٨٥
(٢) تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٥
(٣) د.رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤
(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ١٤٢
(٥) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الغزو العربى الى الفتح المغولى ص ٦٨١

* كان من عادة المغول تسمية المولود باسم اول داخل على البيت عند ولادته وعنــد ولادة غازان خان - وقازان هو القدر فى لغة المغول دخلت الجارية ومعها القــدر فسمى بهذا الاسم نسبة الى القدر الذى حملته الجارية . انظر ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٨

الوحدانية بين الاسر ، حيث يقام احتفال كبير تقدم فيه الهدايا المختلفة . يقول الدكتور ادوار بروى (١) : "وولادة الصبى حدث سار جدا يسبغون فيه عليه بعض الهدايا : دثار، وفراش من جلد السنانير، وقمط مبطنة بالفرو".

فاذا قدرنا أن العائلات كانت كبيرة جدا والتكاثر عند المغول يلاقى تشجيعا كبيرا ادركنا بالتالى كثرة المواليد وبالتالى كثرة الاحتفالات وزيادة الصلة بين الأسر المغولية.

هذا .. وقبل أن ننتقل للحديث عن المسكن أو الطعام أوا لمظهر العام لدى المغول نود أن نتذكر قول جنكيز خان" ان من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من ادارة المملكة" (٢).

وهذاقول لايقصد به مجرد ظاهره، وانما يعنى به جنكيزخان أن ادارة البيت أى الأسرة فن وخبرة وان رب الاسرة الذى يتولى تدبير شئونها انما هو ملك متوج عليها وعليه أن يحسن رعاية مملكته حتى لاتتعرض للخطر فتضيع ويضيع هومعها.

فلا غرو اذن أن يظل الخانات المغول مولين اهتماما كبيرا بالأسرة المغولية، "فقد اهتم غازان بالأسرة اهتماما عظيما واتخذ لتدعيمها وسائل اقتصادية ترمى الى زيادة دخلها ورفع المستوى الاجتماعى لافرادها ولم ينس فى الوقت نفسه – متأثرا باسلامه – العمل على تلافى تفكك الأسرة" (٣).

سنحاول فى السطور القادمة أن نستعرض أهم ما يرتبط بتكوين المسكن المغولى وطريقة تناول الطعام وأهم اعتبارات النظافة والملبس لدى المغول.

المسكن المغولى

أشرت سلفا الى أن المغول كانوا فى معظمهم رعاة وكان منهم صيادوا الغابات ولهذا كان البيت المغولى يختلف وفقا لنوعية السكان وطبيعة حرفتهم والبيئة التى يحلون فيها، فالبدو فى مناطق السهوب كانوايسكنون الخيام المصنوعة من اللباد أوالصوف (٤) لأنها سريعة الطى خفيفة الحمل تناسب كثرة الحل والترحال.

ومسكن الرعاة بهذه الصورة يرتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة الطبيعية اذ اللباد – وهو من نتاج البيئة – يعتبر عازلا جيدا يحول دون حرارة الصيف وبرودة الشتاء ولهذا ينبغى ان يكون كثيفا. وبالاضافة الى اللباد أوالصوف كان بناء الخيمة يعتمد على بعض أحراش الاستبس" (٥).

أما الصيادون أو القبائل التى تسكن على مقربة من الغابات فكانت مساكنهم تختلف عن مساكن البدو الرحل فقد كان هؤلاء يصنعون اكواخهم من الخشب وفروع الاشجار" (٦)

---

(١) تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٥
(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ١٣٢
(٣) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٤
(٤) أ.هـ.ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص ٢٣٦
(٥) د. جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٢
(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣١

ويغطونها فى الغالب بقشور شجر يعرف بالبتولا " (١) .

وفى المناطق الجبلية شديدة البرودة كان لابد من وجود مسكن أقوى وأكثر دفئا ولهذا ظهرت بيوت كانت تصنع من الحجارة أو من طينة التربة العشبية ٠٠ وتكون حوائط هذه البيوت قوية كما لو كان البناء مغروسا فى الارض غرسا ولا يظهر الشكل الدائرى فى تصميم هذه البيوت التى عادة ما تكون مستطيلة" ٠ (٢)

وهكذا تنوعت مساكن المغول بين الخيام والاكواخ والبيوت الحجرية غير أن الخيام المصنوعة من اللباد كانت أكثر انتشارا وشيوعا وكانت تعرف باسم"اليورت" أى الخيمة فى لغة المغول ٠

التحميل على العربات:

استخدام العربات فى آسيا الوسطى أمر عرف عن الرعاة فيها منذ القدم فقد استعمل الهكسوس العجلات الحربية فى الهجوم على سوريا ومصر وعنهم أخذتها نظم الحرب العسكرية القديمة وطورتها ٠

أما المغول وهم رعاة كالهكسوس فكانوا يستخدمون العربات كوسيلة مواصلات على الطرق المستوية كما كانوا يضعونها جميعها فى شكل دائرى فيؤلفون منها معسكرا كبيرا توضع فى داخله حيواناتهم وأدواتهم وتحتمى به نساؤهم وأطفالهم عند الهجوم المباغت من قبل الاعداء وخاصة فى المناطق المكشوفة فى أحراش الاستبس٠

وطبيعى أن تكون هذه العربات قوية جدا وفى نفس الوقت سهلة الفك والتركيب حتى لاتكون عقبة عند الانتقال عبر الطرق الوعرة اوالمضايق الجبلية ٠ وبالاضافة الى ذلك كان على المغول أن يحموا خيامهم فوق هذه العربات " (٣) سواء أكانت هذه الخيام مطوية أم مبسوطة ٠

ويشير الدكتور رالف لنتون (٤) الى استخدام العربات كمنصات دائمة تقام عليها الخيام يقول " وكانوا يستخدمون المنازل التى تقام على عربات حيثما تكون الأرض مستوية استواء كافيا والمنازل المقامة على هذه العجلات ليست الا (اليورت) ولكنها مقامة بصفة دائمة فوق منصات يبلغ عرضها أحيانا عشرين قدما ويجرها زوج من الثيران " ٠

ويظهر من هذا الوصف أن هذه العربات كانت كبيرة الحجم تفوق فى ضخامتها العربات التى استخدمها رعاة البقر الامريكيون فاذا كان عرضها سبعة أمتار فكم يكون طولها وهل يكفى زوج من الثيران لجرها ؟!

ويعطينا الراهب وليم روبرك الذى زار بلاد المغول فى عهد منكوقا آن وصفا مقاربا لهذا فيقول " وأما بيوتهم (اليورت) التى يبلغ قطر بعضها ثلاثين قدما وتنقل على عربات ومرة قست المسافة بين عجلتى عربة فوجدتها عشرين قدما " ٠ (٥)

---

(١) د٠ ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٢
(٢) د٠جمال حمدان: انماط من البيئات ص ٦٣
(٣) ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٦٦
(٤) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٠، ١٧١
(٥) د٠هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥١

أما هوارث فيوضح أن خيام المغول كانت تختلف فيما بينها فى الحجم فبعضها كان عبارة عن خيمة كبيرة تجرها عربات عند نقلها وبعلق فى الواحد اثنان وعشرون يكفى ثور واحد لنقلها أو تنقل أو على قول الرحالة كاربينى ظهور الجمال . (١)

وهذا الرأى الأخير أقرب الى الواقع من حيث التصنيف بين الخيام الكبيرة والصغيرة لكن اجتماع اثنين وعشرين ثورا فى عملية الجر لايزال أمرا عجيبا يلفت الانتباه !

وبصفة عامة لم يكن الرعاة وحدهم هم الذين ينقلون خيامهم على العربات فالصيادون أيضا كانوا ينقلون أكواخهم جاهزة على العربات". (٢)

وهكذا رأينا كيف استخدم المغول العربات فى تحريك خيامهم وأكواخهم وكيف استفادوا بالابل والثيران فى نقلها من مكان لآخر عبر الطرق الوعرة والمسالك الضيقة غير أن المبالغة فى تقدير أحجام العربات الكبيرة تبدو واضحة .. اذ من أين يحصل المغول على الأخشاب اللازمة لصناعة كل هذه العربات الضخمة خصوصا وأن أحد المؤرخين يقول "ان فناء أى مغولى ثرى كان يضم مائتين أو ثلاثمائة عربة من هذه العربات". (٣)

وأكاد أميل الى القول أنها كانت أصغر حجما من هذه الأوصاف التى ذكرها المؤرخون .. اذ من الواضح أنهم يبالغوا فى تحديد طولها وعرضها والمسافة بين عجلاتها .. فأين تلك الطرق الممهدة التى يمكن أن تناسب حركة هذه الابراج الضخمة والتى كانت ستصبح حتما هدفا سهلا للاعداء. غير أن المرء يظل فى النهاية مقدرا للكيفية التى كان المغول يحاولون معها احداث التوافق مع هذه البيئة الصعبة التى عاشوا فيها.

الشكل العام :

لعل أخطر ما كان يواجه المسكن المغولى هو الرياح الشديدة الهوجاء التى لاتكاد تنقطع فى منطقة السهوب ومن ثمه اختار المغول الشكل العام الدائرى الخالى من الزوايا البارزة اطارا لمسكنهم لأن ذلك يضمن عدم اقتلاع الرياح للمسكن فهى لاتملك الا الدوران حوله وتجاوزه . ولهذا كان يراعى فيها أن تكون على شكل القباب متينة محكمة بحيث تقاوم اعتى الرياح وتثبت لأشد الأعاصير". (٤)

وعلى سبيل المثال كان (تيموجين) ينام فى خيمة مستديرة من قماش خشن من الوبر بسط على هيكل من الأعمدة المربوطة بالحبال وغطيت من الخارج بطبقة من الجير (٥) وهذا الجير الأبيض يعطى اشارة الى أنها خيمة الزعامة التى كانت تمتاز على غيرها باللون الأبيض أوالذهبى.

وبينما كانت بيوت البدو من غير المغول وبخاصة جيرانهم الترك مدببة من أعلاها كانت سقوف بيوت المغول على شكل نصف دائرة فكانت تشبه اناءً مقلوبا قائما على حوائط دائرية على صوف مثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات". (٦)

---

(١) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص٥٤، نقلا عن هوارث. تاريخ المغول ص ٥٠

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٢

(٣) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١١٥

(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣١

(٥) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص١٩

(٦) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص٥٣، عن هوارث. تاريخ المغول ص ٥٥

ويوضح الدكتور جمال حمدان (١) تكوين المغولى بشكل عام يقول "وتتكـــون الخيمة من جزئين : حائط رأسى وسطح قبابى، فأما الحائط الرأسى فتكعيبية شبكية قابلة للفتح والقفل لانها مصنوعة كهيكل دائرى بربط بسيور جلدية وأما السطح القبابى فيتكون هيكله مـن أعواد تخرج من قاعدة دائرية مقوسة الى أعلى نحو دائرة صغيرة فى مركزالدائرة فهـــذه الاعواد هى بمثابة ضلوع المظلة ، ويستقر هيكل السقف علىهيكل الحائط ويغطى الكـــل باللباد وأحيانا يمكن استخدام السطح القبابى فقط كمنزل فى فترات الحركة السريعة وذلـــك باقامته على الأرض مباشرة بدون الحائط التكعيبى.

<u>تنظيم المسكن من الداخـــل</u> :

كان المغول على درجة عالية من التكيف مع بيئة السهوب القاسية التى نشأوا فيهـــا ولهذا فخيامهم دائرية التصميم فى مواجهة الرياح العاتية ، وبوجه بابها الى الجنوب أى يعطـى المسكن ظهره لمصدر الرياح الشمالية السائدة" (٢) حتى لاتدخل الرياح الخيمة فتكون سببا فـى اقتلاعها من جذورها .

وبالطبع لم يكن الباب هو الوحيد فى الخيمة اذ ثمة منافذ أخرى فى أعلـى سقف الخيمة حيث توجد فتحة يتصاعد منها الدخان وتفيد فى تجديد الهواء" (٣) وكان علـى هيئة أنبوب صغير يثبت فى اللبد" (٤) .

وبالاضافة الى فتحة التهوية وتصريف الدخان كانت هناك فتحة أخرى للضوء ودخـول الشمس (٥) وعادة ما كانت هذه الفتحة فى أعلى الخيمة فى اتجاه الشرق.

ويحدد الدكتور جمال حمدان (٦) مادة صنع هذه الفتحات التى يمكن اغلاقها عنـــد الحاجة يقول" ويتغلب على مشكلة الضوء بنوافذ منمعدة الحيوان" .

<u>الجـــــدران</u> :

كان الحائط الرأسى فى الخيمة المغولية ـ كما سبق القول ـ مصمما على الشكـل التكعيبى أى أن عدد الحوائط كان ستة: خصص واحد منها للباب واستغلت الجـــــدران الخمسة الباقية فى أغراض أخرى منها :

أ ـ تعليق الأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الالبان ومستخرجاتها. (٧)
ب ـ تعليق المنافخ وقرب الماء الفارغة وقرب خض الألبان .
جـ ـ تعليق الاسلحة كالسيوف والسهام والقسى والجعاب.

---

(١) أنماط من البيئات ،ص ٦٢
(٢) د. جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٢
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣١
(٤) د. ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٢
(٥) د.هارولدلامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٩
(٦) أنماط من البيئات ص ٦٣
(٧) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلامالكبرى ص ٥٤

وبالاضافة الى ما سبق" كانت الرسوم تغطى قماش الخيمة من الداخل "(١) وأغلب الظن أن هذه الرسوم – وهى بدائية ساذجة – كان يقوم بها بعض الأسرة أنفسهم وأنها كانت وسيلة للتزيين أو للتعبير عما فى النفس وليس أكثر.

الأثاث :

كان الأثاث المغولى بسيطا مثل بساطة حياة المغول كما كان خفيفا يوائم خفة حركتهم فى التنقل من مكان الى آخر، وكانت الصناديق المختلفة وسيلتهم لحفظ حاجاتهم ووسائل معيشتهم" وهى عبارة عن المؤن وبعض الأدوات البدائية كالأوعية الخشبية، والقدور.(٢)

وبالاضافة الى ذلك الملابس وكل ما يخافون عليه العطب وهذه الصناديق مصنوعة من نسيج متين مغطى بالصوف ومطلى بشحم الحيوانات حتى لاينفذ منه الماء اذا ما نزل المطر أواضطروا الى عبور الأنهار".(٣)

واذا ما كانت هناك أشياء ثمينة كالذهب أو الفضة وغيرهما. فالصناديق تكون خشبية لتكون أكثر أمنا وضمانا لسلامة ما فيها . يقول الدكتور رالف لنتون (٤)" أما الأثاث الداخلى فيتكون من صناديق خشبية لحفظ الأشياء الثمينة".

الموقد :

كان من الطبيعى أن يبحث المغول عن مصدر للدفء داخل الخيام خاصة وأن البرد القارص يوشك ان يكون السمة الغالبة على الطقس فى منطقة السهوب ولهذا كانت كل خيمة تحتوى فى داخلها على موقد حجرى تحترق فيه الأخشاب او أغصان الشجر وكل ما هو قابل للاشتعال وكان على النسوة أن يوقدن النار(٥) كما كان على البنات بالاضافة الى رعاية (اليورت) متابعة النار(٦) لتظل دائمة الاشتعال فى وسط البيت المغولى(٧) وبحيث لاتمتد فتحرق أثاث الخيمة أو تنطفئ فيضيع الدفء ويتبدد.

ومن المؤكد أن المغول – وقد اتصلوا بالصينيين سلما وحربا – قد عرفوا أوتعلموا اعداد الشاى على نيران الموقد الحجرى فلقد كان الشاى الصينى منتشرا فى هذه الاوقات على صورة أوراق جافة فى الماء.

وبالاضافة الى ذلك كان الموقد الوسيلة المثلى لانضاج الطعام الذى هو العادة عبارة عن لحم مسلوق.

---

(١) هارولدلامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٥١
(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام(القرون الوسطى) جـ٣ ص ٣٦٢
(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٢
(٤) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٠، ١٧١
(٥) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٣٢
(٦) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص٥٤ عن هوارث.. تاريخ المغول ص٥١
(٧) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص٩

فراش النـــوم :

لعل أهم غرض كانت تحققه الخيمة أنها كانت مستقرا للراحة والنوم بالنسبة للأسرة المغولية ، ومن هنا كان فراش النوم يشغل جانبا كبيرا من مساحة الخيمة .

وبالطبع لم يكن لدى المغول أسرة للنوم وعلى هذا فقد كان الأثاث الداخلـــــي مكونا من طنافس مصنوعة من اللباد تفرش على الأرض وتستخدم للجلوس وللنوم". (١)

أما نظام ترتيب الفراش فقد خصص الجزء الداخلى المواجه لباب الخيمة لفراش رب البيت ، بينما يخصص الجانب الغربى للرجال والجانب الشرقى للنساء". (٢)

ولعلنا لاحظنا أن المغول كانوا يفصلون فى الفراش بين الاناث والذكور وهـــذا شئ طبيعى فى كافة مجتمعات البدو.

ويتحدث الكاتب الصينى ف.يان (٣) عن مشاركة أبناء جنكيز خان له فى خيمته فقـد كانوا ينامون مع أبيهم عن يمينه يقول : " وعندما كان جنكيز خان يدلف الى مدخل خيمتـــه كان يحاذر أن يوقظ ولديه" أوكتاى" ولى عهده و"تولوى" اللذين كانا راقدين الى جـــواره فى خيمته"

لكن أين كان ينام ضيوف المغول خاصة اذا كانوا من الأجانب فالراهب وليـــم روبروك الذى كان موفدا من قبل الفرنسيين الى خيام باتوخان ثم الى لقاء الخان الأعظـــم منكو فى جبال (التاى) ورد عنه "قوله البته تحت سقف منزل وانما كنا ننام دائما فـــى العراء تحت العربات" (٤) وهذا يفسر لنا أن المغول كانوا لايسمحون للاغراب بالمبيـــت فى خيامهم مهما كانت مكانتهم فلربما اضطروا لاقامة خيمة اضافية أحيانا تخصص لاقامة هـــؤلاء الضيوف.

ومما يلفت النظر أن جنكيزخان وبعد أن صار خاقانا أعظم ابى الا أن يعيش حيـــاة الشظف وأن ينام بنفس الطريقة التى اعتادها أيام البؤس .. فلم يكن يحب الحشايا الليينـة بل كان يحب أن يشعر بالأرض الصلدة تحت جنبيه فاذا نام افترش فوقها سجادة فوقها طبقـة من اللباد السميك". (٥)

غير أن الحال قد تغير منذ عمل خانات المغول على انشاء القصور فقد ظهـــرت الأسرة والحشايا اللينة وكافة وسائل الراحة وهذا ما كان يخشاه جنكيزخان.. الذى كـــان يرى فى البداوة استمرار المغول ونفوذهم .

المقاعـــــد :

وتلك كانت تشكل جزءا مهما من الأثاث الذى يوضع خارج الخيمة ولقد كان للمغـول نظامهم فى الجلوس وترتيب المقاعد "فبالقرب من الخيمة توجد عدة مقاعد يجلس عليها الرجـال والفتيان والضيوف أما النساء فلهن أن يجلسن على بعد فى الجانب الأيسر بينما يبـــاح للصبيان والبنات الجلوس حيث يتيسر لهم ذلك". (٦)

---

(١) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧١

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص٥٤، نقلاعن هوارث ،تاريخ المغول ص٥١

(٣) جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٠٣

(٤) د.هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥١

(٥) الكاتب الصينى .ف.يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص٩٩

(٦) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٧

وبالطبع كانت هذه المقاعد بسيطة مصنوعة من الخشب المغطى باللبد كما أنها كانت خفيفة الحمل ولا أثر فيها لصناعة متقنة.

التعاويذ والتمائم :

كان المغول متوارثين لبعض العادات والتقاليد القديمة التى تدور حول جلب الخير الى البيت ودرء الشر عنه ، ولذا كانت لهم تمائم معينة مثلهم مثل غيرهم من الشعوب البدائية .. وتلك كان المغول يصنعونها على هيئة أشكال من الصوف يضعونها داخل بيوتهم أو أمامها ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ويزيدون من عدد الحيوانات فيها ومن ادرار البانها اضعافا مضاعفة ". (١)

النظافـة :

كان جنكيزخان رغم بداوته حريصا على أن يكون المغول فى أحسن حال ممكنة . ولذا كان يحثهم على تنظيف بيوتهم وجعل ذلك عنوانا لليقظة والقدرة على النهوض بأشق الأعمال . فقد قال " من تمكن من نظافة بيته يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء" وهذا القول على لسان جنكيز خان جاء بعد ملاحظة دقيقة التقطها وتأكد منها(٢) وأراد للمغول أن يتخلصوا منها فقد كانت بيوتهم غير نظيفة حتى أن رائحتها كانت تزكم الأنوف ولا يطيق أحد البقاء فيها لعفونتها.(٣)

تطور المسكن المغولـى :

بدهى أن التغيير أحد سنن الحياة ولهذا كان على البيت المغولى أن ينتقل من الشكل البدائى الذى كان عليه الى اشكال أخرى أكثر تطورا وقد سجل علماء الأجناس التقدم الذى حدث بالانتقال من الكوخ الحقير للمغول "سكان الغابات" الى كوخ من اللباد يسهل طيه وتركيبه عند الرحالة . هذا الكوخ هوبعينه الذى تطور بعد ذلك فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على يد كبار الخانات من أسرة جنكيزخان فصار شيئا فشيئا متسعا مربعا مغطى بالفراء والسجاد الى أن تحول فى النهاية الى قصر منيف"(٤)

ونلاحظ على هذا أن خيمة اللباد لم تكن تطورا للكوخ عند المغول " سكان الغابات" فكلاهما معاصر للآخر ومناسب لطبيعة المكان وظروفه المناخية كما أن التطور الى بناء القصور كان خاصا بالحكام والاثرياء وليس بعامة المغول ، أى أنه تطور خاص الى درجة كبيرة.

غير أنه يمكننا القول أن اتصال المغول بغيرهم من الأمم ممن كانوا على مستوى متقدم فى فنون البناء والعمارة كالصينيين والخوارزميين والايرانيين وغيرهم لابد وأن يكون قد دفعهم الى تطوير مساكنهم بما يلائم حياتهم وزمنهم وتزايد نفوذهم ومن هنا فالخيمة المغولية تطورت بيت من الحجارة خاصة لدى بعض المغول الذين نزحوا عن منغوليا

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٥

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ١٣٣

(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢١

(٤) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٣.

وأقاموا في الصين أو فى ايران أو فى روسيا أما المغول الذين بقوا فى منغوليا موطنهم الاصلى فان تطور الخيمة المغولية لم يكن شيئا يلائم طبيعة الاقامة فى السهوب التى تستلزم سرعة الحل والترحال .. أى أن الخيمة المغولية هناك ظلت على نفس صورتها فلم تتغير .

الطعـــــام

من أخطر المشاكل التى واجهت المغول فى بيئة السهوب ندرة الغذاء ونظرا لعجز البيئة النباتية عن الوفاء بالتزامات الغذاء للانسان فى بيئة الاستبس فلم يكن أمام المغـــول سوى الاعتماد على حيوانات البيئة أيا كان نوعها فى بيئة الاستبس لابد أن يعتمد الانسان فى غذائه على الحيوان بصورة حاسمة" . (١)

وفى الحقيقة فان المغول كانوا يتغذون بوجه خاص باللحم ولبن الأفـــراس (٢) فالحيوان هو مصدر اللحم واللبن فى آن واحد بل هو الذى يحقق الاكتفاء الذاتى فـــى الغذاء لدى المغول فى مواجهة أية ظروف طارئة فى أى مكان ينزل فيه المغول . يقـــول الدكتور جمال الدين بن واصل (٣) " وليس لهم الا الخيل والاغنام يأكلون لحومها ويشربـــون البانها وهى تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات فاذا نزلوا منزلا لايحتاجون الى شـــئ من خارج"

وهكذا رأينا اعتماد المغول فى غذائهم على الحيوان بصفة أساسية وهو اعتمـــاد مرهون بظـــروف المناخ ووفرة النبات ففى الربيع تتحسن الأحوال المناخية وتسمن الماشيـــة ويتوفر اللحم أما فى فصل الشتاء حيث تسوء الأحوال الجوية الى حد كبير يندر معه وجـــود اللحم وعلى هذا فقد كان المغول لايتقيدون بنظام معين فـــى مأكلهم بل ينتقلون شأن كافـــة البدو الرحل من التقتير الى الافراط فى تـــناول الطعام ثم العكس" . (٤)

اذن فالطعام مرهون بالحيوان كمصدر غذاء والحيوان مرتبط بعوامل البيئة المحيطـــة به فغذاء المغول ـ بطبيعة الحال ـ يتأثر بهذه الدورة .

خطر الجـــوع :

الانسان رهين البيئة كما ذكرنا وعندما تضن البيئة عليه بالغذاء لايملك حيالهـــا الا أن يصبر على ألم الجوع لعله يجد مخرجا . فالجوع كان شبحا مخيفا يهدد المغول فـــى أوقات الجدب والجفاف ولهذا فالمغول قد أحسنوا الاستفادة من حيوانات الصيد التى كانـــت تمثل انقاذا سريعا من الهلاك ، فقد كانوا اذا ما قتلوا عددا كبيرا من حيوانات الصيد أكلـــوا اكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله . وذلك حتى يبعدوا عنهم شبح الجوع فى الأيام العجـــاف التى تنتظرهم" . (٥)

---

(١) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٥٩

(٢) هـ.ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص ٢٣٦

(٣) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٤ ص ٣٦

(٤) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٣

(٥) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠.

والبيئة القاسية هى نفسها قد اكسبت المغول الصبر فى مواجهة خطر الجوع حتى أن المغول كانوا يستطيعون الصبر على الجوع فلا يأكلون طعاما مطهيا لثلاثة أيام أوأربعة" (١)

والطعام المطهى هنا هو اللحم • فماذا لو لم يكن هناك شئ منه ، أغلب الظن أنهم كانوا يأكلون الثوم والبصل واذا مست الحاجة فانهم يكتفون بالعشبيات البرية والجذور الصالحة للأكل" • (٢)

كذلك كان طعامهم – كما يقول جان دى بلان كاربان • وهو راهب ارسل فى سفارة الى بلاد المغول فى عهد كيوك (٦٤٤ – ٦٤٦هـ) يشتمل على كل مايستطاع مضغه وقد رأيناهم يزدردون كل شئ حتى الأعواد الجافة والبراغيث" • (٣)

وواضح أن ذكر البراغيث هنا فيه مبالغة غير مستساغة الصياد وأفضل منه أن يقول أنه نظرا لندرة اللحم فى فصل الشتاء فانهم كانوا يستعيضون عنه بالدخن المطبوخ واللبن الرائب يتبلغون به حتى يحين الربيع" • (٤) وحتى ذلك الوقت كان محاربو القبيلة على ما تخزنه القبيلة الاخرى من المؤن الاحتياطية" • (٥)

هذا– ولم يعرف المغول فى معظمهم الخبز مصاحبا للطعام ، فأنى لهم ذلك ومكوناته لا تتوفر لديهم • على أن هذا لايمنع من وجوده أحيانا لدى بعض القبائل التى تعيش على مقربة من طرق القوافل حيث يمر بها التجار فيأتون معهم بالدقيق • يقول ادوار بروى (٦) " ولا يتوفر الطحين الا لبعض القبائل التى تعيش حياة البدو الرحل على طرق القوافل كقبيلة الميركيت مثلا" •

ونحن قد نوافق بروى على هذا الرأى غير أننا نرى أن استشهاده بالميركيت لم يكن دقيقا فهؤلاء كانوا من سكان الغابات المتوحشين كما ذكرنا فهم أقرب الى امتهان الصيد وليسوا بدوا من الرحل كما أشار بروى فلو أنه قال (الكرايت) لكان استشهاده مقبولا لأن هؤلاء كانوا يعيشون فعلا على مقربة من طرق القوافل •

الياسا والطعام :

لعله اتضح مما سبق أن قضية الطعام والجوع كانت أهم قضية تواجه المغول بل هى أخطر القضايا جميعا وما كان جنكيز خان ليتجاهلها أو يغفل عن تقنينها فى الياسا فمن الأمور التى شرعها فى هذا المجال :

١ – أن يذوق مقدم الطعام – مهما كانت درجته – طعامه قبل أن يقدمه للآخرين •
٢ – الايستأثر بالطعام أحد دون الاخرين خاصة اذا كانوا يرونه •

---

(١) د• فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٢٩
(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات اعام جـ٣ ص ٣٦٣
(٣) د•براون: تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٦١
(٤) د• فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٢٩
(٥) د• هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨
(٦) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٣

ألا يتميز أحد على أصحابه بالشبع بل يقسم الطعام بالتساوى .

٣ - يحق لأى فرد مغولى أن يأكل مع الاخرين دون أن يستأذنهم وليس من حقهم منعه .

٤ - ألا يتخطى أحد موقد النار أو يمر فوق الاطباق . (١)

٥ -

فالنقطة الأولى تكشف مدى تخوف جنكيز خان من أن يكون الطعام مسموما ، أما النقاط الثانية والثالثة والرابعة فكلها تعرض لقضية المساواة فى الطعام وهى مسألة ايجابية فى معظمها . أما النقطة الأخيرة فتشير الى ضرورة مراعاة أدب الطعام واحترام أدواته .

هذا .. ولم يخل الأمر من عقوبات صارمة وصلت الى حد القتل فى الحالات الاتية :

١ - اطعام الأسرى دون استئذان من أسروهم أو من صاروا فى حوزتهم .

٢ - رمى شئ من المأكول الى الاخرين دون تسليمه يدا بيد .

٣ - الامتناع عن اطعام الاخرين .

فقد كان مما شرعه جنكيز خان : " من أطعم أسيرا أو رمى الى أحد شيئا من المأكول قتل بل يناوله من يده الى يده ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل " . (٢)

فالحالة الأولى رآها جنكيز خان جريمة خطيرة فهى مساعدة للأسير ومعاونة له على الهرب أو الاستمرار فيه أما الحالة الثانية فهى اساءة أدب نحو الطعام ومن يناوله . أما الثالثة فانها تحمل معنى الأثرة وتدفع الى التطاحن والقتل .

يورد الكتبى أمرا غريبا قرره جنكيز خان يقول " وقرر لهم أن من رعف وهو يأكل قتل كائنا من كان " . (٣)

والرعف خروج الدم من الأنف ، وهو عادة ما يكون بصورة لا ارادية مما يدعو المرء الى الدهشة كذلك فان العقوبة المقابلة تعتبر غاية فى القسوة والاصرار عليها واضح من القول " كائنا من كان " أى أن الحكم عام ولا تردد فيه .

ويبدو أن المغول فى أوائل عهد جنكيز خان قد تعرضوا لقحط شديد ولهذا اضطروا الى تناول أجزاء من الحيوانات كانت محرمة عليهم قبلا " فمن جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا : يسمح بأكل الأطراف من الحيوانات وأحشائها ولو أن ذلك كان من المحرمات سابقا " . (٤)

وهناك قضية أخرى وردت فى الياسا وأشار اليها الكثير من المؤرخين "فمن جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا " أن ذبح الحيوان ممنوع ولكن يقتل الحيوان بطريقة أخرى" (٥) فقد نصت الياسا على أن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه الى أن يموت ثم

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ٣١١ ، والمقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٢٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ص ١١٩

(٣) الكتبى : فوات الوفيات والذيل عليها جـ١ ص ٣٠٢

(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤

(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٧ ص ٧٣٩

يوكل لحمه وان من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح". (١)

ويقول الدكتور براون (٢) "كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من أمهات الجرائم وحرموا على المسلمين حيواناتهم وفقا للطريقة التى أجازها الشرع واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الخاصة، فكانوا يشقون بطن الحيوان ثم يمدون أيديهم الى جوفه، فاذا وصلوا الى قلبه أمسكوه ونزعوه من مكانه".

وواضح من كل ما سبق مدى القسوة التى استخدمها المغول والتى تصل الى درجة الوحشية فى تعذيب الحيوان ولا يعدوالامر بالنسبة لهم أكثر من مجرد اصرارهم على مخالفة المسلمين فى طريقة الذبح • اذ كان جنكيزخان يقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الاسلام • ثم سار على نهجه قوبيلاى فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة" (٣) والزم القصابين بالذبح الشكل الذى ينافى التعاليم الاسلامية". (٤)

وموقف جنكيز خان واضح فالياسا عنده فوق الجميع من صنعه من جهة ولانها تراث الاباء والأجداد من جهة أخرى ولهذا لا تصح مخالفتها والا كانت هناك النهاية المحتومة وهى الموت• أما قوبيلاى (٦٥٨ ــ ٦٩٣هـ) فقد فعل ذلك لمدة سبع سنوات فقط بتأثير وشاية بعث بها اليه ابن أخيه اباقا بن هولاكو (٦٦٣ــ ٦٨٠هـ) بدسيسة من فعل المسيحيين والبوذيين المحيطين به ، فلما اكتشف قوبيلاى أن المسلمين وخصوصا التجار منهم اقلعوا عن الاتجار مع الصين كما أثر بشدة على ميزانية الدولة عاد فألغى ما كان قد قرره •

وكان جغتاى الابن الثانى لجنكيزخان يشغل وظيفة امير العقاب وكان مسئولا عن تطبيق الياسا واخضاع الجميع لسلطانها •• وكان بالاضافة الى ذلك يكره المسلمين كرها شديدا ولذلك الزمهم بتعاليم الياسا وعاقب من يخالف ذلك عقابا شديدا وخصوصا فى مسألة الذبح هذه وعلى النقيض من ذلك كان أخوه الخان الاعظم أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٦ ــ ٦٣٩هـ) ، "ويحكى عنه أنه أمر أن تذبح الشياه بشق صدورها لابذبحها من النحر فآخذ أحد المسلمين شاه وأغلق بابه وذبحها على الوجه الشرعى عند المسلمين وحينئذ جاء مغولى فدخل عليه وأخبر الملك بذلك فقال الملك: انه أطاع الأمر بغلقه الباب فلايستحق عقوبة وأمر بقتل المغولى لانتهاكه حرمة دار المسلم" (٥).

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فانها واحدة من كثيرات•• ذكر بعض المؤرخين المسلمين فيها أن أوكتاى كان متعاطفا مع المسلمين•

وكذلك حكى عن منكوقا آن (سنة٦٤٨ ــ ٦٥٧هـ) أنه عند اعتلائه عرش الخاقانية العظمى سمح بأن يكون الذبح على الشريعة الاسلامية اكراما لضيوفه من المسلمين". (٦)

---

(١) القلقشندى: صبح الاعشى جـ٤ ص ٣١١، والمقريزى ،الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ ، وابن كثير البداية والنهاية فىالتاريخ جـ ١٣ ص ١١٩
(٢) تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦١
(٣) د•توماس أرنولد: الدعوة الى الاسلامص١٩٥ ،فهمى هويدى: الاسلام فى الصينص٦٢
(٤) د• ادواربروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨٧
(٥) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ١٤٠
(٦) د•بارتولد: تاريخ التركستان منالغزوالعربى حتى الغزو المغولى ص ٦٨٠

مجلس الطعام :

لم يكن المغول يتناولون طعامهم فوق موائد كبيرة أو صغيرة ولم يكن لديهم غطاء يضعونه فوق الطعام ليحفظه من التلوث فقد كان عدم وجود أيهما يبدو أمرا قليل الشأن" (١) وطبيعى أن لا ينتظر من المغول – وهم أهل بداوة – أن يكون لديهم مثل هذه الاشياء أوغيرها . وأغلب الظن أنهم كانوا يفترشون الأرض يضعون فوقها سجادا من اللباد السميك ثم توضع فوقه أطباق الطعام متجاورة .

وكان مجلس الطعام عادة مايكون أمام الخيمة لابداخلها ما لم يكن هناك داع لذلك كالبرد القارص او القيظ اللافح أو طارىء غير متوقع .

وكان المغول يراعون فى تناول الطعام ترتيبا معينا يلتزمون به فاذا أعد الطعام يتقدم الرجال الاقوياء البنية فيلتهمون الوجبة الاولى منه ثم يسلم الشيوخ والنساء ما تبقى أما الاطفال فعليهم أن يتدلاحنوا على العظام وفتات اللحم ولا يبقى الا النزر اليسير يلقى الى الكلاب" (٢)

فهذا الترتيب بنى على منطق القوة لا الرحمة . وقد يلتمس العذر للمغول فى اتباعه فالحاجة الى الرجال الأقوياء أشد وبخاصة فى مواجهة الطبيعة القاسية والأعداء المتربصين ولهذا ينبغى توفير القسط الاكبر من الطعام لهم حتى ينهضوا بمسئوليتهم كاملة وأهمها توفير الطعام نفسه للأسرة .

وكانتهناك أولوية أخرى توضع فى الاعتبار وهى أولوية ترتبط بحجم الطعام ونوعيته وتراعى بدقة متناهية يقول باسيليوس خرباوى " وكانوا يكرمون الاكبر منهم باعطائه أكبر وأسمن قطعة من اللحم ما تبقى من الآكلين يعطى للشيوخ". (٣)

ويبدو أن المقصود بكلمة الأكبر هنا هو رئيس الجماعة أوأعظمها مكانة وبأسا وليس المقصود أكبرها سنا والا ضم الى جماعة الشيوخ التى تأكل بقايا الطعام مع النساءوالاطفال. (٤)

وكان الأجدر بالمغول أن يراعوا الضعف فى النفس البشرية أو القصور لدى الشيوخ والنساء وكذلك لدى الأطفال الذين قد تسوء حالتهم كثيرا فى فصل الشتاء فلا يلقون الرعاية الكافية عندما يهزل القطيع ولايوجد الحليب آنذاك الا وهو كوميس قد يغذى الطفل ويسكره فى نفس الوقت وهو حينذاك صغير فكان عليه أن يستجدى أو يسرق القليل منه على أن آخر أيام الشتاء هى أنكد أيام الصغار جميعا اذ لاتجزر الخراف والا صغرت القطعان كثيرا. (٥)

فالأطفال يتغذون على ها الطعام المسكر ويحصلون عليه بأى وسيلة ، واللحم نادر عزيز فى فصل شديد القسوة والمنع اليست تلك مشقة بالغة يلقاها الطفل المغولى الذى لايراعى ضعفه فى ترتيب تناول الطعام أو حتى فى الكمية التى تلائم مرحلة نموه.

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٨

(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٧

(٣) تاريخ روسيا ، ص ٦٠

(٤) د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٨

كذلك يسوق لنا الدكتور هارولد لامب(١) حادثة ذات مغزى يقول " ومن بين النساء لمع (تيموجين) صبية صغيرة نهضت فى وسرعة ومن غير جلبة أو ضوضاء ، وأخذت عظمة من واتجهت بها نحوغطاء مدخل الخيمة المغلق حيث مست بها التمثال الخشبى المعلق هناك وكان هذا تمثال الاسرة الذى يرمز الى فارس روحانى فى السماء وبعد ذلك أعادت الصبية البالغة من العمر عشر سنوات قطعة العظم الملحمة الى الوعاء" .

وهذه الحادثة تشير الى اكثر من دلالة : أن الأطفال كانوايجلسون وراء النساء أو معهن فى مجلس الطعام . كذلك فان البركة تستجلب بمس تمثال روحانى يعلق على باب الخيمة لدرء الشر عنها .. وذلك كله كان تقليدا متبعا متوارثا عن الاباء والأجداد ، ومما يذكر فى هذا السبيل ان كل مغولى كان عنده فى بيته (دميات) صغيرة تمثله وزوجته وأولاده فاذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدميات ولوث فمها بالدهن الذى يستخرجه من اللحم ثم أخذ شيئا من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الالّه وزوجته وأولاده شاركوه فى غذائه" (٢) .

تناول اللحوم :

ذكرت سلفا أن المغول كانوا يعتمدون على الحيوان فى بيئة الاستبس بصفة أساسية فالحيوان هو المصدر الرئيسى للغذاء بل والوحيد فى أحايين كثيرة فلا غرو ان كان اللحم هو الوجبة الاساسية لدى المغول الذين كانوا يأكلونه بمختلف أنواعه وحالاته .

الا أن النفس العادية كانت تعافه لسوء اختيارهم له" (٣) فقد كان المغول يأكلون اللحم أيا كان مصدره . دون تحريم أوامتناع . غير أن الخان الأعظم قوبيلاى كان يحسن اختيار تناول اللحم على غير عادة المغول اذ لم يتناول من اللحوم الا الطفرة بخلاف باقى الطوائف من المغول" (٤) .

فلعل اللحم فى الصين كان أحسن حالا منه فى منغوليا أو لعل طريقة تقديم الطعام على الطريقة الصينية كان ولاشك أكثر تحضرا أو لعلها كانت حالة خاصة تنم عن ذوق خاص تميز به الخان قوبيلاى أو من يشرفون على شئون طعامه .

أنواع اللحوم :

اعتمد المغول كما ذكرنا على مختلف أنواع اللحوم ومنها :

أولا : لحوم الدواب :

يقول سيد أمير على " وهم لايحرمون شيئا اذ أنهم يأكلون جميع الدواب" (٥) ،

---

(١) جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢، ١٣

(٢) د . مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ٥٧

(٣) جون . أ . هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٨

(٤) ابن : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩١

(٥) سيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص ٣٣٤

والمقصود بالدواب هنا على الارجح الاغنام والخيل والماشية والابل فتلك كانت تربى فى شكل قطعان حرص المغول على اقتنائها .

(أ) الضـأن :

كان لحم الضأن هو الوجبة الرئيسية اليومية وكانوايفرطون فى أكله فالمعدل هو أن يأكل الرجل المغولى خروفا فى اليوم" (١) كما يقول رالف لنتون .

ويبدو أن هذه الكمية مبالغ فيها خاصة فى فصل الشتاء حيث يندر وجود اللحم اذ تقسو عليهم الطبيعة فى هذا الفصل وتهزل الحيوانات" . (٢)

(ب) الخيـل :

يقول رالف لنتون (٣) " وكانوا يأكلون دائما لحم الحصان " وكلمة" دائما" هنا لا تتوافق مع قوله السابق" ان لحم الضأن كان الوجبة الرئيسية اليومية" لكن هذا لاينفى ان لحوم الخيل كانت تأتى فى المرتبة الثانية ،فقد كان المغول يتغذون بلحم الحصان مسلوقا أو مشويا" (٤) فالسلق أو الشواء كلاهما كان يتم فى شكل جماعى يناسب تعداد الاسرة اذ لا مجال لتناول الطعام غير ذلك .

(جـ) الابل والماشيـة :

وتأتى فى المرتبة الثالثة بين الدواب فقد كان المغول جميعهم من الأمير الى الصعلوك يقتاتون بلحم الجمال" (٥) كمايقول باسيليوس خرباوى فلعله يقصد المغول من من القبيلة الذهبية التى أقام رجالها فى جنوب روسيا ذلك أن المغول فى معظمهم كانوا يأكلون لحوم الضأن والخيل فى الدرجة الاولى كما كانوا يأكلون لحوم الماشية التى كانت ـ رغم ندرتها ـ تعطى كمية أكبر من اللحم .

ثانيا : لحوم حيوانات الصيد :

كان المغول بحكم ممارستهم للصيد يوقعون فى شباكهم وفخاخهم الكثير من حيوانات الصيد كالظباء والوعول والدببة والخنازير ولما كانوا لايحرمون شيئا من الطعام كما أن الحاجة الى الطعام أيا كان نوعه كانت ضرورة بقاء ووسيلة افلات من الهلاك جوعا لهذا كانوا يأكلون مختلف لحوم هذه الحيوانات استثناء وبخاصة فى فصل الشتاء .

---

(١) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٦٦

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٢٨

(٣) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٦٧

(٤) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٣

(٥) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٠

ثالثا : الحيوانات الدنسة والميتة :

وتلك كان المغول يلجأون اليها عندما تضطرهم الحاجة الى ذلك أى عندما لاتتوفر لديهم لحوم الدواب أو لحوم حيوانات الصيد . يقول ابن الاثير (١) " وانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها".

ولم يتوقف الامر عند هذا النوع الدنس من الحيوانات بل امتد الأمر الى لحم الميتة أيضا (٢).

وخلاصة الرأى الذى أميل اليه أن تناول المغول لهذين اللونين من الطعام كان بفعل البيئة القاسية لا بأثر الاختيار.

أكل لحوم البشر :

مما لاشك فيه أن هذا العنوان يحمل فى طياته معنى بارزا للتوحش الآدمى. الذى يمجه وجدان البشرية المتحضرة وعقلها.

ومن العجيب أننا لازلنا نسمع حتى الان عن قبائل فى وسط أفريقيا يأكل أفرادها لحوم البشر.

فهل كان المغول يقدمون على أكل لحوم البشر امعانا فى التوحش والبدائية أم كان ذلك وسيلة انقاذ من جوع فتاك او هلاك مفاجىء.

وأكاد أميل الى القول بأن التهام المغول للحوم البشر اذا كانوا من الأعداء كان بدافع الانتقام لا بدافع الحاجة الى الطعام. اذ لما تولى كيوك سنة ٦٤٤هـ وكان جبارا قوى النفس حكم على بنى أبيه (يقصد أوكتاى) فقهرهم وانتزع ما بيد باتوبن جوجى من ايران وسائر ما معها وأقام بها أميرا اسمه (الجكراى) ثم جرى بينهما اختلاف كان آخر الأمر فيه أن أمسك (الجكراى) وقتل وحمل باتو بن جوجى فطبخه وأكله". (٣) ومايعنينا فى هذا المقام ان الطبخ ثم الأكل كان لجثة عدو قتل. فهو أكل للميتة يحمل روح الانتقام لا الرغبة فى الطعام.

ويروى أيضا أنه عندما اتهم معين الدين براونة حاكم بلاد الروم من قبل المغول بالاتصال بالظاهر بيبرس معه ضدهم قبض عليه أباقاخان وأمر بفصل أعضائه عن جسده عضوا عضوا ثم وضعت فى اناء وصاروا يغلونها ولشدة غيظهم وحنقهم لم يتورعوا عن أكل لحمه" (٤)

فمتى كان المغول يأكلون لحوم البشر بدافع الحاجة الى الطعام ؟

يروى الراهب كاربينى الذى زار بلاد المغول بعد وفاة كيوك "ان المغول فى احدى غزواتهم فى الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاما للباقين". (٥)

فالضرورة وهى الحاجة الملحة للطعام اقتضت التضحية ببعض الرجال من الجيش حتى يسلم المجموع . وبالاضافة الى أن عنصر المبالغة واضح فى الأرقام فانه ليس بين أيدينا

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ١٢ ص١٣٨، سعد محمد صادق.. ابن تيمية امام السيف والقلم ص ٢٤

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ جـ١٣ ص٨٨، د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران نقلا عن هوارث ، تاريخ المغول ص ٥٣

(٣) القلقشندى: صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣٠٩

(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٠

(٥) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص٥٢، نقلا عن هوارث تاريخ المغول ص٥٣

دليل على كيفية اختيار الضحايا أكان بالاقتراع أم بالامر العسكرى ؟!

وفى الحقيقة لم يكن المغول وحدهم هم الذين يأكلون لحوم الادميين عند الضرورة ففى مدينة (ميافارقين) عقب حصار المغول لها وانعدام القوت وهلاك الدواب فيها صار الناس يأكلون الميتة والآدميين حتى أكلوا بعضهم قسرا" وكتب الباقون منهم رسالة الى الامير المغولى (تشيمو - ارفتو) يقولون: انه لم يبق فى المدينة أحد له طاقة وقدرة ، ما عدا عدة أفراد هم أحياء بأرواحهم أموات بأجسادهم، وصار الأب يأكل ابنه والأم تأكل ولدها". (١)

شرب الدم :

ظاهرة غريبة تستلفت النظر وتعود بنا الى نفس السؤال، أهى دليل على الوحشية؟ أم وسيلة بقاء فى وقت عصيب؟ تنص الياسا على أنه " يسمح بلعق الدم ولو أن ذلك كان من المحرمات سابقا".

وأغلب الظن ان ذلك كان يحدث فى حالة ندرة الطعام أو الشراب أوعدم وجود بديل عنها فقد يحدث - فى بعض الاحيان - أن يسير المغول بضعة أيام دون أن يتناولوا طعاما وفى هذه الحالة يعيشون على دماء خيولهم فكان الجندى منهم يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يشبع به رمقه ثم يسد الشريان ثانية". (٢)

وبالطبع لا تخلو هذه الطريقة من وتوحش غير أنها تبدو فى نفس الوقت وسيلة اضطرارية لا مناص عنها الا أن المغول الذين أكلوا لحوم أعدائهم بدافع الكراهية والانتقام" كانوا يشربون - أحيانا - دماء هؤلاء الأعداء(٣) للدافع نفسه فدل ذلك على عادة وحشية متأصلة فيهم - لايقلل من ذلك اشارة(الياسا) الى أن شرب المغول للدم كان من المحرمات السابقة فان التحريم نفسه - على افتراض حدوثه - يؤكد على انتشار المحرم وهو شرب الدم .

حفظ اللحم :

كان فصل الربيع رغم قصره يمثل بالنسبة للمغول عيدا متصلا فى كل شئون حياتهم حيث الطعام موفور والطبيعة القاسية قد كفت يد الأذى عنهم ولو الى حين، والمغول وقد خبروا الدهر وعرفوا أن التوافق مع الطقس المتقلب سرعان ما يزول كان عليهم دائما أن يفكروا فى الأيام العجاف التى تنتظرهم فى الفصول الأخرى خاصة فى فصل الشتاء ولهذا كانوا يلجأون الى حفظ اللحم فى فصل الصيف بطريقة غريبة . يقول الدكتور عبد السلام فهمى(٤) " أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم الا قليلا قبل أن يجففوها بطريقة عجيبة وذلك انه اذا مات لديهم ثورا أو حصان قطعوا لحمه الى شرائح رقيقة ، وعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد".

---

(١) رشيد الدين فضل الله الهمذانى : جامع التواريخ مجلد٢ جزء ٢ ص ٣٢٢

(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠، وهوارث .. تاريخ المغول ص ١٠٩ نقلا عن حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١٧ ود. رالف لنتون .. شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٦٧

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٣٠

(٤) هوارث : تاريخ المغول ص ٥٣ نقلا عن د. مصطفى طه بدر.. محنة الاسلام الكبرى، ص ٥٢

وبدهى ان هذا التجفيف لابد أن يتم فى وقت ومكان خاليين من الرطوبة والا أصاب العفن هذه الشرائح وقضى عليها غير أن هذا القول يجعل التجفيف قاصرا على الميتة فقط من الجياد والثيران ٠

أيا كان الأمر فنحن أمام وسيلة تكيف واضحة سلكها المغول فى مواجهة الطبيعة القاسية التى تضن بالخير كثيرا ٠

وفصل الصيف لم يكن وحده مختصا بحفظ اللحوم ففى فصل الخريف أيضا تبدأ درجة الحرارة فى الانخفاض ويصبح الطقس مائلا للبرودة حيث يميل المغول الى طريقة أخرى فى حفظ اللحوم " فقبيل حلول فصل الشتاء تنحر الأغنام وتدخر لحوما باردة" ٠ (١)

فالمغول يستفيدون من الطقس البارد فى حفظ اللحم وهى طريقة تختلف عن طريقة التجفيف السابقة كما أن اللحم فى هذه الحالة لم يكن منا لميتة بل من الاغنام التى ربما قد تعجز عن البقاء حية فى فصل الشتاء القارس ٠

الالبـــــان

اذا كان اللحم يمثل الوجبة الأساسية التى يعتمد عليها المغول فان اللبن كان يمثل جانبا مهما أيضا باعتباره العنصر الثانى المكمل للحم فكلاهما نتاج مصدر واحد هو الحيوان فى بيئة الاستبس ٠ واللبن بجانب انه الغذاء الأمثل الذى يخلق مع صعوبة البيئة الطبيعية والحياة الترحلية عنصرا قويا ممتازا من الناحية الصحية والجسمية فانه يتلائم جدا مع حياة الترحل" ٠ (٢)

وليست القيمة الغذائية وحدها هى السبب الرئيسى فى ارتفاع قيمة اللبن فقد كان سهل الاعداد والحفظ والحمل أيضا ٠

وفصل الربيع هو أفضل فصول السنة لانتاج اللبن لتحسن ظروف المناخ وازدياد طاقة الحيوان ففى الربيع تمتلئ ثدى الافراس وضروع الابقار بلبانها بما يكفى للجميع (٣) ٠ وهذا الاكتفاء كان يحققه ضخامة القطيع تلك الضخامة التى كانت تعوض قلة كمية اللبن لدى الحيوان الواحد ٠ (٤)

كما أن المغول لم يكونوا معتمدين على مصدر واحد للبن فقد كانوا يستخدمون كل صنوف اللبن سيان ما هو حليب الشاه أو العنز أو الناقة او البقرة" ٠ (٥)

حفظ اللبـــن :

بالطبع لم يكن المغول يستهلكون كميات اللبن الكبيرة التى تجود بها القطعان الضخمة لديهم فى فصل الربيع وأمام قسوة البيئة فى الفصول الاخرى من السنة خاصة فصل

---

(١) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٦٣

(٢) د٠جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٥٩

(٣) د٠هارولد لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص ٧

(٤) د٠ جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٠

(٥) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٨

الشتاء كان عليهم أن يعمدوا الى حفظ اللبن فى قرب من جلد الماعز". (١)

وبورد بروى رأيا يعتبر تقدما خطيرا بالقياس الى عصر المغول يقول : "ويحفظ المغول كذلك الحليب المجفف المسحوق" (٢) وليس لدينا رأى آخر يؤكد هذا القول . الذى لو صح لكان أحد النماذج القوية على مدى قدرة المغول على التكيف مع البيئة.

الكوميس :

وهذا النوع من اللبن كان نتاج لبن الافراس فقط ، فالمغول كانوا يشربون لبن الأفراس المختمر" (٣) " اذ كانوا يحلبون الافراس ثم يخمرون اللبن ليضعوا فيه ما يسمونه الكوميس الافراس أغنى بالمواد السكرية من لبن البقر فقد كان فى استطاعتهم اذا ما أحسنوا تخميره ان يصنعوا منه مشروبا روحيا قوى التأثير". (٤)

اما عن طريقة صنعه فقد كانوا يضعون هذه الالبان فى قراب ثم تخض بشدة وتترك حتى تخمر فتصبح صالحة للشرب". (٥)

على أن أهم غرض كان الكوميس يعد من أجله هو أنه كان الوسيلة المثلى للثمالة "السكر" خاصة فى أيام السفر البعيد فقد كان المغول يحرصون على التزود به اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية". (٦)

الزبد والجبن :

كان المغول يصنعون كليهما عن طريق رج اللبن بشدة فى قرب جلدية ، فقد فطنوا الى أن رج اللبن بقوة لفترة من الوقت يحوله الى جبن أو زبد (٧) يمكن فصله بسهولة قبل ان يصل اللبن الى درجة التخمر أي" الكوميس" فلا غرو أن انتجوا الزبد والجبن واللبن الرائب أيضا.

وهكذا رأينا طعام المغول الذى كان فى معظمه جافا خشنا تماما مثل البيئة الخشنة التى نشأوا فيها وتعودوا عليها ويكفى فى نهاية أن نورد شهادة الراهب وليم روبرك الذى مر بهم فى عهد منكو خان حفيد جنكيزخان ، يقول انه كانوايشكو من قلة ما كانوا يزودونه به من طعام عافته نفسه ذلك ان المغول لايعرفون الخبز أوالزيت أو الخضروات وهى جميعا غذاء أساسى له " (٨)

---

(١) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٦
(٢) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٣
(٣) ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٦٦
(٤) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٦٧
(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص٢٣٠
(٦) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٣
(٧) المرجع السابق نفسه ،ج ٣ ص ٣٦٣
(٨) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٨

المظهر العـــام

المظهر العام للأفراد دليل حضارتهم أو مدى اتصالهم وتأثرهم بالأمم المجــاورة. ولهذا فان المغول قبل اتصالهم بالأمم الاخرى بصورة مباشرة ظلوا محافظين على نمطهـــم التقليدى ذلك النمط الذى كان يبدو بدائيا مقيتا للاخرين نتيجة اقترانه بالخشونة والقســوة حتى ان مظهر المغول البغيض وما امتازوا به من عادات قبيحة كريهة قد ساعد على زيــادة الفزع الذى استولى القلوب من ناحيتهم" (١)

اذن اجتمع لدى المغول عدة أشياء المظهر البغيض والعادات الكريهة والغلظـــة المفرطة . ويوضح ذلك وصف الكاتب الصينى .ف . لمظهر بعض أمراء المغول قبل معركتهم الاولى مع خوارزم شاه. يقول " ولما اقترب المغول من قمة التل تقدم بعض أمرائهم وفـــى مقدمتهم شاب أسود اللحية قد ضفر شعرها وربطه خلف أذنه اليسرى ، وثانى القوم رجـــل شيخ سمين قد اخترق وجهه العبوس الملامح جرح غائر ذهب باحدى عينيه فأولهما أكبـــر أبناء جنكيز خان المسمى جوجى والثانى واحد من أشهر قواده (سابودى) الاعور" (٢)

وهـــذا المظهر لقواد المغول قبل اندماجهم مع الشعوب الأخرى لايحمل معنـــى البساطة بقدر ما يحمل معنى الهمجية والتخلف فأين همن مظهر قواد الاغريق أو الرومـــان اوالفرس الذين اشتهروا - رغم سبق الزمن - بمظهرهم القوى الجميل كذلك فان قـــواد المسلمين الأول اشتهروا ببساطة هندامهم ونظافتهم وسماحتهم.

اذا كان هذا مظهر الأمراء أوالقواد فما كان حال العامة من المغول ؟ يقـــول بروى (٣) ويرسل الفتيان والفتيات شعورهم ويتركونها تتدلى على آذانهم ويجز الرجال شعـــر روؤسهم ما بين الأذنين ويحلقونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة أصابع بين هدبين ويجدلـــون ما تبقى منه ويعقدونه وراء الأذن محتفظين بذوءابة تتدلى فوق الحاجبين" . كذلك كان المغول يلبسون أحذية خشنة وأحيانا يضعون فوق روؤسهم طاقية أو طرطورا" . (٤)

وهكذا رأينا كيف تصرف المغول فى شعورهم يرسلونها أو يحلقونها او يعقدونهـــا خلف الاذن وكذلك كيف كانوا يستخدمون الأحذية وقد يستخدمون أغطية للرأس بهدف الوقايـــة من البرد الشديد أو لفح الشمس .

عموما ، كان للمغول مظهرهم الخاص الذى يميزهم عن غيرهم وهذا أمر طبيعـــى فرضته البيئة التى تترك بصماتها على الانسان فى كل شئ بحيث لايمكن للمرء أن يتخلص من هذا التأثير الطبيعى ما لم تكن هناك موءثرات خارجية قوية" ففى عهد السلطان المسلـــم محمود غازان كان أول عمل قام به هو أن أعلن الاسلام دينا رسميا للدولة المغولية فـــى ايران ، فغير المغول زيهم ولبسوا العمامة كشارة ملموسة لهذا التغيير" (٥)

---

(١) د. براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٢

(٢) جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٠

(٣) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٤

(٤) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٦٩

(٥) د. فوءاد الصياد : موءرخ المغول الكبير ص ٧٤

وهذا التغيير يعود فى الحقيقة الى عوامل عدة حاسمة :

أولا : تأثر المغول بالاسلام وهو دين يملك كافة مقومات التأثير وأهمها الطهارة الدائمة التى تستوجب طهارة المكان والثوب والجسم ٠

ثانيا : ان البيئة المغولية بكل فرضيتها قد تغيرت الى بيئة مختلفة عنها ٠

ثالثا : ان الحاكم كان يمتلك قدرة السيطرة التامة الملزمة التى أفلت زمامها من يد سابقه الحاكم المغولى المسلم أحمد تكودار ٠

وهكذا أتيح للمغول أن يتطوروا مع الزمان والمكان وأن يطوروا أنفسهم غير أن ذلك لم يتضح جليا الا بعد فترة طويلة ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يهتمون بنظافتهم وهندامهم وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر ولكن ذلك كان فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أسسوا امبراطورية واسعة الأرجاء (١) وبعد أن أصبحوا سادة ٠

الثيــاب :

تعد الثياب أهم ما يعبر عن مظهر الانسان ولا عجب أنها تعبر أيضا عن شخصية صاحبها ومزاجه الخاص ومدى استعداده للتطور فالهندام جزء من مقومات الشخصية له أهميته التى لاتنكر، فماذا كان المغول يرتدون ؟

كانت ملابس المغول بسيطة وساذجة تتفق والبيئة التى يعيشون فيها" (٢) فقد كانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال وجلود الحيوانات ٠

ويبدو أن البيئة القاسية لم تعطهم فرصة الاهتمام بثيابهم فكان أكبر همهم أن تكون هذه الملابس بالكيفية التى تلائم ذلك المناخ المتقلب ولهذا كان المغول لايهتمون بالثياب كثيرا" (٣) الا باعتبارها وسيلة وقاية يومية من خطر الطقس الاهوج ٠

ولم يمنع ذلك من أن المغول لكانت لهم اسبقية خاصة فى بعض أنواع الثياب اقتبسها منهم غيرهم ثم افتتنوا فيها بعد ذلك ، "فقد أعطى رعاة الاستبس(المغول) البذلة الافرنجية لان السروال فى الأصل من جراء ركوب الخيل ومن أخص خصائص السهوب بل ان البيجاما التى أعطاها الهنود للعالم هى ترجمة حارة لملابس الاستبس اخذوها عنهم باحتكاكهم معه" ٠ (٤)

ويقصد بالبذلة الافرنجية الثوب المكون من قطعتين والذى تطور فيما بعد الى أشكال عديدة منها البيجاما التى تستخدم الان كلباس للنوم فقط ٠

---

(١) د٠ مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٣، نقلاعن هوارث ،تاريخ المغول ص ٣٧٠

(٢) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٠

(٣) أرمينوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٢

(٤) د٠ جمال حمدان: أنماط من البيئات ص ٦٠

كذلك تميز المغول عن جيرانهم فى الصين بارتداء الملابس البيضاء فى المناسبات والأعياد وأوقات البهجة والسرور وكانوا يعدونها مجلبة للسعادة والهناء فى حين كانت عند الصينيين من شعائر الحزن". (١)

تطور الزى المغولى :

التطور - بصفة عامة - سنة حياتية يحركها الزمن ويؤثر فيها الاتصال بالنظم الحضارية الاخرى واتصال المغول بغيرهم من الأمم انعكس اثره على مختلف شئون حياتهم بما فى ذلك ملابسهم ولا شك أن اتصالهم بالصينيين فى الشرق والمسلمين فى الغرب جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التى استولوا عليها وتعايشوا معها فى طرق حياتهم فتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل". (٢)

وفى الحقيقة كان المغول مهيئين لهذا التغيير منذ الأيام الأخيرة من حياة جنكيزخان الذى لم يخف انزعاجه كثيرا من هذا الامر الذى حمل فى طياته - من وجهة نظره - مخاطر الابتعاد عن حياة الصلابة والجلد التى ألفها المغول الأول فى منغوليا " فقد تطور المغول فى ملابسهم فلم يعودوا يلبسون جلود أو فراء أغنام جوبى بل صاروا يرفلون فى ثياب مصنوعة من الحرير والذهب". (٣)

وهكذا .. فان التطور الذى تخوف منه جنكيزخان قد وقع فعلا فما كان المغول وقد انساحوا فى أرجاء الارض وكونوا امبراطورية واسعة أن يحتفظوا بملابسهم البالية اذا ما قيست بملابس الامم التى اتصلوا بها يقول الدكتور مصطفى طه بدر (٤) وصاروا يستوردون الحرير من الصين وايران والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوربا التى كانت تدين لهم بالطاعة"

ونلاحظ على هذا النص قوله (يستوردون) فما كان المغول بمستوردين بل كانوا يحصلون على كل شئ بمنطق القوة والقسر .. غير أن ارتداء الحرير الناعم والفراء الثمين "والأقطان التى تأتى من بلاد الفرس (ايران) وتبطين الثياب كلها بالحرير الخفيف الدافئ" (٥) يعطى دلالة واضحة على مدى رغبة المغول فى التخلص من براثن الفقر والبؤس فى منغوليا والاستمتاع بما فى الحياة من نعم وحضارة .

ملابس النساء :

مما يلفت النظر فى ملابس المغول أن ملابس النساء لم تكن تختلف جوهريا عن ملابس الرجال فبساطة الملبس لدى المغول جعلته متشابها بين الاثنين الى درجة كبيرة، "حتى تكاد ملابس النساء أن تشبه ملابس الرجال". (٦)

---

(١) جون هامرتن ، تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٧ ،د.رالف لنتون ،شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٦٩
(٢) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٢
(٣) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٦
(٤) محنة الاسلام الكبرى ص ٥٣ عن هوارث ،تاريخ المغول ص ٣٧
(٥) د. هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٥٧
(٦) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٦١ نقلا عن هوارث تاريخ المغول ص ٣٧.

كذلك كانت نوعية الملابس تحقق هذا التشابه أيضا " فالسروال وهو من أخص خصائص السهوب قد صار لباس الرجل والمرأة على السواء". (١)

غير أن الأمر لم يكن ليخلو من بعض التمييز بين ملابس الرجال" فقد كان لباسهم العادى مكونا من سروال ثم ثوب خارجى ذى أكمام يشبه القميص كان قصيرا للرجال طويلا للنساء" (٢). فالمرأة والرجل يتشابهان فى ارتداء السروال لان كلاهما يركب الخيل غير أن القميص يختلف فى طوله بينهما كذلك بدأت نساء المغول تلبسن الملابس الحريرية التى أخذن يحصلن عليها عن طريق المقايضة من التجار المسلمين". (٣)

ويورد (بروى) (٤) مظهرا طريفا كانت النساء المتزوجات المغوليات يميزن بهن أنفسهن عن الفتيات العذراوات .. يقول".. وتضع النساء المتزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيين يغطينها أحيانا بقماش صوفى أوحريرى للدلالة على الثراء، وتنتهى القبعة بذيل طويل فهى تشبه الأوزة أو ذكر البط".

الياسا وغسل الثياب :

كان المغول – فى الغالب – لايغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها" ( ) وقد يبدو هذا أمرا عاديا بالنسبة لمجتمع بدائى كالمجتمع المغولى .. وعلى الرغم من كثرة الأتربة والرمال وغيرهما مما كان ينتشر فى هذه البيئة القاسية فان المغول كانوا يغيرون ملابسهم فى الصيف مرة كل شهر وفى الشتاء لايغيرونها أبدا" ( ) غير أن (الياسا) كانوا أكثر تشددا حين نصت على "أن لايجوز غسل الملابس بل تلبس حتى تبلى" ( ) بل وذهبت أبعد من ذلك حين ألزمت "بألا يقال لشئ انه نجس ، وأن جميع الأشياء طاهرة، فلا يفرق بين طاهر ونجس". ( )

وبالطبع يعد هذا منهجا خطيرا يبتعد كثيرا عن أدنى مستويات النظافة، وهو يدفع الى التساؤل .. هل مرد الأمر فى ذلك الى ندرة الماء، أم هى طبيعة المغول التى عودتهم على العيش بأى صورة وفى مكان دون اعتبار لنظافة أو هندام ؟ أما هو الفقر الذى يدفع الى الخوف على الثياب من أن تبلى من كثرة الغسل ؟!

وهكذا فان اصابة الملابس بأى نوع من النجاسات كالبول أو البراز أو الدم أو روث الحيوان لم تكن لتدفع المغول الى غسل ثيابهم أو حتى محاولة تطهيرها وتلك علامة تخلف واضحة تحسب على المغول بطبيعة الحال.

---

(١) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٦٠
(٢) د.رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٦٩
(٣) د- فؤاد الصياد : المغول التاريخ ص ٢٣
(٤) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٤
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ص ١١٩
(٦) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٣
(٧) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٣٩
(٨) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ ،صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٢

يقول بارتولد (١) " وبالرغم من انتشار الاسلام لدى بركة خان واتباعه فقد كانت تتبع هناك بعض عادات المشركين المتبعة فى منغوليا ومن ثمة فقد نبه على سفراء مصر مقدما بألا يغسلوا ملابسهم فى(الاوردا) ولكنهم لشدة حاجتهم لذلك كانوا يغسلونها سرا"

ونوضح أولا أن بركة خان كان أول حاكم مغولى يعلن اسلامه، ومن ثم كان هو وأتباعه المقيمون فى جنوب روسيا حديثى عهد بالاسلام ـ الذى لم يكن قد تمكن تماما من قلوبهم آنذاك ـ وعليه فان تمسك المغول فى مطلع اسلامهم ببعض عاداتهم القديمة أمر طبيعى لايستوجب الدهشة فنحن نعلم أن التغيير وبخاصة الاجتماعى يحدث تدريجيا لا طفرة والا انتكس الحال راجعا الى ما كان عليه من قبل .

وملاحظة بارتولد وهو مستشرق روسى تذكرنا بملاحظات المستشرقين الذين تحدثوا عن حروب الردة تلك التى بدأت فى أواخر عهد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وأول خلافة الصديق أبى بكر وكان أولئك قد استدلوا خطأ على أن ارتداد بعض القبائل عن الاسلام يرجع الى قصور فيه وتناسوا عوامل جغرافية وسياسية واجتماعية عديدة أدت الى ذلك.

اذن يمكننا أن نقول أن التعليمات التى أوردتها الياسا والعادات السيئة التى جبل عليها المغول منذ القدم ما كان لها أن تصمد طويلا أمام احتكاكهم بشعوب أخرى متحضرة وبدين قوى غالب هو الاسلام يحرص على النظافة دائما ويراها عنوانا للمسلم لاينفصل عنه.

النظافة العامة :

وتلك سمة جلية من سمات المظهر العام للأفراد بل هى أشمل العلاقات جميعا فى الدلالة مدى تحضر الأفراد ومدى نضجهم الاجتماعى . وأغلب الظن أن المغول حتى عهد جنكيز خان لم يكونوا مهتمين بنظافة عامة أو خاصة وأنى لهم ذلك وهم لا يغسلون ثيابهم البتة ولا يغيرونها الا نادرا فى السنة الواحدة .

كذلك "كانت الياسا قد حرمت على المغول غسل الايدى فى المياه الجارية واعتبر ذلك جريمة جنائية بل من أمهات الجرائم التى يعاقب عليها بالاعدام". (٢)

فمجرد غسل الايدى فى المياه الجارية عقوبته الاعدام وهى عقوبة كفيلة بأن تمنع أى مغولى عن غسل يديه البتة فى المياه الجارية أوغيرها ، فماذا عن الاغتسال اذن ؟

وبالاضافة الى ذلك كان مما شرعه جنكيزخان فى الياسا انه لايجوز الاستحمام فى المياه الجارية أثناء الرعد والصواعق ". (٣)

وهذا النص يمنع الاستحمام اذا ارتبط بحدوث الرعد والصواعق لان المغول كانوا يخشون حدوث أى منها ويعتبرونه نذير شؤم وهلاك فهل كان يسمح بالاستحمام فى المياه الجارية اوغيرها فى أوقات أخرى ؟

وفى الحقيقة فان المغول كانوا يكرهون الاستحمام والنظافة" (٤) ولا ندرى سببا

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى أسيا الوسطى ص ١٧٨

(٢) د.براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦١

(٣) د. عبدالسلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٤

لهذه الكراهية الغريبة غير ماجبل عليه المغول من عدم اهتمام بنظافتهم أومظهرهم وهو دليل على مدى اهمالهم لمقتضيات الصحة العامة حتى أنهم اتصفوا بالقذارة والنتونة والنجاسة ومما يذكر عنهم انهم كانوا اذا مروا بمكان فان رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة". (١)

ويعاود بارتولد (٢) الحديث عن مغول القبيلة الذهبية فى عهد بركة خان وقد أسلم معظمهم على يديه يقول" وهناك عادة تتبع وهى تتعارض مع تعاليم الاسلام وهى منع استعمال مياه النهر فى الاغتسال". واذا كنا قد قبلنا قول بارتولد بأن غسل الملابس ممنوع وفقا لتعاليم الياسا وخاصة فى المياه الجارية فان هذا لايمكن التسليم به الا على افتراض واحد مؤداه أن المغول المسلمين ان لم يغتسلوا فى مياه الأنهار فانهم كانوا يغتسلون بطريقة أو بأخرى والاكيف يتاح اداء الصلوات فى الحالات التى يستوجب فيها الاغتسال كالجماع والجنابة والدخول فى الاسلام... الخ .

وأغلب الظن أن اتجاه المغول الى الاسلام هو بداية اهتمامهم بالنظافة خاصة فى جنوب روسيا وايران ومعظم التركستان. أمافى الصين فالمغول فى عهد أسرة اليوان - وهو الاسم الذى أطلقه المؤرخون الصينيون على الحكام المغول فى فترة الاحتلال المغولى للصين- ظلوا على حالتهم السيئة التى كانوا عليها فى منغوليا "ويعترف فى تاريخ اليوان بصراحة بأن رائحة كريهة تنبعث من الملابس السوداوية اللون التى يرتديها المغول ومرد ذلك الى أنهم يغطون أجسامهم بالجلود والفراء" (٣)

ويبدو أن الرائحة الكريهة تلك ترجع الى استخدام المغول لنوع من الثياب لايتخلله العرق . غير أن المغول فى عهد قوبيلاى وتأثرا بالصينيين قد تخلصوا من ذلك كله فقد كانت الحمامات فى بكين فى عهده وافرة العدد وأدى استخدام الفحم الذى كان يوجد بكل اقليم بالصين الى القول بأن كل شخص كان بامكانه أن يستحم بالماء الساخن ثلاث مرات فى الأسبوع". (٤)

واعتقد أن المغول وقد تطور الزمن بهم وازداد اتصالهم بالأمم المجاورة ما كان بوسعهم ان يعيشوا بمعزل عن هذا الاهتمام الفائق بالنظافة وخصوصا أنهم قد صاروا سادة وانتقلوا من حياة الخيام الى البيوت والقصور.

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢١
(٢) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٨
(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٣
(٤) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٨

الفصل الثانى

حياة المرأة بوجه خـــاص

١ ـ مكانة المرأة فى المجتمع المغولى .
٢ ـ المرأة وشئون الحكم .
 ـ الوصاية على العرش
 ـ ولاية العهــد
 ـ حضور الاجتماعات والمناسبات
 ـ التأثير فى قرار الخان
 ـ محاولة قلب نظام الحكم
٣ ـ مشاركة المرأة فى الحرب .
٤ ـ المرأة والشئون الدينية .
٥ ـ السبايا والجــوارى .
٦ ـ المرأة والتكليف الاجتماعى :
 ـ رعاية شئون البيــت
 ـ النهوض بأعمال الرجال فى غيبتهم
 ـ صناعة ادوات الحرب
 ـ حلب الماشية واعداد الالبان
 ـ نسيج الملابــس
 ـ اعداد الجلود وصنع الاحذية
 ـ فك المنزل وتركيبه
 ـ قيادة الثيران فى المرعى
 ـ الاشتغال بالتجارة
٧ ـ الزواج فى المجتمع المغولى :
 ـ حقوق الزوجـــــة
 ـ الياسا والــزواج
 ـ مراسم الزواج (الخطبة ـ المهر ـ حفل الزفاف)
 ـ تعدد الزوجــات
 ـ الزواج السياســـى
 ـ زواج المغولية من غير المغولى

مكانة المرأة فى المجتمع المغولى

يفخر المصريون القدماء بأن المرأة لديهم نالت مكانة عالية واحتراما لم يتوافرا لها فى أى مجتمع معاصر أو لاحق حتى ظهور الاسلام فى شبه جزيرة العرب . وحتى أفلاطون فى جمهوريته التى تعد مفاخر نتاج حضارة الاغريق كان يرى أن النساء خلقن لمتعة الرجال وليس لهن أدنى حقوق ولهذا ليس للمرأة مكانة واضحة فى دولته.

كذلك نظرت الكنيسة الى المرأة فى العصور الوسطى نظرة خاصة فالمرأةاحدى حبائل الشيطان .. وهى أيضا للمتعة الشخصية وحسب .

وفى أول عصر النهضة استخدمت النساء – لان أجورهن أقل – فى المصانع بما أسفر عن وفاة الكثير منهن لعدم الرعاية أوالاهتمام.

وهكذا لم تلق المرأة مكانتها الحقيقية الا فى ظلال الاسلام الذى ضمن لها حقوقا عدة كالميراث والتعليم والملكية الخاصة واختيار الزوج .. الخ

ولعل ذلك يدفعنا الى التفكير.. فى الكيفية التى عامل بها المغول المرأة لديهم .

يقول الدكتو رالف لنتون (١) " وكانت المرأة تتبوأ مكانة عالية نسبيا" وقد تبدو (نسبيا) غامضة لا توضح لنا أى مقارنة معمجتمع مجاور أومعاصر أو زمن مغاير. غير أن العبارة على العموم تشير الى مكانة طيبة للمرأة المغولية فى مجتمع بدوى بالدرجة الأولى .
ويقول توماس ارنولد (٢) : " ويظهر أن المرأة قد شغلت مراكز الشرف والكرامة بين المغول فقد كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية".

ويقول الرحالة العربى ابن بطوطة (٣) والنساء لدى الاتراك والتتار (المغول) لهن حظ عظيم" الحظ هنا يقصد به المكانة والتقدير.

ويقول القلقشندى (٤) :ومن رسم المغول تعظيم الولد بنسبة والدته" واعتقد أن المقصود بالعبارة ليس مجرد الانتساب الى الام فحسب وانما التعظيم مرده أيضا الى العائلة التى تنتمى اليها الامّ نفسها .

ولقد كان فى حياة المغول نساء شهيرات احتفظن بمكانة خاصة موءثرة فى تاريخ المغول. نذكر منهن على سبيل المثال :

١ – <u>هولـــون :</u>

وتنتمى الى قبيلة الميركيت المغولية وهى زوجة بيسوكاى بهادر زعيم قبيلة(قيات) المغولية، فلما مات مسموما حاولت بكل السبل جمع شمل القبيلة وفى الحقيقة فان مااشتهرت به هذه المرأة من النشاط حفظ لابنها الخان الصغير(تيموجين) قدرا من السلطان على قبائل أبيه". (٥)

---

(١) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١٩١
(٣) تحفة النظار فى غرائب الامصارج ١ ص ١٥٤
(٤) صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٠٦
(٥) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤١٢

حقا لقد حاولت المرأة بكل طاقتها وعملت على أن يستمر مركز الزعامة محفوظا لابنها بعد أبيه حتى انها – كما سبق القول – تزوجت رجلا يدعى "ايجيك" وبهذه الوسيلة التحقت قبيلته المسماه (قونغ قومار) بجنكيزخان فصارت تابعة له وهذا مما ساعد جنكيز خان كثيرا فى نجاحه على مناوئيه وتسلطه عليهم". (١)

فهو زواج سياسى بالدرجة الاولى من أجل الحرص على استمرار الزعامة . ويبدو أن مكانة هذه المرأة فى قبيلتها الميركيت كانت عظيمة فقد كانت سببا فى الغارات التى وقعت بين المركيت وقيات لمدة عشرين عاما تقريبا .

٣ – توراكينا خاتون :

أرملة (أوكتاى) ثالث أبناء جنكيزخان وخليفته وهى تنتمى الى قبائل النايمان .. وكانت تتمتع بمواصفات خاصة استطاعت من خلالها أن تحافظ على عرش الخان الاعظم لابنها كيوك لمدة خمس سنوات كاملة فقد اتصفت بأنها امرأة عاقلة مدبرة ذات شخصية قوية" (٢) كما كانت تمتاز بالجزم والذكاء (٣) وعلى الرغم من ذلك فقد كانت معروفة بالشراهة للمال وتعلقت – رغم أنها نسطورية – بأحد المسلمين يدعى (عبد الرحمن) غير أنه ما من أحد كان عنده من القوة ما يكفى للتخلص من وصايتها" (٤) فقد كانت – على حد تعبير رشيد الدين – تميل بطبيعتها الى التسلط الشديد. (٥)

٤ – أوغول قاميش خاتون :

وهى أرملة (كيوك) حفيد جنكيزخان . وكانت تتصف بالبخل والشح والميل الى أعمال السحر والشعوذة . وقد اختلطت عليها الأمور واضطربت شئونها ولم تصمد فى مواجهة شخصية نسائية أخرى أكثر منها دراية وخبرة هى الاميرة (سرقوينى) فانتابها الشطط وعجزت عن اقناع المغول بانتخاب الامير شيرامون بن كوجو بن أوكتاى خاقانا أعظم خلفا لزوجها (كيوك) "فلما أيقنت بانحياز المغول الى منكوبن تولوى وأمه (سرقوينى) بادرت الى التآمر للتخلص من (منكو) لكن انتهى أمرها الى الاغراق فى الماء والدة الأمير شيرامون بتهمة ممارسة السحر" (٦) وقد وصفها الخان الاعظم منكو بأنها امرأة شريرة أسوأ من كلبة ، وما كان لها أن تعرف شيئا فى شئون الحرب والسلم أو مصالح الدولة" (٧) وكان قد وفدت فى أيامها سفارة لويس التاسع بطلب التحالف فاستقبلت السفارة بالترحاب والايناس ، غير أنها اعتبرت ما أرسله الملك لويس التاسع من الهدايا جزية يؤديها التابع للسلطان". (٨)

٥ – سرقوينى :

هى أرملة تولوى بن جنكيزخان الأصغر وتنتمى هذه الاميرة الى قبيلة الكرايت فهى

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٧١
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٦
(٣) د. عبدالسلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٤
(٤) د.ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤٣٥
(٥) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الغزو المغولى الى الفتح العربى ص ٦٧٥
(٦) د.ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٠٥
(٧) د. بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٤٨
(٨) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ١٩٥.

ابنة أخى (أونج) خان زعيم الكرايت ، يقول عنها ابن العبرى (١) ممتدحا" وقد أحسنت تربية الأولاد وضبط الأصحاب وكانت لبيبة مؤمنة تدين بالنصرانية وتعظم محل المطارنة والرهبان وتقتبس صلواتهم وفى مثلها قال الشاعر :

فلو كان النساء كمثل هذه
لفضلت النساء على الرجال

وبدهى أن ابن العبرى مسيحى متعصبا قد بالغ فى وصف هذه الاميرة التى كانت شديدة التمسك بالمسيحية النسطورية ولقد لقيت الاميرة (سرقوينى) تقديرا واحتراما كبيرين لما اشتهرت به من الحكمة والاستقامة حتى أراد (أوكتاى) أن يزوجها لابنه (كيوك) بعد وفاة زوجها (تولوى) غير أنها رفضت فى لباقة وأشارت أنها تؤثر أن تكرس حياتها لتربية أبنائها المشهورين منكو قوبيلاى ، هولاكو ، أريق بوقا. (٢)

٦ ـ <u>دوقوز خاتون :</u>

وهى زوجة ثانية لتولوى بن جنكيزخان ، واشتهرت بالحكمة والكياسة وشدة الذكاء ، وكان لها مكانة كبيرة فى نفوس المغول لا تقل عن مكانة ضرتها "سرقوينى" يقول عنها رشيد الدين فضل الله الهمذانى (٣) "وكانت (دوقوز) خاتون تتمتع بمنزلة كبيرة . كما كانت قوية الشخصية ، وكانت من أقوام كرايت".

وعلى عادة المغول تزوج هولاكو بن تولوى من زوجة أبيه دوقوز خاتون فصحبته الى ايران . وهناك كان دور كبير فى انتظارها فلقد أثرت فى حياة المغول سياسيا ودينيا فى ايران ، اذ كان هولاكو يعزها ويستشيرها فى مهام الأمور". (٤)

واستشارة هولاكو لها فى مختلف الشئون ترجع الى كفايتها ومعالم شخصيتها وكذلك الى وصية أخيه الأكبر فقد قال منكو الخان الأعظم لأخيه هولاكو وهو ذاهب يغزو لايران "وشاور (دوقوز) خاتون فى جميع القضايا والشئون". (٥)

وقد اثرت فيما سبق الى تدخل دوقوز خاتون كى تخفف من وطأة غضب هولاكو على عز الدين كيكاوس المنافق صاحب الفعل الشهير .

٧ ـ <u>جاموى خاتون :</u>

وهى أعظم زوجات الخان الأعظم قوبيلاى وكانت تقيم فى قصره ببكين . وكانت تتمتع بصفات الحكمة والخبرة والتأثير فى الأمور وكانت أجمل هؤلاء الامبراطورات وأروعهن وكانت تعرف كذلك بالسيدة الكبيرة وكان لها فى الغالب على قوبيلاى نفوذ كبير وسلطان وعندما عرضوا عليها كنوز الحكام الصينيين التفت الى زوجها قائلة . هل الى مثل هذا المصير سينتهى امر الأسرة المغولية بدورها يوما ما؟" (٦)

وهذا الرأى يحمل فى طياته بصيرة امرأة بعيدة النظر ترقب الحاضر بعين المستقبل

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٤
(٢) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٥ ص ٥٠٥
(٣) جامع التواريخ (نشر كاتريد) المجلد الثانى جـ٢ ص ٢٢٠
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٤١
(٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ جـ ٢ مجلد ٢ ص ٢٣٧
(٦) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٨

٨ - الاميرة اورغنـــه :

وهى زوجة قرا هولاكو بن جغتاى الذى كان يحكم منطقة بلاد ما وراء النهـــر والتركستان الشرقية وهى المنطقة التى خص بها جنكيز خان ابنه جغتاى ليحكمها وجعـــل لاولاده حق وراثة هذا الحكم • ويقول عنها فامبرى (١) " وقد قبضت على زمام الامور فـــى خانية جغتاى الاميرة المغولية اورغنه التى تمكنت من قتل بيسومنكو غريم زوجها السابق قـــرا هولاكو وحكمت فى البلاد النهر حكما دام عشر سنوات" وكانت هذه الاميرة قد أحسنت تربية ابنها الامير ( ) على الاسلام وكان أول حاكم مغولى مسلم فىمنطقة التركستان •

اما عن صفاتها التى كانت تتمتع بها فيقول عنها المؤرخ الايرانى" وصاف" وكانت واحدة من بين زينات المغول فى الجمال واللطف والكياسة والعظمة وليس لها نظير بين المغول فـــى ابداع الخلقة على أحسن الصور" • (٢)

٢ - بورتـــاى :

هى ابنة زعيم طائفة القنقرات احدى الطوائف المغولية المعروفة تزوجها تيموجين وهو فى السابعة عشرة من عمره وكانت تكبره بعام واحد وذلك عقب تمكنه من استرداد سيطرته علـى الزعامة فى قبيلته (قيات) • ولعل اشهر حدث ارتبط بهذه الزوجة الاولى هو "اختطافهـــا بعد زواجها مباشرة فقد اختطفتها قبائل الميركيت المتوحشين" (٣) ثأرا مما فعله أبـــوه (بيسوكاى) من قبل •

حقا انجنكيزخان استعادها مرة ثانية وانتقم من الميركيت ـ بمعاونة الكرايـــت (٤) غير أن شرعية ابنه الاكبر (جوجى) ظلت موضع شك حتى قيل انها كانت السبب فى عدم ترشيح الامير باتو بن جوجى لمنصب الخان الاعظم •

وقد انجبت هذه المرة لجنكيزخان ابناءه الاربعة المشهورين فى حياة المغول وهــم على الترتيب جوجى ، جغتاى اوكتاى ، تولوى •

وظلت هذه الزوجة على رأس زوجات جنكيزخان حتى وفاته سنة ٦٢٤هـ فقد كانـــت لها مكانة خاصة فى نفس جنكيزخان •

مواقف خاصـــة :

كانت المرأة المغولية تلقى معاملة حسنة غالبا وكان المغول يحترمون نساءهم خصوصا اذا اتصفن بالحكمة والتعقل وحسن السياسة وكان من أمثلة هؤلاء كما ذكرت (هولون) أم جنكيزخان ، (بورتاى) زوجته ، (سرقوينى) زوجة (تولوى) ••• الخ •

غير أن بعض المواقف فى تاريخ المغول لاتستقيم مع هذا الاطار العام ومن ذلك أنه "أخذ على أولاد اوكتاى انهم خرجوا على قاعدة فى (ياسا) جنكيزخان تنص على تحريم اعـدام أحد من أفراد البيت المالك الا بقرار جماعى ، وذلك أنهم أعدموا ابنة جنكيز خان المسمــــاه

---

(١) تاريخ بخارى ، ص ١٩٠
(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٩٠
(٣) د•هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٤
(٤) د• عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣١

(التالون) بلا محاكمة أوتحقيق " (١) .

ولقد سبق أن أشرت الى اعدام ا لوصية على العرش(أوغول قاميش) فاغرقت هي وأم الأمير (شيرامون) حفيد (أوكتاى) .

وحدث بعد تولى منكوقا ان الحكم أن اعيد قرار هولاكو الى الحكم فى خانية التركستان وبلاد ما وراء النهر بعد أن كان قد عزل فى عهد الخاقان الاعظم الراحل (كيوك) فلما ترك له أمر محاكمة الأميرة (نوقاشى) زوجة غريمه الذى كان قد احتل مكانة على العرش فيما سبق "أمر بأن ترمى تحت سنابك الخيل " . (٢)

كذلك لما تحولت الأمور عن الايلخان أحمد تكودار فى ايران وهاجم أعوان خصمه ( ) معسكره فانهم انقضوا على أمه (قوقى خاتون) فجردوها من حليها كما جردوها من ملابسها . وهكذا كان سلوكهم معيبا ومشينا الى أقصى حد ، ومخالفا لقوانين المغول التي تحفظ للمرأة كرامتها وتحرم التعرض لها بسوء" . (٣)

وينبغى أن نقول ان هذا كله لايهدم القاعدة العامة من أساسها فما تلك الا مواقف فردية لاتنم عن اتجاه عام اذ فى أغلب المواقف كان المغول يقدرون المرأة ويحفظون لها كيانها

المرأة وشئون الحكم

كان طبيعيا والمرأة قد نالت هذه المكانة لدى المغول أن تشارك فى ممارسة شئون الحكم مشاركة فعالة خاصة فى الفترات التى تقوم فيها بالوصاية على العرش لحين تمكن أحد أولادها القصر من النهوض بمسئولية الحكم . ولقد كانت هناك جوانب عدة ساهمت فيها المرأة المغولية فى هذا المجال .

أولا : الوصاية على العرش :

تمثل وصاية المرأة على العرش – بعد وفاة زوجها – قضية قديمة لدى المغول توارثوها على مر الأيام منذ عهد أجداد جنكيز خان فقد تولت (الاونقووا) الحكم عندما توفى زوجها (دويون – بايان) أحد أجداد جنكيز خان وترك ولدين الكبير"بكوداى" والصغير" بوكجه داى" وعمرهما السابعة والسادسة ونظرا لصغرهما صارت أمهما وصية عليهما فزاولت شئون القبيلة متربصة أن يكبر أولادها ويتولوا الحكم وفى خلال ذلك طلب منها أخوة زوجها وغيرهم أن يتزوجوها فلم تقبل معتذرة بأنها تدبر أمور القبيلة الى أن يبلغ أبناؤها أشدهم ولا ترغب بسوى ذلك" . (٤)

فهذه المرأة – التى تعتبر جدة عليا لجنكيز خان – تولت تدبير شئون المغول وتصريف أمورهم عقب وفاة زوجها .. فهى وصاية مؤقتة ولكنها بلا شك مؤثرة على الأقل فى وصول الحاكم الجديد الى منصب الزعامة.

---

(١) د. بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٨٢
(٢) نفس المصدر السابق ص ٦٨٦
(٣) د. فؤاد الصياد: المشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ١٤٦
(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٧٠

وتظل هذه الوصاية قائمة حتى يبلغ أحد الابناء السن الذى يؤهله للحكم فينعقد المؤتمر العام للمغول حيث يتم اختيار الخان الجديد الذى يزكيه فى الغالب توصية للخان المتوفى.

وجدير بالذكر أن وصاية المرأة لم تكن تخلو من متاعب جمة ، فلربما انقضت سنون بين وفاة الخان وانعقاد وكان الحاكم طوال هذه المدة وطبقا للتقاليد هو زوجة الخان المتوفى ولكن سلطانها لم يكن يعترف به من الجميع بل كان بعض الامراء يتصرفون فى ولاياتهم بوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها". (١)

بل ان مسألة وصاية المرأة ذاتها قد تتعرض للرفض أحيانا من قبل غالبية زعماء القبيلة. وهذا ما واجهته هولون أم تيموجين عقب وفاة زوجها ، اذ بعد وفاة بيسوكاى بهادر تبادل المحاربون وجهات النظر وقرروا مغادرة المخيم وكان قرارهم " ان الرباط القوى الذى يمنحنا القوة والمنعة قد ذهب ولم يبق غير المرأة وأطفالها فما لنا واياهم" وقد حاولت أم الصبى القلقة على مصير القبيلة أن تفعل ما فى وسعها فأخذت العمود الذى يحمل ذيول الوعول البيضاء التسعة - وهو لواء خان المغول - وخرجت الى المنشقين تلتمس منهم البقاء ولكن لم يستجب لها الا نفر قليل". (٢)

وهكذا لم يتح لأم تيموجين ان تحظى بشرف الوصاية على العرش رغم صغر سن اولادها القصر. ذلك أن زعامة (قيات) انتقلت الى شخص اخر. ومن هنا اضطرت هذه الأم للزواج بزعيم قبلى اخر حتى يدعم موقف ابنها تيموجين المطالب بعرش أبيه . كما ذكرت سلفا.

وكذلك عندما توفى جنكيزخان لم تنل (بورتاى) زوجته الاولى هذا الشرف فقد كان أولاده كبارا وليسوا فى حاجة الى وصاية ومن هنا تولى ابنه الاصغر (تولوى) تدبير شئون البلاد- وفقا لتعاليم المغول وعاداتهم - لحين انتخاب (أوكتاى) أخيه خاقانا أعظم مكان أبيهما وتنفيذا لوصية جنكيز خان نفسه .

أما توراكينا (خاتون) أرملة أوكتاى فقد حظيت بشرف الوصاية على العرش عقب وفاة زوجها الخاقان (أوكتاى) فقد تولت ادارة حكومة البلاد حتى يستطيع ابنها الاكبر كيوك العودة الى منغوليا من معاركه التى كان مشغولا بها فى روسيا وبولندا عند موت أبيه". (٣)

ولما كان كيوك حديث السن بالنسبة لمنصب الخاقان الاعظم فقد تدخل عمه جغتاى لمعالجة الامر. فاتفق وباقى الاولاد (الامراء) على أنها تتصرف فى تدبيرالممالك الى وقت القوريلتاى لانها أم الاولاد (ابناء أوكتاى) الذين لهم حق استحقاق الخانية". (٤)

وهكذا تولت توراكينا خاتون الوصاية لما لها من صفات خاصة وبتأييد من جغتاى وبقية أفراد العائلة الامبراطورية . كذلك كانت مدعمة بعادات المغول وتقاليدهم وجريا على هذه شرعت (توراكينا) خاتون أرملة أوكتاى فى مباشرة مهام الحكم الى أن عقد لانتخاب الخاقان الجديد". (٥)

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٨٦

(٢) د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٦

(٣) د .جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٤

(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٤٥٢، عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٣٩، بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ٦٧١

(٥) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٤

كذلك قدر (لاوغول قاميش) أرملة كيوك أن تحظى بشرف الوصاية على العرش ،فعندما توفى زوجها قامت بالوصاية على أبنائه قوشو، نقو، قوغو "(١) .

وكما احتاجت توراكينا الى معاضدة جغتاى بن‌جنكيزخان احتاجت اوغول قاميش الى مساندة باتو حفيد جنكيزخان فبعث رسولا اليه واعلمته بالقضية فسير رسولا اليها واذن لها بالتصرف فى الممالك الى أن يقع الاتفاق على من يصلح ان يلى الأمر وأرسل الى الجوانب ليجتمع الاولاد والعشائر والأمراء من المغول". (١)

وهكذا لم يتح – فى الفترة التى نتحدث عنها – للفوز بمنصب الوصاية على عرش الخاقانية الا لتوراكينا خاتون وأوغول قاميش خاتون. وبمعاضدة من الأمراء فى أسرة الخان وبالاستناد الى تقاليد المغول وعاداتهم .

ثانيا : ولاية العهد :

تعرض المجتمع المغولى – شأنه شأن غيره من المجتمعات – لمحنة ولاية العهد وتلك محنة استفحل أمرها فى كثير من الدول فكانت واحدة من أهم أسباب الفتن والقلاقل فيها.

وولاية العهد كمشكلة ارتبطت بنظام وصاية المرأة على عرش الخان فكل وصية كانت تستميت كى يظل منصب الخاقانية مقصورا على ابنها ترى هى توليته دون غيره.

وتعد تواركينا خاتون الوصية الوحيدة التى نجحت فى الاحتفاظ بعرش الخان الاعظم لابنها بعد وفاة زوجها أوكتاى الذى كان يرغب فى تولية ابنه كوجو، غير أن كوجو توفى أثناء الحرب مع الصين فعزم أوكتاى على أن يعهد بالحكم من بعده الى حفيده الأمير شيرامون بن كوجو .

وهكذا وجدت توراكينا الفرصة مواتية " اذ على اثر وفاة أوكتاى اختلف المغول على من يخلفه على العرش ولكن تواركينا خاتون لم تأبه لهذه الادعاءات وصممت على أن يحتل ابنها كيوك هذا المنصب دون‌غيره من‌الشخصيات المغولية ولبلوغ هذه الغاية صارت تعمل مدة خمس سنوات (٦٣٩ – ٦٤٤هـ) على استمالة قلوب المغول الى جانب ابنها". (٢)

وبدهى أن نجاح(توراكينا) فى هذه المهمة الصعبة التى تخالف وصية الخاقان المتوفى لهو دليل على ما تمتعت به من مواصفات خاصة ، فقد تمكنت (توراكينا) خاتون بدهائها وسياستها أن تحافظ على عرش المغول لابنها كيوك اذ عملت على ان يطول أمد وصايتها كى تمهد السبيل لتحقيق هدفها. (٣)

أما أوغول قاميش خاتون الوصية الثانية فلم تكن تملك مواصفات سابقتها من الحنكة والدهاء والصبر علاوة على اشتغالها بالشعوذة والسحر وما اتصفت به من البخل والشح .. وبالاضافة الى ذلك كان أبناء كيوك صغار السن بصورة لايمكن معها انتظار وصول اكبرهم الى العرش خاصة وأن امبراطورية المغول قد ازدادت اتساعا ولم يعد الامر يحتمل اطالة امد

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٤٥٢ ،وعباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٣٩.

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٦ نقلا عن رشيد الدين جامع‌التواريخ

(٣) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٥

الوصاية على العرش .

ومن هنا فكرت (أوغول قاميش) فى بديل مناسب عن أحد أبنائها فعملت على تنفيذ وصية الخان الاعظم الأسبق (أوكتاى) وذلك بتولية الامير (شيرامون) بن كوجو بن جنكيزخان منصب الخاقان الاعظم - مستعينة فى ذلك بوالدة هذا الامير غير أنها - كما ذكرت - لم تكن تملك مقومات الاقناع عند المغول ولهذا فان أغلب الأمراء لم يوافقوها". (١)

وشاء سوء طالع الوصية على العرش أن تصطدم رغبتها كذلك بما كانت تسعى الأميرة الشهيرة (سرقويتى) اليه وهى التى كانت تعد أعظم أميره مغولية لما لها من كفاءة ممتازة وحزم نادر وعقل راجح بالاضافة الى تفقهها فى فهم قوانين جنكيز خان ولهذا استطاعت أن تأسر قلوب أغلبية الامراء والقواد والمغول لانتخاب ابنها منكو". (٢)

وهكذا أودت مشكلة ولاية العهد بحياة الوصية أوغول قاميش ومعها أم الأمير (شيرامون) وكثير من الاتباع من بيت أوكتاى وكيوك.

ولعل السبب فى اضطراب مشكلة ولاية العهد عند المغول يرجع الى عدم وجود نص صريح فى الياسا يحدد نظام هذه التولية. اذ أن ما اشارت اليه الياسا هو أحقية اكبر الابناء فى أن يحل مكان أبيه فى مكان الزعامة فى الاسرة اذا غاب أوتوفى كما أنها جعلت للابن الأصغر حق وراثة الاب فى معظم أملاكه بعد وفاته.وهذا التضارب بين حقوق الابن الاكبر وملكية الابن الاصغر اتاح للخان أن يوصى لمن يشاء بولاية الحكم من بعده وعلى سبيل المثال فان جنكيزخان قد عدل عن ابنه الاكبر(جوجى) والثانى(جغتاى) الى ابنه الثالث (اوكتاى) فرشحه لتولى الحكم من بعده . كذلك اختار(أوكتاى) الثالث ابنه(كوجو) لولاية عهده فلماتوفى هذا فى الحرب مع الصين سنة١٢٣٦م عدل (أوكتاى) عن ابنه(كيوك) الى حفيده (شيرامون) بن كوجو وكان لايزال صغيرا .

ثالثا : حضور الاجتماعات والمناسبات :

كان الخان يسمح لزوجته أن تحضر معه الاجتماعات الهامة وأن تشاركه الظهور فى المناسبات العامة فقد كانت (بورتاى) زوجة جنكيزخان الاولى ونساوءه الاخريات يجلسن راكعات عند قدميه وهن مرتديات ثيابا من القطيفة المطرزة بخيوط من اللالىء". (٣)

ويبدو أن ذلك كان يجرى فى الفترة التى أعقبت تولية جنكيزخان خاقانا أعظم حيث كانت ترتدى زوجاته الثياب الغالية الثمن المتقنة الصنع التى جلبت من الصين أو ايران . وما يعنينا فى هذا هو أن المغول قد بدأوا يأخذون بالاساليب الحضارية فى التعامل عند الأمم المجاورة التى احتكوا بها وبخاصة الصينيون والخوارزميون ،وعلى سبيل المثال وكانت قولان خاتون أخر زوجات جنكيز خان تحضر اجتماعاته الهامة ويجلس الى جوارها السفراء حيث كانت تستمع الى أحاديثهم عن بلادهم ولكنها فيما يبدو لا تملك سلطة ابداء أوالتفاوض". (٤)

ولعل من الجائز أن نعتبر وجود المرأة هنا أحد علامات البروتوكول لدى المغول ومما لاشك فيه أن ذلك يعكس مدى تقدير المغول للمرأة واحترامهم لمكانتها ولعله يمكننا

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٦

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥١

(٣) د.هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٩٠

(٤) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٢٠.

الاول - فى تحفظ - أن اشراك المرأة فى هذا المقام كان تمهيدا أو تدريبا لاضطلاعها بشئون الحكم والوصاية على العرش اذا ما اقتضت الظروف ذلك.

ويشير الراهب وليم روبرك الذى زار أوردا باتو فى عهد منكو الخان الاعظم الى أن باتو (خان) كان جالسا وقد اتخذت احدى زوجاته مكانها الى جواره". (١)

ولم تتغير الحال فى عهد بركة المسلم الذى تولى الحكم بعد أخيه باتو "اذ عندما وصلت رسل الملك الظاهر بيبرس الى بلاطه فى مدينة (سواى) رأوا الى جانبه الخاتون الكبرى واسمها (طغطغاى) خاتون". (٢)

وفى الصين .. كان قوبيلاى أكثر ابرازا لهذا الجانب فقد كانت زوجاته يجلسن على نفس مستواه الى يساره فى احتفالات وولائم القصر". (٣)

رابعا: التأثير فى قرار الخان :

ذكرت توا أن الخاتون (زوجة الخان الاولى فى الغالب) كانت تنهض بعبء الوصاية على العرش وبالتالى التدخل فى ولاية العهد اضافة الى مشاركتها لزوجها فى الاجتماعات المهمة وكذلك فى المناسبات والاعياد.

وعلى هذا فقد كانت تشارك - ما أتيح لها أن تشارك - فى اصدار بعض القرارات اوالتأثير فيها أو لنقل كان لها بعض النفوذ على كيفية اتخاذ القرار . ومن هنا فان قرارات تولية الحكام أوالولاة وعزلهم لم تكن بمنأى تماما عن نفوذ الخاتون وتأثيرها ولو بطريقة غير مباشرة - ولهذا عمل كثير من أمراء المغول وقوادهم على أن تكون صلتهم بالخاتون صلة قوية وطيدة حتى تدعمهم وتقوى من مراكزهم عند اتخاذ القرار .

وفى الفترة التى كانت الخاتون تنهض بعبء الوصاية على العرش كان لها سلطة التعيين أو العزل منفردة ولذا فانها كانت تصدر من القرارات ما يضمن لها انتقال منصب الخان الى ابنها أو من تراه دون عقبات او مناوئين . يقول الدكتور الصياد : " وصارت توراكينا خاتون تعمل على اقصاء المخالفين وعزلهم من مناصبهم" (٤) ومن هؤلاء (يى . ليو . جوتساى) مستشار جنكيزخان وأوكتاى وتشنكاى (النسطورى) و(قورغز) الأويغورى حاكم (خراسان) .

وفى المقابل كان تعيين الموالين والانصار اذا كان الامير أرغون (الاويراتى) على صلة قديمة بالوصية على العرش فقد عينته حاكما على ايران سنة ٦٤١هـ". (٥)

وفى خانية (التركستان وبلاد ما وراء النهر) وعقب وفاة جغتاى قامت الوصية على العرش (ييسلون) خاتون الامير (قراهولاكو) على العرش (٦) وفى بلاد خوارزم والقبجاق وصلت

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٤٢
(٢) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ١١٧
(٣) جون هامرتن: تاريخ العالم ج٥ ص ٢٤٦
(٤) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٦
(٥) د.السيد العرينى: المغول ص ١٩٣.
(٦) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٢

المرأة الى درجة عالية من المكانة والخبرة بشئون الحكم حتى كان لهن مشاركة فى الحكم مع الخانات واصدار الامور عنهم". (١)

وعندما قرر الايلخان (أباقا) بن هولاكو أن يعفو عن سليمان البرواناه (نائب بلاد سلاجقة الروم) تدخل نساء أمراء المغول الذين قتلوا فى المعركة التى كانت قد وقعت بين الظاهر بيبرس والمغول عند صحراء (ايلستين) وقمن بثورة فى وجه عدل عن قراره وأمر بقتله بتهمة التواطوء مع السلطان بيبرس". (٢)

خامسا: محاولة قلب نظام الحكم :

وهذا ما يمكن أن نسميه فى عصرنا الحالى "الانقلاب العسكرى واشتراك المرأة المغولية فيه يحمل معنى اصرارها على المساهمة فى الممارسة السياسية ايا كان نوع هذه المساهمة وأيا كانت النتائج المترتبة على ذلك ، ونذكر فيما يلى أشهر المحاولات التى اشتركت فيها المرأة المغولية .

١ - فى ولاية منكو خان :

وتزعمتها قاميش ارملة الخان الاعظم السابق كيوك . والتى كانت وصية على العرش ذاك أنها رأت تولية الأمير شيرامون حفيد أوكتاى خلفا لعمه كيوك وكان طبيعيا أن تعاضدها والدة (شيرامون) وبالفعل دبرت الموءامرة للقضاء على منكو واعوانه بعد انتهاء القوريلتاى العام غير أن الموءامرة كشفت بمحض الصدفة .. فانتهى الأمر الى اعدام معظم القائمين عليها ونفى الباقين ودفعت الوصية ونصيرتها حياتهما لقاء ذلك. كما سبق القول.

٢ - فى ولاية بركة خان :

لما كان جوجى الابن الاكبر قد توفى فى حياة أبيه فرأى جنكيز خان أن يحفظ ولاية القبجاق والبلاد الشمالية مضافا اليها خوارزم لابناء جوجى. وعلى هذا تولى باتو بن جوجى الحكم وتبعه ابنه (سارتاق) الذى لم يستغرق حكمه سوى بضعة أشهر توفى بعدها ولم يكن له ولد يلى المملكة بعده" وكانت (براق شين) زوجة طغان بن أخيه قد أرادت ان تولى ولدها منكو السلطنة وكانت لها بسطة وتحكم فلم يوافقها أولاد باتو وبقية الامراء فراسلت هولاكو وأرسلت اليه نشابا بلا ريش وقباء بلا بنود وبعثت تطلب حضوره ليتسلم الملك ثم سارت فى أثر الرسول تقصد اللحاق بهولاكو واحضاره الى بلاد الشمال فلما بلغ القوم ذلك أرسلوا فى اثرها وأعادوها كارهة وغرّقوها جزاء مافعلت". (٣)

٣ - ولاية احمد تكودار :

وهو أول حاكم مغولى تولى الحكم فى ايران - وقد لقى معارضة شديدة من القواد والأمراء المغول من جراء اسلامه. ذلك أنهم قد تأثروا بالمسيحية من جراء تأثير الخواتين " سرقوينى" والدة هولاكو، ودوقوز زوجته ،ودسبينا زوجة اباقا ابنه.

وفى سنة ٦٨٢ هـ وفى جمادى الاولى منها خرج ارغون من أبغا (اباقا) على عمه أحمد تكودار بخراسان فسار اليه وقاتله وهزمه وأسره ، فقامت الخواتين مع ارغون وسألن

---

(١) استراجانوف: تاريخ القبيلة الذهبية ص ٢٠٠، القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص ٤٧٦

(٢) د.جمال الدين سرور دولة الظاهر بيبرس ص ١٠١

(٣) استراجانوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص ٤٧٨

الملك تكودار احمد فى الافراج عنه وتوليته خراسان فلم يرض بذلك". (١)

واستمر الصراع بين تكودار وابن أخيه حتى انتهى بمصرع السلطان أحمد تكودار وتولية أرغون مكانه . وما يعنينا فى هذا المقام هو تدخل الخواتين فى هذا الصراع. فهن ولا شك قد لعبن دورا ما أثر فى تحويل مجريات الأمور لصالح أرغون الذى تحولت الهزيمة معه الى انتصار.

ثالثا : مشاركة المرأة فى الحرب

وكنت قد ذكرت قبلا أن الفروسية واحدة من أهم سمات الرعاة فى بيئة الاستبس وأن المغول امتازوا بفروسيتهم الفائقة ومهارتهم فى ركوب الخيل بصورة تكاد تكون منقطعة النظير ، وفى الحقيقة" لم يكن الرجال وحدهم الذين يختصون بهذا الأمر دون النساء، بل ان النساء كن يركبن الخيل كالرجال ،وكن يستعملن الاقواس والسهام ويذهبن مع الرجال الى القتال ". (٢)

ويقول عبد اللطيف البغدادى الذى كان شاهد عيان على المشاهد الفظيعة التى ارتكبها هؤلاء المتوحشون فى مختلف جوانب مدينة (سمرقند) "ان نساءهم يحاربن كما يحارب الرجال " (٣).

ولعل أطرف ما يروى فى هذا المقام عن الكثير من المؤرخين ان امرأة من المغول دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح واذا هى امرأة فقتلها رجل كانت قد أخذته أسيرا". (٤)

ولم يكن اشتراك المرأة فى الحرب يتوقف عند ركوب الخيل واستخدام أدوات الحرب بل كان يمتد الى جوانب أخرى كثيرة "فقد كانت بعض النساء يرافقن القادة أحيانا فى الحروب ويقمن ابان المعركة بأعمال الرجال ولذلك فان هؤلاء القادة كثيرا ما يطلبون مشورتهن ، بل كانت تتولى المرأة ادارة المعسكر وتقود المحاربين أحيانا. (٥)

وحدث أن ابنة جنكيزخان التى كانت تتحرق شوقا للاخذ بثأر زوجها طغاجار الذى قتل بسهم أحد المدافعين دخلت الى مدينة مرو وتحت امرتها عشرة الاف جندى فقتلوا كل من صادفهم" (٦).

---

(١) المقريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك جـ١ ص ٧٩٣

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦١ نقلا عن هوارث، تاريخ المغول ص ٤٤،٤٦ ، د. رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤

(٣) سيد كرد على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٣٤.

(٤) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ١٤٦، ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ص٩٠، جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنيأيوب جـ ٤ص ٤٩.

(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٦

(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٨١

ولعل من العجب ان نذكر ان اشتراك المرأة المغولية فى الحرب ظل شيئا ثابتا معروفا حتى الغزوة الثالثة التى قادها تيمور لنك ضد المسلمين يقول ابن عربشاه (١) وكان فى عسكر تيمورلنك كثير من النساء يلجن الهيجاء، ووقائع البأساء ويقابلن الرجال ويقاتلن اشد القتال ويصنعن أبلغ ما يصنع الفحول من الرجال فى النزال من طعن بالرمح وضرب بالسيف ورشق بالنبال واذا كانت احداهن حاملا وهم سائرون وأخذها الطلق تنحت عن الطريق واعتزلت الخلق ونزلت عن دابتها ووضعت حملها ولفته وركبت دابتها وأخذته ولحقت أهلها"٠

وقد يبدو من النص بعض ملامح مبالغة فى الاصرار على السجع غير أنه يؤكد استمرار اتصاف المرأة المغولية بالمساهمة الفعالة فى شئون الحرب والقتال ٠ والتى كان أقلها رفع الروح المعنوية للمحاربين وشد أزرهم وحضهم على بذل أقصى الجهد للحفاظ على شرف القبيلة وكرامتها٠

رابعا: المرأة والشئون الدينية

لا أحد يجزم بانفصال الحياة الدينية عن مختلف أنواع الحيوات الأخرى فى المجتمع ومن ثمه ، وقد حظت المرأة المغولية عند المغول بدور مهم فى مختلف شئون حياتهم أن يكون لها دورها فى الشئون الدينية ايضا ، ذلك الدور الذى كان بالغ الاثر نظرا للمكانة الممتازة التى كانت تشغلها المرأة لدى المغول على وجه العموم ٠

أولا: فى مجال الدعوة الى المسيحية :

كان طبيعيا أن تساهم المرأة المغولية فى هذا المجال وبخاصة الاميرات المغوليات الشهيرات اللاتى اعتنق معظمهن المسيحية على المذهب النسطورى، فقد عمل المبشرون النساطرة ـ بعد أن عجزوا عن تعميد الخانات الكبار جميعا" ـ على استقطاب النساء فى البلاط المغولى حتى يؤدين عنهم الدور المهم ـ الذى عجزوا هم عنه ـ فى استمالة المغول عامة الى المسيحية "(٢) وعلى هذا فقد كانت زوجة جنكيز خان (٥٩٦ـ ٦٢٤هـ) مسيحية من قبيلة الكرايت" (٣)

وتكاد تكون الوصية الأولى" توراكينا" صاحبة أول دور ملحوظ فى تدعيم التأثير المسيحى عند المغول فقد كان الخان الاعظم كيوك شديد العطف على المسيحيين وذلك بتأثير أمه التى كانت تدين بالمسيحية" (٤)

غير أن هذا التأثير ـ على خطورته ـ لم يرق الى الدور الذى نهضت به الاميرة "سرقويتى" التى تمتعت بشخصية قوية جذابة أثرت فى المغول وكانت عاملا مهما فى انتخابهم لابنها منكو رغم أنها لم تكن وصية على العرش ،وقد انتهجت هذه الامور منهاجا خطيرا ففى

---

(١) عجائب المقدور فى نوائب تيمور ،ص ٣٥٠

(٢) د٠ محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٦٢

(٣) توماس ارنولد: الدعوة الى الاسلام ص ١٨٩

(٤) د٠ جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٥٠

الوقت الذى كانت تساند فيه الدعوة المسيحية كانت تظهر العطف على المسلمين سياسة منها حتى قبل ان تجرد " منكو" الخان الاعظم من التعصب الدينى كان على نفس سياسة والدته " سرقوينى" التى أثرت فيه تأثيرا كبيرا اذ ان هذه المرأة التى كانت تدين بالمسيحية قد سلكت سلوكا حسنا مع الرعايا المسلمين الى أن توفيت سنة ٦٤٩ هـ(١).

هذا.. وقد أسفر انعكاس أثر شخصية "سرقويتى" على ابنها منكو عن مظهرين أولهما: زواج منكو بامرأة مسيحية نسطورية، وثانيهما: مواظبة منكو على حضور قداس الاحد ارضاء لأمه ولزوجته. فقد كان منكو يرافق زوجته الى القداديس النسطورية التى كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح". (٢)

على أن أكبر حدث يدل على مدى انتشار تأثير هذه الاميرة: " أنه بعد مرور ٨٤ سنة على وفاتها أى فى سنة ١٣٣٣م توجهت ادارة كنيسة الصليب وهى احدى الكنائس النسطورية الثلاث فى (كان - تشير) بالصين الى البلاط الامبراطورى بسؤال عن الاكرامات التى يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الاميرة "سرقويتى" التى كانت قد وضعت فى المعبد" (٢)

وهكذا رأينا كيف أن منكو خان قد احيط به فأمه مسيحية وزوجته مسيحية - كما رأينا أيضا المكانة الكبيرة التى حظت بها الأميرة (سرقويتى) عند الكنائس النسطورية فى الصين رغم مرور الزمن.

وينقل لنا أحد المؤرخين صورة مخالفة للحياد الدينى الذى كان يبدو ظاهرا فى سلوك هذه الأميرة وذلك حينما يشير الى أثرها على المغول فى ايران فى عهد هولاكو ابنها يقول: " وأم هولاكو نفسها وهى سرقويتى وكانت نسطورية - كما هو معروف - وفى هذا تفسير واضح لعطف هولاكو على المسيحيين وكراهية مغول فارس بالذات للمسلمين والخلافة العباسية" (٣).

فاذا قبلنا هذا الرأى أمكننا أن نقول أن تأثير هذه المرأة لم يقتصر على تدعيم المسيحية النسطورية فى منغوليا فحسب بل امتد الى الصين وايران. حقا انها مالت احيانا الى العطف على المسلمين لكن ميلها الى المسيحية كان أكبر واوضح.

أما الأميرة المسيحية دوقوز التى كانت زوجة تولوى بن جنكيز خان ثم الت الى ابنه هولاكو فقد كان لها دور مكمل لدور ضرتها الشهيرة" سرقوينى " ولكن فى اطار مختلف فتلك الاميرة المسيحية (دوقوز) خاتون التى كان هولاكو يؤثرها - باحترامه وحبه كان لها أكبر الاثر فى توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيين فى غرب اسيا وبينه". (٤)

ولم يكن هؤلاء الزعماء المسيحيين سوى ملوك الارمن والكرج وامبراطور القسطنطينية.

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٣٠
(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢
(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١١٤
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٩٣

وقد تجلى تأثير (دوقوز) خاتون تماما عند سقوط بغداد فان النساطرة والمسيحيين من أهلها قد تمتعوا بالامان الشامل . (١)

وهناك مظهر اخر من مظاهر رعاية المسيحيين فى العراق على حساب المسلمين وبتأثير الأميرة دوقوز أيضا اذ لما فتح هولاكو بغداد وأعفى المسيحين من أهلها من القتل أعطى الجاثليق النسطورى دينها منزل احد رؤسائها وهو الدفتردار الصغير . (٢)

وبالطبع انتابت المسيحيين حالة من النشوة والامتنان لهذه الأميرة المتطوعة لنصرتهم فقد قوى حال تلك الطائفة وكان هولاكو خان يرعاهم ويعزهم ارضاء لها . ( )

وفى الحقيقة لم يدخر هولاكو وسعا فى سبيل ارضائها فكان يحترم المسيحيين ويفضلهم على غيرهم ويعهد اليهم بالمناصب الهامة وبالطبع حاول المسيحيون والأرمن فى الشام ومصر ان يستغلوا ذلك الموقف لصالحهم . (٤)

رأينا تأثير هذه الاميرة فى العلاقات السياسية بين هولاكو والزعماء المسيحيين المجاورين لايران وكذلك تأثيرها اثناء غزو بغداد وبعده ومدى غبطة المسيحيين لنشاط الأميرة ومحاولاتهم استغلال مكانتها عند هولاكو بالحصول على المناصب العالية فى الدولة المغولية ونشر الكنائس فى أرجائها .

الاميرة البيزنطية دسبينا :

رأينا الحلقة المحكمة التى نصبتها المسيحية النسطورية حول منكو الخان الاعظم وهى نفسها التي أحاطت بأخيه هولاكو ، حتى أنه لم يعد شك فى أن المسيحية خططت للوصول الى المغول عن طريق استقطاب زوجات الخان أو أقرب النسوة اليه ، واستكمالا لهذا المخطط وبما أن الأميرة دوقوز قد طعنت فى السن فلابد أن تكون هناك بديلة أكثر شبابا وتأثيرا وكان امبراطور بيزنطة قد قرر زفاف ابنته (ماريا) الى هولاكو فجهزها وسيرها الى بلاط اذربيجان مصحوبة بالبطريرك اقتيميوس بطريرك انطاكية على أن هولاكو توفى وهى فى الطريق اليه فتزوجها ابنه اباقا فتشددت أواصر المودة بين الامبراطور والخان وكان للملكة الجديدة تأثير قوى فى زوجها وأثر بعيد فى توجيه سياسته وقد قال الراهب أحد مؤرخى الارمن ان الأميرة البيزنطية شاءت أن تعمد الملك قبل حفلة الزواج" (٥) وسواء أصح ذلك أم لا فمن المؤكد أن (اباقا) ظل بوذيا .

وقد تجلت ملامح تأثير الاميرة البيز نطية (ماريا) فى سياسة اباقا نحو المسيحيين فى مواقف كثيرة منها :

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١١٤ ، حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٧١

(٢) د. مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٠

(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (نشر كاترمير) مجلد ٢ جزء ٢ ص٢٢٠

(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢١٥

(٥) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٦٤

تدعيم أواصر المودة بين الخان المغولى والامبراطور البيزنطى.

١ - رعاية الكنائس الشرقية على اختلافها فى بلاد الخان ومايتبعها .

٢ - تنمية التحالف السياسى بين المغول والدول المسيحية فى أوربا.

٣ - الاستعانة بالمسيحيين وخصهم بالمناصب الهامة فى الدولة .

٤ - مشاركة الخان للمسيحيين فى أعيادهم ومواسمهم .

٥ - تبنى الخان لقضايا المسيحيين ومناصرتهم على غيرهم .

٦ - مصادقة الخان للقساوسة دون سواهم .

٧ -

كذلك كان من أثر زواج اباقا بن هولاكو من الاميرة التى سماها المغول (دسبينا) أن أثر اعطاء منزل الدفتر دار الصغير فى بغداد للجاثليق النسطورى دينها (١)

ولم يتوقف تأثير الاميرة دسبينا عند حد توجيه سياسة زوجها أباقا وحده بل امتد الى عهد (بايدو) خان الذى كان عطفه على المسيحيين عظيما بل وكان يعلق صليبا فخما فى عنقه وكان يقضى وقتا طويلا فى صحبتها". (٢)

هذا وقد افلت غازان من الاستمرار فى دائرة تأثير هذه الاميرة المسيحية وكان قد عرف شيئا عن المسيحية بسبب اقامته فى طفولته معها وكانت تلك السيدة تطمع فى ادخال الأمير المغولى الدين المسيحى منتهزة فرصة حبه لها وكادت أن تنجح فى خطتها لولا أن أباه أرغوف خان ولاه أمره خراسان وهو فى العاشرة من عمره فاضطر الى ترك "دسبينا خاتون" والتوجه مع وصيه ومربية الأمير (نوروز) الى خراسان". (٣)

وأغلب الظن ان وفاة هذه الأميرة كانت نهاية لتأثير حريم البلاط المغولى المسيحيات على سياسة الخان أو الحياة الدينية فى ايران.

أما فى القبجاق فلم يكن تأثير الزوجات المسيحيات على المغول كبيرا هناك مثلما كان عند مغول ايران ولذلك كان الصراع بين المسيحية والاسلام محدودا. (٤)

ثانيا: فى مجال الدعوة الى الاسلام :

لم يتح للمرأة المغولية المسلمة أن تشغل مكانا ذا أهمية مؤثرة فى البلاط المغولى غير أن المسلمات كن موجودات ولهن تأثيرهن على أزواجهن فالراهب وليم روبرك الذى زار بلاط منكوبروى، أن أحد المسلمين من المغول عندما شرح له الكثير عن الدين المسيحى رغب فى أن يعمد أمتطى جواده فجأة عائدا الى داره لاستشارة زوجته وفى اليوم ليقول له "انه لم يستطع أن لم يجرؤ ان يعمد لان زوجته رفضت ذلك" (٥) وهكذا تبددت آمال الراهب فى ثانى أيام عيد العنصرة.

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٠

(٢) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١١

(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩١

(٤) د. رجب عبد الحليم انتشار الاسلام بين المغول ص ٣٧

(٥) توماس أرنولد الدعوة الى الاسلام ص ٢٠٢

على أن أول امرأة مغولية ذات شأن دخلت الاسلام كانت" ججنك" زوج بركة خان الذى كان قد سبقها الى الاسلام يقول المقريزى (١) " واسلمت ججنك زوجة بركة خان واتخذت لها مسجدا من الخيم وذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرى".

وبدهى ان اسلام هذه المرأة كان له تأثيره على المحيطين بها من الاقارب أو الاتباع الذى وجدوا انفسهم فى مجتمع مغولى اسلامى لأول مرة.

ويبدو أن هذه المرأة كانت تشكل مكانة ممتازة لدى بركة خان فقد أنزل رسل الظاهر بيبرس عندها فنالوا رعايتها واكرامها . حيث استضافتهم هذه الخاتون فى حركاتها (خيامها) ثم انصرفوا اخر النهار الى منازلهم بعد أن خلعت عليهم الكثير من الخلع. (٢)

وجدير بالذكر أنه كان لبركة خان زوجتان غير مسلمتين غير هذه الزوجة وهما (طغطغاى) الخاتون الكبرى، الأخرى (كجهار) خاتون غير أن "ججنك" الزوجة المسلمة كانت أكثرهن حركة وتأثيرا فيمن حولها بأثر اسلامها.

وأما فى مملكة هولاكو فى ايران والتى كانت تعج بالزوجات المسيحيات فى بلاط الايلخانات المغول فان الكتبى (٣) يورد قصة زواج هولاكو من امرأة مسلمة . يقول" عزم هولاكو على زواج بنت ملك الكرج فأبت حتى يسلم فقال عرفونى مما أقول فعرضوا عليه الشهادتين فأقر بهما، وشهد عليه بذلك خواجا نصير الدين الطوسى وفخر الدين المنجم ، فلما بلغها ذلك أجابت فحضر القاضى فخر الدين الجلاطى وتوكل لها النصير الطوسى ولهولاكو الفخر المنجم وعقدوا العقد باسم (ماما) خاتون بنت الملك داود ايوانى على ثلاثين ألف دينار".

وقد أورد عباس العزاوى (٥) نفس الرواية وان ذكر فيها (تامار) خاتون بدلا من (ماما) خاتون. وكذلك زاد عليها " وقال ابن البواب وانا كتبت الكتاب فى ثوب اطلس أبيض".

وجدير بالذكر أن الكرج لم يكونوا مسلمين ،ولقد حاربهم جلال الدين خوارزمشاه بعد عودته من الهند ودخل عاصمتهم (تفليس) وفعل بهم الافاعيل لقاء مافعلوه بالمسلمين فالكرج فى الاصل جماعة من المسيحيين كانوا يسكنون جبال (القبجاق) وقويت شوكتهم حتى بلغوا تفليس". (٦)

وفى رأيى أن عباس العزاوى نقل هذه الرواية عن الكتبى وعن غيره عموما هى رواية ـ ان صحت ـ لا تفيد الا فى الدلالة على أن هولاكو كان رجلا مزواجا كدأب خانات المغول..

---

(١) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٠٢
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٠٩
(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ١١٧، ١٢٠
(٤) فوات الوفيات والذيل عليها ج ٤ ص ٢٤١
(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١٠ ص ٢٥٠
(٦) جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ج ٤ ص ٥٣

ونطقه للشهادتين لم يغير فيه شيئا بالطبع فهو من أشهر اعداء الاسلام والمسلمين فى عصره.

عموما – ليس لدينا أى دليل على أن هذه المرأة كانت ذات تأثير فى سياسة هولاكو الذى استحوذت عليه زوجته النسطورية (دوقوز) خاتون .

ونترك رواية زواج هولاكو الى موقف ان صح عجيب للخان محمود غازان ، الذى دخل الاسلام طائعا مختارا . وكان قد ورث على عادة المغول وتقاليدهم زوجات أبيه واستضافهن اليه وفيهن زوجة ابيه بلغان خاتون التى افتتن بها . فلما قيل له ان دين الاسلام يحرم نكاح نساء الاباء هم ا ن يرتد عن الاسلام فقال له بعض خواصه من المسلمين ان اباك كان كافرا ولم تكن (بلغان) خاتون معه فى عقد صحيح . انما كان مسافحا لها . فاعقد انت عليها فانها تحل لك ففعل ولولا ذلك لارتد عن الاسلام واستحسن ذلك من الذى أفتاه به لهذه المصلحة" (١) .

ونفس الرواية بنفس النص أوردها الشوكانى (٢) .

ونلاحظ على هذه الرواية . أن غازان كان فى أول عهده بالاسلام ، أى الاسلام لم يتمكن من وعقله تماما . كذلك رأى فى نفسه ايلخانا شابا يملك الالزام لا الالتزام ، كما أن قوانين المغول وعاداتهم قد وهبت له حقا ما ينبغى له أن يفرط فيه.

وعلى هذا فان تردد الايلخان غازان فى هذه المسألة يعد أمرا طبيعيا وليس غريبا . غير أن هذا الموقف يعكس فى وضوح مدى تأثير هذه المرأة عليه تلك التى لم تذكر كتب التاريخ شيئا عن اسلامها غير أن المرء يمكنه أن يستنتج من مواقف (غازان) التى الزم فيها اتباعه بدخول الاسلام أن هذه المرأة وغيرها من النساء المغوليات قد دخلن الاسلام بطبيعة الحال .

وهكذا فقد صارت للمرأة المغولية المسلمة مكانة فى قصر الايلخان لاتقل عن مكانة سابقتها المسيحية فيه. فكما تدخل حريم القصور اللائى كن يدن بالدين المسيحى فى توجيه أزواجهن او تنصير ابنائهن كذلك لعبت المسلمات نفس الدور وان لم تكن فى مراكز قوية تخول لهن فرض سلطاتهن على المغول" . (٣)

أما فى خانية التركستان فان الاميرة (اورغنه) زوجة قراهولاكو وخليفته ولو أنها لم تكن مسلمة على الارجح – قد ربت ابنها على الاسلام ،وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤م مطالبابعرش خاقانية جغتاى الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول" . (٤)

وعلى وجه العموم – فقد كان للمرأة المغولية اسهام فعال فى

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢١٣

(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ٢٠

(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٦٤

(٤) د.ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٠٢

ونطقه للشهادتين لم يغير فيه شيئا بالطبع فهو من أشهر اعداء الاسلام والمسلمين فى عصره.

عموما ـ ليس لدينا أى دليل على أن هذه المرأة كانت ذات تأثير فى سياسة هولاكو الذى استحوذت عليه زوجته النسطورية (دوقوز) خاتون .

ونترك رواية زواج هولاكو الى موقف ان صح عجيب للخان محمود غازان ، الذى دخل الاسلام طائعا مختارا . وكان قد ورث على عادة المغول وتقاليدهم زوجات أبيه واستضافهن اليه وفيهن زوجة ابيه بلغان خاتون التى افتتن بها . فلما قيل له ان دين الاسلام يحرم نكاح نساء الاباء هم ا ن يرتد عن الاسلام فقال له بعض خواصه من المسلمين ان اباك كان كافرا ولم تكن (بلغان) خاتون معه فى عقد صحيح . انما كان مسافحا لها . فاعقد انت عليها فانها تحل لك ففعل ولولا ذلك لارتد عن الاسلام واستحسن ذلك من الذى أفتاه به لهذه المصلحة" (١) .

ونفس الرواية بنفس النص أوردها الشوكانى (٢) .

ونلاحظ على هذه الرواية . أن غازان كان فى أول عهده بالاسلام ، أى الاسلام لم يتمكن من وعقله تماما . كذلك رأى فى نفسه ايلخانا شابا يملك الالزام لا الالتزام ، كما أن قوانين المغول وعاداتهم قد وهبت له حقا ما ينبغى له أن يفرط فيه.

وعلى هذا فان تردد الايلخان غازان فى هذه المسألة يعد أمرا طبيعيا وليس غريبا. غير أن هذا الموقف يعكس فى وضوح مدى تأثير هذه المرأة عليه تلك التى لم تذكر كتب التاريخ شيئا عن اسلامها غير أن المرء يمكنه أن يستنتج من مواقف (غازان) التى الزم فيها اتباعه بدخول الاسلام أن هذه المرأة وغيرها من النساء المغوليات قد دخلن الاسلام بطبيعة الحال .

وهكذا فقد صارت للمرأة المغولية المسلمة مكانة فى قصر الايلخان لاتقل عن مكانة سابقتها المسيحية فيه. فكما تدخل حريم القصور اللائى كن يدن بالدين المسيحى فى توجيه أزواجهن او تنصير ابنائهن كذلك لعبت المسلمات نفس الدور وان لم تكن فى مراكز قوية تخول لهن فرض سلطاتهن على المغول" . (٣)

أما فى خانية التركستان فان الاميرة (اورغنه) زوجة قراهولاكو وخليفته ولو أنها لم تكن مسلمة على الارجح ـ قد ربت ابنها على الاسلام ،وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤م مطالبابعرش خاقانية جغتاى الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول" . (٤)

وعلى وجه العموم ـ فقد كان للمرأة المغولية اسهام فعال فى

وعلى وجه العموم . فقد كان للمرأة المغولية اسهام فعال فى أمور الحياة الدينية عند المغول سواء أكانت مسيحية أم مسلمة أم بوذية إذ كان لها فى نفوس المغول مكانة عظيمة واحترام كبير.

خامسا : السبايا والجـوارى

أشرت عند الحديث عن العبيد فى الفصل الثانى من الباب الأول الى أن هـــذه الطائفة قد ظهرت بين المغول نتيجة لعوامل كان منها الاختطاف ، الانضمام التطوعى مـــن قبل بعض المعدمين ، تبرع بعض عامة الشعب بابنائهم لاحد القادة اعترافا بجميل سابـــق وبالطبع لم تكن السبايا أو الجوارى بمنأى عن ذلك كله .

والياسا لم تغفل فيما شرعت قضية الجوارى اذ كان مما شرعه جنكيز خان فـــى الياسا ، "يحق للزوج اقتناء الجوارى" (١) .

والجارية فى غالبية الأحوال سبية قدر لها أن تقع فى أيدى اعداء القبيلة نتيجـــة اغارة طلبا للسلب أو رغبة فى الانتقام لان اختطاف الزوجات كان عادة دارجة غالبا ما تـــؤدى بين المغول الى أعمال ثأرية" (٢) .

وبدهى أن المرأة فى هذه الحالة ــ أيا كانت مكانتها فى قبيلتها السابقة ــ تصبـح مجرد جارية لدى خاطفها يفعل بها مايشاء . وقد اشتهر فى تـاريخ المغول اختطاف امرأتيـــن كانا لهم اكبر الاثر فى حياة جنكيز خان نفسه .

الأولى: والدته هولون :

كانت هولون التى صارت فيما بعد أما لتيموجين جميلة حسناء ولذا اختطفها والـــده من عشيرة مجاورة وهى فى طريقها الى خيمة العرس للقاء زوجها المنتظر ، وهو لون الفطنـــة العنيدة استسلمت للامر بعد قليل من العويل" (٣) .

ولما كان المغول بدوا فى معظمهم فقد كانت عادة الأخذ بالثأر منتشرة بينهم ولهـذا كان كل من فى مخيم بيسوكاى بهادر يعلم انه سيأتى يوم يثأر فيه الميركيت من مغول (قيات) لقاء ذلك مهما طال الزمن .

ثانيا : زوجته بورتاى :

وهى أول زوجات جنكيز خان واشهرهن على الاطلاق . وقد تزوجها بعد ما تهيأ له بعض من السلطان على قبيلته (قيات) غير أن الميركيت ما كانوا ليعطونه فرصة الاستمتاع بهذا الزواج المبكر فسرعان ما هاجموا معسكره على حين غرة وانتزعوا زوجته وتركوها لدى أحـــد محاربيهم .

وبعد فترة من الوقت استطاع تيموجين بمعاونة أنصاره الكرايت ان يستردها مـــرة ثانية ولكن لم يكن من السهل أن ينسى كلاهما اسر الميركيت لها" (٤)

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٥

(٣) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٠

(٤) د.هارولد لامب: جنيكز خان وجحافل المغول ص ٣٦

(٥) الكاتب الصينى. ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٦٢

ويبدو أن هذه الحادثة قد أثرت فى نفس جنكيزخان ابلغ تأثير لدرجة جعلتـــه يستشعر المتعةالفائقة التى تفوق كل متعة ــ من وجهة نظره ــ فىسقوط نساء اعدائه تحت اقدامه. لذلك قال ذات مرة لاحد اتباعه .." انمنتهى السعادة ان تسحق اعداءك وتراهـــم يركعون تحت قدميك وان تسمع عويل النساء ونحيبهن (١) فهى متعة تفرغ الكبت الذى مــلأ نفسه نتيجة اختطاف زوجته والشك فى صحة بنوة جوجى (٢) ابنه الاكبر.

السبايا من غير المغول :

يبدو أن المغول لم يعرفوا عن جنكيزخان تجارة الرقيق كغيرهم . غير أنهم لمـــا حققوا انتصارات هائلة فى وقت قصير محدود وجدوا أمام اعينهم أعدادا لا تحصى من سبايـــا الحرب من الصين وخوارزم وايران والقبجاق .. الخ .

يقول الكاتب الصينى. ف. يان (٣) "وكمافعل المغول فى بخارى فعلوا فى سمرقنـــد وغيرهما فكانوا يخرجون جميع الاهلين من المدينة بحجة الاحصاء ثم يحملون النساء بعيـــدا فيفرقونهن على الضباط والجند".

ولعل أشهر سبايا المغول على الاطلاق السيدات الشهيرات فى أسرة السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه الذى تقهقر امام المغول بلا عودة . وعلى رأس هؤلاء جميعا تركـــات خاتون والدة السلطان نفسه اذ عندما أدرك المغول تركان خاتون أرسلوها وجميع حريـــم السلطان وبناته الى جنكيز خان نفسه للتصرف فقام بتوزيع بنات الشاه على أبنائه والمقربيـــن اليه واحتفظ بالسلطانه(تركان خاتون) ليعرضها فى قفص عندما يكون لديه ضيوف على المائـــدة اوللسمر فيقذف اليها بالعظام التى تتخلف عن أكله". (٤)

وأما بنات السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه واللائى وقعن فى الأسر فقـــد تزوج بكل واحدة منهن شخص من المغول ماخلا (خان سلطان) وهى التى كانت مزوجـــة لسلطان السلاطين عثمان صاحب سمرقند فان جوجى بن جنكيزخان استخصها لنفسه وتـــزوج بتركان خان وهى شقيقة ازلاغ شاه دانشمند الحاجب الذى كان قد ورد رسولا من جنكيزخـــان على (تركان) خاتون". (٥)

وقدر للسلطان جلال الدين منكبرتى أن يلاقى نفس مصير أبيه وأن تقع بعـــض نسائه أسيرات فى أيدى المغول ويمكننا أن نستنتج ذلك فقد روى أن هولاكو لما عزم علـــى غزو حلب ارسل الى الملك بدر الدين لؤلؤ (حاكم الموصل) فسير بدر الدين ابنه الملـــك

---

(١) الكاتب الصينى١.ف.ين : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٦٢

(٢) "جوجى" كلمة مغولية بمعنى(الضيف) انظر عباس الغزاوى، تاريخ العراق بيـــن احتلالين ج ١ص ١٣٥

(٣) جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٧٠

(٤) د. براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص٨٩ . الكاتب اصلينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٨٥، ابنخلدون العبر ج ٥ ص ١١٣

(٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٩٧، بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٦٢

الصالح حسب الاوامر الصادرة اليه ولما وصل الملك الصالح الى حضرة هولاكو منحه ابنه السلطان جلال الدين خوارزمشاه ليتزوج منها". (١)

وهكذا قدر لهذه الأسرة المنكودة أن تقع سيداتها سبايا فى أيدى المغول وسواء أصبحت رواية زواجهن من جوجى بن جنكيز خان أو غيره فمن المؤكد أنهن قد صرن فى مكانة زريه لا تليق بهن خاصة وقد عرف عن المغول مدى القسوة والشراسة فى معاملة الاسرى وذلك أن هولاكو عندما تمكن من استخلاص معقلين من قلاع الاسماعيلية فى ولاية قهستان فى مارس سنة ١٢٥٦ أمر باعدام كل من يزيد عمره على عشر سنوات ولم يستثن الا عددا قليلا من الفتيات الجميلات ، أبقى عليهن ليحتملن حظا هو فى الحقيقة أكثر سوءا وأشد بؤسا من الموت". (٢)

ولايقلل من قسوة مواقف المغول من الأسيرات موقف خاص أو نادر اذ تبدت الخصال الحميدة للامبراطورة زوجة قوبيلاى فى معاملتها الممتازة لاميرات اسرة سونج حين أتى بهن أسارى الى بكين" (٣) فمما لاشك فيه أن قوبيلاى حفيد جنكيزخان الذى عاش فى بكين قد تشرب حضارة الصينيين فلم يعد فجا غليظا كأسلافه الأول. وانعكس أثر هذا على كل المحيطين به والمقربين اليه من رجالات المغول ونسائهم .

حتى لقد كانت هناك أساليب خاصة فى بلاط (بكين) المغولى فى التعامل مع السبايا وكانت تجرى فى الغالب على النحو الذى ذكره ماركوبولو الذى أورد أن بلاط الخان الأعظم قوبيلاى قا آن كان يحتوى على عدد كبير من السرارى جئ بهن من تانجوت فى بلاد المغول حسب الاوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية" (٤) وكان تتم اجراءات الحاقهن بالقصر الامبراطورى على النحو التالى :

أ - مرحلة التجنيد :

ويقوم بها موظفون مشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون الى بلاد التانجوت ليجندوا لخدمة جلالة الامبراطور الفتيات حسب مواصفاته.

ب - مرحلة الاختيار:

ويقوم بها طائفة أخرى من الباحثين تنتهى الى اختيار ثلاثين او اربعين منهن يستبقين فى القصر .

جـ - مرحلة الاعداد:

وتقوم بها كبار السيدات فى القصر حيث يجرى اختبار نهائى للتأكد من أنه ليس باحدى هؤلاء الفتيات شئ من العيوب التى تخفى عن الاعين وانها تنام نوما هادئا ولاتغط أثناء نومها ولا تنبعث منها رائحة كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها.

---

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ مجلد ٢ ج ٢ ص ٣٠٥
(٢) د. براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٨١
(٣) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٨
(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٦.

د - مرحلة التكليف بالخدمة الخاصة:

وتكون في مخدع الامبراطور حيث يقسمن الى جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم كل جماعة منها في حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاثة ليال يؤدين خلالها كل ما يطلب اليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء، فاذا انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى. وهكذا دواليك". (١)

واعتقد أن هذه الطريقة صينية صرفة اذ لم تكن معروفة لدى جنكيز خان أوخليفته أوكتاى او حفيديه كيوك ثم منكوخان.

التكاليف والمهام :

نهضت السبايا والجوارى بأعمال عدة غاية في المشقة الجسدية أو النفسية ولم يكن بوسع احداهن أن ترفض عملا او تتأبى عليه فالتكاليف مضنية والعقاب أشد قسوة وعناء. ومن هذه التكاليف على سبيل المثال :

١ - اعداد الطعام:

كان المغول كما أشرت سلفا يأكلون طعاماخشنا تعافه نفوس الاخرين ولكنهم بعد الغزو أصبحوا سادة. وتحتم على الاخرين وقد أصبحوا خاضعين لهم ان يعملوا في خدمتهم ففي روسيا - على سبيل المثال - فان نساء الاشراف اللواتي كن يرتدين الثياب الفاخرة والحلى الثمينة ويحيط بهن الخدم قد صرن اماء لأولئك البرابرة ونسائهم يدرن دولاب الطواحين بأيديهن النحيفة ويتكبدن جزيل العناء في تحضير طعامهم على طرق غير مألوفة عندهن. (٢)

٢ - ادخال البهجة والسرور:

بعد أن حقق المغول انتصاراتهم الاولى الساحقة صار عندهم متسع للهو والمرح وصار عندهم أسرى وسبايا فحق لهم أن يستمتعوا بأوقاتهم ففي احدى اجتماعات جنكيز خان توافد المغول من أقاصي الارض الى سرادق الخان على حين كانت تغني بالنغم العذب البنات الاسيرات من الصين الشمالية". (٣)

ويمكن للمرء أن يستنتج ماذا يعقب كل ذلك بعد أن يتعاطى الحاضرون الخمور فتذهب برؤوسهم كل مذهب دون حائل أو مانع .

٣ - خدمة زوجة الخان والأميرات :

شاء اقدار كثير من الدول والممالك أن تتلقى الصدمات العنيفة من الغزو المغولي في انسياحه الجارف طلبا للثروة وطمعا في بسط النفوذ . وما أكثر ما انهارت أسر حاكمة وسقطت النساء فيها سبيات عند المغول . ومن هنا كانت زوجة الخان أو الاميرات المغوليات تتدخل لانتقاء بعض السبايا كي تعمل وصيفة لديها أوخادمة. وعلى هذا فقد كان لكل واحدة من زوجات قوبيلاى خان الاربع ما لايقل عن الثلاثمائة من الوصيفات الرشيقات الجميلات". (٤)

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٦ ومابعدها.

(٢) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٥

(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٦.

(٤) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٧.

٤ – التدخل فى الشئون السياسية :

ذكرت أن معظم النساء فى أسرة خوارزم شاه قد وقعن سبايا فى أيدى المغول خاصة خاتون وبناتها ، فلا غرو أن تحاول احداهن اصلاح بعض ما أفسد الدهر . وقد حدث أن أخت السلطان جلال الدين وكانت عند (جوجى) بن جنكيز خان أخذها من الجنود الذين جاؤا بها ، من خوارزم شاه وانجبت له فكانت تكاتب أخاها بالاخبار فبعثت اليه الآن فى الصلح مع خاقان والمصاهرة وأن يسلم له فيما وراء جيحون فلم يجبها (١)

٥ – التدخل فى الشئون الدينية :

امتحنت نساء المسلمين بالغزو المغولى كما امتحن الرجال . وقدر لبعضهن وقد ابتلين بالاسر ان يحافظن على اسلامهن وأن يحظين ببعض المكانة لدى القواد أوالامراء المغول ، من هنا حاولن قدر استطاعتهن ان يقدمن شيئا لهذا الدين الذى تمسكن به . فلعل الله يجعل لهن مخرجا ، وعلى هذا فليس من المستبعد تماما أن تكون سبايا المسلمين قد قمن بدور هام فى تحويل الميول الى الاسلام" (٢) فقد كن يقمن بتربية أبناء المغول وبشئون الخدمة فى القصور ولقد قال القلقشندى (٣) "ان أهل مملكة ايران من المغول قد خالطوا العجم وزوجوهم وتزوجوا منهم " فلعل ذلك يعكس بداية تغير نظرة المغول الى نساء شعوب الدول التى خضعت لهم والتى عاملوها فى البداية على أنها مجرد عبيد لهم .

المرأة والتكليف الاجتماعى

اشرت الى الاعمال التى نهضت بها السبايا والجوارى فى خدمة المغول ،غير أن ذلك تم – بطبيعة الحال – بعد أن أصبح المغول قوة عسكرية وسياسية فرضت نفسها على المحيطين بها ، أما قبل ذلك فقد نهضت المرأة المغولية بأعباء كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ – رعاية شئون البيت :

تلك مهمة المرأة فى كل زمان ومكان أو لنقل انها المهمة الأولى فى حياة أى امرأة والمرأة المغولية كانت تملك مقومات رعاية شئون بيتها مهما كان ، ومهما كانت مكانتها اوسنوات عمرها ، فمع حداثة سن "بورتاى" زوجة (تيموجين) الاولى كانت مسئولية العناية بمخيم تيموجين كله تقع على كاهلها وحدها وكان عليها أن تبادر باعتبارها زوجة الخان الى الاشراف على اتباعه فترى أنهم قد اطعموا واعتنى بهم وزودوا بالملابس اللازمة وكان عليها أيضا أن تذكر دائما أن كل فم فى المخيم يجب أن يطعم . " (٤)

انه ولاشك عمل شاق يحتاج الى مهارة وممارسة واكتساب .. وجدير بالذكر أن كل امرأة مغولية كانت تمتلك هذه القدرة تقريبا حتى ان الجندى المغولى فى وقت السلم كان يدرب نفسه على ما سيقوم به فى وقت الحرب تاركا شئونه الخاصة وشئون اسرته الى حنكة نسائه ومهارتهن " . (٥)

( ) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٩١
( ) صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٦
( ) د . هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٣٢
( ) حافظ أحمدحمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١٤ نقلا عن هوارث ،تاريخ المغول ص ١١٠

وبلغمن أهمية هذا الامر ان جنكيزخان قد اهتم به اهتماما كبيرا فقبل خروجه لمحاربة السلطان الخوارزمىعلاء الدين محمد وجه كلمة الى نساء الامبراطورية حيث قال : " وانتن قد لاتطقن حمل السلاح ولكن لايزال هناك واجب عليكن ، الا وهو الاعتناء ببيوتكن حتى رجوع الرجال عليها فهكذا تريد المرأة فى شرف زوجها المحارب. (١)

فاعتناء المرأة ببيتها ورعايتها لهذا البيت فى غياب زوجها المحارب يرفع من شأنها ويزيد من شرفه وكرامته .

٢ ـ النهوض بأعمال الرجال فى غيبتهم :

بدهى أن الرجال أثناء السلم كانوا يكلفون بأعمال عدة كالحراسة أو الرعى أو جلب الغذاء... الخ ففى حالة انشغالهم عن أداء مهامهم بالحرب أو السفر او الخروج للصيد كان على نسائهم أن ينهضن بهذه المهام حتى يرجعوا ويبدو أن هذا كان مرتبطا بما شرعه جنكيز خان فى الياسا اذ أنه الزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم" (٢) وعلى هذا فعندما كان المحاربون يذهبون للصيد أو للاغارة كان على النساء ان يقمن بحراسة الحيوانات التى لها اهميتها وهن راكبات يجسن خلال المرعى". (٣)

وهكذا فرعاية البيت فرض على الزوجة اثناء وجود الزوج وتزداد أثناء غيابه ثم تضاف اليها مختلف الأعباء التى كان ينهض بها . وهى أعباء بلا شك شاقة مضنية .. ولهذا اشتهرت المرأة المغولية بصلابتها وقوتها وطول احتمالها مما جعلها شريكة كاملة للرجال فى هذا المجتمع الصلب .

٣ ـ صناعة أدوات الحرب :

تعتبر هذه الأدوات أهم ما اعتنى به المغول لانها وسيلة الحفاظ على حياتهم ثم هى وسيلة الغزو والسلب والصيد .. واتقان صناعة هذه الادوات اليدوية الصنع ليس بمستغرب على المرأة المغولية .. فقد كانت النساء تشتغلن بصناعة أوتار القسى والدروع من جلود البقر وتجهز الرماح من العظام" (٤) ولعل ذلك يذكرنا وهى امرأة من أهل اليمن كانت تصنع الرماح للعرب .

٤ ـ حلب الماشية واعداد الالبان :

ذكرت فى الحديث عن الالبان أنها كانت تمثل الغذاء الأساسى للمغول مما جعلها لا تقل أهمية عن اللحوم فى حياتهم وبالطبع كانت حيوانات المغول يربونهافى هيئة قطعان ضخمة هى مصدر هذه الالبان الوفيرة وكان على المرأة أن تقوم بحلب هذه الحيوانات بصورة منتظمة .. "فكانت النساء المغوليات يحلبن المواشى ويضربن الزبدة ويعددن الحليب المجفف". (٥)

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٩٧

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٢٠ ،ومابعدها ، القلقشندى صبح الاعشى جـ٤ ص٣١٢

(٣) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص٣٢، د.رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤

(٤) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٦

(٥) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٦

وكانت الافراس منتجة لقوتها تحتاج الى جهد مضاعف ولهذا فأحيانا يقوم الرجال بحلبها مساعدة للزوجة ، حتى لقد لوحظ أن الافراس يقوم الرجال على حلبها وفيما عداها من الماشية تحلبه النساء" (١) .

وهكذا فالمرأة تجلب الماشية وتعد اللبن الرائب والمجفف وتصنع الزبد والجبن وتصنع" الكوميس" أيضا .

٥ - نسيج الملابس :

كانت ملابس المغول بسيطة للغاية وبخاصة قبل انفتاحهم على الأمم المجاورة التى كانت تفتن فى صناعة الملابس كالصينيين والايرانيين ولهذا اعتمدت المرأة المغولية على نفسها فى صناعة ملابس أسرتها فكانت النسوة ينسجن الملابس من الصوف والشعر" (٢) أى أنهن يجمعن الشعر والصوف عن طريق جز الحيوانات ذوات الصوف والوبر كالأغنام والابل .. ثم يقمن بالنسيج عن طريق الأنوال التى أعدت لهذا الغرض .

ولما كان الرجال يقومون بالاشتراك معا فى صناعة اللبد فان النساء كن يقمن بتجميع هذا اللبد (٣) ثم تولى مهمة اعداده حتى يصبح صالحا تماما لاغراض الراحة كالنوم والجلوس.

٦ - اعداد الجلود وصنع الأحذية :

أدت كثرة قطعان الحيوان لدى المغول الى كثرة الجلود لديهم ، ومن هنا استخدمها المغول فى صناعة الملابس والأحذية والدروع ولقد كانت النساء تساعدن الرجال فى اعداد الجلود وصنع الاحذية منها. (٤)

واعداد الجلد ليس أمرا هينا فهو يتطلب خبرة بطريقة وضعه فى الملح وتجفيفه ثم تقطيعه بحيث يلائم الغرض المطلوب صناعته .. ومن هنا اشترك الرجال مع النساء فى هذا العمل . على أن الزوجة أيا كانت مكانتها كان عليها أن تصنع بعض النعال أو تصلح ما بها من اصابات .. ولو كانت زوجة الخان وربة داره - اذ يتوجب عليها أن تعتنى به وان اقتضى الامر تعمل النعال" (٥) وبدهى أن هذه النعال كانت بسيطة التكوين سهلة الصنع . لكن ذلك كان يحمل فى معناه أحد علامات الطاعة للزوج .

٧ - فك المنزل وتركيبه :

كان المسكن الاساسى عند المغول هو خيمة(اليورت) فى اغلب الاحوال لان المغول كانوا رعاة فى المقام الاول. ذلك كله حتم عليهم كثرة الترحال والانتقال من مكان الى اخر ،

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٨
(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص٣٢
(٣) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٦٦
(٤) د. ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٦٦
(٥) د. هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٠

ولذلك تحتم على النساء أن ينصبن وتفكك المظال "(١) والمقصود بالمصلة السقف العلوى المستدير للخيمة وهذا الجزء يحتاج الى مهارة خاصة ودراية فائقة بأصول الفك والتركيب وحتى لايستغرق الامر وقتا طويلا يعطل الحركة السريعة المطلوبة دائما وبلغ من مهارة المرأة المغولية أنه كان فى استطاعتها أن تفك المنزل وتحزمه كله فى ظرف ساعة أو ساعتين ثم تعيد اقامته بمثل هذه السرعة". (٢) وتطلب ذلك مهارات عدة كان ينبغى على

وفى الحقيقة لم تكن الحركة الرعوية الدائبة وحدها هى التى تدفع المرأة المغولية للاضطلاع بهذا العمل الشاق فان طبيعة الاحوال الجوية المتقلبة كانت - بلا شك - عاملا مؤثرا أيضا اذ أن تقلب الاحوال الجوية القاسية جعل النساء فى أى يوم على أهبة الاستعداد لحزم كل ما يملكن ويشددن رحالهن مرة ثانية". (٣)

٨ - قيادة الثيران :

وتلك مهمة شاقة أخرى تحتاج خبرة خاصة وممارسة وطيدة بفن قيادة العربات التى تحمل فوقها الخيام ومختلف امتعة المغول". (٤)

وفى الحقيقة كانت المرأة المغولية تدرب على هذا العمل منذ الصغر حتى تتعود ذلك فلا تجد فيه صعوبة أو حرجا وكثيرا ما كانت ترى احدى البنات واقفة على منصة العجلة امام رفرف مدخلها وهى تسوق الثيران عندما ينتقل (اليورت)". (٥)

بل لقد قيل انه كان من واجب أكبر البنات سنا أن تبقى فى الخارج وفى يدها سوط لتسوق الثيران". (٦)

ولعله يتضح من ذلك كله أن مسألة قيادة الثيران أثناء انتقال الخيام المحمولة على العربات عند الرحيل كان عملا ضروريا ينبغى على المرأة اتقانه منذ الصغر.

٩ - الاشتغال بالتجارة :

سبق أن أشرت عند الحديث عن الاسواق عند المغول الى أن المرأة المغولية كانت تشترى كل ما يحتاجه بيتها من التجار بالمقايضة .. ومعنى ذلك أنها كانت تحسن تقدير ما تقايض عليه حتى لايغلبها التجار.. ولكنها فيما يبدو وفى مرحلة متقدمة . وبعد تنشيط حركة التجارة فى اسيا. قد رأت أن تشارك بقدر أكبر من الاعمال التجارية وبالطبع كان ذلك كله مستندا لما قرر فى الياسا فمن جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا "يسمح للنساء بتعاطى الاعمال التجارية حسب رغباتهن." (٧)

---

(١) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٦
(٢) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٢
(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٣
(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٦٦
(٥) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٩
(٦) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٢
(٧) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

وقد يبدو لفظ (تعاطى) غير مقبول من ناحية الاستعمال فى هذا الحديث غير أن المقصد هو أن الياسا قد أباحت للمرأة ممارسة التجارة وفقا لرغبتها وقدرتها - وأغلب الظن - أن هذه الممارسة قد اقتصرت على الاميرات من ذوات الثراء الذى يؤهل بالفعل للمشاركة فى هذا العمل ٠

الزواج فى المجتمع المغولى

الزواج سنة طبيعية من سنن الحياة عرفها الانسان وأقر بها منذ ادرك الفرق بينه وبين الحيوان وبخاصة فى المسائل الغريزية فكان مفهوم الزواج أولا اختصاص المرأة برجل واحد دون غيره والعكس ليس صحيحا حتى تبين الانساب وتميز الابناء٠

ومجتمعات البدو - فيما أعلم - أكثر من غيرها اهتماما بمسألة النسب هذه٠ ومن هنا فالعلاقات الاجتماعية فى مجتمع البدو صريحة واضحة معروفة حيث يكثر التفاخر بالانساب والانتماء الى القبيلة ٠

وفى الحقيقةفان مادفعنى الى هذه المقدمة الموجزة ما ورد عند بعض المؤرخين من قدح فى علاقة الزواج لدى المغول بصورة يتضح فيها عنصر المبالغة فقد قيل ان المغول لا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف أباه" (١)

اذن فالمغول حتى فى العصور الوسطى لم يعرفوا علاقة الزواج والعلاقة بينهم علاقة زنا - وهذا الزنا - كما تشير العبارة - مشروع وعادى ٠ وأرى أن ابن الاثير وقد تملكه الحزن والأسى من جراء مافعله المغول بنساء المسلمين فى بخارى وسمرقند وغيرهما من بلاد المسلمين كان مدفوعا بعوامل الحنق والغضب والغيرة والكراهية فحاول ارضاء ذلك كله فى استظهار الانتقاص عندهم والكشف عن مثالبهم - وهو معذور فى ذلك ولاشك - غير أن العاطفة شئ والحقيقة شئ اخر٠

فاذا كان هذا شأن ابن الأثير الذى توفاه الله قبل أن يغزو المغول بغداد بثلاثين عاما ٠ فما حال المؤرخين الذين نقلوا عنه وما أكثرهم ٠

لنقل ان الامر - اقصد الزواج عند المغول - قد وصل ابن الاثير كغيره من الامور التى أحاطت بها الشائعات مع مقدم المغول وما ارتبط به من هول وغموض خصوصا وأن ابن الاثير قد توفى بعد جنكيز خان بستة أعوام أى عاصر فقط حالة الذعر والدمار التى نشرها المغول فى كل مكان ٠

أما الدكتور مصطفى طه بدر فيقرر أنهناك حياة زوجية لدى المغول غير أن نظرته لها ذات منظور خاص تأثر فيه بالراهب وليم روبرك يقول : أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لاعمال التفكير الناضج فلا هى بالتى تقدر الزواج حق قدره ولا هى بالتى تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء ولذا كان الزواج عندهم عملية تجارية ويوضح الراهب وليم روبرك ذلك بقوله :" يجب أن تعلم أنه لايوجد رجل بين المغول له امرأة

---

(١) ابن الاثير : الكامل التاريخ جـ ١٢ ص ١٣٨

الا اذا كان قد اشتراها ، ويحدث دائما أن يجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لان اباؤهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن". (١)

وهذا الرأى يرى أن الزواج عند المغول كان بدائيا فجا لاحقوق فيه ولا سعادة بل هوعملية تجارية تباع فيها البنات كأى سلعة تجارية .

فأما مسألة بيع البنات فاعتقد أنها كانت حالات نادرة وقليلة ومردها الى الفقر أوالحاجة غير أن البيع هنا لم يكن يقتصر على البنت دون الولد وهذا أمر عرف عند المغول أيضا فى العصور الوسطى. فكثيرا ما اضطر الفقر بعض الأسر الى بيع أطفالها كارهين . لكن أن تصل البنت الى سن الزواج وتتجاوزه لأن أباها يود بيعها بسعر خاص يبتغيه فهذا أمر يصعب الاقتناع به - وأن حدث فهو شئ نادر أو استثناء لايمكن أن تكون له صفة العموم .

وأما كون الزواج بدائيا - فهذا أمر عادى يناسب طبيعة الحياة التى عاشها المغول حتى عصر جنكيز خان - ومن ذا يطمع أن تنال الزوجة عند المغول أو معاصريهم - فيما عدا المسلمين - حقوقا بالصورة المعاصرة التى لازالت موضع جذب ورد بين الرجل والمرأة حتى الان .

غير أن هذا لايمنع أن تكون هناك حقوقا للزوجة عند المغول. وكيف لا يكون وهى التى نهضت بكافة التكاليف الاجتماعية التى أشرت اليها من قبل . ان أبسط قواعد المنطق تقول أن أى واجب يقوم به المرء ينبغى أن يقابله حق يحصل عليه.

هذا - ومن أهم الحقوق التى حظت بها الزوجة المغولية .

١ - الملكية الخاصة المستقلة :

كان من حق الزوجةالمغولية أن تمتلك شيئا أو أشياء تخصها وكان من حقها أيضا أن تكون هذه الملكية بمنأى عن سيطرة الزوج يقول الدكتور رالف لنتون (٢) " وكان من حق الزوجات ان تكون لهن ثروة خاصة بما فى ذلك الحيوانات اما عن طريق الهبة او عن طريق الوراثة ولم يكن للزوج أى سلطان على تلك الثروة".

الا يقترب هذا الحق مما قرره الاسلام من حق للمرأة فى الملكية الخاصة أوالميراث؟

٢ - التصرف فى ممتلكات العائلة :

وقد كفل هذا الحق للزوجة فى حالة الترمل فقد الزوج فقط خاصة اذا كان الزوج المتوفى قد خلف وراءه اطفالا صغارا دون سن الرشد . يقول ادوار بروى : (٣) "والمرأة بعد ترملها تؤمن بالوصاية على أولادها القصر وتتصرف تصرفا مطلقا العائلة" (٤)

واستنادا الى هذا الحق اصبح من حق الزوجة المغولية أن تكون وصية على العرش كما أشرت الى ذلك فى أول هذا الفصل .

---

(١) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٤
(٢) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤
(٣) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٦

واعتقادى أن هذا الحق الى الزوجة هو مكانتها كأم تحرص على مصلحة أولادها القصر اكثر من أى شخص اخر.

٣ - المسكن الخاص المستقل :

أباح المغول كما سنذكر حالا مبدأ تعدد الزوجات ،فهل كان الرجل يجمع بين زوجاته كلهن فى مكان واحد ؟

يبدو أنه كان لكل زوجة من الزوجات(اليورت) الخاص بها تعيش فيه هى وأولادها"(١) سواء فى حالة الاقامة أم الترحال فقد كانت مع عادة المغول أنه اذا سافرت الخاتون مع السلطان تكون فى محلة على حدة". (٢)

فالرجل المغولى يجعل لزوجته مسكنا خاصا مستقلا . الا يعد هذا نوعا من العدل بين الزوجات . ألا يتناسب هذا مع مكانة المرأة فى المجتمع المغولى والتى أسهمت فى كثير من المجالات بجهد وافر وعزم حديد.

الياسا والــزواج:

كان طبيعيا أن تهتم الياسا بالزواج باعتباره قضية اجتماعية أساسية - ولم ينبع هذا الاهتمام عن فراغ أو ابتكار فالياسا تولت ترجمة عادات متوارثة ونظمتها فى شكل قوانين التزم بها المغول وكان من أهمها :

١ - الغاء الفوارق الاجتماعية عند الزواج :

لقد صار من حق الرجل المغولى أن يتزوج بالمرأة التى يرغبها دون أن يكون الثراء مانعا بينهما شريطة موافقتها على الزواج به لأسباب أخرى لايدخل الثراء فيها. فقد كان مما وضعه جنكيز خان فهم فى الياسا أنه قال " كل من أحب امرأة بنتا كانت أو غيرها لايمنع من التزوج بها ولو كان زبالا والمرأة بنت ملك". وكان غرضه أن يتناكحوا بشهوة شديدة ويتضاعف نسلهم ويكثر عددهم (٣)

وفى الحقيقة لم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغولى ". (٤)

٢ - زواج الأقــارب :

تجمع الاديان السماوية على عدم جواز الزواج بالاقارب من الدرجة الاولى والثانية أيضا ، كالأم وان علت والابنة وان هبطت . وكذلك الاخت والخالة والعمة ، وكذلك ابنة الاخت أو الاخ ، يقول القران الكريم حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم التى ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التى فى حجوركم من نسائكم التى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار ج ١ ص ١٥٤
(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات والدليل عليها ج ١ ص ٣٠٢
(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١١

عليكم وحلائل ابنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان اللـه كان غفورا رحيما" . (١)

هذا النص الشامل لسنا بصدد مقارنته بما ورد فى الياسا . فالبون شاسع ولا شك ، غير أن هذا لايمنعنا من تأمل النص المغولى فقد كان ما شرعه جنكيز خان فى الياسا" لايجوز الزواج من أقارب الدرجتين الاولى والثانية، ويجوز الزواج باختين" (٢) .

وبالاضافة الى ذلك كان القانون المغولى يبيح للابن الزواج من زوجات أبيه عقـب وفاة الاب ، واذا كنا كما ذكرت لا نقارن بين تشريع سماوى كامل هو القران الكريم وبيـن الاجتهاد الذى شرعته الياسا .. غير أنه بلا شك يمكننا أن نقارن بين هذه التشريعـات المغولية البدوية وبين عادات وتقاليد البدو فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام . وفى تقديـرى ان الفرق لن يكون كبيرا فى معظم الأحوال .

قضايا أخـرى :

ونقصد هنا قضيتين مهمتين مرتبطتين بالزواج .

أ - السـن :

لم يكن السن حائلا دون الزواج عند المغول شأنهم شأن البدو فى كل مكان فالمرأة قد تكبر الرجل فى السن خاصة اذا ماكانت زوجة سابقة لابيه المتوفى .. حتى فى الحـالات العادية لم تكن الفوارق السنية أمرا ذاخطر .

فعند زواج جنكيز خان من بورتاى كانت فى الثامنة عشرة من عمرها أى أنها كانـت تكبر تيموجين بعام واحد . ولم يكن لهذا قيمة فيما يبدو فى المجتمع المغولى " . (٣)

ب - الانجـاب :

لا تكاد تختلف جماعات البدو فى أى مكان على أهمية التناسب لحاجتها القصـوى لاعداد كبيرة من الابناء تنهض بالمسئوليات العديدة التى تناط بحياة الرعاة . وعلى هذا فالمغول كانوا يهتمون بمسألة الانجاب اهتماما فائقا فقد كان غرض جنكيز خان ان يتناكحوا بكثـرة وأن يتضاعف نسلهم ويكثر عددهم" (٤) .

فالزواج عند جنكيز خان كان الوسيلة المثلى لمضاعفة النسل وزيادة العدد ،فالمغـول كانوا يشجعون على الانجاب حتى يكثر عدد أفراد قبائلهم ليقول ذلك من شأنها ويشد مـن أزرها وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت زيد فى احترامها" . (٥)

ولقد بالغ المغول - أحيانا - فى الاهتمام بمسألة الانجاب مبالغة مفرطـة أدت الى الحاق الاذى ببعض الزوجات حتى ان بعض الرجال من المغول كانوا لايعتبرون المـرأة

---

(١) سورة النساء : الاية رقم ٢٣
(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥
(٣) د. هارولد لامب :جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٠
(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات والذيل عليها جـ١ ص ٣٠٢
(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٣

زوجة حقيقية يصبح لها طفل أما اذا كانت عاقرا فيمكن طردها". (١)

مراسم الزواج عند المغـــول

لكل مجتمع أيا كانت طبيعته تقاليده وعاداته التى يتوارثها عن الاباء والأجـــداد عبر مئات السنين ، والزواج باعتباره علاقة اجتماعية كان أحد المظاهر المتميزة فى المجتمـــع المغولى.

وكان هذا الزواج لدى المغول يمر بمراحل عدة .

١ - الخطبـــة :

يتضح نظام الخطبة عند المغول من الطريقة التى تقدم بها تيموجين لخطبـــة زوجته الاولى(بورتاى) ويبدو أن ذلك تم خلال زيارة خاطفة قام بها بهادر- مصطحبا معه ابنه تيموجين - الى مخيم أحد زعماء طائفة(القنقرات) المغولية .حيث اتخذ الفارســان المغوليان (تيموجين ووالده) مجلسهما بالقرب من نار متوهجة على يمين سيد المخيم وهـــو مكان الشرف ، واحضرت بعض النساء اللحم المطهى ووضعوه أمام الضيفين والبخار يتصاعـــد منه". (٢)

فهذا استقبال كريم يتم عند الخطبة واية التكريم فيه تقديم الطعام والنهوض بواجـب الضيافة ثم تبادل الحديث فى موضوع الخطبة ، وقد قال صاحب المخيم للوالد المغولـــى وابنه - مشيرا الى ابنته بورتاى - انها يمكن أن تصبح زوجة صالحة". (٣)

ومعنى ذلك أن الأب المغولى كان يعضد مكانة ابنتها ويمتدح قدراتها فخورا بهـا - لانها نتاج تربيته وتهذيبه .

ولعلنا لاحظنا أن النساء بما فى ذلك أم العروس لاتتدخل فى الأمر من قريـــب أو بعيد.

ولايخفى أن تقدم (تيموجين) لخطبة (بورتاى) كان يحمل معنى التكريم لهـــا ولطائفة(القنقرات) فأبوه زعيم مغول قبيلة(قيات) يمتلك الكثير من القطعان وتحت قيادتــه الاف المحاربين الاشداء ولهذا فمن الطبيعى أن يكون والد(بورتاى) مسرورا فى داخلـــه، وعليه فقد انتقل الحديث بين الرجلين الكبيرين الى الخطوة التالية .

٢ - المهـــر :

المهر هدية الزوج للزوجة ، لها حق التصرف فيه كيفما تشاء. وبدهى أن هـــذه الهدية عادة ما تكون ملائمة لمكانة الزوجة ومرتبطة كذلك بمقدرة الزوج المالية . فكيف كان المهر عند المغول ؟ تقدم(تيموجين) لاتمام الزواج فكان أن طلب والد(بورتاى) مهرا لابنته هـــو عبارة عن فرو سمور أسود". (٤)

ويبدو أن هذا الطلب كان مجرد رمز لعادة متبعة متوارثة اذ أن فرو السمور الاســود

---

(١) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ٥٥

(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٣

(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٧

ليس بذى قيمة كبيرة تتناسب مع مكانة تيموجين أو بورتاى .

وأغلب الظن أن الاب المغولى وفقا لتقاليد المغول كان عليه أن يطلب مهرا لابنته لكنه من باب التواضع أو القناعة كان يطلب شيئا رمزيا ويترك المسألة لتقدير الزوج أو أسرته.

وفى الحقيقة فان الرأى كان قد استقر على أنه بعد سنوات قليلة يقدم (تيموجين) عددا كبيرا من الخيل والثيران والاغنام مهرا للعروس". (١)

اذن ، فمهر العروس يشتمل على أشياء عينية ويتعهد والده أو من ينوب عنه بتقديمه فى وقت يتفق عليه بين الاسرتين.

غير أن (بروى) (٢) يعرض صورة مغايرة بعض الشئ لأداء المهر. يقول "وقد يحدث ان يتفق اليافع مع أهل الفتاة فيبادلها الهدايا : عجل أو جلود سمامير سوداء ويدفع لها فدية ،فى حين تقدم العروس بالاضافة الى (مهرها) وخدمها هدية تعدها والدتها لحماة ابنتها".

فهذا الرأى يشير الى تبادل الهدايا . وربما كان المقصود بالضربة التى يقدمها الفتى (المهر) الذى ترده العروس مرة ثانية الى حماتها بالاضافة الى هدية قيمة من الفرد والخدم الذين يصحبون سيدتهم الى بيت زوجها .

ويرى رالف لنتون (٣) ان هذا المهر قد يؤدى فى شكل نقدى.. يقول وكانوا يدفعون ثمنا للعروس عند الزواج ".

ويبدو أن المقصود بالثمن هنا المهر فالزوج لايدفع ثمن زوجته لانه لايشتريها والا صارت مجرد جارية عنده وهذا لايناسب ما أشرت اليه منذ قليل عن مكانة المرأة المغولية فى المجتمع المغولى .

ويرى الدكتور مصطفى طه بدر (٤) " ان المهر قد يتأخر الى ما بعد الزواج وحتى قدوم المولود الاول ،يقول " ولا يقدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لها طفل" (٥)

واعتقد أن هذا الرأى ضعيف . اذ أنه يخالف الاراء السابقة التى اتفقت على أن المهر يقدم عند الزواج ، وعلاوة على أنه لايتفق مع تكريم الرجل للمرأة التى سيتزوجها .

٣ - حفل الزفاف :

يبدو أن المغول كانت لهم عادات تميزهم عن غيرهم فى اقامة حفل العرس حيث ينفصل الرجال عن النساء فى احتفال شبه مستقل ومجاور تماما كما لايزال يحدث فى احتفالات البدو حتى وقتنا الحاضر.

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤

(٢) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٠

(٣) شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٤

(٤) محنة الاسلام الكبرى ص ٥٥.

وفى مجمع الرجال يكون الاحتفال على نمط خاص ففى مراسم حفل زفاف تيموجين " جلس اتباع تيموجين الى جوار الرجال الكبار أمام نيران المخيم وشربوا اللبن الرائب ونبيذ الارز ثم رقصوا باحذيتهم الطويلة المصنوعة من اللباد عندما لعب الموسيقيون على الربـاب ذى الوتر الواحد" (١) .

وفى مجمع النساء كانت هناك صورة مختلفة أخرى حيث تنشغل النساء باعداد ثياب العروس حتى تبدو فى أجمل صورة . فقد البست كبيرات نساء المخيم الصبية رداء أبيض من الصوف وزين شعرها الاسود بقطع ثقيلة من العملة الفضية ووضعن على رأسها غطاء العرس المصنوع من لحاء شجر البتولا والمكسو بالحرير" . (٢)

وبعد أن انتهت وليمة العرس ربطوا شرائط زرقاء من الحرير حول "بورتاى" ثم أركبوها على ظهر جواد لتجرى بعيدا على حين أخذ أخوتها يكملون التمثيلية التقليدية بمناوشة تيموجين ومحاولة منعه من مطاردتها وكانت تعرف هذه العادة" باختطاف العروس" .

ونجح تيموجين فى التخلص من أهل بورتاى وتبعها على ظهر جواده ثم أحضر خدامها عباءة جميلة من فرو السمور وقدموها هدية لام تيموجين وركب الاثنان عائدين الى مخيم المغول يغمرهما السرور" . (٣)

وهكذا رأينا الحفل وما يحدث فيه وكيف تزين العروس والطريقة تتجه بها الى بيت زوجها حيث تبدأ حياتها الجديدة .

تعدد الزوجات :

تلك سمة لم تقتصر على المغول وحدهم فقد وجدت عن سابقيهم ومعاصريهم بل ومن يليهم ايضا فمثلا الاسلام يبيح تعدد الزوجات والمغول كانوا يحبذون أيضا مسألة تعدد الزوجات ويشجعون على ذلك يقول القرمانى (٤) وفى الياسا التى وضع جنكيز خان دعائمها "عدم العدة وحصر الزوجات فى عدة" .

وهذا قول يشير الى قضيتين الاولى أن المغول لايجعلون للزوجة المطلقة أو المتوفى زوجها عدة - والثانية تعدد الزوجات .

ويقول رالف لنتون " وقد كانت القاعدة المتبعة هى الزواج بأكثر من امرأة واحدة فى وقت واحد" (٥) - فهل كان هناك تحديد لعدد الزوجات عند المغول ؟ .

لما كان العرف عندهم يتمثل فى عدم تحديد عدد الزوجات فكل حسب قدرته وقوته، أتيح للفرد المغولى ان يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة .

---

(١) د.هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٣٠
(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٠
(٣) نفس المصدر السابق ص ٣١
(٤) اخبار الدول واثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٥، باسيليوس خرباوى: تاريخ روسياص ٦٠ د.رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤ ، حافظ أحمد حمدى : تاريخ الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١١
(٥) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٤٨

وبدهى أن هذا الرقم مبالغ فيه فمن ذا الذى يمكن أن يتزوج بمائة امرأة لكن الأغرب أن بعض المؤرخين يؤكد أن زوجات جنكيز خان بلغن خمسمائة زوجة ٠٠ فلعل أولئك المؤرخين قد اعتبروا الاماء والسرارى والجوارى ضمن الزوجات – والا كيف يمكن للمرء أن يتصور ذلك ؟!

غير أن هذه المبالغة تؤكد بالطبع تعدد الزوجات الى درجة الافراط ذلك التعدد الذى يضيع حقوق بعض الزوجات أو غالبيتهن – والذى نبه القران الكريم اليه فى سورة النساء "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذورها كالمعلقة" (١)

وجدير بالذكر أن تعدد الزوجات انما هو مؤشر لزيادة نسبة اعداد النساء عن نسبة أعداد الرجال ٠٠ وسواء أكان مرجع ذلك التوافق التلقائى فى الانجاب أو كثرة الحروب التى منها ٠

١ – مكانة أبناء الزوجة الاولى :

حظت الزوجة الاولى بمكانة ممتازة عند الزوج المغولى فاقت مكانة غيرها من الزوجات فقد كانت الزوجة الاولى تعتبر أبدا الزوجة البكر اوالزوجة الرئيسية" ٠ (٢)

ومن خلال هذه المكانة كان أبناء الزوجة الاولى يفضلون على غيرهم من أبناء الزوجات الاخريات فعلى سبيل المثال انجب جنكيزخان تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته الأولى فكان يعهد اليهم بجلائل الاعمال كما كان يعتمد عليهم اعتمادا كليا فى ادارة امبراطوريته المترامية الاطراف" (٣) كذلك كان القائم مقام هولاكو باوردا (مقر) منكو قا ان ولده بسبب ان أمه أكبر خواتين هولاكو أبيه" (٤)

ولم يكن هذا الأمر – تقدير مكانة أبناء الزوجة الاولى – مقتصرا على التعامل داخل اسرة الخان ٠ بل كان نظاما عاما متبعا لدى المغول جميعا ٠

٢ – وراثة زوجات الأب :

وتلك قضية غريبة تستلفت النظر ٠٠ فتحول الزوجات الى ميراث ليس بالامر الهين اذ أنه انتقاص بين لمكانة الزوجة عندما يتوفى زوجها ولا يتولى أبنها زمام الامور بعد أبيه ٠ فقد كان من عادة المغول أنه لما يموت الاب يتزوج ابنه من نساء أبيه" ٠ (٥)

وهذا الزواج يتم تلقائيا دون اتفاق مسبق مع أحد أو أو خلافه اذ لم يكن هناك ما يحول بين المغول والزواج من أزواج آبائهم ما عدا الأم" (٦)

هذا وقد اختلفت الاراء حول الابن الذى يكون له حق الوراثة أهو اكبر أبناء الاب المتوفى أم أصغرهم ٠

---

(١) سورة النساء ، الاية رقم ١٢٩

(٢) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٥

(٣) د٠فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٠٩

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٦١

(٥) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٠

(٦) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١١

يقول الاستاذ عباس العزاوى (١) " ومن العادة القديمة عند المغول أنه اذا توفى الأب الت جميع زوجاته الى الابن الاكبر فيحق له الزواج بهن جميعا عدا أمه".

أما الاتجاه الاخر فانه يرى أن أحقية المال تعود الى الابن الاصغر لا الاكبر يقول الدكتور مصطفى طه بدر (٢) "والابن الاصغر – فى بعض الاحيان – كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن ،ومما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن الى منازل ابائهن بعد موت والده" والدليل على ذلك أن (دوقوز) خاتون زوجة تولوى بن جنكيز خان كانت هى المفضلة عنده ثم الت من بعده الى ابنه هولاكو فتزوج منها جريا على عادة المغول الذين يتزوجون من نساء أبيهم". (٣)

ولعله يمكننا الان أن نضيف الى قولنا السابق عند الحديث عن الاسرة أن ميراثها الأغلب يؤول الى أصغر الابناء بعد وفاة الاب ، أن زوجات كن جزء من هذا الميراث – وذلك شئ بالتأكيد فيه اهدار لمكانة المرأة المغولية .

الزواج السياسى

الزواج السياسى عرفهالمغول كما عرفه غيرهم من الامم . ذلك القران الذى كان تحقيقا لمصلحة أخرى ، اهم من هذه العلاقة الاجتماعية المتميزة ولقد سبق أن أشرت الى أن أم جنكيز خان قد رأت أن تتزوج – بعد وفاة زوجها الأول بيسو كاى بهادر – من زعيم قبلى بغية مساندته لابنها تيموجين فى صراعه من أجل استرداد سلطان أبيه . وكان هذا مما ساعده كثيرا فى نجاحه على مناوئيه وتسلطه عليهم". (٤)

وجنكيز خان وقد احتاج الى مساعدة عسكرية قوية فى صراعه ضد الميركيت واتجه غربا صوب قبائل الكرايت التى استجاب زعيمها للنداء وجد أن عليه أن يوطد عرى الصداقة والتحالف مع قبائل الكرايت تلك بالتصاهر معها . فطلب جنكيز خان أن يزوج ابناه من ابنتى أخى (أونك) خان وكان يدعى (جاكمبو) ، فكانت الأميرة "بيكسو تمش" لابنه جوجى وكانت "سيورقويتى" لابنه الاخر (تولوى) وتزوج جنكيز خان نفسه من أبنة أخرى (لجاكمبو) اسمها" أبعه بيكى". (٥)

ولما اشتد ساعد جنكيز خان وانضوت تحت لوائه معظم القبائل المغولية والتركية – بادر امبراطور الصين الشمالية الى التودد اليه الى طلب الصلح معه وأرسل اليه بعض الهدايا كما بعث اليه بأميرة صينية من أسرته لتكون زوجة له". (٦)

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٥٩
(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ،نقلا عن هوارث،تاريخ المغولص ١٩٥
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٤١
(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ح ١. ص٧١
(٥) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ(نشر كاترمير)المجلد الثانى ج١ ص ٢١٩
(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٢

وهكذا لجأت بعض القبائل والدول الى التقرب الى قادة المغول عن طريق التصاهر اليهم املا فى أن يؤدى ذلك الى اتقاء طوفان الغزو المغولى المدمر. غير أن هذا الزواج فى الحقيقة لم يكن ليحول دون المغول ومصالحهم فعلى سبيل المثال اكتسح المغول الكرايت والصين الشمالية تباعا دون النظر الى علاقة التصاهر بينهم .. ولعل زواج هولاكو من الاميرة (ماريا) ابنة امبراطور القسطنطينية يمثل صورة أخرى من صور هذا الزواج.(١)

زواج المغولية من غير المغولي :

وتلك صورة أخرى من صور الزواج السياسى التى رأى فيها المغول وسيلة لتحقيق مصالحهم فجنكيز خان كان فى حاجة الى مساندة قبائل الاويغور التى امتازت بتحضرها وطول ممارستها للتجارة لوقوع منازلها عند طرق القوافل التى تربط بين أواسط آسيا والصين ولهذا قبل جنكيز خان أن يزوج احدى بناته لامير الاويغور عندماجاء اليه ليعلنه خضوع قومه لسلطان المغول ، فهو زواج سياسى يحمل معنى الارتباط والمكافأة نظير الخضوع وعلى نفس المنهاج استمر جنكيز خان فعندما أراد أن يكسب علاقته ببعض الامارات فى التركستان مثل كيالج والماليج بغير طريق العسف والشدة زوج أمير كيالج وأمير الماليج باميرتين من بيته .(٢)

وفى عهد الخان الاعظم منكو الذى أطلق يد أخيه الاصغر هولاكو فى تدمير قلاع الاسماعيلية واستئصال شأفتهم وقعت زيجة غريبة عقب استسلام ركن الدين خورشاه آخر الزعماء الاسماعيليين . فقد أخذ المغول "ركن الدين خورشاه" الى همذان وأحسنوا معاملته وسمحوا له أن يتزوج فتاة مغولية اعجب بها"(٣) غير أن مصير هذا الزواج لم يكن على الصورة التى توهمها خورشاه. اذ بعد حفلات الزفاف أرسل خورشاه الى الخان الاعظم منكو الذى أمر بقتله وجميع افراد اسرته من النساء والرجال حتى الاطفال فى المهد وقال : لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبئا على الدابة التى يركبها.(٤)

وليس بين ايدينا دليل عما اذا كانت هذه الزوجة قد قتلت ضمن هذه المذبحة أملا ؟ واغلب الظن أنها قد صارت كذلك.

ولم تكن تلك هى الزيجة الوحيدة التى جرت فى أيام هولاكو فقد كانت هناك زيجة أخرى تضاهيها فى غرابتها" فعقب مقتل الخليفة العباسى المستعصم على يد رجال هولاكو سلم (مباركشاه) أصغر ابناء الخليفة الى (أولجاى) خاتون زوجة هولاكو فارسلته الى مراغة ليكون مع الخواجة نصير الدين ثم زوجوه من امرأة مغولية فانجب منها ولدين".(٥)

والغريب فى هذه الرواية هو العفو عن أصغر ابناء الخليفة بالذات دون غيره من الابناء ، ثم تسليمه الى زوجة هولاكو ثم تزويجه بفتاة مغولية . كذلك كان هذا الابن يحمل

---

(١) د. السيد العرينى : المغول ص ٢٨٢

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٨٠

(٣) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٨٢

(٤) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٥٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢٩٤.

اسما ايرانيا أكثر منه عباسيا .

وقد يكون هولاكو - كالعادة - قد قبل شفاعة زوجته فيه وهى التى تسلمته ، وأرسلته الى نصير الدين حتى يحسن تعليمه وهو مسلم مثله - أما زواجه بالمرأة المغولية - اذ لم يكن قد اختارها بنفسه - فاغلب الظن أنهم أرادوا أن يظل دائما تحت بصرهم فى كل تحركاته وسكناته .

على أن اشهر حادثة زواج لامرأة مغولية من رجل غير مغولى هى زواج ابنة بركة خان زعيم القبيلة الذهبية من السلطان الظاهر بيبرس (١) اذ يبدو أن بركة وبيبرس ارادا تقوية الصلات فيما بينهما حتى يتم تطويق جيوش هولاكو من الشمال والغرب .

واذا كان المغول فى ايلخانية ايران قد زوجوا بناتهم من الايرانيين كما تزوجوا منهم فان ذلك قد حدث أيضا فى مملكة القبجاق اذ أصبح التزواج بين المغوليات وغير المغوليات اكثر انتشارا وتأثيرا فى الحياة الاجتماعية لا السياسية وحدها" فقد تزوج كثير من الروس من مغوليات ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه والاخلاق المغولية فى السلالات الروسية وأخذ بعض الروس عن المغول بعض اساليبهم فى التحدث والملبس" (٢)

وهكذا اختلط الروس مع المغول بالزواج ففى سنة ١٢٧٣ م تزوج غاليب أمير بيلوزرك من أميرة من عائلة الخان (منكوتمر) ، وفيدور أمير ريزان صاهر خان نوغيز الذى أهداه قصرا فى (سراى) " (٣) .

أما فى مصر .. فقد حدث هذا الزواج أيضا - ولقد سبق أن اشرت - منذ قليل - الى زواج ابنة بركة خان من الظاهر بيبرس - فان المقريزى (٤) يحدثنا عن زيجتين شهيرتين يقول : وفى ذى القعدة سنة ٦٨١ هـ تزوج السلطان المنصور قلاوون بخوند اشلون . ابنة الامير سكناى بن قراجين بن جنغان نوين . القادم الى القاهرة فى الدولة الظاهرية (وهى أم الملك الناصر محمد) .

وكما يقول المثل " من شابه أباه فما ظلم" أبى الملك الصالح على ابن السلطان المنصور قلاوون الا أن يقلد أباه فى التزوج من امرأة مغولية مهما تكبد فى ذلك من مشقة ومخالفة للشرع .. يقول المقريزى أيضا (٥) "وتزوج الملك الصالح على ابن السلطان المنصور

---

(١) ليس صحيحا ما ذكره (بارتولد) من أن هذا الزواج بين ابنة بركة وبيبرس قد أسفر عن وليد ذكر اسماه الظاهر بيبرس (بركة) على اسم جده بركة خان والصواب أن هذا الابن ولد للظاهر بيبرس من زوجة أخرى وكان ذلك قبل حدوث الصلات بين بركة وبيبرس بعامين على الارجح ، انظر بارتولد - تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٨ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٤ ص ١٥٩

(٣) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٧٢

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ص ٧١٠

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٧١٠

قلاوون ابنة الامير سيف الدين فوكيه، وكانت تحت الامير زين كتبغا المنصورى فرآها الملك الصالح يوم حضرت مع نساء الامراء فى عرس اشلون يوم زفت الى السلطان ففتنه حسنها حتى كاد يهلك . فمازال السلطان بطرنطاى النائب حتى الزم كتبغا بطلاقها فطلقها وأفرج السلطان عن ابيها (فوكيه) من سجن الاسكندرية ،واحضر الى القاهره وأنعم عليه بأمرة وعقد العقد على خمسة الاف عينا عجل منها الفا دينار.

وهكذا رأينا سلاطين المماليك الذين امتنعوا عن الزواج من مصريات بدافع الخوف من الانصهار فى بوتقة الشعب المصرى عن طريق التصاهر معه على الزواج من مغوليات.

عموما ـ فالمغول رغم عنصريتهم وتعصبهم للجنس المغولى لم يقفوا حائلا دون زواج من رجل ليس مغوليا ففى كوريا التى تقع فى الشمال الشرقى لهضبة منغوليا أثمر التصاهر مع المغول عن نتائج طيبة للكوريين اذ أنه فى سنة ١٢٥٩م لما خضعت أسرة كوريو للمغول فى كوريا اصبح ملوكها ـ عن طريق ـ فرعا من الاسرة المغولية الحاكمة كما غدوا نوابا للمغول فى كوريا" . (١)

نقطة أخيـــرة :

بقى أن نذكر أن زواج المغولية من غير المغولى نتج أصلا عن منهج توارثه المغول وهو الزواج من خارج القبيلة أى من قبيلة أخرى . وبالطبع لم يكن المغول يعلمون شيئا عن اضرار الزواج من الاقارب لكنها كما ذكرت عادة موروثة لعلها كانت بدافع الرغبة فى التحالف وتدعيم الصلات مع القبائل الاخرى . "ومن أغرب الاحداث فى هذا الشأن ما روى عن المعاملة الوحشية التى لقتها قبيلة باجمعها على يد (أوكتاى) اذ لما ذاع النبأ بأن الخان الاعظم يريد أن يزوج بنات هذه القبيلة من رجال قبيلة أخرى سارع أهلوهن بتزويجهن من رجال القبيلة فلما علم(أوكتاى) بذلك أمر باحضار بنات هذه القبيلة كلهن ممن تجاوزن السابعة وأمر كذلك بأن يعتدى عليهن بصورة وحشية أمام أنظار آبائهن واخوانهن وبعولتهن ثم أمر بتفريقهن بعد ذلك على جهات شتى" . (٢)

ولعل موقف (أوكتاى) ـ وهو على غير ما عرف عنه ـ يفسر مدى غضبه الشديد على هذه القبيلة التى عصت أمره من جهة وخالفت تقاليد المغول من جهة أخرى ـ غير أنها بلا شك طريقة مروعة فى العقاب لا تحتمل ـ ولعله القدر الذى انتقم بارادة الله مما فعله المغول بالمسلمين فى بخارى وسمرقند.

عموما ـ فقد عرضت لحياة المرأة فى المجتمع المغولى بشكل سريع .وهى حياة فيها الكثير من الجوانب الايجابية والسلبية على السواء لكنها فى مجملها تكشف عن أثر واضح للمرأة فى حياة المغول عامة.

---

(١) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٤٠

(٢) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٥١

الفصل الثالث

الامراض الاجتماعيـــــة

١ ـ الياسا "قانون جنكيز خان"
٢ ـ ادمان الخمـــر
٣ ـ الزنا واللــــواط
٤ ـ الامراض الماليــة
أ) السرقـــة .
ب) الاختـلاس
جـ) الرشـــوة
د) الربـــا
٥ ـ انتشار الخرافـــات
٦ ـ انتشار السحـــر
٧ ـ الخوف من غضب الطبيعة
٨ ـ التعطش للدمـــاء
٩ ـ تخريب المرافق العامـة

الياسا والحياة الاجتماعيـــة :

لا يمكن لرأى أن يجزم بخلو المجتمع ـ أيا كان نوعه ـ من الامراض الاجتماعيـــة ذلك أن هذه الامراض تشكل الوجه الاخر للمجتمع .

ولعل فى كثرة ظهور الرسل والانبياء بين الامم والشعوب ـ وبخاصة بنواسرائيل ـ ما يؤكد أن المجتمعات الانسانية ـ على اختلافها ـ فى حاجة مستمرة الى تنبيه قوى يركـــز على معالجة العيوب الاجتماعية فيها من خلال الايمان باعتقاد دينى قويم .

وأكاد أميل الى القول بأن رسالة الأديان السماوية هى فى المقام الاول عقائديـــة اجتماعية ـ ذاك ان قضية الدين الاولى هى الانسان بما فيه من مزايا وعيوب .

ولما كان المجتمع المغولى مجتمعا بدائيا بدويا فقد كانت الامراض الاجتماعية فيه أكثر وضوحا وصراحة ـ ولقد كان جنكيز خان يدرك تماما خطورة هـذا الامر ومن هنا صرف جل همه الى اتجاهين رأى فيهماعلاجا لتفشى خطر الامراض الاجتماعية عند المغول .

أولهما : أن يدفع المغول الى الحرب خارج منغوليا فيشغلهم بالغنائم والاسلاب ويستنفـــذ طاقتهم فى القتل والطعن فيريح نفسه من مؤنة معالجة هذه الامراض .

ثانيهما : استصدار قانونه الحديدى الصارم (الياسا) والذى استوحى فيه خبرات المغول المتوارثة وكذلك عاداتهم وتقاليدهم .

واعتمد فيه على جانبين اجتماعين مهمين :

١ ـ تحديد العلاقات والروابط داخل المجتمع المغولى :

ويتمثل ذلك فى مجموعة قوانين محددة لربط علاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالمجموع وعلاقة المجموع بالملك (١) .

٢ ـ العقوبات الصارمة للمخالفين والمخطئين :

تتلخص أحكام الياسا ـ بصفة عامة ـ فى ثلاثة أمور هى :

١ ـ الخضوع لجنكيز خان ـ أى للخان الأعظم .
٢ ـ الاتحاد فى قبيلة واحدة ـ بمعنى ذوبان كل عناصر المجتمع فى اطار واحد .
٣ ـ العقاب الصارم لكل مخطىء" (٢)

والنقطة الثالثة هى ما يعنينا فى هذا المقام . فالعقاب الصارم الذى لا هوادة فيـه هو العلاج السريع الحاسم لكل خطأ وقع والانذار الفعال المروع لكل من يفكر فى ارتكـــاب مثل هذا الخطأ فى المستقبل ـ وسوف يتضح عند الحديث عن الامراض الاجتماعية أن العقوبة العامة أو الغالبة هى الاعدام وان اختلفت صوره او وسائله فالمغول ـ بحكم بداوتهم ـ لايميلـون الى أحكام السجن أو الحبس .

---

(١) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٨
(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٢ .

وقبل أن نتطرق الى الحديث عن الامراض الاجتماعية وكيفية معالجتها فى قانون جنكيز خان نود أن نورد بعض الملاحظات العامة حول الياسا ذلك القانون الذى انتشرت شهرته كثيرا فى العصور الوسطى ٠

أولا : لغة الكتاب :

كتبت سطور الياسا بمعرفة بعض الاويغور الذين قدر لهم ان يعيشوا فى كنف جنكيزخان وتم ذلك بواسطة الابجدية الاويغورية ٠ اذ لم يكن لدى المغول ـ وهم شعب أمى ـ أبجدية توازى ما ينطقون به من كلام٠

فمن المعروف انجنكيزخان قد عهد الى حامل اختامه الاويغورى ان يقتبس الكتابة السريانية لتدوين القانون المغولى الشهير (الياسا) (١) وكانت الابجدية الاويغورية ـ فى الأصل ـ قد اشتقت عن السريانية التى انتشرت مع حركة التبشير المسيحية التى كانت تجوب وسط آسيا منذ فترة من الزمن٠

ثانيا : هيئة الكتاب :

يبدو أن النسخة الاولى من هذا الكتاب لم تكن مكتوبة على الورق وانما نقشت فوق الواح معدنية ـ يقول المقريزى (٢) " ولما تم جنكيز خان الياسا كتب نقشا فى صفائح الفولاذ" ٠

وبدهى أن يكون حجم هذا الياسا ـ فى عصره ـ ضخما غير مألوف حتى ان ابن كثير (٣) قد ذكر عنه" انه كتب فى مجلدين بخط غليظ وأنه يحمل على بعير عندهم" ٠

ثالثا : مدة تدوين الكتاب :

لم تكن الياسا ـ بطبيعة الحال ـ وليدة بنات أفكار خان فحسب وانما كانت بمثابة تجميع لمختلف العادات والتقاليد والخبرات السابقة عند المغول ،وقد أضاف اليها جنكيز خان ما رآه مناسبا للتغييرات التى طرأت علىحياة المغول فى أيامه٠ كما شدد فيها على العقوبات بوجه خاص ومن هنا استغرق تأليف الكتاب سنوات عديدة استلزمت تدوين الكتاب على أوقات متفرقة ٠ وذلك يجعلنا نقبل الرأى القائل "بأن الياسا صدرت مجزأة طوال حكم جنكيز خان" (٤) فاذا كانجنكيز خان قد أصدر قانونه الشهير (الياسا) سنة٦٠٣هـ أى عند تتويجه خاقا أعظم للمغول جميعا فمن المحتمل أنه قد أضاف اليه عدة بنود أخرى فرضتها طبيعة التحولات الخطيرة التى جرت قبيل وفاته سنة٦٢٤هـ٠

أيا كان الامر فان مايهمنا هو أننصوص الياسا ظلت محترمة جدا لدى المغول حتى فترة طويلة من الوقت" فما أن تولى "كيوك" الحكم سنة٦٤٤هـ حتى لفت نظر الامراء والنبلاء الى ضرورة مراعاة أحكام الياسا وتجنب الخروج عليها أو تحريفها أوتاويلها" (٥) ٠

---

(١) د٠ أرونولد توينبى: تاريخ البشرية ج ٢ ص ١٨٠
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢١
(٣) البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ص ١٤٨
(٤) د٠ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٧
(٥) د٠ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٢٧

وعندما بدأ هولاكو حفيد جنكيزخان فى التحرك صوب قلاع الاسماعيلية سنة٦٥٣ هـ اوصاه أخوه الخان الاعظم منكو أن يحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه فى الكليات والجزئيات (١) ولقد كان ذلك يعنى اصرار المغول على تطبيق الياسا حتى خارج بيئتهم منغوليا ومن ثمة فقد اخذ المغول انفسهم بتعاليم الياسا والتزموا فى معاملاتهم للامم المغلوبة بما كانت تقتضيه" (٢). وليس أدل على مدى تأثير الياسا " أن تيمور لنك ظل معتقدا لها - رغم اسلامه - تمشيا لبعض قوانينها" (٣) وبالطبع لا ينقص هذا من شأن الاسلام ولا يرفع من شأن الياسا بالقياس اليه .

وجدير بالذكر أن ثقة جنكيز خان بالياسا كانت عظيمة جدا حتى أنه اعتقد أن أمور دولته لن تستقيم الا بتطبيق أحكامها وقد أثر عنه أن قال: " اذا لم ينبع الامراء الذين سيأتون بعدنا قوانين الياسا فان امبراطوريتنا سوف تتحطم". (٤)

ومن الانصاف أن نقول ان الياسا احتوت فى بعض نصوصها على جوانب اجتماعية ممتازة فمن ذلك أن الغنى لا يمتنع عن اعانة الفقير، وان يحترم المرؤوس رؤساءه". (٥)

كذلك تحرت الياسا العدالة عندما نصت على أن من يعين أحد الخصمين على الاخر يعاقب بالموت" (٦) بمعنى عدم ترجيح شخص على الاخر لاغراض خاصة أو صلة معينة . وليس المقصود اعانة الضعيف على القوى أو المظلوم على الظالم .

كما ورد من الياسا حث المغول على نبذ الاثرة والجفاء فيما بينهم حتى لايطمع فيها أعداؤهم .. لا يؤذ بعضكم بعضا على امور الدينا فاذا شعر احدكم بألم من الاخر فليسارع لازالته حالا لتكونوا بمأمن شرور الاعداء". (٧)

وقبل أن نشرع فى الحديث عن الامراض الاجتماعية وموقف الياسا منها فانه ينبغى أن نلاحظ عدة جوانب مهمة منها :

١ - ان موقف الياسا هنا التزم جانب العقاب الصارم ولم يبحث مطلقا فى الاسباب التى قد تؤدى الى اتكاب الخطأ أو فى النتائج التى يمكن أن تترتب على العقاب .

٢ - أن الياسا لا تحبذ العقاب بالسجن لان ذلك يترتب عليه مسئوليات عديدة كالحراسة المستمرة وتوفير الطعام للسجين مع احتمال قيامه بالفرار اذا اتيح له. ولهذا فالعقاب فى الياسا يتراوح بين القتل أو الجلد أو مصادرة الاموال.

٣ - ان تطبيق الياسا فى البلاد الخاضعة للمغول على أهلها لم يكن بنفس مستوى التطبيق فى منغوليا ، فقد كان المغول أشد صرامة وقسوة خصوصا مع المسلمين حتى ان (جغتاى) بن جنكيزخان الملقب بأمير العقاب لتفقهه فى الياسا كان يكره

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ ص ٢٣٧
(٢) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٥٩
(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ٣١٩
(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٣
(٥) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٣
(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٠
(٧) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٠

المسلمين كرها شديدا ويتلذذ بتعذيبهم واكراههم على مخالفة تعاليم الاسلام والعمل بالياسا .

ادمان الخمور :

الخمر واحدة من أفات العقل ، تذهب بوقار الرجل وتفقده توازنه وتجعله عرضة لكل انتقاص أو استهانة .. والاسلام باعتباره الدين الحريص على كرامة الانسان واعتداله حرم الخمر على المؤمنين به تدريجيا حيث كان العرب - وهم أهل بداوة - يفرطون في شرب الخمر .

ولقد أشرت عند الحديث عن وسائل التسلية والمرح الى أن تعاطى الخمور كان احد تلك الوسائل عند المغول بل لعله ابرزها جميعا . وأكثر مايكون ذلك فى المناسبات والولائم وحفلات الزواج . كذلك أشرت الى ا لكوميس (خمر المغول الوطنى) الذى كانوا يصنعونه من اللبن المخمر ويعتبرونه غذاء الجميع وبخاصة فى أيام الشتاء وكيف كان هذا النوع الذى يمنع من حليب الافراس قويا جدا لايحتمله حتى أهل الغرب الذين تمرسوا على شرب الخمور طويلا .

فالراهب "وليم روبرك" يصرح أنه لاقبل له بشربه لشدة تأثيره ولذا التمس عندهم ما هو الطف مذاقا فقدموا له العسل المخمر الذى يحتفظون به للغرباء وهم لايصنعونه عادة وانمايستوردونه" . (١)

وفى الحقيقة كان المغول قد أسرفوا فى تعاطى الخمر اسرافا تجاوز أنه وسيلة تسلية أو مرح وأدمنوا فى ذلك ادمانا ملحوظا جعله مرضا مزمنا .

ولقد حاول جنكيز خان - دون جدوى - أن يقلل من تعاطى المغول للخمور غير أنها كانت محاولات غير ناجحة . لانه هو نفسه لم يكن فيما يبدو قادرا على الامتناع عن شرب الخمر . ولهذا لا نجد فى الياسا نصا صريحا يمنع تعاطى الخمور ، أو يحدد عقوبة لمن يدمن تناولها (٢) .

ويكفى أن نتذكر قول جنكيز خان " اذا أردت أن تسكر فاسكر ثلاث مرات فقط فى الشهر والافضل الاتسكر على الاطلاق ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يمتنع عن شرب الخمر امتناعا تاما" . (٣)

فكيف اذن يمتنع المغول عن تعاطى الخمور وقد درجوا على ذلك منذ زمن بعيد بل ان الحكام أنفسهم كانوا يفرطون فى تعاطى الخمور وعلى سبيل المثال " عرف عن جغتاى ابن جنكيزخان - حاكم خانية التركستان وبلاد ما وراء النهر - كلفه الشديد بالشراب . وهى العادة التى تفشت فى الغالب بين أبناء جنكيزخان . (٤)

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٦

(٢) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ٦٤٤

(٣) د.رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٦٨

(٤) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٤

أما الابن الثالث " أوكتاى" والذى تولى خلافة أبيه جنكيز خان فقد كان الافـراط فى الشراب من أهم أسباب وفاته (١) ومثل أوكتاى كان ابنه كيوك الذى اشتهر بافراطه فـى الشراب واللهو حتى أنه فرض نديمه "ببسو" حاكما على التركستان وبلاد ما وراء النهر ونـزع من الحكم (قراهولاكو) لكن هذا النديم كان لايفيق من سكره حتى قتله الخمر ويقال ان الخمر كانت أيضا أحد اسباب وفاة ابا قابن هولاكو سنة ٦٨٠ هـ .

غاية الامر أن المغول -- قبل اسلامهم -- كانوا مدمنى خمر وهذا يطرح أمامنـا سؤالا مهما عن الكيفية التى عالج بها المغول قضية الخمر وبخاصة موقف الحكام المغـول حيالها .

لم يبدأ المغول مواجهة حقيقية ضد الخمور الا منذ اسلامهم (٦٩٤هـ ٧٠٣هـ) فلقد أمر " غازان خان ان يقبضوا على كل شخص يجدونه فى حالة سكر ويربطونه الى شجرة فـى الطريق العام حتى يتعرض لاهانات المارة وتأنيبهم ويكون مثلا رادعا لغيره ولكنه فى الوقـت نفسه حرم البحث عن السكارى فى المنازل خوفا من أن يتخذ المروؤسون من هذا ذريعـة لمضايقة أفراد الشعب والتعدى عليهم" . (٢)

ومن خلال هذا يمكن أن نستبين ملاحظات عدة :

أولا : ان المواجهة بين المغول والخمر لم تحدث الا عندما اهتدوا الى الاسلام رغم أنـه لم يكن اسبق الاديان الى حياة المغول .

ثانيا : ان العقاب الذى وضعه غازان لم يكن نفس العقاب الذى ارتآه الاسلام الذى أقـام الحد على شارب الخمر بالجلد علنا مهما كانت مكانته وفى حادثه جلد عمر بن الخطاب لابنه عندماشرب الخمر فى مصر مايذكرنا بذلك .

ثالثا : حرص غازان خان بوصفه حاكما مسلما على أن لايستغل علاجه للخمر كوسيلة لمضايقة المحكومين من قبل اتباعه .

عموما فان عادة شرب الخمر قد بدأت تتوارى تدريجيا مع دخول المغول الاسلام فـى ايران والتركستان و القبجاق وبالتالى اخذت تزول كل المتاعب الاجتماعية التى كانت تترتب عليهـا والتى كانت مزعجة للحكام والرعية على السواء .

الزنـــا :

اخطر الامراض الاجتماعية لانه يهدد صحة الانساب الشرعية فى المجتمع كما أنه علامة ضعف فى قدرة الانسان على ضبط توازنه وكبح جماح نفسه أمام الرغبة الحيوانية الكامنة فيه .

وبدهى أن ينتبه جنكيز خان لهذا الداء وأن يعمل على علاجه :

أولا : بالتشجيع على الزواج بكل صورة ممكنة -كما أشرت سلفا - باستمرار اباحة تعـدد الزوجات وازالة كافة الفوارق الاجتماعية التى قد تحول بين زواج الرجل المغولـى منا لمرأة التى يبتغيها .

---

(١) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٣

(٢) د.مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٣

ثانيا : العقوبة الصارمة التى ضمنها قانونه الياسا والتى تنص على أن من زنا يقتل "(١) ، فالعقوبة حازمة ولا شك غير أنها لم تفرق بين المحصن وغير المحصن (٢) .

ولسنا فى حاجة الى عقد مقارنة بين العقوبة هنا والحد فى الاسلام الذى فرق مراعاة لمعايير انسانية بين المحصن وغير المحصن عقوبة الاول الرجم بالحجارة والثانى الجلد وكلاهما بصورة علانية .

غير أن الياسا تشير الى اللواط أيضا وتجعل عقوبته نفس عقوبة الزنى ، وجدير بالذكر أن اللواط واحد من أخطر أمراض الشذوذ الجنسى وهو مرض يدل على انعدام التوازن النفسى لدى المصابين به .

وبدهى أن الياسا وقد جعلت عقوبة اللواط القتل قد اعطت مؤشرا على انتشار هذا المرض الخطير بصورة واضحة ملموسة بين المغول .

أما عن كيفية تطبيق عقوبة الزنى فيقول الفرمانى (٣) ومن الاحكام المظلمة للياسا خنق الزانى وان شهد بذلك واحد فلا يحتاج الى ثان" . فالزانى يقتل خنقا بالشنق أو تحت أقمشة ثقيلة تخمد بها أنفاسه . ولا ندرى ان كان هذا العقاب يجرى فى صورة علانية أم لا ؟ حتى يتعظ الاخرون بالعقاب فيرتدعون عن ارتكاب الخطأ أو حتى التفكير فيه .

كذلك فان الاكتفاء بشاهد واحد فى هذه المسألة الخطيرة التى يترتب عليها القتل يعد أمرا غير ملائم على الاطلاق للتأكد من صحة ارتكاب الخطأ هذا - ولقد كان الاسلام حريصا تمام الحرص فى مسألة الشهادة تلك والتيقن من وقوع الخطأ حتى يتكافأ ذلك مع العقوبة المقررة تجاهه .

وقد ترتب على تفشى الزنا بين المغول مواقف عدة خطيرة منها .

١ - اختطاف النساء :

وهى سمة بدائية تقوم على الرغبة المريرة وتستند الى قوة القسر والاستلاب فى هتك العرض وتدمير علاقات الجوار بين القبائل المغولية ولقد أشرت سلفا الى أشهر حالات الاختطاف عند الحديث عن أم جنكيز خان (هولون) وكذا زوجته (بورتاى) .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لاختطاف النساء كطلب فدية او اذلال قبيلة او انتقام لموقف سابق .. غير أن الرغبة الحيوانية ظلت هى الدافع الاقوى الاسبق كل ذلك . خاصة فى مجتمع بدائى كالمجتمع المغولى .

---

(١) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٧ ص ٧٣٨

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ ، القلقشندى : / صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١١٨

(٣) اخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٥

٢ - أولاد الزنـــا :

وأولئك ينشأون فى ظروف غير عادية بطبيعة الحال حيث يترك وليد الزنى عادة بـلا مأوى فيكون مصيره الموت فى تلك البيئة المناخية القاسية التى لا ترحم .

غير أن بعض الاسر كانت تنهض بعبء تبنى هؤلاء المساكين اذ كان يضاف الـى العائلة الكبيرة أولادا ليسوا منها ومنهم أبناء الزنى" (١) ولعل هذا ما دفع الى القول بأنهم كانوا اباحيين لايعرف الولد اباه" (٢)

وبدهى أن هؤلاء الابناء لم تكن لهم أية حقوق كالابناء الشرعيين فى الاســرة. فلا تعدو المسألة أن تكون مجرد ايواء فى ظروف غير عادية .

وليس بين أيدينا دليل على الصعوبات التى كانت تواجه هؤلاء التعساء عندمـــا يكبرون. غير أنهم بلا شك لم يصادفوا نفس المزايا التى كان يحظى بها الاقران الاخرون.

فى البلاد المفتوحـــة:

وقد ظهر هذا المدخل بصورة واضحة عند سقوط المدن الكبيرة فى أيدى المغـــول حيث كان الجنود المغول يرتكبون الفحشاء بالنساء الاسيرات علنا أمام ذويهم امعانا فـــى اذلالهم وقد تكرر ذلك فى معظم المدن التى سقطت بعد مقاومة عنيفة وهذا ما أشار اليـــه ابن الاثير (٣) فى وصفه لسقوط مدينة بخارى ، قال وارتكبوا من النساء العظيم والنـــاس ينظرون ويبكون ولايستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما ينزل بهم فمنهم من لم يـــرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل وما حدث فى بخارى حدث فى غيرها من المدن الاخرى كسمرقند ، وايران ونيسابور... الخ .

وبالطبع لم يقع أى من هؤلاء الجنود تحت طائلة عقوبة الزنا التى نصت عليهـــا الياسا وبذلك ثبت القول ان تطبيق العقوبات الواردة فى الياسا على المغول اذا أخطأوا فـــى غير المغول لم يكن ليوضع فى عين الاعتبار بل ان جنكيزخان نفسه كانت له استثناءات خاصة تخالف نصوص الياسا وخصوصا عندما يرتبط الامر به شخصيا "فقد حدث أن حظيه من حظياته استسلمت الى رغبات مغولى من أقربائه فلما علم بالامر لم يأمر بقتلهما انما طردهما من مجلسه معتبرا ان الذنب ذنبه فى اختياره لنفسه فتاه لها فطرتها الدنيئة". (٤)

ويبدو أن الزنا (البغاء) قد انتشر فى البلاد المفتوحة عقب الغزو المغولى حتـــى ان السلطان المغولى المسلم محمود غازان قد ازمع أن يسلك منهجا متمهلا لعلاج هذه المشكلـة فلم يتسرع ويغلق دور البغاء مرة واحدة وانما حرم بيع البنات اللائى يكرهن البغاء لبيـوت الدعارة وأمر بتحرير الموجودات فى تلك البيوت من اللائى يرغبن فى عدم احتراف هذا العمـــل المشين ودفع ثمن تحريرهن من أموال الدولة كما أمر أن يزوجن لمن يرغب فى الـــــزواج منهن". (٥)

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٥

(٢) د.حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى والدينى ج ٤ ص ١٣٣.

(٣) الكامل فى التاريخ ج١٢ ص ١٤١، ١٤٨ ، الكاتب الصينى. ف .يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٧٠ ، ١٧٤

(٤) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٣

(٥) د.مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٣

وبالطبع لم يكن ذلك الانتيجتلما انحدرت اليه الاوضاع فى البلاد المفتوحة فقد هلك الرجال والشباب وبقيت النساء دون عائل أو مانع فكان طبيعيا أن تنتشر الامراض الاجتماعية فى كل مكان ومنها الزنا

الامراض الماليـــة :

تعتبر الامراض المالية كالسرقة والاختلاس والرشوة والربا نتاجا ملموسا للفقر المدقع او الثراء الفاحش أو كليهما معا اذا توجدا فى مجتمع واحد.

وعلى كل حال فليست هذه الامراض سوى أدلة على عدم استواء المجتمع اذا افتقد روح الجماعة والتكافل الاجتماعى والتوازن الطبقى وتغلغلت فيه عوامل الاثرة والطمع والشح.

والمغول عاشوا حياة جافة خشنة نضبت فيها الموارد وقل فيها الرزق خاصة فى فصل الشتاء القارس فكان طبيعيا أن تتضح عندهم هذه الامراض • ثم انهم انتقلوا – بعد فترة وجيزة – عقب ظهور جنكيز خان الى حياة الثراء الواسع ذاك ان قهر الشعوب المجاورة واستلاب كل ما فى يدها قد أورث المغول ثروات عريضة لم يحلموا بها من قبل.

غاية الامر أن المغول عاشوا الحالين • فقر شديد وثراء فاحش دون انتقال تدريجى منظم بينهما ومن هنا كان طبيعيا أن تكثر هذه الاوبئة فى المجتمع المغولى سريعا. اذ لما تولى كيوك خانا أعظم للمغول فحص ما للاسرة المالكة من موارد مالية فكانت الاميرة (سور قويتى) أرملة تولوى بن جنكيز خان وأولادها (منكو – قوبيلاى – هولاكو – اريق بوقا) هم الذين دلوا على أنهم لم يتصرفوا الا على اساس الامانة التامة" (١) وعلى هذه فقد وكل الى هذه الاميرة مهمة توزيع الهدايا باسم الخان الاعظم". (٢)

لهذا الرأى يشير الى أن بقية الامراء المغول لم يكونوا بمنأى عن الاتهام بفساد الذمة المالية ولم يمض بعد على وفاة جنكيزخان نفسه ربع قرن • ويبدو أن أولئك قد وجدوا فرصتهم اثناء ولاية اوكتاى الذى كان لين العريكة سهل التعامل على خلاف ماعرف عن غالبية الحكام المغول • فالتشدد والصرامة فى عهد جنكيز خان ثم التساهل والتسامح فى عهد خليفته أوكتاى اوجد فرصة نادرة لظهور هذه الامراض الخطيرة التى سنوجز الحديث عنها فيما يلى:

أولا : السرقـــة :

لعل أبرز دوافع هذا المرض "الاثرة والطمع فيما يملكه الاخرون والرغبة العارمة فى حرمانهممنه وانتزاعه من بين ايديهم علنا أو فى الخفاء •

وعندما تكون البيئة قاسية جافة فان الحرمان من النعم أو حتى وسائل الحياة العادية يكون دافعا قويا للسرقة •وعند المغول نستطيع أن نقول ان فصل الشتاء كان أشد الفصول قسوة وبالتالى كثر انتشار السرقة فيه • ففى هذا الفصل المروع لم يكن أمام التتار (المغول) الا سلب بعضهم بعضا وسرقة ما تستطيع أن تمتد اليه أيديهم من موارد الرزق الشحيحة وقتل من يعترض سبيلهم". (٣)

---

(١) د•ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٥

(٢) د•بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٧٦

(٣) د•ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٦

وهكذا فان الاثرة والطمع والحاجة كلها دوافع كانت وراء انتشار السرقة فى المجتمع المغولى قبل وصول جنكيز خان الى الحكم . ولعل صرامة العقاب الذى نصت عليه الياسا يؤكد لدينا فكرة انتشار الجريمة او المخالفة التى هى بصددها .فكيف عالجت الياسا هذه القضية ..؟

كان مما شرعه جنكيز خان فى الياسا أن من سرق يقتل" (١) نص صريح.. السرقة عقابها القتل على سبيل المثال كان يعدم كل من يسرق حيوانا بعد أن يعترف" (٢) فقد كانت سرقة الجواد تعتبر من الاشياء الكبيرة .

جدوى الياسا :

جدير بالذكر أن العقاب الشديد يناسب طبيعة البدو ويناسب البيئة الجافة القاسية ويمكن القول بأن الياسا قد نجحت فى تحقيق نتائج ملموسة فقد كان جنكيز خان يعاقب من يسرق او يقطع الطريق بعقوبة شديدة (٣)

ولقد قيل عن أثر هذه العقوبة ان المرء لم يكن ليرى أثر للسراق بينهم مطلقا ولذا تجد بيوتهم أوعجلاتهم حيث يضعون فيها ثرواتهم وممتلكاتهم غير مغلقه فلو شردت أوضاعت دابة من ووجدها أحد تركها حيث هى أوجاء بها الى الضباط المسئولين عن من البهائم" (٤) .

ولعل ذلك يؤكد على أنقطاع اثر السرقة فى عهد جنكيز خان ، لكنه لا ينفى وجودها بكثرة قبله الامر الذى يؤكده قسوة العقاب فى الياسا نفسها أمابعد جنكيز خان حيث تباينت احوال خلفائه واتسعت الدولة وازدادت الثروة وازدادت الفجوة بين الطبقات فلابد أن السرقة قد عاودت الانتشار من جديد لدرجة ان البعض كان يلجأ الى سرقة القبور خاصة قبور الاسرة الحاكمة .

يقول جون هامرتين (٥) : فان كان الميت من أفراد الاسرة الحاكمة فان الاغراء بالسرقة يكون اشد ذلك أنهم كانوا يضعون فى القبر كنوزا عظيمة القيمة".

ولسنا بصدد مقارنة حكم الياسا فى قضية السرقة بما نص عليه التشريع الاسلامى الذى أمر بقطع يد السارق عبرة لغيره ..وانما نكتفى بأنه أكثر رحمة حيث لاصلب فيه ولا شطر كما سيأتى تفصيله ، واذا كانت السرقة قد انعدمت فى عهد جنكيز خان وحده خوفا منه ومن الياسا. فقد انعدمت فى عهد عمر بن عبد العزيز الراشد الخامس حبا للدين الحنيف وامتثالا لنواهيه واقتداء بالخليفة الصالح الذى اغنى الناس بورعه وعفته .

اذن فالسرقة عقوبتها الاعدام فى الياسا والاعتراف سيد الادلة كما يقول رجال القانون ولقد كان البدو – فى أى مكان – أهل صراحة فى الغالب .

---

(١) د.أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٩
(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٢
(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ص ١٣٢
(٤) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٢٨
(٥) تاريخ العالم ، ج ٥ ص ٢٤٢

ويحدد القرمانى (١) طريقة اعدام السارق .. يقول ومن أحكام الياسا المظلمة صلب السارق وان شهد بذلك واحد فلا يحتاج الى ثان." (١)

وفى الصلب عبرة وتهديد - بلا شك - للاخرين كذلك فاذا امتنع السارق عن الاعتراف فيؤخذ بشهادة فرد واحد وفى هذا ظلم بين . غير أن ماعرف عن البدو من صراحة فى الاعتراف بالذنب ربما يقلل فى العادة الاحتياج الى وجود شهود .

ويبدو أن ثمة وسائل أخرى لاعدام السارق أو بدائل عن ذلك فكما كان يقضى بالموت - فى الياسا - على من يقطع الطريق او يرتكب السرقة الكبيرة وذلك بأن يقطع المجرم نصفين بالسيف كان يقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قد يودى بحياة المضروب فى بعض الاحيان الا اذا كان قادرا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال الشئ المسروق". (٢)

هذا ويعتبر العقاب بشطر السارق - بلا شك - عقابا مروعا رادعا اشد قسوة من الصلب .. أماجلد من يسرق شيئا بسيطا كبعض الانية أوالاثاث أو الاغنام فيعتبر حكما معتدلا بالقياس الى العقاب السابق .. لكن الفدية المحددة بتسعة أمثال الشئ المسروق تعد شيئا جديدا . اذ لم يحدد مال هذه الفدية . أهى كلها الى صاحب الشئ المسروق أم للحاكم أم لهما معا بنسبة معينة .

كذلك اختلف فى عدد مرات الجلد - فكانت بين سبعومائة وسبع عند سرقة الماشية مثلا" (٣) وقد تصل الى سبعمائة جلدة كما يرى البعض ذلك" (٤) وربما يرجع ذلك الى قيمة الشئ المسروق ذاته .

ثانيا : الاختـــلاس :

احد نماذج فساد الذمة المالية لانه استيلاء على اموال الدولة أو الاشخاص الذى ائتمنوا مسئولا وثقوا فيه باعتباره نزيها ليس موضع شبهة وغالبا ما يكون الاختلاس فى المال وقد يكون فى أشياء أخرى .

ولا تختلف دوافع الاختلاس عن دوافع السرقة كثيرا فكلاهما من معين واحد وان اختلف اسلوب الأداء.

وفى عهد جنكيز خان لم تظهر أية بوادر جلية لاختلاس أموال الدولة ربما مهابة منه أو خوفا من شدة العقوبة فى الياسا .

غير أن الدولة المغولية عقب جنكيز خان ازداد اتساعها. واتصالها بنظم اخرى فى الادارة كذلك وصل الى مراكز الدولة العليا اشخاص كان دافعهم الاول البقاء فى المنصب والحصول على اكبر قدر ممكن من الاموال.

---

(١) اخبار الدول واثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٥
(٢) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٦
(٣) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤١
(٤) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥

ولما كان الوزير هو المهيمن الاول على الشئون المالية والادارية فى الدولة توجب عليه ان يضبط الاموال بكل دقة والا تعرضت حياته نفسها للخطر خاصة وأن الحكام لــذا المغول – آنذاك – قد تعودوا على البذخ والاسراف دون حساب أو مانع – يقول الدكتور فؤاد الصياد " وكان السلطان يطلب الى الوزير تدبير المال فى أى وقت يشاء . فاذا تلكأ كانت عليه الطامة الكبرى ورمى بالعجز والقصور واتهم بالاختلاس والتبديد ثم بساق الى حتفه" (١)

ومن هذا المنطلق صار اتهام الاخرين بالاختلاس – صدقا أو كذبا – أقصر طريق للتخلص منهم وازاحتهم عن مناصبهم .. ولقد كان عطا ملك الجوينى أول مسئول كبير وجهت اليه تهمة الاختلاس فى عهد اباقا بن هولاكو (٦٦٣– ٦٨٠هـ) .

وفى عهد (١٢٨٤– ١٢٩١) دفع اتهام بالاختلاس وجه الى مسئول كبير فى القصر وروج له طبيب يهودى يعمل فى قصر الايلخان فقد شهر سعد الدولة اليهودى بالامير (اروق) شقيق أمير الامراء "بوقا" واتهمه باختلاس أموال الدولة المجباه من العراق وانتهى الامر الى مقتل الامير "بوقا" واخيه (أروق) فى ذى الحجة سنة ٦٨٧هـ وسرعان ما شغل الطبيب سعد الدولة اليهودى منصب الوزارة عند أرغون" . (٢)

وسواء أكان الامر مكيدة أم حقيقة فمن المؤكد أن الامير (أروق) عجز عن اثبات براءة ذمته المالية مما ترتب عليه هلاكه وشقيقه امير الامراء "بوقا" الذى كان – على مايبدو – متورطا فى الامر .

عموما فقد ترقى صاحب الاتهام الى وظيفة وزير القصر الايلخانى .

وفى عهد غازان خان وجهت الى الوزير جمال الدستجردانى تهمة اختلاس أموال الدولة واستغلال السلطة لتيسير ذلك ، فأمر السلطان محمود غازان بقتله بعد ثبوت تهمة استغلاله للسلطة والاستيلاء على أموال الدولة فتم اعدامه فى سنة ٦٩٢هـ". (٣)

وماكان الوزير صدر جهان لينجو بدوره من الاتهام باختلاس اموال الدولة واستغلال منصبه لتحقيق مصالح مادية ففى سنة ٦٩٧ هـ ذهب السيد قطب الشيرازى ومعين الدولة الخراسانى الى السلطان غازان وأفهماه أن الوزير يخونه ويتلاعب بأموال الدولة". (٤) فأصدر غازان خان أمرا بأن يقوم "قتلغ "شاه بشطره الى نصفين وتم اعدامه سنة ٦٩٧" ( )

وربما كانت كثرة الاتهامات بالاختلاس والتلاعب فى أموال الدولة واستغلال النفوذ هى الدوافع المهمة التى حدت بغازان خان الى تكليف وزيرين اثنين بالنهوض بأعمال الوزارة فى وقت واحد فلعله ظن أن كل واحد منهما سيكون رقيبا على الاخر لديه خاصة فى الشئون المالية .

غير أن بعض المتآمرين عملا على ضرب الوزيرين بتهمة واحدة "ففى عام ٧٠٠ هـ ، دبرت مؤامرة فى البلاط ضد الوزيرين رشيد الدين وسعد الدين محمد الساوجى فاتهما بأنهما

---

(١) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ١٢٢
(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٥
(٣) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٥
(٤) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ٨١
(٥) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٧

يسيئان استخدام سلطتهما ويستغلان نفوذهما فى الاستيلاء على أموال الدولة لمصلحتهما الشخصية" • (١)

وعلى الرغم من أن غازان خان قد أعرض عن تلك الوشاية وعاقب المتآمرين فان هذين الوزيرين تعرضا لموءامرة مماثلة بعد عامين فقط • ففى سنة ٧٠٢ هـ تواطأ جماعة على خلع الوزيرين رشيد الدين وسعد الدين فطعنوا فى نزاهتهما واتهموهما باختلاس الاموال وعدم الصدق فى ضبط حسابات الدولة ، فلما حقق الامير فتلغ شاه هذا الموضوع بأمر من الايلخان ثبتت براءة الوزيرين مما نسب اليهما وتبين سوء نية المتآمرين فأمر السلطان بمعاقبة هوءلاء الاشرار الساعين بالفساد وأعز الوزيرين ورفع قدرهما • (٢)

وقد يظن ان الوزيرين قد صار بمنأى عن الخطر بعد ثبوت البراءة من الاختلاس مرتين غير أنهما لقيا حتفهما - بعد وفاة غازان - شأن غالبية الوزراء فى الدولة الايلخانية الذين فقدوا حياتهم لاسباب أهمها اختلاس الاموال أو التلاعب فيها بهدف تحقيق المصلحة الشخصية •

وهكذا فان تهمة الاختلاس كانت سيفا مسلطا - صدقا أو كذبا •• على رقاب موظفى الدولة مهما علا شأنهم وارتفع نجمهم • كما دفع غالبية اولئك الى استعمال أساليب غير مشروعة لتوفير المال الذى يطلبه سلاطين المغول " ولم يكن هم هوءلاء متجها الا الى جمع المال ، فقد رأوا فى البلاد التى فتحوها القصور الشامخة والحدائق الغناء فطاب لهم أن يشيدوا مثلها ويعيشوا فى حياة الرفاهية بعد ما عانوا من حياة الخشونة والتقشف" (٣) فطلبوا الاموال الكثيرة من وزرائهم فاضطر هوءلاء الى عمل أى شئ لارضاء ساداتهم والافلات من عقابهم •

ثالثا : الرشـــوة :

ذكرت توا أن الوزير والجهاز الادارى التابع له وباعتباره المسئول قبل الايلخان عن الشئون المالية كان عليه أن يضبط بغاية الدقة كافة السجلات المالية وما تحتوى عليه من بيانات مالية مختلفة ومتداخلة • كذلك كان عليه أن يكون جاهزا بالمال انتظارا لامر السلطان فى أى وقت او مكان • ولعل ذلك هو مادفع بالبعض الى الاعتقاد بأن الوزير لابد أن يكون مرتشيا فقد اتهم الوزير" يى - ليو - جوتساى" منافسوه بالرشوة لكنهم لم يجدوا عنده الا بعض الالات الموسيقية والوثائق التاريخية" (٤) غير أن هذا لم يكن شأن كل الوزراء "فقد كان الوزير سعد الدولة لا يلتفت لشكوى الفقراء والمظلومين وكانت لاتقضى مصلحة لشخص الا عن طريق الرشوة فعم الفساد وكسدت أسواق أصحاب الاعمال" • (٤)

واذا كان كبار موظفى الدولة يلجأون الى الرشوة ، فماذا سيفعل غيرهم من الناس بالتأكيد سيلجأون الى مثل هذا مما دفع غازان خان بأن يأمر من ينادى فى الاسواق ألا يعطى أحد من الناس لجماعة السعاة وسائقى البغال والجمال دينارا واحدا مطلقا ، وبأن كل شخص

---

(١) د• فوءاد الصياد: موءرخ المغول الكبير ص ١٣٢
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٢ نقلا عن تاريخ وصاف ص ٤٨٠ ، ٤٨١
(٣) د• أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٦٠
(٤) د•حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٤٧
(٥) د•فوءاد الصياد: موءرخ المغول الكبير ص ١٥٤

من هذه الطوائف يطلب شيئا ما من أى انسان يقتل فى الحال وبذلك خاف هؤلاء وكفوا أيديهم عن ايذاء الناس". (١)

رابعا: الربـــا :

يبدو أن الربا لم يكن معروفا عند المغول ابان سنوات الفقر فى منغوليا حيث كان السلب والنهب طابع البيئة المقفرة . لكنهم وقد صاروا اسيادا وأصحاب أموال كان عليهم أن يستثمروا هذه الاموال وعلى هذا فكلما امتد الفتح المغولى الاسياد المغول الذين غدوا من كبار الملاك فى البلاد المحتلة فى اقراض الصينيين على سبيل المثال بفوائد مفرطة الاموال التى انتزعوها منهم. (٢)

لم يكن الربا موجودا فى الصين وحدها فى الحقيقة فلقد انتشر فى أماكن عدة مما اضطر الايلخان المسلم محمود غازان الى مواجهة علنية مع المرابين فأصدر مرسوما يحرم فيه على أى مخلوق أن يأخذ او يعطى فيما بعد نقودا بفائدة ويهدد كل شخص يخالف الشرع الشريف او الامر الايلخانى بالعقاب والمحاكمة لذلك حرم على الملتزمين الاقتراض بالربا وحرم على الناس اقراضهم وهدد من يقرضهم بضياع امواله ويقال انه نصح الخواتين وأمراء الاسرة الايلخانية والقواد بالعدول عن الاقراض بالربا" (٣)

انتشارا الخرافـــات

لكل مجتمع – ولاشك – خرافاته المتوارثة والتى عادة ما تكون وليدة الخيال . يجنح بالعقل فينأى به عن جادة الصواب .

وتتأثر الخرافات بمدى التحضر الذى يحظى به أى مجتمع توجد فيه فالتناسب بين الخرافات والحضارة تناسب عكسى –وهو فى الحقيقة نفس التناسب بين الجهل والعلم.

وعلى هذا فالبداوة وتفشى الجهل والعجز عن مواكبة التطور كلها عوامل تساعد على خلق مناخ ملائم لرواج الخرافات واعمال الشعوذة .

وسنحاول الاشارة الى أهم الخرافات التى استحوذت على تفكير المغول .

١ – مخافة الشياطيـــن :

بالطبع لسنا بصدد تفاصيل الحديث عن الشياطين – وانما يكفينا ان نذكر أن الشيطان خلق من عنصر مخالف عن خلق الانسان . مما جعله عدوا له وتكاد الاديان تجمع على وجود هذا العداء المتأصل من بدء الخلق ويبدو أنا لمغول كانوا يعتقدون أن للشياطين تأثيرا كبيرا على حياتهم. ولقد كان الكهان سواء أكانوا من الشامانيين او البوذيين يعملون على تنمية هذا الاعتقاد عند المغول حتى يزدادوا تأثيرا فيهم واستحوذا عليهم ، فقد كانوا يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين كما أن ذوى الارواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم وأنهم قادرون على التنبوء بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والارواح". (٤)

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٢

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ص ٣٧٨

(٣) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٢

(٤) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٠

أليس هذا كله كفيلا بأن يجعل العامة منقادين لهؤلاء الكهان الذين يحضرون الشياطين ويروضونهم ويسيطرون على أصحاب الارواح الشريرة ويزعمون معرفة الغيب أيضا.

ويوضح الدكتور رالف لنتون (١) الطقوس التى يجريها هؤلاء الكهان حتى يوهموا العامة بقدرتهم على الاتصال الفعلى بعالم الارواح .. يقول " وكان الشامان هو الذى يستطيع الاتصال بالارواح وهو فى حالة غيبوبة يتوصلون الى احداثها بدق الطبول والغناء، وتغادر روح الشامان جسده أثناء ذلك وهو فى غيبوبة حيث تسافر الى أرض الارواح فهناك تستطيع مقابلتها و التحدث اليها ومعرفة ما يجب أن يفعل لتحقيق الاغراض المطلوبة".

وواضح من عبارة "دق الطبول والغناء" وكذلك" الغيبوبة" مدى الدجل والشعوذة والاستخفاف بعقول الاخرين، الا يذكرنا هذا (بحلقات الزار) التى يلجأ اليها بعض الجهلاء توهما فى نيل مطلب عسير ؟!

وهكذا قدر للكهان بوذيين اوشامان .. أن يهيمنوا على عقلية المغول عليهم لفترات من الوقت .

وفى الحقيقة لم يكن المغول يخافون الكهان فقط بل كانوا يخافون كل من يدعى الاتصال بعالم الجان والأرواح والشياطين .. ففى عام ٦٣٠هـ - ١٩٣٢م . ظهر فجأة بقرية تاراب على مسيرة ثلاثة فراسخ من بخارى صانع غرابيل يدعى محمود التارابى عرف بضعف الادراك والبلاهة . فادعى ان الجان والارواح توحى اليه وأنه ذو قوة علوية خارقة، ولايصعب ادراك مدى تأثير سلوك هذا المتنبئ على المغول وهم ممن يعتقدون فى الخرافات الدينية فكان أن استقبلوه ببخارى استقبالا حافلا وانزلوه بقصر السلطان سنجر". (٣)

وجدير بالذكر أن الخرافات المرتبطة بالشياطين والجان لم تكن مقصورة على المغول وحدهم بل كانت موجودة لدى معاصريهم من الاتراك أيضا الذين كانوايعتقدون أنه اذا قامت الحرب بين فريقين فان الجان الذين يسكنون موضع احد الفريقين يحاربون الجان المقيمين فى مواضع الفريق الاخر وذلك قبل أن يشترك أو يشتبك الفريقان بيوم واحد .. ومن هنا كان المحاربون لايغادرون خيامهم ليلة القتال خوفا ان تصيبهم سهام الجن، وكانوايعتقدون ان نتيجة معركة الجن هى التى تحدد نتيجة القتال". ( )

٢ - <u>خرافة آلة الحرب :</u>

وتلك خرافة كانت تجرى بين جنود جنكيز خان مجرى الحقيقة. فالى جوار خيمة جنكيز خان الصفراء وتد من الذهب الخالص ربط اليه"سنيتر " الجواد الابيض المقدس. الذى كان يزعم كهان المغول أن سر انتصارات جنكيز خان التى لا تتقطع ترجع الى أن اله الحرب "سولد" الذى لاتدركه الابصار يمتطى هذا الجواد ويزحف مع جيوش الخاقان ليشد أزرها". (٤)

---

(١) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٨

(٢) ارمنيوس فامبرى :تاريخ بخارى ص١٧٨، د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٦٦، ابن الفوطى: الحوادث الجامعة فى أخبار المائة السابعة ص ١٢٨

(٣) د.بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١١٨

(٤) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٦

وقد رأينا كيف أن الكهان كانوا يروجون لهذه الخرافة أيضا حتى يكون لهم فى الامر نصيب ولهذا " كانوا يزعمون أن هذا الاله (سولد) كان يسكن علم القبيلة أيضا ولابـــد أن تقدم لمذبحة قبل كل حملة عسكرية". (١)

٣ - كسر رؤوس التماثيل :

ولم يكن ذلك عند المغول رغبة فى التخلص من الوثنية التى ارتهنت لديهم بانتشـــار الشامانية وانما كان ذلك اعتقاد عندهم يوحى بأن رؤوس هذه التماثيل الخاصة بالقدامى تـــورث الشر المستمر للاحياء (٢) ولهذا عمدوا الى التخلص السريع منها على أن المغول الذين دانـــوا بالبوذية لم يكن لديهم - فى الغالب - هذا الاتجاه.

٤ - أصوات الحيوانـــات :

لا غرو اذا كان بعض الناس يرمزون الى أصوات الطيور بمعان متعددة فصوت البـــوم أوالغراب يرمز الى التشاؤم وعواء الكلاب ليلا أوالحمير يرمز الى مرور الشياطين .. الخ.

والمغول - فى بعض الاحيان - كانوا يتخذون مواقف حاسمة وفقا لبعض الاصـــوات التى تصدرها الحيوانات .. يقول (٣) "حكت امرأة قالت : كنت فى اسرهم مـــدة ، فاتفق ان الرجل الذى سبانى مرض ، فقال اقاربه - فيما قالوا - لعل هذه المرأة اطعمتـــه شيئا فهموا بقتلى والمريض كان يمنعهم من قتلى ،فاجتمعوا يوما اجتماعا عظيما واحضروا معـــزا اركبونى عليها وجاءت امرأة ساحرة بمنجل فى يدها تديره وتقربه شيئا فشيئا والجمع قيـــام عندى بالسيوف المسلولة .. فاذا المعز تحتى صاحت صيحة ، فرجع القوم وخلوا سبيلـــى ، وقالوا ليس هذا كما ظننا".

وهكذا قدر لهذه المرأة السبية أن تفلت من خطر الموت المحدق بها من جـــراء صيحة أطلقتها المعز وتوهم القائمون على القتل انها دليل براءة المرأ من الذى اصاب الرجل.

خرافة الاونقـــووا :

وتلك خرافة غريبة أوردها الكثير من المؤرخين . يقول عباس العزاوى (٤) عنها بعـــد أن تولت الوصاية على الحكم عقب وفاة زوجها وفى انتظار ان يكبر ولداها ، يقول " ومضـــت بضع سنوات على ذلك ولكنها - كما يحكى - فى ليلة وقت السحر رأت نورا من أعلى الخيمـــة قد دخل عليها ثم تمثل لها بشرا سويا أبيض الوجه أصفر الشعر اشهل العينين فحاولـــت أن توقظ النساء حولها فلم يتيسر لها ذلك فتقرب منها ذلك النور واتصل بها ثم خرج وبعد بضعة أشهر ظهرت عليها علائم الحمل فسألوها عن السبب فقالت ، لو أردت زوجا لحصل بسهولة ولم آت منكرا وانما جاء النور فتمثل لى رجلا واذا أراد الله ألا يخذلنى فسوف تظهر قدرته وسترون الولد عند الولادة".

وقد اشار ابن خلدون (٥) فى كتابه العبر الى نفس القصة ويوضح أنه نقل ذلك عـــن

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠

(٢) د. بارتولد :تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٦

(٣) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٨٢

(٤) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٧٠

(٥) العبر ج ٥ ص ٥٢٥

رشيد الدين بن فضل الله الهمذانى فيما نقله عن شمس الدين الاصبهانى الذى أخذ عن أصحاب نصير الدين الطوسى ، يقول عنها " فذكرت أنها رأت بعض الايام نورا دخل فى فرجها ثلاث مرات وطرأ عليها الحمل بعده . وقالت لهم أن فى حملها ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم واسم أحدهم (برقد) والاخر (قونا) والثالث (نجعور) وهو حبر جنكيز خان الذى ففى عمود نسبه وكانوا النورانبيين نسبة الى النور الذى ادعته ولذا يقولون جنكيز خان ابن الشمس"

وجدير بالذكر أن القصة نفسها أوردها القرمانى (١) والكتبى (٢) غير أن أفضل رد على هذه الخرافة هو تعليق القلقشندى (٣) يقول " وهذه اكذوبة قبيحة وأحدوثة غير صحيحة، وان صحت المرأة فلعلها قد سمعت بقصة مريم البتول عليها السلام فاحتالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها" .

وأمر الزنا ليس هو محط الخرافة هنا ..و انما الامر فى نسبة جنكيز خان ونسله الى ا لنور. وتسميتهم بالنورانيين .. عموماًفهذا شأن الخرافات لدى المغول تبنى على الوهم ويقدر لها سرعة الانتشار.

السحر :

كان طبيعيا أن يتطرف بنا الحديث عن الخرافات الى الاشارة الى السحر فى حياة المغول ومكانته عندهم .

وبداية ـ فان السحر بمعنى القدرة على تغيير طبيعة الاشياء اى تحويل المادة الى مادة أخرى مخالفة لها فى التركيب امر لا وجود له ـ وقدرة تخرج عن طاقة كل انسان، فهى معجزة مرهونة بمشيئة الخالق وحده .

أما السحر بمعنى التأثير فى النفس أو تغيير المزاج أو خداع البصر أو الحواس بصفة عامة بخفة الحركة او حتى الاتصال بعالم الجان فهذا أمر جائز يمكن قبوله أو تخيله.

وأغلب الظن أن الذين مارسوا السحر لدى المغول كانوا كهانا من الشامان أوالبوذيين فقد كان المغول ينظرون الى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم يستطيعون ابطال تأثير السحر ودفع ضرره (٤)

جنكيز خان والسحرة :

حاول جنكيز خان ـ كعادته فى الاستفادة من كل شئ حوله ـ أن يستفيد من السحر والسحرة الى أقصى درجة ممكنة فلما وجد أن سحره المغول لهم نفوذ قوى على شعبه توقع خيرا على ايدى هؤلاء الكهنة بمساعدتهم اياه لكى يسوس شعوب الغرب المختلفة" (٥)

---

(١) كتاب أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٣

(٢) فوات الوفيات والذيل عليها جـ ١ص ٣٠٣

(٣) صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣٠٦

(٤) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٠

(٥) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٨

وعقب تولية منكوبن تولوى بن جنكيز خان منصب الخان الاعظم بفضل كفاءة الاميرة "سرقويتى" فان الوصية على العرش (أوغول قاميش) أرملة كيوك، ووالدة (شيرامون) تقررت ادانتهما بالسحر وقتلهما غرقا". (١)

والاميرة سرقويتى كما نعرف هى زوج تولوى بن جنكيز خان ولعبت دورا خطيرا فى التخلص من أرملة الخان الاعظم كيوك. وكذلك من والدة (شيرامون) حفيد الخان الاعظم (اوكتاى) والذى كان مرشح لمنصب الخان الاعظم بدوره .

وفى عهد قوبيلاى قا آن- الذى تعمق اتصاله بالحضارة الصينية وكان هو نفسه متحضرا كثير القراءة والاطلاع ،لم يخل الامر من وجود بعض السحرة حول قصره وبصورة مقززة تثير الاشمئزاز " يذكر" ماركوبولو" انه عندما وصل الى قصر الامبراطور (قوبيلاى خان) شاهد مخلوقين عجيبين هما أقرب فى منظرهما الى الحيوان من الانسان شعورهما طويلة قذرة وملامحهما وحشية ،ولقد قيل له انهما ساحران فى خدمة الخان العظيم ، ولهما قوة سحرية غريبة - انهما يستطيعان أن يمد الخان فى ولائمه بأقداح بها خمر تنتقل اليه عبر الهواء فاذا شربها رجعت اليهما الاقداح عبر الهواء أيضا دون أن يلمسها أحد - انهما يخبران الخان بالايام السعيدة لتقديم الهدايا والضحايا الى الالهة - وأنهما يستطيعان وقف المطر عن القصر الامبراطورى بينما تهطل الامطار بشدة فوق الاماكن المجاورة للقصر - ان كل شخص يخاف هذين الساحرين فهما لا يغتسلان ولايسيران الا عاريين تقريبا ، ولقد حذروا ماركو بولو منهما ونصحوه بالابتعاد عنهما خشية على حياته". (٢)

وغنى عن الاشارة أن هذه الاقوال التى أحاطت بهذين الساحرين لم تخل من التهويل والمبالغة - ومن يدرى لعلهما بعض رجال الحرس الخاص بالقصر الامبراطورى متنكرين فى هذا الشكل الغريب !!

الخوف من غضب الطبيعة

الطبيعة عالم عجيب عميق الاغوار . ملكوت يؤكد عظمة الخالق القادر ولازال العلم يكتشف حتى الان الكثير من الخفايا والاسرار- وبقدر تقدم العلم بقدر ما تنزاح الاسرار وتتكشف الاستار عن هذه الخفايا.

فاذا كان الجهل مطبقا والخرافات منتشرة والسحر له مكان مكين. فان الظواهر الطبيعية ستكون ولا شك مبعث خوف وهلع .. وستكثر حولها التفسيرات العشوائية التى لاتمت الى الواقع بصلة .

وهناك الكثير من المواقف التى يتضح من خلالها مدى الخوف الذى كان يسيطر على المغول من أن تثور الطبيعة بهم أوعليهم .

---

(١) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٦

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥١، ٢٥٢

ويبدو أن هذا الامر الذى كان يدور فى مخيلة جنكيز خان قبل أن يتصل بالغـرب اتصالا مباشرا قد اصطدم بواقع قوى لم يتصوره جنكيز خان ، ذاك أن تأثير السحر والسحـرة لدى شعوب المسلمين كان أضعف بكثير جدا مما توقعه الفاتح المغولى النهم .

ولم تكن تلك هى الاستفادة الوحيدة التى كان يرجوها جنكيز خان ، فقد تصـور أن بوسع السحرة . وقد اتسعت قدراتهم فى نظره – أن يعيدوا اليه الشباب او على الاقـل يمنعوا عنه تزايد الشيخوخة والهرم – " فلقد سمع جنكيزخان عن أطباء وسحرة يمتلكـون حجرا يسمونه حجر الفلاسفة يحولون به الحديد الى ذهب نضار .. أليس فى وسعهـم اذن أن يركبوا اكسيرا يرد الشباب الى الشيوخ ويطفى على الانسان الخلود . لذلك أمر جنكيز خـان مستشاره الصينى يى .ليو .جوتساى" ان يرسل الرسل الى اطراف الامبراطورية المترامية كـى يحضر خيرة السحرة والاطباء والحكماء الى مقر قيادته العليا ومعهم العقاقير المقوية التى تـرد الشباب وتمنح الخلود وسيجزيهم بمنح سنية لم يسمع بمثلها من قبل" (١)

ولم يكن السحرة اوغيرهم ليصنعوا شيئا بالطبع – فقد مات جنكيز خان فى الوقـت الذى اراد الله فيه أن يموت .. ومن قبله عاش آدم ونوح عمرا تجاوز التسعمائه عـام .. فى حين عاش عيسى عمرا قصيرا لم يتجاوز الرابعة والثلاثين .. فلكل أجل كتاب ..... وصدق الله العظيم فى قوله تعالى " ولايفلح الساحر حيث أتى ". (٢)

تفاقم خطر السحرة :

واذا كان جنكيز خان – كما ذكرت – يؤمن بمبدأ الاستفادة من كل شئ فانه فـى الجانب الاخر يستشعر الخطر فى كل شئ ، ولقد رأينا أن التسامح الدينى الذى اسبغه على رجال الدين من الشامان سرعان ماانقشع عندما استشعر منهم خيفة على سلطانه ونفوذه.

كذلك كان شأنه مع السحرة . يستفيد الى درجة معينة ثم يبادر الى التخلـص عند اول بادرة انذار بالخطر ،ويتضح ذلك من الحيلة التى اتخذها جنكيز خان للتخلص مـن عدوه الساحر تبتنجرى " فقد كان خارج الخيمة ثلاثة مصارعين أشداء فى انتظار اللحظة التـى يخرج فيها الساحر طبقا لاوامره، فما أن ظهر تبتنجرى حتى انقض هؤلاء المصارعون عليـه وأمسكوا بتلابيبه وكسروا عموده الفقرى – وهكذا رقد الساحر دون حراك الى جوار احـدى العربات". (٣)

ويبدو أن خطر السحرة لم يتوقف عند حد الترهيب ،فاضطر جنكيز خان الى اصدار احكام قاسية على من يمارس السحر بغرض الضرر ، فقد تضمنت الياسا احكاما رادعة توقـع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة بقصد الاضرار بالغير ." (٤)

وكما هو معروف فان العقوبة الرادعة فى الياسا يقصد بها عادة القتل أيا كانـت وسائله، أو كانت شخصية المعاقب به ومن هذا المنطلق تم الخلاص من وصيفة توراكينـا خاتون وكانت قد اتهمت بالقضاء على صحة أحد الامراء (كوثان) عن طريق السحر" (٦)

---

(١) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢١٨
(٢) القرآن الكريم : سورة طه الاية رقم ٦٩
(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٠
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٠
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٨
(٦) د.بارتولد: تاريخ لتركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٧

وعقب تولية منكوبن تولوى بن جنكيز خان منصب الخان الاعظم بفضل كفاءة الاميرة "سرقويتى "فان الوصية على العرش (أوغول قاميش) أرملة كيوك، ووالدة (شيرامون) تقررت ادانتهما بالسحر وقتلهما غرقا" . (١)

والاميرة سرقويتى كما نعرف هى زوج تولوى بن جنكيز خان ولعبت دورا خطيرا فى التخلص من أرملة الخان الاعظم كيوك. وكذلك من والدة (شيرامون) حفيد الخان الاعظم (اوكتاى) والذى كان مرشح لمنصب الخان الاعظم بدوره .

وفى عهد قوبيلاى قا آن- الذى تعمق اتصاله بالحضارة الصينية وكان هو نفسه متحضرا كثير القراءة والاطلاع ،لم يخل الامر من وجود بعض السحرة حول قصره وبصورة مقززة تثير الاشمئزاز " يذكر" ماركوبولو" انه عندما وصل الى قصر الامبراطور(قوبيلاى خان) شاهد مخلوقين عجيبين هما أقرب فى منظرهما الى الحيوان من الانسان شعورهما طويلة قذرة وملامحهما وحشية ،ولقد قيل له انهما ساحران فى خدمة الخان العظيم ، ولهما قوة سحرية غريبة - انهما يستطيعان أن يمد الخان فى ولائمه بأقداح بها خمر تنتقل اليه عبر الهواء فاذا شربها رجعت اليهما الاقداح عبر الهواء أيضا دون أن يلمسها أحد - انهما يخبران الخان بالايام السعيدة لتقديم الهدايا والضحايا الى الالهة - وأنهما يستطيعان وقف المطر عن القصر الامبراطورى بينما تهطل الامطار بشدة فوق الاماكن المجاورة للقصر - ان كل شخص يخاف هذين الساحرين فهما لا يغتسلان ولايسيران الا عاريين تقريبا، ولقد حذروا ماركو بولو منهما ونصحوه بالابتعاد عنهما خشية على حياته" . (٢)

وغنى عن الاشارة أن هذه الاقوال التى أحاطت بهذين الساحرين لم تخل من التهويل والمبالغة - ومن يدرى لعلهما بعض رجال الحرس الخاص بالقصر الامبراطورى متنكرين فى هذا الشكل الغريب !!

الخوف من غضب الطبيعة

الطبيعة عالم عجيب عميق الاغوار . ملكوت يؤكد عظمة الخالق القادر ولازال العلم يكتشف حتى الان الكثير من الخفايا والاسرار- وبقدر تقدم العلم بقدر ما تنزاح الاسرار وتنكشف الاستار عن هذه الخفايا.

فاذا كان الجهل مطبقا والخرافات منتشرة والسحر له مكان مكين. فان الظواهر الطبيعية ستكون ولا شك مبعث خوف وهلع .. وستكثر حولها التفسيرات العشوائية التى لاتمت الى الواقع بصلة .

وهناك الكثير من المواقف التى يتضح من خلالها مدى الخوف الذى كان يسيطر على المغول من أن تثور الطبيعة بهم أوعليهم .

---

(١) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٦

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥١، ٢٥٢

(أ) غضب الطبيعـــة :

كان المغول يعتقدون أن بعض الاشخاص – وبخاصة الملوك ممن لهم صفة دينيـة – لهم مكانة مميزة وأن قتلهم قد يستجلب غضب الطبيعة على المغول ولهذا تردد المغول كثيرا قبل الاقدام على قتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد.. اذ لم يقـو هولاكو على القضاء عليه بل يروى انه تردد فى ذلك ودعا اليه منجما ليسأله .. هـل تثور الطبيعة اذا قتل الخليفة .. المنجم بعد تدبر وامعان .. لم يحدث شـئ من ذلك عندما قتل المعمدان (يحيى بن زكريا) والمسيح والامام الحسين.. وحينئذ امـر هولاكو بقتل الخليفة وولده شر قتله وكان ذلك سنة ٦٥٦هـ" (١)

فلقد أراد هولاكو ان يستوثق لنفسه قبل الاقدام على قتل الخليفة ولعله كـان يخشى أن يحدث لجيشه مثلما حدث لجيش خوارزمشاه علاء الدين.

(ب) قوة السماء الابدية :

كانت السماء تمثل بالنسبة للمغول عالما غيبيا مجهولا فهى مصدر كل شـئ ، النقمة والنعمة معا، ولذا كان المغول يخشون قوة السماء الابدية (كماكانوايسمونها) أكثـر من أى شئ آخر فمن السماء تأتى الاعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية ومن السمـاء ايضا يأتى دفء الربيع الذى يهب الحياة والامطار التى تغذى الحشائش" . (٢)

(جـ) سقوط الجليـد :

تعود المغول ان يسقط الجليد عندهم فى فصل الشتاء حيث تهب العواصـف الثلجية الساحقة من الشمال فتكتسح أمامها كل شئ .. فلما اختلفت هذه القاعدة حيـث تساقط الجليد فى أوائل الخريف وحين كانوا متجهين الى أقصى الجنوب لغزو املاك الدولـة الخوارزمية .. استشعروا فى ذلك نذيرا لغضب السماء . " فقد أزعج سقوط الجليد فـى غير أوانه خان المغول الذى ظن انها قد تكون نذيرا من السماء يحذره من القيام بهـذه الحملة فلما استدعى بعض رجال الحكمة قالوا له – انها اشارة من السماء تفسيرهـا أن حاكم البلاد الشمالية سينزل الهزيمة بأمير البلاد الجنوبية المشمسة . وقد أثلجت هـذه الاجابة صدر جنكيز خان فأخذت طبول الحرب تقرع ايذانا ببدء الزحف". (٣)

(د) الصواعـق :

الصاعقة فى التفسير العلمى شحنة كهربية تحدث نتيجة اختلاف الضغط الجوى بين طبقات الهواء العليا .. وقد تسقط الصاعقة فتقتل انسانا او حيوانا أو تحرق زرعا..الخ.

فماذا كان المغول يفعلون اذا وقعت الصاعقة ؟ يروى أنه اذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصا ولم يهلك فان أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور ولايصرحون له بالعـودة الى الخيمة قبل مضى ثلاث سنوات" . (٤)

---

(١) د.أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٥٤
(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٤٣
(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٧
(٤) د. فؤاد : المغول فى التاريخ ص ٢٥١

وهكذا فالمغول يعتقدون أن الصواعق نذير هلاك وشؤم فانها اذا لم تهلك الشخص الذى أصابته يصبح هذا الشخص مبعث شر وفساد قد يدوم لسنوات عدة .. وهو بالطبع تفسير غريب وموقف أغرب ودليل أوضح يعكس مدى الرعب القاتل الذى امتلك قلوب المغول تجاه الصواعق .

(هـ) الرعد والبرق :

أرجع المغول حدوث الرعد والبرق الى أسباب عدة غريبة ، "فقد كانوا يتصورون أنه اذا جلس شخص فى الماء فى وقت الربيع أو الصيف أو غسل يده فى النهر أو وضع الماء فى أوانى ذهبية أو فضية أو القى بلباس مغسول فى الصحراء فانه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير وهو أخشى مايخشاه المغول .وتجنبا لهذا كله فقد نصت الياسا على عقوبات قاسية تنفذ فورا فيمن يقترف هذه الخطايا" (١)

وبالطبع فان حدوث الرعد أو البرق فى فصل الربيع أو الصيف يعد أمرا نادر الحدوث حيث الحرارة مرتفعة والسماء خالية من الغيوم . على عكس الحال فى الخريف والشتاء .

كذلك فان غسل الايدى فى النهر يعتبر من الامور التى تحرمها الياسا والاجتراء على ارتكاب هذا الفعل المحرم لا يمكن أن يمر دون أن تغضب له الطبيعة ! !

وغسل الثياب أمر مكروه لدى المغول الذين لايغسلون ثيابهم حتى تبلى . ومن ثم فان القاء الثوب المغسول فى الصحراء سيكون أيضا مجلبة للرعد . أما وضع الماء فى أوانى الذهب والفضة فهو أمر يصعب تفسيره .

عموما — فان مايهمنا الان هو رد فعل المغول عند حدوث الرعد او البرق فقد كانوا يقفون مشدوهين كأن على رؤوسهم الطير" (٢) وأحيانا كان الفزع يسيطر عليهم ويدفعهم الى الارتماء فى البحيرات والانهار لاتقاء سخط السموات عندما كانت تهب العواصف الراعدة الشديدة فى صحراء جوبى على الرغم من أن الياسا تمنع السباحة أو مس الماء منعا باتا عند الرعد وهبوب العواصف" . (٣)

وكلا الموقفين يحتمل حدوثه .. فكلاهما ترجمة لحالة الخوف الذى ينتاب المغول حيال الرعد والبرق .. وأن كان السلوك الثانى أقرب الى التناسب مع طبيعة المغول النفسية التى تتسم بالعنف ورد الفعل السريع تجاه المواقف والاحداث .. فالخوف يولد التوتر والتهور أيضا ويدفع الى الاسراع بالهرب من وجه مصدر الاذى .

التعطش للدماء

تلك صفة بدائية ترتبط عند الانسان بدافع غريزى قوى هو حب المقاتلة ذاك الذى ينشأ عند الطفل غالبا تعبيرا عن الرغبة القوية فى تأكيد ذاته واثبات مدى تفوقه على اقرانه .

---

(١) د. فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ص ٢٥١

(٢) المصدر السابق ص ٢٥١

(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٢ .

وبالطبع فان حب المقاتلة -كدافع غريزى- يتضح فى الحيوان اكثر من الانسان فى معظم الحالات يعتبر وسيلة للمحافظة على بقاء النوع وصيانته من الانقراض .

والانسان السوى المتحضر يحاول قدر طاقته ان يقلل من جموح هذا الدافع الغريزى بوسائل عدة كالتمسك بالقيم الدينية أو توسيع دائرة الاطلاع والثقافة والى ماغير ذلك من أنماط بديلة من السلوك الحضارى كممارسة النشاط الرياضى .

أماالمغول الذين كانوا رعاة فى المقام الاول ، فان البيئة القاسية التى نشأوا فيها قد نمت فيهم صفة التعطش للدماء حيث لا مقومات تحول دون هذا النمو.

ولعل أطرف ما روى عن جنكيز خان" أنه عندما ولد كان فى كفه جلطة من الدماء" (١) وقد يبدو هذا طبيعيا من الناحية البيولوجية غير أن الحاضرين لما تداولوا الحديث عن غرابة ذلك .. قال أحدهم ان هذا الطفل يكون ملكا عظيما". (٢)

والى مثل هذا أشار ابن عربشاه (٣) عن ولادة تيمور لنك . يقول "لما سقط ذلك السقيط كانت كفاه مملوءتين بالدم العبيط (الخالص الطرى) وتفحصوا عن تأويل ذلك فقيل يكون شرطيا وقال البعض ينشأ لصا حراميا. وقال قوم بل يكون قصابا سفاكا وقال آخرون بل يصير جلادا بتاكا (شديد القطع)".

ما يعنينا هنا ، هو أن التعطش للدماء كان ظاهرة مرضية واضحة فى المجتمع المغولى ، وهذا يدفعنا الى السؤال التالى .

× الغريزة أم الاكتساب ؟

يقول الدكتور الصياد (٤) واذا كان جنكيز خان قد أقام صرحا للفزع بواسطة نظامه الحكومى الصارم الذى شرعه بواسطة المذابح الرهيبة فاننا ينبغى أن نلاحظ أن قسوته انما تنبعث من قسوة بيئته أكثر من نبعها من توحش طبيعى"

والى مثل هذا الرأى أيضا ذهب الدكتور عبد السلام فهمى يقول (٥) " وقد حبت طبيعة منغوليا الشاب تيموجين قوة جسمانية رهيبة وتعطشا لسفك الدماء فقد كان المغول يعيشون حياة بدوية وسط قبائل وطوائف أقوى منهم عدة وعددا وأقسى منهم شراسة وحبا لسفك الدماء" .

فالاستاذان يريان أن الطبيعة قد اكسبت المغول صفة التعطش الى الدماء أكثر من الغريزة .. غير أن الدكتور بارتولد (٦) يشير الى حقيقة مهمة حيث يقول" انه ليصعب علينا أن نعرف أى صرعى جنكيز خان أكثر عددا صرعاه فى الاستبس أم صرعاه فى البلاد المتحضرة" .

---

(١) د.ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٧٣
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٥
(٣) عجائب المقدور فى نوابت تيمور ص ٤
(٤) المغول فى التاريخ ص ٩٢
(٥) تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢١
(٦) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٦٥

وهذا الرأى بوشك أن يعادل بين اثر البيئة وأثر الغزيرة فى آن واحد وفى رأيى أن التعطش للدماء عند المغول ليس رهينا بالبيئة فقط بل هو وليد الغريزة أولا ، فقد ظل المغول محتفظين بتعطشهم للدماء حتى بعد نزوحهم خارج بيئة الاستبس بل وبعد اعتناقهم الاسلام أيضا يقول فشر (١) " ان تيمور لنك الذى ملأ الافاق بمهارته العقلية فى لعب الشطرنج وعلم التواريخ وخطط الحرب والفتح والنصر كان أكبر أستاذ عرفه تاريخ البشرية فى فنون التخريب من تركستان الى الهند ومن العراق الى الشام" .

فاستمرار هذه النزعة رغم امتداد الزمن وتغير البيئة والدخول فى الاسلام يؤكد أن نزعة التعطش للدماء لدى المغول كانت غريزية فى المقام الأول وأمدتها البيئة المغولية القاسية وغذتها بروافد عدة من قسوة المناخ ووعورة التضاريس وما ترتب على ذلك من صراع على الماء والمرعى ورغبة فى التملك والسيطرة واظهار البأس والسطوة .

أسباب أخرى :

يمكننا القول أن البيئة والغريزة قد تفرع عنهما أسباب أخرى مما أدى الى فيضان الدم الذى أساله المغول وراءهم .

أ ـ التلذذ بتعذيب الاخرين :

وهو ما يطلق عليه علماء النفس (السادية) وهو أحد عيوب القوة الغاشمة وبخاصة اذا لم تجد هناك من يردعها أو يمنعها ومابدل على أن سفك الدماء كانت من الصفات الرئيسة للمغول تلك العبارة التى أثرت عن جنكيز خان فقد قال : ان أسعد الاوقات عنده هى التى يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم ويستولى على ممتلكاتهم ويرى دموع الالم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم ،وهو الوقت الذى يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم" . (٢)

ولقد صرح جنكيز خان فى مناسبة أخرى أن منتهى السعادة ان تسحق اعداءك وتراهم يركعون تحت قدميك وأنت تستولى على خيولهم ومهماتهم وان تسمع عويل النساء ونحيبهن" (٣)

فالساوية ـ فى رأيى ـ تشكل مرضا نفسيا دافعه الاساسى الاحساس بمركب النقص . فقد كان جنكيز خان يشعر بضعف المغول حضاريا أمام غيرهم من الصينين والخوارزميين والايرانيين والعباسيين ولهذا عمد الى ابادة هذه الحضارات واذلال اهليها ما لم يستفد هو بشئ ينفعه أو يدعم قبضته على الاخرين ، وهكذا فان رعاة الاستبس دوما كانوا يشعرون بالنقص الحضارى تجاه أهل الاستقرار والحضارة ولعل هذا هو أصل صلفهم وتعنتهم مع الامان فى اظهار القسوة والغلظة والتخريب والهدم" . (٤)

---

(١) تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى جـ ٢ ص ٤٥٠

(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٢٠

(٣) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٩١

(٤) د. حمدان حمدان : انماط من البيئات ص ٦٥

ب) الروح الانتقاميـــة :

فان المغول فى قسوتهم أشد الشعوب همجية فلم يبقوا على رجل أو امرأة أو طفل وأحرقوا البلدان والقرى ولم يكن يحفزهم الى ذلك كله رغبة فى ثأر أوحب لانتقام فقلما كانوا يعنون بمعرفة أسماء ضحاياهم الكثيرة وكلما كانوا يهتمون بالكشف عن هويتهم أوالوقوف على شخصيتهم" (١)

وهذا الرأى للمؤرخ دوسون يحتاج الى وقفة فمن المعروف أن الرغبة فى الانتقام والثأر من الركائز الأساسية التى تحرك النزعة العدوانية صوب سفك الدماء والتدمير، فاذا حدث وأن قل اهتمام المغول بأسماء الضحايا أو حتى الكشف عن هويتهم فمرجع ذلك ان الابادة كانت جماعية تشمل جميع الأهالى فى المدينة المعنية أو المحاصرة .

ولدينا الكثير من المواقف التى تؤكد أن الانتقام عند المغول كان غالبا ما يرتبط بتحديد هوية الشخص فجنكيزخان عندما سبق اليه حاكم اترار الخوارزمى الذى قاد حادثة قتل التجار المغول فى مدينته ، أمر بأن يصب الذهب والفضة فى عينى هذا الحاكم وأذنيه انتقاما منه" (٢) .

وعندما وقع الملك الكامل أسيرا واقتيد الى حضرة هولاكو حفيد جنكيز خان أمر بتقطيعه أربا أربا كانوا يضعونها فى فمه حتى هلك سنة٦٥٧ هـ (٣)

ويؤكد تلك الروح الانتقامية أن المغول عند الاستيلاء على مدينة باميان ـ وكان جنكيز خان قد سار اليها فعصى أهلها وقاتلوا قتالا شديدا واتفق أن أصيب بعض أولاد جغتاى بسهم جرحه فقضى نحبه وكان من أحب أحفاد جنكيز خان اليه فعظمت المصيبة بذلك واضطرمت النيران فى قلوب المغول وجدوا فى القتال الى أن فتحوها وقتلوا كل من فيها" . (٤)

وقد حدث عند الاستيلاء على مدينة نيسابور مايؤكد ذلك أيضا اذ أن القائد طغاجار - وهو زوج ابنة جنكيز خان لما اقترب من هذه المدينة شرع فى حصارها ولكنه قتل بسهام أحد المدافعين ولماقدم (تولوى) كان مدفوعا بعامل الحقد والضغينة بسبب قتل زوج أخته ولذا فقد صمم على الاخذ بالثأر" ورفض كل عروض التسليم التى قدمها اليه قاضى المدينة . فلما سقطت المدينة ترك المغول صفاتهم الآدمية وتحولوا الى وحوش كاسرة اذ أخذوا يقتلون السكان فى بشاعة منقطعة النظير ، حتى أن زوجة طغاجار التى كانت تتحرق شوقا للأخذ بثأر زوجها دخلت المدينة هى الاخرى يصحبها عشرة الاف جندى فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ولم يتركوا فى المدينة أثرا من آثار الحياة" . (٥)

غير أن الدكتور الصياد يرى أن مافعله الخوارزميون لا يمكن أن يفترق عمافعله المغول من حيث الغلظة والشدة والسفك والبطش ويسوق أمثله منها القتل العام الــذى

---

(١) د.جرانفيل براون ، تاريخ الادب فى ايران ص ٥٥٣
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ١١٢
(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ جـ ٢ ص ٣٢٣
(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١١
(٥) رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٧٣

هزيمة علاء الدين خوارزمشاه على سكان سمرقند وما أنزله سلفا جنود أبيه تكن بأهالى العراق من نكبات وكذلك ما أحدثه جلال الدين منكبرتى من قسوة بالغة فى مدينة تفليس سنة٦٢٣هـ يقول " كل تلك الاعمال لايمكن أن تفترق فى البشاعة والشناعة عما اقترفه المغول بـل ان مسئوليتهم اكبر لانهم مسلمون من جهة ولأنهم اكثر تحضرا من المغول من جهة اخرى ثم انهم لم يكونوا بدوا كالمغول الذين اعتبروا أن القتل العام جزء من نظامهم الحربى ضد أهل الحضر الذين لم يستسلموا فى الوقت المناسب أوالذين ثاروا بعد أنكانوا قد استسلموا" (١)

والرأى الذى أميل اليه هو أن هناك فارقا واضحا بين ما ارتكبه هؤلاء وبين ما ارتكبه المغول . ولسنا بصدد الدفاع عن مواقف الخوارزميين ، بالطبع ولكننا نكتفى بأن نقول ان السلطان محمد – رغم غروره – كان يحاول الانتقام لابنته التى زوجها للامير عثمان حاكم سمرقند الذى خانه وعاود الانضمام الى اعدائه وأعداء الاسلام القراخطائيين الوثنيين .

وكذلك كان السلطان تكسن يحاول أن يحظى بالمكانة التى حظى بها بنو بويه وغيرهم فى مركز الخلافة فى بغداد خاصة وأن الخليفة قد أظهر له التأثير أولا ثم أسفر عن غضبه وعدم رضاه.

واذا كان جلال الدين قد نكل بأهل تفليس بأن أعمل الاسر فى الرجال والسبى فى النساء فانه أعفى من القتل كل من اعتنق الاسلام وانتقم للمسلمين الذين عانوا الامرين من تسلط أهالى جورجيا المسيحيين فى السنوات التى سبقت عودته من بلاد الهند.

ونحن بالطبع لا نحاول أن نجعل من كل هذا تبريرا لاراقة دماء الاهالى أوالابرياء وانمانريد أن نبين أن وحشية المغول فاقت كل النظراء رغم أنهم لم يكونوا مدفوعين الى حروب دينية أو صراعات على مركز السلطة فى عاصمة أخرى أوخلافات شائكة حول مناطق نفوذ مشتركة مع الخصوم .

وفى رأيى أنه من الاحرى أن نقارن بين ما فعله المغول فى فتوحاتهم وبين الفتح الاسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ومن تبعهم حيث كان هذا الفتح يقابل بكل الحب والولاء – لانه لم يقم قط على رغبة فى تعذيب الاخرين أوروح انتقامية مدمرة وسنكتفى بنموذج واحد . ذاك هو وصية الصديق أبى بكر لجيش اسامة بن زيد الذى خرج لرد اعتبار المسلمين عقب غزوة مؤتة حيث استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن ابى طالب وعبد الله بن أبى رواحة وغيرهم من كبار الصحابة قال أبو بكر" أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى لا تخونوا ،ولا تغلوا ، ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولاشيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولاتذبحواشاة ولا بقرة ولابعيرا الا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان من الطعام فاذا اكلتم منها بعد شئ فاذكروا اسم الله عليه وتلقون أقواما قد فحصوا اوساط رؤوسهم فتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله". (٣)

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٨٠

(٢) المصدر نفسه ص ٩٢

(٣) د.محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٤٦

ولسنا بالطبع فى مقام شرح خطبة الصديق ولكن مما لاشك فيه أنها خطبة عسكرية وان المسلمين كانوا فى معظمهم بدوا كالمغول وأنهم كانوا محاطين بقوى هائلة كالفرس والروم ورغم ذلك فأنت لا تجدفى ثنايا الخطبة اى أثر للنزعة العدوانية او للرغبة فى التدمير انمانلمح فيها الحث على عدم الخيانة أو التمثيل بجثث الاعداء أو قتل الضعاف كالاطفال والنساء والشيوخ ولتمح فيها أيضا الحرص على المرافق العامة والنعم ورعاية أهل الذمة من المسيحيين واليهود وفيها التواضع فى تناول الطعام وفيها أيضا تمييز الاعداء بما يحددهم دون غيرهم حتى يكون المسلمون على بينة فى القتال .

ولعل الفارق فى مستوى التفكير الحضارى وسماحة الخلق يرجع الى نعمة القرآن الكريم والرسول القدوة وأيضا البيئة القاسية التى عاشها المغول فطبعت حياتهم بالقسوة والعنف ولم تعطهم فرصة تهذيب غرائزهم العدوانية فأين ذلك كله من أراء جنكيز خان فى الحرب والغزو، "فقد حدث أن طلب الحكم الصينى(تشانج شون) على سبيل التمنى من جنكيز خان ان يدع سياسة الحرب وأن يقر فى العالم حكم السلام قال جنكيز خان "لاسلام بغير حرب ولن يكون هناك سلام حتى أقضى على كل أعدائى فأعيش فى أمن واطمئنان انك رجل حكيم مصادق ولكنى لا أستطيع اتباع ما تشير به أيها الحكيم فلا تعد على هذا الأمر مرة ثانية. (١)

(ج) <u>تأمين موءخرة الجيوش والطرق :</u>

وهذا سبب عسكرى بالدرجة الاولى ،وقد يبدو معقولا اذ أن كل الجيوش تعمد دائما الى تأمين نفسها من الكمائن أو الهجوم المباغت من الخلف وبخاصة فى الطرق الجبلية والوعرة .

وبالتالى فان ا لمغول كانوايسعون الى تأمين طرق مواصلاتهم العسكرية والتجارية أيضا . غير أن هذا لايبرر الابادة الجماعية وانهار الدم تبريرا كافيا" يقول‌حافظ أحمد حمدى "وكان جنكيز خان يرمى من وراء قتل السكان فى المدن الخاضعة ان يضمن سلامة موءخرة جيوشه اثناء الفتح ، كماكان يرمى الى ضمان سلامة طرق مواصلاته". (٢)

بالقطع كان بوسع المغول أن يحققوا هذا التأمين الذى ينشدونه دون كل هذا العناء والدمار خاصة وأن الناس قد تملكهم الفزع منهم تماما وأصابهم بما يشبه الشلل التام فأخذوا يعدون للفرار قبل أن يأتى جند المغول وأصدق مثال على ذلك السلطان‌الخوارزمى علاء الدين .

(د) <u>التقاليد المتوارثة :</u>

سبق أن أشرت فى الفصل الاول الى التزام المغول بالعادات والتقاليد حيث قال جنكيزخان" ليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا" فهل كان سفك الدماء أحد عادات المغول وتقاليدهم التى درجوا عليها ؟!

---

(١) الكاتب الصينى .ف .يان، جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢٢٢

(٢) الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٢٠،نقلا عن هوارث، تاريخ المغول ص ١١٠

يعلل المؤرخ بلوشيه فكرة ذبح المغول لسكان المدن التى تقاوم وسلب جميع أموالهم، بأن هذه تقاليد القبائل البربرية الرحل التى لامقر لها وسكن يأويها ، فلايرون فى الحرب الا وسيلة لاخذ الغنائم وأسر العبيد بدليل انهم كانوايذبحون ما يزيد عن حاجتهم من هؤلاء" (١)

فيالها من تقاليد قاسية تنأى عن أى منزع انسانى فجنكيز خان بعد معاركه مع امبراطور الصين الشمالية ،وعند قفوله فى الخريف الى صحراء جوبى وعند مدخل الصحراء ذبح جموع الاسرى الذى استصحبهم جيشه وهذه قسوة تقشعر لها الابدان". (٢)

ولعل ذلك كله يدفعنا الى تأمل مظاهر التعطش للدماء عند المغول تلك التى لايمكن أن يكون نظير لها على الاطلاق.

١ - الابادة الجماعية :

وذاك كان نصيب معظم السكان الابرياء الذين تعرضوا لهجمات المغول الشرسة وبخاصة عندما تسقط حامية المدينة أو يتراجع المدافعون ويصبح السكان لا حول لهم ولاقوة، وسنكتفى هنا بذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر.

يقول سيد أمير على (٣) وفى مدينة" نسا" أسر المغول سبعين ألف شخص بين رجل وامرأة وطفل ، ثم اضجعوهم على الأرض جنبا الى جنب وربطوهم بالحبال ورشقوهم بالنبال".

ومثل تلك الابادة تعرض لها بالقطع سكان غزنة ونيسابور، أما هراة التى ثار أهلها على حاكمهم المغولى فلم يقدر للسكان أو حتى الجدران ان تنجو من المغول ، فقد سير جنكيز خان جيشاكبيرا لاخماد تلك الثورة وكانت النتيجة قتل جميع السكان وتخريب المدينة تخريبا كاملا". (٤)

ويقول حافظ أحمد حمدى (٥) وقد كلف الغزو المغولى الصينيين خمسين مليونا من الانفس ومن هنا نرى مدى حب المغول لاراقة الدماء فى البلاد المفتوحة".

وهذا الرقم قد يبدو مبالغا فيه غير أنه لا ينفى القتل الجماعى المريع ، وكذلك لما عزم اباقابن هولاكو على قتل من قيصرية من المسلمين اجتمع اليه القضاة والفقهاء وقالوا: هؤلاء رعية لا طاقة لهم بدفع عسكر وهم مع الزمان فى طاعة ملكهم ،فلم يقبل اباقا منهم ذلك فقتل من الرعية ما يزيد على مائتى ألف وقيل خمسمائة ألف من فلاح الى عام وجندى

---

(١) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٢٠

(٢) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٧٢

(٣) خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٤

(٤) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٨٤

(٥) الدولة الخوارزمية والمغول ص ١١٤

من قيصرية الى ارزن الروم وماييهما ورجع الى بلاده" (١)

وهكذا رأينا أن الاسترحام أوالاستعطاف لم يجد شيئا أمام المغول الذين قتلوا الرعية وقتلوا قاضى القضاة جلال الدين حبيب أيضا عقابا له على رأى أبداه من تعاطف مع هؤلاء المساكين .

٢ ـ أهرامات الجماجم :

يقول الدكتور جرانفيل براون" وفى نيسابور قطع ا لمغول رؤوس القتلى وبنوا أهرامات عالية أحدها للرجال والاخر للنساء والثالث للاطفال وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الاشلاء والجثث المترامية". (٢)

فالمغول قصدوا من هذه الاهرامات التأكد من حدوث الابادة الجماعية. ثم استظهار البأس والسطوة . وانزال الفزع والهول فى نفوس الاعداء، غير أن هذا كله لايمحو عنهم أدنى صفات الوحشية فأى عمل هذا ؟ وأى نتائج يمكن أن ترتب عليه والتى أقلها انتشار الاوبئة والامراض . وانتهاك حرمة الموتى وكذلك بلغ عدد القتلى من أهل بغداد وحدها مبلغا هائلا حتى تكونت من جماجمهم ١٢٠ كومة عالية". (٣)

٣ ـ أكياس الاذن :

يقول الدكتور جرانفيل براون :" وفى بولندا وحدها جمع المغول اكياسا ملاؤها بآذن ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموع ما جمعوه ٢٧٠ الف اذن أخذوها معهم دليلا على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة" (٤)

واعتقد ان هذا الفعل ـ ان صح ـ لم يحدث له نظير مشابه فى تاريخ الحروب. انه يوشك أن يكون نوعا من التسلية بعد الفراغ من القتال. وبالها من تسلية متوحشة لا رحمة فيها.

٥ ـ قتل الاطفال والاجنة :

ما أكثر فعل المغول هذا : أهى كراهية سوداء ضد الاعداء أم طاقة زائدة لايعرفون كيف يستهلكونها . أما هو الخوف من ثأر يحدث فى المستقبل.

يقول ابن العبرى "وفى باميان قتل المغول الاجنة التى فى بطون الحبالى" (٥).
ويقول ابن خلدون :"وفى الطالقان ملك المغول البلد عنوة واستلحموا أهلها وأفحشوا فى القتل والمثلة حتى بقروا على الاجنة البطون". (٦)

---

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج١ص١٨٦

(٢) تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٠

(٣) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٨١

(٤) تاريخ الادب فى ايران ص ٥٥٣

(٥) تاريخ مختصر الدول ص ٤١١
رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢٧٣

(٦) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ١١٤

ويقول أرمينوس فامبرى : "ولا تعرف الرحمة طريقها الى قلوبهم فلا يتورعون عـــن انتزاع الطفل الذى لم يولد من بطن أمه" (١)

ويقول عباس العزاوى : "وفى اقليم غزنة قتل المغول كل ما فيها حتى الأجنة ولـم يأسروا منها أحدا قط وسموها" ما وباليع اى مدينة البوءس (٢).

ويقول سيد أمير على" وهم لايبقون على أحد فى حروبهم بل يذبحون النســـاء والاطفال على حد سواء" (٣) وفى الحقيقة كان استهتار المغول بالنفوس بالغا حد الفظاعـــة فيروى أن أحدهم دخل زقاقا فى بغداد وقتل اربعين طفلا شفقة منه ورحمة حين علـــم أن أمهاتهن قد قتلن من قبل" (٤)

٦ ـ قتل الحيوانـــات :

قد يضطر الجيش الى انتزاع ماشية الاعداء وأغنامهم ليستفيد هو بها ويحرمهم منهـــا. وهو قد يحتفظ بها أو يذبحها او حتى يقتلها . لكن ان يمتد الامر الى قتل القطط والكلاب فهذا شئ عجيب . يقول عباس العزاوى " وفى مدينة نيسابور امتد ايذاوءهم الى الحيـــوان فقتلوا القطط والكلاب" (٥) ويقول الدكتور الصياد" وفى مرو قتلوا كل من صادفهم حتى الحيوان فقتلوا القطط والكلاب". ( )

فما هو الدافع الذى يمكن أن يكون وراء ذلك كله.. انه التعطش للدماء أيا كـــان نوعها او مصدرها. تعطش الغريزة الحيوانية التى لم تجد رادعا ولا حائلا يوقف هياجهــــا أو يحول دونها.

آراء الموءرخيـــن :

تكاد تجمع آراء الموءرخين على توفر صفة التعطش للدماء عند المغول يقول الاستـــاذ عبد المنعم النمر " وكان المغول يخرجون من وسط آسيا كالجراد المنتشر لايبقى ولا يـــذر وكأنهم كانوا فى سجن فانطلقوا منه وكأن بهم سعارا الى الدماء والتخريب والتدمير". (٧)

ويقول المستشرق المجرى ارمنيوس فامبرى عن المغول بعد اكتساحهم مدينتى بخـــارى وسمرقند " وبهذا أصبح هذا العدو البربرى المتعصب المتعطش للدماء قادرا على أن يمضـــى فى طريق التخريب وما من أحد يجسر على اعتراض طريقه". (٨)

---

(١) تاريخ بخارى ص ١٨٢
(٢) تاريخ العراق بين ا حتلالين ج ١ ص ١٢٦
(٣) خلاصة تاريخ العرب ص ٣٣٤
(٤) د.حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٧٠
(٥) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٢٦
(٦) المغول فى التاريخ ص ٨٠
(٧) تاريخ الاسلام فى الهند ص ١٤٢
(٨) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٧٦

ويقول الدكتور فؤاد الصياد" ان الدم الذى سفك بأمر جنكيز خان والعمران الذى خرب على يده يندر أن يحدث مثله فى أى فترة من فترات التاريخ". (١)

الياسا والتعطش للدماء:

كان جنكيز خان يدرك بذكائه الفطرى أن التعطش للدماء جزء لاينفصل عن تكوين الشخصية المغولية ومن ثمة حاول قدر استطاعته أن يقلل من هذا الخطر الداهم داخل المجتمع المغولى بكل وسيلة ممكنة وعلى هذا فقد استن الياسا بصراحة أنه يحرم على أى فرد أن يرفع سلاحا ضد زميل له وكان من قوانين المغول أيضا أنه ليس لاحد أن يدخل خيمة شخص آخر وهويحمل أسلحة". (٢)

وفى الحقيقة كان لابد أن تشتمل مواد هذا القانون (ا لياسا) على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين فى غير شفقة ولا رحمة لان هؤلاء الاتباع ان تركوا وشأنهم يحيون حياتهم القديمة لعادوا الى ما كانوا عليه من الفوضى وقتل بعضهم البعض والتطاحن من أجل الاسلاب والمراعى". (٣)

ورغم ذلك كله كان على جنكيز خان أن يبحث عن طريقة أخرى غير القوانين الصارمة على الياسا. ولقد تفتق ذهنه فعلا عن بديل مناسب. يقول "لقد رأى ان الطريقة المثلى لروعهم عن نحر رقاب بعضهم البعض لا يتحقق الا بتوجيههم الى رقاب الاخرين وعلى هذا فقد قرر أن يقود زمام الزوبعة فيحيد بها عن جوبى". (٤)

وهكذا انفلت الزمام لهذه النزعة المدمرة فجرى الدم أنهارا وترك وراءه الالام والاحزان فلا غرو أن كان المغول أنفسهم يسمون بعض المدن التى يفتكون بأهلها" مدينة البؤس".

تخريب المرافق العامة :

تحدثنا كثيرا عن صفات نفسية توافرت لدى المغول كالسادية والروح الانتقامية والتعطش للدماء واظهار السطوة والبطش وبالطبع لازم ذلك كله اجراءات عدوانية تخريبية مدمرة.

يقول ابن كثير (٥) وكانوايجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون اليه ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه وما أكثر مايحرقون المساجد والجوامع".

وبالطبع لم يكن الامر يقتصر على حرق الحرير والمساجد وتخريب المنازل يقول باسيليوس خرباوى (٦) وسقطت أم المدن الروسية فى ايدى البرابرة الغزاة المغول فنهبوها وخربوهاحتى أنهم لم يعفوا عن القبور وجرى ذلك سنة ١٢٤٠هـ.

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩١
(٢) هارولد لامب : جنكيز خان فى جحافل المغول ص ٤٩
(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٨
(٤) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٥٥
(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٨٧
(٦) تاريخ روسيا ص ٦٤

وفى اعتقادى أن المغول لم يصادفوا مرافق عامة بالمعنى المفهوم فى بيئتهم ولهذا لم يعطوها القدر الملائم من العناية .. فماذا كانت مرافقهم فى بيئة الاستبس ؟

١ - استخدامات الماء :

كان طبيعيا ان يندر وجود الماء الصالح للاستعمال البشرى فى صحراء الاستبس الاسيوى التى عاش فيها المغول ومن هنا كان لزاما عليهم أن يعمدوا الى المحافظة عليه بكل طريقة ممكنة.

وعلى هذا فقد الزمهم جنكيز خان - ان لايدخل أحد يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشىء يغترفه" (١)

ونفس المضمون أشار اليه القلقشندى (٢) وان كان قد أضاف اليه "بل يأخذ منه مل‌ء فيه ويغسل يديه ووجهه".

فالماء ذو أهمية كبرى ولذا يمنع الاشخاص من محاولة العبث به أو الاسراف فى استعماله او تلويثه يقول ابن كثير (٣) وفى الياسا من بال فى الماء الواقف قتل ومن انغمس فيه قتل" .

٢ - استخدامات النار :

ذكرت عند الحديث عن الاسرة . أن كل خيمة مغولية تحتوى على موقد للنيران فى وسطها . وأن النيران تكاد أن تكون دائمة الاشتعال . حيث الحاجة مستمرة للتدفئة والاستعمال الدائم .. ومن ثمة قد يعرض للبعض مجرد الرغبة للعبث بهذه النيران أوحتى الرماد المتخلف عنها وعليه فلابد من عقاب صارم رادع - وعلى هذا فقد كان من جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا - من بال فى الماء او على الرماد قتل". (٤)

المرافق العامة فى البلادالمفتوحة :

لم يتعود المغول التعامل مع نظم مرفقيه اكثر من التى أشرت اليها فى بيئة الاستبس ولهذا وجدوا المرافق العامة لدى غيرهم أمرا غريبا لا مبرر له .وكان طبيعيا - فى بادىء الأمر - ولهم الصفات التى أشرت اليها أن يعمدوا الى تدميرها وتخريبها يقول الدكتور فؤاد الصياد (٥) " ولقد كانت النكبة أشد وأنكى بالنسبة للحضارة اذ اصبحت المكتبات والمدارس أثرا بعد عين".

ويقول المقريزى (٦) وفى الحادى عشر من جمادى الاخرة سنة٦٧٩ هـ هجمت طوائف التتار على أعمال صلب فقتلوا ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس".

---

(١) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٢٠
(٢) صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٢
(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٨
(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٠، القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص ٣١٢
(٥) المغول فى التاريخ ص ٢١٧
(٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٣ ص ٦٨٢

على أننا يجب أن نلاحظ أن تدمير المغول للمرافق العامة وتخريبهم لها كان أثنـاء المدة الأولى التى قادها جنكيز خان نفسه أو فى حالات فردية لدى بعض خلفائه المتهورين أو المتوورين .

وفيما بعد ذلك فقد استبان المغول قيمة المرافق العامة كالمدارس والمستشفيات والملاجئ من خلال احتكاكهم بالدول المجاورة المتحضرة فعملوا على تنمية الاهتمام بها والمحافظـة عليها وربما بادروا الى اقامتها "فالمغول وان كانوا فى حقيقة بدء حركتهم يتعطشون لسفـك الدماء ولكنهم بعد أن توطنوا ايران واندمجوا فى الناس وأخذوا يتقبلون أفكارهم تغيرت طبائعهم تدريجيا ورغبوا فى اعتناق المدنية الاسلامية والايرانية "(١)

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٥٦

على أننا يجب أن نلاحظ أن تدمير المغول للمرافق العامة وتخريبهم لها كان أثناء الصدمة الاولى التى قادها جنكيز خان نفسه أو فى حالات فردية لدى بعض خلفائه المتهورين أو الموتورين .

وفيما بعد ذلك فقد استبان المغول قيمة المرافق العامة كالمدارس والمستشفيات والملاجئ من خلال احتكاكهم بالدول المجاورة المتحضرة فعطوا على تنمية الاهتمام بها والمحافظة عليها وربما بادروا الى اقامتها "فالمغول وان كانوا فى حقيقة بدء حركتهم يتعطشون لسفك الدماء ولكنهم بعد أن توطنوا ايران واندمجوا فى الناس وأخذوا يتقبلون أفكارهم تغيرت طبائعهم تدريجيا ورغبوا فى اعتناق المدنية الاسلامية والايرانية "(١)

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٥٦

الفصل الرابع

الملامح الاجتماعيـــــة

١ ـ التكوين الاجتماعى
- الاســرة
- العشيـرة
- القبيلـــة

٢ ـ التوافق والتكيف فى المجتمع المغولى

٣ ـ الظواهر الاجتماعية البارزة فى ا لمجتمع المغولى

أ) العدالة الاجتماعية

ب) حرية ابداء الرأى والمشورة

جـ) الطبقيـــة

× الارستقراطية

× الاقطـــاع

د) نظام الملكيـــة

هـ) ظاهرة القافلـــة

التكوين الاجتماعـي :

لما كان المجتمع المغولى مجتمعا بدويا فى عمومه فانه وان اختلفت وسائله وأسبابه لايخرج فى تكوينه عن نظرائه من مجتمعات البدو الاخرى التى اشتملت فى تنظيماتها القبلية، على القبائل والعشائر والبطون والافخاذ عموما. فهذا المجتمع قد احتوى على ثلاثة عناصر ساهمت فى تكوينه وترابطت فيما بينها ترابطا قويا كى تحفظ بقاءها فى بيئتها القاسية.

أولا: الأسرة المغوليـــة :

الاسرة نواة المجتمع . وهى الخلية الاجتماعية الأولى فى البناء اذا صحت صح المجتمع كله ، ولقد تحدثت عنها فى المفصل الاول من الباب الثانى. وأظهرت الى اتسامها بالعدد الكبير وارتباطها بوحدة النسب وامتثالها بالطاعة لرب الاسرة وأشرت كذلك الى علاقاتها ببقية الأسر الأخرى.

ولهذا استحقت الاسرة المغولية أن تكون بحق الدعامة الأولى فى كيان مجتمع المغول البدوى.

ثانيا: العشيـرة:

العشيرة هى الوعاء الذى يحتوى مجموعة من الاسر الكبيرة التى تتصل بالانتساب الى أصل واحد مشترك. اى أن العشيرة تتكون من بضع جماعات تنتمى الى حد واحد من ناحية الأب". (١)

وقد أطلق الدكتور ادوار بروى (٢) على العشيرة لفظ" التكتل" ـ يقول "وقد خضع المجتمع المغولى البدوى الى تسلسل منظم جدا اذ "يوءلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسى وهو يضم العائلات المنحدرة من جد واحد والتى يعتز جميع أعضائها بأن ما يجمعهم هو صلة النسب الشرعى".

ولعل هذا يوءكد ما ذكرت من قبل من اعتزاز المغول بالفخر بالانساب الذى لم يكن مجرد اعتزاز فحسب وانما كان وسيلة انتماء وبقاء أيضا . والعشيرة بهذا تعتبر نظاما اجتماعيا اشمل من الاسرة .. ومن هنا كان طبيعيا أن تحتوى على سلطة أكبر وملكية أوسع . لانها تكون مجموع التكتل الذى يبدأ من الزعيم حتى العبيد والذى يرتبط بوحدة وثيقة العرى عرفت باسم(أولوس) ، ولابد أن يمتلك هذا التكتل أرضا تسرح فيها قطعانه" (٣)

مجلس العشيـرة :

ويضم روءساء العائلات ومن بينهم يختار زعيم العشيرة الذى ينتمى عادة الى أكبر العائلات وأكثرها ثراء وينبغى أن تتوافر فى هذا الزعيم صفات توءهله للقيادة كالخبرة والذكاء والشجاعة والحلم والحيدة والكرم ولا تتدخل مسألة الوراثة كثيرا فى اختيار هذا الزعيم لان المهام التى ينهض بها لا تحتمل الا توافر الصفات الكفيلة بالحرص على سلامة العشيرة

---

(١) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٥
(٢) تاريخ الحضارات العام ، ج٣ ص ٣٦٥
(٣) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٨

كلها " فقد كان مسئولا عن اختيار المراعى وتعيين حدود منازل العشيرة وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكرات وانتخاب الطرق الواجب سلوكها أوتجنبها وادارة عمليات الصيد وتنظيم علاقة العشيرة بمن حولها من العشائر الاخرى والتى تنضوى كلها تحت سيطرة نظام اكبر هو القبيلة ٠

وقد كان لمجلس العشيرة علاوة على مشاركة زعيمها فى قراراته واختياراته الحق فى فض المنازعات التى تقع بين الأسر المغولية وكذا معالجة آية مستجدات تستوجبها ظروف الحياة فى البيئة التى يعيشون فيها٠

ثالثا: القبيلـــة :

وهى تمثل اكبر الاوعية فى النظام الاجتماعى لدى المغول -وتتكون القبيلة من مجموع العشائر التى ترتبط فيما بينها بصلات الجنس واللغة(١) وصلة الجنس حتمية فى تكوين وحدة القبيلة لانها تقوم على الانتساب الى جد أكبر مشترك - يتصل الجميع به من خلال وحدة الدم لا الرحم ٠٠ ولهذا كانت تنمو بين المغول العصبية القبلية ويكثر بينهم الفخر بالانساب شأنهم فى ذلك شأن البدو فى كل مكان وزمان٠

أما صلة اللغة فقد تختلف اللهجة فيها قليلا بين قبيلة وأخرى أوتتداخل منتجة للجوار ٠ ولذلك فوحدة اللغة ليست بنفس قوة وحدة الجنس (الاصل المشترك)٠

وعلى الرغم من ذلك يرى الدكتور رالف لنتون(٢) أن الوحدة التى تجمع القبيلة غامضة وغير محددة وأن ما يربط بينها لايعدو مجرد الخوف من هجوم الاعداء والرغبة فى النهب" ٠

وفى الحقيقة يبدو هذا الرأى متحاملا بعض الشئ على التكوين القبلى عند المغول اذ لايمكن ارجاع هذا التكوين الى عوامل نفسية فقط هى الخوف والرغبة فهناك بالاضافة الى ذلك وكما سبق القول وحده الدم واللغة ٠

مجلس القبيلـــة :

ويمثل درجة أعلى من السلطة والمسئولية ويضم رؤساء العشائر الذين يقع عليهم عبء المشاورة والرأى ثم عبء تنفيذ ما يراه الزعيم القبلى بعد أن يستنير بالمشورة من أعضاء المجلس ٠

ولا يعنى هذا ان سلطة الزعيم مقيدة فى كل قراراته بما يراه مجلس القبيلة ذاك أن كثيرا من المواقف المسلحة أو المفاجئة تحتاج الى سرعة اتخاذ القرار دون الرجوع لمجلس القبيلة الذى قد يناقش الامر فيما بعد أو لايناقشه ٠

ويختار مجلس القبيلة - عندما تقتضى الظروف - زعيما للقبيلة من بين رؤساء العشائر ممن تتضح فيه الصفات السابق الاشارة اليها ، وقد يحدث ان يكون لزعيم القبيلة

---

(١) حافظ أحمد حمدى : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ص ١٣٧

(٢) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٥

ابن يعدله فى صفاته حينئذ يستطيع هذا الابن أن يرث مكانة أبيه، واذا تكرر ذلك فى بيت من بيوت القبيلة عرف هذا البيت بالمجد والجاه*.

ولابد أن تتوافر فى الزعيم القبلى المختار صفات أقوى وأبرز من صفات زعيم العشيرة فواجباته أكثر وأعباؤه أثقل وعليه يتوقف نمو القبيلة أو تداعيها ، فكثيرا ما اضطر هذا الزعيم القبلى الى قيادة قبيلته والارتحال بها الى مكان جديد سعيا وراء الكلأ والماء أو طلبا للغزو او افلاتا من الخطر ،وعلى هذا فخبرته ضرورة لازمة لتحديد طريق الغزو ولضبط النظام ولحفظ علاقات ودية مع الجماعات المختلفة التى يمرون بأراضيها ومن ثم كان الزعيم القبلى بالضرورة شخصية قوية بارزة متفردة بين رؤساء الجماعات. (١)

جنكيز خان والتكوين الاجتماعى :

لم يحاول جنكيز خان ادخال أى تعديل على النظام القبلى الذى كان موجودا قبله غير أنه كان حريصا تماما على أن يفرض أسرته وبالتالى عشيرته وقبيلته على هذا النظام باعتبارهم سلطة أعلى لهم حقوق لاينازعون فيها يقول الدكتور ستيفن رنسيمان (٢) " تألفت امبراطورية جنكيز خان اساسا من جمع للعشائر يخضع للنظام القبلى وكل ما فعله هو أنه فرض اسرته المعروفة (الثون اوردو) أى الاسرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون.

هذا ٠٠ ولقد حافظ المغول أنفسهم على نظامهم الاجتماعى القبلى محافظة شديدة حتى عند اندفاعهم للغزو خارج بيئتهم الاستبس يقول فأينما استقروا بين الشعوب المقهورة كانوا يحتفظون بنظام العشيرة والقبيلة فيعيشون فى مجموعات مركزة ويتمسكون قدر استطاعتهم بنظم الحياة القديمة للبدو الرحل " (٣)

ومن هنا لم يعد الصراع بين المغول والشعوب الاخرى عسكريا فحسب بل أضحى صراعا اجتماعيا أيضا ٠٠ لان هذه الشعوب كانت – فى الغالب – لا تتبع هذا النظام القبلى الصارم اذ كان لها نظامها الاجتماعى المستقل باعتبارها من أهل الحضر والاستقرار.

التوافق والتكيف فى المجتمع المغولى

تقاس قدرة أى مجتمع وصلابته بمدى قدرة أعضائه على التوافق والتكيف مع ظروف البيئة من ناحية ومع مختلف متطلبات المجتمع من الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى.

---

* مجموعة الابناء والاقارب والاشخاص الذين هم من عشيرة الخان أوالامير كان يعلق عليهم كلمة (أروغ) بمعنى عشيرة ٠٠ انظر٠٠ رشيد الدين جامع التواريخ – ج ٢، ص ٢٤٩

(١) د٠ جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٧٠

(٢) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص ٤١٦

(٣) د٠رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٩

أولا: التكيف مع الطبيعة :

أشرت فى الفصل الاول الى مدى قسوة المناخ وصعوبة التضاريس فى البيئة المغولية بصفة عامة . وأشرت كذلك الى الصفات الجسمية لدى المغول . والتى كانت فى معظمها خشنة صلبة تكافئ ما فى البيئة من خشونة وقسوة وذكرت أن الطقس المريع ماكان ليسمح لضعاف البيئة ان تستمر حياتهم فلافرصة اذن الا للقوى الصلب .

ولعل أوضح دليل على قسوة الطبيعة فى بلاد المغول وكذلك على القدرة العالية لديهم على التكيف مع الطبيعة أنهم خرجوا من منغوليياوانساحوا فى أماكن بعيدة جدا تختلف فى طقسها وتضاريسها فلم يلبثوا ان انتصروا على الطبيعة الجديدة المغايرة تماما كما انتصروا فى ميادين القتال .

وهكذا أثبتت التجارب أن المغول كانت لديهم قدرة فائقة غير عادية على التكيف مع الطبيعة حولهم وبصوره يندر ان يكون لها نظير .

ثانيا : التوافق مع المجتمع :

كان على المغول وقد خبروا الحياة حولهم ان يستنوا لانفسهم أنماطا حياتية تمكنهم من الاستمرار والحفاظ على حياتهم وسط كل الظروف الصعبة المحدقة بهم وتمثل ذلك فى:

أ ـ التمسك بالعادات والتقاليد :

العادات والتقاليد نماذج للتكيف والتوافق مع الحياة اليومية ، ولهذا فكل شعب له عاداته وتقاليده التى تميزه وتساعده على ممارسة أنماطه السلوكية ، أى أن العادات والتقاليد تعتبر تصورا مسبقا مقننا لاحداث يحتمل وقوعها فى المستقبل ومن هنايضبط الافراد سلوكياتهم وفقا لها ، وتعتبر مخالفتها نمطا غير مقبول أو خروجا على المألوف والمعتاد.

وفى الحقيقة فان البيئة المغولية قد ساهمت بقدر كبير فى طبع حياة المغول بعادات خاصة متوارثة فى الرعى والصيد و الحرب وفى الزواج وغسل الثياب وذبح الحيوان وأيضا فى وسائل المرح والتسلية بل وفى المآتم والاحزان ، والى ماغير ذلك من مختلف شئون حياتهم .

وقد اشتهر المغولى بمدى التمسك الشديد بالعادات والتقاليد وبصورة قد تصل الى درجة التقديس وعلى سبيل المثال قال جنكيز خان ذات مرة للحكيم الصينى شانج شون : نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا أعمال الصيد وليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا.(١)

وهكذا نرى ان المغول الذين كانوا يتخذون الصيد وسيلة حياة فى فترات الحرب. قد تعودوا عليه حتى بعد أن توفرت لهم وسائل الحياة السهلة.

وبالفعل فعلى الرغم من الانتصارات الهائلة التى أحرزها المغول والثروات الضخمة التى آلت اليهم بفعل الغزو والضرائب وغيرهما والتى كانت كفيلة بأن يعيشوا فى رغد ظاهر يعوض حياة الخشونةو الحرمان فان جنكيز خان ــ كمثل أعلى ــ ظل محتفظا ببداوته

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خانو جحافل المغول ص ١٢٥

حربيا عليها فلم يغير نظام ملبسه أو طريقة حياته اليومية فلم يسكن قصرا ولم ينم فوق فراش وثير ولعله كان يخشى أن فعل ذلك أن يتحول أتباعه الى انتهاج اساليب حياة أهل الحضر ، التى كان يرى فيها مدعاة الى الدعة والاسترخاء لاتناسب اهل البداوة والخشونة . وبالتالى فهى لاتكفل أسباب القوة الكافية لتحقيق النصر العسكرى الحاسم او حتى المحافظة عليه.

وقد ضاق جنكيز خان بأنماط الحياة فى الصين ، فقد أثر عنه أنه قال :لقد برمت السماء من هذا البذخ المتناهى فى الصين اما أنا فسأبقى فى المنطقة المتوحشة فى الشمال وسأعود الى البساطة وسأرجع الى التوسط وسأحتفظ بنفس الرداء ونفس الغذاء". (١)

ولقد حاولت العادات والتقاليد فى بيئة المغول العمل دوما على" حل كثير من المنازعات بالطرق السلمية دون استخدام العنف او القوة (٢)

وفى الحقيقة كادت المنازعات الدائمة أن تكون سمة عامة فى حياة أهل الاستبس وبالتالى فان فض هذه المنازعات كانت قضية هامة وضرورة ملحة.

ولعل اطرف ما ورد عن هذه التقاليد قول الدكتور بارتولد "وكان من التقاليد فى بلاد المغول أن يقضى الشاب مدة وحيدا فى الجبال والبرارى وأن يذهب على مسيرة شهرين من أقرب مكان معمور ببلاده ويعيش زمانا على لحوم الحيوانات ويلبس جلودها ،وكان لمن يقوم بهذه الرياضة من القبيلة شأن كبير". (٣)

وبالطبع كان ذلك اختبار" لمقدرة الشباب على تحمل ظروف صعبة غير عادية وكان ذلك يتطلب كفاءة عالية وقدرة فائقة على التوافق والتكيف .

وبدهى أن عادات المغول وتقاليدهم كانت خاصة جدا..وبالتالى لم تكن مقبولة لدى غيرهم وبخاصة المسلمون الذين كانوا يرون فيها كل ما يدعو الى الاشمئزاز والنفور والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم" (٤)

على أن المغول الذين مارسوا مختلف درجات التكيف والتوافق كان عليهم أن يغيروا من بعض هذه العادات والتقاليد فى البيئات الجديدة التى أقاموا فيها فى أماكن شتى متباعدة. حقا انهم قهروا - عسكريا - كثيرا من الشعوب لكنهم ذابوا فى طيات حضارة تلك الشعوب المغلوبة تدريجيا.

وهكذا وجدوا أنفسهم بعد حين يبدلون ويغيرون من أشياء تعودوا عليها طويلا فى بيئتهم الاصلية ، يقول الدكتور دونالد ولبر (٥) " وقد تابع المغول - منذ بدأوا يعيشون فى ايران - أنواعا جديدة من العادات وأنماط الملابس والمعتقدات الدينية تختلف

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩٥
(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٣٤
(٣) د.بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٢٢١
(٤) د. جرانفيل براون: تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦١
(٥) ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٦

عما اعتادوه فى أسلوب حياتهم القبلية ،وعملت قوة الحضارة الايرانية و أصالتها على تغيير عاداتهم وأخلاقهم"

وهذا التغيير الذى طرأ على عادات المغول وتقاليدهم لم يكن مقصورا على المغول فى ايران فحسب بل أن نفس التغيير قد حدث فى أماكن أخرى كالصين وروسيا والتركستان .

وهذا التغيير – فى تقديرى – لايعكس تداعى التزام المغول بالعادات والتقاليد بقدر مايعطى دلالة واضحة على مدى قدرة المغول على التكيف والتوافق مع أى بيئة يقدر لهم أن يعيشوا فيها .

غير أن هذا التغيير هو ما تخوف منه جنكيز خان وحذر منه فعلى الرغم من أنه قد عاش حياته كلها على وتيرة واحدة تقريبا الا أن الشك قد خالجه فى أن يعيش أبناؤه على نفس طريقته ولقد صرح ذات مرة .." قد يرتدى خلفائى ثيابا من ذهب، ويضمون فى أحضانهم اجمل النساء، وقد يغرقون أنفسهم فى العز والجاه ثم ينسون لمن هم مدينون بكل هذه الاشياء". (١)

وهكذاتبين أن جنكيز خان نفسه كان حريصا على المحافظة على كيان المغول متميزا بالابقاء على تقاليدهم وعاداتهم البدوية مصونة بمنأى عن حياة المدينة التى تعج بالترف والنعيم والتى كان يراها خطرا داهما سيقلب انتصارات المغول ويحولها الى هباء لايجدى .

(ب) اليـاسـا :

احتوت الياسا فى كثير من تشريعاتها على جوانب اجتماعية مهمة . والحقيقة أنها قامت بعملية تقنين للمخالفات التى يمكن ارتكابها من قبل المخالفين وأصدرت عقوبات صارمة تقضى فى معظمها بالموت على من يخالف أو يشارك فى المخالفة أو يحرض عليها او حتى يتستر على مرتكبيها .

وبالطبع لم تخرج الياسا من فراغ ولم تنتج عن محض الهام ذاك أنها استندت الى عادات وتقاليد وأعراف توارثها المغول جيلا بعد جيل .و حتى الاضافات التى استنها جنكيز خان كانت ولاشك تتوافق مع طبيعة التكوين الجسمانى والنفسى للمغول .

خلاصة القول أن الياسا وان استهدفت فى المقام الاول احكام قضبة حكام المغول على اتباعهم فانها قد عملت ايضا بل وساهمت الى حد كبير فى تحقيق نوع من التكيف والتوافق بين المغول وحياتهم .

وآية ذلك أنها تناولت عقوبات الامراض الاجتماعية التى تهدد كيان المجتمع المغولى . وكذا احتوت على نصوص وتشريعات تدور حول معظم ما ترتبط به حياة المغول كتنظيم الاسرة وعلاقاتها والزواج واساليب الطعام والملابس .. الخ ، ولعل هذا يفسر سبب اصرار المغول على الالتزام بها فترات طويلة بعد وفاة جنكيز خان .

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٣

جـ – القدرات الاجتماعية المميزة :

تحدثت فى الفصل الاول عن أثر البيئة فى التكوين النفسى عند المغول وكيف أنها اكسبتهم قدرات عدة أهلتهم لدور مستقبلى أكبر وكان من أهمها :

١ – الطاعة المطلقة :

وهى قناة توصيل جيدة تحمى المجتمع وتصون وحدته وهى تنافى التمرد و العصيان فكلاهما يضعف قدرة المواجهة مع الخطر .

٢ – الصبـــر :

وهوعنوان الصلابة وقوة الاحتمال ومقياس للخبرة بالحياة الصعبة وهو وقاء موقت لحين انفراج محنة وبخاصة فى بيئة الاستبس.

٣ – الكـــرم:

وهوعنوان التساند الاجتماعى فى أوقات الشدة.

٤ – التعـــاون :

وهوالزام حتمى .. وصيغة حياتية فى بيئة الاستبس حيث لامجال لاية نوازع فردية ولا فرصة للعزلة عن المجاعة.

على أنهذه القدرات جميعها كانت – ولاشك –فى حاجة الى قدرة أخرى اقوى تضيف اليها وتمنحها قدرة الاستمرار فى البيئة المحلية أوخارجها وأقصد بها الاستفادة من تجارب الاخرين .

د – الاستفادة من التجارب :

الاستفادة من التجارب موشر مهم يعكس الرغبة القوية فى انتخاب أفضل الاساليب لمواجهة متطلبات الحياة خاصة فى بيئة صعبة قاسية كما هوالحال فى بيئة الاستبس.

وقد تعلم المغول منذ زمن أن يستفيدوا من تجاربهم فى مواجهة هذه الطبيعة القاسية والاعداء المتربصين ومتابعة حيوانات الصيد.. الخ . وتلك كانت استفادة حاضرة ومتوارثة أيضا عن الاجيال السابقة .غير أنها لم تكن لتنفع عند الانفتاح على مجتمعات جديدة لها خبرات مستقلة اوسع وأشمل بالاضافة الى أن المغول لم يعد بوسعهم أنيعيشوا بمعزل عن أنماط الحياة الجديدة التى انفتحوا عليها والتى كـانت بلاشك تجذبهم اليها.

وهكذا تحتم على المغول أن يصيخوا أسماعهم الى نصائح جديدة مجدية يقول الدكتور ارنولد توينبى (١) " وانتصارات جنكيز خان كانيرافقها الافادة من أصحاب المواهب، مثل ضمه المسيحيين النساطرة – بعد انتصاره عليهم –الى حظيرة ملكه . كما أنه أفاد من التجار المسلمين الذين كانوا فى بلاده وكان جنكيز خان يقبل النصيحة ويستشير دوما".

ويقول ادوار بروى (٢) "وفتوحاتهم جعلتهم يخالطون أناسا تفوقوا عليهم حضارة فأحسنوا صنيعا بالاصغاء اليهم أحيانا".

---

(١) تاريخ البشرية جـ٢ص ١٨٠ ، د.السيد العرينى –المغول ص ١٥١

(٢) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٥

ويقول ابن خلدون (١) " وكان نظام الملك وزير السلطان علاء الدين خوارزمشاه مع امه تركان خاتون فوقع فى قبضة جنكيز خان وكان عندهم معظما لما بلغهم من تنكر السلطان له وكانوا يشاورونه فى أمر الجباية"

وهكذا رأينا أن المغول لم يغلقوا أنفسهم دون سماع الاراء الصائبة للاخرين سواء أكانوا من الاسرى أم المتطوعين فى خدمة المغول على أن أفضل نصيحة استمع اليها جنكيزخان كانت من الاسير الصينى الوزير (يى - ليو - جوتساى) حين قال له" لقد هزمت امبراطورية وأنت على صهوة جوادك ولكنك لايمكن أن تحكمها وأنت على صهوة هذا الجواد" (٢) وتلك نصيحة تحمل مضمونا مهما ذلك أنه يلفت نظر الخان الاعظم الى أن حكم الشعوب التابعة يحتاج تخطيط سياسى واستقرار اجتماعى فالقوة العسكرية وحدها لا تكفى خصوصا فيما يتعلق بالمسائل الاجتماعية والحضارية.

ومن هنا صار جنكيز خان يرى - رغم جهالته - ان المتعلمين أقدر منه على جمع المال واعادة السكان المضطربين الى اعمالهم ويبدو أن (يى - ليو - جوتساى) قد أقنعه تماما بهذا الرأى . (٣)

وايا كان الدافع وراء كل ذلك فان هذا السلوك من قبل جنكيز خان انما ينبىء عن قابلية واضحة للتطور والتكيف مع الواقع . وعلى هذا فقد كلف جنكيز خان هذا الامير الصينى بتعليم ابنائه الاربعة حتى لا ينشأوا أميين مثل ابيهم .

يقول بارتولد"ومع أنا لمصادر غير الصينية لا تشير الى هذا الامير الاسير الذى صار وزيرا لجنكيزخان فقد قبل (بلوشيه) وهو الناشر الاوربى لكتاب رشيد الدين فضل الله (جامع التواريخ) رواية المصادر الصينية فعنده مثلا أن (يى .لو . جوتساى) هو أول من بين للمغول عدم جواز القتل العام والسلب والنهب" (٤)

ولم يكن جنكيز خان وحده هو الذى يستفيد من التجارب حوله أو يستشير أهل الرأى والعلم "فقد حدث أن نجا من المغول فى قلاع الاسماعيلية الخواجة نصير الدين الطوسى الذى كان زعيم الاسماعيلية قد قبض عليه وأودعه السجن لانه لم يكن يدين بالفكر الاسماعيلى" . (٥)

فلما تأكد هولاكو من صدق واخلاص نصير الدين الطوسى وغيره ممن كانوا أطباء مشهورين اصلهم من همذان شملهم بعطفه." (٦) فكان يستشير الطوسى فى كثير من الاعمال وأقام له مرصدا فى مراغة .

وهكذا رأينا أن المغول - رغم عنصريتهم - عملوا على الاستفادة من تجارب الاخرين وأخذ مشورتهم فى مختلف الميادين فلا غرو ان صار الصينيون والايرانيون والاويغوريون

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ١١٣
(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣١
(٣) بارتولد : تارخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٦٩
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٦٩، انظر أيضا لنفس المؤلف - تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٤٩
(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج٧ ص ٧٥١
(٦) رشيد الدين : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٥٧

عونا لهم وسندا ولو على حساب بعضهم البعض ففى سنة١٢٧٢م استعان قوبيلاى باثنين من المهندسين الايرانيين فى حصار"فان شنج" بالصين وعندما خرج هولاكو خان فى حملته على بغداد سنة١٢٥٣م ،جلب معه الفا من مهندسى الصين ليقيموا له المجانيق والات الحصار كذلك فقد استعان المنجم الفارسى المشهور والفيلسوف المعروف نصير الدين الطوسى بجماعة من المنجمين الصينيين فى عمل الزيج الذى قدمه لهولاكو سنة١٢٥٩م(١)

الظواهر الاجتماعية البارزة فى المجتمع المغولى

مما لاشك فيه أن المجتمعات الانسانية تتفق فيمابينها فى أمور كثيرة وتختلف أيضا فى جوانب عدة، والاتفاق مرده الى الانسان باعتباره المقوم الاساسى فى البيئة

وسنحاول أن نتلمس بعض الظواهر الاجتماعية التى عايشها المغول واقتضتها ظروف حياتهم سواء فى البيئة التى نشأوا فيها أو البيئات الاخرى المجاورة التى ارتحلوا اليها بحكم الغزو والسيطرة .

أولا : العدالة الاجتماعية :

وتلك معيار التوازن الدقيق لاى مجتمع يعايش ظروفا بيئية قاسية وبقدر محافظة هذا المجتمع على تحقيقها بقدر ما يدوم له الامان والاطمئنان وبالنسبة للمغول فقد كانت العدالة الاجتماعية تعنى المساواة فيما بينهم يقول فامبرى(٢) " وكانت لجنكيز خان مواهب الفاتح والمشرع فبتشريعه الياسا كان ينادى فيه بقيام المساواة بين الناس جميعا بصرف النظر عن اختلاف عقائدهم وطبقاتهم الامر الذى أكسبه محبة الناس أكثر مما رأى المؤرخون أن يشيروا اليه" .

وهذا الامر قد يبدو مثاليا على أساس أن ا لمساواة بين الناس جميعا تعد دليلا على فكر سوى لا عنصرية فيه، لكن الحقيقة كانت غير ذلكفالمغول لم يقبلوا عمليا مبدأ المساواة مع غيرهم من الشعوب الاخرى فاذا مابحثنا عن تطبيق المغول لمبدأ المساواة فيما بينهم لاحظنا الاتى :

(أ) مستوى الاسرة :

كان رب الاسرة المغولية حريصا تماما على تحقيق مبدأ المساواة بين أفراد أسرته فهذا هو معيار سلامتها وتماسكها. فالابناء وان لم يتساووا فى الميراث الا أنهم متساوون فى الواجبات والحقوق . وعلى هذا فالاسرة المغولية لا تغفل حتى الابناء الذين ينضمون اليها بالتبنى وكذا أبناء السرارى والاماء.

كذلك كان رب الاسرة المغولية يقوم بتقسيم العمل وتوزيع المسئوليات على الابناء كل حسب طاقته وقدراته وفى مقابل ذلك تضمن الاسرة لكل من ينتمى اليها الطعام والملبس والقرار والامان.

---

(١) د. براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٣

(٢) أرمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨١

(ب) مستوى العشيرة :

كانت المساواة كفيلة بأن تحفظ انسجام العائلات الكبيرة والصغيرة على السواء في اطار العشيرة ، ذلك أن اختلال هذه المساواة أو افتقادها كان كافيا لان يدفع بعض هذه العائلات الى الانفصال عن العشيرة أو الانضمام الى عشيرة أخرى أكثر عدالة مما قد يضعف قوة العشيرة ويقلل من قيمتها وربما ينتهى بها الى الذوبان فى عشائر أكبر وأقوى ، ومرجع الامر هنا الى زعيم العشيرة الذى قد تؤهله صفاته الى الحفاظ على عشيرته أوتنتهى به الى ان يفقد حتى من كانواعشيرته الاقربين". (١)

(ج) مستوى القبيلة :

كان الزعيم القلى — وهو ينتمى الى أحد العشائر فيها — حريصا تماما على الا تتهم عشيرته الاقربون بالتميز على غيرها بحقوق معينة أو امتيازات خاصة . اذ يكفى هذه العشيرة فخرا أنها بيت الزعامة القبلية وهو تشريف يفوق اية امتيازات أخرى وعلى هذا فقد تحتم على (تيموجين) — كخان للمغول — أن يقضى بعدالة فى المنازعات التى تنشب بين قومه، فاذا ما نصر أقاربه على الاخرين شك زعماء قبيلته فى عدالة أحكامه. (٢)

ولقد عمل جنكيز خان على تنمية هذه العدالة بشكل دستورى فى الياسا ذاتها التى نصت على أن من دخل بين خصمين اثنين فأعان أحهما على الاخر قتل". (٣)

وهكذا رأينا أن العدالة الاجتماعية كان تعنى الالتزام بتوفير الطعام والملبس والمسكن لكافة الافراد حتى أولئك الذين لايقدرون على العمل اليومى كالاطفال والشيوخ والعجزة. وهذا مايمكن ان نسميه بوضوح التكافل الاجتماعى فى ظل العدالةالاجتماعية .

كذلك اقتضت العدالة الاجتماعية ازالة الفوارق الطبقية بين المغول عند الزواج فقد أشارت الياسا الى ازالة هذه الفوارق بين الرجل المغولى والمرأة التى يرغبها شريطة أن توافق هى على الزواج منه.

ثانيا : حرية ابداء الرأى والمشورة :

أشرت الى المجالس التى كونها المغول على مستوى العشيرة أو القبيلة ، وكيف أنهذه المجالس كانت مجالا خصبا لتبادل الرأى فى القضايا الاجتماعية. كالمنازعات حول العشب والماء واماكن الصيد واقلطعان ومنازل الخيام.. الخ

والمغولى — كما عرف — عنه — يميل بطبيعته الى الصراحة فى القول ومن هنا كانت هذه المجالس مثالا عطيا لممارسة الديموقراطية حيث قد تقتضى الحال اصاخة السمع الى كل رأى مهما كان بسيطا أو ساذجا ومهما كانت مكانة صاحبه فقد يكون فيه خير القبيلة كلها أو افلاتها من خطر داهم يهددها. يقول الدكتور رالف لنتون (٤) وفى الشئون العادية كانت تسود بينهم درجة عالية من الديموقراطية وكانت جميع الامور التى تخص المصلحة العامة للعشيرة أوالقبيلة تسوى فى مجلس عام".

---

(١) القلقشندى: صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١١، ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ جـ١٣ ص ١١٧

(٢) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤

غير أن صاحب هذا الرأى يعود فيدعونا الى الا نسرف الظن فى تقدير هذه الديمقراطية التى كانت تضطرب عليهم أحيانا .. يقول "وفيما عدا النظام التام الذى كان يمثل القاعدة الاساسية عند الخروج فى الحملات الحربية كانت تسودهم ديموقراطية أقرب الى الفوضى" (١)

وما يعنينا هنا ليس درجة الانضباط فى حدوث هذه الديموقراطية فهذا أمر يمكن ارجاعه الى عوامل عدة قد تختلف فى أسباب حدوثها كضعف القيادة أو كثرة العدد أو تهور بعض الافراد أو حجم المشكلة المطروحة. أوالتيارات المختلفة فى الرأى.

ان مايهمنا بالدرجة الاولى هو أن هذه الديموقراطية كانت موجودة وقائمة. فهذا وحده دليل على وجود عدالة اجتماعية لدى المغول. رغم أنهم أهل بداوة ورعى فى المقام الاول ولقد أثرت فيما سبق الى أن الرجل المغولى كان صريحا فى الحق جريئا - كغيره من أهل البادية - لايهاب ولا يتردد فى ابداء رأيه ،حتى لقد اعتاد المغول - طبقا للياسا - ان يجتمعوا عند عقد القوريلتاى السنوى فيظهر امامهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوا ولقد كانوا - احيانا - يوبخونهم اذا أخطأوا ، أو يحذرونهم من التجاوز والشطط وعلى سبيل المثال "ففى القوريلتاى الذى عقد سنة٦٠٣هـ حيث تولى جنكيزخان منصب الخان الاعظم وقبيل انتهاء المراسم وقف أحد الحضور - وكان من أهل التقوى والنفوذ - وقال له" مهما بلغ من قوتك فانها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك ،فاذا أفرطت فى سلطانك صرت أسودا مثل هذه اللبادة (التى تجلس عليها) ونبذك رجالك نبذ النواة" وفى هذا القول من حرية الرأى والبداوة والجراءة مثلما كان يحدث من جراءة العرب على خلفائهم وأمرائهم فى صدر الاسلام" (٢)

ثالثا : __الطبقيـــة__ :

ظاهرة اجتماعية تضيق وتتسع وفقا لطبيعة النظام العام الذى تنتهجه الجماعة فى تسيير شئون حياتها المختلفة .

والاسلام وان كان يقر الفروق الفردية بين الافراد فانه يرفض التفرقة بين الناس على أساس من اللون أو الجنس أوالعقيدة. لانه يرى فى ذلك دلالة على عنصرية بغيضة وضيق أفق مرذول" .

وعند المغول فان الطبقية الاجتماعية تعد أمرا طبيعيا صنعته ظروف البيئة والمناخ والتكوين الاجتماعى المتوارث .. وفى الحقيقة كانت هذه الطبقية تتأثر كثيرا بمدى الثراء الاقتصادى أو المكانة الاجتماعية، وتلك أمور كانت عرضة للتغيير وفقا للظروف التى يمر بها المجتمع والتى اختلفت نتيجةللغزو والانتشار خارج حدود منغوليا ثم استقرار بعض الجماعات المغولية فى المناطق المفتوحة بصورة شبه دائمة ذلك الاستقرار الذى ألجأها الى أن تحاول - فى بادىء الامر - البقاء منعزلة فى شكل طبقى أعلى.

---

(١) شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٩

(٣) رزق الله منقريوس الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ٢ ص ٢٦٨

* الترتيب الطبقـــى :

كان للمغول نظامهم الاجتماعى قبل جنكيز خان وارتكز هذا النظام على ترتيب معين - يقول الدكتور بروى (١) ، "وقد كان النظام الاجتماعى - قبل الامبراطورية - لدى المغـــول يقضى بأن يتألف المجتمع من أربع طبقات متميزة هى :

١ - الارستوقراطية الحاكمة .

٢ - الرجال الاحرار أوالمحاربون .

٣ - عامة الشعـــب .

٤ - العبيد - ويشملون الى حد كبير الخدام والصناع اليدويين" .

ويمكننا أن نلاحظ على هذا التقسيم الاتى :

أ - أنه وضع الحاكم القبلى ورؤساء العشائر على رأس النظام الطبقى ومرد ذلك بالطبـع الى السلطة والانتماء الى عشيرة ذات ثراء ونفوذ .

ب - انه وضع المحاربين كطبقة ثانية سابقين ومنفصلين عن عامة الشعب وفى تقديـرى أن المغول كانوا - فى معظمهم - محاربين مهما اختلفت حرفتهم الاساسية ، اذ لـم يكن لديهم حتى هذا التاريخ طبقة مستقلة تحترف القتال دون سواه من الاعمال الاخرى .

جـ - لم يوضح هذا التقسيم المقصود بالعناصر التى يحتويها عنوان "عامة الشعب" عمومـا هناك تقسيم طبقى اخر يوضح هذا الامر فهو يرتب طبقات المجتمع على النحوالتالى:

١ - ملاك قطعان الخيل والماشية .

٢ - الرعاة .

٣ - الصيادون .

٤ - الـزراع

يقول صاحب هذا الترتيب الدكتو هارولد لامب" وكان ينظر بعين الاحترام الـــى ملاك الماشية بعد أصحاب الخيل ثم يأتى فى الترتيب بعدهم رعاة الاغنام ويليهم صيـــادو الغابات ثم صيادو السهول الثلجية فى الشمال أما اقلهم منزلة فأولئك الذين يفلحـــون الارض ويزرعون الغلات الصالحة للطعام. (٢)

فاذا قدرنا عنصر التطور الزمنى والظروف التى تغيرت فى عهد جنكيز خان من فتوحات وامتداد للدولة وثراء. أمكننا أن نرى النظام الطبقى فى المجتمع المغولى على النحو التالى:

(أ) الطبقة الحاكمـة :

وتشمل الحاكم والامراء ورؤساء العشائر وقواد الجيوش ويضاف الى هؤلاء الحرس الخاص للخان وأولئك كانوا يؤلفون فى الامبراطورية المغولية طبقة ارستقراطية ممتازة لان الجنـــدى فى هذه الكتيبة كان أعلى مرتبة من قائد الالف فى الفرق الاخرى". (٣)

(ب) طبقة الاثريـــاء:

وتشمل ملاك قطعان الخيل والماشية والاغنام والاغنياء بصفة عامة ، "وتلك الطبقـــة كانت تعتمد على ثرائها فى بسط نفوذها فى المجتمع وكان مظهرها دليلا عليها فقد كان الاغنياء

---

(١) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٦

(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٢

(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٧

من المغول يبطنون معاطفهم الشتوية بجلود السمامير والثعالب والفواقيم والسناجب" (١) وفى الحقيقة كانت الفوارق بين الطبقات تتمثل بصفة رئيسية فى الثروة". (٢)

(جـ) عامة الشعب :

وتشمل الرعاة والصيادين والزراع .

(د) طبقة العبيد :

وتشمل الرقيق والخدم والاسرى ايا كان مصدرهم .

الطبقية خارج المجتمع المغولى :

تحدثت فيما سبق عن عنصرية المغول وكيف انهم نظروا الى أنفسهم على أنهم متميزون على بقية الاجناس الاخرى .وعلى هذا فان المغول خارج بيئة الاستبس عاشوا وفق تركيبة طبقية معينة كانت على النحو التالى :

١ ـ طبقة الحكام المغول والامراء وقواد الجيوش .

٢ ـ طبقة الاتباع من غير المغول (عمال المغول وروءساء الدواوين) .

٣ ـ عامة ابناء الشعب فى البلاد المفتوحة .

وتتضح معالم شخصية جنكيز خان فى أنه كان يريد ان توجه اسرته (الاسرة الذهبية) الجيش والوزراء الذين كان عليهم بدورهم ان يحكموا الرحل الذين يسكنون الخيام وهوءلاء بدورهم يصبحون سادة جميع الشعوب الخاضعة لحكمه". (٣)

خلاصة القول ان المغول عاشوا فى البلاد المفتوحة كطبقة عليا مستقلة لاتنخرط فى آهالى البلاد المفتوحة ولا تتعامل معهم الا من خلال نظرة فوقية مستعلية. لكن ذلك على ما يبدو ماكان ليستمر طويلا .

عموما فقد أفرزت هذه الطبقية ظواهر عدة فى حياة المغول ، اهمها :

أ ـ الارستقراطية :

تكاد تجمع الاراء على أن الارستقراطيين هم الطبقة التى تحسن استغلال الثروة فى الاستحواذ على سلطة اكبر فهم يسعون دائما على السيطرة على اكبر دوائر النفوذ فى المجتمع ،ولانهم ـ بالقياس الى غيرهم ـ قلة فهم متميزون متعالون مستقلون للاخرين فى تلبية مطالبهم والحصول على مطامعهم التى عادة ما تكون على حساب الجماعة كلها.

خلاصة القول أنهم قلة ثرية تسيطر علي جمهرة مغلوبة أو مسخرة . ولايشترط أن يكون الارستقراطيون من طبقة الحكام القبليين بل قد يكونون من العائلات ذات الثراء العريض فحسب وهوءلاء يحرصون أيضا على أن يكونوا على مقربة من دوائر السلطة والنفوذ ، يقول بروى (٤) "وتضم الارستقراطية العائلات المتفاقمة الثروة وتستطيع هذه العائلات بقيادة زعمائها التمتع بمزيد من النفوذ."

---

(١) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات جـ ٣ ص ٣٦٣

(٢) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة جـ ٢ ص ١٧٤

(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٧

(٤) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٨

وطبيعى أن يكون هوءلاء من كبار ملاك قطعان الخيل والاغنام والماشية وقد يحدث أن تتفاقم الثروة ويزداد معها نفوذ الارستقراطية فيحاول أصحاب هذه النفوذ احتواء قبائل أوعشائر أخرى مجاورة. فيظهر خطر الصراع المسلح فى الافق ، ولعل هذا هو السبب الرئيسى الذى من أجله خاض جنكيز خان حروبه القبلية الطاحنة قبل أن يستوى خانا أعظم للمغول .

فالصراع اذن بين الارستقراطيين أنفسهم وليس بينهم وبين غيرهم من جماهير الفقراء كما تصور المستشرق الروسى الدكتور بارتولد ، اذ يقول فى موضعين من كتابه تاريخ الترك فى اسيا الوسطى " وفى تاريخ الاقوام البدوية لاسيا الوسطى مثل لشعب ولدولة قامت نتيجة الصراع الداخلى بين الطبقات وتلك هى دولة جنكيز خان أو دولة المغول التى قامت نتيجة لانتصار الارستقراطية" .

ويقول أيضا" وقد ثبت الان أن هذه الفتن لم تكن فى حقيقة أمرها الا الصراع بين الطبقة الارستقراطية وجمهرة السكان فى الاستبس تجمعت الطبقة الاولى تحت رئاسة جنكيز خان والتفت الثانية حول (جاموغا) وكان جاموغا) فى أول أمره صديقا لجنكيز خان ثم خرج عليه وظل يجد كل يوم أعداء جدد لجنكيز خان بين روءساء قبائل المغول وخاناتهم ولكن هذا الصراع انتهى بابادة قسم من أنصار (جاموغا) وفرار القسم الاخر من منغوليا ووقعت اخرى المعارك التى اشترك فيها (جاموغا) ضد جنكيزخان فى سنة١٢٠٤،١٢٠٥م سلم (جاموغا) بعد ذلك الى جنكيز خان فأعدم" (١)

وأميل الى عدم موافقة بارتولد فى رأيه لأسباب عدة :

(أ) أن (جاموغا) وهو قريب لجنكيز خان وليس صديقا له، كان يصارع من أجل الاستحواذ على زعامة قبيلة(قيات) ، يقول الدكتور هارولد لامب " ولما كان ابن طغرل (ملك الكرايت) يخشى نفوذ (تموجين) على والده فقد اتجه الى (جاموغا) احد زعماء القبائل المغولية وكانت تربطه بتموجين صلة القرابة وكان يسعى الى الحصول على زعامة مغول (قيات) لنفسه لذا قرر هو وابن طغرل ان يحطما تيموجين" (٢)

(ب) أن (جاموغا) لم يكن ممثلا لطبقة الفقراء من جمهرة السكان فى الاستبس بل كان زعيما قبليا يسعى الى زعامة اكبر فاستعان بروءساء قبائل وخانات من المغول وغيرهم ولم يكن مطلقا مثل (سبارتاكوس) الذى كان عبدا قاد ثورة العبيد ضد الارستقراطيين الرومان فى عصر بلغت فيه روما أوج قوتها .

(ج) ان الطريقة التى أعدم بها (جاموغا) توءكد ماذكرناه. فقد أعدم (جاموغا) خنقا فلم ترق قطرة من دمه على الارض ، لانه كان يجرى فى عروقه الدم الملكى ، ومن عادة المغول الايسمحوا باراقة الدم الملكى على الارض .

خلاصة القول انه كان صراع الارستقراطيين على السلطة فيما بينهم ولم يكن صراع بين طبقة الارستقراطيين ضد جمهرة السكان فى الاستبس كما زعم الدكتور بارتولد. ذاك أن

---

(١) د. بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ج ٧ ص ١٥٤

(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٨

الانتماء الى العشيرة والقبيلة والتماسك الاجتماعى من أجل دفع الخطر كان أهم مايشغل بال جمهرة السكان فى الاستبس على اختلافحرفهم أو قبائلهم .

(ب) الاقطـــاع :

لعله يمكننا القول : ان ظهور نظام الاقطاع لدى المغول قد واكب اعتلاء جنكيز خان لعرش الامبراطورية المغولية خانا أعظم اذ لم يكن هذا النظام معروفا على ما يبدو عند المغول من قبل هذه الفترة ،يقول الدكتور ادوار بروى (١) ومنذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقـــام الخان الاعظم توطد التسلسل الاجتماعى ولكنه ارتدى فى الوقت نفسه طابعا اقطاعيا اذ غـدت أسرة الامبراطور وابنائه طبقة عليا ، وصاروا يطعمون أيضا فى امتلاك (اولوس) خاص بهـــم ويصبحون بذلك أصحاب الاقطاعيات الكبرى فى الامبراطورية ."

وأخذ خلفاء جنكيز خان بسياسته من بعده فى هذا المجال اذ لما أضحى أوكتـــاى خانا أعظم خص اقاربه بالاقطاعات الثقيلة" (٢)

وبالاضافة الى أسرة الامبراطور وانسبائه وأقاربه كان هناك كبار الضباط الذين خدمـــوا جنكيز خان بأمانة واخلاص وعلى رأسهم(شيبة) نويونو(سوموتاى) فقد كرمهم ورفع من شأنهـم ومنحهم مطلق الحرية فى اختيار الاراضى التى يرغبون فى امتلاكها حيثما شاءوا. (٣)

ولم يتوقف الامر عند هذا بل شمل اشخاصا اخرين اعانوا المغول فى مواقف العسـر. لكن الاخطر من ذلك كله أن ملكية هذه الاقطاعات غدت وراثية ، اذ المغول وعرفانا بالجميل كانوا يهبونهم الاراضى والاملاك ليستغلونها ولينتفعوا بما تدره عليهم ثم تؤول تلك الامـــلاك الى اعقابهم بالوراثة" (٤)

وفى عهد قوبيلاى اتسعت دائرة الاشخاص الذين ينعم عليهم الامبراطور بهذه الاقطاعات واتسعت دائرة نفوذهم واختصاصهم داخل تلك الاقطاعات فقد كان الامبراطور يوزع الاقطاعـــات أيضا على خدامه الامناء ومرافقيه و على المحاربين الملتفين وراء الامراء الامبراطوريين وتتألـــف الاقطاعات من بعض العائلات ومايعود اليها من مراع ويقيم المستفيدون من هذه الانعامـــات فى وسط اتباعهم ولكنهم يستمرون فى خدمة زعيمهم الامبراطورى ولهؤلاء المنتفعين علـــــى مرؤسيهم حقوقا فهم ينظرون فى الدعاوى ، ويوزعون المراعى ، ويتولون بالوراثة قيـــادة الجيوش المقسمة بحسب أهميتها مئات والوفا (حتى عشرة الاف رجل) ويحتلون أفضل مركـــز فى عمليات القنص ويستأثرون باحسن حيوانات الصيد". (٥)

هذا.. ويمكننا ان نلاحظ على نظام الاقطاع لدى المغول أمورا عدة :

أ - أنه كان أكثر انتشارا فى البلاد المفتوحة عنه فى منغوليا التى اتسمت طبيعة الحيـاة فيها لعدم الاستقرار والجفاف مما اقتضى كثرة الحل والترحال .

---

(١) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٣٠
(٢) د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٦٩
(٣) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٣
(٤) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٨

ب ـ أن هذا النظام قد استوجب تغيرا فى قمة السلطة على مستوى العشائر فقد ظهر فى الأفق الرئيس الاقطاعى الذى لايستلزم الامر فيه أن يكون من بين أبناء الاقطاعية أنفسهم وبالتالى أصبح يمثل سلطة مفروضة لم يكن لها وجود قبل هذا النظام.

ج ـ أدى هذا النظام الى تعميق وجود الارستوقراطية فى المجتمع المغولى .

رابعا: نظام الملكية :

الملكية فى أى مجتمع نوعان : عامة وخاصة .

والنظام الشيوعى الذى امتثل نظريات كارل ماركس والتزم بتطبيقات ستالين ولينين اصبح الان يبيح الوانا من الملكية الخاصة التى هى قائمة بطبيعة الحال وبصورة تلقائية ولو على مستوى خصوصيات الافراد والاسر .

والنظام الرأسمالى الذى لا يحبذ الملكية العامة ويراها عنوان تزمت وتخلف يقتل الكفاءة الفردية وينفى مواهب الاشخاص وقدراتهم الذاتية. هذا النظام نفسه لم يستطع أن يترك بعض جوانب الحياة الاساسية خاضعة لملكية الافراد ايا كان شأنهم أو حجم أموالهم ونفوذهم . وعلى سبيل المثال فملكية وسائل الدفاع العسكرى أو تكنولوجيا الفضاء أو التقنية الذرية والهيدوروجينية لا يمكن أن تترك مملوكة لافراد قد تختلف نوازعهم او اتجاهاتهم أو ارتباطاتهم المالية وخصوصا وقت الخطر .

والتفكير الاسلامى يجمع بين الاتجاهين فى ان واحد وفى توازن دقيق وهو بذلك يمثل نموذجا ممتازا لمفهوم الملكية بحيث تصبح نظاما اقتصاديا ذا صبغة اجتماعية متوازنة.

وعند المغول تحققت الملكية بنوعيها :

١ ـ الملكية العامة :

وقد تمثلت تلك فى ملكية المرعى .. وهو أمر فى غاية الخطورة فى حياة بيئة الاستبس ـ اذ أن المرعى ملك العشيرة. وهذه الملكية محددة. معروفة. وعلى الرغم من أن العشيرة قد تنتقل فى أحد فصول السنة بحثا عن الماء والكلأ الا أن المراعى فى فصل الشتاء تظل محددة وغير قابلة للتغيير. يقول الدكتور جمال حمدان : " وملكية المراعى لها دورة سنوية ذات أساس ايكولوجى قوى جدا فلا ملكية للمراعى صيفا ولكنها تصبح ملكية العشيرة فى الشتاء. وتلك تكون مسألة حياة أو موت ولذا كان لابد من التماسك الاجتماعى فى العشيرة لضمان نتيجة الصراع حول المراعى الشتوية[١]" .

وبالطبع فان الاساس الايكولوجى هو نظام البيئة الذى تفرضه على ساكنيها والذى يحتم ضرورة ملكية المرعى فى الشتاء والا تعرضت العشيرة كلها للهلاك وعليها أن تتضامن فى مواجهة العشائر الاخرى التى تطمع فى احتلال نفس المرعى .. ووسيلتها هى التماسك الاجتماعى فتظهر قيمة الطاعة للقيادة والتحلى بالصبر والصراحة والاستفادة بالتجارب السابقة فلا وقت اذن للتمرد على الحياة أو على النظام الاجتماعى .

---

(١) د. جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٤
ايكولوجى : مصطلح جغرافى بمعنى " بيئى" اى بتأثير البيئة .

وعلى هذا ـ فالملكية انذاك ليست قضية اقتصادية فحسب بل هى قضية اجتماعية أيضا لانه بمقدار ترابط العشيرة يكون صمودها فى هذا الفصل المروع والا ستهبط الى مستوى اجتماعى اقل فتعيش فى مرتبة الاعتماد على عشيرة اخرى أقوى تفرض سيطرتها على المرعى ومن فيه .

٢ ـ الملكية الخاصة :

وتلك كانت أقوى لدى المغول من سابقتها وقد تمثلت فى صورة :

* ملكية رب الاسرة :

ويقصد بها ملكية (البورت) الذى تقيم به أسرته وكذلك كل ماتحصل عليه هذه الاسرة من البيئة من مقومات حياتيه كحيوانات الصيد .

* ملكية قطعان الحيوان :

ويقصد بها حيوانات الرعى ، كالخيل والماشية والاغنام والابل ، تلك الملكية التى تمنح مكانة اجتماعية اعلى ونفوذا اقتصاديا واسعا . اذ أن ملكية القطعان لا تعرف حدودا وهى بالطبع ملكية فردية تؤدى الى فوارق طبقية". (١)

ولعل هذه الملكية الخاصة للقطعان هى التى تؤهل العشيرة لان تستولى على بيت الرياسة فى القبيلة كلها وتتوارثه جيلا بعد جيل .

ومرد ذلك الى أن الحيوان يعد أساس الثروة الاقتصادية فى بيئة الاستبس وعليه فان ملكية أكبر عدد من قطعانه هى بمثابة الطريق الى الشرف والسيادة فى المجتمع المغولى .

* ملكية الاقطاعات :

وتلك تحدثت عنها توا .. وهى التى غدت منذ عهد جنكيز خان وخلفائه ظاهرة اجتماعية واقتصادية واضحة بل غدت أخطر صور الملكية الخاصة وأكبرها على الاطلاق .. فهى ملكية ضخمة مجانية تهبط على صاحبها باشارة من الخان ويكتفى صاحب الاقطاعية بأن يرسل من حين لاخر بعض نتاج هذه الاقطاعية ليكون تحت تصرف البلاط .

خامسا : ظواهر أخرى (القافلة) :

اقتضت طبيعة الحل والترحال التى فرضتها البيئة المغولية أن ينتقل المغول وبخاصة الرعاة منهم من مكان الى آخر بحثا عن الماء والكلأ أوهربا من قسوة الطبيعة أو طلبا للسلب والنهب .

وترتب على ذلك أن يكون نظام القافلة هو الصورة العملية لهذه التجربة الاجتماعية المتكررة . يقول الدكتور جمال حمدان (٢) : وهى ظاهرة مستمرة فى حياة الاستبس الاجتماعية والتجارية فقافلة السلم تتحول الى جيش للحرب والفرق بينهما ضئيل من وجهة التنظيم والاعداد والترتيب فالاستبس عادة (ترسانة) سلمية .

ومعنى ذلك ان المغولى وهويتحرك فى قافلة سلمية تبتغى انتخاب مكان أومناخ افضل للعيش فيه يضع فى اعتباره أنه محارب بالدرجة الاولى وأن ظروف الخطر محدقه به

---

(١) د. جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٦٤

(٢) انماط من البيئات ص ٧١

دوما وأن القتال يمكن أن يحدث فى أى لحظة ولهذا فهو على استعداد دائم لخوض الغمار.

والقافلة بهذه الصورة ليست ظاهرة عسكرية صرفة بل هى ظاهرة اجتماعية أيضا اذ أنها تعبير عن الوحدة الاجتماعية التى تنصهر فيها وتتوحد كل الاتجاهات والانتماءات وتتلاشى فيها أيضا معظم الفوارق . ذاك ان أى خطر يهدد هذه القافلة يجعل أية فوارق فيها غير ذات قيمة .

"والعجيب فى ظاهرة الوحدة الاجتماعية هنا أنها أكثر وضوحا خارج الاستبس من داخله ،حيث تكون الحاجة الى التماسك والتلاحم اكثر. (١)

على أن القافلة كظاهرة ارتبطت عند المغول بما يلى :

(أ) تكوين القافلة :

تتكون القافلة عادة من عدة عشائر تنتمى الى قبيلة واحدة وقد تنضم اليها بضعة عشائر اخرى من قبيلة مجاورة ترتبط معها بصلات طيبة.

"ويتقدم القافلة فى العادة ، وعلى مسافة تتراوح بين خمسة وسبعة كيلو مترات جماعة من الفرسان المسلحين" وذلك للاستكشاف والتعرف على مجاهل الطريق وما قد يكمن فيه من أخطار (٢) .

هذا .. على حين تقوم جماعة من الرعاة بقيادة العربات التى تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيرا على الاقدام ثم يليها القطعان المختلفة يحيط بها الفرسان" (٣) ولا يسمح لشخص بالتخلف عن القافلة مطلقا أيا كانت الاسباب والا كان عقابة صارما " اذ يملأ نطاقه رملا ويعلق فى عنقه ويمشى على قدميه حتى تبلغ القافلة المنزل المراد، فيؤتى به الى أمير القافلة فينبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء أكان رفيعا أو وضيعا لا يفرقون فى ذلك بين الناس". (٤)

فاذا ماحان مكان الحل توقفت القافلة حيث يجرى الحرص عند نصب المعسكر على تحديد مواضع للرجال والاسلحة وللقطعان كما تخصص اماكن للنساء والاطفال ،وسرعان ما تنتظم جموع الرعاة فى جماعات لها رؤساؤها ومعاونوهم" . (٥)

فاذا تغيرت ظروف الرعى أوالمناخ او حدثت أية متغيرات أخرى بادرت القافلة وعادت الىمنازلها الاولى ،ويترتب على ذلك زوال الوحدة الاجتماعية الموقتة التى صنعتها القافلة كظاهرة اجتماعية قابلة للتحول السريع .

---

(١) د. جمال حمدان : انماط من البيئات ص ٧٢
(٢) د.السيد العرينى: المغول ص ١٤
(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٢
(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الافكار وعجائب الاثار ج ١ ص ١٥٥
(٥) د.السيد العرينى : المغول ص ١٤

(ب) القيـــادة :

قد يكون القائد زعيما قبليا او واحدا من روءساء العشائر .. وفى غالبية الاحـــوال يكون رجلا محنكا يمتاز بصفات عديدة تجعل منه ظاهرة ملموسة فهو خبير بطرق السيـــر عارف بأماكن الرعى ومواضع الابار. قادر على تكوين علاقات جيدة وجديدة مع جيران مختلفيـــن يمكنه فى النهاية ان يعود بالقافلة من حيث أتت موفرا لها أيسر وسائل الامن والسلامـــة

واذا كانت ظاهرة القوافل نفسها ظاهرة موءقتةفان قيادة القافلة هى ايضا ظاهـــرة موءقتة ومتغيرة تزول بزوال القافلة حيث تعود الامور الى رئيس العشيرة أو القبيلة كما كـــان من قبل.

وفى الحقيقة فان نظام القافلة ليس نظاما خاصا بالمغول وحدهم فقوافل البدو والتجار معروفة منذ زمن قديم لكن الذى يميز القافلة المغولية عن غيرها هو القدرة الفائقة الى التحول السريع من حالة السلم الى الحرب والعكس،على حين أن القوافل الاخرى كانت فى غالبيـــة الاحوال محددة الهوية.

ويبدو أن هذه القدرة العجيبة كانت احدى مقاييس النجاة والافلات من الخطر. وعلى سبيل المثال استطاع جنكيز خان بمهارته أن يقوم بهذا التحول الخطير عندما باغتـــه الكرايت من الخلف وكان متحالفا معهم . فسرعان ما تحولت قافلته التى كانت فى طريـــق العودة الى معسكر على شكل دائرة من العربات وفى داخلها يحتمى الاطفال والنساء والشيوخ والعجزة وتمكن جنكيز خان من صد الهجوم السريع الجرىء ثم استمرت القافلة فى طريقهـــا عائدة الى هدفها حتى حان موعد الانتقام من الكرايت .

خلاصة الامر أن القافلة المغولية لم تكن قافلة عسكرية فحسب بل كانت أيضـــا هيكلا اجتماعيا موءقتا.

الباب الثالث

الحياة العلمية والدينية

الفصل الأول

العلوم والفنون والاداب

١ ـ انتشار الجهل والامية
٢ ـ النشاط التعليمي
ـ تعليم اطفال المغول
ـ الخط الاويغوري (أصله ـ تركيبه ـ استخداماته)
٣ ـ تشجيع بعض العلماء والمفكرين .
٤ ـ المؤسسات العلمية والادبية
ـ المدارس
ـ المعاهد العلمية المتخصصة
ـ المراصد الفلكية
ـ المكتبات العامة
٥ ـ حركة التأليف والترجمة
ـ التاريخ
ـ الفلسفة
ـ الفلك
ـ الكيمياء
ـ الطب
٦ ـ الحياة الادبية
ـ الشعر
ـ القصة
ـ المسرحية
٧ ـ حركة البناء والفن المعماري
٨ ـ فنون اخرى

انتشار الامية والجهـــل

عرف المصريون القدماء فن الكتابةوابتكروا الخط الهيروغليفى التى لا تزال رسومه علـى معابدهم وأهرامهم حتى الان سجلا لحضارتهم ومعاركهم ورحلاتهم ومعاملاتهم وكل ما يتعلـق بشئون حياتهم .

وبالتأكيد فان هناك أسبابا عديدة وراء ذلك كله غير أن السبب الرئيسى انما يتمثـل فى أنهم كانوا أهل قرار واستقرار لا حل وترحال .. ومن هنا أتيح لهم ان يبتكـروا وأن يضيفوا وأن يسجلوا .

أما المغول فكانوا فى معظمهم أهل رعى وبداوة يعيشون حياة بدائيةفرضت الطبيعـة عليهم فيها الا يستقروا فى مكان ثابت فهى تحاصرهم بين حين وآخر فتدفع بهم الى حيـاة التنقل هنا وهناك حيث لا استقرار يدوم ولا فرصة لعلم أو تحصيل وأنى لهم ذلـك ولاكتـاب موجود ولا معلم يجود.

وتلك كانت قضية خطيرة عانى منها المغول فى معظمهم ، ففى حياته الاولى قبـل الخانية . ومثل غالبية الرحل لم يكن تيموجين يعرف القراءة أو الكتابة". (١)

وهكذا قدر للمغول ان يكونوا أميين - وأن تهيمن عليهم الامية بما تنشر من جهـل وتخلف وغباء يعطل العقل ويحصره فى اطار ضيق وأفق محدود وقد وصف بابيلوس خرباوى- نقلا عن أحد المؤرخين الصينيين - المغول فقال" وهم أميون أغبياء" (٢) فكأن الغبـاء قد ترتب على الامية ذلك أن العقل الذى لايرويه العلم بفيض يغذيه ولا يمده الفكر بنـور يهديه سرعان ما يعتريه الصدأ فيصبح خاويا من كل معنى جديد أو خبرة تفيد.

وكان أن ترتب على جهل المغول بالقراءة والكتابة ان أصبحوا عنوانا بارزا للهمجيـة والتخلف ، فقد شاعت بينهم الخرافات والاباطيل وتفشى فيهم الخوف من الجن والشياطيـن والارواح الشريرة التى تطير فى الهواء.." وتملكهم الرعب من أن تثور الطبيعة بهم فكانـوا يقذفون أنفسهم فى الماء فزعا من الرعد والبرق ، كما كانوا يخشون كل من يدعى صلتـه بالغيب فاصبحوا عجينة لينة فى أيدى السحرة والكهان والمنجمين فانتشرت بينهم أعمـال الشعوذة والدجل ووقعوا فريسة لاصحاب الديانات المزيفة .

ومن جانب آخر استمرت بينهم العادات السيئة والسلوكيات الفجة وغاب عنهم الاهتمام بالنظافة والسمت الجميل حتى اشتهروا بمظهرهم البغيض واصبحوا مبعثا للنفور والاشمئزاز.

النشاط التعليمـى

أثمر اختلاط المغول بغيرهم من الامم المتحضرة عن اكتشافهم لحقيقة التخلف الـذى كانوا يعيشون فيه وقد أدرك جنكيز خان بفطنته مدى حاجة المغول الى التعليم والـى أن يعرفوا القراءة و الكتابة حتى يمكنهم مسايرة التطور الذى طرأ على حياتهم بانتشار حركة الغزو والتوسع وحتى يسهل عليهم السيطرة على كل هذه الامم التى تتنوع أساليبها فى نظم الحكـم والادارة والحياة اليومية.

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان جحافل المغول ص ١٤
(٢) تاريخ روسيا ص ٥٩

تعليم أطفال المغـــول :

كان جنكيز خان موفقا تماما عندما رأى أن يبدأ من التدرج الطبيعى فى التعليم فأمر أن يتعلم الاطفال المغول الخط الاويغورى". (١)

كذلك كان على جنكيز خان أن يكون القدوة للاباء من المغول فسلم أولاده الى علماء رواد أمثال " بى ليو جوتساى" ذلك أنه كان يرغب فىتعليمهم الحكمة من بطون الكتـــب هذه الميزة التى حرم هومنها". (٢)

ولم يكن "بى.لبون.جوتساى" هوالوحيد الذى قام بمسئولية تعليم وتهذيب ابنـــاء جنكيز خان ، فقد صادف جنكيز خان سنة١٢٠٤ كاتبا تركيا فى خدمة زعيم النايمان يتكلـم ويكتب لغة الاويغور ، وعندما وقع هذافى الاسر اسندت اليه مهمة تهذيب ابناء الامبراطـــور وتعليمهم الكتابة الاويغورية (٣)

وهكذا تبرز لنا صورة جديدة لكيفية استفادة المغول من الاسرى . الذين لم يقتصر الامر على استخدامهم كصناع يدويين أو خدم وعبيد بل استخدموا أيضا كمعلمين لابنــــاء المغول طالما توافرت لديهم هذه القدرة .

ومما لاشك فيه أن هذا الاستخدام الاخير يدل على ذكاء ورغبة فى التطور وبالاضافـة الى الاسرى كان‌هناك متطوعون فى خدمة المغول فى مجال التعليم فقد التحق" ثانات أونجا" بخدمة جنكيز خان فصار أحد مستشارية ومعلما لاطفاله يعلمهم الخط الأويغورى". (٤)

ولقد كان اتجاه المغول الى تعليم ابنائهم أمرا ايجابيا ، فقد أتيح لهوءلاء الابنـــاء ان يكونوا أكثر تفهما لحياة الشعوب التى تعاملوا معها فيما بعد .

وبالرغم من أننا لانستطيع أن نجزم أن التعليم قد انتشر بين أبناء جميع فئـــات المغول غير أننا قد نستنتج أن الحكام والامراء والقواد والاثرياء والطامحين فى نيل مناصـب أعلى فى الدولة كانوا حريصين على تعليم أبنائهم بكل صورة ممكنة وعلى سبيل المثال فـــان جوجى بن جنكيز خان الذى تلقى العلم فى عهد أبيه سعى الى تعليم ولده(باتو) الوانـــا مختلفة من العلوم والاداب حتى يتأهل لان يكون حاكما مغوليا صالحا، يقول الكاتب الصينـى عن أحد رجال العلم فى الدولة الخوارزمية التى انهارت تحت ضربات المغول" قال جوجـــى للرجل هذا ابنى باتوخان. وكنت قد سألت محمودا الخوارزمى أن يبعث الى برجل من العلماء ليعلمه القراءة والكتابة بلغة رعاياى الجدد من أهل خوارزم .. فأجاب الرجل ـ فـــى استطاعتى أن أعلمه الفارسية والتركمانية والعربية وتقويم البلدان وأخبار الرحالة وأصول الاخـلاق والمعاملات . فعقب جوجى .. هذه أشياء نافعة تجعل منه‌حاكما صالحا . اسمع يابنى اطع معلمك هذا ،وأنت أيها المعلم انى اسمح لك أن توءدب ابنى بالعصا اذا خالف او قصر". (٥)

(١) د. فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٣٧، نقلا عن الجوينى: تاريخ جهانكشاى ج ١ص ١٧

(٢) د. هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٩٣

(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٦

(٤) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦٣

(٥) جنكيز خان : سفاح الشعوب ص ٢١٢

وقد أثبتت التجارب أن أحفاد جنكيز خان كانوا – فى معظمهم – عند حسن ظنه فمنكو الخان الاعظم كان متحضرا وله ثقافة فى الفلك وبعض مسائل الرياضيات وقوبيلاى الخان الاعظم كان مثقفا ثقافة عالية ذات صبغة صينية مما يعطى دليلا على مدى تأثره الشديد بمعلمه (يى لبوجوتساى) الصينى الذى اثر فيه أبلغ تأثير.

خلاصة الامر أن اتجاه المغول نحو التعليم قد أفادهم وأفاد غيرهم فى نفس الوقت . واتاح فرصة لوقف التدمير ومحاولة تعمير ماخربته حركة الغزو الاولى التى قادها جنكيز خان نفسه .

الخط الاويغورى :

كان للمغول بلا شك لغتهم التى يتكلمونها والتى لم تكن مكتوبة على الارجح اذ ليس هناك وثائق أو رسائل تبادلها المغول قبل جنكيز خان مع غيرهم تشير الى ذلك . مما يجعل الاصول الاولى للغة المغولية أمرا مجهولا .. يقول الدكتور بارتولد (١) :

"ولو أن النماذج الاولى للغة المغول كانت قد اكتشفت لبلغت الان الابحاث المتعلقة باللهجات التركية والمغولية – من حيث المنهج – ما بلغته اللغات الهندية والاوربية واللغات السامية، ولكن ما دامت آثار اللغة المغولية قبل القرن الثالث عشر غير موجودة فسيظل تاريخ لغة المغول حتى يتم كشف هذه الاثار اكثر ابهاما وغموضا من تاريخ لسان الترك".

وهذا الرأى يشير الى أن ما كان موجودا من لغة المغول فى أوائل توحيد قبائل المغول تحت راية جنكيز خان كان لغة منطوقة لا تستند الى رسم املائى مكتوب .

وحتى هذه اللغة المنطوقة – فيما يبدو – كان يعتريها الكثير من القصور فى مفرداتها التى لم تكن كافية للتعبير عن كافة المعانى المطلوبة .. يقول أرمنيوس فامبرى (٢) "وليس لهم من لسانهم من الكلمات ما يكفى ليعبروا عما يريدون".

فلما انفتح المغول على أمم متحضرة مجاورة نتيجة لاتساع حركة الغزو وصارت لهم دولة بالمفهوم السياسى استلزم الامر وجود لغة مكتوبة تكون لغة الدواوين والرسائل والبروتوكول ... الخ .

من هنا كان على المغول أن يستعيروا أبجدية مكتوبة للغة المغولية وقد اختار جنكيز خان ابجدية الاويغور لتؤدى هذا الغرض .. ولعل هذا يذكرنا باللغة الفارسية الحديثة التى تستخدم أبجدية اللغة العربية فى الكتابة مع اختلاف دلالات الالفاظ بينهما.

لماذا اختار المغول مخطط الاويغورى :

كان بوسع جنكيز خان أن يختار ابجدية غير أبجدية الاويغور فقد كان بوسعه أن يختار ابجدية الصين أوالخوارزميين مثلا ، لكنه فضل ابجدية الاويغور لاسباب عدة منها :

١ – أن علاقات جنكيزخان مع الاويغور الذين جاوروا المغول فى الجنوب لم تكن علاقات عدائية كما أشرت عند الحديث عن القبائل المغولية . وقد هيأت هذه العلاقات

(١) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٢٤

(٢) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦٢

الفرصة لجنكز خان كي يبحث عما يستفيده من حضارة الاويغور .. وقد وجد ضالته .

٢ - كانت أبجدية اللغة الصينية تحتوي على رسوم كثيرة متداخلة تعد غاية في الصعوبة بالقياس الى المغول الذين كانوا بدوا لم يتعودوا بعد مثل هذا التداخل أوالتشابك.

٣ - انتشار الخط الاويغوري في آسيا الوسطى فعلى الرغم من الضعف السياسي الذي أصاب الاويغور.. فقد انتشرت الكتابة الاويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية حتى بعد سقوط دولتهم.(١)

أصل الخط الاويغوري :

كانت البعثات التبشيرية تجوب آسيا الوسطى طامعة في نشر الدين المسيحي هناك مستغلة تقوقع الديانة اليهودية على نفسها في تلك الانحاء وقبل أن يلوح في الافق نور الدين الاسلامي القادم من الغرب .

ولما كانت بلاد الاويغور تقع في مكان استراتيجي على طرق القوافل القادمة من التركستان وايران في اتجاه الصين او العكس فان رجال الدين المسيحي عملوا على نشر المسيحية بين الاويغور بكل طريقة ممكنة . وأغلب الظن أن تلك الكتابة الاويغورية قد علمهم اياها الكهنة المسيحيون الذين كانوا يتجولون في تلك الجهات منذ زمن طويل". (٢)

ومن هنا بدأ الاويغور يكتبون بالتدريج لغتهم التركية الخاصة بهم بذلك الخط السرياني وسرعان ماعرف ذلك بالخط الاويغوري. (٣)

اذن فالخط الاويغوري سرياني الاصل .. غير أن الاويغور الذين كانوا متحضرين كان عليهم أن يوازنوا بدقة بين هذا الخط السرياني وبين لغتهم التركية فأخذوا منه ما يلائم طبيعة لغتهم ، يقول الدكتور ستيفن رنسيمان (٣) " وابتكر الاويغور ابجدية للغة التركية استندت الى الحروف السريانية" وبمعنى آخر يمكن أن نقول أن الكتابة الاويغورية مشتقة عن الكتابة السريانية "

تركيب الخط الاويغوري :

كان طبيعيا أن يكون هذا الخط سهل التناول والتعليم حتى يتاح للمغول أن يتناولوه ويصف ابن عربشاه (٥) طبيعة هذا الخط الذي كان منتشرا في التركستان فيعهد جغتاي بن جنكيز خان وأولاده من بعده يقول : وأما الجغتاي (المغول) فلهم قلم يسمى (أويغور) وهو بالقلم المغولي مشهور وعدته أربعة عشر حرفا وسبب نقصانه وانحصاره في هذا العدد أن حروفه الحلق يكتبونها على هيئة واحدة ، وكذلك تلفظهم بها ، ومثل هذه الحروف المتقاربة في المخرج مثل الباء والفاء ومثل الزاي والسين والصاد ومثل الثاء والدال والطاء".

(١) د. عبد السلام فهمي : تاريخ الدولة المغولية في ايران ص ١٩
(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٨
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ص ٢٠
(٤) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤١١
(٥) د. ادوار بروي : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٦

وجدير بالذكر أن الخان الاعظم قوبيلاى قا آن الذى كان يقيم فى الصين ابـــان فترة ولايته حاول ان يستخدم هذا الخط الاويغورى فى الصين وان يجعله الخط الرسمـــى للبلاد ، لكنه قبل النهاية اتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين وما لبثوا أن استحالـــوا بفضل هذه الحضارة امة صينية" (١)

وهكذا لم يقدر للخط الاويغورى الذى استخدمه المغول فى كل مكان سيطروا عليـــه أن يغزو الابجدية الصينية العريقة ٠٠ وانى له ذلك ٠

استخدامات المغول للخط الاويغورى :

كشفت الايام عن صدق توقع جنكيز خان لاهمية الخط الاويغورى فى حياة المغـــول فقد كان عليهم بعد هدوء ثورة الغزو أن يتعاملوا مع الدول الاخرى بصيغة أخرى غير الحرب وقد تمثلت استخدامات المغول للخط الاويغورى فى جوانب عدة مهمة منها :

(أ) شئون الحكـم:

ويقصد بذلك التوقيعات التى تصدر عن الخان٠ وكذلك قراءة مراسيم التقليد للمناصـب العليا فى الدولة أو الخلع منها والمنشورات العامة التى تصدر بأمر الخان موجهة الى الرعيـــة والتى كان يطبع عليه خاتمة مكتوبا بالخط الاويغورى ٠ ثم هناك الرسائل التى يبعث بهـــا الخان الى الملوك والامراء والتى تعتبر وثائق تاريخية بالغة القيمة ٠٠ اذ لازالت رسالـــة ارغون خان الى فيليب الجميل ملك فرنسا باقية حتى الان وقد كتبت باللغة المغوليـــة وبحروف اويغورية" (٢) وقد ظل (أرغون) يراسل ملوك غرب أورباو البابا فى لغته المغوليـة برسائل مكتوبة بالخط الاويغورى طوال فترة حكمه" (٣)

(ب) اعمال ديوان الحكومة :

وقد تمثلت فى كتابة الرسائل الديوانية وسجلات الحسابات والضرائب وتقاسيم الاراضـــى التابعة للدولة وسجلات الموظفين وشئون العملة٠٠ الخ ٠

اذن صار المغول يدونون بالخط الاويغورى مختلف سجلاتهم وكتاباتهم (٤) ، والضرائـب ورجال البريد ورجال سك العملتان يستخدموا جميعا الخط الاويغورى فى عملهم٠

(ج) تسجيل القوانين والاحكام :

ويقصد بذلك تدوين الياسا بالخط الاويغورى فلقد كان جنكيز خان حريصا على تدويـن الياسا والاحتفاظ بها فى خزائن أمراء المغول أى أنها نسخت مرات عديدة حتى يتسنـــى توزيعها على الحكام والامراء المغول (٥)

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٥

(٢) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٠

(٣) د٠جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٢ نقلا عن دوسون ، تاريخ المغول ج ٤ ص ٥٩٢

(٤) د٠فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٠

(٥) المرجع السابق ص ٢٣٧ نقلا عن الجوينى تاريخ جهانكشاى ج ١ ص ١٧

وبالتأكيد فان تسجيل الياسا والاحتفاظ بها مخطوطة ـ قد ساعد على بقائها وانتشارها من عهد جنكيز خان حتى انهيار الدولة المغولية كلها .

(د) الاغراض التعليمية والثقافية :

ويقصد بها استخدام الخط الاويغورى فى بعض المدارس التى أقامها المغول وكذا تدوين بعض الكتب التى احتوتها المكتبات العامة التى اقيمت فى عهد المغول . حيث اتيح للغة المغول المكتوبة بالخط الاويغورى أن تظهر الى حيز الوجود بجوار اللغات الاخرى العريقة كالعربية والفارسية .

(هـ) الاعمال الادبية :

كان طبيعيا بعد أن هدأت حركة الغزو وتكشفت الامور أن يقارن المغول بين أنفسهم وبين الامم التى سيطروا عليها ولقد اكتشفوا أن الحضارات فى السلم أقوى تأثيرا فى كل أسلحة الدمار اثناء الحرب ولهذا سعى المغول الى ألوان من العلم والادب ما كان لهم أن يحصلوها لو ظلوا كما كانوا منغلقين داخل أسوار منغوليا القاحلة .

وعلى هذا فقد كان لهم حظ من تسجيل التاريخ والقصص والاخبار والاشعار والاسفار. عموما فقد أشار ابن عربشاه (١) الى ذلك كله فقال عن استخدامات الخط الاويغورى "وبهذا الخط يكتبون تواقيعهم ومراسيمهم ، ومناشيرهم ومكاتيبهم ودفاترهم ومخاتيمهم وتواريخهم واشعارهم وقصصهم واخبارهم وسجلاتهم وأسفارهم وجميع ما يتعلق بالامور الدنيوية و(التوراة) الجنكيزخانية .. والماهر فى هذا الخط لايبور بينهم لانه مفتاح الرزق عندهم"

تشجيع بعض العلماء والمفكرين

اتسمت حركة الغزو الاولى التى قادها جنكيزخان وأبناوءه معه بالابادة التامة والقتل الجماعى . فقد كان المغول مدفوعين الى الغزو بعوامل عدة منها الشعور بالنقص الحضارى تجاه الامم المجاورة المتحضرة كما كان يكرهون الزراعة والزراع . ولهذا لم يميزوا كثيرا فى بدء الغزو بين شخص وآخر فلم يكن لحضارة عندهم أية قيمة وبالتالى أجهزا على أدواتها وعلمائها ، يقول الدكتور أحمد شلبى (٣) : " وكانوا مدمرين يأتون على ما يقابلهم من مظاهر الحضارة يهدمون المبانى ويحرقون الكتب ويقتلون المفكرين والعلماء".

ويقول الدكتور الصياد (٤) :" وذبح العلماء والفضلاء كما تذبح الخراف حتى لقد وصل العلم الى درجة الانحطاط."

غير أن هذا كله قد بدأ يتغير تدريجيا عندما بدأت حركة الغزو العام تهدأ وأخذت الامور تتكشف ووجد جنكيز خان نفسه وجها لوجه أمام الحضارة والعلماء وتحرك فيه دافع

---

(١) عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ٣٤٨

(٣) موسوعة الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى ج ٥ ص ١٩٦

(٤) المغول فى التاريخ ص ٢١٧

الاستفادة بين كل شئ حوله. فكان عليه أن ينظر الى الامر بطريقة مختلفة. يقول الدكتور ستيفن رنسيمان (١) " واشتهر جنكيز خان باحترامه للعلم الصادق فكان دائما مستعدا لان يبقى على حياة كل عالم يظفر به غير أنه لسوء الحظ لم تتهيأ الفرصة الالفئة ضئيلة من ضحاياه ليثبتوا جدارتهم أوعلمهم"

وعموما فان المغول بعد جنكيز خان ازداد اهتمامهم بالعلماء والمفكرين لانهم وجدوا ان ذلك هو الطريقة المثلى . وفى عهد قوبيلاى قا أن . الذى عرف بتحضره وسعة أفقه وضح هذا الاهتمام ، فقد جمع قوبيلاى قا أن العلماء والادباء الذين كانوا قد اختفوا من هول المعارك وأمنهم على حياتهم ومهد لهم السبيل لكى يمضوا فى اداء رسالتهم فى هدوء وطمأنينة" . (٢)

وفى الحقيقة لم يكن قوبيلاى وحده هو الذى اتسم بهذا الموقف الحضارى. فهولاكو على ماعرف عنه من تفنن فى التدمير والهلاك كانت له مواقف مختلفة مع العلماء والمفكرين فى عصره يذكر (٣) رشيد الدين فضل الله الهمذانى ان هولاكو كان تواقا الى الحكمة يرغب الحكماء فى بحث علوم الاوائل وقد عين لهم المهايا والمراسيم وكان يزين بلاطه بالعلماء وكان رجال الكيمياء يحظون دائمابرعايته".

فهولاكو يشجع الحكماء وعلماء الكيمياء ويغدق عليهم العطايا والهبات يقول الكتبى ( ) اجتمع عند هولاكو جماعة من فضلاء العالم وجمع من حكماء مملكته فكان يطلق لهم الكثير من الاموال .

" وممايدل على اهتمام المغول برعاية العلماء والادباء ،بعد استقرارهم فى البلاد الاسلامية ما حبوا به أسرة الجوينى وما أسبغوه على أفرادها من عطف ، فكان لهذه الاسرة قصب السبق فى نشر العلوم والمعارف . (٥)

كذلك رعى اباقا الحركة العلمية كما رعى قائدها نصير الدين الطوسى ومن مظاهر ذلك حرصه على أن يستمر المرصد ــ الذى أنشأه أبوه هولاكو فى مراغة لهذا الغرض ــ فى أداء رسالته وتشجيعه الطلبة على السير قدما فى دراستهم حتى يقفوا على الدقائق العلمية ويحيطوا بها احاطة كاملة ، يذكر العلامة قطب الدين محمود الشيرازى الذى تتلمذ على نصير الدين ولازمه وقرأ عليه ــ أن أباقا اجتمع به فلقى منه الترحيب والتشجيع ، وكان مما قاله له.. أنت أفضل تلامذة النصير، وقد كبر وشارف على الموت فاجتهد حتى لايفوتك شئ من علمه" (٦)

وأيا كانت دوافعه وراء هذا الاتجاه فمما لاشك فيه أن هذه المواقف كانت لصالح العلم والعلماء ذاك أن المغول بعد أن كانوا مدمرين يكرهون الحضارة بدأوا يتوقفون عندها

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٨
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٣٦
(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٣٨
(٤) الكتبى : فوات الوفيات والذيل عليها ج ٤ ص ٢٤٠
(٥) حافظ أحمدحمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦٦
(٦) د. فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عهد اسرة الايلخانيين ص ١١٥

ويشجعون أصحابها على المضى قدما نحو زيادة الترقى والازدهار يقول الدكتور محمد موسى هنداوى (١) وبالرغم مما أصيب به هذا العصر من أحداث شهد وفرة من اجلة العلماء الذين برعوا فى مختلف الفنون سواء أكانت من العلوم النظرية أو العملية او المدنية و هذا يدل على أن البيئة نفسها وحسن معاملة بعض الحكام للرعايا والعلماء بصفة خاصة ،كانت تهيئ لهؤلاء العلماء طيب الحياة وحسن الانتاج".

وقد استمر هذا الاهتمام بالعلم والعلماء بعد الى فترة طويلة امتدت الى عهد غازان خان. يقول الدكتور فؤاد الصياد (٢) عن المؤرخ الشهير رشيد الدين فضل الله الهمذانى الذى كان وزيرا لغازان" وجد رشيد الدين الفرصة سانحة ليقدم الى السلطان غازان احد تلاميذه وهو المؤرخ الفارسى عبد الله بن فضل الله الشيرازى ليعرض عليه الاجزاء الثلاثة الاولى من مؤلفه الذى كتبه فى تاريخ المغول وعرف باسم" تاريخ وصاف" وقد مثل الوصاف أمام غازان خان وقدم مؤلفه له فلقى ترحيبا شديدا من السلطان. الذى سأل المؤلف عدة أسئلة تدور حول الموضوعات المختلفة التى تضمنها الكتاب ثم شجعه وأثنى عليه وأمر له بمنحة كانت عبارة عن لباس موشى بالذهب".

وهذا الموقف من غازان خان ينبئ عن تطور كبير فى مفهوم المغول فالحاكم لم يعد مجرد شخص يعطى الهبات وانما غدا مناقشا لاصحاب العلم ثم مشجعا لهم . اى أن الحاكم لم يعد أميا كما كان الحال فى أيام جنكيزخان.

فلا عجب أن صار العلماء والمفكرين – من وجهة نظر الحكام المغول – احق الناس بالتقدير فقد صارت لديهم رغبة صادقة فعلا فى تشجيع العلم والتوسع على العلماء وابلاغ بعضهم اسمى المناصب" (٣)

المؤسسات العلمية والادبية

لا يستطيع العلم أن يؤدى دوره من خلال النشاطات الفردية للافراد لان ذلك كفيل بأن يجعله مسألة خاصة جدا كتعليم أبناء الحكام أو الامراء .

وانما ينهض العلم بأداء وظائفه الحيوية والحضارية فى المجتمع عندما يستند الى مؤسسات علمية عامة تعمد الى نشر التعليم بشكل جماعى يستهدف رفع المستوى التعليمى للغالبية من أبناء المجتمع .

ولقد أشرت منذ قليل الى انتشار الجهل والامية بين المغول فى عهد جنكيز خان الذى أدرك خطورة الامر وأمر بتعليم اطفال المغول الخط الاويغورى ،وسعى الى تحقيق ذلك بكل وسيلة ممكنة كاستخدام الاسرى او المتطوعين فى خدمة المغول ممن كانت لهم دراية كافية فى هذا المجال.

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٨٤
(٢) مؤرخ المغول الكبير ص ١٣٣ نقلا عن وصاف – تاريخ وصاف ص ٤٠٩
(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٩٢

غير أن حياة الصراع فى عهد جنكيز خان لم تكن لتسمح بقيام هذا العمل التعليمى فى شكل جماعى فالمغول كانوا متجهين الى الغزو ومن ثمة فان مناخ الاستقرار الذى يهيىء فرصة اقامة هذه المدارس كان مفتقدا .

أولا : المدارس :

بدأ المغول يولون اهتمامهم الى انشاء المدارس منذ عهد (أوكتاى) الذى كان بطبيعته لين العريكة ميالا الى الخير على عكس اسلافه وأقرانه يقول هارولد لامب (١) " وبينما كان أوكتاى يشيد له بلاطا جديدا كان "يى .ليو. جوتساى ،يؤسس المدارس لاحداث المغول " .

وهذه العبارة وان كانت تشير الى اهتمام اوكتاى ببناء القصور فانها تنسب الفضل فى بناء المدارس للوزير الصينى الاصل " يى. ليو. جوتساى " .

وبالطبع فان مايعنينا هو أن هذه المدارس قد انشئت فعلا تحت رعاية عالم كبير وبموافقة الخان الاعظم الذى لم تكن ولايته بعيدة عن عهد الغزو.

ويبدو أن هذه المدارس كانت صغيرة الحجم فالطلاب مقيمون بالمدارس يتلقون العلم فيها وتتكفل الدولة او من ينشىء هذه المدارس بالانفاق عليها واعداد الوسائل التعليمية وكل مايحتاج اليه الطلاب والمدرسون من مختلف الشئون . فالمدارس بهذه الصفة لا تعد منشآت تعليمية فقط بل انها تعطى دلالة اجتماعية أيضا تشير الى رعاية علمية وانسانية فى نفس الوقت .

عموما فقد أثمرت تلك الجهود المخلصة واخرجت نتاجا لابأس به فقد نجح "يى . ليوجوتساى فى تشييد مدارس لتخريج شباب ذوى خبرة وكفاءة فى مدينة بكين" . (٢)

ولم يكن يى ليوجوتساى وحده هو الذى يبنى المدارس فى هذا العهد فقد كان الاغنياء من تجار المسلمين يشيدون المدارس فى العهد المغولى (٣) .

ويخيل الى أن هذه المدارس التى أقامها التجار المسلمون كانت مخصصة لتعليم أبناء المسلمين او لنشر تعاليم الدين الاسلامى الذى استمد تأييدا غير متوقع من أميرة مغولية مسيحية . فمع أن الاميرة (سيرقويتى) - أم الخان الاعظم منكو - كانت مسيحية الا أنها سلكت سلوكا حسنا مع الرعايا المسلمين فقد أقامت فى بخارى مدرسة على نفقتها الخاصة ووقفت عليها أوقافا كثيرة وعينت لها المدرسين ورعت شئون الطلبة" . (٤)

كذلك أنشأ (مسعود الخوارزمى) فى بخارى مدرسة كبيرة تعرف بالمسعودية خربها مغول ايران سنة ٦٧٣هـ ثم اعيد بناؤها ثم دفن فيها بانيها سنة ٦٨٩هـ وكان (مسعود) قد أنشأ مدرسة أخرى فى مدينة (كاشغر) . (٥)

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٥
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى لتاريخ ص ١٢٢
(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٣٠
(٤) د . فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٣٠ نقلا عن رشيد الدين ،جامع التواريخ ص ٢٧٣.
(٥) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٦

ويقول ارمنيوس فامبرى "ولم يأت عام ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ولما يمض خمسة عشر يوما على تخريب المكان حتى كانت المدرستان اللتان أقامهما مسعود بك.وسرقويتى تزدحمان بالوف الطلبة يدرسون فيهما مختلف صنوف المعرفة". (١)

فاذا سلمنابصحة الاعداد التى ذكرها "فامبرى" فان هذا يعطى استنتاجا بضخامة كلتا المدرستين وكثرة المدرسين العاملين فيهما. كماأن التنوع فى صنوف المعرفة يوحى بقيمة هذه المدارس ويعكس مدى اهتمام المغول بانتشار التعليم .

واذا كنا قد تحدثنا عن انشاء المدارس فى الصين الخاضعة للمغول أو فى منطقة التركستان وبخارى. وتلك كانت تابعة لجغتاى بن جنكيز خان وأولاده من بعده فان ايران قد حظت باهتمام أكبر منذ عهد هولاكو وابنائه من بعده فقد أعلن نصير الدين الطوسى عن افتتاح مدارس لكل من الفقه والحديث والطب والفلسفة وأنه سيتولى الانفاق على طلاب هذه المدارس" (٢)

وهكذا نرى تنوع مواد الدراسة بين دينية ممثلة فى الفقه و الحديث ودنيوية ممثلة فى الطب والفلسفة وما يجرى مجراهما منعلوم الفلك والكيمياء .

كذلك كان لعلاء الدين الجوينى دوره فى تشييد المدارس خاصة فى العراق. فقد جدد الجوينى كثيرا من المدارس المتداعية ومنها "المستنصرية" وهوالذى أنشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك" (٣)

ويبدو أن زوجة الجوينى كان لها دورها أيضا فى المساهمة فى انشاء بعض المدارس. اذ أمرت بانشاء مدرسة تكامل بناوءها فى سنة٦٧١هـ ووقفتها على الطوائف الاربعة" (٤) والظاهر أن هذه المدرسة قد اقيمت فى عهد اباقا بن هولاكو (١٢٦٥ ـ ١٢٨٢) كما أنها كانت مدرسة دينية لتعليم الفقه .

وقد زاد الاهتمام بانشاء المدارس وتخصيص الاوقاف لها فى عهد السلطان المغولى المسلم أحمد تكودار فقد ذكر السلطان أحمد تكودار فى رسالته الى السلطان قلاوون فى مصر انه أمر ببناء المساجد والمدارس والاوقاف فى مملكته". (٥)

أماعهد السلطان غازان الذى يعد البداية الحقيقية لانتصار الاسلام فى ايران على الديانات الاخرى فقد كانت هناك اصلاحات كثيرة قام بها السلطان محمود غازان فى نواحى امبراطوريته ومنها أنه أنشأ فى تبريز مدرسة". (٦)

---

(١) ارمينوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٥

(٢) حسن الامين : الغزو المغولي ص ١٥٦

(٢) نفس المصدر ص ١٨٥

(٤) د. محمود موسىهنداوى : سعد الشيرازى ص٨٢ نقلا عن الحوادث الجامعة ص٣٧٢

(٥) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٩

(٦) د.أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٦١

ويؤكد ذلك ما ذهب اليه جورج كيرك" (١) اذ يقول وحوالى سنة ١٣٠٠م قام أحد أحفاد هولاكو وكان قد اعتنق الاسلام (يقصد غازان) بربط بعض الاوقاف على مرصد ودار للكتب وبعض المدارس فى مدينة تبريز".

وهذه المدارس كان منها مدرستان احداهما للشافعية والاخرى للحنفية كما وجدت مدرسة لتدريس علوم الدنيا وقد عين لها المدرسون اللازمون". (٢)

ويبدو أن المقصود بعلوم الدنيا هنا هو علوم الحساب والجبر والفلك والطب ... الخ أما المدارس فى مملكة جوجى بن جنكيزخان (روسيا الحالية) فالظاهر أن بركة خان بن جوجى قد اهتم بانشائها اهتماما واضحا لانه رأى فيها وسيلة لنشر الدين الاسلامى الذى اعتنقه. يقول المقريزى (٣) واتخذ بركة خان المدارس وأكرم الفقهاء" ويؤكد ابن خلدون هذا القول مؤكدا على انتشار المدارس فى جميع أجزاء المملكة، يقول "واتخذ بركة خان المساجد والمدارس فى جميع بلاده" (٤)، أما بارتولد المستشرق الروسى فيؤكد على كثرة هذه المدارس التى كان الصبيان يحفظون فيها القرآن الكريم على غرار الكتاتيب التى كانت منتشرة فى الريف المصرى منذ فترة غير بعيدة. يقول " وفى مملكة بركة خان كانت مدارس تحفيظ القرآن للصبيان كثيرة". (٥)

ولعله اتضح مما سبق أن معظم المدارس التى أقامها المغول فى البلاد المفتوحة كانت اسلامية تدرس العلوم الدينية فى المقام الاول وبعض علوم الدنيا الى جوارها عدا تلك المدارس التى أقامها الوزير (يى . ليو . كوتساى) فى الصين أو المدارس التى أقامها الامير (كورغوز) فلقد كانت الاخيرة مدارس مسيحية صرفة تدرس المذهب النسطورى . اذ أن الامير (كورغوز) الذى كان حفيدا من جهة والدته للامبراطور قوبيلاى لم ينقطع بهذه الصفة عن استخدام نفوذه فى البلاط لخير المسيحيين فأسس المدارس والكنائس النسطورية". (٦)

ثانيا : المعاهد العلمية المتخصصة

ويقصد بها تلك المعاهد المتخصصة التى تدرس فيها العلوم والاداب والفنون على مستوى عال يتمم الدور الذى تنهض به المدارس العادية، وبعبارة أخرى صارت هذه المعاهد مجالا أرحب وأشمل لدراسة علوم الفلك والكيمياء والفيزياء وكذلك اداب الفلسفة والمنطق اضافة الى بعض الفنون الاخرى كالرسم والتصوير والنقش .. الخ .

١ - معهد بكين :

لا أحد ينكر حضارة الصين وازدهار العلوم فيها منذ أزمان طويلة ، غير أن هذا كله كان كفيلا بأن يتعرض للاضطراب أو الضياع نتيجة الغزو المغولى الذى قاده جنكيز خان وخلفاؤه من بعده.

---

(١) موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٩، ٨٠

(٢) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٨١

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٠٩

(٤) العبر ، ج ٥ ص ٥٣٤

(٥) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٨

(٦) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٤ ص ٣٨٤

١ - معهد بكيـن :

لا أحد ينكر حضارة الصين وازدهار العلوم فيها منذ أزمان طويلة ٠ غير أن هذا كله كان كفيلا بأن يتعرض للاضطراب أوالضياع نتيجة الغزو المغولى الذى قاده جنكيز خـــان وخلفاؤه من بعده ٠

فلما ارتقى قوبيلاى قا أن عرش الامبراطورية المغولية ٠٠ ونقل عاصمتها من (قراقورم) مدينة الصحراء الى عمق الاراضى الصينية٠ فرأى تأثرا باستاذه الصينى لى لبو جوتساى أن يوءزر الحركة العلمية فى البلاد " فكان أن افتتح المجمع العلمى الامبراطورى فى الصين" (١)

وبالطبع لم يكن انشاء هذا المجمع وليد الوجود المغولى فى الصين بل هو نتـــاج مجهودات حضارية سابقة نهض بها علماء صينيون ٠ ورأى قوبيلاى أن يقود الامر بنفسه فيفتتح تلكا لمنشأة الاكاديمية فبرهن بذلك على سعة أفق ونضوج حضارى ٠

لكن السوءال الذى يتبادر الى الذهن ٠ هو ما مدى استفادة أبناء المغول المقيميـــن فى الصين أوالوافدين اليها من هذا المعهد؟

أغلب الظن انهم ان كانوا قد استفادوا فان استفادة أبناء الصين والامم الأخرى مـــن هذا المعهد كانت أكبر ٠٠ ذاك اننا لم نسمع عن عالم مغولى تخرج فى الصين ٠

عموما فان مجرد اقامة هذا المعهد فى بكين فى عهد المغول لهو دلالة مباشرة توءكـد تغير نظرة المغول الى العلم والموءسسات التعليمية بل والى العلماء والمتعلمين من مختلـف الامم الاخرى ٠

٢ - معهد مراغـــة :

وقد كانت نشأته مقترنة بالمرصد المراغى الذى أقيم فى عهد هولاكو الذى نهض بالعـبء الاكبر فيه العالم نصير الدين الطوسى ٠٠ يقول حسن الامين" وقصد فخر الدين الطوسـى الى اربل والموصل والجزيرة والشام فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم من دمشق وقزويـــــن وتفليس وغير ذلك من البلاد الاخرى ،وتحلقوا حول نصير الدين يعدون العدة لانشاء أكبـــر معهد علمى عرفه العالم الاسلامى فكان ذلك بمثابة معجزة القرن السابع وصار أول أكاديميـــة علمية فى الشرق بالمعنى العلمى الحديث بل أول جامعة حقيقية من النوع الذى نعرفه اليوم" (٢)

هذا ٠٠ وبوسعنا أن نلاحظ هنا عدة أمور :

أ - أن نصير الدين الطوسى لم يكن مجرد عالم يعيش بين أدواته وتجاربه وقد اعتـــزل فى مرصده ٠ وانما كان رجل وداعية حضارة استشعر حاجة المسلمين الى العالم فسعى اليهم كي يسعوا اليه ٠

ب - تنوع الاجناس التى سعت الى الالتحاق بهذا المعهد واتحادها فى الهدف وهوالسعـى وراء العلم الصحيح٠

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٥، د٠ السيد العرينى،المغول ص ٢٥

(٢) الغزو المغولى ،ص ١٥٧ ، ١٥٨٠

جـ - تنوع العلوم والاداب التى كانت تدرس فى هذا المعهد بصورة لم تكن ملحوظة من قبل اذ أن نصير الدين وهو رجل فلك وعلوم كان يهتم أيضا بعلوم الفلسفة و المنطق والفقه.

عموما فان مايعنينا من وجود هذين المعهدين انهما صارا مثالين شاهدين على نمو الحياة العلمية وتطورها فى عهد المغول مما قد يدفع المرء الى استنتاج وجود غيرهما على غرارهما فى مناطق أخرى ابان هذا العصر.

ثالثا : المراصد الفلكية

جاء ظهور المراصد فى العصر المغولى دلالة علمية صادقة على التغيير الذى طرأ على حياة المغول فبعد أن كانوا يلجأون الى أساليب الشعوذة والخرافات والسحر أصبح لديهم اهتمام حقيقى بالعلم والنتائج التى يكشف عنها العلماء المتخصصون.

وبالطبع كانت المراصد معروفة قبل أن يظهر المغول على مسرح الاحداث كقوة عسكرية مسيطرة فقلاع الاسماعيلية كانت تحتوى على مرصد ضخم فى قلعة (آلموت) حيث كان يعمل العالم الفلكى نصير الدين الطوسى فى خدمتهم . ذلك المرصد الذى استحوذ عطا ملك الجوينى على معظم أدواته بعد سقوط معاقل الاسماعيلية فى يد هولاكو الواحدة تلو الاخرى." اذ استطاع أن يستأذن (هولاكو) فى أن يحتجز لنفسه جملة من الادوات التى استخدمها الاسماعيلية فى قلعة (آلموت) . (١)

١ - مرصد مراغة :

وهو المرصد الذى أقامه هولاكو فى حاضرته مراغة التى تقع بالقرب من تبريز فى مقاطعة اذربيجان الحالية، وقد اختلفت آراء المؤرخين حول فكرة انشاء هذا المرصد فالبعض يردها الى الخان الاعظم منكو والبعض يراها انعكاسا لرغبة هولاكو الذى كان يحب هذه العلوم دون أن يتعقلها - كما رأوا فيه ذلك - والبعض الاخير يراها فكرة العالم نصير الدين الطوسى الذى كان خبيرا بأعمال المراصد .

يقول رشيد الدين فضل الله الهمذانى (٢) " وكان منكو قا ان من بين ملوك المغول يمتاز بكمال العقل والكياسة وذكاء الذهن والفراسة فاقتضى رأيه السديد أن يشيد مرصدا فى عهده المبارك ولهذا أمر هولاكو خان ان يشيد هذا المرصد فى ايران.

ويقول جورج كيرك" (٣) وهولاكو بما أملته سجيته العامية المولعة بالفلك الكاذبة (طوالع النجوم) الذى يزعم مروجوه بأنه ينبئ عن المستقبل قام بانشاء مرصد فلكى بحاضرته المراغة بالقرب من تبريز .

ويقول المقريزى (٤) " وفى سنة ٦٥٧ هـ بنى هولاكو المرصد بمدينة مراغة باشارة الخواجة نصير الدين محمد الطوسى".

---

(١) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٨٢

(٢) جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٥٧

(٣) موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٩، ٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك .جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٠

وبعد أن عرضت الاراء الثلاثة فانه يمكن القول أن الفكرة قد نبتت فى ذهن منكو الخان الاعظم ثم تولى هولاكو تنفيذها فيمابعد موت منكو وتم هذا التنفيذ بمعرفة نصير الدين الطوسى ومرافقيه (١) ، ويقول رشيد الدين فضل الله الهمذانى :" وقد صدر امر هولاكو بأن ينشئ الخواجة نصير الدين الطوسى مرصدا للكواكب فى الموضع الذى يراه مناسبا فاختار مدينة مراغة لهذا الغرض وشيد مرصدا مرتفعا وقد أنشئ المرصد الايلخانى بعد مضى سبع سنوات من جلوس هولاكو خان على العرش وكان ذلك بمشاركة الحكماء الاربعة مؤيد الدين العرضى وفخر لدين المراغى وفخر الدين الاخلاطى ونجم الدين ونران القزوينى". (٢)

عموما ـ فقد كان هذا المرصد نموذجا ممتازا بالقياس الى المراصد التى سبقته أو عاصرته وقد طبقت شهرته الافاق.. فقد كان المرصد فى مراغة باذربيجان مجهزا بأدق الاجهزة العلمية فى زمانه".

٢ ـ مرصد بكين :

لم يشأ قوبيلاى قا أن الذى خلف أخاه منكو فى الخاقانية أن يكون أقل تحضرا عنه أو عن أخيهما الاخر هولاكو. فقد رأى أن يقيم فى الصين مرصدا ضخما يكافئ فى القدرة والمكانة مرصد مراغة . فبنى مرصدا فلكيا على سور مدينة خان بالق (بكين الحالية) ونصب فيه عددا من الالات الفلكية من صنع" كيو . شو. شيج" (٣)

أى أن هذا المرصد مستقل فى تكوينه وادائه فهو صينى صرف ادواته صينية وعلماؤه صينيون . مما يشير الى تنوع المراصد فى عهد المغول وبالتالى الى عظم جدواها وامتداد تأثيرها .

٣ ـ مرصد تبريز:

أقيم هذا المرصد فى عهد الايلخان المسلم غازان الذى أولى اهتماما كبيرا بالعلم والعلماء فى مختلف العلوم والاداب والفنون. فكان أن أقام هذا المرصد كأحد الابنية التى انشئت ـ فى حياته ـ حول مقبرته فى مدينة تبريز. (٤)

ولم يكن هذا المرصد عملا ثانويا أو شكليا وأغلب الظن أنه كان على غرار المرصد الذى أقيم فى مراغة (٥) . فاذا قدرنا أن المرصد المراغى شرع فى اقامته سنة٦٥٧هـ على حين اقيم هذا المرصد فى حوالى ٧٠٠ هـ ادركنا مدى تواصل اهتمام المغول باقامة المراصد باعتبارها دليلا على نهضة حضارية تهتم بالعلم .

ففى عام ٦٩٩ هـ عاد غازان الى ايران ونزل بمدينة مراغة وذهب فى اليوم التالى لمشاهدة المرصد حيث تفقد كل أعماله وآلاته بدقة وتأن، وسأل المختصين عن كل منها، وفهم دقائق كثيرة رغم صعوبتها وتعقيدها، وأمر باقامة مرصد جديد اخر بجانب القبة العالية

---

(١) جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٠٤

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٦

(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٢٨

(٤) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير ص ١٢٧

(٥) د. محمد موسى هنداوى، سعد الشيرازى ص ٠٨١

بموضع "شام" يختص بعدة أعمال شرحها كلها بالتفصيل حتى أن الحاضرين من الحكماء عجبوا لحسن استنباطه وبدأوا فى صنع المرصد الجديد وأتموه حسب تعليماته.. وبذلك نجح المشروع" (١).

٤ - المكتبات العامة :

ظاهرة فكرية وحضارية تدل على ارتقاء المجتمع ونمو ثقافته وعندما تؤدى دورها كاملا فانها تسهم فى رفع المستوى الثقافى والحضارى للمترددين عليها بما يجعلهم أهلا للمساهمة فى تطوير مجتمعهم والاتجاه به الى أفضل سبل الحياة الكريمة.

والمكتبات اية من آيات القرار والعمران .ولذا فهى تتصل دائما وترتبط بحياة المدن المستقرة المتحضرة. ولما كان المغول أهل بداوة وترحال لا أهل علم وكتاب واستقرار . فلم يكن لديهم مكتبات ولاهم يرغبون فى وجودها عندهم أو حتى عند غيرهم .

ولهذا تحرك عامل النقص بداخلهم عندما واجهتهم المكتبات العامة فى الدول المجاورة المتحضرة. فكان طبيعيا أن يكون موقفهم عدائيا ومدمرا يقول الدكتور أحمد شلبى (٢) "وكانوا مدمرين يأتون على ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ويهدمون المبانى ويحرقون الكتب".

ويقول الدكتور براون" وكان جنكيز خان وهولاكو يحرقان الكتب ويجعلان الكتب الثمينة طعاما للنيران والمواقد ". (٣)

ولم يكن الحريق أو الغرق أو التبديد فقط وسائل اهلاك الكتب وانما كانت هناك طريقة أخرى ، ففى سنة ٦٥٨ هـ خرب الاشرف موسى سور قلعة حماه بأمر هولاكو وأحرق زردخانها وبيعت الكتب التى بدار السلطنة بأبخس الاثمان". (٤)

وهكذا رأينا المصير المؤلم الذى استهلك كتبا قيمة بذلت فيها مجهودات شاقة وانفقت عليها اموال طائلة .

غير أن هذا الاتجاه المدمر عند المغول حيال الكتب والمكتبات لدى الدول المتحضرة كان يقابله تيار حضارى قوى يحاول باستماتة انقاذ الكتب من خطر الابادة . "فالعالم الصينى (يى . لبيو. جوتساى) كان مايشغله حقا هو انقاذ الكتب الثمينة من الحرق والغرق فكان بذلك يؤدى خدمة جليلة فى سبيل العلم والثقافة وهذا هوالعمل الذى سيقوم به بعد نصف قرن الخواجة نصير الدين الطوسى فقد شاء القدر أن يكون هذا الرجل فى خدمة سفاك آخر هو هولاكو". (٥)

وسنحاول أن نعرض الان نماذج لاهم المكتبات التى عاصرت المغول.

---

(١) د. فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عهد اسرة الايلخانيين ص ٣٣٨
(٢) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٥ ص ١٩٦
(٣) تاريخ الادب فى ايران ص ٢٢
(٤) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٠٥
(٥) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠١، نقلا عن عباس اقبال، تاريخ مفصل ، ايران جـ ١ ص ٧٧

(أ) مكتبة المـوت :

وهى المكتبة الشهيرة التى اقتناها زعماء الاسماعيلية فى قلعة (آلموت) وكانت تحتـوى على مجلدات ضخمة فى مختلف صنوف العلم والمعرفة وخصوصا فى مجال علوم الرصـد والرياضيات والفلسفة والتشيع .

فلما سقطت القلعة الحصينة أصبح مصير المكتبة وما بها مهددا بالهلاك ،وقد بـادر الطوسى بالتدخل فى الامر لانقاذ كتب الرصد وغيرها وشاركه فى العمل الحضارى عالم آخـر كبير يقول الدكتور براون " وقد استطاع "عطا ملك الجوينى". ان يستأذن مولاه (هولاكـو) فى أن يحتجز لنفسه جملة من التواليف القيمة التى اشتملت عليها مكتبة (آلموت) الشهيرة" (١)

وهكذا قدر للكتب فى هذه المكتبة أن تنجو من خطر الابادة .

(ب) مكتبة بغداد :

وقد كانت ذات شهرة عالمية ففيها نتاج خمسة قرون فبالاضافة الى الكتب المترجمة الـى اللغة العربية من اليونانية والفارسية والهندية .. الخ كان هناك كتب قيمة عظيمة الاثـر نهض بتأليفها كبار علماء المسلمين فى مختلف المجالات العلمية والفكرية والادبية وحوت فـى معظمها مبتكرات جديدة توصل اليها هؤلاء العلماء مهتدين بالقرآن والسنة ومد عميق بـروح جديدة لمنهج البحث العلمى القائم على الملاحظة والفرض والتجربة والاستقراء.

وأغلب الظن أن مبنى المكتبة قد دمر تماما أثناء هجوم المغول على بغداد بقيـادة هولاكو - يقول سيد أمير على "والتهمت النيران تأليف كبار العلماء والقيت الكتب طعمة للنيران أو فى مياه دجلة" (٢)

ويقول ابن خلدون" والقيت كتب العلم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمـون بكتب الفرس عند فتح المدائن" (٣)

ولا يمكن للمرء أن يوافق على هذا الزعم فالمغول لم ينصبوا أنفسهم حماة لتـراث الفرس أوغيرهم ولم تكن الكتب لتعينهم فى شئ سواء أكانت للمسلمين أو لغيرهم .. وهـذا هو هولاكو قد سمح للطوسى والجوينى ان يأخذا كل مايرغبان فيه من كتب الاسماعيلية فـى مكتبة (آلموت) .

يقول الدكتور محمد موسى هنداوى (٤) "ومصير مكتبات بغداد لا يعدو أن يكون واحدا من ثلاث : اما أنها آحرقت عمدا أو عرضا وأما أنها القيت فى دجلة واما أنها نهبت .. وأسلم الاراء ان المكتبة ان كانت قد تعرضت لشئ فان الكتب قد توزعت أثناء الحصار أو نقلـت بعده طوعا لرغبات المغول .. وعلى أى الحالات لم يؤثر هذا أو ذاك قليلا أو كثيرا فـى سير موكب الحضارة على الصورة التى يصورها المؤرخون".

وفى رأيى أن هولاكو كان حانقا على الخليفة التى اتسمت رسائله اليه بالعنف والصلف.. وعلى البغداديين الذين حاولوا مقاومته ومن هنا كان التدمير شاملا دون تدقيق أو تفكير فى نوعية الشئ المدمر.

---

(١) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص٥٨٢، د.العرينى: المغول ص٢٨٠

(٢) سيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص٣٤٧،على ظريف الاعظمى، مختصر تاريخ بغداد ص ١٢٣

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٥٤٣

(٤) سعد الشيرازى ص ٤٧، ٥٠

وعليه فالكتب تعرضت لكل الصور السابقة معا الحرق والغرق والتبديد .. ورغم ذلك ـ ونتيجة لضخامتها وكثرتها ـ لم تفقد كلها .

وما تبقى منها نقل من بغداد الى غيرها . أو ظل بها الى حين .

أما قول الدكتور محمد موسى هنداوى ـ ان هذا الامر لم يؤثر فى سير الحضارة بصورة أو بأخرى فهو رأى مدفوع بالمقابلة مع اراء المؤرخين الذين بالغوا بعض الشئ فى تصوير الاثر الناجم عن تبديد الكتب القيمة .

غير أن الحقيقة تقول ان مؤلفات دقيقة ومصنفات رائعة قد فقدت فعلا وانها كانت من الجودة والاتقان بحيث لا يمكن تعويضها .

عموما فقد سقطت بغداد وهدأت ثورة الاحداث ونشط رجال الحضارة فعملوا على معالجة الامر بكل صورة ممكنة . فأسرعوا الى جمع الكتب المتبقية فارسلوا بعضها الى مراغة واحتفظوا ببعضها فى بغداد نفسها فقد أنشأ الجوينى فى بغداد عندما تولى ادارتها جملة من دور الكتب" .(١)

ولقد كانت أهم هذه الدور جميعا المكتبة المستنصرية التى أشرف عليها فى بغداد ابن الفوطى بتكليف من عطا ملك الجوينى. وكانت آنذاك أعظم مكتبة عامة فى العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر اذ عكف ابن الفوطى على عمله بنفس الدقة والاتقان والتنظيم الذى عرف به ، كما أنشأ ابن الفوطى لنفسه مكتبة خاصة كانت تحجه للعالمين والمتعلمين البغداديين ومقصدا للطارئين الوافدين من كل الاصقاع .(٢)

غاية الامر .. أن المكتبات فى بغداد قد عاودت نشاطها ـ رغم التخريب ـ عندما تولى أمرها رجال على درجة عالية من الثقافة والتحضير فكان ان افتنوا فى تنظيمها وبرهنوا على رقيهم باقتنائهم لمكتبات خاصة على مستوى عال .

(جـ) مكتبة المرصد :

كان هولاكو قد اختار مدينة مراغة باقليم اذربيجان لتكون عاصمة له و اهتم بعمرانها وتجميلها حتى تليق به فرأى أن يضيف اليها مظهرا من مظاهر العظمة فقام بانشاء دار للكتب فيها" (٣)

وكان من الطبيعى أن يكلف نصير الدين الطوسى العالم بالاشراف عليها .(٤)

ويبدو أن هذه المكتبة كانت على درجة عالية من التنظيم والدقة وتنوع المصادر فقد جمعت بين كتب بغداد وكتب الاسماعيلية التى استنقذها من الهلاك الجوينى والطوسى الذى عهد الى تلميذه ابن الفوطى بادارتها فنهض بعمله على أتم وجه . يقول حسن الأمين(٥) :

---

(١) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٥

(٢) نفس المصدر ص ٨، ٩

(٣) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٩

(٤) د. أنور الجندى : الموسوعة الاسلامية والعربية ج ٥ ص ٢٢٧

(٥) الغزو المغولى ص ٧

" وكان من أعظم انجازات الطوسى حرصه على انقاذ الكتب وجمعها فى مكتبة أخرى وصونها من أيدى المخربين والعابثين وبعد أن تم له ذلك وقامت المكتبة عهد بالاشراف عليها الى تلميذه ابن الفوطى الذى وضع لها نظاما دقيقا يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرفون كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفا ممتعا وذكر فيه تراجم المؤلفين وزيارتهم للمكتبة وبعض اثارهم".

ونلاحظ أن هذا النظام المتقن لا يختلف كثيرا عن احدث نظم الاعارة فى المكتبات العامة الان . بل ان المكتبات العامة الان تفتقر لزيارة المؤلفين المعاصرين لها واقامة ندوات ثقافية فيها حول مؤلفاتهم أو مؤلفات غيرهم بما يثرى نشاط المكتبة ويجعله أكثر نضجا وجدوى .

(د) مكتبات تبريز :

كان آباقا بن هولاكو قد اختار مدينة تبريز عاصمة له بعد أن خلف أباه فى الحكم وهى مدينة قريبة من مدينة مراغة .. يقول الدكتور محمد موسى هنداوى (١) : "وفى تبريز أنشئ فى عهد المغول مكتبة".

ونحن لا نستطيع ان نجزم بأن هذا الانشاء تم فى عهد اباقا أو غيره . لكن انشاء المكتبة فى عهد المغول هو بلا شك ظاهرة ايجابية .

ويقول الدكتور فؤاد الصياد (٢) " وحول مقبرة غازان فى تبريز شيدت عدة مبان كان من أهمها مكتبة كما كان يوجد بيت القانون المخصص لحفظ كتب القوانين التى وضعت فى عهد غازان".

وهذا الرأى يؤكد أن المكتبة قد أقيمت فى عهد غازان الذى اشرف على بناء مقبرته وما حولها بنفسه قبل مماته رغم أنه توفى قبل سن الاربعين .

كما أن تخصيص مكان لحفظ الكتب القانونية يعد رمزا حضاريا للاهتمام بالكتاب والحرص عليه من الضياع او التبديد. بل ان بعض الايلخانات فى ايران كانوا قد بدأوا يهتمون باقتناء الكتب فقد ضم غازان " كتبا مزوقة يتجلى فيها المزج بين العناصر الايرانية والعراقية، الأمر الذى ساد سائر الفنون الاخرى ، هذا الى جانب وجود تأثيرات صينية قوية تتمثل فى رسوم بالحبر تحكى أساليب عصر أسرتى سونج ديوان ، ومن الامور الشائعة تعدد اكثر من أسلوب فنى فى كتاب واحد بل وفى صحيفة واحدة أيضا وندرك هذا بوضوح فى نسخة من كتاب "منافع الحيوان" ، وكانت قد نسخت فى مراغة للسلطان غازان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) وبعض صور هذه النسخة ـ التسعة والاربعين من أسلوب مدرسة العراق ـ الذى يبدو أنه لم يفقد قوته بعد . أما بقية التصاوير فيظهر فيها التأثر الواضح بالاساليب الصينية". (٣).

---

(١) سعد الشيرازى ص ٨١

(٢) مؤرخ المغول الكبير ص ١٢٧

(٣) د. أ.ج. أربرى تراث فارس ص ١٨٤ ، ترجمة الدكتور أحمد عيسى .

حركة الترجمة والتأليف :

وهى حركة ارتبطت ولا شك بالكتب والمكتبات وتعاون الادباء والعلماء فقد احتك المغول فى الفترة التى اتحدث عنها بشعوب مختلفة فى آسيا وأوربا ، وبالتالى بلغات مختلفة كالصينية والاويغورية والفارسية والعربية والهندية وبعض اللغات الاوربية .

فلما استقرت الاحوال وهدأت الحروب زادالاتصال بين هذه اللغات ونشطت حركة الترجمة بين اللغات المختلفة معتمدة على عناصر عديدة منها :

(أ) المعلمـــون :

وأولئك كانوا يجيدون اللغات المختلفة أو بعضها حتى يتمكنوا من أداء دورهم بكفاءة فقد كان المعلمون الصينيون والارمن والفرس وغيرهم يساعدون كل من كانوا يتكلمون لغات مختلفة حتى يمكنهم أن يحدثوابعضهم بعضا". (١)

(ب) العلمـــاء :

وأولئك كانوا من جنسيات مختلفة أيضا ووجدوا فى ظروف الاستقرار التى أعقبت الحروب وكذلك تشجيع الحكام المغول فرصة لممارسة الوان من البحث والدراسة والعمل فى خدمة العلم والادب وكانوا على دراية بعدد من اللغات الاخرى " اذ كان المغول قد جمعوا بينهم علماء كثيرين من بلاد مختلفة يمكنهم قراءة انواع الكتابة واللغات المتباينة". (٢)

(ج) رجال الادارة :

ويقصد بهم بعض كتبة الدواوين العاملين فى ديوان الحاكم المغولى وأولئك كان عليهم ترجمة الرسائل المتبادلة بين المغول وغيرهم وكذلك تقديم التقارير الدورية الى الحكام فيما يتعلق بأحوال الشعوبغير المغولية الخاضعة للمغول واستلزم الامر منهم معرفة تامة ببعض اللغات الاجنبية حتى يتسنى تسيير شئون الدولة وبخاصة فى الشئون الخارجية.

على أن أهم لغتين ترجم عنهما أو اليهما أو بينهما كانتا المغولية والفارسية خصوصا فى المناطق الاسلامية التى خضعت للمغول ، فعلى سبيل المثال ترجم كتاب كليلة ودمنة وهومجموعة قصص هندية من الفارسية الى المغولية(٣) . ومعروف أنهذه القصص وردت على ألسنة الحيوان والطير وكتبها الفيلسوف الهندى بيدبا للملك الظالم"ديشليم" كنصائح غير مباشرة كى يستنير بها فى حكمه وفى علاقاته بالمحكومين".

عموما فقد أسفرت حركة الترجمة فى هذا العصر عن نتائج عدة :

١ - ازدهار اللغة المغولية :

وهى اللغة التى اعتمدت على ابجدية الاويغور - كما ذكرت - وكثرت الترجمة اليها من اللغات الاخرى لانها لغة الطبقة الحاكمة ولغة الدواوين ولغة الياسا وباختصار كانت لغة المنتصر الغالب.

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٤
(٢) نفس المصدر ص ٩٦
(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٣

٢ - تفوق اللغة الفارسية فى ايران :

فقد غدت لغة الفكر والثقافة وتبوأت مركز الصدارة فى ايران مستفيدة من مواقف عديدة تحركت لصالحها منها ٠

(أ) تراجع مكانة اللغة العربية فى ايران وماجاورها من التركستان متأثرة بسقوط بغداد وتبديد معظم التراث العربى بمكتباتها وفرار الناجين من العلماء والادباء الى مصر خشية اذى المغول ٠

يقول الدكتور براون (١) " ان تحطيم بغداد أصاب مكانة اللغة العربية بضربة قاصمة فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى السابع الهجرى ، لم نعد نصادف الا القليل النادر من الكتب العربية التى تم تأليفها فى ايران " ٠

(ب) توقف الانتاج الادبى والعلمى فى منطقة العراق والشام نتيجة للحروب الطاحنة التى أشعلها هولاكو وخلفاؤه ضد المسلمين العرب والتى كانت مستمرة بصورة لا تنقطع حتى فى عهد الايلخان المسلم محمود غازان ٠

(ج) ارتفاع شأن كثير من المدن الايرانية فى ظل الحكم المغولى مثل مراغة وتبريز والسلطانية وغيرهم بالمقارنة لحالة بغداد وما حولها ٠

(د) ظهور جماعة من المؤرخين والادباء والعلماء الايرانيين حظوا بتشجيع الحكام المغول فى ايران فعمدوا الى احياء لغة الفرس دون المساس بدينهم الاسلامى فكان ان كتبوا بالفارسية فى مختلف الفنون والعلوم وترجموا اليها أيضا ٠

وهكذا تقلصت مكانة اللغة العربية فى ايران على عهد المغول فعدت مقصورة على مؤلفات يسيرة واحتفظت بمكانتها كلغة للقرآن الكريم والشعائر الدينية الاسلامية ، وأفسح المجال أمام اللغة الفارسية ٠ ويقول الدكتور جرانفيل براون " وقد عاش مؤرخان اثنان أثناء حكم غازان ٦٩٥ هـ - ٧٠٤ هـ ، وهما عبد الله فضل الشيرازى المعروف باسم " وصاف الحضرة " والوزير رشيد الدين وكلاهما من أكبر الكتاب الذين دونوا التاريخ باللغة الفارسية " ٠ (٢)

وبالاضافة الى أولئك كان هناك البناكتى صاحب كتاب روضة اولى الالباب فى تواريخ الاكابر والانساب ، ومحمد بن خاوندشاه المعروف بميراخواند صاحب كتاب روضة الصفا ، وغياث الذين خواندمير صاحب كتاب حبيب السير وغيرهم ٠

وهكذا اضحت اللغة الفارسية لغة منتشرة فنشطت حركة الترجمة اليها ومنها فازدادت ثراءا وانتشارا وتأثيرا ٠ وتنوعت فنون الكتابة بها شعرا ونثرا ٠ حتى أن تاريخ المغول بها فى عهد محمود غازان رغم أن وثائق كثيرة لهذا التاريخ كانت مكتوبة بلغة المغول ذات الابجدية الاويغورية ٠

---

(١) تاريخ الادب فى ايران ص ٥٨٦

(٢) د٠ جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٤

ازالة الحواجز العلمية والثقافية :

ويقصد بذلك تقريب المسافات بين الشعوب واتاحة الفرصة للتعرف على أنماط جديدة من السلوك والفكر والعلم ومما يؤكد ذلك وضوح بعض الاثار الفنية كالنقش والرسم عند الصينيين في الاعمال الفنية الايرانية والعكس فيما يتعلق بأعمال المراصد الفلكية أوالفنون العسكرية.

فاذا كانت الحروب العسكرية المغولية قد غيرت فى الخريطة السياسية فى آسيا فان الترجمة قد قربت من التباعد الثقافى والحضارى بين الشعوب فى تلك المناطق المتباعدة جغرافيا .. فمن المؤكد أن بعضا من كتب الحضارة الاسلامية قد انتقل الى الصين فى هذه الفترة والعكس صحيح أيضا لان الشعارات والبعثات وأعمال التجارة كانت دائمة لاتنقطع.

٤ - نمو حركة التأليف :

فقد استطاعت حركة الترجمة بالاضافة الى المكتبات العامة والخاصة ووفرة العلماء والادباء وفى جو من مؤازرة الحكام المغول أن تساهم فى نمو حركة التأليف وبخاصة فى ايران . فجاء الانتاج التأليفى وفيرا وراقيا ومقنعا بقدر أكبر من الدقة والتمييز. يقول الدكتور فؤاد الصياد (١) : " ان الذين لديهم أقل معرفة بالعلوم والاداب الاسلامية يمكنهم أن يلاحظوا التفاوت الفاحش بين الكتب والمؤلفات التى ألفت قبل استيلاء المغول والكتب والاثار التى ظهرت بعد تلكا لحملة".

وهذا الرأى المقارن يشير الى حالة الجمود والتداعى ، والترهل التى أصابت الحياة العامة وحركة التأليف قبيل الغزو المغولى . وكيف تبدلت تدريجيا ابان العهد المغولى على ما فيه من دمار ودماء بما يدفعنا الى القول أن تشجيع الحكام المغول لحركة الترجمة والتأليف كان من أبرز دوافع النمو الثقافى فى هذا العهد . يقول الدكتور أنور الجندى (٢) " وخطا قوبيلاى خطوة رائعة فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقل اليها المؤلفات من بغداد" .

وكان طبيعيا أن ينعكس على هذه الروح المتحضرة على مختلف ولاة الامر فى الدولة " فقد شجع الجوينى حركة التأليف والمؤلفين وأجزل لهم العطاء والبذل" (٣) ونهج مثله كثيرون ممن حملوا على عاتقهم مهمة انهاض الحضارة من كبوتها بعد الصدمة القاسية التى تلقتها على أيدى المغول .

---

(١) مؤرخ المغول الكبير ص ٢١٨

(٢) الموسوعة الاسلامية والعربية ج ٥ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

(٣) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٥

أولا : التاريـــخ :

التاريخ كمايـــقول أستاذنا الدكتور احمد شلبى" شعاع من الماضى ينير الحاضـــــر والمستقبل" وقد هال المغول ما وجدوه من سير الابطال والشعوب والدول فرأوا أن يكـون لهم تاريخ مدون مثل هؤلاء وهؤلاء • ولم لا وانتصاراتهم تملأ الدنيا وقد غدا لهم كيـــان بعد أن كانوا قبائل متطاحنة متفرقة تتناثر هنا وهناك وراء المرعى أو طلبا للماء أوالسلـب والنهب •

ولهذا بادر الحكام المغول منذ عهد الخان الاعظم منكو الى الاهتمام بالتأريخ والمؤرخين يقول الدكتور (١) محمد موسى هنداوى" لقى علم التاريخ عناية كبيرة من الحكام ، وتفتحـت الحياة لرجال التاريخ كماتفتحت صدور الحكام لهم وتقلب أغلبهم فى كثير من المناصب الرفيعـة، ونال بعضهم مركز الوزارة وتمكن هؤلاء بحكم مناصبهم فى الدولة أن يشاهدوا الاحـــداث وأن يلموا بها الماما عيان كما فتحت لهم أبواب خزائن الكتب •

ولقد جاءت نتيجة ذلك كله ايجابية بمعنى الكلمة ، فقد أنتج المؤرخون عملا رائعـا وأسهموا بحق فى اثراء حركة الكتابة التاريخية فى فترة من أصعب فترات التاريخ فى حيـاة الشعوب فى آسيا الوسطى وايران والعراق وبلاد الشام بصفة خاصة• يقول الدكتور صـــادق نشأت" (٢) وقد امتاز العصر المغولى فى ايران بوفرة الكتب التاريخية القيمة" •

ويقول الدكتور دونالدولبر (٣) "وكانت المدة من موتهولاكو الى آخر عهد أبى سعيد فترة غنية غنى هائلا بالانتاج الادبى وفيها وحدها دون ما عداها كتبت كثير من الكتب التاريخيـة التى تعتبر من الطراز الاول بين المصادر التاريخية" •

وسنكتفى فى السطور القادمة فى أن نعرض بايجاز لاثنين من المصادر التاريخيـــة المهمة وقد كتبا على يد مؤرخين كبيرين هما عطا ملك الجوينى، ورشيد الدين فضل اللـــه الهمذانى •

١ - تاريخ جهانكشاى :

ويعتبر أهم المصادر التاريخية التى تناولت حياة المغول ومن يتصل بهم من حكـــام خوارزم والاسماعيلية وكذا حروب جنكيز خان القبلية وفتوحاته فى الصين، ولقد سلك مؤلفـــه عطا ملك الجوينى طريقة مثلى فى الكتابة حتى يضمن لكتابه الدقة والصدق•

فقد استفاد تماما من الفترة التى أمضاها فى بلاط الخان الاعظم منكو وهى فتـــرة تزيد عن عام ونصف ، وقد قضى علاء الدين الجوينى عاما ،وقد لقى من مشورة أصدقائـــه وتشجيعهم له ما ساعده فى ان ينهض بكتابة مؤلف رائع سجل فيه آثار المغول وتاريخهم" (٤)

---

(١) سعد الشيرازى ص ٩٢

(٢) صفحات عن ايران ص ٧٥

(٣) ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٠

(٤) د• محمد موسى هنداوى سعد الشيرازى ص ٩٥

والكتاب كما يتضح من اسمه" جهانكشاى" أى فاتح العالم والمقصود جنكيز خان قد ركز بصفة أساسية على ثلاثة موضوعات رئيسية عالجها فى ثلاثة أجزاء:

أ - تاريخ ظهور جنكيز خان ٠٠ والياسا وتاريخ أقوام الاويغور وفتوحات جنكيز خان فى بلاد ماوراء النهر وخراسان ثم فترة حكم أوكتاى وكيوك وأحوال جوجى وجغتاى٠

ب - تاريخ الخوارزميين ، والقراخطائيين وحكام المغول فى ايران٠

ج - تاريخ منكو قا آن ،وهولاكو ،وشرح تاريخ الاسماعيلية حتى سقوط دولتهم على يد هولاكو٠

وتبدو أهمية هذا الكتاب فى أن بعض معاصرى المغول مثل ابن العبرى صاحب كتاب" تاريخ مختصر الدول" ،ابن طباطبا صاحب كتاب" الفخرى فى الاداب السلطانية" وغيرهما قد نقلوا عنه وتأثروا به ٠

ويشير المستشرق الروسى "بارتولد" اليه فى كثير من المواضع فى كتابه الضخم تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ٠٠ كما نقل عنه معظم من كتب عن تاريخ المغول فى العصر الحديث ٠

وقد أنهى عطا ملك الجوينى تدوين كتابه هذا فى سنة ٦٥٩ هـ كمايقول الدكتور دونالدولبر" (١) وأغلب الظن أن الاعباء التى كلف بها من قبل الحكام المغول قد شغلته عن ذلك٠

عموما فقد نهض بعبء تكملة كتابه تاريخ المغول عالمان اخران٠ أولهما نصير الدين الطوسى الذى حصل على الكثير من الكتب التى كانت فى مكتبة بغداد فقد أخذ الكثير منها وأضافه الى مكتبته الخاصة حتى بلغ ما لديه على حد قول - أربرى - نحو نصف مليون كتاب" (٢) وبالاضافة الى ذلك فان الطوسى شاهد عيان عاش احداث الغزو جنبا الى جنب مع الجوينى ، وقد قام الطوسى بكتابه ذيل على كتاب (جهانكشاى) للجوينى ضمنه حوادث سقوط بغداد ونهاية الخليفة وهو خير مايرجع اليه فى تلك الحادثة بالذات نظرا لمعاصرته لها ولوجوده فيها ولمركزه العلمى والاجتماعى" (٣)٠

وفى الحقيقة كان الطوسى مؤثرا فى الاحداث أيضا ٠ فلقد وضعه هولاكو فى مأزق حرج عندما استشاره فى قتل الخليفة العباسى ٠

أما ثانيهما فهو الوصاف تلميذ رشيد الدين فضل الله الهمذانى الذى عرض عمله على غازان خان فكافأه وشجعه وتاريخ وصاف يعتبر تكملة ممتازه لتاريخ الجوينى" (٤)

فلقد أكمله وأوصله الى عصره فى كتابه المسمى" تاريخ وصاف" ٠ (٥)

---

(١) د٠دونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها
(٢) د٠ أ٠ج٠ اربرى : تراث فارس ص ٣٩ ، ترجمة د٠ يعقوب بكر٠
(٣) د٠ محمد موسى هندوى : سعد الشيرازى ص ٨٦
(٤) د٠ صادق نشأت : صفحات من تاريخ ايران ص ٧٥
(٥) د٠ دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٠

٢ - جامع التواريخ :

وهو أعظم نتاج تاريخى لهذا العصر الذى نتحدث عنه ، وهو دليل قوى على مدى ما تمتع به علم التاريخ من مكانة عالية عند الحكام المغول. وقد بدأ رشيد الدين فضل الله الهمذانى العمل فيه بتكليف من الخان محمود غازان. ولهذا سماه رشيد الدين "تاريخ غازانى" واستمر رشيد يؤدى مهمته حتى وفاة غازان سنة٧٠٣ هـ . فكان أن كلفه الخان الجديد (أولجاتيو) ان يكتب مجلدا ثانيا يشتمل على تاريخ جميع الشعوب التى تعامل معها المغول. فانتهى رشيد الدين من عمله كله سنة٧١٠ هـ ، وسمى العمل كله " جامع التواريخ".

وهكذا رأينا أن هذا الكتاب قد تم فى عهد غازان والجاتيو وأن الاخير اصر على استكمال هذا العمل الذى أشرف عليه أخوه فكان هذا التدبير موفقا ونافعا للدراسات التاريخية فيما بعد .

وموضوع الكتاب يتناول تاريخ المغول منذ أقدم الازمنةحتى عصر رشيد الدين فضل الله الهمذانى ،ويتضمن كذلك تاريخ الشعوب التى اتصل بها المغول سواء بالغزو او المراسلة (البعثات السلمية) .

ولايختلف اثنان على أهمية الكتاب . وسنكتفى بأن نورد فى هذا المقام رأيين أولهما للدكتور فؤاد الصياد الذى نال رسالة الدكتوراه عن بحثه المعنون" مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى." وثانيهما للمستشرق الروسى بارتولد . الذى يعد من أدق الباحثين الذين كتبوا فى تاريخ آسيا الوسطى .

يقول الدكتور الصياد(١) " وجامع التواريخ فريد فىنوعه فى تاريخ المغول منذ أقدم الازمنة وخاصة تاريخ البلاد الاسلامية والفارسية وأهميته كبيرة فى حدود الكتابة التاريخية بأسرها . وهى أهمية يعترف له بها المستشرقون وغير المستشرقين. ثم ان هذا الكتاب هو أول تاريخ عالمى معروف بالمعنى الصحيح وأول مجموع منظم للتطور التاريخى لكل الاوطان التى فى قارة أوراسيا من المحيط الهادى الى المحيط الاطلسى".(٢)

ويقول بارتولد(٢) " وهوجامع للروايات التاريخية لجميع الامم التى تدخل فى الامبراطورية المغولية أوالتى لها علاقة بالمغول من الصينيين الى الافرنج(سكان أوربا الغربية) وقد حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كماسمعها من رواتها بدون تغيير . فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخا علميا بالمعنى المفهوم اليوم الا أنه يشغل فى أداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. فلم نر اجتماع علماء الامم المتحضرة فى العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام فى كتاب واحد لا قبل ذلك التاريخ ولابعده".

وخلاصة الامر . أن الدكتور الصياد يراه من أمهات كتب التاريخ التى تناولت تاريخ المغول ومن اتصلوا بهم . على حين يراه بارتولد كتاب أدب عالمى أكثر منه كتاب تاريخى علمى وأميل الى رأى الدكتور الصياد لانه اقرب الى الواقع والى الانصاف ولان بارتولد نفسه اعتمد كثيرافى مؤلفاته على ما كتبه رشيد الدين.

---

(١) مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين من ص ٢ الى ص ٤

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٩

مصادر الكتـــاب :

كان طبيعيا أن يعتمد رشيد الدين فضل الله على مصادر مهمة دقيقة يستقى منهــا مادته العلمية بمايضمن لها الدقة والامانة العلمية وتمثلت تلك المصادر فى الاتى:

١ - مؤلفات السابقيـن :

وهى الكتب التى سبقت رشيد الدين فى الحديث عن حياة المغول ومن أشهرهـــا كتاب"تاريخ جهانكشاى" وكذا ذيله الذى كتبه نصير الدين الطوسى وكتاب النسوى "السلطــان جلال الدين منكبرتى" وغير ذلك من الكتب التى عاصر أصحابها المغول فكانت كتاباتهم شهـود عيان على الواقع الذى عاشه المغول مع انفسهم ومع غيرهم .

وبالاضافة الى ذلك كانتهناك كتابات الكهنة المسيحيين الذين أوفدوا من قبل ملــوك أوربا الغربية الى البلاط المغولى فى قراقورم ففى القوريلتاى الذى عقد سنة٦٤٤ هـ حضـره اثنان من رجال الدين المسيحى أحدهما (سمباذ) أخو (هيتوم) ملك كليكيا، والاخر جــون دى بلانو كاربينى ومن المعروف أن كلامن هذين الشخصين كتب كتابا وصف فيه رحلتــه الى منغوليا ويعد هذا الكتاب مصدرا هاما يفى بكثير من المعلومات عن الحقائق التاريخيــة والجغرافية لممالك المغول فى هذا العهد". (١)

كذلك كان بعض رجال الدين المسيحى الذين كانوا يقومونبالتبشير فى هذه الاصقـاع البعيدة يوفدون فى مهام رسمية الى البلاط المغولى . وكانوا يكتبون ويسجلون كل ما تقـع عليه اعينهم ومن أولئك الراهب وليم روبرك الذى كان رئيسا للبعثة التى أوفدها ملك فرنسـا لويس التاسع سنة٦٥٠ هـ من مدينة عكا بعد فشل حملته على مصر . "وقد تحـــدث بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول فوصف عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية وغير ذلك ممـا صادفه فى رحلته كما وصف جميع القبائل والجماعات التى يتكون منها العنصر المغولى والتــى اخضعها جنكيز خان". (٢)

كذلك فان كتابات الرحالة الايطالى الشهير ماركوبولو الذى عاش فى بلاط الخـــــان الاعظم قوبيلاى قا أن فى بكين اكثر من عشرين عاما. لابد وأن تكون قد مثلت أمـــام ذاكرة رشيد الدين فهذا الرحالة قد دون معظم احداث حياته بين المغول ووصف البـــلاد التى زارها وقدم تفصيلات واضحة عن عادات المغول وتقاليدهم واساليبهم وكل ما يتعلــــق بحياتهم .. فكان بحق شاهد عيان على الاحداث .

٢ - الوثائـــق :

ويقصد بها السجلات الرسمية او الرسائل المتبادلة بين خانات المغول والحكام الاخرين اوالتوجهات التى تصدر عن الديوان. " وقد استعان رشيد الدين بأحسن المصادر وأكثرهـا دقتواعتمادا حين رجع الى السجلات المغولية الرسمية". (٣)

وكان ذلك كله بموافقة السلطان محمود غازان الذى عاون رشيد الدين بكل صـــورة ممكنة ، فقد وضع تحت تصرف رشيد الدين خير المصادر وأندرها فى الامبراطورية المغوليـــة

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص١٢٦ نقلا عن رشيد الدين جامع التواريخ ص ٢٤١، ٢٤٢

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص١٣٢، نقلا عن عباس اقبال ،تاريخ مفصل ايران ج ١ ص ١٦٠

(٣) د. دونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٨

كالوثائق والسجلات التى كان على رأسها" الثون دبتر" ،أى " ا لكتاب الذهبى المشتمل على التاريخ الرسمى للمغول ".(١)

وبعيدا عن المستوى الرسمى ،وبصفة خاصة .. كانت هناك وثائق مغولية مهمة " اذ كان سلاطين المغول يحتفظون فى خزانتهم بوثائق مكتوبة بلغتهم فيها تدوين لكثير من وقائعهم ،كما كان كثير من الاسر المغولية العريقة يحتفظ بمثل هذه الوثائق ".(٢)

٣ - الرواة والعلماء :

عندما يكون الرواة من أصحاب الثقافة او الدراية وتتوافر فيهم صفات الثقة والامانة والفطنة فان وجودهم يعتبر دعما كبيرا للعمل الفنى التاريخى ،ولقد استطاع رشيد الدين ان يحصل على الكثير من الروايات الشفوية التى كان يدور معظمها على لسان غازان نفسه والامير بولاد جينك سيانك سفير الخان الاعظم فى بلاط غازان وكان كلا الرجلين قد اشتهر بمعارفه الواسعة وتجاربه الممتدة والاحاطة التامة بتاريخ المغول وهكذا تهيأت لرشيد الدين الفرصة لان يكتب كتابا مدعما بخير الوثائق".(٣)

وبالاضافة الى هؤلاء الرواة فقد كانت هناك هيئة العلماء التى اشتغلت بالعمل فى هذا الكتاب تحت اشراف رشيد الدين وهى هيئة اشتملت على أعضاء من جنسيات مختلفة مما أكسبها مزايا عدة . فقد كان يعاون رشيد الدين رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية واثنان من علماء الصين وراهب بوذى من كشمير وعدة من علماء ايران وربما كان معهم راهب فرنسى أيضا".(٤)

حفظ الكتاب :

كان اهم ما يشغل ذهن رشيد الدين بعد الفراغ من كتابة هذا العمل الضخم هو كيفية المحافظة عليه على مر الايام ، ولهذا تفتق ذهنه عن أن المكان الامين الذى لا يناله الضر وهو المسجد . " فأودع الكتاب بالمسجد الذى كان قد بناه فى مدينة تبريز"(٥)

غير أنه أدرك بذكائه أيضا أن حفظ الكتاب يكون بنشره وتوزيعه حتى تعم الفائدة منه " فعمل على نشره الى جانب ما كان ينشر من الكتب الاخرى عن طريق تشجيع نسخه وايداع ماينسخ منه فى مكتبات المدن الكبرى"(٦)

ولم يكن هذا النسخ يتم بلغة واحدة بل تعددت اللغات مما أكسب الكتاب صفة العالمية والانتشار وفى الحقيقة اتخذ رشيد الدين جميع الاحتياطات اللازمة لبقاء الكتاب

---

(١) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٢
(٢) حسن الامين : الغزو المغولى ص ٢٠
(٣) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٤
(٤) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٩
(٥) حسن الامين : الغزو المغولى ، ص ٢٠
(٦) د. صادق نشأت : صفحات عن ايران ص ٧٥

فأمر بالاضافة الى ارسال نسخ عديدة منه الى مكتبات المدن الكبيرة بأن تكون المخطوطة فى متناول الايدى لاستنساخها فكانت تنسخ منها فى كل عام نسخ عديدة بلغات مختلفة". (١)

وهكذا تعددت الترجمات لكتاب رشيد الدين فضل الهمذانى "الذى فرغ منه صاحبه سنة ٧١٠ هـ وقد دون تحت اشرافه باللغتين العربية والفارسية" (٢) ولقد كان كتاب "جامع التواريخ" أول المخطوطات الفارسية الضخمة التى زينت بالصور وليست صورة مجرد (تصاوير) ملونة اذ أنها أحبك توزيعا داخل اطاراتها المستطيلة الضيقة ، كما أنها أقوى تعبيرا فى خطوطها". (٣)

ثانيا : الفلسفة :

نبغ الاغريق فى هذا الفن الفكرى نبوغا مازال يثير انتباه رجال الفكر حتى عصرنا هذا ، فقد كان لسقراط وأفلاطون وارسطو وغيرهم مؤلفات عظيمة أثرت الفكر الانسانى بالكثير والكثير.

ويرى الدكتور أحمد شلبى (٤) أن الاغريق – رغم كل ذلك – وارثون اكثر منهم مبتكرين فى هذا المجال. يقول "ولم يبتدع اليونان أسس الحضارة الانسانية ذلك أن ما ورثوه كان أكثر جدا مما ابتكروه" . وبالطبع فان هذا الرأى يرجع أصول هذا العلم الى قدماء المصريين.

هذا .. وقد ارتقت فنون الحكمة لدى شعوب اخرى كالصينيين الذين ذاعت لديهم شهرة الحكيم كونفوشيوس " وفى الهند ظهر بوذا الذى حث على ضبط النفس وقهر الشهوات ودعا للمحبة الشاملة وقال بالغاء الطبقات". (٥)

وكذلك فان بلاد الفرس اقتبست كثيرا من الحضارة المصرية فى اثناء استيلاء الفرس على مصر ويقول الباحثون ا ن قمبيز تعلم الحكمة المصرية من الكاهن" أوزاموس" (٦)

وعند المسلمين ارتقت الفلسفة الى درجة ملحوظة على أيدى فلاسفة أعلام مشهورين مثل الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى وغيرهم ممن نقلت عنهم أوربا فيما بعد .

وفى العصر المغولى الذى نتحدث عنه نجد أنفسنا أمام اثنين من كبار المفكرين فى هذا المجال وقد اسهما فيه اضافة لما قدماه من جهد مكثف فى مجالات علمية أخرى .

---

(١) د. دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٨
(٢) حسن الامين : الغزو المغولى ص ٢٠
(٣) د. أ.ج. اوبرى : تراث فارس ص ١٨٤ ترجمة الدكتور أحمد عيسى .
(٤) د. أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٤٥
(٥) د. أحمد شلبى : اديان الهند الكبرى ص ١٧٩
(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٤٤

كالفلك والطب والرياضيات .

١ - بى .ليو . جوتساى :

وهو أمير صينى أوقعته الاقدار أسيرافى يد جنكيز خان يقول " وكان بى. ليـــو. جوتساى بحق فيلسوفا ورجل حكمة". (١)

ولم يسلم هذا الفيلسوف الحكيم من سخرية المغول الذين كانوا رجال حرب لا رجال حكمة وكتب . فكان طبيعى أن تحدث مواجهة بين هذين الاتجاهين المتضادين. وقد قال بى .ليو . جوتساى . لضباط المغول الذين سخروا منه لان صناعته الكتب قال : لكــى تتعلموا الحكمة فأنتم تحتاجون الى صانع كتب". (٢)

وهو قول فيه كثير من اللمز ويومئ الى جهل المغول وتخلفهم وعدم قدرتهم علـــى تقدير قيمة العلم وأصحابه.. غير أنجنكيز خان ذلك المغولى النابه قد تبين الامر علـــى وجهه الصحيح فسرعان ماوضع هذا الفيلسوف فى مكانه الملائم فأصبح بى .ليو. جوتساى. أهم شخص يمكنه التأثير فى حياةجنكيز خان الذى لمس كفايته ومقدرته وولاه أعلى المناصب فـــى دولته ". (٣)

فما أن توفى جنكيز خان حتى اوقع الوشاة بهذا الحكيم لدى أوكتاى غير ان الاحداث جرت لصالحه فاخرج من سجنه واعيدت اليه مناصبه فصار على رأس النظام الادارى للامبراطورية المغولية كلها فشاد المدارس ونظم الدولة وأصبح احفاد جنكيز خان تلاميذه فأثر فيهم أكبـــر الاثر . وخصوصا قوبيلاى بن تولوى . اشهرهم جميعا. وكانت فلسفة هذا العالم الفيلسوف الذى اشتهر بثقافته العالية" (٤) تتمثل فى حب السلام والخير ونبذ الحرب لانها تقبـــل الخير فى الانسان وتجتث بذور العلم والاصلاح.

٢ ـ نصير الدين الطوســى :

تكاد تجمع آراء المؤرخين على أنه كان فيلسوف عصره بلا منازع برغم أعبائه العلميـــة الاخرى التى نهض بها على خير وجه. فان لم يبخل بجهده أوعلمه فى هذا المجال أيضا.

وابن العبرى يعرض هذه الانجازات يقول " وله تصانيف كثيرة منطقيات وطبيعيـات وله كتاب أخلاق فارسى فى غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص افلاطـــــــون وأرسطو فى الحكمة العملية ، وكان يقوى آراء المتقدمين ويحل شكوك المتأخرين والمؤاخذات التى قد أوردوها فى مصنفاتهم وكان من الفضلاء فى زمانه نجم ا لدين القزوينى منطقـــى عظيم". (٥)

وهكذا رأينا أن كتابات الطوسى كانت فى علم الفلسفة والمنطق على درجة عاليـــة وبخاصة فى وجود عالم آخر بارع فى هذا الفن.

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٧
(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٨
(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠
(٤) د.السيد العرينى : المغول ص ١٥٢
(٥) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٢٣
(٦) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ٥٠١، د.أ.ج. اربرى : تراث فـــارس ص ٣٩١ ترجمة يعقوب بكر.

على أن أهم ماأنجزه الطوسى كنتاج عملى يكشف عن بعد نظره وحسن تقديره للامور المستقلية هو انشاؤه للمدارس وتشجيعه للطلاب على دراسة الفلسفة وغيرها من العلوم التى تحرك الذهن وتنمى الادراك يقول حسن الامين (١) : " وتطلع نصير الدين الطوسى فرأى المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكرى الى حد أصبح العلم عندهم قشورا لالباب فيها وانهم حصروا العلم فى الفقه والحديث وحدهما وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التى حث عليها الدين العظيم وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافا تاما فأعلن عن افتتاح المدارس فاقبل الناس على معاهدة الفلسفة والطب ، بعد أن كانت من قبل تدرس سرا".

خلاصة الامر أن كلا الرجلين قد حاول قدر جهده أن يثمر الحياة الفكرية من حوله فاتجه أولهما الى الصين موطنه الاصلى فأولاها الاهتمام الاكبر على حين اتجه الثانى الى المسلمين عامتفعمل على انتشالهم من براثن الاثار المهلكة التى نجمت عن الغزو الشامل فى أول الأمر.

ثالثا : الفلك :

كان المغول مولعين الىدرجة الشغف بمعرفة أخبار النجوم والتطلع من خلالها الى أحداث المستقبل وبخاصة عند التفكير فى خوض معركة جديدة مع الاعداء فى ميادين القتال.

وهذا الولع جعلهم ينظرون الى كل من له صلة بهذا ا لمجال نظرة اكبار واجلال. "فكانوا يجلون الفلكيين والمنجمين" كما كان يعنون عناية كبيرة بالتنجيم. (٢)

هذا .. وقد تحدثت توا عن المراصد التى أقامها المغول فى مراغة وبكين وتبريز وعن الجهد الكبير الذى بذله علماء المسلمين والصينيين فى سبيل تطوير هذا العلم اثناء العهد المغولى . وكذا عن مواقف الحكام المغول الذين كانوا ـ فى معظمهم ـ رعاة لهذا النوع من العلوم.

مجالاته :

أ ـ بيانحركة النجوم :

كانت السماء هى الشغل الشاغل لاذهان المغول منها يأتى النفع والضرر عقائديا وماديا ولهذا شغل المغول أنفسهم بها وبنجومها التى كانت تعدشيئا غامضا يدق على أفهامهم . ولهذا فطن جنكيز خان الى أنه يمكن ان ينتفع بخبرة يى . ليو . جوتساى فى الفلك لشرح الحركات الغامضة للنجوم التى تظهر فى السماء ليلا". (٣)

(ب) التقويم :

بالطبع كانت هناك تقويمات عديدة قبل عصر سيطرة المغول كالتقويم الشمسى والميلادى والهجرى .. غير أن نصير الدين الطوسى ذلك الفلكى الفذ نهض بعمل رائع فى مجال التقويم بالقياس الى عصره فقد عمل مقابلة بين الشهور العربية والشهور المغولية

---

(١) الغزوالمغولى ص ١٥٦

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠٠ ،ص ٢٣٤

(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٧

وأثبتها فى جدول قائم بذاته ابتداء من سنة جلوس جنكيز خان حتى مائة سنة بعد ذلك. (١)

ومما يدل على دقة هذا التقويم وبراعته ان قوبيلاى قا آن الخان الاعظم أمر ببراعاته والالتزام به (٢) فقد أمر العلماء فى الصين بالعمل نزولا على هذا التقويم الذى أرتآه نصير الدين الطوسى . ذاك ان كل شئ يرتهن عند المغول باسم جنكيز خان هوموضع تقدير واجلال علاوة على التفوق الظاهر فى علم الفلك الذى امتاز به الطوسى على معاصريه.

(ج) علم الهيئة :

ويقصد به علم تحديد جغرافية الارض والاقاليم المناخية والنباتية وتحديد مناطق الرياح والتضاريس المختلفة .. وكل ما يتعلق بمثل هذه الاحوال فى شئون الماء واليابسة .

وهذا العلم ليس بجديد فلقد كان للمسلمين فيه باع طويل. وفى العصر المغولى كان هذا العلم محض تنافس بين علماء الفلك فى الصين وايران. يقول الدكتور فؤاد الصياد (٣) "وقد ظهر علماء الفلك الصينيين فى ايران فى القرن السابع الهجرى ولكن خدمات الفلكيين الايرانيين فى الصين كانت أعظم . وكان علم الهيئة فيهاواقعا تحت تأثير الايرانيين التام الذين استطاعوا المحافظة على سيطرتهم هذه حتى بعد انقراض الحكم المغولى فى القرن الثامن الهجرى" .

وقد جاء نجاح علم الفلك فى أداء دوره مرهونابتأييد الحكام المغول وبعوامل أخرى مهمة سهلت له كثيرا منها.

١ ـ آلات الرصد :

مما لاشك فيه أن أدوات الرصد وآلاته كانت معروفة منذ فترات سابقة ولقد ذكرت عند الحديث عن مرصد مراغة كيف كان مجهزا بأدق الاجهزة العلمية فى زمانه وتلك فى الحقيقة كانت أصلا فى قلعة (آلموت) الاسماعيلية الشهيرة ولذا عمد كل من الطوسى والجوينى على الحفاظ على تلك الالات لوقت تهدأ فيه حركة الغزو وتعود الامور الى طبيعتها . كذلك فان الادوات التى وجدت فى مرصد بكين كانت صينية الصنع . غير أن العالم الفذ نصير الدين الطوسى اضاف أدوات جديدة ابتكرها معتمدا على خبرات سابقة فقد وضع فى مرصد مراغة عدة أدوات مصنوعة بطريقة خاصة مثل الاسطرلاب وأدوات رصد تحركات الاجسام وصورة الكرة الارضية" . (٤)

(ب) كتب الرصد والرحلات :

وتلك تعتبر ذخيرة ممتازة على جانب من الاهمية خطير ولهذا سارع كل من الجوينى والطوسى أيضا الى استئذان هولاكو فى المحافظة عليها وعدم احراقها. ولقد أثبتت الايام صدق نظرتهما وحسن تقديرهما للامور .. فقد كان مما سهل على نصير الدين مهمته استيلاؤه على

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٨٦
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٥
(٣) المغول فى التاريخ ص ١٠٠
(٤) دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٣

كتب النجوم وآلات الرصد التى كان يحتفظ بها الاسماعيلية فى قلاعهم". (١)

كذلك لم يكتف نصير الدين بذلك بل مضى يجمع هذه الكتب فى كل مكان يتوصل اليه . اذا لما وصل بغداد انحدر الى واسط فجمع كتبا كثيرة لاجل الرصد" (٢)

وبالاضافة الى ذلك فان الفلكيين كانوا يراجعون الكتب التى يكتبها الرحالة والجغرافيون الذين كانوا يجوبون آسيا الوسطى من مختلف الانحاء.وأكثر هؤلاء كانوا من الاوربيين الـذى خلبت عقولهم بالثراء الفاحش الذى استحوذ عليه المغول.

وعلى سبيل المثال كان لكتابات ماركوبولو التى وصف فيها ثروات الشرق الاقصى أكبر الاثر فى تشجيع الرحالة والرواد والمستكشفين الجغرافيين الاوربيين وحثهم على اجتياز مجاهل اسيا طمعا فى الاستيلاء على هذه الكنوز ومنذ ذلك الوقت نرى المستكشفين الجغرافيين يجدون فى البحث عن أسهل الطرق وأقصرها للوصول الى الشرق الاقصى وبلاد الهند". (٣)

ولم يكن ماركوبولو وحده هو الذى كتب وصفا جغرافيا دقيقا لبلاد المغول فمعظم الرهبان المسيحيين الذين وفدوا من قبل ملوك أوروبا الى أراضى المغول سجلوا ملاحظاتهم الجغرافية والاجتماعية والتاريخية ومن أولئك جون دى بلانو كاربينى الذى حضر القوريلتاى الذى عقد سنة٦٤٤هـ ووليم روبرك الذى زار بلاد المغول أيام منكوخان.

العلماء المتخصصون :

وأولئك وجدوا فى نصير الدين رائدا ممتازا على صلة طيبة مع الحكام فأتاح لهم مناخا مستقرا للعمل والبحث . كما أتيحت لهم حرية الحركة بين أرجاء الامبراطورية فى أمن وسلام مما شد عزمهم وشجعهم . وعلى هذا فقد اجتمع الى نصير الدين فى الرصد جماعة من الفضلاء والمهندسين" (٤) بالاضافة الى بعض العلماء المتخصصين". (٥)

ولعلنا قد لاحظنا وفرة علماء الرصد والمهندسين لدى نصير الدين الطوسى فى مراغة . بما يؤكد أنهم تلقوا هذا العلم فى فترة سابقة وأغلب الظن أن ذلك قد تم فى المراصد الاسلامية التى كانت منتشرة فى العالم الاسلامى قبل ذلك.

وكما تعلم هؤلاء ممن سبقوهم كان عليهم أن يعلموا غيرهم. والحق أن الطوسى كان أستاذا متميزا تخرج على يديه طلاب حققوا شهرة كبيرة ومنهم قطب الدين الشيرازى (٦٣٤ ـ ٧١٠هـ) الذى تناول فى أحد كتبه البصريات الهندسية وطريقةالابصار ،وقوس قزح" (٦)

---

(١) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢١٥

(٢) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٤١

(٣) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦١

(٤) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٨٦

(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢١٥

(٦) د. أ.ج.أربرى: تراث فارس ص ٣٩١ ترجمة الدكتور يعقوب بكر.

كذلك انجبت مدينة طوس فلكيا اخر كتب له المجد والشهرة ذلك هو (شرف الدين) المظفر بن محمد الطوسى الذى اخترع نوعا جديدا من الاسطرلاب يسمى بالاسطرلاب الخطى"(١)

رابعا : الكيميـــاء :

علم قديم عرف منذ زمن بعيد فقد عرفه قدماء المصريين واستخدموه فى علاج المرضـى والاعداد للطقوس الدينية وفى مجال التحنيط .

وهو علم يقوم على مزج العناصر ببعضها بنسب محددة فتظهر عناصر جديدة لهـا خصائص مختلفة واستخدامات أخرى .

وقد برع العلماء المسلمون فى هذا العلم منذ القرن الثانى الهجرى وكانت لهم تجاربهم وأبحاثهم وشهرتهم فيه فهناك جابر بن حيان المتوفى سنة ١٦١ هـ وأبو بكر الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ وابن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وغيرهم .

واهتمام المغول بهذا العلم جاء نابعا من رغبتهم فى ان يستفيدوا منه بشئ ينفعهم وفى مطلع عهد جنكيز خان كان السحرة والمشعوذون يزعمون لانفسهم قدرات خاصة على تحويل المواد أو العناصر الى أشياء أخرى تخالفها فى التركيب أو القيمة ولقد سبق أن أشرت عند الحديث عن الخرافات كيف ان جنكيز خان توهم أن بوسع السحرة الذين يدعون قدرتهم على تحويل الحديد الى ذهب نضار أن يركبوا له اكسيرا يرد اليه الشباب ويمنحه الخلود .

وبدهى أن فكرة جنكيز خان عن هذا العلم لم تكن واقعية أو مدروسة وحتى هولاكو حفيده كان مقبلا على هذا العلم دون أن تكون لديه فكرة واضحة عنه . يقول الحافظ الذهبى " وكان هولاكو حفيد جنكيز خان المغلى محبا لعلوم الاوائل من غير أن يفهمها"(٢)

عموما فقد أنفق هولاكو مبالغ طائلة فى سبيل ان ينهض هذا العلم مثل بقية العلوم الاخرى . فهل كان الكيميائيون الذين اعتمد عليهم بالكفاءة المطلوبة . يوضح ذلك قول رشيد الدين فضل الله الهمذانى (٣) عن الكيميائيين الذى جلبهم هولاكو" وقد اشعلوا نيرانهم مدفوعين بتسويلاتهم وتخيلاتهم وأحرقوا أدوية لاحصر لها ونفخوا فى الصغير والكبير بالمنافخ العديمة الجدوى وعملوا من طين الحكمة قدورا غير أن فائدة طبخهم لم تبلغ الى أكثر من عشائهم وفطورهم ولم تكن لهم خبرة بالتقليب لكن كانت لهم اليد الطولى فى الخداع والتمويه فهم لم يستطيعوا نقش دينار ولاسبك درهم ،و قد القوا بكثير من المدخرات الى هاوية التلف والفناء وصرفت أموال كثيرة فى وجوه ما يحتاجون اليها تلبية لمطالبهم وللانفاق على علف دوابهم بما لم يحصل على مثله قارون البائس طول عمره وهو يشتغل بالاكسير" .

---

(١) د . أ . ج . اربرى : تراث فارس ص ٣٩٠ ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر .

(٢) العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ٢٧٨

(٣) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٣٨

ولعل أسباب القسوة الظاهرة التى حكم بها رشيد الدين فضل الله على هـؤلاء الكيميائيين تكمن فى الاتى :

أ - انهم كانوا دون المستوى العلمى المتوقع منهم .
ب - لم تكن لديهم خبرة كافية فى اجراء التجارب العلمية.
جـ - انهم قد استنزفوا موارد علمية مهمة كالادوية والعقاقير والعناصر الطبيعية المختلفة.
د - انهم لم يتوصلوا الى حقائق علمية جديدة.
هـ - انهم لجأوا فى النهاية الى التمويه والغش .. كى يحصلوا على اموال من الحاكم لايستحقونها .

غير أن هذا كله لم يمنع أن تكون هناك جهود مخلصة فى سبيل تقدم هذا العلم فعلى سبيل" المثال كان ارغون خان شديد الشغف بصناعة الكيمياء والاكسير فكان المشتغلون بالكيمياء يقصدونه من مختلف النواحى ، ويبدو أن رغبة ارغون الشديدة فى معرفة سر الحياة قد دفعته الى تشجيع علم الكيمياء والانفاق على علمائه بسخاء" (١) ومايعنينا أن هذا العلم كان موجودا وأن الكيميائيين كانوا يقصدون بلاط المغول فى ايران وذلك فى حد ذاته أمر لاينبغى التقليل من شأنه .

حقا اننى لم أعثر على أية نتاج اخر فى علم الكيمياء فى العهد المغولى غير أن مجرد اهتمام المغول بهذا العلم - ولو بصفة غير مستمرة - يعد بادرة حضارية . وبخاصة أن علم الكيمياء قد أصبح أحد الدعامات التى نهضت عليه مكونات تركيب الادوية والعقاقير المقوية ومعظم مايحتاجه الاطباء فى عهد المغول .

خامسا : الطــب :

نكرت عند الحديث عن البيئة المغولية ان قسوة المناخ فى بيئة الاستبس لم تكن تسمح للضعاف او السقماء أن يستمروا طويلا ولهذا ففرصة البقاء تكون للاصحاء فقط .

ولما كان المغول رعاه وأهل بداوة ، فان اهتمامهم بالطب كعلم لم يكن قائما ، ونتيجة لانتشار الجهل والخرافات فان السحرة والكهنة المشعوذين قد هيمنوا على هذه الامور .

ولقد كان لدى المغول اعتقاد كبير فى امكانيات رجل الشامان وهو رجل الدين الذى يقوم بوظيفة الطبيب حيث أنه وحده يستطيع أن يغير الخير والشر . فالمرض من وجهة نظر المغول نوع من الشر يلحق الانسان نتيجة لتسلط الشياطين عليه او غضب الارواح عليه والشامان وحده يمكن التعرف على الاسباب وازالة آثارها ؟

يقول الدكتور هارولد لامب(٢) " وقد ظهر ان أخطر متآمر على حياة تيموجين كان تبتنجرى الذى اشتهر بأنه طبيب ساحر (شامان) يكلم الارواح السماوية ويتحدث الى أرواح غير مرئية .تماما كما هى الحال مع رجل الطب فى قبائل الهنود الحمر الامريكيين".

فالطب بهذه الصورة أقرب الى الشعوذة والبدائية منه الى العلم. عموما - فان جنكيز خان الذى اقتنع - على ما يبدو - بأهمية هذا العلم قد اتخذ مسلكا جديدا.

---

(١) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٢٠٢
(٢) جنكيز خان وجحافل المغول ص ٤٧

ذلك أنه اكتشف فى مستشاره الصينى "يى•ليو• جوتساى" مواهب فذة خاصة فى علم الطب، فلقد فطن الى أنه يمكنه أن ينتفع بخبرة هذا العالم فى الطب لعلاج الامراض". (١)

على أن كثرة الحروب التى خاضها المغول قد أسفرت عن نتائج كان أخطرها انتشار الاوبئة نتيجة لتعفن جثث القتلى التى ظلت قابعة مكانها لفترات طويلة فاضطر "يى•ليو• جوتساى الى أن يبحث عن عقاقير طبية لمكافحة ما يصدر عن جثث الضحايا من اوبئة". (٢)

ويبدو أن الاهتمام بالطب بشكل علمى وعملى قد ظهر منذ عهد الخان الاعظم قوبيلاى قا آن ، يقول ابن العبرى (٣) عن مرافقين كانوا ملازمين للعالم نصير الدين الطوسى "ومن الاطباء المشهورين فخر الدين الاخلاطى وتقى الدين الحشائشى واشتهر هذا فى عمل الترياق شهرة عظيمة".

والترياق باعتباره عقارا لمواجهة السموم المختلفة كان يمثل صمام أمان فى حياة الحاكم خاصة فى فترة كثرت فيها الدسائس والمؤامرات ولم يكن الترياق وحده هو الذى برع فيه الاطباء على عهد المغول بل ان طب الاسنان كان معروفا لديهم أيضا - يقول المقريزى "وقد حكى عن الشريف حسن السمرقندى أنه كان بهذه البلاد مملكه توران مملكة القان الكبير (الخان لاعظم) فشكا ضرسه فأراه لرجل من الخطا فوضع يده عليه فأخرج منه قطعة متاكلة ووضع مكانها قطعة من ضرس اجنبى ، ودهنه بدهن وأمره أن لايشرب الماء يومه فالتصق حتى صار كأنه من أصل الخلقة ،الآن لون الاول يبين من اللون الثانى ،وذكر المقر الشهابى أنه أراه له بحضرة الشيخ شمس الدين الاصفهانى وجماعة من أهل العلم قال بدر الدين حسن الاسعردى لقد رأيت منهم من هذه الاعمال ما يحار فيه العقل". (٤)

هذا كله يؤكد لدى المرء تغير نظرة المغول الى الطب والاطباء ولدينا دليلان يضافان الى ذلك :

أ - انتشار المستشفيات فى عصر قوبيلاى وهو أمر يستلزم وفرة الاطباء والادوية وأدوات الطب .

ب - ارتفاع شأن الاطباء فى الدولة بحيث توصل بعضهم الى منصب الوزارة ، يقول الدكتور فؤاد الصياد عن سعد الدولة اليهودى رشيد الدين فضل الله الهمذانى " ورشيد الدين يشبه من بعض الوجوه الوزير سعد الدولة فقد كان يشاركه أصله اليهودى كما كان يتحد معه فى مهنة الطب تلك المهنة التى مكنتها من الالتحاق بخدمة المغول وعن طريقهما وصل كلاهما الى منصب الوزارة" (٥)

---

(١) جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٧

(٢) د. السيد العرينى ، المغول ص ١٥٣

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٥٠١

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧٨

(٥) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦١

وفى الحقيقة لم يكن الطبيب رشيد الدين فضل الله الهمذانى هو وحده الذى يتمتع بثقة السلطان فهو نفسه يذكر أن الاطباء الصينيين كانوايعالجون غازان خان قبل وفاته بستة أشهر " (١)

وجدير بالذكر أن مهنة الطبيب كانت محفوفة بالخطر تماما كمهنة الوزير فعلى سبيل المثال كان جغتاى بن جنكيزخان – رغم كراهيته الشديدة للمسلمين قد اتخذ لنفسه طبيبا مسلما يسمى مجد الدين " (٢)

فلما مرض لم يستطع الطبيب المسلم مجد الدين ان يداويه – فاتهمته الملكة (بيسولون) خاتون بعد موت جغتاى بانه والوزير قد سما الخان واعدمتهما واعدمت معهما كل اولادهما " (٣)

ولا يختلف هذا المصير المؤلم عن مصير سعد الدولة فى عهد ارغون او رشيد الدين فضل اللهالهمذانى بعد وفاة حاميه (غازان خان) .

غير أن ذلك كله يؤكد أن الاطباء قد أصبحوا موجودين فى حياة الحكام المغول بل ومؤثرين الى ابعد الحدود لان مهارتهم فى الطب جعلت لهم مكانة مرموقة فى الحياة العامة والسياسية.

الحياة الأدبية :

أشرت الى أن المغول حتى عهد جنكيز خان لم يكن لديهم عهد بالكتابة وكان جل شئونهم يتم مشافهة، وهم فى ذلك لايختلفون كثيرا عن غيرهم من أهل البداوة فى أى مكان اخر.

ولعل ذلك يفسر عدم وجود أية اثار تاريخية أوأدبية من الشعر أوالنثر ذلك أن وسيلة التسجيل وهى الكتابة كانت مفتقده لديهم.

ولا يحول ذلك دون أن يكونوا قد ارتجلوا شعرا أو نثرا بلغتهم المنطوقة غير أننى لم أعثر على أى نموذج أدبى مغولى مكتوب . وحتى نموذج شعر الرثاء الذى نسب الى جنكيز خان عند مصرع ابنه الاكبر جوجى كان مكتوبا بالفارسية مما قد يدعو الى الشك فى صحته .

على أننا نستطيع أن نقول ان أول خطوة عملية نحو تحقيق وجود الادب المغولى تلك التى بدأها جنكيز خان عندما اختار ابجدية الخط الاويغورى لتسجيل منطوق اللغة المغولية فوضع بذلك أساس أدب المغول " (٤)

ومع هذا فالادب المغولى لم يظهر بشكل جلى فى منغوليا الوطن الام.كذلك كانت الاداب لدى الامم المجاورة قوية متأصلة بحيث أن الادب المغولى – ان صح التعبير – لم يكن فى مقدوره أن يؤثر فيهما بشكل عام . وعلى الرغم من ذلك فقد حاول المغول بقدر ما أتيح لهم ان يقدموا أدبا مستقلا يعبر عن هويتهم الخاصة – يقول الدكتور بارتولد :

---

(١) د.فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٤
(٢) د. رجب عبد الحليم : انتشار الاسلام بين المغول ص ٧٥
(٣) د. بارتولد: تاريخ تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٢
(٤) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٨.

وقد حاول المغول ان يبدعوا لهم أدبا باللغة المغولية حتى بعداعتناقهم الاسلام ولكن تأثير هذا الادب أوعدم تأثيره فى حياة المغول ولغتهم الادبية بعد هذا العهد لايزال مسألة تحتاج الى نظر". (١)

وفى تقديرى ان هذا التأثير لم يكن ذا اهمية تذكر وبخاصة فى البلدان التى أقام فيها المغول بين شعوب متحضرة لها أدابها كالصين وايران وغيرهما ... فاذا كان هناك تأثير متوقع فيحتمل أنه قد تم بصورة أوأخرى فى منغوليا ذاتها وفى اطار محلى محدود على نمط بعض القصص او الحكايات التى تصور احداث الغزو المغولى .

أثر المغول فى الاداب الاخرى :

اختلف المؤرخون فى تقدير الاثر الذى اسفر عنه الغزو المغولى فيما يتعلق بالحياة الادبية او غيرها فى عصرهم ويمكن اجمال الامر فى اتجاهين.

١ - الاتجاه الاول :

ويرى اصحابه أن المغول قد أتوا على الحياة الادبية حولهم تماما مثل غيرها من الحيوات الاخرى ويستدلون على ذلك بهدم وتشريد المبانى الحضارية كالمدارس والمكتبات واحراق الكتب أو اغراقها وتشريد أصحاب الفكر أو قتلهم يقول الدكتور أحمد شلبى(٢) " وكانوا مدمرين يأتون على ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ويهدمون المبانى ويحرقون الكتب".

ويقول الدكتور فؤاد الصياد(٣) " ونزلت الاداب الى أقصى حدود الضعف التى يمكن أن تصل اليها"

ويقول الدكتور بارتولد"(٤) ولا شك فى أن ملوك المغول لم يعتنوا بالاداب المحلية ولم يبالوا بالعلوم الدينية قبل ا عتناقهم الاسلام".

وهذا الرأى يومىء الى أثر الاسلام وعلومه الدينية فى تحريك اهتمام الحكام المغول صوب التعرف على أدب الشعوب التى خضعت لسلطانهم فيما بعد.

٢ - الاتجاه الثانى :

ويرى أن المغول الذين كانوا مخربين فى بداية غزواتهم الكاسحة قد تحولوا تدريجيا وبتأثير من الحضارات عايشوها الى صورة انسانية . أفضل وهم فى الحالين لم يمسوا الحياة الادبية حولهم بكثير من الضرر ذلك أن تحقيق الانتصار العسكرى كان غايتهم الاولى.. يقول الرمزى(٥) " وهم وان كانوا يخربون ويقتلون أول ظهورهم ، لكن لم يؤخر ذلك فى

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٣
(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٥ ص ١٩٦
(٣) المغول فى التاريخ ص ٢١٧
(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٦
(٥) تلفيق الاخبار ج ٢ ص ٢٣

انتفاء العلوم وطرد الخلل فى المعارف والفنون ، بل العلوم والمعارف جارية بعد ظهورهم على ما هى عليه قبل خروجهم" .

هذا .. وسنحاول اكتشاف أى الاثرين أوضح من خلال عرض الاثر المغولى فى أدب الشعوب التى خضعت لهم.

أولا : الأدب العربى :

كان الادب العربى يلتمس من بغداد على ما أصابها من ضعف سياسى قوة واستمرار هما نتاج خمسة قرون من الفكر والحضارة والترجمة التى ازدهرت فى عصر المأمون.

ويكفى دلالة على قوة الأدب العربى أن الضعف السياسى الناجم عن وجود الدويلات الاقليمية أكسبه قوة لاضعفا فتعددت الحواضر الأدبية وانتشرت المكتبات وحظى العلماء والمفكرون بكل أسباب الرعاية و التشجيع فى معظم أرجاء الدولة العباسية.

وكان المغول يدركون تماما أن قيمة بغداد ليست عسكرية فى المقام الاول. بل هى قيمة حضارية وروحية تتعداها الى غيرها من المدن العربية والاسلامية على السواء. ومن هنا كان هجوم هولاكو على بغداد ضاريا فتاكا رغم عدم التكافوء العسكرى الواضح بين المعسكرين المغولى والعباسى .

عموما ــ فقد أسفر هذا الهجوم عن نتائج خطيرة خصوصا فى مجال دراسة الادب .. يقول الدكتور براون (١) " ان الدراسة الصحيحة والبحث العلمى اللذين امتازت بهما من قبل دراسة الاداب العربية لم تقم لهما قائمة بعد كارثة سقوط بغداد".

كذلك تقلصت مكانة اللغة العربية التى طالما ازدهرت مع اطراد حركة الفتح الاسلامى فى اتجاه الشرق .. وتبوأت اللغة الفارسية المكانة الاولى كلغة تأليف أوترجمة.

كذلك اهتز المناخ الادبى الممتاز وتبدد أبان الغزو المغولى فتقهقر الادب العربى من الناحية الفنية . فافتقر الى جدة الموضوعات واحتاج الى الترابط الفكرى والشعورى.

ثانيا : الأدب الفارسى :

أدب عريق مشهور استمد طاقاته من حضارة الفرس ومن الاتصال بفلسفة الاغريق وعمارة الرومان وحكمة الهند . وكذلك تأثر وأثر فى الأدب العربى عن طريق الاتصال العسكرى والسياسى بالعراق وساحل الخليج العربى حتى اليمن كما امتد أحيانا الى حدود الشام ومصر.

غير أن الاتصال المباشر كان نتيجة الفتح العربى فى القرن الاول الهجرى حين تخطى العرب المسلمون لاول مرة ساحل الخليج متجهين ناحية الشرق مدعمين لقوتين حضارتين هما : الدين الاسلامى واللغة العربية.

---

(١) د. جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٨٦

وعلى هذا فان الادب الفارسى فى ايران عند قدوم المغول كان قويا بدفع الـــروح الاسلامية واللغة العربية فقدر له رغم الغزو الجامح أن يصمد وأن يستمر. يقول الدكتـــور ادوار براون (١) " والغزو المغولى لم يلحق أى خطر يذكر بالحركة الادبية فى فارس".

ويقول الدكتور براون (٢) " والأدب الفارسى لايمكن أن يقال عنه أنه قد أصيـــب بسبب غارة المغول بكارثة دائمة الاثر".

وهذا الرأى يشير الى أن الضرر الذى أصاب الأدب الفارسى فى ايران من جـــراء الغزوالمغولى كان طفيفا لايكاد يذكر وأن هذا الضرر كان سريع الزوال . فسرعان مااستعاد نفسه بل وأحرز تقدما ملموسا يقول الدكتور محمد موسى هنداوى" (٣) " ولم تعدم ايران فى عصرالمغول تقدما فى العلوم والاداب والحضارة".

وبدهى أن هذا التقدم كان يتم بمساعدة الحكام المغول وتشجيعهم يقول الدكتـــور دونالد ولبر " (٤) وأصبح السلاطين الايلخانيون رعاة للآداب والفنون".

على أن الأدب الفارسى رغم ذلك كان يعانى من قصور فى التركيبة الفنية، فالنثـــر قد غلبت عليه الصنعة والتكلف وشغل عدد كبير من الكتاب بالالفاظ واهتموا بالمحسنـــات البديعية والصور المتكلفة وترسموا العبارات الغريبة ومالوا الى الحشو والمبالغات التى لامحـــل لها ، حتى الاسلوب التاريخى نفسه لم ينج من ذلك". (٥)

آسيا الوسطـــى :

ويقصد بها المنطقة الاسلامية فى أرض التركستان وبلاد ما وراء النهر والتى كانت فـــى معظمها تابعة لسلطان الخوارزميين وقدر لها أن تتلقى الصدمة المغولية التى كانت مدفوعـــة بكل العنف والشراسة . وبالتالى كان التدمير الناجم عنها شديدا وكانت الاثار وخيمة علـــى مختلف ضروب الحياة فى هذه المنطقة فقد قضى المغول بكل أسف على الحياة الثقافيـــة فى اسيا الوسطى ذاك ان سمرقند وبخارى لم يتيسر لهما أبدا أن تستعيدا سابق نشاطهمـــا العقلى وصارت الحياة الفكرية فيهما وقفا على الاشتغال بالفقه والتصوف والبدع". (٦)

ولما توسعت حركة الفتح واستقر المغول عملوا جاهدين على المحافظة على لغتهـــم المحلية خشية أن تضيع فى زحام اللغات الاخرى. (٧)

وبصفة عامة فان الضربة القاسية التى تلقتها اسيا الوسطى كانت أعنف من أن تفيـــق منها رغم المحاولات التى بذلت من قبل المغول لانشاء بعض المدارس فى بخارى أو غيرهـــا تحت اشراف الاميرة"سرقويتى "أم الخان الاعظم منكو . أو مسعود بن محمود الخوارزمـــى

---

(١) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٥٥٠
(٢) تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٤
(٣) سعد الشيرازى ص ٥٣
(٤) ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٦
(٥) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية وا لمغول ص ٢٦٧
(٦) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨١
(٧) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٣

مستشار المغول ذلك أن حكام التركستان المغول لم يتوقفوا عن اعلان الحرب على بنى جلدتهم فى كل الاتجاهات حتى أرهقوا الاهلين وقضوا على استقرارهم فضاع بالتالى كل ما يمكن أن يعتمد الادب عليه في الاستمرار والنحو .. اذ لا أدب ينمو تحت النيران والدمار المستمرين.

الأدب الصينى :

قدر للمغول أن يتفوقوا عسكريا على الصينيين وأن يحتلوا أراضيهم لكن الحضارة الصينية كان أقوى بكثير من أن يستوعبها غزو عسكرى كذلك كان المغول أقل حضاريا بكثير من أن يتطاولوا على هذه الحضارة العريقة على اختلاف مجالاتها بما فى ذلك الادب.

غير أن هذا كله لم يحل دون وجود بعض التأثير الذى فرضته الظروف السياسية او طبيعة المواقف يقول ول ديورانت(١) " لم يحدث الفتح المغولى أثرا يذكر فى عادات الصين وأفكارهم الا ما عسى أن يكون قد أدخله فى الادب الصينى من الروايات والمسرحيات".

أى أنه فيما عدا هذين الجانبين القصة والمسرحية لم يكن هناك أدنى اثر للادب المغولى – ان صح هذا التعبير – على الادب الصينى وسنحاول أن نعرض فى ايجاز لبعض فنون الادب فى عهد المغول .

أولا : الشعر :

لم أعثر كما ذكرت على نصوص شعرية يمكن نسبتها الى شاعر مغولى محدد فلا يذكر المؤرخون شاعرا مغوليا كان له ديوان شعر أو حتى مجموعة قصائد أو شئ من هذا القبيل على حين كان الشعر الفارسى على سبيل المثال مزدهرا ورائجا فايران قد تمتعت فى عهد استقرار المغول فيها بحركة ثقافية ممتازة فى مختلف الاتجاهات وقفزت اللغة الفارسية الى مركز الصدارة وبرز شعراء مجيدون كان لهم اثرهم فى الحياة الادبية فى هذا العصر. يقول الدكتور جرانفيل براون" وهناك ثلاثة من اكبر الشعراء الذين نشأوا فى ايران قد عاصروا هذه الغارة وعاشوا خلالها ويقصد بهم "سعد الشيرازى ، وفريد العطار، وجلال الرومى"(٢)

ويشير الدكتور دونالدولبر الى أهم نتاج هؤلاء الشعراء فيقول " وقد ألف جلال الرومى كتابا ضخما أسماه (المثنوى) الذى يعد الكتاب الأساسى للتصوف الفارسى وقد ظل متمتعا باحترام الحكام المحليين فى شيراز وتقدير (أباقا) خان الى أن توفى سنة ٦٩٠هـ. أما سعد الشيرازى فله ديوان أو آثار المجموعة وهى عبارة عن (كلستان) أى (روضة الورد) (بوستان) أى (الحديقة) ومنظومات أخرى صوفية وأخلاقية كثيرة".(٣)

---

(١) قصة الحضارة جـ ٤ ص ١٤٣

(٢) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٤ ،انظرد. السيد العرينى : المغول ص ٣٤٧ ، د. أ.ج.ايرى : تراث فارس ص ٢٧٣

(٣) دونالدولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٠

* الف الدكتور محمد موسى هنداوى كتابا عن حياة الشاعر سعد الشيرازى وتحدث فيه عن الاحداث التاريخية التى عاصرها وتأثر بها. وكذلك كتب الدكتور جرانفيل براون كتابا ضخما عن تاريخ الادب فى ايران اثناء الغزو المغولى فصل فيه نمو الحركة الادبية فى ايران وأشار الى أهم انتاج كبار الشعراء فى هذا العصر.

ولعلنا نلاحظ على الشعر فى هذه الفترة ـ والذى دون معظمه باللغة الفارسية ـ أنه متأثر بالنزعات الاخلاقية والفلسفية كذلك وضحت فيه اللمحات الصوفية ذات الصبغة الاسلامية •

عموما ـ فقد ازداد انتاج الشعراء فى عهد الايلخان المسلم محمود غازان •• فقد ظهر عدد كبير من الشعراء المتصوفة منهم عراقى بن شهريار وهمام التبريزى صاحب رباعيات (ميرهمام) وسعد الدين محمود التسترى صاحب كتاب" كلسن رازا" أى حديقة التصوف، وأوحدى المراغى صاحب كتاب" جام جم" أى"فنجان خمشيد الذى ضمنه كثيرا من المسائل الروحية الاسلامية والذى راج رواجا عظيما حتى قيل انه بعد شهر من ظهوره عملت اربعمائة نسخة وبيعت بسعر حسن وقد كان له ديوان يحتوى على أكثر من ستة الاف بيت من بينها قصائد ورباعيات" • (١)

أما الشعر العربى فان الصدمة المروعة التى أصابت بغداد كانت من أخطر العوامل التى أدت الى انتكاسته وغلبة الضعف عليه فتعددت الاغراض فى القصيدة الواحدة واتسمت الافكار بالضحالة وغلبت المحسنات البديعية المتكلفة على الالفاظ فيه ونضبت قرائح الشعراء عن انتاج الصور الفنية المبدعة • وظل على حاله هذا الى العصر الحديث•

ثانيا: فن القصة :

قالب أدبى فنى له أصول فنية •• ويعتمد على عناصر محددة كالحادثة والشخوص والبناء والزمان والمكان والسرد والحوار والوصف والفكرة•

وفى بيئة الاستبس الفسيحة الممتدة وفى الليالى الطويلة القارسة يتحرك الخيال مسترجعا بعض الوقائع فيسفر عن حكايات عديدة وأساطير وعلى هذا ـ فقد راج فن الحكاية بين المغول على سبيل التسلية وقتل الفراغ• وكان طبيعيا أن تكثر فيه نماذج الحماسة والبطولة فى المبارزة والمصارعة واصطياد الحيوانات •• وربما امتد الامر الى درجة ترويج الخرافات والخزعبلات•

فلما ظهر جنكيز خان ذاعت مع انتصاراته قصص البطولة الخارقة والحكمة الفائقة أدى الى زيادة انتشار القصص بين المغول•

وبالطبع فقد انتقلت حكايات المغول وقصصهم معهم خارج حدود منغوليا ووجد الناس فيها مبعثا للغرابة والتشويق والاثارة فرددوها وربما زادوا عليها •

كذلك فان الكتب التاريخية الشهيرة التى تناولت حياة المغول مثل الكامل لابن الاثير وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى للنسوى ، وتاريخ جهانكشاى للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله قد اعتمدت احيانا على تواتر كثير من القصص التى روت عن جنكيزخان وأجداده•• وكان لهذه الكتب تأثير كبير على المغول وعلى غيرهم أيضا•

يقول بارتولد" وبتأثير رشيد الدين صاغ الترك الروايات الشعبية الاسطورية الخاصة بجدهم أوغوزخان ـ جد الغزية ـ فى قالب أدبى وأخذ أحد مؤرخى آسيا الصغرى الذى ألف قصة أوغوزخان فى القرن التاسع الهجرى الكلمات الحكيمة التى نسبها رشيد الدين الى

---

(١) د• مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٩

جنكيز خان ووضع اوغوزخان مكان جنكيز خان بدون أى تحرج". (١)

أما فى الصين فقد كان التأثير المغولى قويا فى فن القصة الصينى حيث تأثرت كتابة القصص باحداث الغزو المغولى وأحوال أسرة (البوان) يقول وليام لانجر (٢) : أدخل الأدب المغولى فى القصة والدراما فى الصين وكان يصحب الدراما شنشنة موسيقية بالكوسات والطبول ومع أن هذين الفنيين لم ينظر اليهما أول الامر على أنهما من الأدب الرفيع فانهما يعتبران من الاداب ذات المزايا الفنية فى العصر الحالى".

اذن عرف المغول القصة الدرامية وقدموها من خلال الموسيقى التصويرية التى لم تكن على مستوى ما نعرفه الان بالتأكيد.

ويبدو أن هذا اللون من الأدب القصصى المغولى والذى كان مرغوبا لدى الجالية المغولية الضخمة فى الصين قد أتيح له وبتشجيع من الحكام المغول ان يتفوق على أنماط أخرى أدبية عرفت فى الصين من قبل. يقول أرنولد توينبى" وأثناء الحكم المغولى للصين أهمل الادب الكونفوشى الى حد أن نشأت تقاليد ادبية جديدة فى القصة والتمثيلية واستعملت اللغة الحية المعاصرة ومع أن الأدب الكونفوشى عاد الى سابق مجده بعد اخراج المغول فان النوعين الجديدين من الأدب ظلا قائمين" (٣)

وبالطبع فان عبارة اللغة الحية المعاصرة ليست ذات دلالة واضحة فهل المقصود هنا لغة المغول التى تعتمد على الابجدية ا لاويغورية أم أن المقصود هولغة صينية أكثر تطورا فى استعمال مفرداتها ومصطلحاتها من اللغة التقليدية القديمة ، والاحتمال الثانى فى رأيى أرجح بعض الشئ من الاحتمال الاول.

غير أن القضية الاساسية هنا، هى أن فن القصة والتمثيلية الذى وفد مع المغول قد استمر بعد خروجهم من الصين وعودة الأدب التقليدى الصينى إلى وضعه السابق.

ومعنى هذا – فى رأيى – أن هذين اللونين من الفن الادبى كانا على درجة عالية من ا لجودة بحيث استمرا قائمين دون ان يستندا الى حماية من الحكام . ويبدو أنهما كانا يعبران عن فترة تاريخية مهمة فى حياة الصين لايمكن تجاهلها أو اهمالها .

ثالثا: فن المسرح :

فن قديم اشتهر عند الاغريق وتحدث فلاسفة اليونان عن مقوماته وأساليبه وكيف أن الممثل هو المقوم الأول فى العملية المسرحية التى عادة ما كانت تتم بصورة مرتجلة.

وفى العصر الرومانى ازدهرت المسارح وانتشرت فى روما والاسكندرية وانطاكية وكذلك اكتشف موءخرا فى لندن اطلال مسرح رومانى مطمور.

هذا .. وقد عرف فن المسرح عند الصينيين منذ زمن بعيد غير أنه كان فنا ساذجا

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٤

(٢) موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٣

(٣) تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٨١

فلما اتصلوا بالمغول هالهم رقى هذا الفن عندهم بصورة تفوق ما عرفه الصينيون أنفسهم .
ويقول ول ديورانت" (١) واختير كونج دوفو ـ وهو من سلالة كنفوشيوس ليكون مبعوثا صينيا الى البلاط المغولى حيث استقبل فيه استقبالا عظيما شمل فيما شمل تمثيل احدى المسرحيات بيد أن الماجن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج (كونج فو) غاضبا لكنه لما عاد الى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول تحدثوا الى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيرا من كل ما عرفته بلادهم منه .

ويبدو أن هذه الزيارة كانت سابقة على الغزو المغولى للصين فالمسرحية تعكس روح العداء الذى كان يكنه المغول للصينيين فهم يدركون مكانة كنفوشيوس فى نفوسهم .

وما يعنينا هنا أن فن المسرح عند المغول كان فنا متأصلا ومستقلا ونابعا من بيئتهم وأنه كان أكثر سبقا وتطورا مما كان عند الصينيين أنفسهم .. فلما غزا المغول الصين ازداد تأثير المسرح المغولى على الصينيين يقول ول ديورانت" (٢) ولما فتح المغول الصين ادخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الايام هى المسرحيات التى كتبت اثناء حكم المغول " .

ويبدو أن نصوص المسرحيات كانت تترجم الى اللغة الصينية . أما مسألة استمرار هذه المسرحيات حتى الان فأمر يثير الدهشة وان كان يؤكد قول تشتسر أ.بين" ويتبين لنا مدى تقدم الصينيين فى الفنون المسرحية اذا عرفنا أن عدد ١١٦٠ مسرحية من مسرحيات أسرة (يوان) التى أسسها المغول فى الصين لا تزال باقية الى اليوم" . (٣)

ولم أعثر على شئ يشير الى الكتاب المسرحيين الذين ألفوا هذا العدد الضخم ـ على انه يمكننا أن نقدر أن هذه المسرحيات كانت من ذوات الفصل الواحد والديكور البسيط وتتشابك فيها الاحداث حول موقف واحد متصاعد يتوصل الى حله فى النهاية .

عموما فقد لقى هذا الفن تشجيعا رائعا من الحكام المغول بماحقق له الانتشار والذيوع يقول ول ديورانت" و لم يصبح المسرح نظاما قوميا معترفا به الا فى عهد قوبيلاى خان" . (٤)

خلاصة الأمر ، أن الحياة الادبية التى اهتزت بعنف من جراء الصدمة المغولية الاولى قد قدر لها أن تستعيد نشاطها وتزدهر عندما كان المغول يستقرون ويباشرون حياة عادية بين الشعوب التى خضعت لسلطانهم . فاذا كان هذا الامر لم يتيسر لمدينتى بخارى أوسمرقند فمرجع ذلك أن الحروب الداخلية التى اشعلها خلفاء جغتاى بن جنكيز خان مع خلفاء هولاكو حفيد جنكيز خان هذه الحروب التى جعلت من بخارى على وجه الخصوص مكانا موعودا يتلقى الصدمات العسكرية التى كان أعنفها فى عهد اباقا بن هولاكو.

---

(١) قصة الحضارة جـ ٤ ص ١٤٣
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٣
(٣) الشرق الاقصى ص ١٦، ١٧
(٤) قصة الحضارة جـ ٤ ص ١٤٤

حركة البناء والتعمير

يكاد يجمع المؤرخون على اتصاف المغول بالتعطش للدماء والدمار ولايختلفون كثيرا فيما أحدثته الغزوات الاولى للمغول من تدمير شامل للعمائر والمنشآت فى معظم المدن التى هاجموها وبخاصة تلك المدن التى كانت تقيم مساكنها من الخشب كما حدث فى بخارى على عهد جنكيز خان حيث أحرقت معظم بيوتها بالنيران التى أضرمها المغول .

وقد يلتمس العذر للمغول – أحيانا – فهم فى غالبيتهم أهل رعى يقيمون فى الخيام أو من الصيادين الذين يسكنون الاكواخ .. وحتى العاصمة التى شيدوها – بعد استقرار الامور لجنكيز خان – كان بيوتها من القش والطين .

ومن ثم فلم تكن عند المغول معرفة بفن العمارة أو أصول البناء ومن خلال كراهيتهم لحياة اهل القرار تعمقت لديهم فكرة تدمير المبانى والمنشآت .

على أننا ينبغى أن نقدر مدى المبالغات التى أحاطت بالتخريب الذى نسب الى غارات المغول . فالتدمير – فى بعض الاوقات – كان وسيلة عسكرية أو خطة لتأمين تحركات الجيش أوانسحابها غير أن نتائجه فى جميع الاحوال لم تكن ذات صفة انسانية .

وقد يرى بعض الكتاب فى قضية التدمير عند المغول رأيا مخالفا يقول الدكتور محمد موسى هنداوى (١) " والشئ الذى يسترعى النظر ويسجل لهم بكثير من التقدير، أنهم كانوا محبين للتعمير ويكاد يذهب القدماء والمحدثون الى ذلك".

والأرجح – فى رأيى – أن حب المغول للتعمير لم يتضح عمليا الا بعد أن استقرت الامور وخفت حدة الحروب وعاش المغول بين الشعوب التى خضعت لهم وربما ساورهم الشعور بالذنب من جراء ما اقترفوه من تدمير.. يقول الدكتور دونالدولبر" ويبدو أن نشاط حركة البناء قد توقفت فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى فقلما توجد الان آثار قائمة يرجع تاريخها الى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ،وقد حطمت غزوات المغول مبانى لا عداد لها فى فى المدن المدمرة ولم تعد الحياة لحركة البناء فى ايران الابعد ظهور المغول فيها بثلاثين عاما" . (٢)

ومعنى ذلك أن ما دمره المغول من مبان ومنشآت لم يتم بناوءها من جديد أواصلاحها الا بعد مضى فترة طويلة وحتى استقرت الامور بعض الشئ .

هذا – ويعود الدكتور محمد موسى هنداوى فيصرح بما فعله المغول من تدمير للمبانى والمنشآت . ويورد السبب الذى من أجله يغض الطرف عما فعلوه يقول" وحدث حقيقة أن كسدت صناعة البناء وتهدمت عمائر كثيرة وهاجر الصناع والفنانون الى آسيا الصغرى والى مصر ، ولكن مافعله المغول فى سبيل الفن وتشجيع الفنانين يجعلنا نغض الطرف عماحدث فى حروبهم الاولى من تدمير واضطهاد". (٣)

---

(١) سعد الشبيرازى ص ٨٠، نقلا عن جامع التواريخ ج ٢ م ٢ ص ١٨٣ نشر كاتريمر.
(٢) د. دونالد ولبر: ايران ماضيها وحاضرها ص ٨٧
(٣) سعد الشبرازى ص ٨٣ نقلا عن الدكتورزكى محمد حسنى، الفنون الايرانية ص٨٣

عموما .. فان أحفاد جنكيز خان وقد تعلموا الخط الاويغورى ودرسوا العلوم والاداب على أيدى معلمين أكفاء كانوا أخف وطأة من سابقيهم فى الاتجاه نحو التدمير. وهنا هو قوبيلاى قا آن الخان الاعظم الذى اتخذ من بكين عاصمته يشجع حركة البناء والتعمير فى الصين كلها وبصورة منقطعة النظير.(١)

وفى الحقيقة لم يكن قوبيلاى قا آن وحده هو الذى اهتم بتشجيع حركة البناء والتعمير فان هولاكوخان - رغم ماعرف عنه من بأس فى الحروب يصل الى درجة التدمير الشامل أظهر ميلا الى تشجيع حركة البناء والتعمير فى عهده ولهذا نجد منشآت كثيرة تمت تحت رعايته مثل القصور وبعض معابد البوذية ، والمرصد ، ومقر الدواوين الحكومية، ومقبرته الخاصة وعدد من المساجد والمزارات والمقابر وبيوت الضيافة التى تخصص لاستقبال رجال القوافل ، وبعض المصانع اليدوية البسيطة ، والحمامات والاسواق والمدارس .. الخ.

يقول رشيد الدين فضل الله " وكان هولاكو محبا للعمارة وقد بقى كثير من الابنية التى أمر ببنائها فأقام قصراوبنى معابد للاصنام فى مدينة(خوى) وكان يشغل نفسه فى السنة الاخيرة من حياته بالابنية والعمارة".(٢)

ويقول الدكتور دونالد ولبر(٣) " وشيد هولاكو مقبرة له وابنيه لم يبق منهما الا الجدران الاساسية للمرصد ومع ذلك فما زال باقيا فى ايران مائة على الاقل من الابنية المهمة التى بنيت فى عهده أغلبها عبارة عن مساجد ومزارات أو مقابر غير أنه يوجد بينها عدد قليل من الخانات المخصصة لمبيت القوافل".

ويتحدث رشيد الدين فضل الله الهمذانى(٤) عن مدينة ايرانية تدعى (خيوشان) كانت قد خربت عند قدوم جيوش المغول واهملت .. يقول " وأمر هولاكو بتجديد عمارتها ، ودفع التكاليف اللازمة من الخزانة حتى لايتحمل الرعايا عبء هذه النفقات وشيدت المصانع وأقيمت حديقة بجوار المسجد ، وقد تبرع سيف الدين آقا، الذى كان وزيرا ومديرا بالمبالغ اللازمة للتعمير هذا المسجد".

وهكذا تعددت أوجه الانفاق على تعمير واقامة المبانى والمنشآت ، وفى عهد هولاكو أيضا قام علاء الدين بكثير من الانشاءات فقد أمر بعمارة موضع فى نهر جعفر من اعمال واسط اسماه(المأمن) وبنى فيه ديوانا وجامعا وخانا وحماما وسوقا فانتقل اليه خلق كثير، كذلك كانت زوجته تساهم فى انشاء العمائر والمدارس ".(٥)

وفى عهد اباقا كان أهم ما أنشئ من المبانى التاريخية مئذنة جامع الخليفة التى تم تشييدها فى سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩ م ، وكان ذلك فى أثناء ادارة عطاملك الجوينى للعراق،وهى لا تزال قائمة الى يومنا هذا".(٦)

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٦
(٢) جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٣٣٧
(٣) ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٣
(٤) جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٤٩
(٥) د.محمد موسى هنداوى ، سعد الشيرازى ص ٨٢
(٦) د. فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عصر أسرة الايلخانين ص ١١٦

وفى عهد أرغون زاد الاهتمام بالتعمير بل والافتتان فيه • فقد اعاد ارغون تجديد مكان يسمى "باغ منصورية" بعد أن درست وعفت آثارها" . (١)

ومن نفس العمل يقول الجوينى" وقد بالغ ارغون فى تجميلها حتى كانت الجنان تغار منها، وحتى صارت مضرب المثل فى جمالها عند الشعراء فتغنوابها" . (٢)

وفى عهد غازان •• عنى بالمنشآت العامة تجديدا وانشاءًا ففى دائرة المعارف الاسلامية مادة تبريز ، " انه أنشئ فى عهد المغول مسجد ومدرستان احداهماللشافعية والاخرى للحنفية وبيمارستان ومرصد كالموجود فى مراغة ومكتبة ومكان للدواوين ،ومكان يسكن فيه المشرفون على هذه المنشآت وصهريج لشرب ا لمياه وحمامات مزودة بالماء الساخن " (٣)

وبالرغم من أن غازان قد آمر بانشاء مقبرته فى تبريز وأقام الى جواها منشآت عديدة الا أنها لم تكن المكان الوحيد الذى فكر فيه كمقر لراحته الابدية، فقد عقد العزم على أن يتخذ مدينة (شام) مقرا لراحته الأبدية ، فشيد بها بناء أكثر ارتفاعا من الذى ابتناه السلطان سنجر فى مرو — وكان يعتبر — حينذاك — أكثر الابنية ارتفاعا فى العصر الاسلامى" (٤) .

ويبدو أن هذا البناء كان على درجة كبيرة من الضخامة وبالتأكيد استلزم الامر وجود عدد كبير من المهندسين والعمال وأدوات البناء•••• الخ .

وهكذا فان المغول الذين كانوا مدمرين فى أول غزواتهم تحولوا معمرين أو مساهمين فى عملية البناء والتعمير، ومرد ذلك بالدرجة الاولى الى تأثرهم بالشعوب المتحضرة التى خضعت لسلطانهم ولكنها فى الوقت نفسه هذبت الكثير من صفات العنف والقسوة فيهم•

الفن المعمارى :

أدى انتشار الاسلام فى ايران وما حولها شرقا حتى الصين الى تأثر حركة البناء والتعمير بالروح الاسلامية التى كانت تتميز بطريقة خاصة فى الاداء• يقول الدكتور صادق نشأت" ويعد الفن المعمارى فى ايران على عهد المغول امتداد للفن المعمارى أيام السلاجقة" • (٥)

والسلاجقة — كما نعلم — كان أتراكا مسلمين وكان عصرهم عصر بناء وتعمير تعددت فيه فنون العمارة كالزخرفة والنحت والحفر من خلال الذوق الاسلامى الرفيع يقول الدكتور أحمد كمال حلمى " فقد أقام السلاجقة الكثير من المساجد والاضرحة على شكل أبراج اسطوانية أو ذوات أضلاع أو على شكل عمارات ذات قباب" • (٦)

ولم يتوقف الأمر — بطبيعة الحال — عند بناء المساجد والاضرحة فقط بل انه امتد الى مختلف ألوان البناء كالقصور ومقار الحكومة والمقابر والنافورات •• الخ • كذلك

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ١٨٣ نشر كاترمير
(٢) تاريخ جهانكشاى ج ٣ ص ١٠٤
(٣) د•محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٨١ نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية مادة تبريز ص ٥٤٥
(٤) د• محمد موسى هنداوى : المصدر السابق ص ٨٢
(٥) د• صادق نشأت : صفحات عن ايران ص ٧٦
(٦) د• أحمد كمال حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ٢٣١

استخدم السلاجقة الايات القرآنية والاحاديث الشريفة منقوشة بالخطوط المختلفة كوسيلة تجميل هندسى تزدان بها المساجد بوجه خاص ٠

والسؤال الآن ٠٠ ما الاضافات التى جاء بها العصر المغولى ؟

لعل من أهم المزايا التى حققها الانتشار المغولى فى آسيا تنشيط العلاقات المختلفة بين الصين وايران حيث ظهرت اثار ذلك فى الفن المعمارى " وبفضل تشجيع أمــراء المغول وفدت على ايران أنماط زخرفية جديدة من الصين وأخذت الفنون الجميلة بطابعهـــا التركيبى الحديث فى التطور والنضوج" (١)

ويقول بدر الدين حى الصينى" ومن المعلوم أن الايرانيين كانوا يقلدون الصيـــن فى الرسوم والزخارف خصوصا فى عهد المغول فالرسوم التى نقلوها الى صناعاتهم كانت علـــى العموم صور العنقاء والتنين ثم اوراق النباتات الصينية والنيلوفر والخشخاش" ٠ (٢)

ومعنى ذلك أن التناسب الدقيق فى المسافات والاطوال والاحجام الذى كان معروفــا عن السلاجقة فى فنون العمارة وكل مايرتبط بها قد اضيف اليه لمسات جمالية أخرى" مـــن الفن الصينى الذى يعتمد على التصوير والتلوين" ٠ (٣) وكان طبيعيا ان يؤدى الى تطور فى فن زخرفة البناء" قد تطور استخدام الأجر المزخرف الى استخدام الملاط المزين بألوانـــه المختلفة ثم تطور الامر الى استخدام لون جديد فى التجميل ٠ هواستعمال القرميد المصقـــول على الجدران الداخلية والخارجية" ٠ (٤)

فنون أخــرى :

أ ـ صناعة الفخـار :

وهى نوع من الفن يحتاج الى مهارة خاصة فى اعداد الفخار وتكوينه على النحـــو المطلوب ثم يزينه من الخارج على نمط معين ٠ وهذا النوع من الفن كان موجودا ـ ولاشك ـ قبل ظهور المغول فى بلاد المسلمين غير أنه قد ازداد انتعاشا فى عهد مابعد الغـــزو المغولى ٠ يقول دونالد ولبر " وهناك عدد كبير من النماذج الفخارية مؤرخ بعد عـــام ١٢٤٢ م ـ ٦٤٠ هـ وهو دليل على انتعاش صناعة القاشانى فى الرى وكاشان ولقد كشفـت الحفريات التى عملت على طول الركن الجنوبى الشرقى لبحر قزوين ـ فى السنوات الحديثة ـ عن وجود قطع كبيرة هناك" ٠ (٥)

وهكذا تقدمت صناعة نماذج الفخار فى عهد المغول فهناك (السلاطين) المنقوشة وهى لامعة جدا ولها بريق واضح من اللون الاحمر أوالذهبى أوالبنى ، نتج عن تغطية القطـــع المصنوعة بصبغة من اكسيد النحاس أو نترات الفضة،ثم اعادة وضعها على النار حتى ترســب طبقة خفيفة من المعدن على سطح القطعة" ٠ (٦)

---

(١) د٠ صادق نشأت : صفحات عن ايران ص ٢٧٩

(٢) العلاقات بين العرب والصين ص ٢٦٢

(٣) د٠ارنولد توينبى : تاريخ البشرية ج ٢ ص ١٧٩

(٤) دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٣،٧٥

(٥) نفس المصدر السابق ص ٧٤

(٦) نفس المصدر ص ٧٥

وعموما فان الفخار الذى وجد فى العصر المغولى ـ على ما يبدو ـ كان أكثر زخرفة مما كان عليه فى العصر السلجوقى .. يقول دونالدولبر " ويمتاز العصر المغولى بالفن الذى يعرف باسم " الميناء" وفيه تنقش نماذج متعددة الالوان على الفخار المصقول الذى وشى بالذهب بعض رسومه". (١)

(ب) فن نجارة الخشب :

أشرت عند الحديث عن الصناع والحرفيين الى تقدم صناعة الخشب فى مدينة الرى قبل الغزو المغولى . بصفة ملحوظة بحيث صارت هذه المدينة تصدر انتاجها من الخشب المصنع الى مختلف البلاد المحيطة بها.

وهذا الفن يقوم على الحفر فى ثنايا الخشب أو تكوين مجسمات على أشكال هندسية معينة وهو يحتاج الى براعة يدوية فائقة وكذا ذوق فنى رفيع بحيث يظهر روعة هذا العمل فى المنابر وأبواب المساجد والقصور وأثاث الاثرياء والامراء من المغول .. الخ . يقول دونالد ولبر عن هذا الفن فى العصر المغولى " ويلاحظ على هذا ا لفن أن عددا من المنابر وأبواب المساجد والمزارات قد استعمل فيها نموذجان رئيسان احدهما الاشكال الهندسية المكونة من زوايا واضلاع متقاطعة والاخر مكون من أشكال نباتية معروفة متشابكة". (٢)

ويبدو أن النموذج الاول كان راجعا للتأثير الاسلامى منذ عهد السلاجقة أما الثانى فهو نتاج التأثر بالفن الصينى.

(جـ) فن التصوير والرسم :

وهو فن برع فيه الصينيون منذ وقت طويل، وأشار اليه ابن بطوطة فى رحلته المشهورة عن الصين.. يقول الكاتب وليام لانجر" وكان (تشاو منج نو) ١٢٥٤ ـ ١٣٢٢ م ماهرا بصفة خاصة فى رسم الخيل وغيرها من الحيوانات الهامة فى الحياة المغولية". (٣)

ويقول الكاتب الصينى بدر الدين حى الصينى" والتصوير من الفنون التى ظهر فيها أثر الصين وهو من الفنون التى كان الايرانيون والمغول يحبونها ويقلدون الصينيين فى صناعتها ولا ريب أن أثر الصين فى التصوير الاسلامى. فى عهد المغول قد ظهر أقوى مما كان فى عصور قبلهم". (٤)

ولعل هذا يؤكد لنا أن اهتمام المغول بالرسم والتصوير قد زاد اثناء وجودهم فى ايران حيث انتشرت الرسوم والصور الصينية سواء على الورق أو الانسجة أو الاخشاب أو الجدران .

فن صناعة السجاد :

وهو فن اشتهرت به ايران منذ زمن ولازالت تشتهر به حتى يومنا هذا . وفى عهد المغول زاد تشجيعهم لهذا اللون من الفن الذى يعتمد على الرسم والتصوير وبراعة النساجين

---

(١) دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٥
(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٦
(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٣
(٤) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٦٤، ٢٦٨

يقول الدكتور مصطفى طه بدر" وقد شجع غازان خان صناعة السجاد وأسس مصنعا لامداد المساجد بما تحتاج اليه من الاشياء من ضمنها السجاجيد ويقال انه صنع أغلبية السجاجيد اللازمة لمجموعة مبانيه التى شيدها فى شنب غازان فى شيراز وبالنظر الى عدد تلك المبانى واتساعها يمكن تصور كيف تقدم انتاج ايران فى السجاجيد فى عهد غازان" (١) وتلك الصناعة التى كانت قد أهملت تماما فى عهد الفاتحين المغول الاول : جنكيز خان ، وهولاكو (٢) .

صناعة النسيج :

ويقصد به نسيج القطن أو الحرير أوالكتان ٠٠ وهى صناعة انتشرت فى اصفهان وماحولها قبل عصر سيطرة المغول ٠ الذين كانوا يعانون من قلة المنسوجات فى بلادهم - وكان هذاأحد حوافزهم للتبادل التجارى مع الاخرين ممن تتوافر لديهم المنسوجات كالصينيين الذين اشتهروا بنسيج الحرير أو الخوارزميين والايرانيين وكانت لديهم منسوجات متوفرة ٠

عموما فان صناعة النسيج واحدة تعكس أثر المغول فى تدعيم الصلات بين أطراف آسيا المترامية، يقل بدر الدين حى الصينى" وفى المنسوجات الايرانية التى صنعت فى القرن الثالث عشر الميلادى يتجلى بكل وضوح أثر منسوجات الصين ، فان أى قطعة من الديباج الموشى بالذهب عليها زخارف مكونة من أشكال الطير الخرافى "العنقاء" قد تبدو لأول وهلة أنها من منسوجات الصين والحقيقة انها مصنوعة فى ايران فى القرن الثالث عشر الميلادى (٣) أى فى عهد المغول ٠

ولعلنا قد رأينا من خلال كل ماسبق أنعصر المغول لم يكن دمارا كله خصوصا بعد الاستقرار بين الشعوب الخاضعة ٠ حقا ان المغول لم يسهموا هم أنفسهم فى شئ حضارى لكنهم أتاحوا الفرصة لغيرهم فظهرت آثار الاتصال بين الحضارات وتجلت عن نتاج طيب ٠٠ فهذا شأن الحضارة لاتموت أبدا٠ فمهما عم الخراب فانها ستظهر حتما من بين الركام وهذا مافعلته تماماحضارة المسلمين والصينيين٠

---

(١) د٠ مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ،ص ٥٠
(٢) د٠أ٠ح٠ اربرى : تراث فارس ص ٣٠٦ ترجمة أحمد عيسى ٠
(٣) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٦١ ، وانظر حافظ احمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٧٠

الفصل الثانى

أديان المغـــــول

١ ـ رجال الديـــــن

٢ ـ التطور الدينـــى

٣ ـ تعدد الأديـــان

٤ ـ الحرية الدينية ونبذ التعصب الدينى

٥ ـ الطقوس الدينيـــة

٦ ـ دور العبـــادة

٧ ـ أثر الحياة الدينية فى المجتمع المغولى

ـ الشامانيـــة

ـ البوذيـــة

ـ اليهوديـــة

ـ المسيحيـــة

ـ الاســـلام

٨ ـ اراء حول حياة المغول ودينهم

رجال الديـــن :

اذا تأمل المرء الاديان عند المغول هاله هذا التزاحم الخطير بين رجال الأديـــان السماوية المسيحية والاسلام ورجال الاديان غير السماوية : الشامانية والبوذية فكل هؤلاء كانوا يتصارعون فيما بينهم على اجتذاب المغول واحتوائهم . فى الجانب البعيد تراجعت اليهوديـــة كثيرا عن هذا المضمار الذى لم تعد تقوى على المشاركة فيه فآثرت الانطواء والعزلة .

× الشامانيـون :

كانت الشامانية قد انتشرت بين المغول منذ وقت بعيد وبخاصة قبل وصول الأديـان الأخرى الى منغوليا فقد توارثوا اتباعها عن الآباء والاجداد ووجدوا فيها ما يناسب ما هم عليه من ظروف جهل وتخلف "ولم يعرف رجال الدين الشامان اى نوع من التنظيم فيما بينهـم وكانت مراكزهم تختلف حسب شهرتهم (١) . على أن أكثرهم شهرة كان يتقدم على كافة أصحـاب المقامات فى حاشية الامبراطور وكان عادة ما يظهر فى ثياب بيضاء فضفاضة". (٢)

وفى الحقيقة كانوا أولئك جميعا من الكهان أو السحرة الذين يعتمدون على أعمـال الشعوذة والدجل والخرافات مدعين اتصالهم بالغيب " ومن خلال ذلك فالكاهن الشامانـــى الذى يقوم بوظيفة الطبيب يحظى بالمقام الاول لانه وحده - حسب اعتقاد المغول - يستطيع أن يغير الخير أو الشر". (٣)

" ولقد حاول هؤلاء الرجال بما لديهم من دهاء وخشونة استغلال السلطـــة الدينية المعترف لهم بها بغية الحصول على دور شعبى عام وفرض انفسهم على الحكام فلـــم يتردد جنكيزخان وخلفاؤه فى اقصاء أكثرهم ازعاجا والتخلص منهم اغتيالا" (٤) وذلــــك لأن جنكيز خان وان كان عطوفا متسامحا مع رجال الدين الا أنه غاية فى القسوة والعنف معهـــم اذا تدخلوا فى المسائل السياسية بشكل لا يرضيه.

ولقد كان رجال الدين الشامانيون حقيقة على غير مستوى الكفاءة بالقياس الى غيرهم، "ولم يكن دينهم معدودا من تلك الأديان التى تستطيع أن تقاوم طويلا جهود هذه الأديـــان الكثيرة الاتباع والانصار ذات التخطيط المنظم الذى يملك قوة الاقناع وسد حاجات العقـــل بما يملك من دعاة متمرسين متطوعين". (٥)

× البوذيـــون :

يتحدث الدكتور أحمد شلبى عن مدى انتشار البوذية فى الفترة التى سبقت جنكيزخان وفى المناطق التى تجاور بلاد المغول وتحيط بهم فيقول" وفى المدة من القرن السادس الـى العاشر الميلادى استمرت البوذية فى التقدم والانتشار وبخاصة من كوريا والصين الى اليابـان ومن الهند الى نيبال ثم الى التبت وزادت مواكب الحجاج فى هذه الفترة وكثر نشاطهم وتنقلهم

---

(١) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٨٨
(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨١
(٣) د. رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٨
(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠
(٥) د.توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٩١

الى البلاد التى دخلتها البوذية وتعد هذه الفترة من أزهى فترات البوذية من الناحية الثقافية فقد اتضح تأثير البوذية على الاداب والفنون فى جميع البلدان التى دخلتها" (١)

وهذا قول يؤكد على أن الدعاة البوذيين كانوا على درجة عالية من الكفاءة وسرعة الانتشار والقدرة على التأثير.

وتستطيع القول ان الدعاة البوذيين قد نجحوا الى حد كبير فى اضعاف الشامانية أو لنقل انهم تفوقوا على دعاتها تفوقا واضحا" فقد كانوا من الشجاعة بحيث أخذوا يجوبون ديار المغول ويقيمون المناظرات الدينية مع رجال الدين الشامانيين فى حضرة جنكيزخان" (٢)

ويبدو أن المغول قد تأثروا بهؤلاء الدعاة البوذيين وبخاصة حين اتضحت خبرتهم فى المجالات الادارية فقد عهد جنكيزخان الى كثير منهم بأعمال حين اتضحت خبرتهم فى المجالات الادارية فقد عهد جنكيز خان الى كثير منهم بأعمال ديوانه". (٣)

وبدهى أن يؤدى وجود البوذيين فى ديوان الخان الاعظم الى أن يكونوا أكثر دراية بكل ما يجرى فى الامبراطورية بل وبما يتعلق بحياة الخان نفسه ومعتقداته وميوله. حتى جرت العادة عند المغول الا يبرموا الأمور الا وفق ما يشير به الكهان البوذيون". (٤)

وقد أدى هذا النشاط المكثف للبوذية فى بلاط المغول الى اعتناق بعض أفراد من أسرة جنكيز خان البوذية" فكان قوبيلاى أول شخص من تلك الاسرة يخرج عن دين ابائه ويعتنق البوذية". (٥)

واغلب الظن ان ذلك كان بتأثير يى .ليو. جوتساى مستشار جنكيز خان الصينى البوذى الذى أشرف مخيره على تربية أبناء جنكيز خان وأحفاده فلما تولى قوبيلاى قا انخاقان اعظم واستقر فى بكين" خول لامات التبت سلطة عظيمة فى الصين أدت الى ازدياد الجفاء بين الصينيين وحكامهم الاجانب" (٦)

وفى الحقيقة لم يكن قوبيلاى وحده هو الذى تحول الى البوذية فهولاكو شقيقه قد تحول الى هذا الدين قبل حملته الشهيرة على ايران تلك التى صحبه فيها كثير من المغول والاتراك الذين اعتنقوا هذا الدين وعلى هذا فقد نشط الكهنة البوذيون فى نشر دينهم فى ايران بطريقة منظمة وتخطيط دقيق للغاية ومن ذلك أنهم كانوا يحكمون حصارهم حول الأمراء الايلخانيين ليكونوا سندا لهم وعونا على استمرار نشر تعاليمهم فى سهولقويسر." (٧)

---

(١) د.أحمد شلبى : اديان الهند الكبرى ص ١٨٩
(٢) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٩١
(٣) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٢
(٤) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٠
(٥) د. محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص ٦١
(٦) تشتسرا .بين : الشرق الاقصى ص ١٧
(٧) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩١

وكان من جراء ذلك أن اعتنق البوذية من أولاد هولاكو كل من اباقا ، أرغـون ، كيخاتو، بايدو "وحتى غازان نفسه كان قبل اسلامه يقضى وقتا طويلا مع رجال هذا الديـن ويأكل طعامهم ويشرب شرابهم ويعبد الاوثان التى يعكفون عليها" . (١)

ولقد أصبح لزاما على هوءلاء الدعاة البوذيين " الذين كانوا قد وفدوا الى فـارس فى جماعة كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد"(٢) ان يدخلوا فى صـراع مرير مع رجال الدين المسلمين الذين يمثلون القاعدة المسلمة الكبرى فى ايران ومع رجال الديـن المسيحيين الذين كانوا يخطون بمكانة رفيعة لدى الايلخانيين منذ عهد هولاكو خان الـذى عطف عليهم وكرمهم وميزهم عن غيرهم .

هذا ـ ولقد اثرت الحديث عنه رجال الاديان السماوية فى أثناء عرض هـذه الاديان وبيان أثرهم فى اجتذاب المغول اليها فى صورة مفصلة.

مكانة رجال الدين :

شغل رجال الدين مكانةعظيمة عند المغول فكثير ما كان جنكيز خان يستدعـى رجال الدين الوقورين ليتحدثوامعه اذ لم يكن يعترف بغير قوتين لا تقهران ، أحدهما قوة الخان على الارض ،والثانية قوة السماء" . (٣)

ولقد ترك جنكيزخان لابنائه من بعدمنهجا كان عليهم أن يترسموه فى التعامل مـع رجال الدين فقد كان عليهم مثل ابيهم أن يعظموا رجال الدين من كل طائفة" . (٤)

وعلى هذا فقد كان يعرف عن المغول أنهم كانوا يكرمون رجال الدين ايا كـان موطنهم وأيا كانت شخصيتهم" . (٥)

وكان أكبر دليل على تكريم رجال الدين هو اعطاءهم حرية اقامة شعائرهم الدينيـة على اختلافها واختلافهم فقد سمح المغول للكهنة من جميع الاديان والملل أن يمارسوا مـا يحلو لهم من طقوس دينية" . (٦)

وفى الحقيقة كان جنكيز خان من الحكمة بحيث انه لم يتدخل فى شئون الكهنـة الذين كان يقاتلهم فى طرق القوافل والذين وصلت بهم الجرأة أن يتغلغلوا بعيدا الى قلـب آسيا سواء أكانوا كهنة بوذيين أم مسلمين أم مسيحيين" (٧) ،لانه أدرك ان تدخله فـى المسائل الدينية بشكل قاطع او معاد سيجر عليه المتاعب ـ ولربما اجتذب المغول الـى متاهات وصراعات تنأى بهم عن الغزو والسيطرة ، وربما تعود بهم الى مايشبه الصراع القبلى القديم فرأى أن يخطو بذكاء خطوات أخرى أبعد اثرا من التعظيم ومنح حرية العبادة والتنقل.

---

(١) د.مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٤
(٢) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٠
(٣) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٣
(٤) القرمانى : أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٣
(٥) د.محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص ٢٣
(٦) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٩
(٧) المصدر السابق نفسه ص ٦٨

حماية رجال الديـــن :

يبدو أن هذه الحماية كانت بهدف استجلاب رضا رجال الدين أو عدم اثارة البغضاء في نفوسهم خاصة قبيل الحرب أو بعدها فقد كان المغول يدركون تماما مدى تأثير رجال الدين في الناس فقد كانت العاطفة الدينية - آنذاك - قوية متأججة وكان الناس يرون في رجال الدين المثل الاعلى والقدوة الحسنة والملاذ الوحيد" فكان من عادة جنكيز خان أن يحمي رجال الدين" (١) بأن يضعهم دائما تحت مراقبته عند الضرورة أو الحاجة.

وفي أيام الجغتائيين (نسبة الى جغتاي بن جنكيز خان) كان الشيوخ في تركستان يتمتعون بقدر معلوم من الحماية وذلك بفضل مبدأ التسامح الديني من جهة والاعتقاد في هيبة رجال الدين من كل طبقة من جهة أخرى. (٢)

ويبدو أن هذه الحماية قد امتدت من رجال الدين الى من يعيشون حولهم فقد كان بكل مدينة في الغالب واحد أو أكثر من الاولياء ممن كان المسلمون يلوذون بهم في وقت الخطر". (٣)

ولم يكن رجال الدين المسلمون وحدهم من دون رجال الديانات الاخرى هم المستظلون بهذه الحماية " فقد تمتع النصارى النساطرة بحماية تامة فقد انشئ في سنة ١٢٨٩ في الصين ديوان خاص للعناية بشئون المسيحية" (٤) ، وكان رجال الدين البوذيون في كنف الحكام المغول باستمرار ولم يتعرض أحد بالاذى لرجال الدين اليهود فقد كانوا - كما ذكرت - يؤثرون الانطواء والعزلة و العمل في الخفاء.

فاذا حدث موقف شذ فيه المغول عن سياستهم تجاه رجال الدين فهذا لا ينقض هذه السياسة من أساسها ففي بخارى سبق كبار الشيوخ والعلماء المبرزون ليقوموا بخدمة الجند في مجالس الشراب أو ليؤدوا لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الالات الموسيقية وكان من هؤلاء الفقهاء الاجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال" (٥)

وفي الحقيقة كان المغول آنذاك لايزالون متأثرين بدافع الغضب الشديد مما ارتكبه الخوارزميون مع رسل جنكيز خان في "اترار" كما أنهم كانوا في طور ارهاب الاعداء واذلالهم فلما استقرت الاحوال وصار بينهم وبين غيرهم احتكاك غير عسكري عاد المغول الى سابق سياستهم وزادوا فيها.

الاعفاء من بعض المسئوليات الحكومية :

كان المغول يفرضون على الخاضعين لهم التزامات عديدة شاقة منها الانضمام تحت خدمة جيش المغول بالعمل في تعبيد الطرق أو تجهيز مؤن الجيش او اعداد بعض الاسلحة وقد يرسلونهم بعيدا للعمل في خدمة الخان او قواده أو زوجاتهم ، غير أن رجال الدين كان لهم مزية التحرر من ذلك كله فالمغول وقد كانوا حريصين على اكرام رجال الدين عملوا على اعفائهم من الالتزامات المفروضة على غيرهم" (٦) وكذلك اعفوهم " من أداء الضرائب".

(١) د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٩٦
(٢) ارمينيوس فامبري : تاريخ بخارى ص ٢٠٣
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٣
(٤) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩
(٥) ارمنيوس فامبري : تاريخ بخارى ص ١٧٠
(٦) د.محمد موسى هنداوي: سعد الشيرازي ص٩٤ عن الجويني، تاريخ جهانكشاي ج١ ص٩٦

ولقد نصت الياسا على "أن يتحرر من المسئوليات الحكومية كل من الوعاظ والرهبان الذين كرسوا أنفسهم للخدمات الدينية وكذلك المؤذنين". (١)

وهكذا كان لرجال الدين على اختلاف عقائدهم أثر فى حياة المغول كما كان لديهم مكانة ممتازة عندهم فقد نظروا اليهم فى معظم الاحوال نظرة تقدير واحترام بل وتأثروا بهم كماسنرى تباعا.

التطور الدينى :

اختلفت آراء المؤرخين حول التدين عند المغول اختلافا كبيرا فالبعض يرى أن المغول كانوا بغير دين على الاطلاق والبعض يرى أن المغول رغم عدم ايمانهم بدين معين كانوا يعرفون الله تعالى بفطرتهم دون تشريع يهديهم الى ذلك ويرى البعض الثالث انهم كانوا وثنيين يعبدون الاصنام ويرى آخرون أن المغول كانوا يعبدون الشمس أو النجوم أو النار.. الخ ثم ان الاديان السماوية - على تفاوتها - قد ظهرت فيما بعد بين المغول مما أسفر عن هذا الحشد الهائل من تزاحم الاديان المختلفة بين المغول.

ولهذا رأيت أن أتتبع الامر وفقا للترتيب التاريخى. فالمغول الاول كانوا - الى حد كبير - منغلقين على أنفسهم داخل حدود منغوليا. يتطاحنون فيمابينهم على الماء والعشب ويتسابقون الى الاغارة والنهب. ثم حدث أن انتشر الدعاة المتعددون عبر طرق القوافل الى منغوليا وتلى ذلك مرحلة انفتح فيها المغول على شعوب اخرى مختلفة تلتزم اديانا راسخة منذ قرون عديدة، فلنحاول اذن تتبع هذه المراحل.

(أ) مرحلة عدم التدين :

وهى مرحلة انغلاق المغول داخل منغوليا قبل وصول الدعاة اليها بشكل مؤثر وفيها غلبت البدائية على المغول وسيطرت البداوة على حياتهم. فكان أفراد هذه القبائل لا يؤمنون بدين ولا بشريعة ولايعرفون حلالا أو حراما". (٢)

وامام الرياح الهوجاء والعواصف الثلجية والجفاف والتباين الحاد فى درجات الحرارة. شعر المغول بالحاجة الى قوة تحميهم وتدفع الشر عنهم ومن هنا .. وعلى الرغم من عدم وجود دين معين عندهم - فكروا فى وجود اله أقوى أعلى .. يقول المقريزى (٣) "كانوا لا يدينون بدين الا انهم يعترفون بالله من غير اعتقاد شريعة"

ولا يختلف هذا كثيرا عن قول ابن واصل" وهم لايدينون بدين غير أنهم يعترفون بالصانع سبحانه وتعالى ويعظمونه ولايعتقدون شريعة من الشرائع". (٤) فهى محاولة فطرية بالدرجة الاولى. وهى محاولة طبيعية فى أى انسان ولا شك فى ذلك فالانسان يهتدى الى الله بفطرته اولا.

(ب) مرحلة عبادة قوى الطبيعة :

وتلك كانت نتاج عوامل عدة متداخلة منها :

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٤
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ص ٢٠٥
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٤ ص ٣٧

الخوف من الاذى ومحاولة اتقاء الضرر .

(١) عدم القدرة على الاهتداء الى الله بصورة أكثر وضوحا وجلاء.

(٢) نشاط الكهان الشامان وانتشارهم بين المغول .

(٣)

وعلى هذا فقد عبد المغول الشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد والنار والنهر والجبل والشجرة الكبيرة، كما عبدوا الشياطين أيضا تلك التى كان المغول يخافون منها أشد الخوف .

وهكذا وجد الكهان والمشعوذون والسحرة من الشامان الفرصة سانحة لان ينشروا خرافاتهم وشعوذاتهم بين المغول ولقد أشرت فى الفصل الثالث من الباب الثانى الى معظم هذه الخرافات .

(جـ) مرحلة الوثنية (الاصنام) :

وهى مرحلة لا تكاد تختلف كثيرا عن المرحلة السابقة . ويبدو أن عبادة المغول لهذه الاوثان كانت وليدة اتجاهين :

١ – محاولة التزلف الى الله حيث ان خيالهم ما كان ليسعفهم بصورة أخرى غير ما تقع أعينهم . فصنعوا اصناما تخيلوها الاله او تخيلوا أنها تقربهم اليه وتوصل دعواتهم (١)

٢ – ظهور البوذية بين المغول .وهى ديانة – ان صح هذا التعبير – لا تستند الى تشريع سماوى . وقد دأب البوذيون انفسهم على صناعة تماثيل لبوذا كتذكار له. ثم اعتنقوا الها وعبدوه ونقلوا فكرهم الى غيرهم ومن أولئك المغول الذين أصبحوا يعبدون الاوثان" . (٢)

(د) مرحلة "ظهو الاديان السماوية " :

وهى المرحلة التى ازداد فيها نشاط الدعاة والمبشرين من مختلف الاديان السماوية بالاضافة الى الشامانية والبوذية.

واذا كانت الشامانية قد تخندقت داخل منغوليا في الغالب فان البوذية ظلت تصارع فترة اطول محاولة الثبات أمام الاديان السماوية . يقول القلقشندى (٣) . ومنهم من دان باليهودية ومنهم من دان بالنصرانية" .

ويبدو أن اعتناق بعض المغول لليهودية على تقوقعها وللمسيحية على انتشار مبشريها كان سابقا على ظهور الاسلام فى هذه البقاع والذى سرعان ما دخل غمار الصراع على احتواء المغول .

فلما خرج المغول من منغوليا واتصلوا بالشعوب الاخرى ازداد اتصالهم بالأديان الثلاثة البوذية والمسيحية والاسلام حيث كانت الشعوب التى اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث" (٤)

ويبدو أن هذا الصراع على احتواء المغول كان شديدا أو مثيرا فى نفس الوقت الى درجة لم تعجب أحد المستشرقين . فقال " وليس هناك فى تاريخ العالم نظير

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٠

(٢) القرمانى : أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٣ ،
د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص٦٥

(٣) صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٠

(٤) د.انور الجندى: الموسوعة الاسلامية العربية جـ ٥ ص ٢٢٣

لذلك المشهد الغريب ،وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام، وكل ديانة تنافس الاخرى لتكسب قلوب اولئك القساة الذين داسوابأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الاقطار والاقاليم". (١)

غاية الامر أن تعدد الاديان عند المغول قد اسفر فى نهاية عهدهم عن وجود جغرافى اقليمى . يقول الدكتور هارولد لامب " وبعد أن تشتت أمراء المغول - فى أواخر ايام دولتهم - دب النزاع والقتال بينهم واكثر من هذا فقد ارتدوا الى أديان مختلفة فاعتنق البوذية من كانوا فى الصين والاسلام من كانوا فى بلاد الفرس (ايران) فى حين تبع السحرة المشعوذين من بقوا فى الوطن المغولى كمافعل سلالاتهم الان". (٢)

ويمكن أن نضيف الى هذا الرأى ان مغول القبيلة الذهبية منذ اسلموا فى جنوب روسيا على يد بركة خان لايزالون يشكلون جزءا كبيرا من المسلمين فى جنوب الاتحاد السوفيتى حتى الان . ولقد تقدموا مؤخرا بشكاوى الى الكرملين تذمروا فيها من الاضطهاد العنصرى . الذى يمارسه الشيوعيون ضدهم هناك .

الحرية الدينية :

دأب المغول على منح الحرية الدينية لانفسهم ولغيرهم من أبناء الشعوب الاخرى التى خضعت لسلطانهم . كذلك تجنبوا انتهاج مبدأ التعصب الدينى الذى يجافى المساواة بين الاديان ولا يجيز حرية التدين وقد عول جنكيز خان على تشجيع هذا الاتجاه عند المغول والالتزام به. فقد كان من جملة ما شرعه جنكيز خان فى الياسا تعظيم الملل من غير تعصب" (٣)

وفى الحقيقة امتاز جنكيز خان على وجه الخصوص بتسويته بين الاديان جميعا" (٤) فمع أنه كان شامانيا فانه كان يميل الى استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين". (٥)

ويبدو أن مبدأ الحرية الدينية الذى رسخ جنكيز خان دعائمه قد صار قاعدة اساسية التزمها ابناؤه وخلفاؤه من بعده . حتى لقد أصبح من عادة بنى جنكيزخان أن كل من انتحل منهم مذهبا لم ينكره الاخر عليه". (٦)

وعلى هذا فان خلفاءه قد جروا على عدم التفرقة اطلاقا بين المسيحيين والمسلمين والبوذيين ". (٧)

---

(١) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٩١.

(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٦

(٣) د.أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٩

(٤) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٠

(٥) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٤

(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤. ص ٣١٠

(٧) ارمنيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٨١

وعلى سبيل المثال فقد تجرد منكوقا آن من التعصب الدينى فكان لايفرق بين طائفة وأخرى وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة وكفل الحرية الدينية للجميع اذ سمح للواحد منهم أن يناظر الاخر ويجادله فى المسائل الدينية فى حرية تامة". (١)

ويتحدث الدكتور ادوار بروى عن هذه المساواة فى عهد قوبيلاى قا آن ،فيقول : "وقد برهن المغول عن تساو فى كافة أنحاء الامبراطورية حيال الديانات المتجافية فيها . البوذية ، والطاوية ، والكونفوشيسية والمانوية واليهودية والاسلام والمسيحية والنسطورية والكاثوليكية". (٢)

ولم يختلف الحال عن ذلك فى ايران فقد كانت معاملة المغول لاهل الاديان تنطوى على التسامح وعدم التفرقة بين دين ودين". (٣)

وكان ذلك هو نفس الاتجاه لدى المغول المقيمين فى جنوب روسيا ففى عهد بركة خان المسلم اسست فى (سراى) سنة ١٢٦١م ابروشيه مسيحية". (٤)

وامام اجماع المؤرخين على اختلافهم فان الامر يستوجب البحث فى الأسباب الكامنة وراء تشجيع المغول للحرية الدينية ونبذ التعصب الدينى.

أ ـ التقرب الى اللـه :

وتلك نظرة مثالية أشار اليها المقريزى فى قوله عن جنكيز خان" وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة أوأخرى وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى"(٥)

وفى رأيى ان مواقف جنكيز خان العملية ما كانت لتنبئ عن هذا الاتجاه ويكفى أن نسترجع أفعال المغول فى عهده فى اترار وبخارى وسمرقند وغيرهم لنكتشف أن التقرب الى الله ـ كما يقول المقريزى ـ لم يكن موجودا فالتسوية بين الاديان ،وتعظيم الملل جميعا كان لها دوافع أخرى سياسية .

ولا يحول ذلك دون أن تكون هناك مواقف خاصة لبعض الحكام المغول ـ وقد أسلموا ـ تدل على رغبة صادقة فى التقرب الى الله ومن أمثلة ذلك :

١ ـ غضبة بركة خان حاكم القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا مما أصاب المسلمين وخليفتهم على يد هولاكو الذى دمر بغداد سنة٦٥٨هـ .

٢ ـ موقف الايلخان احمد تكودار بعد ان تولى السلطة فى ايران فأرسل الى المنصور قلاوون سلطان المماليك للمصالحة .

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٣٠

(٢) د. اداوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨١

(٣) د.محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٢٣

(٤) د.بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٧

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ ،ومابعدها.

(٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٣٦٧

٣ - مواقف السلطان محمود غازان فى محاربة الامراض الاجتماعية التي أشرنا اليها فى فصل مستقل، كالزنا وتعاطى الخمور والانحلال ... الخ.

(ب) الأهداف السياسية :

كان جنكيز خان - كما أشرت عند الحديث عن رجال الدين - من الحكمة بحيث انه لم يتدخل فى المسائل الدينية ولذا لم يعمد الى تفضيل احدى الديانات على غيرها. ومن هنا اجتاز بذكاء مغبة اذكاء نار التعصب الدينى التى لو اشتعلت بين المغول - وهم اهل بداوة - لكانت أشد خطرا من الحروب القبلية التى كانت منتشرة بينهم من ذى قبل فدل بذلك على دهاء وسعة افق. يقول الدكتور هارولد لامب (١) والمادة الاولى من الياسا تستحق الالتفات والاهتمام اذ جاء فيها" اننا نأمر أن يعتقد الناس كلهم باله واحد خالق السموات والارض وهو المغنى المفقر المحيى المميت كما يشاء المسيطر على الامور بقدرته" وهذا صدى من صدى تعاليم النسطوريين القديمة ولكن جنكيز خان لم يصرح بهذا الامر بين الناس اذ لم يرغب أن يضع الفروق والفواصل بين رعاياه أو أن يثير الخفايا من كوامن لهب المعتقدات".

وهذا النص يشير الى أمور عديدة مهمة يمكن أن نلاحظ عليها :

١ - أن الصراع بين الاديان السماوية المختلفة قد أكد لدى جنكيز خان حقيقة ثابتة هى وحدانية الله فأقر بها.

٢ - ان الياسا تأمر الناس بهذه الوجدانية وتترك لهم حرية اختيار الدين الذى يناسبهم دون ان تتدخل فى هذا الاختيار.

٣ - ان الصدى الذى أشار اليه هارولد لامب لم يكن صحيحا - فهذا الصدى ليس نسطوريا بل هو صدى اسلامى وصل الى جنكيز خان عن طريق بعض مستشاريه من التجار المسلمين.. فالمسيحية فى معظم المذاهب تؤمن بعقيدة التثليث (الأب - الابن - الروح القدس).

٤ - أن المغزى السياسى فى هذا النص يبرز مدى ادراك جنكيز خان لخطورة التفرقة فى المعاملة الدينية بين الرعايا الخاضعين لسلطانه.

وفى الحقيقة كان جنكيز خان على استعداد لتقبل بل ومساعدة أى مذهب يوافق سياسته ولا يعارضها (٢).

ولقد أشرت عند الحديث عن رجال الدين الى اسراع جنكيز خان - وكان شامانيا - الى التخلص من بعض رجال الدين الشامانيين عندما استشعر منهم خطرا على سياسته ونفوذه فبادر الى نفيهم او اعدامهم دون تردد.

وهناك موقف اتخذه احد قواد جنكيز خان ظاهره روح دينية وحقيقته خطة سياسية ترمى الى اظهار ضعف السلطان الخوارزمى - القوى آنذاك - بالقياس الى قوة المغول الذين حرروا المسلمين من اعدائهم ومنحوهم الحرية الدينية على حين وقف السلطان المسلم المتفاخر عاجزا تماما "فكان أول ما فعله" شيبه نويون قائد جيش جنكيز خان بعد استيلائه على مدينة (كاشغر) سنة ٦١٥ ان اطلق الحرية الدينية للجميع وخلص المسلمين مما كانوا

(١) د. هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٥٣

(٢) د. ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٨

يعانونه من ضيق وحرج على يد كوجلك النايمانى فى بلاد الختن وكاشغر وغيرها (١) "وتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول كمحررين لبلادهم" (٢) وبالطبع يمكن للمرء تصور مدى الغضب والحزن الذى تملك السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد الذى كان يعتبر نفسه حامى المسلمين ، فاذا به لا حول له ولا قوة . مما أوحى للمسلمين بتخاذله عن نصرتهم ضد القراخطائيين وكوجلك على حين بدا المغول أقوياء عسكريا متسامحين دينيا .

أما منكو الخان الاعظم فانه التزم سياسة التسوية بين الاديان بدوره لانه رأى فى ذلك خير أداةلتسيير دفة الحكم" . (٣)

فهذا التسامح الدينى كان ظاهريا ولم يكن عن اقتناع حقيقى لا عند منكو أو شقيقه قوبيلاى الذى خلفه فى الحكم . يقول وليام لانجر" قال منكوخان وهو ابن سيدة مسيحية نسطورية واتخذ وزيرا نسطوريا للراهب وليام روبرك رسول لويس التاسع ملك فرنسا الى بلاد المغول" ان الاديان تشبه أصابع اليد الواحدة" ومع هذا كان شديد الميل نحو الديانة البوذية ، وبعد قليل حذا حذوه قوبيلاى" . (٤)

(جـ) ثانوية الدين :

كان المغول بدوا فى معظمهم - وكانت الاديان التى تحيط بهم كثيرة وبصورة لم يحدث لها مثيل . وكانت العقلية المغولية فى الفترة التى نتحدثعنها - على مستوى محدود من النضوج الفكرى .

وكان المغول مبهورين بالانتصارات الهائلة التى أحرزوها والتى أتاحت لهم الاتصال بشعوب لم تكن لديهم معرفة واضحة عنها ومن هنا - وبدافع الفضول - ارادوا أن يتعرفوا على الاديان الاخرى حتى ولقد اشتهروا بفضولهم فى سؤال الاجانب عند ديانتهم دون أن يعنى ذلك بالضرورة اعتناقهم أية ديانة" (٥)

وتقول ايلين بور" وكان مسيحيو أوربا يعلمون جيدا بأن المغول ليس عندهم دين واضح الحدود بين المعالم وأنهم يحبون الاطلاع على جميع العقائد التى تعرض لهم" . (٦)

وفى الحقيقة كان التدين عند المغول مسألة ثانوية ومن هنا فحرية التدين ليست بالامر الخطير الذى يستوجب الحذر أو الخطر ، فهم وان اعطوا الحرية الدينية لرعاياهم ولم يميزوا بين علماء المسلمين وبطارقة المسيحيين ورؤساء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم مبدأ حرية التدين بل لانهم لم يعتقدوا بأى دين من الاديان ولم يجدوا حرجا فى أن يعتنق أى امرىء الدين الذى يميل اليه" . (٧)

---

(١) حافظ احمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٦٦
(٢) د. عبد السلام : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٤٦
(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨٢
(٤) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٢٧
(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨١
(٦) ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٦٥
(٧) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ٦٧

فالدين عند المغول قضية ثانوية مظهرية وعليه فلا مانع من اعلان حرية التسامح الدينى ورفض التعصب ما لم تكن هناك متاعب سياسية وراء ذلك .

وقد يتساءل المرء اذا كان الدين قضية ثانوية لدى المغول فما الجانب المهم الذى يمكن أن يحظى بالمقام الاول فى الاعتبار المغولى .

الانتماء العنصرى :

وتلك قضية كانت تشغل الجانب الاكبر فى تفكير جنكيز خان اذ هو لا يهتم بالدين الذى يختاره الافراد او تنتمى اليه الجماعات . فالاهتمام الاول عنده هو الانتماء الى العنصر المغولى ، وهو انتماء قبلى عصبى بالدرجة الأولى . اذ ليس يعنى الخان سوى انضواء الجميع تحت اللواء عندما يتطلب الامر ذلك ، اذن فلتتعدد الاديان ولكن يبقى الانتماء واحد وعلى هذا يمكن القول أن المغول بوجه عام وجنكيز خان بوجه خاص لم يفرقوا بين الاديان العديدة التى أحاطت بهم ذلك أن الاعتبارات القومية عند المغول كانت فوق الاعتبارات الدينية. وبالتالى فان الاضطهاد أو التعذيب الذى حل بالاهالى فى البلاد المفتوحة لم يكن اضطهادا دينيا لكنه كان اضطهادا سياسيا حربيا شمل جميع الاهالى على اختلاف أجناسهم وأديانهم" (١)

وبالطبع لا يمنع ذلك من أن يكون هناك بعض الحروب والمواقف التى كانت الاسباب الاساسية فيها أسبابا دينية ومنها على سبيل المثال :

١ ـ مواقف أباقا بن هولاكو فى مناصرة المسيحيين بتأثير والدته دوقوزخاتون وزوجته الاميرة البيزنيطة (دسبينا) .

٢ ـ عزل الايلخان المسلم أحمد تكودار وقتله نتيجة لاسلامه وصلاته بالمسلمين فى مصر والشام.

٣ ـ تدمير غازان خان لكافة الكنائس فى ايران وتحويلها الى مساجد وفى الحقيقة لم تكن الكنائس وحدها وانما كل مكان ذا صبغة دينية فقد كان أول "يرليغ" أصدره السلطان محمود غازان هو الزام جميع المغول فى المملكة بالدخول فى الدين الاسلامى وان يتبعوا فى سلوكهم تعاليم الاسلام وأدابه .

أما ثانى "يرليغ" كان تحطيم جميع الكنائس المسيحية ومعابد اليهود والبوذيين وبيوت النار الزردشتية فى كافة أنحاء المملكة وأن يحل محلها المساجد لاقامة شعائر الدين الاسلامى" . (٢)

---

(١) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٢

(٢) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٢

(٣) يرليغ كلمة مغولية تعنى الامر أو الفرمان.

الطقوس الدينيـــة

تحتاج ممارسة الشعائر – فى أى ديانة – الى ألوان معينة من الطقوس يقوم بهـا أوعليها رجال الدين .. وكلما كانت الديانة معرقة فى البدائية ازدادت فيها الطقوس حـدة وأخذت أشكالا عدة من الحركة والعنف .

ولعل هذا ما حدث فى الشامانية التى يمكن أن نسميها ديانة مغولية بالدرجة الاولى حيث انتشرت بين المغول والاتراك الذين جاوروهم ، فقد تعددت فيها الطقوس الحركية وتنوعت على خلاف مايراه باسيليوس خرباوى الذى يقول "وليس عندهم طقوس دينية" (١) .

وجدير بالذكر أن جنكيز خان – وهو شامانى – قد سمح للكهنة منجميع الاديـان والملل أن يمارسوا مايحلو لهم من طقوس" (٢) .

وبالطبع كان ذلك نابعا من الحرية الدينية التى أعلنها المغول – أيا كانت الدوافـع الكامنة وراءها – يقول الدكتور بارتولد" وقد أعدم الابن الثانى لحاكم الأويغور (يارجـوق) ، وكان هذا الاعدام فى عهد الخان الاعظم منكو لانه اتهم بتدابير مؤامرة لقتل مسلمى(بـش باليق) جميعا أثناء صلاة الجمعة" . (٣)

وسنكتفى بالحديثهنا عن الطقوس الشامانية باعتبارها الديانة الاولى فى منغوليا التـى سبقت غيرها من الديانات التى انتشرت بين المغول تلك الطقوس التى كان يقوم عليها رجـال الدين الشامان . فقد خضع المغول فى ممارسة طقوسهم الدينية ألى هؤلاء الشامان وهم أشبه بالقسس ولكن ممن اشتهروابالسحر والقدرة على ذكر النبوءات" . (٤)

ولقد أشرت عند الحديث عن الخرافات كيف أن رجال الدين الشامان كانوا يزعمـون لانفسهم القدرة على الاتصال بعالم الارواح ذلك أنهم يحدثون – أثناء بعض الطقوس-ضجة كبيرة بدق الطبول والغناء الذى يصل بأحدهم الى درجة الغيبوبة حينها يتاح لروح رجل الدين الشامانى ان تغادر جسده فتسافر الى أرض الارواح حيث تتطلع على المستقبل وما سـوف يجرى فيه .

وكلها فى حقيقة الأمر مسائل يعتمد فيها على ايهام الاخرين او الايحاء اليهم بأشياء لايمكن أن تحدث فى حيز الواقع.

كذلك كنت قد أشرت – قبل ذلك – عند الحديث عن طقوس الدفن الى طريقـة المغول العجيبة فى تقديم القرابين المختلفة لارواح موتاهم و تلك كانت تشتمل على حيوانـات وقرابين بشريةوبخاصة عند وفاة احد الخانات الكبار حيث كان يتم اختيار الفتيات الحسنـاوات ثم قتلهن اعتقادا بأن هذا يرضى روح الاباطرة . وبأن أرواح هؤلاء القتلى المحظوظين ستصاحب أرواح الاباطرة العظام الى العالم الاخر .

ويمكن للمرء أن يتصور تلك الطقوس البشعة التى كان يجرى اثناءها القتـل المريع دون شفقة أو رحمة تحت هيمنة رجل الدين الشامانى الذى أصبح وجوده ضـرورة حتمية. (٥)

---

(١) باسيليوس خرباوى ، تاريخ روسيا ص ٦٠

(٢) د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٤٩

(٣) د.بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٩٠

(٤) د.ابراهيم العدوى: العرب والتتار ص ٢٧

(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٨١

ولم يقتصر الامر على الاتصال بالارواح أو طقوس الدفن أو تقديم القرابين بل امتد الى الايهام بالقدرة على التأثير فى بعض قوى الطبيعة. حتى وقر فى نفوس البعض منهم أنه بدون الاذكار والاوراد والطقوس التى يلجأ اليها الساحر الشامانى لا يمكن أن ينزل المطر والثلج". (١)

وبالاضافة الى ذلك كانت الحفلات الدينية فرصة لاقامة الطقوس المختلفة. تلك التى كانت تقام فى معظمها بشكل موسمى .. يقول الدكتور رالف لنتون" وكان رجال الشامان يتعاونون معا على اقامة بعض الحفلات الدينية وكانوا يقيمون بصفة منتظمة فى فصلى الربيع والخريف حفلات موسمية لتمثيل الصراع بين النور والظلام والتعزيز قوى النور وكان يصاحب هذه الحفلات تقديم القرابين" (٢)

طقوس الخصب :

وهو طقس غريب يصعب تحديد مصدره أهو شامانى أم صينى أم بوذى خاصة وأن قوبيلاى كان مغوليا اختار الاقامة فى بكين ثم تحول الى اعتناق البوذية - يقول الدكتور ادوار بروى " كان لسجود (الكوميس) وسكب الخمر الطقسى صداهماحتى فى العيد الكبير الذى أمر قوبيلاى باحيائه فى بكين فى الثامن والعشرين من آب فقد سكب فيه على الارض لاخصابها حليب الافراس الامبراطورية : قربان جماعى يقدم كماذكر" ماركوبولو" للارض والسماء والارواح ،ومن شأنه أن يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار". (٣)

وعموما - فان هذه الطقوس الدينية الغريبة وخصوصا طقوس الجنائز والدفن ظلت منتشرة بين المغول بعد وفاة جنكيز خان لفترات طويلة رغم انتشار الاديان المختلفة حولهم واعتناق كثيرين منهم لهذه الأديان يقول جون ٠أ٠ هامرتن "وعند رحيل ركب الامبراطور قوبيلاى قا أن ١٢٩٤ م، كان القوم يمارسون طقوسا غريبة لاسترضاء الارواح على ماقيل" (٤)

عموما - كانت الطقوس المغولية غريبة بمثل غرابة حياتهم ومعتقداتهم ، غير أن هناك طقسا كانت له منزلة خاصة فى نفوسهم يقول الدكتور بروى" وكان الطقس الذى احتفلوا به اكراما للجدود أهم الطقوس على الاطلاق ، وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة" (٥) لانه على ما يبدو كان مرتبطا لديهم بعقيدة معينة هى عبادة أرواح الاجداد.

دور العبادة

ترتبط العبادة على وجه العموم بزمن معين او مكان محدد يخصصان كلاهما أو احدهما لممارسة مختلف الشعائر المرتبطة بهذه العبادة أيا كان نوعها .

والمغول - وهم دائمو الترحال وراء المرعى أو الصيد او للغزو - كانوا يكرهون المعابد والاديرة لانها لاتناسب حركة التنقل المستمر التى دأبوا عليها كما أنها تحتاج الى

(١) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥١
(٢) د.رالف لنتون: شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٨٨
(٣) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠
(٤) تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٥
(٥) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠

امكانيات اكثر فى البناء والقرار بالاضافة الى أنها كانت - فى نظرهم - مدعاة الى الضعف والتخاذل . يقول الدكتور أحمد شلبى : "والغالبية العظمى من المغول كانت ترى أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الاخلاق وتدعو الى العطف والانسانية وأن هذه الصفات لا تدعو الى السيادة لانه لن يسود البشر غير المقاتل الشرس". (١)

ويرى الدكتور رالف لنتون سبايضاف الى ما سبق يقول" ولم يقيموا المعابد والتماثيل ولم يكن لديهم طبقة منظمة من الكهنة" (٢) فكأن عدم وجود الكهنة المنتظمين كان سببا فى عدم اقامة المعابد والتماثيل لدى المغول .

وأغلب الظن أن هذا انما كان فى فترة ظهور الشامانية بين المغول وتلك كانت تعتمد على بعض الكهنة او السحرة أوالمشعوذين وأولئك لم يروا أهمية لتخصيص اماكن معينة للعبادة فقد كانوا ينتقلون هنا وهناك وراء القبائل وبينها حيث يقيمون طقوسهم على نحو أو آخر. "وكل ماعثر عليه عندهم كان عبارة عن خليط من أكوام الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها وتقام بجوار الانهار أو على قمم الجبال أوتحت الاشجار الضخمة حيث تقدم القرابين المختلفة" (٣)

أولا : المعابد :

يكاد يقترن ظهور المعابد فى حياة المغول بظهور البوذية وانتشارها بينهم ذاك أن اليهودية كدين تبشيرى قد تقلصت - فى الفترة التى نتحدث عنها - فى آسيا الوسطى وبشكل جعل معابد اليهود نادرة الوجود فى غالبية المناطق الاسيوية باستثناء بعض الانحاء فى ايران والعراق والشام - ولا نكاد نسمع شيئا عنها الا ما أورده ابن الوردى (٤) اثناء الحديث عن غزوات هولاكو فى بلاد الشام . يقول" فى سنة ٦٥٨ هـ سقطت حلب فى يد هولاكو ولم يسلم من أهلها من القتل الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخي مزدلين ودار البازياد ودار علم الدين قيصر الموصلى والخانقاة التى فيها زين الدين الصوفى وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات بأيديهم سلم بهن فى هذه الاماكن مايزيد على خمسين ألف نسمة".

وهذا الرأى يشير الى وجود معبد لليهود فى حلب فى عهد هولاكو كذلك تعرضت معابد اليهود على قلتها لخطر التدمير أيام الايلخان أحمد تكودار وسلفه محمود غازان حيث حولت معظمها الى مساجد.

وعلى هذا فقد اسفر نشاط الدعاة البوذيين فى آسيا الوسطى على عهد المغول عن انتشار ملحوظ لمعابد البوذية وتماثيل الاله بوذا فى كثير من الانحاء. يقول الدكتور هارولد لامب" وحيثما تسلق المغول المسالك التى تؤدى الى باميان استوقفهم منظر عجيب اذ كان يجلس عند سفح جبل باميان أشخاص من الحجر غاية فى الضخامة ولم تكن هذه سوى تماثيل الاله بوذا القديمة ،وكان المغول الذين رحلوا شرقا وغربا قد وقعت أبصارهم

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٦
(٢) شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٨
(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٥
(٤) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٠٣

على تماثيل اخرى تشبه هذه التماثيل فى معابد الصين وفى صحراء جوبى". (١)

ولعل هذا الرأى يكشف عن مدى الاتساع الذى انتشرت خلاله معابد البوذية خصوصا فى المساحة الممتدة من الصين شرقا حتى ايران غربا بما فى ذلك التركستان والتبت.

ولما تمكن الدعاة البوذيون من التأثير فى الحكام المغول والتغلغل فى أعمال الدواوين منذ عهد جنكيز خان نفسه فقد أخذت المعابد البوذية تنتشر بكثافة أكبر. فمنكو الخان الاعظم كان يشجع البوذية تشجيعا واضحا رغم مناداته بالحرية الدينية ونبذ التعصب الدينى وقوبيلاى خليفته اعتنق البوذية فازداد انتشار المعابد البوذية فى الصين ومنغوليا والتركستان.

كذلك فان هولاكو — وهومعاصر لقوبيلاى — اعتنق البوذية بدوره فعمد الى تشييد معابد عدة فى مدينة (خوى) فى ايران.

فاذا قدرنا أن هولاكو وبنيه كانوا بوذيين وكانت زوجاتهم مسيحيات نسطوريات. فان بناء المعابد البوذية كان يجب أن يأخذ اتجاها آخر " فقد انتشرت معابد البوذيين على حساب مساجد المسلمين". (٢)

وكان وصول أحمد تكودار اول الايلخانيين المسلمين الى الحكم (٦٨١ — ٦٨٣هـ) ايذانا بتغير الحال — مؤقتا — فقد ترتب على اسلام تكودار أن حولت المعابد البوذية والكنائس الى مساجد". (٣)

غير أن قادة المغول فى ايران سرعان ما تآمروا على هذا الايلخان المسلم وقتلوه بعد فترة قصيرة من توليه. فكانت وفاته مؤشرا بعودة تأثير البوذية مرة أخرى وبالتالى الى انتعاش بناء المعابد البوذية من جديد. فاستمر ذلك الى قبيل ارتقاء غازان لعرش الايلخانية يقول الدكتور مصطفى طه بدر " ويقال ان غازان بنى معابد بوذية عديدة فى خراسان عندما كان حاكما عليها قبل ارتقائه العرش الايلخانى فى ايران وقبل اسلامه بالطبع". (٤)

فلما أسلم وغدا ايلخانا على ايران كلها اتخذ خطوة جريئة حيال مختلف دور العبادة غير الاسلامية.. يقول عباس العزاوى " وحين جلس السلطان غازان أصدر يرليغا (فرمانا) تضمن تقويض دور الأصنام والكنائس ومعابد المجوس وأن تحول البيع الى مساجد" (٥).

عموما" يمكننا أن نعتبر عهد غازان بداية النهاية لوجود المعابد البوذية او غيرها فى ايران. ذلك أن الطابع الذى اتسمت به البلاد من الناحية الدينية لم يعد يسمح بوجود أى دور عبادة غير اسلامية.

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٨
(٢) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩١
(٣) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ٦٠
(٤) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٤
(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٦٨

ثانيا : الكنائـــس :

أدى انهيار امبراطورية الفرس امام ضربات المسلمين فى القرن الاول الهجرى الـــى افساح المجال أمام الديانات السماوية كى تنفذ الى أواسط آسيا عبر ايران .

ومن خلال التسامح الدينى الذى التزم به المسلمون وجد الدعاة المسيحيون الفرصة سانحة فانتشروا عبر طرق القوافل واقاموا كنائس عديدة فى مختلف انحاء آسيا تقريبا يقـــول الدكتور ادوار بروى " انتشرت النسطورية فى آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن الميـــلادى بفضل كنائس ايران . ولكن التانغ (حكام الصين) حرموها سنة٨٤٥م فتلاشت بعد ذلـــك فى الصين بيد أنها حافظت على حيويتها فى التركستان فاستعادت نشاطها التبشيرى فى الشرق لاسيما فى أواسط بعض القبائل المغولية وهكذا حتى فتح لها الاحتلال الجينكيزخانى أبـــواب الصين مرة أخرى" .(١)

ولعلنا لاحظنا أن الكنائس المسيحية كانت تنتشر مباشرة عقب انتهاء حركات الغـــزو مستغلة الاحداث وما يترتب عليها من نتائج "يقول الدكتور هارولد لامب " وقد سمح المغولـــى الذى اعقب مرحلة الذعر والدمار بألا تمس الكنائس بضرر" .(٢)

كذلك كانت الكنائس المسيحية - وقد استفادت من الحرية الدينية التى التزمهـــا معظم الحكام المغول - تحظى بمساندة خاصة مميزة .

يقول الدكتور ستيفن رنسيمان" وكان النساطرة الذين انتشرت كنائسهم عبر آسيـــا يستطيعون أن يؤكدوا أن جنكيزخان لم يكن يكره المسيحيين" (٣)

وكان طبيعيا أن يتمخض الامر عن مزايا أخرى تحظى بها الكنيسة على الاقل فيمـــا يخص رعاياها. يقول الدكتور ادوار بروى "وتمتعت كل كنيسة بنظام قانونى وصلاحيات قضائيـــة عادلة "(٤)

وهذا الرأى يشير الى خضوع المغول اوغيرهم من النساطرة الى النظام الكنسى الـــذى قد يتعارض مع الياسا فى غير قليل من الاحكام.

وفى عهد أوكتاى زاد انتشار الكنائس النسطورية ذاك ان زوجته الاميرة نوراكينا خاتون وهى مسيحية من النايمان كانت تسعى الى تحقيق ذلك. ولعل هذا يفسر لنا السبب فـــى وجود كنيسة عند قصر ابنها الخان كيوك"(٥) رغم أنه لم يكن مسيحيا.

وفى عهد منكو ازداد الضغط أو لنقل الحصار حوله فأمه الاميرة"سرقويتى" مسيحيـــة من الكرايت. وكذلك كانت زوجته ولقد أشرت عند الحديث عن اثر المرأة المغولية فى الحيـــاة الدينية كيف كان منكو يواظب على حضور قداس الاحد ارضاء لامه وزوجته.

ولعل ذلك كان واحدا من أهم أسباب الحماية التى حظت بها الكنائس النسطورية فى معظم آسيا .

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢

(٢) د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٤٩

(٣) د.ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٢٤

(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨١

(٥) باسيليوس خياوى : تاريخ روسيا ص ٧٣

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك المساعى الدئمة التى يبذلها هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى . يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور" وفى المحادثات التى جرت بين منكوخان، هيثوم الاول سنة١٢٥٤م اعلن عن وضع الكنيسة ورعاياها فى جميع البلاد التابعة للخان الاعظم تحت حمايته ورعايته". (١)

أما قوبيلاى قا أن فقد كان عهده أكثر ملائمة للانتشار المسيحى يقول الدكتور ادوار بروى" ويجب أن نعزز مكاناخاصا فى حاشية قوبيلاى النسطورية للامير (كورغوز) والذى كان حفيدا للامبراطور منجهة أمه ولم ينقطع بهذه الصفة عن استخدام نفوذه فى البلاط لخير المسيحيين فأسس المدارس والكنائس النسطورية" (٢)

ويشير وليام لانجر الى بعض مظاهر المد الكنسى فى الصين على عهد قوبيلاى يقول "تمتع النصارى النساطرة بحماية تامة فقد أنشأ بطريق بغداد مطرانية فى بكين سنة ١٢٧٥، وبنيت الكنائس فى تشين كياتج سنة١٢٨١ م وكذلك يانج تشو وهانج تشو ثم أنشئ فى سنة١٢٨٩ م ديوان خاص للعناية بشئون المسيحية". (٣)

وهذا القول يشير الى استغلال النساطرة لموقف قوبيلاى قا آن من المسيحية حيث عمدوا فى سرعة كبيرة الى انشاء الكنائس فى كل مكان أتيح لهم فيه ذلك.

وهكذا قدر للمسيحية النسطورية التى انطلقت من كنائس ايران ان تثبت وجودها وامتدادها فى أرجاء شتى من آسيا.

واذا كانت قد تلقت دعما قويا من أرغون - حاكم ايران المغولى قبل حملة هولاكو الذى عينته الوصية على العرش الخاقانى الاميرة ثوراكينا والذى عمل على ارضائها بشتى السبل فسمح للكنائس النسطورية بأن تستمر فى أداء دورها فى ايران وما حولها وأن توسع من دائرة انتشارها. فانها واجهت مقاومة عنيفة من البوذيين فى التبت والهند والصين كما وجدت مقاومة أشد من المسلمين فى بقية اجزاء امبراطورية المغول.

ولقد كان وصول هولاكو الى ايران على رأس حملته الشهيرة ايذانا بنشاط مسيحى أوسع. فقد كان هولاكو شأن أخيه محاصرا بأمه النسطورية"سرقويتى" وزوجته الاميرة"دوقوز" وهى نسطورية من الكرايت وكانت زوجة لابيه تولوى بن جنكيز خان ثم آلت اليه. وكانت ذات شخصية قوية ومكانة بارزة بين كبراء المغول.

وبتأثير هذه الاميرة اقيمت الكنائس النسطورية فى جميع البلاد التابعة لهولاكو خان يقول رشيد الدين " وكانت دوقوزخاتون تتمتع بمنزلة فكان هولاكو يرعى المسيحيين ويعزهم ارضاء لها حتى أنهم كانوا يقيمون الكنائس فى جميع الممالك - كما أقيمت كنيسة فى مخيم (أوردو) دوقوز دقوا فيها النواقيس". (٤)

وبالرغم مماعرف عن المغول من التزام الحياد بين الاديان المختلفة فانهم أمام التأثير النسطورى الكامن فى نساء الحكام قد تخلوا عن ذلك وانحازوا الى لون من التحيز المقيت يقول أنور الجندى " وقد كان المغول يسرفون فى اضطهاد المسلمين فى الشام وامتهان

---

(١) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: الحروب الصليبية، ج ٢ ص ١١٠٢
(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٨٤
(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٢
(٤) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٢٠

مساجدهم بقدر ما أسرفوا فى تأمين المسيحية واحترام كنائسها ودورها" (١)

وعلى هذا فقد اقترنت فتوحات المغول فى الشام على وجه الخصوص بمخالفات واضحة فى هذا المجال. يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور " وفى عهد هولاكو لم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة فى حلب فى حين حرص هيثوم الاول ملك ارمينية على احراق جامع حلب بنفسه". (٢)

وما حدث فى دمشق لم يكن ليختلف كثيرا عما حدث فى حلب. يقول المقريزى فى حوادث سنة ٦٥٨ هـ. استطال النصارى بدمشق على المسلمين فشكوا أمرهم لنائب هولاكو كتبغا فأهانهم وضرب بعضهم وعظم قدر قوس النصارى ونزل الى كنائسهم وأقام شعائرهم" (٣)

وطبيعى أن يكون لكل فعل ما يكافئه من رد الفعل فالمسلمون عندما كانت تتاح لهم فرصة الانتقام ما كانوا ليتورعون عن اغتنامها يقول ابن الوردى "واشتهر بدمشق خروج العساكر من مصر فاوقعوا بالنصارى وكانوا قد استطالوا بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع فنهبهم المسلمون فى سابع عشر رمضان سنة ٦٥٨ هـ وخربوا كنيسة مريم وكانت عظيمة فى جانب دمشق" (٤)

وفى عهد اباقا بن هولاكو وقد تزوج من الاميرة البيزنطية دسبينا ــ وقد توفى أبوه هولاكو قبل أن يتزوجها ــ مارس المسيحيون نشاطهم فى حرية تامة فازدادت كنائسهم انتشارا فقد عمد اباقا نفسه الى مشاركة المسيحيين اعيادهم ومواسمهم والتى غالبا ما كانت تقام فى الكنائس والاديرة يقول حسن الامين" وكان للملكة دسبينا تأثير قوى على زوجها اباقا ابن هولاكو وأثر بعيد فى توجيه سياسته نحو رعاية الكنائس الشرقية على اختلافها فى داخل بلاده" (٥).

وعقب وفاة أبا قا بن هولاكو تولى شقيقه أحمد تكودار المسلم فاضطرت الكنائس النسطورية الى تجميد نشاطها حيث ان وجودها ذاته تعرض لخطر الهدم الذى أمر بتحويل معظمها الى مساجد.

وبمقتل تكودار عاودت هذه الكنائس نشاطها ونهضت الاميرة البيزنطية دسبينا بمهمة مداومة التأثير على الحكام المغول فى ايران واستمر ذلك حتى عهد بايدوخان (١٢٩٥ـ١٢٩٦م) الى كان يعتز بها وينقاد لمطالبها ، يقول الدكتور مصطفى طه بدر" ولما كان بايدو شديد العطف على المسيحيين ــ رغم بوذيته ــ فقد سمح بأن تكون لهم كنائس وأن يدقوا أجراسهم فى معسكره". (٦)

---

(١) انور الجندى : الموسوعة الاسلامية العربية ج ٥ ص ٢٢٦

(٢) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١٢٥

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٢٥ ،ابن كثير ج١٣ص٢١٩

(٤) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٠٦

(٥) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٦٤

(٦) د. مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص١١

وهكذا غدت ايران مركزا مهما لانتشار الكنائس النسطورية عبر اسيا. ينطلق من خلالها المبشرون المسيحيون صوب الشرق غير أن الانتكاسة الحقيقية التى منيت بها تلك الكنائس قد ظهرت بوادرها منذ اللحظة التى اعتلى فها السلطان محمود غازان عرش الايلخانية فى ايران. يقول الدكتور جرانفيل براون "ولم يكد غازان يجلس مكانه حتى اعلن اعتناقه للاسلام وامر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية فى ايران" (١) فكان ذلك ايذانا بانهيار الانتشار الكنسى عبر ايران وعليه فقد بدأ الوجود المسيحى فى الاضمحلال تدريجيا حتى تلاشى تقريبا فى ايران على عهد المغول.

ولم يكن الوضع ليختلف كثيرا فيما يتعلق بالقبيلة الذهبية فى جنوب روسيا على الرغم من هول البداية التى فوجئ بها المسيحيون فى روسيا وأوربا كلها حيث هاجم باتوخان حفيد جنكيز خان الروس فى ضراوة بالغة يقول الدكتور السيد الباز العرينى " وشهدت مدينة فلاديمير فى روسيا عند سقوطها عنوة فى ١٤ فبراير ١٢٣٨ م افجع المناظر اذ دارت المذبحة فى كل السكان الذين لجأوا الى الكنيسة وسط اللهب." (٢)

على أن هذا الموقف لاينبغى أن يحمل على أنه اضطهاد دينى للمسيحيين الروس أو كنائسهم فقد كان ضرورة عسكرية اقتضتها طبيعة الغزوعلى النمط الحربى المغولى. وعليه فما أن هدأت الاحوال حتى عاد المغول الى تطبيق مبدأ حرية التدين والتسامح الدينى. يقول باسيليوس خرباوى " وفى سنة ١٢٦١ م أمر خان (سراى) ببناء كنيسة ودار أسقفية فى عاصمته" (٣). فاذا ما تذكرنا قول بارتولد" وفى عهد بركةخان المسلم اسست فى(سراى) سنة ١٢٦١ ابروشيه مسيحية" (٤) ادركنا أن كلا الرأيين يتحدث عن شئ واحد هو التسامح الدينى الذى التزمه المغول فى عهد بركة خان الذى كان اول خانات المسلمين المغول فى جنوب روسيا.

هذا .. وقد استمرت شأن المغول مع الكنائس المسيحية فى جنوب روسيا فترة طويلة. يقول باسيليوس خرباوى" وقد أصدر الخان ازبك سنة ١٣١٣م فرمانا استجاب فيه لطلب اسقف موسكو فقد أثبت فيه امتيازات الكنيسة واحترام كل مايخصها وجعل قصاص تدنيس الاشياء المقدسة فيها الموت ولم يحرم الاديرة نصيبها فقد زادت عددا وثروة وتوفرت اوقافها وبالاجمال كانت معاملة المغول لكنيسة وكل مايتعلق بها حسنة ممدوحة". (٥)

ثالثا: المساجد:

دأب التجار المسلمون على اجتياز طرق القوافل عبر التركستان الى الصين حيث كانت تروج تجارة الحرير على وجه الخصوص.

وأمام انتشار المعابد البوذية والكنائس النسطورية لم ينس هؤلاء التجار المسلمون ان يقيموا الزوايا هنا وهناك وأن يساهموا. قدر استطاعتهم فى اقامة المساجد ما أتيح لهم ذلك.

وعلى هذا فقد نهضت دور العبادة الاسلامية – على بساطتها – بأداء دورها فى بث تعاليم الدين الاسلامى فى أواسط آسيا.

---

(١) د. جرانفيل براون: تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٦
(٢) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ١٨٥
(٣) باسيليوس خرباوى: تاريخ روسيا ص ٧٣
(٤) د. بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٧٧
(٥) باسيليوس خرباوى: تاريخ روسيا ص ٧٣

ولم يلبث المسلمون أن تغلغلوا بين القبائل المغولية فى ظروف صعبة فقد سبقهم الدعاة البوذيون والمبشرون المسيحيون الى هناك • كذلك كانت الشامانية منتشرة بين المغول غير أن التأثير الاسلامى قد أثبت وجوده بين كل هوءلاء حتى داخل العاصمة المركزية للمغول يقول الدكتور هارولد لامب" وفى قراقورم كانت تطل معابد البوذيين القديمة والجوامع المشيدة من الحجر وكنائس ا لنسطوريين المقامة من الخشب" (١)

وأغلب الظن أنهذه الزوايا أو تلك المساجد فى معظمها – نتيجة للظروف التى أحاطت بانشائها – كانت صغيرة الحجم خالية من فنون البناء والزخرفة باستثناء ما قام به سلفا بعض سلاطين السامانيين أو السلاجقة او الخوارزميين من بناء بعض المساجد الفخمة فى المدن الرئيسة فى ايران أو خوارزم وغيرهما • ولهذا فجنكيزخان عندما وقف امام المسجد الكبير فى بخارى ظنه قصر السلطان الخوارزمى • يقول أرمنيوس فامبرى" وفى بخارى لفت نظر جنكيزخان لدى ولوجه المسجد الجامع الفخم وكان السامانيون قد بذلوا فيه كثير منالاموال ليبدو فى أروع صورة فدخله بفرسه ووقف بازاء المنبر وظنه أول الامر قصر السلطان حتى اذا ما قيل له بأنه دار عبادة نزل عن دابته ورقى بضع درجات من المنبر" (٢)

ونفس الموقف صورة الكاتب الصينيف•يان" وسأل جنكيز خان أهذا قصر الحاكم • فقال أمام المسجد ، بل هذا بيت الله، وهز الخاقان رأسه ثم افترش قمة الدرج الذى فرش له بالسجاد الفاخر ومن حوله بنوه وكبار رجال حاشيته"• (٣)

وهذا الموقف – فى ظاهرة – قد ينبى عن احترام جنكيز خان لمساجد المسلمين غير أنالحقيقة توءكد عكس ذلك• وتسوق مثالين دليلا على ذلك •

أولا : مافعله جنود جنكيزخان بمحتويات مسجد بخارى – يقول الدكتور الصياد نقلا عن الجوينى "وحمل جنود جنكيز خان الى فناء المسجد عدة صناديق تحوى مصاحف القرآن الكريم والقوا بها تحت حوافر الخيل وحولوا الصناديق الى مزاود للخيول" (٤)

ثانيا : ما فعله جنود جنكيز خان فى مدينة باميان• يقول الدكتور هارولد لامب " وتظاهر المغول بمغادرة المكان ولكنهم أجبروا أحد الموءذنين أنيدعو المسلمين للصلاة من فوق مئذنة المسجد فما أن سمع الاهالى الاذان حتى خرجوا من أمكنة اختبائهم فقبض المغول عليهم وابادوهم عن آخرهم" (٥) •

ولعل هذا يوءكد ماسبق أن أشرت اليه من التسامح الدينى عند المغول كان فى الاعم الاغلب مسألة سياسية او لنقل مسألة ثانوية •

---

(١) د•هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨١
(٢) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٧٠
(٣) الكاتب الصينى•ف• يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٨
(٤) د• فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٦٢ نقلا عن الجوينى، تاريخ جهانكشاى ج ١ ص ٨٠
(٥) د• هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١٨

الا أن هذا كله لم يحل دون انتشار المساجد والزوايا فى أرجاء امبراطورية المغول . فهولاكو رغم بوذيته ومجاملته للمسيحيين قد سمح باقامة العديد من المساجد يقول دونالدولبر "ومازال باقيا فى ايران مائة على الاقل من الابنية المهمة التى بنيت فى عهد هولاكو أغلبها عبارة عن مساجد ومزارات أو مقابر" (١) .

ويتحدث رشيد الدين عن مسجد كبير بنى فى مدينة خبوشان الايرانية "واقيمت حديقة بجوار المسجد ، وقد تبرع سيف الدولة أقا الذى كان وزيرا بالمبالغ اللازمة لتعمير هذا المسجد" (٢) .

واذا كان ابا قا بن هولاكو قد دعم الوجود الكنسى فان الايلخان المسلم أحمد تكودار قد عمل بقوة - رغم قصر ولايته - على تدعيم وجود المساجد وعمارتها وزيادة عددها يقول ابن تغردى " وبنى السلطان أحمد تكودار المساجد والجوامع" (٣) .

كذلك ذهب تكودار الى ابعد من ذلك "حيث أقدم على هدم كثير من الكنائس والمعابد وأبقى على بعضها وحولها الى مساجد" (٤)

وكان طبيعيا أن يواجه المسلمون ومساجدهم مصاعب عدة عقب مقتل تكودار الذى حفز اسلامه ومساعدته للمسلمين الضغينة فى نفوس الحكام المغول بعده فى ايران (أرغون - كيخاتو - بايدو) فقد كانوا بوذيين متعاطفين مع المسيحيين ولايحبون المسلمين .

أما عهد السلطان محمود غازان فقد كان بحق عهد قمة انتشار المساجد فى ايران على عهد المغول . يقول الدكتور مصطفى طه بدر" ومن مظاهر عز الاسلام وارتفاع شأنه فى ايران على عهد غازان أن المساجد اصبحت تبنى بكثرة فى المدن والقرى كذلك امر غازان أن تحول الكنائس والبيع والمعابد الى مساجد كما أنشئت الحمامات كى يستطيع الناس أن يتعبدوا أو يؤدوا الفرائض كما يحبون" (٥)

فلاغرو اذن أن يكون المسجد أحد المبانى التى تحيط بمقبرة غازان التى أقامها فى حياته ولا غرو ان يقيم غازان مصنعا فى تبريز لصناعة السجاد الذى كان يخصص جزء كبير منه لفرش المساجد .

وفى جنوب روسيا حيث كانت تقيم القبيلة الذهبية فان عهد بركة خان بن جوجى يعتبر - ولاشك - دفعة قوية للاسلام هناك .

---

(١) د. دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٣
(٢) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٤٩
(٣) ابن تغردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج ٢ ص ٢٥٤
(٤) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٩
(٥) د. مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٦، ٤٨

فقد كان اسلامه فاتحه خير على المسلمين وموءذنا بانتشار مساجدهم فى غالبية المناطق التابعة لحكم القبيلة الذهبية .. يقول ابن خلدون "واتخذ بركة المساجد فى جميع بلاده" . (١)

وفى الحقيقة - كما يقول بارتولد - لم يكن بركة وحده هو المسلم بل كان نساوءه ورجال حاشيته مسلمين وكل لكل سيده ولكل أمير امام وموءذن" . (٢)

وبارتولد يقصد بكلمة (سيده) كل زوجة من زوجات بركة خان وكبار رجال دولته، ولا يقصد كل امرأة مغولية عادية فى القبيلة الذهبية بطبيعة الحال . غير أن هذا القول يعكس من ناحية أخرى كثرة المساجد بالقياس الى عدد كبار رجال الدولة وزوجاتهم.. يقول المقريزى " وأسلمت (ججنك) زوجة بركة خان واتخذت لها مسجدا من الخيم" (٣)

ويرسم استراجانوف - صورة المساجد فى عهد بركة.. يقل " وفى بلاد بركة خان كانت المساجد من الخيم وتحمل معه ولها أئمة وموءذنون وتقام فيها الصلوات الخمس" (٤)

واستمرار الاسلام فى جنوب روسيا بعد وفاة بركة خان يوءكد بقاء وجود المساجد واستمرارها فى أداء رسالتها هناك .

الشامانيــــة

تحدثت عن هذه الديانة - ان صح هذا التعبر - من قبل فى مواضع سبقت وذكرت أنها انتشرت فى منغوليا بين غالبية المغول وكذا القبائل التركية التى جاورتهم فيها .

وتحدثت كذلك عن رجال الدين الشامان الذين لم يعرفوا التنظيم الكهنوتى الدقيق، رغم أنهم كانوا يشغلون مكانةعالية لدى الخانات والجماهير حتى عهد جنكيز خان وأبنائه .

وأشرت كذلك الى اضطرار جنكيزخان الى التخلص من بعضهم عندما كان يتفاقم خطرهم بصورة تهدد نفوذه أو توشك أن تدمر علاقته بأسرته. يروى الدكتور هارولد لامب .. كيف فكر (تبتنجرى) - وهو شامانى ساحر وطبيب فى نفس الوقت - فى التخلص من جنكيز خان بدفعة الى محاولة قتل أخيه القوى (كاسار) .. وذلك بأن أخبر جنكيز خان.. أنه - أى الساحر - قد طار الى اعالى السماء على أجنحة طائر كبير حيث استمع الى نبوءة فى العالم الاخر. نقول ان تيموجين سوف يحكم شعبه لمدة وجيزة وبعده يجئ كاسار الى الحكم" (٥) ولولا تدخل الام العاقلة بين الشقيقين لانتهى الامر بكارثة . وكان لابد وأن تنتهى حياة هذا الساحر المخادع بطريقة دقيقة لاتوءدى الى اثارة الجماهير .وفى اليوم التالى قص (تيموجين) على الحاضرين ان (تتنجدى) دبر موءامرة ضد أخوته وان أرواح السماء التى كان الساحر كليهما قد عاقبته على حين ترك بعض الزعماء الذين اشتد بهم الغضب خدمة تيموجين" . (٥)

---

(١) ابن‌خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ص ٥٣٤

(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٨

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٠٩

(٤) استراجانوف: تاريخ القبيلة الذهبية ص ٢٠٢

(٥) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٤٧ : ٥٢

وهكذا رأينا مدى خطورة رجل الدين الشامانى .. ومدى مكانته فى النفوس لدرجة ان تيموجين خشى ثورة الجماهير او المؤيدين له . فلجأ الى محاولة اقناع الناس بأن قتل الساحر قد تم دون أن يكون له هو أى دخل فيه. وهذا مالم يعجب بعض الاتباع من ذوى الشأن فانصرفوا دون مبالاة بما قد يفعله الخان.

لم تجد الشامانية ـ نتيجةلقصورها أمام الأديان الاخرى .. مناصا عن التقهقر مرتدة صوب الشمال بعيدا عن مناطق التأثير وعن العاصمة المغولية قراقورم .. ويبدو أن هذا التقهقر بلغ أقصاه فى عهد قوبيلاى قا أن حيث انتشرت البوذية فى جنوب منغوليا حتى حدود الصين ونشطت المسيحية فى محاولتيائسة للاحتفاظ بمواقعها التى بدأ الاسلام يقتلعها بقوة من ناحية الغرب والجنوب ايضا حيث ا نتشر الاسلام بين مغول ايران ومغول القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا .

ماهية الشامانية :

نستطيع أن نقول أنالشامانية ديانة تولدت عن خرافات متوارثة عبر بيئة بدائية متأصلة حاول الانسان فيها أن يتقى مصادر الاذى فى الطبيعة من حوله بعبادة لهذه المصادر ايا كان نوعها . وان لم يمنع ذلك من ادراك فطرى لوجود قوة الآلة الاعظم رب العالمين وسنحاول أن نتتبع تلك المفاهيم فى الشامانية .

أ ـ تكوين العالم :

يقول ادوار بروى " وهناك معتقدات بسيطة جدا قامت عليها الديانة الشامانية فالعالم فى نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة : المنطقة السماوية . وهى مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة ،والعالم السفلى وهو مقر الظلمات والاشرار وتقوم بين الاثنين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان وتخضع السماء والارض الى كائن أعظم يقيم فى الطبقة العليا أو السماء المؤلهة .. ويقيم عفاريت لا يحصى لهم عد فى الأرض والمياه والجبال والينابيع وهى أماكن مقدسة أحيطت بالاكرام منذ القدم". (١)

ويخيل الى أن هذا التفسير ـ وهو فطرى ـ يشير الى عدة أمور :

١ ـ الاعتراف بوجود اله أقوى مسيطر مكانه السماء.

٢ ـ تميز الخير بالسمو وانحدار الشر الى الدرك الاسفل فى عالم ربما لم يكن واضحا لدى الشامانية فالعبارة لا تشير الى مكان هذا العالم السفلى أهو فى باطن الأرض أم فى المحيطات الواسعة أم فى غير ذلك.

٣ ـ مشاركة العفاريت والشياطين لبنى الانسان فى مناطق حياتهم . وبالتالى فى التأثير عليهم وعلى مجريات أمورهم .

ويحاول المستشرق ا لروسى بارتولد أن يحدد وجود الشامانية من خلال قول لرشيد الدين..." ان المذهب الشامانى لم يكن الدين الاصلى للبدو ولكنه كان دين القبائل التى تعيش على الصيد وكان يعتقد فى أيامه هو أبان العهد المغولى أن الشامانيين الحقيقيين يوجدون بين سكان بلاد الغابات." (٢)

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٥٣

(٢) نفس المصدر ص ١٥٣.

وهذا الرأى يضع أمام المرء عدة تساؤلات :

أولا : اذا لم تكن الشامانية هى ديانة البدو ـ وهم غالبية سكان منغوليا ـ فماذا كانت ديانتهم ؟

ثانيا : ما الكيفية التى انتقلت بها الشامانية من الصيادين سكان الغابات الى البدو المتنقلين عبر الصحارى فى منغوليا .

ثالثا : لماا تقلصت الشامانيه ـ على عهد رشيد الدين ـ وهو نفس عهد قوبيلاى قا ان وغازان خان ـ وعادت ادراجها الى صيادى الغابات فى شمالى منغوليا .

وفى رأيى أن الشامانية وهى ديانة انتشرت بين المغول والاتراك على السواء. وهى ديانة قامت على الخرافات والشعوذة والسحر لاينبغى أن نتصورها عند الصيادين دون البدو فى بيئة المغول وكلاهما يحيى حياة بدائية متخلفة بعيدة عن معطيات الحضارة .

كذلك فان الدين لايلتزم عادة بالحدود الجغرافية وخصوصا فى بيئة واحدة متصلة فيما بينها منعزلة عن غيرها كبيئة المغول فى منغوليا .

وبالاضافة الى ذلك فان الصلة بين الصيادين فى الشمال وجيرانهم البدو ماكانت لتنقطع بحكم حركة الغزو التى دأب عليها البدو من أجل السلب والنهب والاختطاف. وبحكم الظروف المناخية القاسية كان البدو ـ فى فترة معينة ـ يتحولون الى الصيد.

أى أن امتداد الصلة بين الصيادين والبدو فى منغوليا كانت كفيلة بأن يكون دينهما واحد وبخاصة قبل تزاحم الاديان المختلفة على اجتذاب المغول اليهم .

فلما أخذت الاديان تترى الى منغوليا من جهة الجنوب والشرق .

(ب) فكرة الالوهية :

الالوهية أصل العبادة فى آية ديانة أو اتجاه دينى. والدافع وراءها يمكن أن يعزى الى احتياج الانسان ـ وقد شعر بضعفه حيال الطبيعة وصعوبات الحياة ـ الى وجود قوة اكبر تدفع عنه الاذى ويلتمس منها العون .. وعلى هذا فليس غريبا أن يهتدى الانسان بفطرته الى هذه القوة الاعظم وان يؤمن بقدرتها وهيمنتها . يقول الكاتب الصينى. ف.يان وكان جنكيز خان اذ حزبه أمر من الامور صعد الى قمة جبل عال. وأمر جنوده (حراسه) أن يقفوا بعيدا والا يدعوا أحدا يقترب منه لانه سيتحدث هناك الى السماء فى أمر النصر المؤزر الذى ستحبوه السماء أياه فى الحرب المقبلة". (١)

ويتحدث رزق الله منقريوس الصدفى عن نفس الموقف . فيقول " وقيل انه صعد الى رأس تل عال وكشف رأسه وتضرع الى البارى تعالى طالبا اليه نصره على من باداه بالظلم وبقى هناك ثلاثة أيام بلياليها صائما". (٢)

ونستكمل الصورة عند ادوار بروى الذى يقول " ويرفع قبعته على رأسه ويلقى زناره على كتفيه ويسجد تسع مرات موليا وجهه شطر الجنوب". (٣)

---

(١) الكاتب الصينى. ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١١٦

(٢) رزق الله منقريوس الصدفى : تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٣٦٩

(٣) د.. ادوار بروى : تاريخ الحضارات ج ٣ ص ٣٨٠

فجنكيزخان - على قوته وجبروته وانتصاره على الصينيين كان فى حاجة الى الاله الاعظم قبل منازلته للسلطان الخوارزمى علاء الدين . وهو بفطرته ادرك أن مقر هذا الاله هو السماء لانها أسمى من الارض والوقوف بين يدى الاله ومناجاته تستلزم طقوسا معينة منها الصوم ثلاثة أيام كاملة. وكشف الرأس عند التضرع والسجود تسع مرات فى اتجاه الشمس الدافئة.

اذن كان المغول يدركون - وهم شامانيون - ان هناك الها أعلى بيده مقدرات الامور .. غير أنهم لم يخصوه بالعبادة وحدة دون غيره . يقول د. محمد موسى هنداوى "وكانوا مع اعترافهم باله قاهر لايؤدون له فروض العبادة وانما كانوا يعبدون طائفة من الالهة المنحطة" (١).

ويقول الدكتور مصطفى طه بدر" ولهم الهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة وأيضا فى الشمس والقمر وفى البرق الخاطف والرعد القاصف بل وأكثر من ذلك لهم الهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم واذا اتجهوا فى صلواتهم صوب الجنوب دل ذلك على احترامهم للنار وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء وصوب الغرب دل ذلك على احترامهم للماء وصوب الشمال كان فى ذلك احترامهم للموتى. (٢)

ويبرر الدكتور فؤاد الصياد اسباب كثرة هذه الالهة عند المغول فيقول" واذا كان المغول يتقربون الى هذه الالهة ، فانما يفعلون ذلك دفعا لشرها وأذاها وابعاد غضبها وجلب رضاها راجين منها الصحة فى أجسامهم وعقولهم ملتمسين اليها حماية أبنائهم وحيواناتهم" (٣)

وفى الحقيقة لم يكن الخوف وحده هو الدافع وراء ذلك كله فان الجهل كان يمثل حائلا دون تفهم حقيقة الالوهية لدى المغوى يقول الدكتور عبد السلام فهمى" وكان المغول طبقا لعقائدهم الشامانية يعبدون كل شئ يسمو على مداركهم" (٤).

جـ - البعث والحساب :

ادرك العقل البشرى ضرورة البعث والحساب منذ أمد بعيد فقد قال أفلاطون بوجوب البعث والحساب بصورة عقلية حيث أوضح انه لابد أن يكون هناك تعويض للنقص الذى يعترى الانسان فى الحياة الدنيا. وعلى سبيل المثال فانا لبعض يولدون مشوهين او يمضون حياتهم كلها فقراء أو عبيدا دون ذنب لهم أو تدخل .. فلا بد اذن ان يكون هناك تعويض على ذلك فى حياة أخرى.

الى هنا .. وهذا التفكير يعد مثاليا . غير أن أفلاطون قد شرد عن هذا النهج القويم عندما قال بفكرة تناسخ الارواح. مما أدى الى اختلاط الامر فى العلاقة بين الروح والاجساد المختلفة التى ستحل فيها فيما بعد.

---

(١) د.محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٥٩

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٦

(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٣٣

(٤) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٥

أما عن فكرة الشامانية فى هذا الشأن فيقول عنها بارتولد "والشامانية وما شابهها من ديانات البدائيين لا تقوم على أسس أخلاقية فالقتلى يصبحون فى العالم الاخر خدما لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم وهذه العقيدة حد فاصل بين ديانة الشعوب البدائية وديانة الشعوب المتحضرة.. وليس معنى ايمانهم باليوم الاخر أنهم يؤمنون بالحساب وبأنهم سيسألون عما يفعلون وذلك فان القاتل عندهم لا يخاف عقاب يوم القيامة بل يعتقد أن منزلته ذلك اليوم تزداد ارتفاعا بازدياد عدد من قتلهم" (١)

ويمكننا أن نلاحظ من خلال هذا الرأى أمورا عدة :

١ - أن القتل ليس سببا يستوجب العقاب فى الاخرة بل انه يستوجب التشريف والاكرام

٢ - ان القتيل ذليل فى الدنيا والاخرة.. ولعل هذا يذكرنا بما سبق الاشارة اليه عند الحديث عن قتل البشر الذين كانوا يصادفون جنازة الخان الراحل - فقد كان المغول يعتقدون أن أرواح هؤلاء القتلى ستصاحب روح الخان الراحل الى مملكة ما وراء السحاب لتخدمه هناك بصدق واخلاص .

٣ - أن ايمان المغول بالبعث لايرتبط عندهم بأن يكون هناك حساب عملى على أعمالهم - فالعقاب ليس مقابلا حقيقيا للذنب .

د - عبادة الشمس :

الشمس فى حياة المغول مقوم هام من مقومات الحياة. فهى التى تمنح الدفء ، اذا اشتد البرد القارس وما أكثر ما يشتد .. ومع الدفء يأتى الضوء فهى فى الربيع - فصل التحسن النسبى - عنوان للنماء والجمال والاستقرار لكنها عندما تغضب فى فصل الصيف تحترق النباتات وتموت وتتهدد حياة الحيوان والانسان معا. ومن هنا فان الرغبة فى الاستمتاع بالدفء والخوف من الاذى كانت احدى دوافع عبادة الشمس ، وبالاضافة الى ذلك كانت الشمس رمزا للسمو عند المغول . فهى تذرع السماء - من وجهة نظرهم - من الشرق الى الغرب فى كل شروق لها وغروب .. وفى الحقيقة كانت السماء بكل ما فيها موضع تقديس من المغول فقد كانت أسرارها بالنسبة لهم لا تحصى ومبعث الخوف منها عظيم . يقول الديار بكرى : " ودينهم الكفر دين جاهلية الترك وأكثرهم يعبدون الشمس" وهذا الرأى يعتبر عبادة الشمس وثنية وهذا حق ولا شك . ويرى أن المغول فى غالبيتهم قبل عهد جنكيز خان وأثناءه كانوا شامانيين يعبدون الشمس . ونفهم من ذلك أن خانات المغول كانوا يعبدون الشمس أيضا فالناس على دين ملوكهم غالبا. يقول القلقشندى :" وملوك هذه المملكة من بنى جنكيز خان يدينون بتعظيم الشمس ". (٢)

ويبدو أن عبادة الشمس كانت تتمثل فى السجود لها عدة مرات عند الشروق يقول ابن الاثير " أما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها (٣)" ويضيف القرمانى الى عبادتهم للشمس عبادة أخرى متصلة بها يقول "ويعظمون النجوم ويعبدونها" (٤)

على أن أعظم دليل على مكانة الشمس فى نفوس المغول يتجلى عند أداء مرسم تنصيب اوكتاى السلطنة مقام ابيه فقد جثوا على ركبهم تسع مرات دلالة على التعظيم له ثم

---

(١) الدياربكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٦٨
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨٥
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج١٢ص ١٣٨،الحنبلى: شذرات الذهب ج٥ ص ٦٥
(٤) القرمانى : اخبار الدول وأثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٣

خرجوا من المخيم وجثوا ثلاث مرات حيال الشمس من هذا نفهم أنهم كانوا يعظمون الشمس ويخضعون لاشراقها" (١).

هـ - عبادة النـار :

المجوسية ديانة فارسية قديمة . انتشرت معابدها عبر فارس الى ماحولها منذ قرون بعيدة قبل الاسلام حيث نظر الفرس الى النار على انها رمز للصفاء وتوهموا فيها خلاص الروح من الذنوب والخطايا .. وفى الهند وحتى الآن مازالت عقيدة احراق جثث الموتى عند الهندوس تنطلق من هذا المعنى. فهل عبد المغول النار ؟

يبدو أن قلة من المغول هم الذين عبدوا النار فعلا .. يقول الديار بكرى " وبعضهم مجوس" (٢).

ويبدو أن هذا البعض من المغول قد اعتنق هذه الديانة - ان صح هذا التعبير - بحكم الموقع الجغرافى .. يقول ابن خلدون " وفى مملكة ماوراء - حيث ابناء جغتاى - كانوا كلهم على دين المجوسية" (٣).

وأرى أن هذا الرأى مبالغ فيه خصوصا وأن الاسلام كان قد انتشر فى منطقة بلاد ما وراء النهر كذلك فان ابن خلدون يعود فيقرر شيئا مختلفا فى نفس الموضوع يقول : " ودين جنكيز خان وعبادته الشمس فكان بنو جغتاى يعضون عليها بالنواجد ويتبعون سياسة مثل أصحاب التحت" (٤). على أن أوضح صورة وردت عن عبادة النار عند المغول قول الكاتب الصينى ف. يان. يقول " وتكاد تنحصر طقوس دينهم فى الطواف حول النار المقدسة وهم يقرعون طبولا كبيرة ويترنمون بأناشيد التعبد والدعاء وهم يرمون فى النار بزاد جديد من العود والصندل وغيرهما من الخشب المعطر والنار فى اعتقادهم تطهر القلوب وتطرد الأفكار الخبيثة ويقوم بالكهانة أمام النار ومذابح القرابين الكاهن الاكبر سنا ويعينه فى ذلك كاهنان آخران وجميعهم فى عباءات بيضاء وفضفاضة" (٥).

وبالاضافة الى ذلك حرمت الياسا على المغول التبول على الرماد وجعلت عقوبة ذلك شديدة قاسية . غير أن مرجع ذلك يرجع الى الاهمية العملية للنار والرماد فى بيئة المغول الباردة أكثر مما يرجع الى قدسية النار فى نظرهم.

و - عبادة أرواح الاجـداد :

عقيدة غريبة من احدى غرائب الشامانية .. ومؤداها ان بعض الابناء كانوا يعتبرون ارواح أجدادهم فى دائرة متصلة مع استمرار الزمن وربما كان ذلك عرفانا بالجميل أو نوعا من استمرار الذكرى غير أن السبب الاهم هو الاعتقاد بأن الارواح أجداد المغول سلطان عظيم

---

(١) عباس العزاوى :/ تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٢٩

(٢) الدياربكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج٢ ص ٣٦٨

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٥٣٢

(٤) المصدر السابق نفسه ج ٥ ص ٥٢٦

(٥) الكاتب الصينى ف. يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٦

على حياتهم (١) وعلى حياة أبنائهم وأعقابهم أيضا. (٢)

ويقول ادوار بروى" وقد اعتبر المغول جنكيز خان بعد وفاته كعفريت حام فأديت له عبادة خاصة كانت تمثله بآله حقيقى" (٣) . فأرواح الاجداد كما اعتقد المغول تحيط بهم وهى أرواح الهية مستحقة للعبادة واقامة الطقوس حتى تسبغ عنايتها على حياتهم وحياة أولادهم غير ان الدكتور رالف لنتون يرى مايخالف ذلك كله يقول " ولم يعرف المغول عبادة الاصنام" (٤) وهو رأى انفرد به صاحبه دون غيره من الاراء.

وبوجه عام فان طقوس هذه العبادة كانت أقرب الى نظام الولائم العامة على مستوى القبيلة. يقول بروى : وكان المغول يقدمون فيها لحوما كان أفراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك فى مأدبة طقسية ،وكان هذا الطقس الذى احتفلوا به اكراما للجدود أهم الطقوس اطلاقا وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة". (٥)

البوذيــــة

كان بوذا رجلا حكيما وفيلسوفا متأملا ادرك بفطنته وصفاء ذهنه ماهية الخلق وقدرة الخالق الواحد فبنى دعوته الى الناس على هذا الادراك ودعاهم الى التزام الخير واجتناب الشر، وحث أتباعه على قهر الغرائز ونبذ الشهوات.

وعلى هذا فبوذا لم يزعم الالوهية لنفسه ولا ادعى النبوة غير أن اتباعه ومريديه قد زعموه ــ بعد وفاته ــ الها واتخذوا من أفكاره وفلسفته وأنماط سلوكه آيات لتأكيد هذا الزعم.

وقدر للبوذية أن تنتشر فى أواسط آسيا وأطرافها الشرقية وبخاصة قبل ظهور دعاة الاديان السماوية فى هذه المناطق بشكل فعال. كذلك لم تكن أديان البدو من المغول أو الاتراك على درجة مقبولة من الاقناع. ومنها الشامانية التى كانت قائمة على الخرافات والشعوذة والتخويف من الجان والشياطين .

ومن هنا وجد الدعاة البوذيون ــ الذين كانوا أكثر ثقافة وتحضرا ــ الفرصة سانحة كى يستميلوا اليهم بعض المغول الذين أباحوا الحرية الدينية وسمحوا بتعدد الأديان فلم يتعصبوا لدين أو لاخر على الرغم من أنهم كانوا فى معظمهم شامانيين وراثة عن الاباء والاجداد يقول استاذنا الدكتور أحمد شلبى" واعتنق بعض المغول الديانة البوذية التى دخلت هذه الاصقاع من الهند ولكن هوءلاء كانوا قليلين". (٦)

---

(١) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٤٣
(٢) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٢٧
(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠
(٤) د. رالف لنتون: شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٧٨
(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٠
(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٣٦

وعلى عهد جنكيز خان ومع اتساع الامبراطورية ازداد نشاط الدعاة البوذيين الذين اظهروا مقدرة ودراية بكثير من الامور فكان أن عهد الى كثير منهم بأعمال ديوانه". (١)

وبعد أن نجح البوذيون فى التسلل الى ديوان الخان الاعظم أصبح بامكانهم – بعد أن كشفوا من خلال المناظرات جهل الشامانيين وتخلفهم – ان يحاصروا الشامانية وأن يجبروا دعاتها على أن يعودوا ادراجهم صوب الشمال حيث يقيم صيادو الغابات من المغول.

وكانت الخطوة التالية فى تخطيط الدعاة البوذيين تتمثل فى محاولة اجتذاب الحكام المغول أنفسهم. أو التأثير عليهم الى اكبر درجة ممكنة وكانت أولى محاولاتهم الناجحة مع منكو الخان الاعظم الذى أدلى بحديث صريح الى الراهب المسيحى وليم روبرك الذى كان يطمع بدوره فى اقناع منكو بالدخول فى ديانة المسيح." ليست الاديان الا كالاصابع الخمسة ليد واحدة". ويضيف الدكتور العرينى تعليقا على هذه المقولة "غير أن نجعل البوذية راحة اليد وجعل الديانات الاخرى اصابع فى هذه الراحة". (٢)

بالطبع يعد هذا تطور خطير لصالح البوذية .. ولقد حاول الدكتور ادوار بروى أن يتبع هذا التغير منذ عهد جنكيز خان.. يقول "يبدو أن جنكيز خان قد أعار الطاوية فى البداية اهتماما خاصا ذلك أنه نظر اليها على أنها شامانية فضلى". (٣)

فالطاوية – ان صحت هذه التسمية – كانت فيما يبدو محاولة لتطوير الشامانية او لنقل جعلها أكثر موضوعية أمام الاديان الاخرى التى كانت بادئة فى الانتشار بين المغول.

وربما استمرت هذه الرعاية فى عهد أوكتاى وابنه كيوك غير أن وصول منكو بن تولوى الى منصب الخاقان الاعظم بعد خلافات ومؤامرات كان ايذانا بحدوث تغييرات كثيرة.. يقول الدكتور بروى " وقد انعقد فى (قرة قوم) سنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بمجمع بوذى أصدر حكما صريحا على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرف الاصول البوذية فرجحت منذ ذلك التاريخ كفة البوذية". (٤)

ولم يحدد لنا بروى ماهية الحكم الذى صدر على الطاويين ولا الكيفية التى نشرت بها كتابات الطاويين.. وخصوصا أن المغول كانوا حتى هذا التاريخ على درجة كبيرة من الامية فى معظمهم.

غير أن الدكتور بروى يعاود تأكيد فكرة توطيد دعائم البوذية لدى المغول فى عهد منكو فيقول " وقد صدرت الاوامر تكرار بملاشاة مؤلفات الطاويين التى تمنح الاصول البوذية. (٥)

وعلى هذا يمكننا أن نقول أن فترة ولاية منكو كانت تمثل فترة وضوح السيطرة البوذية وتراجع الشامانية أمامها.

---

(١) ارمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٨٢
(٢) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ١٩٩
(٣) د. ادوار بروى : تارخ لحضارات العام ج ٣ ص ٣٨١
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٨٦
(٥) المصدر نفسه ص ٣٨٧

وعلى الرغم من أنى لم أعثر على أى دليل يفيد اعتناق منكو خان للبوذية غير أنـــه من الثابت تاريخيا أن كلا من أخويه قوبيلاى وهولاكو قد اعتنق البوذية تحت بصره وسمعه . على الرغم من أن أمهم جميعا الاميرة" سرقويتى" كانت مسيحية نسطورية ذات تأثير قـــوى عليهم معا وعلى غالبية المغول أيضا .

وقد جاء تولى قوبيلاى لمنصب الخان الاعظم بعد وفاة أخيه الاكبر منكو تأكيـــدا وتدعيما لنجاح البوذية وانتشارها . يقول الدكتور جرانفيل براون" وأما قوبيلاى خان ٦٥٥هـ - ٦٩٤ هـ ، فكان أول من اعتنق البوذية من عشيرته". (١)

ويشير الدكتور فؤاد الصياد الى أثر قوبيلاى خان فى انتشار البوذية يقول" وعندما اعتنق الخان الاعظم قوبيلاى هذه الديانة زاد نفوذها زيادة كبرة". (٢)

وازدادت مكانة هذه الديانة بين المغول حيث رحب قوبيلاى بهدية من المخلفـــات البوذية من عند ملك سيلان". (٣)

ويوضح الدكتور بروى مدى اهمية هذه الهدية ومدى اهتمام قوبيلاى بها. يقـــول : "ولعل الخان قوبيلاى - كما يؤكد ماركوبولو - قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيـــلان مستقبلا اياها بأبهة و عظمة". (٤)

غير أننا يجب ان نقدر أن اهتمام قوبيلاى بالبوذية - نتيجة لتأثره باستـــــاذه الصينى مستشار جنكيزخان يى . ليو. جوتساى ولاقامته فى الصين - ولم يكن اهتمامـــا دينيا خاليا من الاغراض السياسية .. يقول وليام لانجر" ومنح قوبيلاى لقب "معلم الدولة ، لاحد لامات التبت المسمى"فاجس با" ثم عهد اليه بنشر هذا الدين بين المغول وعينه حاكما على ثلاثة أقاليم بالتبت" (٥)

ولعل هذه الصورة تكون أكثر وضوحا عند الدكتور بروى يقول"(٦) ومن المعـــروف أن قوبيلاى استدعى الى بلاطه لاما تبتيا مستهدف من ذلك هدى المغول وضمان وفاء التبـــت على السواء .

البوذية فى ايـــران :

كان انتشار الاسلام فى ايران وامتداده عبرها الى أواسط آسيا مصدر ازعاج لمختلـــف الديانات فى هذه المناطق وبخاصة الوثنية منها. ولهذا سارع البوذيون الى اغتنام فرصـــة اعتناق هولاكو للبوذية وخروجه - فى عهد أخيه الاكبر منكـو - لانجاز مهمة القضاء علـــى قلاع الاسماعيلية وتدعيم وجود المغول فى ايران وتهديد الدولة العباسية التى كانت تعتبـــر - على ضعفها - رمزا لوحدة المسلمين.

---

(١) د. براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٢
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٤
(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٢
(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٧
(٥) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٢
(٦) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٧

وسرعان ما بدأت مظاهر التأثير البوذى على المغول فى ايران متمثلة فى تلك المعابد الضخمة التى شيدها هولاكو فى مدينة خوى .. وغيرها من المدن الايرانية.

على أن أكبر دليل على قوة البوذية انها استحوذت على الايلخانات المغول فى ايران - فقد عجز المبشرون المسيحيون فى تحويل الحكام المغول عن البوذية الى المسيحية حيث اكتفوا باظهار العطف على المسيحيين وقضاياهم وكذلك اظهار العداوة والازدراء تجاه المسلمين استرضاء لزوجاتهم كدوقوز خاتون زوجة هولاكو الشهيرة ، يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور " حقيقة أن هولاكو نفسه ظل بوذيا ولم يعتنق المسيحية فى يوم من الايام ولكن ذلك لم يحل دون تأييده للمسيحيين وعطفه عليهم". (١)

وجاء عهد اباقا بن هولاكو (٦٦٣ - ٦٨٠) هـ استمرارا للانتشار البوذى فى ايران رغم زواجه من الاميرة البيزنطية دسبينا التى كانت ذات جمال وتأثير.. يقول الدكتور عبد السلام فهمى " وكان أباقا بوذيا فساعد ذلك على انتشار الديانة البوذية بين مغول ايران اذ نشط الرهبان البوذيون فى التبشير. (٢)

وما نود أن نؤكد عليه هو أن البوذية واذا كانت قد انتشرت بين المغول فى ايران فان المسلمين فى ايران لم يتأثروا بها كثيرا فى أمور دينهم فقد كان الاسلام قويا بين عامة الشعب هناك.

هذا .. ولا تعتبر فترة ولاية الايلخان المسلم أحمد تكودار شذوذا على قاعدة التأثير البوذى على الحكام فى ايران . ذاك أنه رغم فترة ولايته القصيرة من (٦٨١ - ٦٨٣هـ) سارع الى تقويض كافة المعابد غير الاسلامية واحلال المساجد مكانها مما حدا بقادة المغول - وكان معظمهم بوذيين - الى اعتباره نشازا على حكامهم بسبب اسلامه وعلاقته الودية مع المماليك فى مصر . فكان أن تآمروا عليه وقتلوه.

وهكذا عاود التأثير البوذى سيطرته على الحكام المغول مع عهد أرغون بن أباقا (٦٨٣ - ٦٩٠هـ) الذى التزم بسياسة أبيه وجده يقول الدكتور عبد السلام فهمى"وسرعان ما اتبع ارغون سياسة تختلف عن سياسة سلفه تكودار فكانت سياسته تفيض حماسة وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين رغم أنه كان بوذيا ومقيما على بوذيته فى قوة واندفاع" (٣)

واستمر الحكام المغول كيخاتو وبايدو على نفس السياسة حتى ارتقى الايلخان المسلم محمود غازان عرش الايلخانية فى ايران. فهو على الرغم من الظروف التى أدت الى اعتناقه للبوذية فى مطلع حياته . بادر الى الاسلام فى شبابه واستكمل منهاج سلفه تكودار فسارع الى تقويض دور العبادة غير الاسلامية وتحويلها الى مساجد واقام مساجد عديدة وضخمة فى عهده فكان فترة ولايته بداية حقيقية لتقلص نفوذ البوذية عن المغول فى ايران. فقد أصبح لزاما عليها أن تتقهقر عائدة الى التبت الى غير رجعة.

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١١١

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٥٤

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٧٢

فى مملكة جغتاى :

لم يقدر لجغتاى رغم أنه الابن الثانى لجنكيز خان - الذى توفى ابنه الاكبر جوجى فى حياته - ان يصل الى مركز الخان الاعظم وكان نصيبه من مملكة أبيه هو التركستان وبلاد ما وراء النهر بما فى ذلك بخارى وسمرقند .

وجغتاى نفسه كان شاما نيا بطبيعة الحال ومعروفا بالتزامه الصارم بقوانين الياسا حيث كلفه ابوه جنكيز خان بتولى شئون القضاء وقد عرف عنه أيضا كراهيته الشديدة للمسلمين ورغبته الجامحة فى تدمير مدنهم والقضاء عليهم منذ اشتراكه مع أبيه فى الحرب ضد الدولة الخوارزمية التى تداعت تحت ضربات المغول فى عهد جنكيز خان .

ومن خلال هذه الظروف وجد البوذيون الفرصة سانحة للانتشار فاذا قدرنا أن الجزء الشرقى من هذه المملكة وهو منطقة التركستان الصينية كان محاطا من الناحية الجغرافية بمراكز للدعوة البوذية فى التبت والصين مما أدى الى انتشار البوذية فى هذه المناطق قبل ظهور جنكيز خان بفترة حيث كان القراخطائيون المقيمون فى هذه المناطق يعتنقون البوذية .

وعلى هذافقد ركز البوذيون اهتمامهم صوب منطقة بلاد ما وراء النهر حيث توجد بخارى وسمرقند وغيرهما من المدن الاسلامية الشهيرة . لكن النجاح لم يكن حليفا لهم كما كان فى غير ذلك .. وربما رجع ذلك لعدة أسباب منها :

١ - توطد الاسلام فى هذه المناطق منذ حركة الفتح الاسلامى فى عهد الدولة الاموية حيث كانت المدن الاسلامية هناك تمثل مراكز للدعوة الاسلامية ينطلق منها التجار والمتصوفون .

٢ - نهوض الدولة الخوارزمية - طول فترة قوتها - بمكافحة امتداد البوذية عبر أراضيها . حتى لو اضطرت احيانا الى دفع الجزية للقراخطائيين - وهم بوذيون - تمكنوا منهزيمة السلطان سنجر السلجوقى فى اوج عظمته .. فلما تغيرت الاحوال وامتلك الخوارزميون قوتهم عمدوا الى مكافحة القراخطائيين حتى زالت دولتهم قبيل قدوم جنكيز خان .

٣ - كان مسعود بك بنمحمود الخوارزمى التاجر الجرجانى الشهير حاكما لهذه المنطقة من قبل المغول لفترة طويلة وقد كان مسلما حريصا على رعاية مصالح المسلمين وتعمير ما خربه الغزو المغولى فى بلادهم .

عموما فان التأثير البوذى فى منطقة بلاد ما وراء النهر ظل عاجزا عن تحقيق أية نتيجة ملموسة أو تفوق على الاسلام فى هذه البقاع .

البوذية فى جنوب روسيا :

لم يقدر للبوذية أن تمتد الى مملكة اولاد جوجى أكبر أبناء جنكيزخان والتى امتدت حتى شملت معظم جنوب روسيا والقبجاق واقليم خوارزم . ذلك أن المغول منذ عهد بركة خان بن جوجى قد اعتنقوا الاسلام وتمسكوا به واقاموا المساجد المتنقلة والثابتة واهتموا بشئون الدين الاسلامى اهتماما ظاهرا . وحسنوا علاقاتهم مع المماليك فى مصر على عهد الظاهر بيبرس . كذلك ساءت علاقتهم مع أبناء عمومتهم من المغول اتباع هولاكو وبنيه فى ايران لدرجة أن الحرب قد نشبت بينهما مرارا وبصورة تدفع المرء الى القول أنها كانت

ذات صفة دينية .. حيث عبر بركة خان عن غضبه الشديد لما أصاب المسلمين على يد هولاكو بقتل الخليفة العباسى وتدمير بغداد.

وعلى هذا لم يكن بوسع البوذية أن تتحرك من ايران صوب القبجاق اوغيرها فى جنوب روسيا من المناطق الخاضعة لسلطان المغول.

ومن جانب آخر كانت هناك الكنيسة الروسية الكاثوليكية التى استمرت تبذل - دون جدوى - جهودا جبارة فى محاولة اجتذاب المغول هناك اليها.

فاذا أضفنا الى هذا كله البعد الجغرافى بين جنوب روسيا ومراكز البث البوذى فى التبت والصين أدركنا صعوبة انتشار التأثير البوذى فى هذه المناطق التى لاتزال - فى معظمهم - اسلامية حتى الآن.

آراء حول البوذيـــة :

أولا : اثر البوذية على الروح العسكرية عند المغول :

يقول المستشرق الروسى بارتولد" وقد قيل ان البوذية أضعفت روح القتال عند المغول وفى ذلك مبالغة" (١)

ونلاحظ ان بارتولد استخدم لفظ "قيل" المبنى للمجهول. وفى هذا دلالة على عدم الوثوق من مصادر هذا القول أو عدم اهميتها ولهذا بادر الى التعليق على هذا الرأى بالمبالغة . ونحن نوءيد"بارتولد" فى هذا للاسباب الاتية:

(أ) أن المغول كانوا بدوا محاربين بالفطرة ، ارتبطت حياتهم بالقتال الذى لا ينقطع فيما بينهم أو مع غيرهم منذ نشأتهم فى منغوليا. وان تمسكهم بالروح العسكرية الفذة كان السبب الرئيسى فى تكوين هذه الامبراطورية الواسعة لم يكن لها نظير فى التاريخ.

(ب) أن غالبية المغول كانوا ينظرون الى الدين على أنه شئ ثانوى بالقياس الى غيره من الامور كالجوانب العسكرية والاقتصادية ولهذا سمحوا بالحرية الدينية وقبلوا بتعدد الاديان. ولم يتدخلوا فى شئون رجال الدين.

(جـ) ان هناك أسبابا أخرى ادت الى اضعاف روح القتال عند المغول منها :

١ - انهم ركنوا الى الراحة والدعة بعد أن انتشرت جيوشهم فى مختلف أرجاء آسيا واستتب الأمر لهم فيها بصفة عامة.

٢ - تخليهم عن صفات البداوة كالخشونة وقوة الاحتمال والصبر واستعمالهم لأساليب حياة الحضر لدى الشعوب التى خضعت لهم . وهذاما تخوف منه جنكيز خان نفسه وأعلنه صراحة وقد أشرت اليه عند الحديث عن العادات والتقاليد فى الفصل الرابع من الباب الثانى.

٣ - كثرة الدسائس والفتن واشتراك قواد الجيش فى الشئون السياسية والصراعات التى كانت تدور حول تولى الحكم وبخاصة فى ايران .. مما ترتب عليه اجهاد الجيوش واضطراب الجند وتوترهم.

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٥٤

خلاصة القول أن البوذية ولا غيرها من الأديان لم تكن لتشكل عاملا من عوامل اضعاف روح القتال عند المغول ٠

ثانيا : اضمحلال التأثير البوذى :

أدى انتشار حركة الغزو المغولى ا لسريع الى اسقاط كثير من الحواجز بين الشعوب المختلفة فى هذه المناطق بما فى ذلك المغول أنفسهم كذلك فان المناظرات الدينية التى أقيمت تحت بصر المغول كانت ولا شك فرصة كبيرة لكشف ماتحتويه الاديان المختلفة من معتقدات وسلوكيات ٠ ولعل ذلك أتاح الفرصة أمام البوذية كى تثبت عجز الشامانية وخرافاتها غير أنه من ناحية أخرى كشف عجز البوذية كديانة وثنية امام الاديان السماوية وخصوصا الاسلام، ويقول استاذنا الدكتور أحمد شلبى " وفى المدة من القرن الحادى عشر الى الخامس عشر الميلادى ضعفت البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك لعودة النشاط الهندوسى فى الهند ولظهور الاسلام فى الهند وفى سواها من الاقطار التى كانت تتربع فيها البوذية فاتجهت بنشاطها فى هذه الفترة فارة من الاسلام تجاه لاوس ومنغوليا وسيام وبورما" ٠ (١)

ولعله بوسعنا أن نقول ان البوذية على الرغم من انتشارها فى التبت والصين قبل الفترة التى نتناول الحديث عنها فى تاريخ المغول قد تضعضع مكزها الرئيسى فى الهند فى عهد انتشار المغول فى أواسط آسيا مما انعكس أثره بقوة على الدعاة البوذيين فى معظم الارجاء المجاورة للهند٠

كذلك فان البوذية التى عجزت عن النفاذ الى المغول فى جنوب روسيا٠ وان كانت قد تفادت الضربة الاولى التى وجهت اليها فى ايران فى عهد الايلخان المسلم أحمد تكودار ـ فان نهايتها قد لاحت فى الأفق مع اعتلاء محمود غازان لعرش الايلخانية فى ايران (٦٩٤ـ٧٠٣هـ) (١٢٩٥ـ١٣٠٤م) ٠

وعلى هذا فان نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادى هى نفسها بداية انهيار البوذية فى ايران على أيدى المغول المسلمين يقول بارتولد " ولقد صعب على هذه الديانة (البوذية) أن تتعايش فيما بعد مع الاسلام لان المسلمين اعتبروها لكثرة الاصنام بمعابدها ديانة وثنية" ٠ (٢)

ثالثا : اليهودية*

اليهودية اقدم الاديان السماوية الثلاثة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ومن أشهر أنبيائها ٠ يعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم وعلى نبينا السلام٠

---

(١) د٠ أحمد شلبى: اديان الهند الكبرى ص ١٨٩

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٥٨

* بنواسرائيل : نسبة الى يعقوب الذى كان يسمى ايضا اسرائيل وهو ولد اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام واليه ينتسب بنو اسرائيل٠

* اليهود٠٠اسم اطلقه عليهم ملك الفرس قورش سنة٥٣٨ ق٠م بعد استيلائه على فلسطين فاصبح كل من اعتنق ديانتهم يهوديا ولو لم يكن من بنى اسرائيل ٠

* بنى صهيون٠ نسبة الى جبل يقع جنوب القدس ٠كان اليهود يعتقدون ان الرب يقيم فيه ـ وقد اطلق بعض المؤرخين على الحركة الحديثة لليهود اسم "الصهيونية٠

والبهود فى الاصل ساميون شأنهم شأن العرب والاشوريين ويوضح أستاذنا الدكتور احمد شلبى كيفية تحركهم فى شبه الجزيرة وماحولها . يقول " وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد الساميين وقد هاجر فريق منهم الى الشمال فى بلاد بابل حيث كانت السلطة لحضارة السومريين والاكاديين ثم كثر عددهم فهاجروا من جديد فى ادوار مختلفة نحو الشمال أكثر مما تقدموا قبل ذلك . وانحدربعضهم نحو الجنوب والساميون الذين بقوا فى بلاد العرب هم أجداد الشعب العربى والساميون الذين مروا من موطن الحضارة فى الفرات الادنى ثم انتشروا فى جميع آسيا وفلسطين هم الاشوريون والاسرائيليون ". (١)

ويبدو أن الاسرائيليين تحركوا فى منطقة فسيحة امتدت ما بين الرافدين وشمالى شبه جزيرة العرب والشام ومصر وارتبط هذا التحرك بظروف سياسية وحربية على فترات التاريخ منها :

أ ــ دخولهم مصر فى أيام يوسف بن يعقوب .

ب ــ طردهم من مصر الى الشام فى أيام موسى وأخيه هارون .

ج ــ تكوين مملكتى اسرائيل ويهوذا فى عهد ابناء داود وسليمان .

د ــ تشردهم فى أرجاء عديدة بعدما وقعوا بين شقى الرحى فى بلاد الرافدين ومصر ففى سنة ٧٢١ ق.م تمكن الملك سرجونى الثانى من تدمير مملكة اسرائيل حيث اعتقل آخر ملوكها ونفاه مع عدد من رجاله الى اشور". (٢)

وهكذا تفرق بنو اسرائيل ما بين بلاد الرافدين والشام بعد أن فقدوا كيانهم السياسى .

وفى سنة ٦٠٨ ق.م زحف فرعون مصر على مملكة يهوذا فاحتلهاوأعقبها بمملكة اسرائيل فثار لذلك ملك بابل الشهير (بختنصر) وكان ملكا على بلاد الرافدين معا (بابل ــ اشور) فزحف على فلسطين واستعاد مملكة اسرائيل ثم احتل مملكة يهوذا وقتل آخر ملوكها ونهب اورشليم ودمر معبد سليمان وسبى اكثر السكان الى بابل وفر بعضهم الى مصر وغيرها من الاقطار"

ويخيل الى أن اليهود الذين فروا قد سلكوا الطريق الساحلى على البحر الابيض المتوسط الى مصر وشمالى افريقيا. على حين سلك بعضهم الطريق الساحلى على البحر الاحمر جنوبا حتى اليمن وربما الحبشة.. ومن هنا يمكن تفسير وجود طوائف اليهود فى المدينة المنورة قبل هجرة الرسول الكريم اليها تلك التى يعتقد أنها هاجرت اليها من اليمن. ثم كان أن ردهم المسلمون أيام الرسول الى خيبر ومنها الى أذرعات بالشام.

فاذا رجعنا ثانية الى بنى اسرائيل بعد هجمة بختنصر الشرسة التى شردتهم وحولت معظمهم أسرى وسبايا لدى حكام الرافدين وجدنا أن قورش ملك الفرس قد احتل بلاد بابل فى سنة٥٣٨ ق.م. ومن ثم أصبح له السلطان على أرض فلسطين فسمح لليهود بالعودة الى فلسطين ولكن اكثرهم كانوا قد الفوا الحياة البابلية فاستقر رأى الاغلبية الساحقة على البقاء حيث كانوا بالعراق ومصر وغيرها من البلاد التى نزحوا عقب سقوط دولتهم على يد بختنصر" (٣)

ولعلنا قصدنا من هذه المقدمة عن اليهود الاشارة الى حقيقة مهمة . ذلك أن اليهود الذين تعرضوا للقتل والتشريد قد استفادوا من ذلك كله فى نشر اليهودية فى أماكن عدة من

---

(١) د. أحمد شلبى : مقارنة الأديان ، اليهودية ج ١ ص ٤٧

(٢) المصدر السابق ص ٨٤

(٣) نفس المصدر ص ٨٦

أرجاء العالم القديم ذلك أن التوراة لم تكن قد حرفت على النحو الذى هى عليه الان ٠كذلك لم تكن الديانات الوثنية المنتشرة حينذاك ـ فيما عدا البوذية ـ لتصمد فى مواجهة التأثير اليهودى ٠

اليهود فى آسيا الوسطى :

ذكرت توا أن اليهود قد تعرضوا للتشريد على يد بختنصر الذى دمرأورشليم وسبا معظمهم الى بلاد بابل حيث اقاموا هناك ورفض غالبية من ذهب منهم العودة الى فلسطين فيما بعد ٠

وعلى هذا فان منطقة بلاد الرافدين (العراق) كانت ـ فيما يبدو المركز الذى انطلق منه اليهود الى آسيا فعبروا الى ايران ومنها الى التركستان والهند على حين اتجه بعضهم شمالا الى روسيا٠٠ يقول استاذنا الدكتور احمد شلبى" وقد كان فى روسيا فى القرن التاسع عشر اكثر من نصف يهود العالم" ٠(١)

وعلى الرغم من ذلك فان اليهود فى آسيا الوسطى فى خلال فترة بحثنا لا نكاد نسمع لهم صوتا يقول بارتولد" وفى آسيا الوسطى أخذت اليهودية تفقد بالتدريج صفتها كدين تبشيرى عالمى واضطرت ان تترك مجالها للمسيحية والاسلام واصبحت كماهى الان دينا قوميا للامة اليهودية فقط حتى انه ليعد من العجيب أن يدخل فيها شخص من أمة أخرى"(٢)

ويمكن أن ترجع هذا التقهقر لليهودية فى آسيا الوسطى الى :

أولا : قوة وانتشار الاديان الأخرى :

فالبوذية قد نجحت تماما فى الانتشار من الهند الى التبت وتيبال ثم فى جنوب شرق آسيا والصين وتمكنت من اضعاف ديانات البدو فى آسيا الوسطى الى حد كبير٠

كذلك بذل المبشرون المسيحيون جهودا مستميتة فى النفاذ الى أغوار آسيا واتجهوا الى منغوليا آملين التأثير مبكرا فى الخانات المغول أو استقطاب زوجاتهم ـ على الأقل ـ الى المسيحية٠

وأيضا كان الاسلام الدين الفتى قد استحوذ على ايران ومضى حثيثا الى أعماق التركستان وبدأ فعلا فى تقليص البوذية فى تلك الأرجاء واتجه الدعاة الى منغوليا حيث بدأت تظهر قوة المغول وسطوتهم ٠

ثانيا : العزلة اليهودية :

وتلك فرضها اليهود على أنفسهم أولا وفى أى مكان حلوا فيه ومرجعها فى رأيى يعود الىسببين :

---

(١) د٠ أحمد شلبى : مقارنة الاديان (اليهودية) جـ ١ ص ٩٥

(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٦٤

(أ) عنصرية اليهـود :

فقد كانوايعتقدون أنهم شعب الله المختار فهم عنصر مميز على الناس جميعا ومن ثمه ينبغى عليهم ألا يخالطـوا غيرهم ولهذا تراهم فى أى زمان أو مكان منغلقين على أنفسهم يقول أستاذنا الدكتور أحمد شلبى " لقد نظروا الى سواهم نظرة عداء وحذر، وبالتالى لم يدينوا بولاء الى الوطن الذى جمعهم وانما اتجهوا بولائهم الى جماعاتهم فأصبحت هذه الجماعة وطنهم وهى دينهم وهى موضع تقديسهم وليس لهم بسواها صلة أو ارتباط". (١)

(ب) كراهية النـاس :

الكبر ـ كما نعلم ـ عداوة بلا سبب ، واليهود وهم عنصريون ـ كما ذكرت ـ نجحوا فى اجتلاب كراهية الناس وازدرائهم ذاك أن صفات معظمهم من بخل وخبث وقذارة جعلت النس ينفرون منهم ولا يأمنون اليهم وبالطبع فان حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يعبر تماما من موقف المسلمين من اليهود ونظرتهم اليهم يقول" ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود".

وجدير بالذكر أن تاريخ اليهود فى الفترة التى نتحدث عنها يكتنفة كثير من الغموض الذى مرجعه على الاغلب عدة أمور منها :

١ ـ كثرة الحروب والفتن وتبدل الحكام وما ترتب عليه من انعدام فترات الاستقرار.
٢ ـ عزلة اليهود ومحاولتهم الاختفاء بعيدا عن الأحداث .
٣ ـ ذيوع صيت الأديان الاخرى كالبوذية والمسيحية والاسلام.

وقد نجم عن ذلك كله عدم اكتراث المؤرخين بهمفقلت الكتابة عنهم وندرت الاشارة اليهم الا لماما أو عفوا.

ولعله يمكننا أن نقول ان اليهودية فى منغوليا على أيام جنكيز خان لم يكن لديها وجود ملحوظ ودليلنا أن أحدا من المؤرخين لم يشر الى ذلك كذلك فان أحدا من خانات المغول العظام اوالتابعين ـ على كثرتهم ـ لم يعتنق هذا الدين مع وضوح روح الحرية الدينية التى كانت سائدة آنذاك .

مملكة جغتاى" بلاد ماوراء النهر" :

كان جغتاى وهو الابن الثانى لجنكيز خان شامانيا كأبيه وكان معروفا بكراهيته للمسلمين حتى فى عهد أخيه أوكتاى الذى خلف أباه فى الحكم.

وبالاضافة الى ذلك كان جغتاى خبيرا بكافة الاحكام فى الياسا ومسئولا عن تطبيق مختلف القوانين فيها .. يقول أرمنيوس فامبرى" وفى بلاد ما وراء النهر ربط "جغتاى" ثانى أبناء جنكيز خان ضريبة الرؤوس على سبع فئات وفق ثراء كل شخص، وأعفى منها رجال الدين على اختلاف عقائدهم ويقال أن اليهود قد استثنوا من هذا الاعفاء ويبدو أن هذا القول هو من وضع المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكنون لليهود كراهية شديدة ، اذ يبدو بجلاء

(١) د. أحمد شلبى : مقارنة الاديان اليهودية ج ١ ص ٥٠

على الدوام ان حكام المغول بفارس والصين التزموا قيام المساواة التامة فى المسائل الدينية" (١)

ونلاحظ أن هذا الرأى وان احتوى على جانب صحيح مثل اعفاء رجال الدين من الضرائب على عهد المغول الا أنه استخدم لفظ "يقال" المبنى للمجهول .. فلم يحدد صاحب القول ثم اذا به ينتهى الى لمز المؤرخين المسلمين الذين لم يحدد اسم واحد منهم وانما أشار الى كراهيتهم الحادة لليهود ..وهى كراهية – ان صحت – فلها مبرراتها التى أشرت اليها قبلا والتى تؤكد أن اليهود كانوا مكروهين من جميع الفئات وليس المسلمون وحدهم.

ويخيل الى أن أرمنيوس فامبرى يود أن يقول أن المغول – على همجيتهم – لم يكرهوا اليهود على حين كرههم للمسلمين.

وهو افتراض لو صح فانه يشير الى عدم أهمية رجال الدين فى نظر المغول اذ لاذكر لهم ولا شأن حتى يكرههم المغول الذين لم يعيروهم أدنى اكتراث كالذى حظى به رجال الدين من الأديان الأخرى من البوذيين أو المسيحيين أو المسلمين.

حملة هولاكو:

كان هولاكو بوذيا وكانت زوجته الشهيرة دوقوز خاتون مسيحية وكان أخوه الاكبر منكو قا آن الخان الاعظم شامانيا وان انحاز الى جانب البوذية .

ودخل هولاكو ايران وأهلوها مسلمون واصطدم بالاسماعيليين فى الشمال والعباسيين فى الغرب وهما من المسلمين كذلك فأين كان اليهود من هذا كله؟!

يقول يوسف غنيمة" وقد جاء فى احصاء قديم وان لم أعرف منزلته من الصحة والضبط أن كان عدد اليهود الذين يدفعون الجزية عند دخول هولاكو بغداد ٣٦٫٠٠٠ وكان عدد كنائسهم ١٦" (٢)

وبالطبع لا يمكن الجزم بصحة هذا الرأى أو خطئه غير أنه يؤكد أن العراق كانت تمثل مركز انتشار اليهود عبر آسيا منذ عهد بختنصر الملك البابلى الشهير الذى أباد جزءا وسبى الجزء الاخر وشرد الجزء الاخير من اليهود فى أرجاء عديدة .

هذا .. وقدر لبغداد وهى مركز الخلافة العباسية أن تقع تحت وطأة المغول بقيادة هولاكو فماذا كان مصير اليهود فيها . يقول يوسف غنيمة " وهلك سكان مدينة السلام على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم ما خلا نفرا قليلا من النصارى .. ولم يسلم اليهود من هذه النائبات بل لحقهم قسط وافر من الأذى والجور من قتل وسلب وسبى ولم يجسر واحد من الرجال أن يظهر فى الطرق فكانوا يرسلون نساءهم الى الأسواق فى زى المسلمات لابتياع ما يحتاجون اليه ". (٣)

ويبدو أن الامر قد اختلف بعض الشئ بالنسبة لمدينة حلب يقول ابن الوردى" وفى سنة ٦٥٨ هـ سقطت حلب فى يد هولاكو ولم يسلم من أهلها من القتل الا من التجأ الى

(١) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٥
(٢) يوسف رزق الله غنيمة : نزهة المشتاق فىتاريخ يهود العراق ص١٥٢
(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٤١،١٤٢

دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين قيصر الموصلى والخانقاة التى فيها زين الصوفى وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات بأيديهم سلم بهن فى هذه الاماكن مايزيد علىخمسين ألف نسمة" (١)

ولعل هذا يوءكد لدينا أن المغول لم يكن لديهم عداء مباشر ضد اليهودأو اليهودية فاذا حدث اضطهاد لهم فهو ضمن الاضطهاد العام اى أنه اضطهاد سياسى لاديني٠

على أن وجود اليهود ككيان له تأثير فى الحياة العامة لم يتضح الا خلال فترة ولاية الايلخان ارغون (٦٨٣ - ٦٩٠هـ) (١٢٨٤-١٢٩١م) - يقول حسن الامين ٠٠" وفى عهد ارغون انتعشت الوثنية منجديد كما اشتد نفوذ اليهود" (٢)

وانتعاش الوثنية البوذية مرجعه الى مقتل الايلخان المسلم احمد تكودار وتولى ابن أخيه أرغون الذى كان بوذيا يكره الاسلام ٠ أما اشتداد نفوذ اليهود فمرجعه الى الفترة التى تولى فيها سعد الدولة اليهودى منصب الوزارة للايلخان ارغون٠ يقول أبو الفدا: " وولى أرغون سعد الدولة اليهودى وعظمه ومكنه وكانسعد المذكور فى مبدأ أمره دلالا بسوق الصناعة بالموصل" ٠ (٣)

ويبدو أن سعد اليهودى هذا قد انتقل الى بغداد فى فترة لاحقة حيث اتيح له الوقوف على الاوضاع المالية فى المنطقة فكان أن أدرك ما يفعله بعض الامراء المغول من اختلاس اموال الضرائب التى يجمعونها ٠٠ فلما قدر له - بمعاونة الأطباء اليهود الذين كانوا فى خدمة الايلخان ارغون - ان يعمل بدوره طبيبا فى خدمة الايلخان ذاته وجد الفرصة سانحة فعمد الى الاستفادة منها دون تردد٠ يقول الدكتور عبد السلام فهمى " ورسم سعد الدولة اليهودى خطته مبتدئا باحداث ثغرة فى العلاقات بين ارغون والامير بوقا وبدأ يطلق الاشاعات ويسعى للايقاع بأمير الامراء فى مجالس أرغون خان وشهر بأخيه وكان يدعى" أروق " واتهمه باختلاس اموال الدولة المجباه من العراق" ٠ (٤)

وكان من الطبيعى أن يولى أغون اهتماما بالامر وكان على سعد الدولة أن يثبت صحة ما أطلقه من أقوال٠ يقول يوسف غنيمة " وبين سعد الولة لارغون أن معظم أموال الخزينة يتسرب الى جيوب أروق وأخيه الوزير (بوقا) وأخبره بهدم مدارس كثيرة وخانات وأحد الجوامع وأن أنقاضها اتخذت لأبنية أمر بتشييدها (بوقا) فأمر أرغون سعد الدولة والاميرين أردوقيا وبايان سوكرجى بأن يفحصوا دفاتر الجباة ويجبوا الضرائب فجبى الطبيب اليهودى مبلغا عظيما ودفعه الى أرغون فسر الايلخان من عمله هذاو عينه مفتشا على مالية بغداد ورفعه عقيب ذلك الى منصب الوزارة على كل المملكة" ٠ (٥)

وبالطبع كانت هذه الخطوة نتيجة ترتبت على ادانة الامير (بوقا) وأخيه (أروق) ٠٠بعد ما كانا من أصحاب الحول والطول فى الايلخانية ٠

---

(١) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٠٣
(٢) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٧
(٣) ابو الفدا : تاريخ المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٨
(٤) د٠ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٥
(٥) يوسف رزق الله غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص١٤٣

وقد يدفعنا ذلك الى التعرف على تلك الشخصية العجيبة التى تطورت من العمل بالدلالة فى الاسواق الى الطب فى قصر الايلخان ثم ارتقت الى منصب الوزارة فى فترة قصيرة. يقول الدكتور عبد السلام فهمى"وكان رجلا يمتاز بالذكاء والمكر ويعرف كيف يتحين الفرص ، وعرف عنه أنه كان يكره الاختلاط بالناس ولا أحد يعرف أسراره وفى الوقت نفسه كان لـه معارف كثيرون ، وكان يجيد عدة لغات وكان على علم تام بأحوال الموظفين والصيارفة فى بغداد التى عاش فيها " (١)

فلنحاول تتبع خطوات الرجل والسياسة التى اتبعها فهو بلا شك نموذج صادق لطريقة اليهود فى التعايش والتعامل" يقول الدكتور فؤاد الصياد "وقد حاول سعد الدولة أول الأمر أن يستميل قلوب الناس اليه فأمر أن تجرى الاحكام وفق الشريعة الاسلامية وتوخى العدالة التامة وعمل على رفع الغبن عن المغبونين وأجرى الصدقات وعم الرخاء وشعر الجميع بالامن والاستقرار فلا غرو أن لهج بذكره شعراء العرب والعجم ونظموا القصائد فى مدحه والثناء عليه". (٢)

وهكذا استتب الامر لهذا الوزير اليهودى الداهية.. فكان عليه ان يبدأ العمل فى تنفيذ مخططه ضد الاسلام والمسلمين فأوعز الى أرغون ـ وكان يكره المسلمين ـ بتولية اليهود والمسيحيين فقط فى مناصب الدولة فكان أن انتزع أرغون من أيدى المسلمين كل المراكز التى كانت لهم فى ادارات القضاء والمالية" (٣) بل وحرم عليهم الظهور فى بلاطه.

اليهود فى وظائف الدولـــة :

نجح الوزير اليهودى سعد الدولة ـ بموافقة الايلخان أرغون ـ فى ازاحة المسلمين عن مناصب الدولة المهمة وبالتالى أصبح المجال شاغرا أمام اليهود بوجه خاص. "فكان أن عين سعد الدولة اخوته ولاة فى بغداد والموصل (٤) وغيرهما من أجزاء الايلخانية فتسلط اليهود بها ويقول يوسف غنيمة "وعين أخاه فخر الدولة ناظرا عاما على مزارع العراق العربى" (٥) ثم أسند اليه فيما بعد ادارة مدينة السلام على ما كان يضرب به المثل فى الجهل ثم جعل فارس تحت امرة أخيه شمس الدولة وكذلك عين أخاه أمين الدولة حاكما على الموصل ولو لم تكن خراسان وبلاد الروم تحت اشراف أمراء المغول أنفسهم لطمع فى أن يولى عليها بعض جهاله" (٦)

ويعلق الدكتور فؤاد الصياد على هذا الوضع الغريب النادر فيقول" وكان سعد الدولة ككل يهودى رجلا متعصبا لاقاربه وأبناء جلدته فكان أن عهد اليهم بعظائم الامور حتى صاروا يسيطرون على كل صغيرة وكبيرة وارتفعوا الى درجة الامراء والسلاطين بعد ما كانوا أذلاء لا فى العير و لا فى النفير". (٧)

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٥
(٢) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٢
(٣) د. مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١١
(٤) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٥١
(٥) يوسف غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ١٤٣
(٦) د. محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص ٧٢
(٧) د.فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٢

ولعله يمكننا القول ان ذلك كله حدث وفق تخطيط دقيق رسمه الاطباء اليهود فى قصر ارغون .. فكان أن رشحوا سعد الدولة للعمل طبيبا معهم فى قصر الايلخان .. ثم نهض الاخير بما لديه من مواهب وصفات بمسئولية التنفيذ مستغلا الظروف المواتية ، فالايلخان بوذى النزعة يكره المسلمين بشدة ..ونوابه مختلسون بشكل فاضح والايلخان بدوره لايهمه من الامر سوى من يجبى له أموال الضرائب .

وهكذا نجح سعد الدولة فى تهويد مناصب الدولة المهمة فى معظمها فيما عدا بعض المناطق المحدودة . يقول الدكتور محمد موسى هنداوى " ولم يقتصر الامر على مد السلطة لاسرته ، بل عمل على اتساع نفوذ طائفة من بنىجلدته، فقد استغل اليهود مركز سعد الدولة وتغلغلوا فى الحكومة وتورطوا فى ذلك الى حد أحفظ الناس عليه وعليهم وقد تندر بعض فضلاء بغداد وأشار الى هذه الامور بقوله :

يهود هذا الزمان قد بلغـــوا	مرتبة لا ينالها فلـــــك
الملك فيهم والمال عندهـــم	ومنهم المستشار والملـــك
يا معشر الناس قد نصحت لكم	تهودوا فقد تهود الفلـــك
فانتظروا صيحة العذاب لهـــم	فعن قليل ترونهم هلكـــوا (١)

التآمر ضد الاسلام :

استشعر سعد الدولة اليهودى معالم القوة حوله فوجد الظروف كلها مهيأة تماما : فالايلخان اطلق يده فى كل شئ تقريبا وأعوانه هو من اليهود منتشرون فى دواوين الحكومة وفى المراكز القيادية فى المناطق التابعة والمسلمون قد استبعدوا ولم يعد يسمح لهم حتى بمجرد الظهور فى بلاط الايلخان عندئذ أظهر ما كان يخفيه من مكائد ضد الاسلام والمسلمين يقول الدكتور فؤاد الصياد " وذات يوم قال الوزير سعد الدولة لارغون : ان النبوة قد وصلت الى الايلخان بالوراثة عن طريق جنكيز خان، فأرغون نبى الله، ولما كان كل دين يتوقف على جهاد المخالفين بعد استئصال شأفتهم فانه يجب أنيصدر الايلخان أمرا بقتل كل شخص يتخلف عن قبول ديانته ولا يقبل أن يحشر فى زمرة اتباع الملة الجديدة" (٢)

وبالطبع فان مقولة سعد الدولة اليهودى تلك قد احتوت على عدة مغالطات منها :

أ - ان جنكيز خان لم يدعى النبوة طوال حياته ولم ينسبها اليه أحد بعد مماته.

ب - أن مسألة الوراثة - وهى أمر مرفوض فيمايتعلق بالنبوة - ان صحت فالاحق بها هو الخاقان الاعظم قوبيلاى الذى كان لا يزال على قيد الحياة مقيما فى عاصمته الجديدة بكين.

ج - كان جنكيز خان شامانيا على حين كان أرغون بوذيا كأبيه وجده.

د - لم تضع هذه المقولة فى الاعتبار موقف اليهود أنفسهم والمسيحيين أيضا .

عموما . فان الامر برمته يؤكد أن سعد الدولة اليهودى كان على استعداد تام لانيفعل أى شئ بل ويقبل أى شئ فى سبيل الوصول الى هدفه ومن ثم كانت الخطوة التالية فى تكتيك سعد الدولة اليهودى أكثر غرابة وخطورة.. يقول الدكتور مصطفى طه بدر :

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٧٣

(٢) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٢، ٦٣

" وبتأثير هذا الوزير فكر أرغون فيما يقال فى القضاء على الاسلام وجعل مكة مركزا لعبادة الاوثان "(١).

ويوضح الدكتور عبد السلام فهمى طريقة تحويل مكة الى الوثنية ! يقول "وصار يبذل كل ما وسعه لتقويض دعائم الاسلام مثل هدم الكعبة المشرفة واحلال معبد بوذي محلها "(٢)

وبالطبع لم يكن فى مقدور أرغون خان أن يمس الاماكن المقدسة فى مكة أو المدينة لانها كانت تحت حماية المماليك فى مصر وأولئك نجحوا فى هزيمة جيوش هولاكو فى عين جالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ثم جيوش أباقا فى حمص "٦٨٠هـ - ١٢٨١م)

وأغلب الظن أن خطة سعد الدولة اليهودى كانت تعمد الى القضاء على المسلمين فى ايران والعراق أو اذلالهم فعمد الى أن يدفع أرغون الى ذلك فيفعل ما كان يفعله أبوه أباقا عندماهزم المماليك جيشه أكثر من مرة.

وكان على المسلمين وقد افاقوا من خديعتهم التى وقعوا فيها حين أحسنوا الظن بسعد الدولة أول الامر ان يفعلوا شيئا بعدما استتب له الامر واسفر عن ملامحه الحقيقية وباتت مواقفه تحمل شرا مستطيرا لايمكن تجاهله. وخصوصا أن اليهود فى الاتجاه المقابل قد ازداد جرأة وتطاولا فقد ظهروا من مكامنهم وابتغوا لانفسهم ما لم يكن ليوء مل لهم - يقول الاستاذ عباس العزاوى" وفى سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م سطر ببغداد محضر كتب فيه أعيان الناس يتضمن الطعن على سعد الدولة الوزير اليهودى لارغون خان وفيه آيات من القرآن وأخبار نبوية أن اليهود طائفة اذلهم الله تعالى ومن حاول اعزازهم أذله الله عز وجل "(٣)

وفى الحقيقة لم يكن بوسع المسلمين ان يفعلوا أكثر من هذا لكن ما فعلوه كان نريعة بادر سعد الولة اليهودى الى استغلالها باسرع ما يمكن يقول يوسف غنيمة" وفى سنة ٦٨٩ هـ كتب بعضهم ذما فى اليهود ووقف عليه سعد الدولة وأطلع عليه السلطان ارغون فحكمه فى كل من كتب".(٤)

ولم يتوان سعد الدولة اليهودى فى اغتنام الفرصة فتقدم بقتل جمال الدين ابن الحلاوى ضامن تمغات بغداد فصلب بباب النوبى وثيابه عليه وسلم الى أهله بقية النهار"(٥)

وبالطبع لم يتوقف القتل عند شخص واحد .. بل لم يتوقف الأمر عند القتل وانما امتد الى الصلب الذى كان يعنى التشهير والاذلال. كذلك كان هذا الموقف اطلاق ليد سعد الدولة اليهودى بصورة سافرة فصار يقتل من يشاء دون تردد أو خوف يقول يوسف غنيمة " ومن أعماله فى أخريات أيامه أنه سمع ان نور الدين عبد الرحمن باقشان ملك واسط تكلم عليه فى حال السكر فبعث مهذب الدولة بن الماشعيرى الى واسط فقبض على ملكها وأرسله الى بغداد مطوقا بالحديد على أن يقتل فيها".(٦)

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١١
(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٦
(٣) عباس العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٤٧
(٤) يوسف غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ١٤٧
(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٤٧
(٦) يوسف غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ١٤٧

نهاية سعد الدولة :

لم يكن مسلك سعد الدولة ليرضى كبار القادة المغول فى الايلخانية ولم يكن غضبهم راجعا لمافعله بالمسلمين وانما لاتساع سلطاته من ناحية ولمكانته عند الايلخان ارغون من ناحية أخرى. تلك المكانة التى جعلت منه الشخص الثانى فى الايلخانية وهو مالم يألفه المغول من رجل ليس منهم ومن هنا بدأت نذر الشقاق تلوح فى الافق . ولم يكن سعد الدولة اليهودى غافلا عن ذلك لكنه بدلا من أن يعمل على تضييق الفجوة مع الأمراء والقادة المغول تجاهل الامر معتمدا على ثقة أرغون فيه واعتماده عليه.. ولكن دوام الحال من المحال كما يقولون فقد مرض الايلخان مرضا شديدا .. وهنا أفاق سعد الدولة مذعورا فحاول استمالة الناس بكل وسيلة ممكنة وأنى له ذلك ؟

ولم تكن الورقة الاخيرة التى عمد اليها سعد الدولة لتسعفه وسط تلك الظروف المتلاحقة والتى جرت فى سرعة عجيبة. يقول الدكتور فؤاد الصياد :" ولما رأى سعد الدولة ان ارغون قد قارب النهاية وأن الزمام قد أفلت من يده أرسل الرسل على الفور الى غازان ابن ارغون واستدعاه الى اذربيجان وظن أنه بذلك لم ينال عطف الامير قبل موت أبيه"(١)

ولم يكن الامراء المغول بغافلين عن تحركات سعد الدولة ولهذا بادروا اليه قبل ان يستقطب الامير غازان " ففى اليوم الاخير من شهر صفر سنة ٦٩٠ هـ وعندما كان أرغون يحتضر اقاله خصومه والحاقدون عليه، ثم قبض أمراء المغول عليه وقتلوه فى منزل عدوه اللدود طغاجار".(٢)

فرحة المسلمين :

لعله يمكن للمرء أن يتصور أثر مقتل سعد الولة فى نفوس المسلمين وقد كانت مفعمة بالالم والمهانة والقهر من جراء سلوكيات هذا الرجل اليهودى وقد عبر الشعراء عن بعض مشاعر الفرحة لدى المسلمين والشماتة فى اليهود يقول أحدهم:

نحمد من دار باسمه الفلك ... هذى اليهود القرود قد هلكوا

هجوتهم ابتغى بهجوهم ... جنان خلد يزينها البرك

رغما عمن قال فى قصيدته ... تهودوا قد تهود الفلك(٣)

وبالطبع لم يكتف المسلمون بمجرد اظهار الفرحة أو الشماتة وانما ساهموابفعالية فى كل ما قام به المغول ضد اليهود عقب وفاة ارغون ومقتل سعد الدولة وتولى بايدو لمنصب الايلخانية. يقول الحافظ الذهبى" وفى سنة ٦٩٠ هـ هلك أرغون ويقال أنه سم فاتهمت المغل وزيره سعد الدولة اليهودى بقتله فمالوا على اليهود قتلا ونهبا وسبيا.(٤)

وهكذا انطلق المسلمون فى معظم أرجاء الايلخانية سعيا وراء اليهود بغية الانتقام منهم ولم يسلم من تلك الغارة فى ايران سوى يهود شيراز حيث "كان على ادارتها شخص

---

(١) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٤

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٧

(٣) د. محمد موسى هنداوى: سعد الشيرازى ص ٧٣

(٤) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ٣٦٦

الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ص ٤١١

يهودى يدعى . شمس الدولة ـ نائبا من قبل الوزير سعد الدولة كان يسلك مع الاهالى طريق الرفق واللين ويدفع عنهم عاديات المعتدين فحاز على ثقتهم فسلم بذلك يهود شيراز من القتل والاغارة على دورهم ومتاجرهم"(١)

ولعل فى ذلك مايكشف عن طيبة ونقاء المسلمين وسماحتهم حتى مع من آذوهم.

يهود العراق :

كان سعد الدولة ـ كما أشرت ـ قد افتن فى ايقاع الاذى بالمسلمين فأعدم كل من تعرض له بنقد أو ذم . ومن هنا اشتدت كراهية المسلمين له فانتظروا أن تدور به الدوائر .. وكان أن وصلت الأخبار بأن أرغون قد توفى وأن الامراء المغول قد قتلوا سعد الدولة وأن الاوامر قد صدرت بالقبض على فخر الدولة أخى سعد الدولة ـ وكان نائبا عنه على العراق ـ وأن الامور فى العراق قد آلت الى جمال الدين الدستجردانى كاتب العراق آنذاك يقول يوسف غنيمة" ونهبت دار فخر الدولة ودور اليهود كافة وأخذت اموالهم ودام ذلك ثلاثة أيام فركب جمال الدين فى جماعة من الجند ومنعوا العوام من ذلك . كذلك حدث أن اشاع طائفة من العوام أن الحكام سمحوا فى نهب اليهود فسارع الاشرار والسفلة والشطار الى ذلك ونهبوا دورهم ودكاكينهم ولم يبق بلد من العراق الا وجرى فيه على اليهود ما جرى فى بغداد"(٢)

ولم يتوقف الامر عند القبض على زعماء اليهود ونهب دورهم ودور كافة اليهود ودكاكينهم بل امتد الامر الى أكثر من ذلك يقول يوسف غنيمة "وطولب فخر الدولة وجماعة من أعيان اليهود بأموال وضويقوا وعوقبوا عليها فادعوا أن أموالهم نهبت من دورهم وكذلك ارسل الى الموصل من قبض على أمير الدولة أخى سعد الدولة واعتمل معه مثل ما اعتمل مع أخيه فخر الدولة ومنذ ذلك الحين وقع اليهود فى ضيق عظيم عد من أكبر البلايا"(٣).

وهكذا عاد اليهود الى العزلة فانكمشوا وتقوقعوا بعد أن تلاشت مكانتهم التى حظوا بها أيام سعد الدولة يقول حسن الامين" وبعد أرغون يلاحظ أن مكانة اليهود والنصارى فى الدولة الايلخانية أخذت بالتدنى لان قبائل المغول اتجهت الى الاسلام منحرفة عن وثنيتها منذ أواخر المائة السابعة(٤).

ويعتبر اسلام الايلخان محمود غازان النهاية الحقيقية لوجود اليهود على خريطة الأحداث السياسية فى أيام المغول فقد أمر بهدم معابد وكنائس غير المسلمين وتحويلها الى مساجد بل وضيق عليهم فى حركتهم العادية يقول ابن الفوطى وأمر بالزام أهل الذمة الغيار فكانت علامة النصارى شد الزنار فى أوساطهم واليهود خرقة صفراء فى عمائمهم "(٥) فداموا على ذلك شهورا ثم أزيل بمجرد تسلط العوام عليهم وطمع الجهال فيهم"(٦)

---

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص ٤٦٩

(٢) يوسف غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ،ص ١٤٧

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٤٨

(٤) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٦٩

(٥) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص ٤٨٣

(٦) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٦٨

رابعا : المسيحيــــــة

لا تكاد ديانة تبارى المسيحية فى تعدد مذاهبها " وذلك التعدد الذى نشأ عـن اختلاف الاراء حول تفسير بعض القضايا فى المسيحية مثل تقرير طبيعة المسيح وتحديد مـدى الوهيته وكيفية وفاته.

وليس من أهداف بحثنا تفسير ذلك الخلاف ولذا سنكتفى بالاشارة الى أبـــرز المذاهب المسيحية التى بادرت الى الانتشار بين القبائل المغولية والقبائل التركية المجاورة معها .

أولا : النسطوريـــــة :

وهى مذهب ينسب الى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة٤٣١م ،وهـذا المذهب يقرر أن مريم(والدة المسيح) لم تلد الها لان ما يولد من الجسد ليس الا جسدا ولان المخلوق لا يلد الخالق فمريم ولدت انسانا ولا تسمى والدة الاله بل والدة المسيـــح الانسان وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته فمنحه الله المحبة ووهبه النعمة".

"وقد اعتبر ذلك بدعة من نسطور ولذلك طرد من منصبه ونفى من القسطنطينية ولكن مذهبه لم يمت وأحياه فيما بعد عالم مسيحى اسمه برصوما كان مطرانا لنصبين ومن ثـــم انتشر فى الشرق" (١)

ويبدو أن هذا المذهب قد انتقل من الشام الى العراق حيث سلك الدعـــاة النساطرة الطريق الى آسيا الوسطى والتركستان ومنغوليا يقول الدكتور السيد الباز العرينـــى "ومن ذا الذى يقول أن أولئك المبشرين النساطرة الفقراء الذين ارتحلوا فى القرن السابـــع الميلادى من سلوقية على نهر دجلة للدعوة الى الانجيل فى بلاد ساذجة فى تركستـــــان الشرقية ومنغوليا سوف يجنون فى يوم من الايام محصولهم فالواقع انه حدث منذئذ أن الاويغور فى كوتشا وطورفان والنايمان بجبال الالتاى والكرايت بشرقى جوبى والتانجوت فى الجنوب الشرقى من منغوليا الى سور الصين الكبير استجابوا الى جانب ديانتهم الاصلية الشامانية الى تعاليـم البوذية والمسيحية النسطورية". (٢)

ونلاحظ أن هذا الرأى حدد بداية حركة التبشير النسطورى فى القرن السابـــع الميلادى أى فى نفس الوقت الذى بدأ الاسلام فيه ينتشر فى شبه جزيرة العرب ويمتد الـــى العراق والشام فكأنها كانت محاولة للفرار من وجه الدين الجديد الى مناطق أبعد وأرحـــب وأيسر.

ثانيا : الارثوذكس (اليعاقبة)

يعتبر هذا المذهب رد فعل لعقيدة نسطور وهو يقضى بأن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة ولذلك فالعذراء تدعى بحق والده الاله فمريم لمتلد انسانا عاديا بل ابن اللـــه المتجسد لذلك هى حق ام الله .

---

(١) د. أحمد شلبى :سلسلة مقارنة الاديان ، المسيحية ص ١٩٢،١٩٣

(٢) د.السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٢٥

وقد يسمى أصحاب هذا المذهب باليعاقبة نسبة الى داعية مشهور اسمه يعقـوب البرادعى قام بالدعوة لهذا المذهب وعمل على نشره". (١)

وقد انتشر هذا المذهب فى الشام أيضا .. ولم يجد أصحابه حرجا من الانضـواء تحت زمرة المغول وخصوصا أيام هولاكو يقول الدكتور العرينى " والملحوظ أن مطران حلب اليعقوبى وهو المؤرخ الشهير المعروف بابن العبرى قدم الى القادة المغول كيما يعلن ولاءه لهولاكو" (٢)

ثالثا: الكاثوليكية :

وتدعى أم الكنائس ومعلمتها وتسمى أيضا بالبطرسية او الروسية لان اتباعها يدعـون أن مؤسسها الاول بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم والبابوات فى روما خلفاؤه". (٣)

ويرى أصحاب هذا المذهب أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين أى له ذاتان وكيانان هما الاله والانسان. ومن الواضح أن هذا الاتجاه يوافق الى حد كبير اتجاه النساطرة الذى يرى أن المسيح انسان غمره اللاهوت بعد ولادته ولكن الكاثوليك يختلفون عن نسطور فى اعتقادهم ان مريم ولدت الاثنين جميعا فهى ولدت يسوع المسيح الذى هو مع ابيه فى الطبيعة الالهية ومع الناس فى الطبيعة الانسانية" (٤).

المد التبشيرى عبر التركستـان :

لعله يمكننا أن نقول أن الدعاة النساطرة كانوا أكثر المذاهب الثلاثة السابقة فـى الاتجاه الى وسط آسيا عبر العراق وايران . وأن هؤلاء الدعاة قد سلكوا طرق القوافل وأقاموا كنائسهم هنا وهناك وأن ثمة عوامل عديدة ساعدتهم على نشر مذهبهم فى التركستان ومنغوليـا منهـا :

أ - تقوقع اليهودية وعزلتها وانصراف الناس عنها وعن اليهود لمالهم من صفات وسلوكيات.

ب - ضعف ديانات البدو التى كانت منتشرة آنذاك بين القبائل التركية والمغولية فى هـذه الانحاء.

ج - عدم نجاح البوذية فى التأثير على الناس فى تلك المناطق على الرغم من انتشارها مـن الهند الى التبت والصين .

فلما بدأ الاسلام يمتد عبر الرافدين فى عهد الدولة الاموية وتوالت الفتوحات عبـر ايران بدأت المسيحية تتحرك من قواعدها فى التركستان الى الصين ويبدو أنها حققت بعـض النجاح هناك غير أن البوذية - كما يبدو - قد أفلحت فى استقطاب أباطرة الصين الى جانبها يقول الدكتور ادوار بروى : "انتشرت النسطورية فى آسيا العليا والصين منذ القرن الثامـن بفضل كنائس ايران ولكن التانج (حكام الصين) حرموها سنة ٨٤٥م فتلاشت بعد ذلك فـى الصين بيد أنها حافظت على حيويتها فى تركستان فاستعادت نشاطها التبشيرى فى الشـرق ولا سيما فى أوساط قبائل الكرايت والتانجوت المغولية وفتح لها الاحتلال الجنكيزخانى أبواب الصين مرة أخرى". (٥)

---

(١) د. أحمد شلبى: سلسلة مقارنة الاديان ، المسيحية ص ١٩٤
(٢) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٤٧
(٣) د. أحمد شلبى : سلسلة مقارنة الاديان المسيحية ص ٢٣٩
(٤) د. أحمد شلبى : المصدر السابق ص ١٩٤
(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢

وهكذا استغل الدعاة المسيحيون الغزو المغولى انتشروا وراءه مستغلين أحداث الدمار والقتل الجماعى والذعر فى الدعوة الى دين مختلف يدعو الى السكينة والهدوء وتقبل الأذى واحتماله على أنه تطهير للنفس البشرية من الخطايا والاثام . وبالطبع كان هذا أكثر مما تمناه المغول أنفسهم وأكثر مما دعا اليه البوذيون سلفا .

وبدأت المسيحية تزداد انتشارا فيمابعد وزاد تركيز الدعاة على القوافل التى تتحرك عبر الطرق التجارية المعروفة وعلى القبائل التى تقيم على مقربة من هذه الطرق يقول د.هارولد لامب " ولما كان الكرايت يعيشون فى مناطق قريبة الى طرق القوافل فانهم كانوا يتجرون على نطاق اوسع من غيرهم مع العالم الخارجى ولذا اعتنق الكثيرون منهم الدين المسيحى" . (١)

وجدير بالذكر أن تحول الكرايت وغيرهم من القبائل ا لمغولية أو التركية قد حدث فى صورة اقوى بكثير مما سبق .. ويبدوذلك خلال الفترة التى سبقت ظهور جنكيز خان على مسرح الاحداث السياسية أى فى الفترة التى ارتدت فيها المسيحية عن الصين فركزت جهودها فى تثبيت دعائمها فى التركستان يقول د. ستيفن رنسيمان " وفى أوائل القرن الحادى عشر تحول ملك الكرايت ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على المذهب النسطورى وبهذا اصبحوا على اتصال بالترك الاويغور الذين كان بينهم عددكبير من النساطرة" . (٢)

وأمام هذا النجاح زاد الدعاة النساطرة من نشاطهم وانتشرت كنائسهم مع بداية ظهور جنكيز خان والمغول كقوة عسكرية ذات أثر فعال فيما حولها من الكيانات الاخرى . فقد استغلوا ا لحرية الدينية التى التزم بها جنكيز خان ،كما استفادوا بطبيعة الحال من التغيير الذى حدث فى موازين القوى السياسية بل وفى الخريطةالسياسية لاسيا ذاتها . يقول بارتولد " ونحن نعلم أن الترويج المسيحى كان نشيطا طوال القرنين الحادى عشر والثانىعشر ونعلم أن كثيرا من الاقوام المغولية قد قبلوا الدين المسيحى فى ذلك الوقت وترى المصادر الاسلامية لا المسيحية وحدها ان قبائل (نايمان) فى غرب منغولياوالكرايت فى شرقها كانوا مسيحيين وكذلك كان التانجوت القاطنون فى جنوب منغوليا المتاخمة للصين كما كان الأويغور يشتركون فى الترويج للمسيحية ". (٣)

ولعل هذا كله يؤكد لدينا القول بأن القبائل التركية التى تحركت على طرقالقوافل وبخاصة الاويغور والنايمان قد اعتنقت المسيحية أولا ثم انتقلت المسيحية منخلالها الى غيرها من القبائل المغولية بفعل الحرب اوالتجارة أو المصاهرة وعلى هذه الصورة انتقلت المسيحية النسطورية من التركستان الى منغوليا.

المسيحية والخان الأعظم:

كان جنكيز خان – كما نعرف – شامانيا غير متعصب لدين معين فقد كان لايرى بأسا فى تأييد منح الحرية الدينية .فالدين من وجهة نظره قضية فردية وثانوية فى الوقت ذاته.

وفى الحقيقة لم يشأ جنكيز خان ان يشغل نفسه أوجنوده عن حركة الغزو وما تجلبه من مغانم وأسلاب بالتدخل فى قضايا دينية أوخلافات مذهبية فما يعنيه فى المقام الاول هوانتماء المغول جميعا اليه والتزامهم بنظامه العسكرى ، كما أن المسائل الاجتماعية

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٥
(٢) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٠
(٣) د. بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٨

قد حسمت سلفا بحكم العادات والتقاليد المتوارثة من ناحية وبالياسا قانون جنكيز خان الصارم من ناحية أخرى.

وعلى هذا فانه لاينبغى أن نسرف الظن فى مدى تأثير المسيحية على الصفات النفسية لدى المغول أ الاتراك الذين اعتنقوها يقول الدكتور ستيفن رنسيمان" على أن (طغرل) ملك الكرايت اشتهر بتعطشه لسفك الدماء والميل الى ارتكاب الخيانة، وهما صفتان ليستا فى شئ من الفضائل المسيحية ، كما أنه لم يكن ليبذل المساعدة لرفاقه المسيحيين" (١)

وعلى هذا فجنكيز خان وخلفاوءه كانوا ينظرون الى الدين بصفة عامة على أنه مجرد مهدئ يخدر الشعوب الخاضعة لهم تحت عنوان التسامح والمودة والصفح وربما فسر ذلك لنا أحد عوامل انتشار البوذية والمسيحية آنذاك وبصورة أكبر من امكانية انتشار الاسلام ذلك الدين الذى يرفض الاستسلام للظالم ويرى فى الجهاد أحب الاعمال الى الله.

عموما - فان المسيحية وقد رأت كيف صححت البوذية اتجاهها فى الانتشار بين المغول عمدت بدورها الى محاولة استقطاب الخانات المغول أنفسهم وكذا النفاذ الى دواوينهم بصورة أو بأخرى يقول بروى" وقد استطاع النسطورى تشنكاى الكرايتى(١١٧١-١٢٥١م) الذى جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل أن يبلغ ذروة قوته الاحتفاظ بمهامه فى ولايتى أوكتاى وكيوك ولم يفته أن يسهم من خلال منصبه أن يقدم كل مساعدة ممكنة لابناء دينه". (٢)

وبالاضافة الى اعتماد المسيحية على بعض رجالها النساطرة فى الدواوين الحكومية وأمام عجزها عن دفع الخانات أنفسهم الى اعتناقها لجأت الى التأثير عليهم من خلال زوجاتهم اللائى كن فى الغالب ينتمين الى قبائل تركية يقول د.ستيفن رنسيمان" وابناوءه قد تزوجوا من اميرات مسيحيات من الكرايت كان لهن نفوذ كبير فى بلاطه". (٣)

على أن ذلك كله لم يغير من السياسة العامة التى ارتآها جنكيز خان والتى تتلخص فى أن الغزو فوق آية اعتبارات دينية مهما كانت ولهذا لم يتوقف المغول أو يترددوا فى مهاجمة التكتلات المسيحية التى واجهتهم كالارمن والكرج والروس - يقول جمال الدين بن واصل" وقصد التتر بلد الكرج وهم جماعة من المسيحيين كانوا يسكنون فى جبال القبق (القوقاز) وقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس وكان الكرج قد استعدوا لهم وبعثوا الى اطراف بلادهم جيشا كبيرا ليمنع التتر عنهم فلقيتهم التتر فولت الكرج منهزمين بن أيديهم وأخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد وقد داخل الكرج منهم خوف شديد لدرجة انهم أخلوا مدينة تفليس للتتر فخربوا كل ما مروا به وافنوا من فيه". (٤)

وهذا الغزو فيما يبدو قد وقعحوالى سنة ١٢٢٢م أى قبل وفاة جنكيز خان ببضعة سنوات وبمعنى اخر أن سياسة جنكيز خان تجاه المسيحيين لم تتغير طول حياته.

وحدث أن تولى أوكتاى عرش ابيه وهو شامانى مثله فكان ان استشعر الدعاة النساطرة فيه أملا أكبر فقد كان بالقياس الى أبيه جنكيز خان أو أخويه جغتاى وتولوى

---

(١) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٥
(٢) د. ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢
(٣) د.ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٥
(٤) جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٤ ص ٥٣

رجلا لين العريكة متسامحا كما أن زوجته الاميرة النايمانية الشهيرة توراكينا وهى مسيحية نسطورية ذات شخصية قوية ستكون - ولاشك - عونا أكيدا للنشاط التبشيرى بين المغول انفسهم .. وسرعان ما اتضح أثر هذا كله فى اتجاه الخاقان الاعظم وقواده يقول الدكتور الباز العرينى" والملحوظ ان القائد المغولى (تشورماجان) لم يظهر شيئا من العداء للمسيحيين نظرا لان من أجداده من كانوا نساطرة مسيحيين وفى أثناء قيادته العسكرية للقوات المغولية فى الفترة بين ١٢٣٣-١٢٤١م أنفذ اليه الخان الكبير أوكتاى فى أذربيجان سمعان المسيحى السريانى ليتولى أمر المسيحيين ويقوم على حماية الارمن". (١)

لكن ذلك كله لم يحل دون أن تدق الجيوش المغولية فى عهد أوكتاى أبواب اوربا الشرقية بعنف وضراوة فكان أن وصلت هذه الجيوش الى المجر وبولندا ومن قبل أعادت اخضاع مملكة الكرج للسيطرة المغولية وتلك كانت قد خضعت للسلطان جلال الدين خوارزم شاه قبل أن يلقى مصرعه فى جبال الاكراد ثم حاولت أن تستقل بذاتها فلم يمهلها المغول اذ أسرعوا اليها فنشروا الذعر فيها حتى أذعنت ملكتها للامر واستكانت .

ما يعننا من الامر هو أن سياسة المغول نحو المسيحيين ظلت تعنى اظهار العطف عليهم دون ان يؤثر ذلك على مصالحهم فى الغزو والتوسع وذلك ما أزعج البابا نفسه يقول براون" وقد ابتلى المغول أقاليم اوربا بنفس الاهوال التى ابتلوا بها ايران وقد ازعجوا بافعالهم وشناعاتهم العالم المسيحى فبعث البابا جريجورى التاسع كتابا الى الامراء المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لاعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة من التتر" (٢)

وبالطبع كان الامراء المسيحيون والبابا أيضا يدركون أن لاقبل لهم بمواجهة المغول عسكريا فوقعوا فى حيرة فى أمرهم يقول الدكتور الباز العرينى" وهنا تنبه البابا انوست الرابع الذى خلف جريجورى التاسع الى ضرورة انقاذ العالم فاهتدى الى فكرتين الاولى المبادرة الى قتال المغول والدعوة الى حشد الجيوش لحربهم والثانية العمل على تحويل المغول الى المسيحية حينها سوف يكفون عن مهاجمة أوربا ويبدو أنه رأى أن الراهب يمكن أن ينجح فيما فشل فيه الفارس" (٣)

ونستطيع أن نقول ان هذا التفكير البابوى كان البداية التى نتجت عنها فيما بعد سفارات عديدة لمسيحى الغرب الكاثوليك نحو قراقورم عاصمة المغول فى آسيا العليا.

وتوفى اوكتاى عام ١٢٤١م فقامت زوجته الاميرة النايمانية توراكينا بالوصاية على العرش لمدة خمس سنوات من ١٢٤١- ١٢٤٦م فعمدت الى تدعيم المسيحية النسطورية فكان طبيعيا أن تنتشر الكنائس النسطورية فى منغوليا والتركستان وغيرهما من البلاد التابعة للمغول

وبدهى أن هذا الأمر قد شجع البابا انوسنت الرابع - على مابين الكاثوليكية والنسطورية من خلاف - ففى عام ١٢٤٥م وعلى أثر ضياع "بيت المقدس" من أيدى المسيحيين أوفد رسولا من قبله فى مهمة سياسية" (٤) الى عاصمة المغول .

---

(١) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ١٨٠

(٢) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٣

(٣) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ١٩١

(٤) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٦

وهكذا انفذت السفارة الاولى بقيادة الراهب يوحنا جان دى بيانو كاربينو الى مقر الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق الدين المسيحى مع شعبه فبلغ منطقة قراقورم حين كان مجلس الامبراطورية مجتمعا لانتخاب كيوك (١٢٤٧ م) فقدمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم ومع قلة التفاهم بين النساطرة الذين يحميهم المغول لانهم يؤلفون جزءا من شعوب آسيا العليا وبين الرومان الغرباء عن الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها فقد تلقى الراهب جوابا خطيا ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع للخان الاعظم" . (١)

ويحكى رسول البابا وقد حضر حفل تتويج كيوك خاقانا أعظم للمغول انه أى كيوك كان يميل بعض الميل للدخول فى النصرانية لكنه كان يتهرب من التعميد" (٢)

ولعل هذا يفسر لنا ان كيوك لم يكن يهتم بهذه المسألة بشكل جدى خاصة أن مبعوث البابا كان يرغب فى أن يدخل كيوك النصرانية على المذهب الكاثوليكى وهذا ما لم يكن ليسمح به النساطرة المحيطون به .

وكان نصيب السفارة الثانية الفشل أيضا وتلك كانت برئاسة راهب دومنيكان اسمه اسكلين مضى الى تبريز سنة ١٢٤٧م حيث التقى بالقائد المغولى بيجو ولم يسفر الامر كله عن شئ عملى . أما الكندسمباد الارمنى الذى بعث به أخوه هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى فقد أجرى التحالف مع المغول حيث استقبله كيوك فى حفاوة بالغة ومنحه براءة تكفل للملك هيثوم الاول الحماية والمحبة" . (٣)

ونستطيع أن ندرك من ذلك أن ملك ارمينية الصغرى قد بادر الى اعلان التبعية والخضوع للمغول وهو الموقف الذى لم يكن فى استطاعة البابا فى روما أو القديس لويس التاسع ملك فرنسا أوغيره من ملوك اوربا الغربية أن يصرح به .

وهكذا أسفر الضغط المسيحى الذى قام به النساطرة فى حاشية الخاقان الاعظم كيوك وعلى رأسهم والدته الوصية على العرش الاميرة توراكينا عن عطف تام من كيوك نحو المسحيين بصفة عامة يقول الدكتور فؤاد الصياد" و كان الخان الاعظم كيوك شديد العطف على رعاياه من المسيحيين من أمثال الارمن والكرج والروس ،ولما شاع ذلك عنه كان يقصد بلاطه كثير من القسيسين والرهبان من مختلف المناطق على حين لم يرتفع فى عهده صوت للمسلمين وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية فى الاوساط المغولية" (٤)

على أن الاهداف التى كانت تسعى اليها المسيحية فى عهد كيوك كانت أكبر من مجرد نيل عطف الخاقان الاعظم او شيوع بعض التقاليد المسيحية بين المغول . يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور" ولا شك فى أن اتجاه المغول نحو المسيحية كان من شأنه أن يحقق كسبا للكنيسة عندئذ لاسيما وأن المغول ظلوا حتى ذلك الوقت وثنيين - أى بمثابة مادة خام يمكن تشكيلها فضلا عما يؤدى اليه اعتناق المغول للمسيحية من تطويق الاسلام والمسلمين تطويقا خطيرا من الشرق والغرب" . (٥)

---

(١) د . ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٤ .
(٢) جون هامرتن: تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٤
(٣) د . السيد الباز العرينى: المغول ص ١٩٥
(٤) د .فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٨
(٥) د .. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٨

فاذا بحثنا عن أثر اتجاه كيوك الى العطف على المسيحيين بصفة عامة عند المطران اليعقوبى المؤرخ ابن العبرى وجدناه يقول" وكان بمقام الاتابكية لكيوك خان أمير كبير اسمه "قداق" (يقصد كاداك) وشاركه أمير اخر اسمه جنيكاى (يقصد تشنكاى الكرايتى) وهذان أحسنا النظر الى النصارى وحسنا اعتقاد كيوك خان فى النصرانية ووالدته وأهل بيته فصارت الدولة مسيحية وارتفع شأن الطوائف المنتمية الى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريان والارمن والتزم الخاص والعام من المغول وغيرهم بهذا المذهب". (١)

ونلمح فى ذلك القول عبارة ذات مدلول خطير.." وصارت الدولة مسيحية" وهى تعكس مدى الفرح الذى ملك على المطران مشاعره حتى توهم أن الدولة كلها قد غدت مسيحية فعلا .

أما الكاتب المسيحى الاخر فقد كان أكثر حذرا أو حيطة فى التعبير عن نفس المعنى يقول رزق الله منقريوس الصدفى" ولما تولى كيوك خان استخدم كثيرين من المسيحيين حتى أن اتابكه كان مسيحيا وارتفع شأن الطوائف المسيحية فى أيامه حتى خيل للناس أن المملكة صارت مسيحية". (٢)

والحقيقة أن الخان الاعظم لم يرغب فى أن يغضب والدته الوصية على العرش والتى ظلت خمس سنوات تكافح حتى يصل هو الحكم كماأن المسيحية كانت منتشرة آنذاك فى التركستان تمارع البوذية والاسلام الذى أخذ يزحف حثيثا فى هذه المناطق فلم يكن كيوك يكره المسلمين أو يسعى الى انتزاع أملاكهم استكمالا لسياسة أبيه وجده اللذين اكتسحا أملاك الدولة الخوارزمية من قبل .

اما الدليل الفعلى الذى يكشف عن حقيقة مشاعر كيوك نحو المسيحية فيظهر فى تهربه المستمر من التعميد وتفضيله البقاء على الشامانية على أن يتحول الى النصرانية على أى من مذاهبها رغم كافة الضغوط المحيطة به .

وأما الدليل السياسى الذى يؤكد اطمئنان المسيحيين فى غرب اوربا الى موقف خاقان المغول فيتمثل فى موقف لويس التاسع ملك فرنسا حيث جدد المحاولة خلال اقامته فى الارض المقدسة ١٢٥٠م فأوفد الرهبان الدومنيكان الثلاثة جان دى كاركاسون واندريه دى لونجومو وأخاه الذين بلغوا المعسكر الامبراطورى فتقبلت أرملة كيوك هدايا ملك فرنسا ولكنها طالبته بخضوع صريح". (٣)

فاذا عدنا الى ا لرسالة التى بعث بها سمباد الارمنى أخوهيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى الى صهره هنرى الاول ملك قبرص وقفنا على حقيقة موقف كيوك خان من النصرانية فقد كان يقول فيها بأهمية النساطرة فى بلاط المغول وامبراطوريتهم اذ عاشوا فى حماية الخان وخطوا منه بالتشاريف وجعل لهم الامتيازات وأعلن حمايته لهم من كل من يحاول الحاق الاذى بهم." (٤)

أى ان الامر فى غايته لم يتجاوز مجرد اظهار العطف او اعلان الحماية للمسيحيين على امتداد الامبراطورية المغولية.

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٠

(٢) ابن العبرى : المصدر السابق ص ٤٥٠

(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٥

(٤) د.الباز العرينى: المغول ص ١٩٥

وانتهى أمر الخاقانية فى سنة١٢٥١ الى منكو حفيد جنكيز خان وكان آنذاك فى الثالثة والاربعين من العمر وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بمواصفات ممتازة فى النواحى العسكرية والادارية الا أنه كان متأثرا فى نشأته بأمة الاميرة الكرايتية الشهيرة" سرقويتى" ولذا اكتسبت المسيحية النسطورية عطفه ومحبته لكنه رغم ذلك لم يعتنقها وكان يرى ان البوذية أفضل منها وأهم من ذلك كله أنه ظل على ديانة جده جنكيز خان شامانيا.

أما موقفه من المستشار النسطورى تشنكاى الكرايتى وكذلك النسطورى كاداك الاويغورى الذى اسندت اليه مهمة تهذيب كيوك من قبل اصبح رئيس وزرائه. فانه باعدامهما قد أتى عملا سياسيا لا اضطهادا دينيا اذ أنه قد اختار نسطوريا آخر ليحل محل تشنكاى" (١)

وبرغم عدم نجاح المحاولات البابوية السابقة فان لويس التاسع ملك فرنسا كان مصرا على تحقيق التحالف العسكرى بين المغول والصليبيين لان ذلك كان كفيلا بمساعدته ضد الايوبيين فى الشام من ناحية وبمساعدة المغول ضد العباسيين والمسلمين بصفة عامة من جهة أخرى.

وعلى هذا ففى سنة ١٢٥٣م وصل الراهب وليم روبرك موفدا من قبل لويس التاسع الى مقر الخان الاعظم منكو فقضى خمسة شهور فى بلاطه "التقى فيها بكثير من رسل الملوك والحكام مثل رسل الامبراطور البيزنطى والبابوية وبعض ملوك الايوبيين فضلا عن الخليفة وغيرهم ممن أرادوا أن يخطبوا ود المغول". (٢)

وفى خلال فترة الاقامة لم تسفر المفاوضات بين الطرفين عن شئ ، ذى أهمية نظرا لغطرسة المغول وعدم قبولهم التحالف مع اى جهة أخرى تعتبر نفسها على قدم المساواة فى السيادة والسلطان مع الخاقان المغولى وذلك أن منكو خان طلب من لويس التاسع أن يكون تابعا له". (٣)

كل ما فى الامر ان منكو الخان الاعظم سمح للراهب وليم روبرك أن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين فى حرية تامة أما بخصوص تكوين اتحاد أو تحالف مع المسيحيين فانه لم يعط جوابا مقنعا". (٤)

خلاصة الامر هنا .. أن سياسة المغول حتى عهد منكو لم تتغير تجاه المسيحيين ذلك أن المغول لايقبلون ان تكون هناك قوة عسكرية تضاهيهم او ترفض أن تكون تابعة لهم كذلك كانوا لا يجيزون قيام مملكة مسيحية مستقلة دون أن تكون خاضعة لهم سواء فى غرب آسيا أو فى بيت المقدس على افتراض عودتها للمسيحيين اذ لابد أن تخضع أولا لسلطان المغول.

أما ما كان يحلم به القديس لويس التاسع او حتى البابا فى روما من حمل المغول على اعتناق المسيحية على مذهب كنيسة روما الكاثوليكية فهو ما لم يفكر فيه المغول أو يهتموا به" (٥)

ولقد كان هيثوم الاول ملك أرمينية الصغرى أكثر واقعية ولهذا سارع الى اعلان ولائه للمغول ولما كان عليه أن يستثمر ما حققه من نتائج فى عهد كيوك فقد أفلح فى عقد اتفاق مع منكو" فى شهر يوليو ١٢٥٤م وقد تضمن هذا الاتفاق أربعة بنود:

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢
(٢) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١٠١
(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٨
(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٤٨
(٥) د. الباز العرينى : المغول ص ٢٠٣

تبعية هيثوم لامبراطور المغول .

أ - التعاون مع كافة الدول المسيحية لاسترجاع بيت المقدس.

ب - تعيين ملك أرمنية مستشارا للخاقان فى شئون المشرق .

جـ - اعفاء الكنائس فى الامبراطورية المغولية من الضرائب بمختلف أنواعها . (١)

د -

على أن النتيجة العملية التى ترتبت على ذلك الوفاق كانت غاية فى الخطورة" فقد أعلن منكو رسميا فى نهاية زيارة هيثوم له أنه كلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية . (٢)

وقبل تحطيم العراق واسقاط الخلافة العباسية كان على المغول تدمير المعاقل الاسماعيلية وكذلك توطيد الوجود المغولى فى ايران . وهو أمر قد يبدو فى ظاهره حملة صليبية لكن الارجح أنه كان حملة توسعية لبسط النفوذ والسلطان قبل ان يكون حملة ذات صبغة دينية .وهذا ماكان يفهمه المسيحيون أنفسهم على اختلاف مذاهبهم ودرجة عدائهم للمسلمين .

قوبيلاى بين النسطورية والكاثوليكية :

تكاد تجمع الاراء على أن قوبيلاى هو أول خاقان مغولى اعتنق البوذية وأغلب الظن أن ذلك كان بتأثير بى.ليو. جوتساى مستشار جنكيز خان الصينى الذى تولى بالاضافة الى أعماله المهمة تهذيب أبناء الخاقان وأحفاده ، ولما كان الرجل بوذيا مثقفا يبتغى الخير لاهله وديانته فقد عمل على استقطاب قوبيلاى الى البوذية منذ نعومة أظفاره .

ويبدو أن النساطرة - وقد بذلوا جهدا كبيرا مع كيوك ومنكو - قد تأملوا خيرا فى أريق بوقا الذى تولى الحكم عقب أخيه منكو ولمدة عامين ، فلما انتهى الامر الى قوبيلاى ، الذى انتقل الى بكين فجعل منها عاصمة له . كان على النساطرة أن يتركوا العاصمة القديمة قراقورم وان يشدوا الرحال خلفه الى الصين الواسعة التى كانت مركزا فعالا من مراكز المد البوذى القادم من التبت .. ويبدو أنهم خشوا أن يسبقهم الكاثوليك اليه بعيدا عن موطن الاباءوالاجداد.

أما الكاثوليك اتباع البابا فى روماوقد عجزوا عن التأثير الفعلى فى خانات المغول السابقين ولم يفلح أى مبعوث بابوى فى اجتذاب أى واحد من هؤلاء الخانات الى المذهب الكاثوليكى فقد فقدت قراقورم اهميتها لديهم بانتقال الخاقان الى بكين يقول براون" ولم يبق من أثر للبعثات المسيحية التى وصلت الى المغول فى عاصمتهم " قراقورم" الا السجلات الخالدة لاسفار جماعة من المبشرين والقسيسين الذين احتملوا فى شجاعة فائقة أهوال السفر العديدة ومخاطره لعلهم يظفرون بفوز ثوزر للكنيسة المسيحية بجلب المغول الى حوزتهم وكان من بين هؤلاء " جان دى بلان كاربان" و"روبرك" وغيرهما من القسس والرهبان". (٣)

وفى الحقيقة كان قوبيلاى - رغم بوذيته - لايرى بأسا فى السماحرية التدين ولهذا فقد أباح ما كان فى الصين من ديانات وشجع استمرار الديانة المسيحية فى البلاد لانه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها. (٤)

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٨

(٢) د. سعيد عاشور : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١٠٢

(٣) د. جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٦٢

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٥

ويبدو أن قوبيلاى لم يكن يرى الرأى نفسه فيما يتعلق بالاسلام ولعله كان مستعدا فى قرارة نفسه لتقبل أى اشارات تومئ فى اتجاه معاكس لهذا الدين يقول د٠بروى" وقد أوحى مدير الابحاث الفلكية وهو نسطورى فى سنة ١٢٦٣م قرارا يقضى بحظر الدعوة الاسلامية فى الصين" ٠ (١)

فاذا تذكرنا أن بداية حكم قوبيلاى كانت فى عام ١٢٦٠م ادركنا مدى تحفز المد المسيحى فى اظهار العداء للاسلام بعد تولى قوبيلاى الحكم بثلاث سنوات فقط ٠

ولم تكن تلك هى المعاناة الوحيدة التى تكبدها المسلمون من جراء الدس المسيحى، "فقد وردت سفارة من اباقا بن هولاكو الذى تولى الايلخانية سنة ١٢٦٥م – وكان بعض المسيحيين قد وسوسوا له أن فى القرآن آية تأمر بقتل المشركين لحمل قوبيلاى على اضطهاد المسلمين واستنكار حركاتهم فى الصين٠ فكان لها أثر عظيم فى نفس قوبيلاى فاتخذ موقفا حازما حيث اضطهد المسلمين فى الصين لمدة سبع سنوات فلما اكتشف ان قلة ورود التجار المسلمين من الخارج أدى الى نقص ايرادات الدولة الى حد كبير رفع عنهم الاضطهاد" ٠ (٢)

وهكذا لقى المسلمون الكثير من العناء من جراء التحريض المسيحى سواء فى الصين أم فى ايران" وكان أن وفد على بلاط الخان الاعظم قوبيلاى قا آن الرحالة ، البندقى ماركوبولو وأخوه وشريكه فى التجارة مافيو فسألهما عن ملوك النصرانية وأحوال ديارهم ومدى اقطارهم وطرق اجراء العدل لديهم وأساليبهم فى الحرب الى غير ذلك فأجابه بالتتارية عن كل ما سأل اجابات حسنة شافية سر منها وقربهما اليه واعتزم أن يبعث بهما فى سفيرين مع أحد رسله الى روما ليطلبا الى قداسة البابا أن يبعث بمائة رجل من ذوى العلم والتقى ليذيعوا فى أقطاره دعوة النصرانية ثم يحملان اليه قدرا من الزيت المقدس الذى يحرق فى قبر السيد المسيح فى بيت المقدس" (٣)

ويمكن أن نلاحظ على موقف قوبيلاى قا آن عدة اعتبارات :

أولا : ان ماركوبولو وأخاه كانا تاجرين ولم يعرف عنهما قط أنهما من رجال الدين كما ان اجادتهما للغة المغولية تعطى دلالة واضحة عن الرغبة الاكيدة فى التعامل المستمر مع المغول ٠٠ وحدث فعلا أن أقام ماركوبولو عشرين سنة فى الصين أثناء حكم قوبيلاى المديد الذى عينه حاكما لاحدى المقاطعات هنا – وهو بالطبع منصب سياسى وليس دينيا مما يؤكد أن نظرة قوبيلاى للامر كله كانت سياسية بحته٠

ثانيا : ان أسئلة قوبيلاى فى معظمها كانت بدافع الفضول السياسى فقد سأل عن الملوك وأحوال بلادهم ومدى اتساع الممالك وتنفيذ القوانين ووسائل الحرب ٠

ثالثا : أن رغبة قوبيلاى فى اجتلاب مائة من رجال الدين الكاثوليك لا ينبغى أن يفهم منها ان قوبيلاى قد بدأ فى التحول الى النصرانية هو أو اتباعه المغول فى الصين غاية الامر – كما ذكرت – أنه رأى فيها وسيلة تهدئه للمحكومين ومخدر يزيد من خضوعهم٠ ولعله قد أدرك من تجاربه السابقة حقيقتين :

---

(١) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٤

(٢) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠١
ذكر الكاتب أن الاية "واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ،وصحتها "واقتلوهم حيث ثقفتموهم" سورة البقرة الاية (١٩١) وسورة النساء الاية (٩١)

(٣) د٠ محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ص ٢١٦

أ - فشل سياسة احضار لامات بوذيين من التبت ومنحهم سلطات سياسية فقد أدى ذلك الى زيادة الجفاء بينهم وبين الصينيين الذين كانوا فى معظمهم بوذيين.

ب - فشل النساطرة فى الاحتفاظ بقدرتهم على التأثير فقد تحول المغول فى التركستان فى عهد اولاد جغتاى وفى جنوب روسيا والقبجاق فى عهد بركة بن جوجى الى الاسلام فحاصروا أبناء عمومتهم الايلخانات البوذيين واتباعهم فى ايران واشتبكوا معهم فى معارك عدة.

فلعل قوبيلاى قصد بذلك تغيير الجرعة وجعلها من مصدر آخر مختلف أكثر ملائمة وتسكينا.

رابعا: الزيت المقدس. وهو أيضا مجرد رغبة فضولية فنحن نذكر ان قوبيلاى قد استقبل بكل العظمة والتوقير من عند ملك سيلان بقايا جثمان بوذا او ما أشيع انه كذلك.

وأغلب الظن أن قوبيلاى كان يهدف من وراء ذلك كله أن يكون له وهو الخان الاعظم - رغم بعد المسافة - أن يكون له أثر فعال فى العلاقات المتبادلة بين البابا وملوك أوربا الغربيين وبين الايلخانات فى ايران لعله يدعمهم ضد اعدائهم من بنى جلدتهم ففكر فى انفاذ هذه السفارة المزعومة لعلها تؤتى ببعض الثمار.

أيا كان الامر فقد عدل قوبيلاى عن السفارة السابقة ولو مؤقتا حيث أوفد ماركوبولو فى سفارة خاصة له من داخل الصين الى كرمان".

ويبدو أن قوبيلاى قد نسى الامر كله وغاص فى حضارة الصين من أخمص قدميه حتى رأسه كما يقولون لدرجة أن بعض الاراء تصوره على أنه قد نسى مغوليته نفسها وأنه أسهم فى ذوبان أتباعه فى خضم الصين الهائل. فكان آخر الحكام المغول فى الصين حيث بدأ حال المغول من بعده ينحدر يوما بعد يوم.

عموما فان المسيحية فى الصين قد واجهت انقساما خطيرا فى نهاية عهد قوبيلاى يقول وليام لانجر" وكان حنا مونتى كورفينو المبعوث الاول فى سلسلة المبعوثين الكاثوليكيين الى الصين (١٢٩٤ - ١٣٢٨م) وقام بتعميد ٥٠٠٠ ممن اعتنقوا المسيحية ولقبه البابا (١٣٠٧) مطرانا (رئيس اساقفه) لمدينة بكين". (١)

على أن أخطر نتيجة لهذا المد الكاثوليكى الذى بدأ فى السنة الاخيرة من حياة قوبيلاى ١٢٩٤م هو اجتذاب بعض الافراد من الاسرة الحاكمة الى الكاثوليكية.. يقول ادوار بروى" والامير جورج الذى كان لجهة والدته حفيدا لقوبيلاى والذى لم ينقطع بهذه الصفة عن استخدام نفوذه فى البلاط لخدمة المسيحية انضم سنة١٢٩٤ تحت تأثير المبشر "جان دى مونتى كورفينو" الى الكثلكة الرومانية وعمد ابنه باسم يوحنا (شو - تتنان)اكراما للراهب الايطالى وكان لارتداده صداه البعيد لانه أدخل الكثلكة الى قلب العائلة الجنكيزخانية". (٢)

والحقيقة أنه لا الامير جورج ولا ابنه الذى تعمد على الطريقة الكاثوليكية كان ذا ثقل سياسى حقيقى ذاك أنهما لايمثلان قلب العائلة الجنكيزخانية فاحدهما أوكلاهما لم يصل الى الحكم بعد قوبيلاى الذى غدا فى أواخر أيامه صينيا أكثر منه مغوليا. كذلك لم تعد سلطاته

---

(١) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٢

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٩٤

نافذة فى الممالك المغولية الاخرى .. فهذا هو محمود غازان - وقد أسلم - يعلن خلع تبعيته للخاقان الاعظم فى الصين وانه قد أصبح حاكما مستقلا تسك العملة باسمه دون غيره.

عود الى التركستان والقبجاق :

كنت قد ذكرت كيف كانت المسيحية قد اتخذت من التركستان الصينية - حيث تقيم قبائل التانجوت والكرايت والاويغور - مركز انتشار حاولت من خلاله النفاذ الى الصين الواسعة مرارا حتى واتتها فرصة الغزو المغولى فى عهد جنكيزخان وخلفائه فنفذت فى ركابهم عبر السور العظيم حيث كان عليها أن تواجه البوذية التى كانت أكثر الاديان انتشارا آنذاك فى الصين.

على أن وجود المسيحية أو البوذية فى التركستان فى ذلك الوقت لم يحل دون أن يكون الاسلام موجودا لدى الاتراك القارلوق وفى مناطق تابعة لسلطان القراخطائيين مثل كاشغر وبالاساغون وختن .. وكان أولئك القراخطائيون قد أباحوا الحرية الدينية مما حقق فرصا متكافئة للصراع بين الاديان المختلفة فى غالبية الاحوال .

وبالاضافة الى ذلك كانت حدود الاسلام السياسية قد ارتبطت حتى ذلك بالدولة الخوارزمية اول القوى الاسلامية وأكبرها آنذاك فى مواجهة المغول. والتى لم تصمد - رغم ذلك - كما كان مأمولا فيها وقبلها مباشرة تداعت دولة الخطائيين وانهارت آمال كوجلك أمير النايمان الهارب من وجه جنكيز خان فى تكوين قوة مناوئة للمغول . فكان أن انتهى الامر كله الى تبعية المنطقة كلها فى التركستان وبخارى وسمرقند لجغتاى بن جنكيز خان وأولاده من بعده .

واذا كان جغتاى شامانيا كأبيه وأظهر العداء للمسلمين أحيانا كثيرة فان ابناءه عاودوا الالتزام بالحرية الدينية فكان أن استوعبهم الاسلام فاذا هم فى صف واحد مع بركة خان ابن عمهم جوجى فى مواجهتهم ابن عمهم هولاكو بن كولوى ولفترة طويلة حتى ان الايلخانات هولاكو واباقا وأرغون قد شغلوا كثيرا من جراء ذلك كله عن التفرغ لمواجهات مستمرة ضد المماليك فى مصر والشام . يقول الدكتور السيد الباز العرينى" واذا اعتنق الاسلام مغول جنوب روسيا (قبجاق) ثم مغول التركستان واستقر حكم المماليك فى مصر والشام ازداد موقف مغول فارس حرجا لما جروا عليه من سياسة موالية للمسيحية ومناهضة للاسلام فاضحى يطوق بيت هولاكو قوى اسلامية ولم يعد بوسع هولاكو وخلفائه ان يوجهوا الحملات لمساندة الارمن والفرنج ضد المماليك دون أن يتعرضوا لهجمات من قبل أقاربهم فى جنوب روسيا وتركستان .. هذا الوضع الجديد لابد أن يكون له تأثير بالغ السوء حيثما يتعرض الارمن و الفرنج لهجمات المماليك" .(١)

ونفس المعنى نجده عن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يقول "ولعل هذا الاتجاه نحو المسيحية فى دولة مغول فارس هو الذى باعد بينهم وبين أقربائهم مغول القبجاق أو القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا وتركستان وهم الذين تأثروا بالديانة الاسلامية واعتنقوها"(٢)

وأغلب الظن ان التحول الى الاسلام فى التركستان - التى تمتد من جنوبى منغوليا وغربى الصين وشمالى التبت وشرقى مملكة هولاكو فى ايران - كان فى عهد قوبيلاى قا آن . حيث نشط التجار المسلمون على طرق القوافل حاملين معهم الاسلام أو لنقل مجددين لدعوته

---

(١) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٧٣

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية ج ٢ ص ١١١٤

السابقة فى هذه الاصقاع .

كذلك كانت المسيحية قد ركزت جهودها الى التبشير فى داخل الصين على حين غدت البوذية أمام الناس وقد هرمت وعجزت عن التأثير والاقناع على نفس المستوى الذى كانت عليه من قبل فى مصارعة أديان البدو الشامانيين .

كما أن الخلافات السياسية كان لهادورها أيضا فى مسألة الترجيح حيث كان ابناء جغتاى يرون أنهم أحق فى الخاقانية الاعظم اذ كان أبوهم الابن الاكبر لجنكيز خان قبيل وفاتـه ووفاة ابنه جوجى قبله فى القبجاق .

وكان كيوك حفيد جنكيز خان الذى تولى الخاقانية بعد أبيه أوكتاى - الذى فضل رغم السن على أخيه جغتاى - قد تدخل فى شئونهم كثيراوأرهقهم .

كذلك لم يرق فى أعينهم سيطرة الاخوة منكو وقوبيلاى وهولاكو على المناصب الاعلى فى الامبراطورية وجميعهم أبناء تولوى أصغر ابناءجنكيز خان . الامر الذى حملهم على أن تكون لهم هوية مختلفة متميزة وجدوها فى الانتماء الى الاسلام وهو الدين الذى لم يحظ بتأييد واحد من كل هؤلاء .

ولم يكن الحال ليختلف كثيرا عنه مع المغول فى جنوب روسيا والقبجاق فلعله لم يحل بين باتوخان - وكان اكفأ الامراء المغول وأكبرهم - ومنصب الخاقان الاعظم الا مسألة الشك فى نسب أبيه جوجى بن جنكيز خان ذلك الامر الذى لوح به كثيرا كل طرف يسعى الى نيل الشرف العظيم وقد يبدو هذا كله - فى الحقيقة غير مرتبط بالمسألة الدينية لدى باتوا او ابنه سارتاق فقد كانا على دين الشامانية شأن جنكيز خان وابنه جوجى غير أن المعاناة الحقيقية التى قاستها أوربا بدأت بالضربات المروعة من ناحية المغول فى جنوب روسيا التى عانت الامرين ايام جوجى وسابوداى وفى عهد باتوا الذى وصل الى المجر وبولندا مكتسحا اوربا الشرقية المسيحية ولم يتوقف الا عند وفاة أوكتاى حيث تراجعت جيوش المغول عائدة الى مراكز انطلاقها بعد أن خلفت وراءها الكثير من آثار الدمار والخراب والرعب ولكن بمرور الوقت تناسى الاوربيين ذلك كله على حين أنهم لم ينسوا مطلقا عداءهم للمسلمين يقول الدكتور براون " والظاهر أن المسيحيين جميعا كانوا على استعداد لان يتغاضوا عن الشناعات التى ارتكبها المغول ضد أبناء دينهم فى روسيا وبولندا وأن يمجدوا المغول كمحطمين لقوة العرب والمسلمين " . (١)

وتقول ايلين بور" ونسى الاوربيون رويدا رويدا ماأصابهم من فزع وذهول وأخذت الامال تساورهم فى امكانية التحالف مع هؤلاء التتر الاشداء ضد المسلمين اعدائهم المزمنين " . (٢)

ويقول ادوار بروى " وكان الغزو المغولى على مارافقه من تخريب وارهاب قد خلق فى نفوس الحكام المسيحيين وهما بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفا وهم على الاسلام" . (٣)

---

(١) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٥

(٢) ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٦٥

(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٤

ومن هنا بدأ التخطيط السياسى للمسيحيين بعامة نحواستقطاب المغول وأمام ثقل باتوخان القبيلة الذهبية وباعتباره رأس القوة العسكرية المباشرة الموجهة ضد المسيحيين الاوربيين ولمكانته ونفوذه عند الخاقان الاعظم منكو بل وعند معظم المغول كان الاتجاه المباشر فى تحقيق اهداف المسيحيين نحو التفاوض مع المغول يمر به أولا يقول الدكتور الباز العرينى .وبعث لويس التاسع الراهب وليم روبرك الى جنوب روسيا فوصل الى معسكر سارتاق ابن باتو سنة١٢٥٣م على مسيرة ثلاثة أيام من نهر الفولجا وعلى الرغم من أن المسيحيين النساطرة كانوا يحيطون بسارتاق الا أنه أعلن ان ليس بوسعه أن يتحدث الى روبرك فسيره الى أبيه باتو الذى تقع منازله على الضفة الشرقية لنهر الفولجا فاختفى به باتو ثم ارسله بدوره الى الخان الاعظم منكو فى قراقورم". (١)

وبالتأكيد نال روبرك تزكية من باتوخان قبل المقابلة الفاصلة مع منكو الخاقان الاعظم "ولذا فقد عاود الراهب سنة١٢٥٤م المرور على باتو خان فى عاصمته الجديدة سراى على المجرى الادنى لنهر الفولجا". (٢)

ونفهم من العودة الى باتو رغم انتقاله الى مكان آخر ان الراهب اراد أنيطلع باتوا على مجريات الاحداث التى وقعت فى بلاط منكو الخان الاعظم لمدة خمسة أيام.. وبالطبع كان ذلك كله بغرض تأكيد المودة مع باتوخان ،خصوصا أن الكنيسة الروسية الاكثر تأثيرا فى مملكة باتو كانت على المذهب الكاثوليكى .

وهكذا بدأ الصراع الدينى يتضح بين الشامانية التى كانت تحتضر رغم انها ديانة قدامى المغول والامراء والقواد والمسيحية التى أدركت انها لن تحقق بالقوة شيئا يذكر وأن عليها أن تشحذ افكارها مستغلة ضعف الشامانية فى الاستحواذ على القوة العسكرية للمغول وتسخيرها فى خدمة اغراضها وكذلك مستفيدة من خلو المجال من الديانة البوذية التى لم تمتد دائرة تأثيرها الى جنوب روسيا البعيدة عن مراكز الانتشار البوذى عبر التبت والهند الصينية.

ولم يرفض المغول بعد أن تأكدت لهم السيطرة العسكرية والنفوذ الفعلى النظر فى مطالب المسيحية طالما أنها لن تجر عليهم المتاعب او بمعنى آخر ستحقق أهدافهم فى التحكم والسيطرة . يقول ول ديورانت " وعرف زعماء المغول أنهم لن يستطيعوا اخضاع روسيا بالقوة وحدها فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ،وحموا لها ممتلكاتها ورجالها وجعلوا الاعدام عقابا لمن ينتهك حرماتها وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله أو لعلها أرغمت على رده ارغاما فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ودعت الله جهرا أن يهبهم السلامة وأراد الاف من الروس أن يضمنوا لانفسهم الامن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا". (٣)

وحدث أن أقبل بركة بن جوجى على الاسلام ثم تولى حكم القبيلة الذهبية وبدأ اتباعه فى التحول الى الدين الجديد فكان هذا الامر هو المعضلة التى لم يحسن المسيحيون تقديرها.

---

(١) د. الباز العرينى : المغول ص ٢٠٠
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٥ ص ٦٦٠

هولاكو والغزو الصليبى :

كان منكوخان - كما ذكرت - قد وعد هيثوم الاول ملك ارمنية الصغرى بانفاذ أخيه الأصغر هولاكو على رأس حملة قوية لتحطيم قلاع الاسماعيلية من ناحية ولتدمير الخلافة العباسية من ناحية أخرى بعدها يصبح القضاء على الايوبيين فى الشام امر ممكنا وتعود الارض المقدسة الى المسيحيين مرة أخرى .. ولعل هذا ما حدا ببعض المؤرخين الى اعتبار الغزو المغولى حملة صليبية جاءت من الشرق لتحقيق أحلام المسيحيين سواء أكانوا فى الشرق أو الغرب ضد اعدائهم المسلمين يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور " ان المعاصرين من المسيحيين الشرقيين وجدوا فى غزو المغول للعراق والشام فرصة طيبة للثأر من الاسلام والنيل من المسلمين واعتبروا ذلك بمثابة حملة صليبية جديدة أتت لنصرة المسيحية والمسيحيين ولكنها أتت فى تلك المرة من الشرق لا من الغرب مثل سائر الحملات الصليبية". (١)

ويقول الدكتور السيد الباز العرينى " وقد ظهر المغول العتاة على أنهم الثائرون لنصرة المسيحيةحسبما يروى المؤرخ النسطورى كيرياكوس وقد ارسلهم الله من صحارى جوبى لتحطيم الاسلام كذلك يشير كاتب أرمنى الى انه حينما غزا هولاكو الجزيرة قدم جاثليق الارمن ومنحه البركات فكأن هذه الحملة قد اتخذت صفة صليبية أرمنية مغولية اذ المعروف أن هيثوم ملك أرمينية الصغرى انمايتحدث باسمه وباسم صهره بوهمند السادس امير انطاكية وطرابلس. (٢)

أما مسيحو غرب اوربا فقد ركزوا على اجتذاب المغول فى ايران الى اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى وهذا ماداب عليه البابوات فى روما والملوك فى غرب أوربا يقول د.مصطفى طه بدر" وبذلت المسيحية جهودا جبارة فى سبيل تنصير ايلخانات ايران ويبدو هذا الامر واضحا جليا من دراسة العلاقات بين البابوات وايلخانات ايران وبين ملوك أوربا وهؤلاء الايلخانات كتابا مؤرخا سنة١٢٦٠م - ٦٥٨ هـ يقول فيه انه علم من شخص هنغارى اسمه يوحنا أنهولاكو على استعداد لاعتناق المسيحية ويبين له مايناله من جزاء فى الاخرة ان اعتنقها". (٣)

والثابت تاريخيا أن جهود النساطرة أو الكاثوليك الغربيين على السواء لم تنجح فى تنصير الايلخانات فى ايران وان كانت قد أثرت فيهم تأثيرا كبيرا فأظهروا العطف على المسيحيين والمسيحيةوكان ذلك كله بطبيعة الحال على حساب مصالح المسلمين دون غيرهم من الطوائف الدينية الاخرى .

سقوط بغداد :

لم يكن المغول وقد سقطت فى أيديهم أملاك الدولة الخوارزمية وخضعت لهم قلاع الاسماعيلية أن يتوقفوا عن الاستمرار فى الغزو سواء تحالفوا مع المسيحيين أو لم يتحالفوا. وهذا ما كان يدركه المسيحيون انفسهم الذين رأوا أن يستغلوا الغزو المغولى من ناحيتين.

أولا : انيكون هذا الفتح تدميرا للمسلمين ولممتلكاتهم .

ثانيا : أن يوفر هذا الغزو الهادر حماية للمسيحيين من المسلمين أو منالمغول أنفسهم.

---

(١) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ص ١١٢٩

(٢) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٢٥، ٢٤٦

(٣) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٩

ولهذا بادروا الى المغول مؤيدين ومتحالفين ومشجعين يقول الدكتور أنور الجندى "ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد انما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين فى سبيل القضاء على قوة الاسلام" (١)

ونفس المعنى نجده عند الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى يقول" وقد جاء تشفى المسيحيين فى بغداد والمسلمين تعبيرا واضحا عن الاتجاه السائد عندئذ نحو الربط بين حركة غزو المغول وحركة الصليبيين لتطويق المسلمين فى الشرق الادنى". (٢)

وفى الحقيقة لم يكن الصليبيون وحدهم هم الذين يرغبون فى اسقاط بغداد أوغيرها من المدن الاسلامية بل ان النساطرة الذين كانوا فى حاشية هولاكو قد شجعوا ذلك كثيرا ابتداء من دوقوز خاتون حتى القائد كتبغا وغيرهما من رجال الدين المسيحى الذين أحاطوا بهولاكو .

ويبدو أن الخليفة العباسى او أحد معاونيه قد أدرك هذا الأمر فكان اختيار بطريرك النساطرة مكيخا ليكون رسولا من قبل الخليفة لهولاكو دليلا على ذلك. (٣)

أيا كان الامر فان المسيحيين المقيمين فى بغداد قد وجدوا من المغول معاملة خاصة فلم يصيبهم أى أذى رغم القتل والدمار والحريق فى بغداد كلها يقول ابن الفوطى . وفى بغداد لم ينج من أهل السواد الا القليل ، ما عدا النصارى فانهم عين لهم شحان حرسوا بيوتهم ،والتجأ اليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندهم". (٤)

اقتحام ميافارقين :

ذكرت توا أن هولاكو قبل أن يشرع فى غزو الجزيرة قدم اليه جاثليق الارمن ومنحه البركات فكان أن اتجه هولاكو صوب ميافارقين وكانت تحت سيطرة الملك الكامل محمد بن شهاب الدين غازى الايوبى الذى رفض الاعتراف بسيادة المغول وأعد نفسه ومدينته للمقاومة " بل انه مضى الى أكثر من ذلك بأن أمر بصلب أحد القسس اليعاقبة الذى قدم رسولا من قبل هولاكو". (٥)

ولا يستطيع المرء أن يجزم بسبب هذا الصلب أهو الرغبة فى اظهار الغضب والقوة فى وجه المغول أم هو الضيق الذى ألم بالمسلمين من جراء التحالف البغيض بين المغول والمسيحيين أم هو العداء القديم المتواصل بين الايوبيين والمسيحيين فى الشام منذ عهد صلاح الدين الناصر.

ولعلها كانت فرصة او حافزا او ذريعية للمسيحيين فبادرت وحدات عسكرية من الكرج والارمن الى المشاركة فى مداهمة المدينة حتى سقطت سنة ١٢٦٠م وكالعادة دارت مذبحة فى السكان المسلمين بينما لم يتعرض المسيحيون لشئ من الأذى". (٦)

---

(١) د. أنور الجندى : الموسوعة الاسلامية والعربية ج ٥ ص ٢٢٦

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٠

(٣) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٢٤

(٤) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٢٩

(٥) د.السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٢٨

(٦) المصدر السابق ص ٢٢٩.

غزو الشـــام :

كان طبيعيا أن يتجه هولاكو صوب الشام حتى يتم تنفيذ الاتفاق الذى جرى بين الخاقان الاعظم منكو وهيثوم الاول ملك ارمنية الصغرى والذى نص أيضا على أن هيثوم هو مستشار المغول فى شئون المشرق .

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور " وتوءكد بعض المراجع المعاصرة أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام اشترك فى وضعها هيثوم الاول ملك ارمنية الصغرى وقد طلب هولاكو ان يلتقى به على رأس جيشه عند الرها حتى يذهب معه الى بيت المقدس ويخلص الاراضى المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها الى المسيحيين ". (١)

وعلى هذا كان من الطبيعى أن يتآخى النساطرة القادمين من التركستان ومنغوليا وايران مع الجماعات الارمنية واليعاقبة و الملكانية التى تكاثر عددها فى البلاد الكبيرة امثال حلب ودمشق فضلا عن النساطرة انفسهم فى ملطية وحلب ودمشق ولبنان ". (٢)

وهكذا تجمع المسيحيون – على اختلاف مذاهبهم – تحت راية المغول لعلهم يحققون ما عجزوا عن الوصول اليه سلفا فى مواجهة المسلمين فانطلقت جحافل المغول وحلفائهم صوب مدن الشام الكبرى .

× حلب :

كانت مدينة حلب اول المدن الشامية التى سقطت فى أيدى المغول وقد خضعت انذاك (سنة ١٢٦٠م) للملك الايوبى المعظم تورانشاه .. وحدث أن فشل المغول فى اقتحام أسوار حلب اول الامر واضطروا الى رفع الحصار والرحيل عنها لكن هولاكو أعاد الكرة مرة أخرى وشدو الحصار على منافذ المدينة حتى اضطرت الى التسليم فاستباحها هولاكو لجنوده سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا وسبوا النساء والاطفال وقبل أن يغادروها تركوها شعلة من اللهب والدخان ". (٣)

أما الموءرخ الشهير ابن العبرى الذى كان مطرانا لليعاقبة فانه لم يتوان عن استغلال الفرصة وكان قد أسرع الى مغادرة حلب لتقديم فروض الطاعة والشكر لهولاكو فعاد اليها وقد ضمن الا يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة فيها بأى سوء " فى حين حرص هيثوم الاول ملك أرمنية على احراق جامع حلب بنفسه ". (٤)

ولم تكن تلك هى المكافأة الوحيدة التى جاد بها المغول على حلفائهم المسيحيين " فقد قام هولاكو خان باعطاء حليفه ملك الارمن جزءا من الانفال واعاد اليه الاقاليم والقصور التى كان قد استولى عليها مسلمو حلب كما رد هولاكو أيضا الى " بوهمند " ملك قيليقيه الصليبى جميع الاراضى التى كان المسلمون قد اقتطعوها منه ". (٤)

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٣
(٢) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٥٢
(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٤٠
(٤) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٥
(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٤١

* دمشـــق :

ادى الذعر والخراب والسبى وما خلفه المغول وراءهم فى حلب من مآسى مروعة الى توهين عزائم سكان دمشق فرأوا — بعد فرار ملكهم الناصر يوسف الايوبى — أن يبعثوا وفدا الى هولاكو يطلبون منه الامان فى مقابل عدم المقاومة وتسليم المدينة وبالفعل استولى عليها المغول بقيادة كتبغا النسطورى نائب هولاكو على الشام٠٠ فماذا فعل المسيحيون للتعبير عن فرحتهم بذلك" يروى المقريزى فى حوادث ٦٥٨ هـ " استطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرمانا منهولاكو بالاعتناء بأمرهم واقامة دينهم فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبوه على أبواب المساجد وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام للصليب وساروا يمرون به فى الشوارع الى كنيسة مريم ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم وقالوا جهرا" ظهر الدين الصحيح دين المسيح فقلق المسلمون من ذلك وشكوا امرهم لنائب هولاكو كتبغا فاهانهم وضرب بعضهم وعظم قدر قسوس المغول ". (١)

وبالطبع حتم ذلك على المسلمين ان يردوا الصاع بمثله بعد هزيمة المغول أمام المصريين فى عين جالوت يقول ابن الوردى "واشتهر بدمشق خروج العساكر من مصر فأوقعوا بالنصارى ونهبوهم فى سابع عشر من رمضان سنة٦٥٨ هـ وخربوا كنيسة مريم وكانت عظيمة فى جانب دمشق". (٢)

وبالقياس الى ارتباط آمال المسيحيين بمدى تدفق الغزو المغولى فان الهزيمة فى عين جالوت كانت بكل المقاييس صدمة عنيفة وغير متوقعة فبعدها لم يعد هولاكو مرة ثانية من ايران كذلك ثبت المماليك حكمهم فى مصر وأضحوا قوة متكافئة مع قوة الايلخانات المغول فى ايران بل ومتفوقة عليها فى كثير من الاحيان وذلك كله كان بمثابة تهديد أكيد للامارات الصليبية فى الشام وكذلك فى أرمنية الصغرى ذاتها .

أباقا والتحالف المسيحى :

كان هولاكو قد رغب فى توطيد أواصر الصداقة مع المسيحيين تأكيدا لوحدة الهدف السياسى بين المغول والمسيحيين لكنه توفى قبيل اتمام زواجه من ابنه امبراطور بيزنطة فكان على ابن اباقا ان يكمل ما خطط له أبوه فكان أن تزوج من ماريا ابنة ميشيل ياليولوغوس التى سماها المغول دسبينا وكان من أثر ذلك أن أقر باعطاء منزل الدفتردار الصغير للجاثليق النسطورى دينها". (٣)

وبالطبع أدى ذلك الى تقوية أواصر الصداقة والمودة بين الامبراطور والخان وكذلك الى نمو التحالف السياسى مع دول مسيحية أخرى فقد عقد أباقا تحالفا مشتركا مع" ليو الثالث" ملك دولة أرمنية الصغرى واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد الشام لطرد المماليك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين كما اتفقا على ارسال الرسل الى المقر البابوى وملوك اوربا لاطلاعهم على تحالفهما وحثهم على الانضمام الى الحلف". (٤)

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٢٥

(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٠٦

(٣) د٠مصطفى طه بدر : مغول ايران بينالمسيحية والاسلام ص ٩

(٤) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦١

ويبدو أن هذا الامر قد ملك على أباقا كل تفكيره فأصبح يستعين دائما بالمسيحيين أرادا وامارات ودولا ويشاركهم فى اعيادهم ومواسمهم وتبنى قضاياهم فصار الصديق المخلص لكبار احبارهم" (١)

وفى الحقيقة لم تكن سياسة أباقا تلك وليدة زواجه من الاميرة البيزنطية فقط فبالاضافة الى انتهاجه لسياسة ابيه هولاكو خان كان يسير على سياسة والدته دوقوز خاتون التى كانت تمنح الامتيازات للمسيحيين". (٢)

كذلك فان الظروف السياسية المحيطة بأباقا بعد هزيمة المغول بصورة لم يسبق لها مثيل أمام المصريين فى عين جالوت فى عهد أبيه هولاكو وازدياد حدة الجفوة بينه وبين بنى جلدته اولاد جغتاى فى التركستان وأولاد جوجى فى جنوب روسيا والقوقاز قد أكدت عزمه على تدعيم التحالف مع القوى المسيحية المختلفة" وعلى هذا فقد كتب الى البابا (كليمنت الرابع) ١٢٦٥ ـ ١٢٦٨م) عارضا عليه استعداده لمخالفة الجيوش الصليبية ضد المماليك فأرسل اليه البابا سنة ١٢٦٧م رسالة تعلن عن قدوم حملة صليبية جديدة بقيادة لويس التاسع وعاد الوفد فى السنة التالية الى اوربا مصحوبا بممثلين عن أباقا". (٣)

وكان على أباقا الالتزام بسياسة التحالف هذه أيا كانت الظروف فعلى الرغم من أنه " كان مشغولا بالدفاع عن خراسان ضد الجغتائيين الا أنه تظاهر مع الصليبيين فأرسل فرقة هددت ممتلكات المماليك فى بلاد الشام سنة ١٢٦٩م. (٤)

وفى سنة ١٢٧٤م ارسل أباقا وفدا مغوليا اشترك فى المؤتمر الدينى المسيحى الذى عقد فى مدينة ليون تحت رئاسة البابا جريجورى العاشر ولكن الوفد لم يتوصل الى نتائج سياسية حاسمة لعدم اطمئنان الاوربيين الى حليفهم الجديد لما اشتهر عن المغول من وحشية وتطرف وغدر وهناك مكاتبات متبادلة بين أباقا والبابانيقولا الثالث ولكنها أيضا لم تصل الى حل نهائى". (٥)

كذلك لم تلق سفارة أباقا فى سنة١٢٧٦م الى البابا وملكى انجلترا وفرنسا ما تبتغيه من نجاح فالبابا لم ينس أن المغول اصدقاء خصومه البيزنطيين وما كان يأمله البابا من اعتناق المغول للمسيحية وما ينالونه منجزاء من السماء لم يكن كافيا لارضاء الخان كذلك فان توسلات لبو الثالث ملك ارمينة الصغرى وحليف الايلخان ـ رغم وثاقه صلته بروما ـ لم تظفر من البابوية بمساعدة عملية". (٦)

---

(١) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٦٤
(٢) د. عبد السلام فهمى : تارخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٥٤
(٣) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٦٤
(٤) المصدر السابق ص ١٦٦
(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٥٦
(٦) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ٣٠١

وفى الحقيقة فان الروح الدينية والمعنوية عند الصليبيين قد ضعفت ومن ناحية أخرى ضعفت سلطة البابوات حتى أصبحوا أتباعا للاباطرة والملوك(١) . كذلك ازدادت قوة المماليك وبسالتهم شيوعا وانتشارا يقول ابن أبى الفضائل ." وقد كان أحد ملوك الفرنج فى ساحل الشام ويدعى البرنس من أشد ملوكهم بأسا وبذل فى مرضاة التتار نفسه وأمواله لكن الله نصر المسلمين عليهم على يد الملك المظفر وأذلهم أيضا للملك الظاهر فركب البرنس فى البحر وتوجه الى أبغا مستصرخا به على المسلمين فلماحضر عنده ذكر له ما فتحه الظاهر من البلاد والحصون وقوة نفسه وعساكره فأمر به فبطح وضرب بين يديه وقال له(أنت ماجئت الا لتخوفنى منه وتنفرنى عنه وتملأ قلوب عسكرى رعبا) فرجع الى بلاده خايبا". (٢)

وهكذا انتهى الامر بأباقا الى مواجهة عسكرية مع المماليك حيث لقى جيشه الهزيمة أمام السلطان المملوكى قلاوون سنة ١٢٨١م فعاد الى همذان ثم توفى مهمومابعد فشل ذريع فى ميدان الحرب .

مدمة موقتة :

كانت المسيحية قد نجحت فى تعميد الابن السابع لهولاكو وأصبح اسمه فى صباه نيقولا(٣) ولقد رأى الخاقان الاعظم قوبيلاى أن برسله فى عهد سلطنة أخيه أباقا بن هولاكو لمساعدته أثر الاضطرابات التى نشبت فى الشرق والتى كان يذكيها وينميها حكام الدولة الكنتائية فى التركستان والقبيلة الذهبية فى حوض نهر الفولجا وأيضا تفوق المماليك فى الغرب وهزيمتهم للجيوش المغولية تباعا . (٤)

أى أن ارسال تكودار من الصين الى ايران كان مناصرة من الخاقان البوذى الى ابن أخيه أباقا ـ وهو بوذى مثله ـ وهى مناصرة ستلقى التأييد حتما لان الاتجاه السياسى العام فى الدولة الايلخانية كان الاعتماد على التحالف مع المسيحية ضد الاسلام والمسلمين.

ولهذا جاء اسلام تكودار وتغيير اسمه الى أحمد لطمة قوية غير متوقعة للنساطرة فى ايران وكانوا قد فشلوا تماما فى الايقاع بواحد من الخانات فى شباكهم وكانت خطتهم هذه المرة تعتمد على استقطاب الامراء فى سن الطفولة المبكرة.

كذلك ادى اسلام احمد تكودار الى اختلاف الامراء المغول وقادة الجيش فى اختيار من يخلف أباقا فى الحكم غير أنهم بالاستناد الى قانون جنكيز خان " الياسا" الذى كان ينص على ان يتولى العرش اكبر الامراء الاحياء سنا اجمعوا على تولية تكودار فى القوريلتاى الذى عقد سنة٦٨١هـ .

ولم يضع تكودار الوقت فقد بادر الى تقليم اظافر الاديان الاخرى وبالتالى الى تدعيم الاسلام" فقد وجه أحمد كل اهتمامه لان يحمل التتار على اعتناق الاسلام على أن قدامى

(١) د. عبد السلام فهى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٥٥
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد حـ٢ ص ١٩٥
(٣) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٧٢
(٤) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٦

المغول من البوذيين والنساطرة احتجوا على ذلك لدى الخان الاكبر بالصين قوبيلاى الذى هدد بالتدخل وسرعان ما أدرك تكودار ان المسئولين الاول عن استعداء قوبيلاى ليسوا الا زعماء الكنيسة النسطورية والبطريرك يهبا لله الثالث ، ونائبه سوما فأمر توكدار بالقاء البطريرك فى الحبس ولم يطلق سراحه الا بعد توسط الملكة الام قوتوىخاتون". (١)

ولم يتوقف تكودار عند هذا الحد فكان أن اتصل بالمماليك وصالحهم وأذن ذلك بتسوية الخلافات مع مغول التركستان والقبيلة الذهبية وبالتالى تشكيل جبهة قوية كفيلة بتعويض التحالف مع المسيحيين وتقليص نفوذ البوذيين وبالفعل تحولت دور العبادة غير الاسلامية الى مساجد وازدادت المساجد انتشارا وعمارة وعادت لمسلمين فى البلاط الايلخانى مكانتهم التى تبددت فى عهد أباقا.

من هنا بدأ التآمر على حياة الايلخان المسلم وانتهى الامر الى مقتله سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤م على يد ابن أخيه أرغون بن اباقا وهكذا لم تستغرق هذه المحاولة الاسلامية الأحمدية اكثر منعامين ولكنها بلا شك حركت انتباه المغول الى أهمية نمو التأثير الاسلامى على حياة المغول فى ايران ، والى درجة يمكن اعتبارها المقدمة الاولى التى مهدت لانتشار الاسلام بصورة أكبر بين المغول فى عهد محمود غازان.

أرغون والمحاولات اليائسة :

بدأ أرغون خان بمجرد توليه العودة الى سياسة أبيه اباقا فسارع الى الاتصال بالبابا ففى سنة١٢٨٥م كتب رسالة الى البابا هورنيوس الرابع اقترح فيها القيام بشن حملة مشتركة ضد المسلمين بمصر والشام وتدمير قوتهم العسكرية غير أنه لم يتلق ردا. (٢)

ويعرض وليام لانجر للطريقة التى اختير بها رسول الايلخان والمهمة التى كلف بها يقول "وقد وقع الاختيار على مار يا بلاها ليكون بطريقا وهو الذى حج من بكين الى بيت المقدس سابقا، وأوفد هذا البطريق رفيقه وابان صاوما بأمر ارغون ايلخان فارس رسولا الى روما وفرنسا لعقد اتفاق ودى بين الكنيستين النسطورية والكاثوليكية الرومانية". (٣)

وفى الحقيقة كان البطريق رابان سوما متوجها فى سنة١٢٨٧ لمقابلة البابا هونوريوس لكى يبحث معه بالدرجة الاولى كيفية التنفيذ العملى للحملة المشتركة ضد المماليك الذين ازدادت قوتهم الى الحد الذى يفوق امكانية مواجهة منفردة من قبل المغول وحدهم.

غير أن هونوريوس توفى قبل وصول البطريق فوجد أنهيئة الكرادلة تتولى انتخاب البابا الجديد ولما استقبلته وجدها غارقة فى الجهل فهم لايعرفون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول وأعابوا عليه خدمته سيد وثنى وانتقدوا ما تنطوى عليه النسطورية من انحرافات من وجهة نظرهم فاضطر الى اخفاء أحد أسباب مجيئه واكتفى بأن أشار انهجاء ليعرب عن احترامه للبابا وليرسم خططا للمستقبل وليس ليدخل فى مناظرة دينية". (٤)

---

(١) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٣٠٧

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨١

(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٣٢

(٤) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٣١١

وحدث فى فبراير سنة ١٢٨٨م ان تم انتخاب البابا نيقولا الرابع الذى استقبل السفير المغولى وبعث ببركاته الى جاثليق النساطرة واعترف به بطريرقا فى الشرق وبعث برسائل الى الايلخان والجاثليق والى الاميرتين المسيحيتين بالبلاط والى اسقف اليعاقبة فى تبريز غير أن هذه الرسل لم تنطو الا على عبارات غامضة ولم يعد البابا باجراء معين أو تاريخ محدد". (١)

وهكذا لم يخرج البابا نيقولا الرابع عن النهج الذى رسمه اسلافه من البابوات فلم يعد الامر اكثر من مجرد ارسال خطابات ووعود جوفاء ولذلك فهو يكثر من ارسال الرسل والرسائل الى ارغون خان سنة ١٢٨٨م / سنة ١٢٨٩م ، ١٢٩١م والاخيرة هى السنة التى سقطت فيها عكا وصيدا وغيرهما من المدن فى أيدى المماليك – ورغم ذلك لم تخرج هذه الكتب جميعها عن شكر أرغون على حسن معاملته للمسيحيين ودعوته الى اعتناق المسيحية ..وبالاضافة الى ذلك كانت هناك مجموعة من الكتب الى الامراء والاميرات من المغول يدعوهم الى اعتناق المسيحية (٢).

دوافع الحقد :

كان أرغون خان يكره الاسلام كرها عميقا كما كان يبغض المسلمين بغضا سافرا حتى أنه حرم عليهم الظهور مطلقا فى بلاطه . ولعل ذلك كله قد حركته عوامل عدة منها :

١ – المرارة التى خلفتها الهزائم المتوالية التى حاقت بالمغول على أيدى المماليك منذ عهد السلطان قطز وموقعة عين جالوت .
٢ – الدعم الكبير الذى قدمه الايلخان المسلم السابق أحمد تكودار للاسلام والمسلمين فى ايران وخارجها .
٣ – النشاط الذى دأب النساطرة فى بلاط الخان على القيام به والذى كان موجها ضد المسلمين بشكل سافر أو خفى .
٤ – موقف الوزير اليهودى سعد الدولة الذى كان يفيض كراهية للمسلمين وحقدا عليهم.
٥ – الاتصالات المستمرة مع البابا فى روما وملوك دول غرب اوربا وبخاصة ملوك انجلترا وفرنسا .
٦ – تعضيد "ليو الثالث" ملك ارمنية الصغرى ومساندة امبراطور بيزنطة صهر أباقا ووالد الاميرة الشهيرة" دسبينا " .
٧ – مساندة الخاقان الاعظم قوبيلاى قا آن.

وبالرغم من ذلك لم يحدث أى تحالف عملى بين المغول وبين المسيحيين وبالتالى لم يقع اى نزال عسكرى بينهم وبين المماليك .

كذلك فانه لايمكننا أن نوافق على الرأى القائل بأن اتصال ارغون بالغرب المسيحى انتهى بنفع المسيحية فى ايران ونشرها بين المغول". (٣) اذ المعروف أنه لم يكد يمضى

---

(١) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٣١٢
(٢) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٨
(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨١

على وفاة أرغون أكثر من خمس سنوات حتى تحول المغول فى ايران الى الاسلام مع مطلع حكم الايلخان المسلم محمود غازان .. أى أن التأثير المسيحى ايا كان حجمه قد تلاشى خلال بضعة سنوات قليلة. والاديان - كماهو معروف - لا تنتشر أو تنحسر خلال بضعة سنوات خصوصا اذا كانت هناك ديانة قد استقرت منذ قرون عديدة سبقت مجيء المغول الى ايران . وأخذت تجتذبهم اليها رويدا رويدا ولم تكن محاولتهم قتل الايلخان المسلم أحمد تكودار الا الخطوة الاخيرة فى عناد كان حتما سينهار بمرور بعض الوقت .

تداعى العلاقات السياسية :

تولى كيخاتو بن اباقا عقب وفاة أخيه أرغون الحكم (٦٩٠ - ٦٩٤هـ) وكانت فترة ولايته مشحونة بالثورات الداخلية وبالقحط العام الذى أصاب الايلخانية لندرة سقوط الامطار... كذلك كانت هناك مشكلة "الجاو" العملة الورقية.. ثم اذا هو نفسه منخرط فى ملذاته وشذوذه . الامر الذى شغله عن الاتصال بالقوى المسيحية خارج ايران فكان أن أظهر أو اكتفى باظهار العطف على المسيحيين من رعاياه يقول الدكتور مصطفى طه بدر: " وقد كان عطف الايلخان كيخاتو على المسيحيين عظيما وفاقه عطف بايدو .. ويقال أن بايدو كان يعلق صليبا فخما فى عنقه كما يقال أيضا أنه حال دون انتشار الاسلام بين المغول بما اتخذه من اجراءات قاسية". (١)

ويمكننا أن نعلق على هذا الرأى خلال الملاحظات التالية :

أ - ان موقف كيخاتو لم يتجاوز مسألة اظهار العطف حتى ولو كان كبيرا.

ب - أن تعليق بايدو للصليب الفخم فى عنقه كان أمرا شكليا فلم يعرف عنه أنه اعتنق المسيحية .

ج - أن الاجراءات القاسية التى ا تخذها بايدو للحيلولة دون انتشار الاسلام - على افتراض حدوثها لان الحديث عنها سبق بكلمة يقال - يعكس بوضوح فى الجانب الاخر تزايد احساس الايلخان بمدى اطراد التأثير الاسلامى وتفوقه على تأثير المسيحيين الذين يتعاطف معهم .

يقول الدكتور عبد السلام فهمى نقلا عن دوسون "وكان بايدو خان متحمسا للمسيحية مقبلا عليها فعمل على احياء الدين المسيحى غير أنه لم يكن يضمر عداء ظاهرا للاسلام حتى أنه كان له ولد مال الى الاسلام واعتنقه فكان بايدو يحثه على أداء الصلاة جماعة مع المسلمين غير أن حبه الشديد للمسيحيين ورهبانهم أسخط عليه المسلمون". (٢)

وبوسعنا أن نلاحظ مدى الاختلاف بين هذا الرأى والرأى السابق عليه فالرأى الأول يشير الى اجراءات قاسية من قبل الايلخان بايدو توشك أن تحول دون انتشار الاسلام اما الرأى الثانى فيشير الى تشجيع ابنه على حضور صلاة الجماعة مع المسلمين الذين يسخطون على بايدو لموقفه المؤيد للمسيحيين وليس لموقفه منهم .

أيا كان الأمر فان فترة ولاية بايدو لم تتجاوز عاما واحدا مما يجعل الامر كله بغير اثر خطير بالاضافة الى أنه قد استوزر جمال الدين الدستجروانى -وهو رجل مسلم -

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٠

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٩
نقلا عن دوسون: تاريخ المغول ص ١١٥، ١١٦

وكذلك أعفى بايدو الاوقاف الاسلامية من الضرائب ، مما يؤكد عدم وجود روح عدائية أكيدة منه تجاه المسلمين أو دينهم على الارجح.

عموما فان عهد السلطان المسلم محمود غازان يمثل بالفعل نهاية التأثير المسيحى فى ايران يقول الدكتور مصطفى طه بدر " ولا يغرب عن البال أن الاقلية المسيحية التى كانت تلاقى كثيرا من العطف والرعاية من ايلخانات ايران غير المسلمين قد تغير حالها بعد ان أسلم الايلخانات فاضطهدت نتيجة لتحمس الجماهير الذى يعقب الانقلابات ثم تخلصت من هذا الاضطهاد بعد ذلك ولكنها لم يعد لها المركز الممتاز الذى كان لها من قبل ايران". (١)

ونحن نتفق مع هذا الرأى فى هذا الجزء غير أنه يضيف " وغير خاف انهذه الاقلية المسيحية لو قدر للمسيحية أن تنتصر وأن تدخل الايلخانات فى دائرتها الدينية كان غير مستحيل عليها أن تصبح أغلبية أو على الاقل أن يزداد عددها زيادة كبيرة وأن يصبح لها المركز الاول فى الدولة الايلخانية". (٢)

وفى تقديرى أن المسيحية ما كان لها أن تنتصر فى ايران ولو نجحت فى ادخال الايلخانات فى دائرتها الدينية وأنه كان سيتعذر عليها أو على غيرها ان تصبح أغلبية ولو حصلت على المركز السياسى الاول فى الدولة الايلخانية ذلك أن الاسلام ظل وطيد الدعائم فى ايران التى صاغها صياغة جديدة حتى فى أبجديتها الهجائية كما أن الايلخانات غير المسلمين كانوا ينظرون الى الديانة المسيحية نظرة سياسية فحسب والدليل أن وحدا منهم لم يفكر فى اعتناقها رغم كثرة الضغوط فى البلاد - كذلك اتخذوا - فيما عدا الفترة الثانية من حكم أرغون خان - وزراء مسلمين - وحتى العملة الورقية التى صدرت فى عهد كيخاتو نقش عليها الشهادتان وهذا آية استرضاء المسلمين فيما يبدو .

غرب اسيا :

كانت مملكة الكرج المسيحية قد تعرضت للغزو المغولى أيام جنكيزخان ثم هوجمت بعنف أيام السلطان جلال الدين الخوارزمى الذى استولى على عاصمتها تفليس واحرقها. ثم عادت مرة ثانية الى الخضوع لسيطرة المغول على عهد اوكتاى .

كذلك كانت ممتلكات امبراطور بيزنطة فى الاناضول تمثل معقلا ثانيا من معاقل المسيحية فى غرب آسيا .

وبالاضافة الى ذلك كانت مملكة أرمنية تكمل مع ما سبق موقعا جغرافيا استراتيجيا للمسيحية الشرقية ما بين البحر الاسود وبحر قزوين وأعالى الرافدين اى أنها كانت تقع على الحدود الفاصلة بين مملكة الايلخانات فى ايران وبين القبيلة الذهبية فى القجاق.

وبالطبع كان المغول يوافقون على قيام أية مملكة مسيحية فى غرب آسيا بل فى أى مكان طالما أنها ستعلن فروض الولاء والتبعية وتؤدى مايفرض عليها من جزية للسادة المغول.

وكان أن بادر هيثوم الاول ملك ارمنية الى التحالف مع المغول وأعلن الولاء والتبعية لمنكو الخاقان الاعظم .. الذى كلف أخاه هولاكو بقيادة حملته الشهيرة ضد المسلمين فى

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١١
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

قلاع الاسماعيلية وبغداد والشام ومصر وبالتالى مساعدة المسيحيين فى غرب آسيا والصليبيين فى الشام .

كذلك عين هيثوم مستشارا للمغول فى شئون الشرق - واشترك فى رسم خطة الهجوم على الشام بل وأحرق الجامع الكبير فى حلب بنفسه ولم يكن هذا موقف هيثوم وحده. يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور "على أننا نلاحظ أن المسيحيين بالذات من أرمن وسريان ويعاقبة ونساطرة هم الذين تحمسوا للمغول وساعدوهم وساروا فى ركابهم" (١) .

وعلى هذا فان فرقا عسكرية مسيحية من الكرج والارمن اشتركت بحماس منقطع النظير فى مهاجمة بغداد وميافارقين وحلب ودمشق. أى أن المسيحيين فى غرب آسيا كانوا تواقين الى عمل أى شئ ضد الاسلام والمسلمين بداية من الخضوع المهين للمغول الى التحريض لهم بالقتال ثم مشاركتهم هذا العمل الاجرامى دون رحمة ولا شفقة.

الصليبيون فى الشام :

حمل القديس لويس التاسع ملك فرنسا على كاهله عبء استمرار الحملات الصليبية على مصر والشام فانتهى أمره الى الوقوع اسيرا فى ايدى المصريين الى أن افتدى نفسه فتوجه بعد ذلك الى الشام لعله يهتدى الى خطة تعينه على اعادة الكرة مرة ثانية فهداه تفكيره الى امكانية التحالف مع المغول ضد المسلمين والاسلام.

ولما كان البابا فى روما قد سبقه فى هذا المضمار - كما أشرت - فقد رأى لويس أن يستكمل خطوات البابا ويؤكدها فأوفد الى بلاط الخاقان الاعظم المغولى سفارة وصلت فى أثناء وصاية ارملة كيوك " أوغول قيمش " ثم أوفد السفارة الثانية فى عهد منكو خان وكلا السفارتين لم تسفر عن نتيجة عملية بل على العكس طولب لويس التاسع باعلان التبعية للمغول وهو ما كان فوق طاقته بكثير.

وكان هيثوم الاول ملك ارمنية الصغرى قد زوج ابنته الى بوهمند السادس ملك أنطاكية على ما بينهما من اختلاف فى المذهب الدينى - ومن خلال هذا حاول" هيثوم" ان يحمل الامراء اللاتين على قبول فكرة التحالف المسيحى المغولى غير أنه لم يقتنع بهذه الفكرة سوى صهره بوهمند السادس " (٢)

وأما ما أقدم عليه بوهمند السادس من عقد اتفاقية صداقة مع المغول ترتب عليها أن ردوا عليه مدينة اللاذقية التى عادت الى المسلمين من قبل فلم يعجب الفرنج بعكا فانكروا على بوهمند السادس مافعل "فليس لاسترداد اللاذقية عندهم من الاهمية ما يضارع الاهانة التى لحقت الكنيسة اللاتينية" الكاثوليكية " بسبب اعادة البطريرك اليونانى الى مقره فى أنطاكية فبادر البابا الى حرمان بوهمند من بركات الكنيسة بينما وجه بارونات انطاكية رسالة الى شقيق لويس التاسع سنة ١٢٦٠ ، يصفون ماينجم عن زحف المغول من آخطار" (٣)

ولعل السبب الواضح وراء ذلك كله هو احساس الصليبيين الغربيين بتعاطف المغول مع النساطرة والمسيحيين الشرقيين بصورة عامة ، "ولعلهم تخوفوا أكثر من الوقوع تحت

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٩
(٢) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٤٢
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٩، ٢٥٠

رحمة الكنائس الشرقية حتى أنهم أرسلوا الى الغرب يطالبون حملة صليبية جديدة لا ضد المسلمين وانما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين ". (١)

وبالاضافة الى ذلك ظل بارونات عكا ينظرون الى المغول كبرابرة لايمكن أن يفضلوا فى نظرهم المسلمين وحدث أن هاجم أحد هؤلاء البارونات المسمى الكونت جوليان الصيداوى دورية مغولية وقتل ابن أخى كتبغا فى صيدا فكان هذا ايذانا بانهاء الحلف الصريح أو الضمنى بين الفرنج والمغول ." (٢)

ويبدو أن هذا - كما يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - دفع الصليبيين فى صيدا الى ارسال طلب مساعدة من المماليك فى مصر ضد المغول الامر الذى مكن المماليك - فيما بعد - من طرد المغول والصليبيين جميعا من بلاد الشام". (٣)

ولعل الطلب السابق قد شجع المماليك فى مصر - رغم الخلاف الحاد مع الصليبيين - على ان يطلبوا بدورهم تسهيلات مهمة قبيل ان يشتبكوا مع المغول فى المعركة الفاصلة وعلى هذا " وقبيل عين جالوت توجهت سفارة مصرية الى عكا تطلب من الفرنج السماح للجيوش الاسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ما تحتاجه من المؤن فاجتمع البارونات فى عكا للتشاور فى هذا الطلب والواقع أنهم لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم للمغول بعد أن قاموا بمهاجمة صيدا ونهبها وكيفما كان الامر فقد استجاب الامراء الصليبيون لرغبة السلطان قطز" (٤)

على أن اصدق تعبير صليبى قيل فى وصف المغول هو ما أورده الدكتور هارولد لامب يقول " وقد كتب الرجل الرزين (فريدريك الثانى) ملك المانيا الى هنرى الثالث ملك انكلترا قائلا : أرى أن التاتار لم يكونوا إلاعقاب الله النازل فى بلاد النصرانية جزاء لذنوبها، وما التتار الا سليلو بنى اسرائيل العشرة التائهين الذين عبدوا العجل الذهبى فنفاهم الله بعبادتهم الاصنام الى مفازات آسيا". (٥)

لماذا فشلت المسيحية :

حاولت المسيحية منذ أن هبطت أقدام الدعاة النساطرة أرض التركستان أن تجتذب اليها المغول الذين كانوا - فى الاعم الاغلب - شامانيين أى مادة خامة يمكن التأثير فيه وتشكيلها على نحو أو آخر.

وعلى الرغم من أنها استطاعت أن تحقق بعض النجاح نتيجة لتداعى الشامانية وانحسارها وتقوقع اليهودية وانعزالها . وانشغال البوذية بالوصول الى الحكام ورجال الدواوين أكثر من أى شئ آخر. وتأخر وصول الاسلام زمنيا الى هذه الاصقاع البعيدة فى آسيا العليا. الا أنها فى نهاية المطاف فشلت فى أن تستحوذ على أى من خانات المغول أو أن تجتذب عامتهم اليها فكان أن اضطرت الى التراجع أمام الاسلام فى معظم أنحاء آسيا التى كانت خاضعة لسلطان المغول. ولابد أن تكون هناك عوامل مهمة وراء ذلك كله .

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور :الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠
(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٠١
(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٢
(٤) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٣

أولا : الدعـــاة :

لم يكن الدعاة المسيحيون فى معظمهم وخصوصا النساطرة على درجة من العلـــم أو النزاهة تؤهلهم للنهوض بهذه المسئولية ٠٠ يقول الدكتور محمد موسى هنداوى " وبلـــغ النسطوريون درجةعالية من الانحطاط والجمود والجهل بكتب صلواتهم المدونة بالسريانية وكذلـك الاتجار بالمناصب الدينية وعدم مبالاتهم وحرصهم على جمع الثروات من وراء تعليم الطقـــوس الكنسية أى أنهم كانوا يؤثرون جمع المال على تعاليم الدين" ٠ (١)

ويقول الدكتور السيد الباز العرينى عن الراهب الكاثوليكى وليم روبرك الذى زار بـــلاط منكو ا لخاقان الاعظم٠ "و قد ارتاع الراهب لماصار اليه رجال الكنيسة النسطورية من الجهـــل والانحلال وأنكر اغراقهم فى المباذل والسكر والعربدة" ٠ (٢)

ولم يكن النساطرة وحدهم هم الذين يتمتعون بصفة الجهل فان هيئة الكرادلة فـــى مركز البابوية كانوايجهلون كثيرا من الامور فالبطريق رابان سوما الذى كان متوجها من قبـــل ارغون خان لمقابلة البابا هونوريوس وجد أن هيئة الكرادلة غارقة فى الجهل فهم لا يعرفـــون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول" ٠ (٣)

على أن أكبر دليل على عجز الدعاة المسيحيين نساطرة كانوا أم كاثوليك هـــو أن الحكام المغول على كثرتهم ،لم يفكروا فى أن يعتنقوا المسيحية على أى من مذاهبها ٠

ثانيا : الخلافات المذهبية :

كان بعض المغول قد دخلوا المسيحية على المذهب النسطورى فلما بدأت الصـــلات بين البابا وملوك غرب أوروبا وبين المغول ٠ أخذ هؤلاء يفكرون فى استقطاب المغول الـــى المسيحية على المذهب الكاثوليكى وبالطبع لم يكن ذلك أمرا سهلا هينا لانتشار النسطورية بين حريم البلاط من ناحية ولسيطرة النساطرة على الاعمال الادارية لدى الخاقانات من ناحيـــة أخرى ٠

وعلى الرغم من ذلك كانت هناك محاولات لعقد صلات مودة بين الاتجاهين بدافـــع ايجاد مواجهة مشتركة ضد الاسلام والمسلمين منها :

أ - استقبال الوزراء النساطرة فى بلاط الخاقان الاعظم كيوك ثم منكو لمبعوثين كاثوليكيين من قبل البابا وملوك غرب أوربا والاشتراك معهم فى بعض المناظرات الدينية ضـــد البوذيين والشامانيين والمسلمين ٠

ب - التصاهر بين هيثوم الاول ملك ارمنية الصغرى حليف المغول وبين يوهمند الســادس ملك أنطاكية الصليبى ٠

جـ - السفارات التى بعث بها الايلخانات فى ايران ومنها السفارة التى قام بها البطريـــق رابان سوما الى البابا فى روما وانتهت الى اعتراف البابا بجاثليق النساطرة فى ايـــران والى خطاب الى بطريق اليعاقبة وبعض الاميرات المسيحيات فى البلاط الايلخانى ٠

---

(١) د٠ محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٦٣
(٢) د٠ السيد الباز العرينى : المغول ص ١٩٩
(٣) المصدر السابق ص ٣١١

على أن هذه المواقف لم تكن بنفس تأثير المواقف الاخرى المعاكسة التى كانت تزيد من الشقاق وتقضى على آية محاولات للتقريب .

١ - ان البابوات فى روما لم ينسوا للايلخانات فى ايران انهم حلفاء الامبراطور البيزنطى خصمهم .

٢ - اعتراض الصليبيين فى الشام على بوهمند السادس الصليبى الذى قبل بارجاع البطريرك اليونانى الى مكانه فى أنطاكية وتعضيد البابا لهم وحرمان بوهمند من بركات الكنيسة.

٣ - تفضيل الصليبيين فى عكا للمسلمين على المغول - على ما فيهم من نساطرة مثل كتبغا - فكان أن سهلوا مهمة السلطان قطز فى مرور جيشه وتزويده بالمؤن وتعضيده باظهار الرغبة فى المشاركة العسكرية ضد المغول .

٤ - الصراع الحاد فى بلاط الخاقان الاعظم قوبيلاى بين حاشيته من النساطرة وبين المبشرين الكاثوليكيين الذين أوفدهم البابا الى الصين بموافقة قوبيلاى قا آن نفسه وبمساندة أسقف بكين الكاثوليكى .

ثالثا : اضمحلال سلطة البابوات :

شهدت الفترة الاخيرة من حكم أباقا بن هولاكو تراجع نفوذ البابوات فى روماحيث لم تعد كلمتهم هى العليا أوعلى الاقل لم تعد كما كانت من قبل ولعل مرجع ذلك الى اعتبارات عدة :

أ - ضعف الدوافع الدينية عند الصليبيين بعامة.. بعد ما ثبت عجزهم أمام المماليك فى مصر والشام، وبعدما انقسموا على أنفسهم .

ب - انشغال ملوك غرب أوربا بمشاكلهم الداخلية .

جـ - التنافس التجارى المريع بين المدن التجارية الشهيرة البندقية وجنوة .

وبالطبع أدى ضعف سلطة البابوات فى روما أن أصبحوا مجرد تابعين للملوك وبالتالى لم يعد بقدرتهم جمع المسيحيين فى كل أوربا على هدف واحد أو صيحة واحدة كما يقول .

رابعا: اختلاف الهدف بين المغول والمسيحية :

استهدف النساطرة الاول الذين انساحوا فى التركستان هداية المغول بهدف توسيع دائرة انتشار المسيحية فسبقوا الكاثوليكيين الى هناك .. أولئك الذين لم يفكروا فى التحرك نحو المغول الا بعد أن اكتسح المغول أوربا الشرقية ووصلوا الى حدود بولندا واستولوا عليها.

وكان التحرك الكاثوليكى يستهدف :

أ - وقف حدة الهجوم على شرق أوربا وتركيزه لتخليص الارض المقدسة من أيدى المسلمين أعدائهم التقليديين .

ب - ادخال المغول المسيحية على المذهب الكاثوليكى املا فى أن تحقق قوة المغول وسرعة انتشارهم ما عجزوا هم عن تحقيقه.

جـ - محاصرة الاسلام فى أضيق الحدود بوضع المسلمين بين شقى الرحى، المغول من الشرق والصليبيين من الغرب .

لكن المغول بطبيعة الحال ماكان ليعنيهم هذاكله أو معظمه على الاقل ذلك أن المغول كانوا يهدفون الى توسيع دائرة الغزوواستجلاب أكبر قدر ممكن من الغنائم والاسلاب وكذا اخضاع كافة القوى العسكرية أو السياسية التى تعترضهم .. فلما وجدوا فى المسيحية

اداة لتهدئة المحكومين وأحكام السيطرة عليهم أجازوها . ولما وجدوا لدى البابا الرغبة فى معاونتهم فى تحقيق فتوحاتهم فى الشام لم يمانعوا طالما أن الامر يعود عليهم بالفائدة فى نهاية المطاف . وكثيرا ما صرح البابوات وملوك غرب أوربا بتخوفهم من المغول الذين عرف عنهم الغدر والتطرف والعنف وعدم الالتزام الا بما يحقق اهدافهم اولا - وهذا الشك فى مدق تعاطف المغول جعل السفارات والرسائل والكتب - على كثرتها - بغير ذات الجدوى.

خامسا: مقاومة الأديان الاخرى :

كانت البوذية قد أفلحت فى التسلل الى الدوائر الحكومية المغولية بل وتمكنت من استقطاب الكثير من خانات المغول مثل قوبيلاى قا آن وهولاكو واباقا وارغون وكيخاتو وبايدو وغيرهم . الامر الذى ضيق كثيرا على النساطرة فى بلاط الحكام. كذلك كانت البلاد التى ضمها المغول اليها قريبة من مراكز الانتشار البوذى فى آسيا.

أما الاسلام - وان ظهر متأخرا - فانه قد صنع قواعد وطيدة فى جنوب روسيا وايران ومعظم التركستان واستطاع بمرونته واتساع أفق الفكر فيه لمختلف جوانب الحياة أن ينتزع المغول ويجتذبهم اليه فى نهاية المطاف .. الامر الذى طالما تخوف منه المسيحيون كثيرا على اختلاف مذاهبهم وعلاقتهم بالمغول .

خامسا : الاسلام

رأينا كيف حاولت البوذية والمسيحية كلتاهما اجتذاب المغول اليهما فكان أن نجحت البوذية - بعد فترة من الوقت - فى استقطاب الكثير من الخانات المغول وهو ما عجزت عنه المسيحية التى لم تفقد أملها فى هذا السباق وانما لجأت الى اسلوب بديل قد يحقق نفس الغرض فعمدت الى الاستحواذ على زوجات الخانات ونجحت فى ذلك فعلا الى حد كبير اثر كثيرا فى قرارات الخانات بل وفى أبنائهم أيضا .

والغريب أن كلا من البوذية والمسيحية - على اختلافهما - قد تفادى الاشتباك المباشر مع الاخر ووضع نصب عينيه الضغط على الاسلام والمسلمين وحتى فى الفترة القليلة التى ارتفع فيها شأن اليهود عند المغول فى ايران عمد اولئك بذورهم الى محاربة الاسلام والدس على المسلمين بكل وسيلة ممكنة.

وبالطبع فان ذلك كله يفسر لنا مدى قوة الاسلام ومدى الرهبة التى تملكت الاخرين تجاهه .. فكيف انتشر الاسلام بين المغول اذن ؟

أغلب الظن أن المسلمين لم تكن لديهم خطة معينة للانتشار المنظم بين المغول كتلك الخطط التى رسمها البوذيون او المسيحيون. على أن التجار المسلمين - وهم موفورو النشاط - قد انتشروا عبر طرق القوافل فى معظم أرجاء آسيا العليا فكان أن وصلوا الى منغوليا قبل ظهور جنكيز خان على مسرح الاحداث السياسية هناك يقول بارتولد : " وبعد أن تحكم أباطرة أسرة لياتو فى شمالى الصين فتحوا بلاد المغول وهناك التقوا فى سنة ٩٢٤م بالتجار المسلمين وقد انفردت المصادر الصينية بتناول هذا الالتقاء اما المصادر الاسلامية فخالية تماما ". (١)

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٠

وما يعنينا من وجود التجار المسلمين فى منغوليا هو الاثر الذى تركوه هناك ومدى نشاطهم فى نشر تعاليم الاسلام بين المغول • يقول بارتولد " ومما يلفت النظر أن التجار المسلمين مع انعدام الاشادة الى نشاطهم فى منغوليا استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى هناك اكثر مما استطاع المسيحيون" • (١)

ولعل بارتولد قصد برفع المستوى الحضارى أن التجار المسلمين نقلوا معهم الى المغول انماطا من السلوك وطرقا من التعامل وربما وسائل للحياة أرقى بكثير مما عرفه المغول أوالاتراك فى منغوليا وهو بلا شك مستوى يفوق أساليب البوذيين والمسيحيين معا•

وفى الحقيقة فان لاراء بارتولد فى هذا الشأن أهمية خاصة فهو أكبر مستشرق مسيحى روسى تخصص فى دراسة أحوال الترك وكل الاقوام الذين اتصلوا بهم فى مختلف أرجاء آسيا وخصوصا المغول •

وبالتأكيد فان ما نقله هؤلاء التجار كان اسلاميا فى جوهره او على الاقل فى شكله ولعله كان تمهيدا طيبا لاجتذاب المغول نحو الاسلام•

غير أن هذا كله لم يمنع بارتولد من القول بأن حركة التجار المسلمين فى منغوليا كانت تجارية بالدرجة الاولى ولعله وجد مايؤيد رأيه فى كثرة الحروب القبلية الطاحنة بين القبائل فى منغوليا •• وكذلك حركتها الرعوية التى لاتستقر فى مكان •• وانتشار الشامانية ــ وهى ديانة ساذجة بدائية ــ التى يرى فيها معظم المغول ــ آنذاك ــ ديانة الاباء والاجداد التى لاينبغى أن يحاد عنها •• كذلك كان الدعاة البوذيون والنساطرة قد سبقوا الى هناك منذ فترة مضت• يقول" على أن نجاح التجار المسلمين فى أعمالهم التجارية بمنغوليا لم يكن ناتجا عن انتشار الاسلام هناك ولم تكن بين علماء المسلمين وتجارهم رابطة أى رابطة بل كان العداء يستحكم بينهم أحيانا" • (٢)

ولعلنا نلمح فى هذا الرأى ما يلى :

أ ــ التأكيد على نجاح التجار المسلمين فى منغوليا •

ب ــ محاولة الفصل بين نجاح التجار المسلمين وبين انتشار الاسلام فى منغوليا •

ج ــ الاقرار على انتشار الاسلام فى منغوليا بدليل وجود العلماء•

د ــ الالحاح على عدم وجود رابطة بين التجار المسلمين وعلماء الاسلام والتلميح بانصراف التجار المسلمين الى شئون الدنيا لا الدين •

وعلى الرغم من ذلك كله يعود بارتولد فيقول "أما التبشير الاسلامى فلم يرد عنه شئ رغم وجود كثير من التجار المسلمين فى عاصمة جنكيزخان وهو لا يزال فى شرق منغوليا اذ ليس لدينا فى هذا الباب سوى رواية واحدة تدل على ان بعض المغول قد دخلوا فى الاسلام وجنكيزخان على قيد الحياة فقد كان أخو زوجته وهو أحد زعماء الميركيت يحمل اسما اسلاميا هو جمال خوجه" • (٣)

وبالطبع فانه عدم ورود شئ عن التبشير الاسلامى يؤكد ماذكرناه من عدم وجود تنظيم مرسوم لنشر الاسلام بين المغول على عهد جنكيز خان ولكن هذا كله لا يعنى أن الاسلام

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠

(٣) نفس المصدر ص ١٥٥

لم يكن موجودا هناك فالعلماء موجودون وأحد زعماء المبركيت قد أسلم . فان لم يكن هذا صحيحا فان بوسع المرء أن يسأل عن نوعية الاداء الدينى الذى كان يمارسه علماء الدين الاسلامى هناك وفيم كان خلافهم مع التجار المسلمين اذن .

ويخيل الى ان بارتولد لم يرغب فى الاعتراف بأن نجاح التجار المسلمين فى منغوليا قد استند الى وجود قاعدة من المسلمين آنذاك بين المغول وأراد أن يؤكد ما ذهب اليه بالتأكيد على وجود علاقة عداء بين التجار المسلمين وعلماء الاسلام على حد تعبيره .

أيا كان الامر فان وجود نواة اسلامية بين المغول فى عهد جنكيز خان شئ لايمكن انكاره ، فالمركيت الذين قد اسلم أحد زعمائهم تقع منازلهم فى الشمال من قبائل قيات والى الغرب كان الاتراك القارلوق قد قبلوا الاسلام منذ فترة ودخل زعيمهم فى طاعة جنكيز خان واشتركت بعض قواته فى الهجوم الذى شنه المغول على أملاك الدولة الخوارزمية.

عامة الامر أن الاسلام بدأ يأخذ مكانه فى دائرة الضوء مع الشا مانية والبوذية والمسيحية منذ أيام جنكيز خان فى منغوليا واستند فى ذلك الى وجود بعض العلماء المسلمين والى نشاط التجار المسلمين الذين أفلحوا فى اكتساب ثقة خانات المغول عن جدارة واستحقاق يقول د. هارولد لامب" وتجار القوافل المسلمين قد قدموا الى جنكيز خان هدايا من العاج المحفور والحرير الموشى اللامع والبسيط والمصابيح الفضية ثروات لم يكن يعلم جنكيز خان عنها شيئا من قبل". (١)

وبالطبع لم يقتصر الامر على الهدايا الفخمة او الغريبة وانما امتد الى تزويد جنكيزخان بكافة المعلومات التى كان يحتاج اليها عن مختلف جيرانه. ولهذا اتخذ جنكيز خان من بعض التجار المسلمين مستشارين له وعين بعضهم فى مناصب ادارية مهمة فكان أن اسهموا بصورة أو أخرى فى محاولة تخفيف آثار الغزو المغولى الذى ابتلى به المسلمون ومن أشهر هؤلاء التجار المسلمين تجار من الخوارزميين وهم :

أ ـ محمود الخوارزمى :

وهو أشهر تاجر مسلم عرف فى عصر جنكيز خان وكان قد التحق بخدمته قبل هجومه على املاك الدولة الخوارزمية وكان يتمتع بعطف جنكيز خان واحترامه فكان ان كلفه برئاسة السفراء الثلاثة الذين وجههم جنكيز خان الى محمد خوارزمشاه سنة١٢١٨م ومنذئذ ظل يعمل مستشارا لجنكيز خان فعينه حاكما على اقليم ما وراء النهر بعد سقوطه فى ايدى المغول فأحسن ادارته". (٢)

وكما حاول بى.لبو. جوتساى أن يثنى محاولات المغول عن غزو الصين او على الاقل التخفيف منها كذلك حاول محمود الخوارزمى ففى اثناء سفارته الى السلطان الخوارزمى حاول بكل جهده ان يبين له خطورة الموقف ونجح فى التأثير عليه فتم ابرام معاهدة تجارية بين الطرفين وكان يدرك تماما حقيقة التباين فى القوة العسكرية بين المغول والخوارزميين كما كان يدرك تماما أن غرور السلطان الخوارزمى وجهله بهذا التباين سوف يسفر عن حادثة محققة .

عموما فان السفارة التى اشترك فيها محمود الخوارزمى كانت من المسلمين وكذلك كانت السفارة التى أوفدها السلطان الخوارزمى الى المغول وقافلة الموت التى بعث بها جنكيز خان

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٤

(٢) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ١٥٢

الى اترار - كانت على ضخامتها - من المسلمين • يقول الدكتور فؤاد الصياد " وفى نطاق التبادل تكون وفد مغولى كبير بلغ عدد أفراده ٤٥٠ رجلا كانوا كلهم من المسلمين ومن المؤسف أن مصير هؤلاء جميعا كان القتل على يد" نيال خان" حاكم مدينة أترار التابعة للسلطان الخوارزمى محمد شاه بل واستولى هذا الحاكم على أمتعتهم بطمعه وشراهته" (١)

وهكذا رأينا أن التجار القادمين من بلاد المغول والذاهبين اليها مسلمون الا يعطى هذا مؤشرا على وجود الاسلام بين المغول •

وقد يعتقد البعض أن التجار المسلمين ومنهم محمود الخوارزمى كانوا عملاء خونة يعملون ضد المسلمين لكن الثابت ان هذا الرجل عملا كثيرا - بدافع اسلامه - من أجل خدمة مصالح المسلمين يقول الدكتور فؤاد الصياد" وعينه جنكيز خان نائبا عنه فى منطقة ما وراء النهر ثم نصب بعد ذلك حاكما على هذه المنطقة من قبل المغول فبذل جهودا كبيرة فى تعمير ما خربه المغول وأدار هذه الممالك أحسن ادارة واستطاع بحسن تدبيره وتوخيه العدل ان يخفف من الام الضربة القاضية التى أوقعها المغول بالرعايا فى تلك المنطقة" (٢)

ويبدو أن اختيار التاجر المسلم محمود الخوارزمى لشغل هذا المنصب السياسى المهم يرجع الى عوامل عدة منها :

أ - مكانته من جنكيز خان ومعرفته بلغة المغول والترك وغيرهما من اللغات•

ب - خبرته الواسعة فى شئون التجارة والمال•

جـ - براعته السياسية خصوصا فى السفارة الى الخوارزميين•

د - اعتدال والثقة فى تقبل الاهالى لادارته•

هـ - اصطحاب جنكيز خان له فى كثير من وقائعه وخصوصا فى بخارى وسمرقند•

ورغم ذلك تعرض محمود الخوارزمى الذى أحبه المسلمون فى بلاد ما وراء النهر للازاحة عن منصبه فى عهد الوصية على العرش الاميرة النسطورية توراكينا خاتون التى استشعرت فيه ارتباطا مع باتو خان القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا والذى كان يعتبر انذاك اكثر الامراء المغول مكانة وتأثيرا •• بيد أن هذا الوضع لم يستمر طويلا فسرعان ما أعيد الى منصبه فى عهد الخاقان الاعظم منكو فكان وجوده آية استقرار لاحوال المسلمين فى منطقة احتدم فيها الصراع بين الاديان المختلفة املا فى اجتذاب المغول الى دائرة احد هذه الاديان دون غيرها يقول بارتولد " ومما يلفت النظر أن التاجر الخوارزمى المسلم" يلواج" استطاع أن يقبض طوال حياته على أزمة الحكم فى آسيا الوسطى رغم التغييرات السياسية المتعددة واستطاع أيضا أن يترك الحكم لابنائه من بعده (٣) •

ب - مسعود الخوارزمى :

وهو تاجر خوارزمى كأبيه اكتسب الكثير من خبرات والده وسار على نهجه" فنال ثقة الكغنائيين" وكانت حكومته تضم الخير كله لبلاد ما وراء النهر فكان عهده عهد سلام متصل على حين كانت أيام خلفائه كلها حروب متصلة" (٤) •

---

(١) د• فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٥٠
عن الجوينى : تاريخ جهانكشاى ج ١ ص ٦٠

(٢) د• فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٩٩

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٦

(٤) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٥

ولقد سبق أن ذكرت أن مسعودا قد أنشأ مدرسة كبيرة فى بخارى خربها المغـــول الايلخانيون أيام أباقا الذى كان معاديا لبوراق خان سنة١٢٧٣م ثم اعاد بناءها ودفن فيهـــا سنة ١٢٨٩م وكان قد أنشأ قبل وفاته مدرسة أخرى فى مدينة"كاشغر" (١)

وبدهى أن هذه المدارس قد خرجت طلابا كثيرين ساهموا فى تعليم الاخرين من سكان محليين أو مغول ولما كانت العلوم فى أغلبها علوما دينية فان هذه المدارس وطلابها كانـــت تعتبر ولا شك مراكز لنشر تعاليم الاسلام أو ترسيخها بشكل منظم.

خلاصة الامر أن التجار المسلمين قد ساهموا الى حدكبير فى نشر تعاليم الاســـلام فى منغوليا من ناحية وساعدوا على تخفيف حدة التوتر بين المغول والمسلمين بصفة عامة مـــن ناحية أخرى .

وبالاضافة الى ذلك كان جـنكيز خان – فى البداية – لايكن كراهية للمسلمين فكـان يحسن استقبالهم ومعاملتهم وكانت نظرته لخوارزمشاه تدل على احترام وتقدير بوصفه صاحب أكبـر قوة عسكرية اسلامية فى الشرق كله آنذاك. يقول الكاتب الصينى بدر الدين حى الصينى" وقـد نظر المغول الى المسلمين بعين الاحترام والتعظيم فنصبوا لوفد خوارزم شاه الى جنكيز خـان خياما بيضاء وأنزلوهم منازل التكرمةوالاحترام فان كان المسلمون قد حرموا هذا الاكرام فيما بعد فمرجع ذلك الى الخطايا التى جناها المسلمون على أنفسهم" (٢)

وعلى الرغم من الاخطاء التى وقع فيها خوارزم شاه وانتهت بوقوع بلاده تحت طائلـــة المغول فان جنكيز خان – رغم قسوته – تعامل مع خصومه المسلمين بحكمة" فقد منــح أئمتهم سلطة القضاء ليحكموا بين الناس ، كماأعطاهم حق العفو عن المحكوم عليهم بالاعدام" (٣) بل انه عين حكاما مسلمين يقومون على رعاية شئون البلاد فى أثناء غيابه". (٤)

بل ان جنكيز خان لم يغلق أذنيه دون سماع بعض علماء بخارى حول طبيعـــــة الاسلام " فقد سألهم عن حقيقته وأركانه فقيل له أن أولها توحيد الله سبحانه وتعالــــى فقال انه يعتقد أن الله واحد كذلك وافق على بقية أركان الاسلام ماعدا الحج اذ قـــال عنه انه لا فائدة منه لان الارض كلها لله ولا داعى لتخصيص مكان معين". (٥)

وهذه الرواية – ان صحت – فهى تعكس موقف ممتاز لجنكيز خان فالرجل رغــم شامانيته وبداوته. فقد وافق على أربعة من خمسة اركان وجاء اعتراضه على الحج نابعا مــن اجتهاده الذاتى وقدرته الخاصة على تكوين رأى مستقل ومن يدرى فربما لواستطاع بعــض هؤلاء العلماء أن يقنعوه بجدوى الحج وعظمته والجوانب الروحية فيه وبالجوانب الاخرى المشرقة فى الاسلام لكان له اتجاه آخر فى التبصر به أو على الاقل خفف من وطأته على بقية مــدن الاسلام التى سقطت فيمابعد تحت سطوته.

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٦

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٧

(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٣

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٣٤

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٣٠.

عموما فان جنكيز خان لم يتعرض بسوء للتجار المسلمين أو العلماء المسلمين أو المدارس التى أقامها المسلمون هنا وهناك فى أرجاء الامبراطورية الامر الذى دل على حنكة وبعد نظر.

بين الياسا والشريعة الاسلامية :

تحدثت عن الياسا فى عدة مواضع سبقت حيث تناولت تقريبا مختلف شئون حياة المغول وبدهى أن المقارنة بين الياسا والشريعة الاسلامية عمل غير منصف لاسباب كثيرة منها :

أ - أنه لا تصح المقارنة بين تشريع سماوى وبين مجموعة من الاجتهادات البشرية المحضة أيا كان مستواها أو ملائمتها.

ب - أن التشريع الاسلامى تشريع عام وشامل وليس جزئيا ولا خاصا على حين أن الياسا تشريع خاص بالمغول لا يكاد يتجاوزهم الى غيرهم.

ج - أن الياسا دارت فى أفق محدود فهى فى مجملها لا تكاد تخرج عن الاتجاهات الثلاثة التالية :

١ - الخضوع للخاقان الاعظم أو نائبه.

٢ - الاتحاد فى قبيلة واحدة .

٣ - العقاب الصارم لكل مخطئ .

ويكاد يكون العقاب الفادح هو السمة الغالبة على الياسا وهو عقاب لايستهدف الاصلاح او التقويم بقدر ما يستهدف البتر والارهاب .

د - أن النزعة العنصرية فى الياسا تجعل المغول فوق الجميع وهى نزعة متخلفة بالقياس الى المساواة التى ارتأها الاسلام الذى ينص على أن لافضل لعربى على أعجمى الابالتقوى أى أنه لايميز بين الناس على أساس من لون أو جنس او مال.

لكن ذلك لا يعنى أن كل ما ورد فى الياسا كان خاطئا أو فاسدا فمن المؤكد أن الياسا كانت تناسب حياة المغول البدائية فى منغوليا لانها - بلا شك - كانت وليدة العادات والتقاليد المتوارثة لدى المغول من جهة واجتهاد جنكيز خان ومستشاريه من جهة أخرى .

وبدهى أن جنكيز خان كان يدرك تماما طبيعة المغول وأثر البيئة عليهم ومن هنا جاءت القوانين التى استنها فى الياسا مناسبة تماما لبيئة المغول وتكوينهم النفسى والجسمى . يقول ابن كثير" وضع جنكيز خان لهم الياسا وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه و هو شئ من عند نفسه ومتبعوه فى ذلك". (١)

ويقول القلقشندى : " وهى قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه رتب فيها أحكاما وحدودا ربما يوافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف وقد أمر أن تجعل فى خزائنه وتتوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته". (٢)

والرأيان متفقان فى مدى الخلاف بين الياسا والشريعة الاسلامية وفى أن جنكيز خان وضع الياسا من ابتكاره. وأن كان الرأى الثانى يؤكد على اهتمام جنكيز خان بضرورة تطبيق احكام الياسا من بعده.

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٧

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٠ ، ٣١١

ويشير الدكتور فؤاد الصياد الى سبب كراهية المسلمين للياسا . يقول" ولكن الشئ الذى لاشك فيه أن أغلب نصوص الياسا كان مخالفا تماما للشريعة الاسلامية والحقيقة أن كثيرا من عادات المغول وطباعهم كانت تدعوا الى الاشمئزاز وتثير فى نفوس المسلمين النفور والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم" . (١)

أما عند المغول فقد كانت نصوص الياسا محترمة جدا الى درجة تبلغ التقديس فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين بحيث انه لايجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة احكامها أما اذا خرج عليها عظيم أو حقير فانه يكون عرضة للامتهان والعقاب" . (٢)

وكان طبيعيا أن يلتزم الخانات المغول بالياسا متى كانوا غير مسلمين مثل جنكيزخان وجغتاى وأوكتاى وغيرهم .. الخ لكن الغريب أن بعض الخانات المغول وقد أسلموا ظلوا ملتزمين بتعاليم الياسا متمسكين بها بالاضافة الى تعاليم الاسلام باستثناء الايلخان أحمد تكودار الذى أحل القرآن الكريم والسنة الشريفة محل احكام الياسا والعرف القبلى المغولى فكان أن هب معظم أمراء المغول فى وجهه وأيدهم الخاقان الاعظم قوبيلاى" فقد اعتبروا اسلامه نشازا بالنسبة لتراث جنكيز خان وخلافا للتقاليد المغولية وأحكام الياسا وبموته فقد المسلمون عونالهم وتبددت أمالهم وحلت للمرة الثانية أحكام الياسا الجنكيزية والاداب المغولية بدلا من القرآن الكريم والاداب الاسلامية" . (٣)

وفى الحقيقة، يبدو تمسك معظم الخانات المغول المسلمين بالياسا الى جوار الشريعة الاسلامية غريبا يصعب تبريره فالمعروف أن هؤلاء وأتباعهم قبلوا الاسلام مخيرين وهم الاقوى كذلك كانت البيئة التى يعيشون فيها خصوصا خارج منغوليا تكاد تكون فى معظمها بيئة اسلامية أى فى غير ذى حاجة الى الياسا . غير أنه يمكن أن يرد الامر الى عدة اعتبارات:

أ ـ أن المغول لم يكونوا جميعا قد أسلموا فلعل الخانات المسلمين ـ وهم ملتزمون بالحرية الدينية ويقبلون بتعدد الاديان ـ رأوا أن من العدل ألا يطبقوا على هؤلاء تشريعا غير الياسا .

ب ـ كان العقاب فى الياسا ـ كما ذكرت ـ قاسيا عنيفا ولعل الخانات رأوا فى هذا الجانب مايتفق والطبيعة الخشنة لبعض المغول الذين لايردعهم عقاب يبدأ بالموعظة ويستهدف التقويم لا البتر.

جـ ـ ان الياسا ـ فى حد ذاتها ـ كانت بمثابة تراث المغول الموروث عن الاجداد ومن ثم فان التخلى عنها دفعة واحدة أو مطلقا يعد لونا من عدم الوفاء أوالولاء وهو الامر الذى لم يكن يسهل على المغول أن يتقبلوه بسهولة .

د ـ ان بعض القوانين فى الياسا لا يختلف كثيرا عما ورد فى التشريع مثل رفض السرقة والزنا واللواط والخروج على الجماعة .. وهى أمور على الفطرة.. فلعل ذلك دفع الى جوازالنظر اليها فى الياسا بجوار الشريعة الاسلامية.. وربما أدت بعض هذه الاسباب أو كلها مجتمعة الى قول الدكتور الصياد"وبركة خان ملك القبيلة الذهبية فى القبجاق ـ رغم اسلامه ـ كان لايزال متمسكا بكثير من عادات التتر ماتضمنته الياسا" . (٤)

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٢
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٥
(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧١
(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٤

رأى غريب لفامبرى :

يقول صاحب كتاب تاريخ بخارى " والياسا نتاج سياسى بارع وقد كانت بلا مراء أصلح لاحوال الشعوب التركية التترية من تلك القوانين السامية الخاصة المستمدة من القرآن والسنة وبينهم ابن عربشاه بوجه خاص تيمورلنكبدون حق بأنه جعل الياسا فوق القرآن فالمعروف أن التشريعات الاسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية فلا مجال لها بذلك مع الياسا فى الغالب". (١)

ويعلق على هذا الرأى الدكتور أحمد محمود الساداتى مترجم الكتاب فيقول" كان الاحرى بالمستشرق المجرى ارمنيوس فامبرى أن يرجع اولا الى تاريخ الفتوحات الاسلامية التى دوخ بها العرب الفرس والروم بنظمهم ..ومع هذا فقواعد الياسا الاساسية لا ينكرها الاسلام فى أغلبها والمعروف كذلك أن الاسلام وهو دين وحكم ومدينة، قد أبقى على كثير من النظم التى وجدها بالبلاد التى فتحها وأخذ بها".

وهذا التعليق يمكننا أن نضيف اليه عدة اعتبارات :

أ ـ أن الياسا ـ على افتراض عظمتها ـ كانت تشريعا بشريا يحتاج الى أن يطور نفسه مع التغيرات التى طرأت مع تغير العصر وعلى سبيل المثال فان المسافة الزمانية والمكانية والحضارية بين جنكيز خان وحفيده قوبيلاى قا آن كانت ـ ولا شك ـ كبيرة .

ب ـ أن حياة المغول خارج منغوليا اختلفت كثيرا عنها فيما بعد حين اتصل المغول ـ عن غير طريق الحرب ـ ببيئات وشعوب وحضارات لها وسائلها ومؤثراتها وعراقتها. فكان أن تركوا فى هذا المجال ـ وراء ظهورهم ـ حرفة الرعى وشظف العيش وقسوة الطبيعة فاستوعبتهم المناطق الجديدة وكان لزاما بحكم قوانين الحياة الاجتماعية لا العسكرية أن تصهرهم وفقا لمقتضياتها فذابوا فيها وذابت معهم قوانين الياسا أيضا .. على حين ظل الاسلام ثابتا لا يذوب لانه هو الذى شكل هذا كله منذ زمن بعيد .

جـ ـ أن الياسا قد تكون بحق نظاما عسكريا خالصا فى معظمها غير أنها من الوجهة السياسية بالذات تعانى من قصور شديد ذاك أن جنكيز خان لم تتجاوز خبراته السياسية اكثر من النظام القبلى الذى كان يراه الامثل والافضل .. ولما أقدم على استعمال نظامه العسكرى الصارم فى كل شئ نصحه مستشاره الحكيم الصينى يى.لو. جوتساى بهدوء" انك قد تقهر امبراطورية من فوق صهوة جواد لكنك لن تستمر فى حكمها وأنت على صهوة هذا الجواد".. وهذا ما لم يحسن فامبرى تقديره حين قدر صلاحية الياسا بما يفوق امكانياتها الحقيقية .

الاسلام بين أوكتاى وجغتاى :

كان أوكتاى ثالث ابناء جنكيز خان مفضلا من قبل أبيه ولذا عدل جنكيزخان عن ابنه الاكبر جوجى وابنه الثانى جغتاى وأوصى بخلافته الى أوكتاى لصفات توسمها فيه. وما يعنينا ـ فى هذا المقام ـ هو مدى علاقة اوكتاى بالمسلمين بالقياس الى أخيه جغتاى.

---

(١) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ٢١٥، وانظر كذلك : ابن عربشاه: عجائب المقدور فى نوائب تيمور ص ٣١٩

من المعروف أن أبناء جنكيز خان الاربعة قد شاركوا فى حملاته العسكرية على أملاك الدولة الخوارزمية وفى الوقت الذى حرص فيه جوجى على عدم تدمير اقليم خوارزم بالذات لانه سيدخل فى أملاكه كان جغتاى وتولوى – وكلاهماعسكرى النزعة مثل أبيه – حريصين على التدمير الشامل والخراب اما أوكتاى فلم يكن يجشم نفسه مشقة التدخل فى هذه الامور واكتفى فقط بأن يطيع أوامر والده أيا كان نوعها خصوصا وأن القيادة الفعلية كانت مسئولية تولوى أصغر الابناء وبقية قواد جنكيزخان مثل سابوداى وجيبه وبوهولى أى أن أوكتاى لم يكن لديه عداء مباشر ضد المسلمين أوغيرهم فلماتولى منصب الخاقان الاعظم اتضحت معالم سياسته.. يقول حافظ أحمد حمدى :"وقد عزم الخاقان الجديد أوكتاى الذى تولى سنة٦٢٦ على أن يسير فى حكم خراسان والبلاد الاسلامية سيرة حسنة تخالف التى سار عليها أبوه جنكيز خان من قبل". (١)

غير أن اوكتاى وجد نفسه مضطرا للتحرك عسكريا منجديد نحو بلاد الشام فقد قرر بعد أنعلم بعودة السلطان جلال الدين الخوارزمى الى ايران بغية استعادة أملاك الدولة الخوارزمية – أن ينفذ جيشا قوامه ثلاثون الف مقاتل الى هناك سنة١٢٣٠م بقيادة تشورماجون (٢) يقول الذهبى" وفى سنة٦٢٨ لما علمت المغول بضعف جلال الدين خوارزم شاه بادروا الى اذربيجان فلم يقدم جلال الدين على لقائهم فملكوا مراغة وفر هو الى أمد وتفرق جنده وساقت جند المغول الى ديار بكر فى طلب جلال الدين لا يعلمون أى طريق سلك". (٣)

ولم يتوقف الجيش المغولى الذى أرسله اوكتاى عند مهمة القضاء على جلال الدين واعادة السيطرة المغولية على تلك المناطق بل امتد الى تهديد ممتلكات دولة سلاجقة الروم فى الاناضول وبالتالى اخضاع مملكة الكرج ا لمسيحية" (٤) ووكلت الى جيوش أخرى فيما بعد مهاجمة شرق أوربا المسيحية.. أى أن حركة جيوش اوكتاى فى بلاد المسلمين كانت ضمن خطة أوسع امتدت من الشرق حيث الصين وكوريا الى الشمال حيث بولندا والمجر الى الغرب حيث هددت الجيوش المغولية لاول مرة عاصمة الخلافة العباسية وبالطبع استلزمت هذه الحركة المرور جنوبا بالتركستان وشمالى التبت وهضبة ايران الى اعالى الفرات وهى فى معظمها بلاد الاسلام والمسلمين .

عموما . لم يكن أوكتاى مكروها من قبل المسلمين كما كان أخوه جغتاى يقول الدكتور عبد السلام فهمى "واشتهر الخاقان المغولى " "أوكتاى" فى الشرق الاسلامى بكرمه ومروءته لدرجة أنه كانيطلق عليه (حاتم آخر الزمان) كما عرف عنه العدل وحب الرغبة والعطف على المسلمين فكان على العكس من أخيه جغتاى الذى كان فظا غليظ القلب شديد الوطأة على الاسلام والمسلمين". (٥)

وأغلب الظن أن جغتاى كان مشحوناضد المسلمين فقد كان مسئولا عن تطبيق الياسا قانون جنكيز خان الشهير" وتلك لم تكن لتحظى بالقبول من المسلمين بل على العكس كانوا يرفضونها ويقاومونها قدر استطاعتهم كذلك كانت المملكة التى اختصه بها ابوه تحتوى فى معظمها على رعايا من المسلمين أما الطامة الكبرى فقد وقعت سنة٦١٨هـ اثناء محاصرة المغول لاسوار

---

(١) حافظ احمد حمدى :الدولة الخوارزميةوالمغول ص ٢٢٧
(٢) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ١٧٥
(٣) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ١١٠
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٢٣٠
(٤) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ١٨٠
(٥) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايرانص١٠٣

مدينة باميان يقول الدكتور العريني" وحدث اثناء الحصار أن لقى تيموجين ابن جغتاى مصرعه وكان حفيدا محبوبا من قبل جده جنكيز خان الذى كان يؤثره ويحبه كثيرا وهو الذى أنهى خبر مصرعه لابيه" (١)

ويروى الدكتور فؤاد الصياد نقلا عن الجوزجانى صاحب كتاب طبقات ناصرى ان جغتاى ارسل الى أخيه الخاقان الاعظم أوكتاى راهبا بوذيا بدعوى كاذبة فحواها أن جنكيز خان جاء لهذا الراهب فى المنام وأنه يأمر ابنه" أوكتاى" بضرورة العمل على هلاك المسلمين فى جميع الاقطار". (٢)

واكتشف أوكتاى الامر بذكاء حين سأل الراهب عدة أسئلة عن لغته ولغة جنكيز خان ثم قال له" لن استبيح دمك احتراما لاخى جغتاى فعد من حيث أتيت وقل لجغتاى وزمرته ان كفوا أيديكم عن ايذاء المسلمين لانهم اخواننا وأصدقاؤنا وقد استمدت مملكتنا القوة منهم ،وبعونهم أصبح العالم مسخرا لنا وطوع أمرنا". (٣)

ونفس الرواية نجدها عند ابن كثير فى البداية والنهاية مع خلاف بسيط لايؤثر فى صلبها. (٤)

أما القلقشندى فينقل عن الشريف السمرقندى قوله" ومن عجائب ما رأيت فى مملكة هذا القان الاعظم انه مع كفره ففى رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد من الكفار مسلما قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم ، وان قتل مسلم كافرا لا يقتل به ، بل يطلب بديته ، ودية الكافر عندهم حمار لايطلب بغيره" (٥)

وبالطبع فى هذه الراوية مبالغة واضحة فيما يتعلق بالقصاص من القاتل وفى مسألة الحمار الذى لم يعرفه المغول ضمن حيواناتهم على أن الامر لايخرج عن كونه اظهار لمدى عطف أوكتاى على المسلمين وتقديره لهم الامر الذى لم يكن على شاكلة بقية افراد عائلته وخصوصا آخاه جغتاى الذى توفى سنة ١٢٤١م أى فى نفس السنة التى توفى فيها أخوه أوكتاى.

على أن موقف جغتاى ضد المسلمين او الاسلام ـ على ما فيه من كراهية ـ لايرقى الى مواقف غيره ممن قبلوا المسيحية أوالبوذية فلم يعرف عنه ـ رغم شامانيته ـ أنه فعل كما فعل ـ على سبيل المثال ـ كوجلك امير النايمان الهارب من وجه جنكيز خان الى بلاد القراخطائيين.

حقا ان جغتاى كان يكره المسلمين ولا يجب أن يسمع كلمة مسلم تذكر امامه الا اذا كانت عنوانا على السخرية.. غير أن حقيقة الامر لم تتجاوز العقاب الفردى لبعض من يعتقد انهم أخطأوا أو خالفوا الياسا.. ولقد كان جغتاى يتخذ من بين هؤلاء المسلمين طبيبا خاصا له.

يقول الدكتور عبد السلام فهمى : وكان كوجلك خان يدين بالمسيحية الا أنه بعد أن تزوج من ابنه ملك القراخطائيين وبتأثير نفوذها وفرط جمالها ارتد عنا لمسيحية واعتنق

---

(١) السيد الباز العرينى: المغول ص ١٣٥

(٢) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٤، عنا لجوزجانى : طبقات ناصرى ص ٣٨٢

(٣) ابن كثير : فى البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١٢٠

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨٦

البوذية التى كانت تدين بها فكان أن أجبر المسلمين من رعاياه عن الارتداد عن دينهم واعتناق احدى الديانتين المسيحية أوالبوذية وان لم يقبلوا فعليهم أن يتزيوا بزى الخطائيين فكان المسلمون يرتضون الحل الاخير مكرهين ومع ذلك حال بينهم وبين أداء شعائرهم الدينية وانقطع الاذان من البلاد" (١)

ولعل ذلك يؤكد مدى استهتار كوجلك بالقضايا الدينية وكراهيته للمسلمين بالذات دون غيرهم تلك الكراهية التى دفعته الى ارتكاب أبشع ألوان الاضطهاد الدينى اذ لما انبرى له الامام علاء الدين محمد الختنى وجادله بشجاعه وبين له زيف مذهبه وأقام الحجج على صحة العقيدة الاسلامية بدرجة أفحمت كوجلك ورجال الديانة البوذية الذين معه بادر كوجلك بأن امر بصلب الامام على باب احدى المدارس فى مدينة ختن". (٢)

والعجيب أنه لم ينقذ المسلمين فى تلك الاونة غير المغول . يقول الدكتور الصياد: "فلما قدم " جيه نويون " على رأس جيش مغولى وتمكن من القضاء على كوجلك اطلق الحرية الدينية للمسلمين وغيرهم فعم الفرح والسرور مسلمى كاشغر والختن فكان هذا الموقف شديد الوطأة على نفس السلطان محمد الخوارزمى الذى كان يدعى أنه حامى المسلمين". (٣)

وصاية نسطورية :

عاش المغول بعد وفاة أوكتاى (سنة ١٢٤١م/٦٢٤هـ) تحت وصاية أرملته الاميرة النايمانية توراكينا خاتون .. فكانت أول فرصة نسطورية للهيمنة على عرش الخاقانية الضخمة ، وكانت المرأة تتمتع بمواصفات كثيرة كالحزم وسعة الافق والقدرة على اكتساب الاتباع والمؤيدين وقد جعلتهما الاكبر فى أن توصل ابنها كيوك الى عرش الخاقان الاعظم خلفا لابيه أوكتاى الذى كان قد عهد بخلافته الى الامير شيرامون بن كوجو ثالث أبنائه.. وكان هذا الامير لايزال صبيا آنذاك (٤).

ولم تكن تلك هى الصعوبة الوحيدة فقد كانت لا تحظى بالتأييد من جانب باتوخان زعيم القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا والذى كان يرى ان فى ابناء تولوى بن جنكيز خان من هو أجدر بهذا المنصب وخصوصا منكو. وكانت هناك متاعب ومنغصات من جهة تيموجية شقيق جنكيز خان فظلت ثوراكينا خاتون تكافح طوال خمس سنوات ولجأت خلالها الى التخلص من كثير من أتباع أوكتاى المشهورين واحلال غيرهم مكانهم.

وهذا الجو المضطرب كان مناخا طالماتربص له النساطرة والبوذيون فنشطوا وكثفوا أعمالهم متسللين الى الحكام والدواوين عاملين على نشر دينهم بكل صورة ممكنة. أما المسلمون فلم يحركوا ساكنا من هول الضربة التى لحقت بلادهم فى عهد جنكيزخان ثم فى عهد أوكتاى

(١) د.عبدالسلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٤٤
عن عطا ملك الجوينى: تاريخ جهانكشاى ج ١ ص ٤٨
(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٥
(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٤٩
(٤) د.السيد البازالعرينى: المغول ص ١٩٢

فبدأوا وقد فقدوا توازنهم العسكرى والسياسى وغدوا عاجزين لاحول لهم ولا قوة.

وحدث أن انتخب كيوك خاقانا أعظم سنة٦٤٤هـ/١٢٤٦م فى القوريلتاى الذى عقد آنذاك وكان من الشخصيات التى حضرت هذا المؤتمر نيابة عن بلاد المسلمين الامير أرغون حاكم خراسان وفى صحبته أمراء وعظماء الاقليم والسلطان ركن الدين قلج ارسلان الرابع سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ومندوبون عن كرمان وفارس والموصل وممثلون عن علاء الدين خورشاه حاكم الاسماعيلية ومندوب عن الخليفة العباسى" (١)

وقد عامل كيوك خان رسول الخليفة معاملة حسنة لكنه سلمه رسالة كلها تهديد ووعيد ولعل السبب فى ذلك يرجع الى عدم اعتراف الخليفة العباسى بالتبعية للمغول "وكذلك الاشتباكات التى وقعت بين المغول وجند الخلافة سنة٦٣٤ هـ عندما تقدمت الجيوش المغولية الى مدينة سامراء فتصدى لها الجيش العباسى واستطاع أن يهزم المغول فى تكريت على مقربة من دجلة غير أن المغول عادوا فى العام الثانى سنة٦٣٥هـ فهزموا المسلمين فى خانقين" (٢)

أما موقف كيوك من ممثلى الاسماعيلية فقد كان جافا قاسيا اذ صب عليهم جام غضبه وصرفهم أذلاء مهانين ورد على زعيمهم ردا جافا الى اقصى حد". (٣)

ولعل الخاقان قد اتخذ منهم هذا الموقف بسبب عدم اعلانهم الولاء والتبعية لسلطان المغول ويبدو أنه كان متأثرا بمافعلوه حين انفذوا سنة١٢٣٨م رسلا الى ملكى انجلترا وفرنسا يطلبون مساندتهما ويشرحون لهما ما اشتهر به المغول من أفعال". (٤)

وفيما يتعلق بالامير ارغون اغا الاويراتى الذى تولى السلطة فى ايران سنة٦٤١ هـ ، بتفويض من الوصية توراكينا خاتون فانه بمجرد وصوله الى خراسان قصد الى العراق العجمى واذربيجان وصار يعمل على تخليص البلاد من ظلم واستبعاد الحكام المغول الذين سبقوه كما سلك مع الرعية سلوكا حسنا ومن أعمال أرغون اختياره بهاء الدين الجوينى والد المؤرخ عطاملك نائبا عنه فى حكم أذربيجان وجورجيا وبلاد الروم (آسيا الصغرى السلجوقية) (٥)

وعلى الرغم من أن كيوك ابدى تعاطفا مع المسيحية بل وقرر أن يلتزم الخان الكبير والامراء بما كان جاريا زمن جده جنكيزخان من قواعد" (٦)

فانه عين محمود يلواج الخوارزمى حاكما عاما على ما فتح من الصين وعين ابنه مسعودا حاكما عاما على التركستان وبلاد ما وراء النهر .

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ج٢ ص ٢٤٨ وابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٧ ، وعطا ملك الجوينى: تاريخ جهانكشاى ج ١ ص٢١٣

(٢) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٣

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٠٥

(٤) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ١٨٩

(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٥ عن حبيب شاملوئى : تاريخ ايران ص٤٩٢ ، ٤٩٣

(٦) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ١٩٦

منكوخان والاسلام:

لم تكشف فترتولاية كيوك خان (١٢٤٦ - ١٢٤٨م) عن اتجاه معين تجاه المسلمين
فقد كان منصرفا الى تثبيت سلطانه باجراء بعض التنظيمات الحكومية وسرعان ماشغل بالصراع
مع باتوخان زعيم القبيلة الذهبية والذى كان يعد آنذاك من أقوى الزعامات المغولية.

فلما توفى كيوك نهضت بالوصاية على العرش الخاقانى أرملته اوغول قاميش التى كانت
- فيما يبدو - على ديانة الشامان .

ولم يقع أثناء فترة وصايتها أحداث ذات أهمية تذكر بالنسبة لاوضاع المسلمين ولعل
أهم ما حدث هو استقبالها لسفارة لويس التاسع والتى تمخضت عن اعتذارها عن امكانية ارسال
حملة مغولية الى الغرب لموءازرة الصليبيين لانشغالها فىبعض الخلافات الداخلية ثم كان أن
قبلت هدايا لويس التاسع وطالبته بارسال المزيد منها مع ضرورة الاعتراف بخضوع صريح للمغول
كما سبق القول.

فلما تولى منكو منصب الخاقانية لم يشأ أن يخرج على سياسة الحرية الدينية التى
تبيح تعدد الاديان وحمايتها أيضا من الاعتداءات الغاشمة يقول بارتولد" وقد أعدم الابن الثانى
لحاكم الاويغيور (يارجوق) وكان قد تولى بعد أخيه الاكبر وكان هذا الاعدام فى عهد الخان
الاعظم منكو لانه اتهم بتدابير موءامرة لقتل مسلمى (بشن باليق) جميعا أثناء صلاة الجمعة
وكان قطع رأسه بيد أخيه الذى ولى الامر من بعده". (١)

ومن خلال مبدأ الحرية الدينية أيضا سمح منكو باجراء المناظرات الدينية بين البوذيين
والمسيحيين والمسلمين وان أبدى "تعاطفا مع البوذية التى اعتبرها - من وجهة نظره -
أساس الاديان ورمز اليه براحة اليد ورمز الى بقية الاديان بأصابع فى هذه اليد" (٢)

غير أن الضغط المسيحى حول منكو لم يفتر يلاحقه من خلال والدته وزوجته
ومستشاريه النساطرة بل والسفارات السميحية التى ما انفكت تترى نحو المغول منذ فترة
سبقت .

يقول الدكتور الباز العرينى" واذا كان الراهب الكاثوليكى وليم روبرك لم ينجح طيلة
فترة اقامته فى قراقورم فى عقد تحالف سياسى اوعسكرى مع المغول فانه ادرك أن منكو يعتبر
كل الدول الاسلامية معادية له فبرغم ما وفد على بلاطه من رسل من قبل خليفة بغداد ،
وسلطان دلهى وسلطان سلاجقة قونيه، فانه قد وطد العزم على أن يوجه شقيقه الاصغر
هولاكو للقضاء على قوة الحشاشين والخلافة". (٣)

وفى الحقيقة كان منكو خان يعتبر أى كيان سياسى مهما كانت ديانته عدوا له ما لم
يعترف لسلطانه بالتبعية او الخضوع .. وعلى هذا فالحملة لم تكن ضد الدولة الاسلامية كلها
كما فهم روبرك بدليل - وعلى سبيل المثال - ان سلاجقة الروم لما اعترفوا بهذه التبعية لم
تتعرض بلادهم للغزو المغولى اما بالنسبة للاسماعيلية والخلافة فان كل الطرفين لم يعترف

(١) د. بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٩٠
(٢) د.السيد الباز العرينى : المغول ص ١٩٩
(٣) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٠١

بهذه التبعية بعد فحق عليهما غضب المغول ، ويؤكد قولنا هذاما ورد فى نصيحة الخاقان لاخيه هولاكو" واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا، أما اذا تكبر وعصى ، فالحقه بالاخرين من الهالكين". (١)

فالقضية الواضحة من خلال النصيحة هى ضرورة اذعان الخليفة العباسى واعترافه بالخضوع والتبعية للمغول.

وبالاضافة الى ذلك فان قلاع الاسماعيلية كانت تمثل خطرا حقيقيا يهدد عن طريق الاغتيال السرى زعماء المغول وقوادهم ونوابهم.

تلك هى الاسباب الحقيقية وراء غزو هولاكو الذى كان يستهدف أيضا تدعيم سيطرة المغول وتأكيد سطوتهم فى ايران والغرب .

غير أن الكاتب الشيعى حسن الامين يرى أن السبب انما يرجع الى المسلمين أنفسهم يقول "ومن الحقائق التى عرفناها فى كتاب" جامع التواريخ" حقائق مذهلة فلم يكن يدر بخلدنا أن المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين وأن قاضى القضاة شمس الدين القزوينى كان هوالمحرض والمصير على التحريض والثابت عليه ، فان هذا القاضى او قاضى القضاة هذا كان لايحتمل وجود الاسماعيليين فى قلاعهم المنيعة التى ارتدت عنها جحافل جنكيز خان فكان لا يفتأ يتوسل الى منكوخان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع الاسماعيلية". (٢)

وهذه الرواية وردت عند رشيد الدين وأهم مافيها" أن القزوينى قد صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكوخان وكان لها أثر عميق فى نفسه اذ نسب اليه الضعف والعجز لانه لم يستطع ان يستأصل شأفة هذه الطائفة التى تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول ،وما ذلك الا لانهم استطاعوا أن يغزو منكو خان بالمال بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا اثارهم". (٣)

وليس لدينا أى دليل على الدوافع التى حركت القاضى القزوينى على ذلك الموقف الذى لاحنكة فيه فهو يتهم الخاقان الاعظم بقبول الرشوة والغفلة عما يجرى حوله والتقاعس عن حماية المسلمين بالذات.

وأيا كانت صحة هذا كله أو عدم صحته فان حملة هولاكو لم تخرج عن الاسباب السابقة التى أشرنا اليها سلفا والدليل على ذلك ضخامة الحملة ودقة الاعداد لها وطول فترة مكوث هولاكو فى بلاد ما وراء النهر وايران قبل مهاجمة قلاع الاسماعيلية فالحملة خرجت من عاصمة المغول قراقورم سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ووصلت الى سمرقند بعد عامين. ولم يبدأ الهجوم الفعلى الا فى ذى الحجة سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م يناير أى بعد أن عبر هولاكو

---

(١) رشيد الدين فضل الله الهمذانى: جامع التواريخ نشر كاتبير مجلد٢ ج٢ ص٢٢٣

(٢) حسن الامين : الغزو المغولى ص ٨٢

(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ نشر كاترمير مجلد٢ ج ٢ ص ٢٢٣

بجيشه نهر جيجون وتقدم بجحافله نحو القلاع المنيعة وأخذ هو وقواده يعملون على تخريبها وتحطيمها". (١)

ولم يتوقف هولاكو فقد حقق الخطة كاملة دمر معاقل الاسماعيلية وأسقط الخلافة وقتل الخليفة العباسى ثم انطلق الى مدن الشام واحدة تلو الاخرى وأعد العدة لمهاجمة مصر غير أن الخاقان منكو توفى فى ١١ أغسطس سنة١٢٥٩م بينما كان يشترك مع أخيه قوبيلاى فى القتال فى الصين" (٢) فاضطر هولاكو الى العودة الى شرق ايران حتى يكون على مقربة من الاحداث التى تجرى فى العاصمة المغولية قراقورم .

الاسلام فى الصين وقوبيلاى :

من المعروف أن الدعوة الى الاسلام كانت تسبق حركة الفتح الاسلامى التى امتدت من ايران الى ماحولها فى بلاد ماوراء النهر والتركستان .

واذا كان الفتح الاسلامى قد توقف عن أن يبلغ حدود الصين فقد كان على التجار المسلمين - وهم الاكثر نشاطا - ان ينهضوا بعبء نشر الدين الجديد الى ربوع الصين الواسعة المترامية الاطراف وهى مهمة - ولاشك - غاية فى الصعوبة بالقياس الى الظروف التى احاطت بها ومنها :

١ - ان البوذية كانت قد انتقلت من التبت الى الصين فى فترة سبقت تمكنت خلالها من توطيد دعائمها وانتشرت هناك بصورة كبيرة وخصوصا بعد أن اعتنقها الاباطرة الصينيون.

٢ - أن المسيحية النسطورية كانت قد سبقت ايضا الى التركستان الشرقية وانتشرت بين القبائل التركية والمغولية التى قد تقع منازلها على طرق القوافل ثم حاولت النفاذ الى الصين من هناك فردها أباطرة الصين الى التركستان ثانية فظلت متربصة حتى أتاح لها الغزو المغولى فى عهد جنكيز خان وخلفائه ان تتسلل تباعا الى هناك.مستغلة عادة حركة الغزو الخارجى.

٣ - ان الدولة الخوارزمية وهى أكبر قوة عسكرية وسياسية فى الشرق الاسلامى كانت مشغولة بموضوعات أخرى فلم تضع فى حسبانها مسئوليتها عن نشر الاسلام فى التركستان الشرقية والصين وآسيا العليا وخصوصا بين قبائل البدو من الترك والمغول الذين كانوا مادة خام قابلة للتشكيل أمام المسيحية والبوذية .

ولعل أول خطوة كانت فى صالح المسلمين فى الصين هى تعيين التاجر المسلم الشهير محمود الخوارزمى حاكما عاما فى بكين. وبالتأكيد فان هذا الامر كان ينطوى فى أقل معانيه العملية على رعاية مصالح المسلمين فى الصين ومساعدتهم على نشر دينهم ودفع الأذى عنهم فى أوقات الشدة .

---

(١) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١١٠، ١١١

(٢) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٥٥

وكان قوبيلاى قد تلقى أصول العلم والتربية على الطريقة الصينية على يد"يى ليو. جونساى مستشار جنكيزخان ووزيره الصينى وأغلب الظن أن الاستاذ قد خلب لب تلميذه فكان أول من الخانات العظام الذين قبلوا البوذية وفضلوها على الشامانية.

وما أن انتهى الصراع بانتصار قوبيلاى قا آن على أخيه أريق بوقا الذى كان ينافسه على العرش الخاقانى بادر قوبيلاى الى نقل عاصمة المغول المركزية الى بكين فأتى بذلك تحولا لم يسبقه اليه غيره من خانات المغول الذين كانوا يعتزون بالعاصمة الام قراقورم.

أيا كان الامر فان قوبيلاى - فيما يتعلق بالشئون الدينية - سار على نهج أسلافه السابقين فكان أن ارتضى فى البداية منهج التسامح الدينى فسمح للاديان المختلفة بحرية اقامة الشعائر والدعوة غير أن المسلمين فى الصين لم ينعموا بذلك طويلا فسرعان ما تعرضوا للدس عليهم من قبل النساطرة فى بلاط قوبيلاى سنة١٢٦٣م فصدر قرارا خاقانى بحظر الدعوة الاسلامية فى الصين.

وفى نفس العام لجأ قوبيلاى الى التخلص من احد الامراء المغول المسلمين يقول آرمنيوس فامبرى وفى سنة١٢٦٣م /٦٦٢هـ ندب قوبيلاى قا آن الخان الاعظم الامير مبارك ابن قراهولاكو أميرا على قبيلة الاولوس الجغتائية (بلاد ما وراء النهر) ويظهر من اسم هذا الامير أنه كان على الاسلام ،وكان كذلكلطيف المعشر على اتم ما ينبغى لامير.

ومع هذا فان الخاقان الاعظم، برغم ما كان عليه من التحرير الفعلى فى المسائل الدينية لم يكن برتاح فى الغالب كل الارتياح الى هذا الامير الذى نبذ عقيدة آبائه فندب فى السر وكيلا له هو الامير بوراق أحد أحفاد جغتاى". (١)

وفى الحقيقة لم تكن كراهية قوبيلاى لهذا الامير نابعة من نبذة الديانة الشامانية التى نبذها قوبيلاى نفسه حين اعتنق البوذية ولكنها نابعة من أثر الدس النسطورى الذى نجح فى صنع هذه الكراهية عموما فهذا الامير لم يستمر فى عمله أكثر منعام حيث نجح الوكيل السرى لقوبيلاى فى ازاحته واحتلال مكانه.

ولم يجد قوبيلاى ادنى حرج فى اعلان تأييده لاخيه هولاكو خان ضد ابن عمهما بركة ابن جوجى أثناء الصراع العسكرى الذى نشب بينهما ولم يكن هذا التأييد راجعا الى رابطة الاخوة بين قوبيلاى خان وهولاكو بقدر ماكان يعود الى دخول بركة خان واتباعه فى الاسلام.

فما أن هلك هولاكو ونهض مكانه ابنه أباقا حتى لقى المسلمون الكثير من العناء بسبب الدس المسيحى فهذا أباقا يرسل الى عمه قوبيلاى قا آن بوشاية تؤدى الى اثارة مشاعر الضغينة والحقد ضد المسلمين فبدأ سنة١٢٦٥م فى اتخاذ اجراءات قاسية ضدهم اذ جردهم من حقوقهم وامتيازاتهم القديمة وأمر بانزال الائمة من على المنابر"(٢) وكذلك الزمهم بذبح حيواناتهم على الطريقة المغولية التى كانا لمسلمون يرفضونها لوحشيتها ومخالفتها للشريعة الاسلامية.

---

(١) ارمنيوس فامبرى ، تاريخ بخارى ص ١٩٢

(٢) فهمى هويدى : الاسلام فى الصين ص ٦٢
عن د. فيصل السامر الاصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية فى الشرق الاقصى ص ٢٥

واستمر هذا الاضطهاد لمدة سبع سنوات أى حتى سنة١٢٧٢ م حيث اضطر قوبيلاى الى التراجع عن موقفه هذا لماوجد أن المسلمين قد أخذوا يخرجون تباعا من الصين الى جزائر الهند الشرقية وامتنعوا عن التجارة مع الصين وتوجهت مراكبهم الى العراق ومصر مما أدى الى نقص واضح فى واردات حكومته فعمل على استرضائهم وبنى لهم مسجدا فى خان بالق" (١)

وفى رأيى أن الذين خرجوا من الصين كانوا بعض المسلمين وليس جميعهم وأغلب الظن انهم كانوا تجارا محنكين بدليل هذا الاضطراب الواضح الذى أحدثه اتجارهم مع جهات أخرى غير الصين فى ميزانية الخاقانية.. أما غالبية المسلمين فبقوا فى الصين فى مواجهة هذا الاضطهاد الذى انقشع بعد فترة من الوقت. يقول ارنولد توينبى " وقد وصل الاسلام الى يونان وشمال غرب الصين وبقى هناك فى سنة١٢٧٩" (٢).

على أن خيبة أمل قوبيلاى فى صراعه مع المسلمين قد جاءت اليه من حيث لا يتوقع فهذا نائبه بوراق الذى أقصى الامير مبارك المسلم عن حكم بلاد ما وراء النهر ينقلب الى خصم عنيد يهاجم ايلخانية أباقا. ويهدد دوما منطقة خراسان الايرانية فيصبح سنداقويا لمغول القبجاق أعداء أباقا وأبيه من قبل.

كذلك فان تكودار بن هولاكو والذى كان مقيما فى الصين لدى عمه الخاقان الاعظم قوبيلاى وأرسل من هنا ليكون عونالاخيه أباقا ضد المسلمين فى ايران وجنوب روسيا وبلاد ما وراء النهر قد انقلب بعون الله مسلما بمجرد تولية عرش الايلخانية عقب وفاة أخيه وعمل على تدعيم الاسلام والمسلمين بكل صورة ممكنة" فلما أعلن الامير ارغون بن أباقا الثورة ضد عمه السلطان أحمد تكودار متخذا من خراسان مقرا لقيادته ومعسكرا لتعبئة جنوده واستقبال أنصاره ومناوئى عمه السلطان أيده فى اجرائه ذلك الخاقان قوبيلاى فا آن". (٣)

على أن أهم نتيجة أسفرت عن دخول الايلخان المسلم محمود غازان الاسلام هى اعلانه الاستقلال بحكم الايلخانية عن التبعية للخاقان الاعظم المقيم فى بكين فلعله أنف أن يكون مسلما وتابعا لرجل وثنى فى آن واحد. وبالطبع لم يكن فى وسع قوبيلاى أو من خلفه أن يتخذ أى اجراء ضد هذا الامر الذى أصبح عنوانا على قوة الاسلام واتباعه من المغول وغيرهم فى الايلخانية.

وعلى الرغم من ذلك كله فان الاسلام فى الصين على عهد قوبيلاى تمكن من الاحتفاظ بكيان قوى متنامى صمد فى مواجهة كل محاولات النساطرة والبوذيين حتى قال عنه توماس أرنولد " على أن ثمة اجماعا بين السجلات الصينية والكتابات العربية والاجنبية على أن الاسلام حقق قفزة أوسع فى الصين فى ظل مملكة يوان المغولية(١٢٧١ ـ ١٣٦٨م) على عرش الصين بعد ما اطاح قوبيلاى خان بحكومة اسرة سونغ". (٤)

---

(١) فهمى هويدى : الاسلام فى الصين ص ٦٢
(٢) ارنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٧٩
(٣) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٠
(٤) توماس ارنولد: الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٥

القبيلة الذهبيـــة :

تولى جوجى منصب أمير الصيد وهو منصب شرفى كبير – آنذاك – يوازى أهمية حرفة الصيد بالنسبة للمغول فى عصر جنكيز خان ٠ وكذلك تولى جوجى قيادة العديد من الحملات العسكرية ومن أبرزها أول لقاء حربى بين المغول والسلطان الخوارزمى وهو اللقاء الـــذى ترك أشد الاثر فى نفس السلطان وملأ قلبه رعبا من ناحيتهم ٠٠ على الرغم من جوجى انسحب بذكاء من المعركة ليلا٠

وبرغم ذلك فان جنكيز خان فكر فى أن يعدل عن جوجى الى ابنه الثالث أوكتـــاى فأوصى بخلافته له٠ وهو أمر ولا شك ملأ قلب جوجى حقدا على أخيه اوكتاى اذ سرعـــان ما تردد أن السبب فى ذلك يرجع الى الشك فى صحة نسب جوجى الى ابيه جنكيز خان فان قضية اختطاف أمهواقامتها لدى مختطفيها من الميركيت فترة من الوقت قد ظهرت فى الافق من جديد ٠ حقا ان جنكيز خان استعاد زوجته واعترف ببنوة جوجى الا أن المغرضين والطامعين وجدوها فرصة لانتقاص شأن جوجى وتصغير مرتبته والدس عليه عند أبيه ويبدو أن ذلك كلـــه قد جعل جنكيز خان دائم التوجس من ناحية جوجى الذى لم يكن مرغوبا فيه من بقية أخوته٠ يقول الدكتور فؤاد الصياد :" وكان جوجى أصفى نفسا من أبيه فلم يرض عن الوحشية التـى ارتكبها فى حق البشرية لدرجة أنه صمم على الانضمام الى المسلمين والعمل معهم ٠ على الخلاص من أبيه فوقف جغتاى على ما يدور بخلد أخيه فأطلع أباه على سر هذه المؤامرة ، فـــدس له جنكيرخان السم سرا"٠ (١)

وكان جوجى قد قاوم نزعة أخيه جغتاى فى تدمير مدينة خوارزم بعد سقوطها فى أيـــدى المغول وتعلل لابيه بأنه قد دخلت فى نصيبه من الاملاك – لكن جنكيز خان لم يأخـــذ برأى جوجى الامر الذى أوغر صدر جوجى نحو أخيه جغتاى ٠٠ فلما تخلف جوجى عـــن الحضور الى القوريلتاى الاخير الذى عقده جنكيز خان قبيل وفاته وجد جغتاى الفرصة سانحة للدس عليه فأوعز الى أبيه بأن جوجى ليس مخلصا فى طاعته وأنه يعمل لحسابه الخاص ويسعى الى الاستقلال بأملاكه عن الخاقانية وأشياء أخرى من هذا القبيل ٠

وبالطبع ليس ثمة دليل على أن جوجى قد أسلم قبل وفاته كما أن انضمامه الــــى المسلمين بعد ما انهارت قواهم أمام المغول ليس بالامر الذى يسهل قبوله٠

أيا كان الامر فان جوجى قد ترك مملكته لابنائه وأشهرهم باتو الذى يرى الجوزجانـــى انه قد اعتنق الاسلام سرا"٠ (٢)

وفى الحقيقة لم أجد لهذا الرأى تعضيدا لدى مؤلف آخر ٠٠ الا أنه لم يعرف عـــن باتو أى مواقف عدائية ضد الاسلام والمسلمين ذاك أن معظم معاركه كانت موجهة الى الروس الكاثوليك والى دول شرق أوربا المسيحية٠٠ ولم يحدث أن اشتبك مع قوى أو مدن اسلامية٠٠ وبالطبع لايعنى هذا أنه كان مناضلا فى خدمة الاسلام فالمعروف أن هذه المعارك كلهـــا توسعية بهدف تأكيد سيطرة المغول سياسيا وعسكريا٠

---

(١) فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٨٩ عن الجوجانى طبقات ناصرى ص٣٧٩

(٢) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٨٩

ولقد أثبت باتو عمليا التزامه بمبدأ حرية التدين حيث سمح للمسلمين بالعمل داخل معسكره. يقول هارولد لامب " وعندما توجه الراهب وليم روبرك الى بلاط باتوخان قدموه اولا الى رجل مسلم فقاده الى سرادق كبير أبوابه مفتوحة الى الجنوب حيث كان حشد كبير من الناس في الانتظار". (١)

كذلك لم يظهر باتو – رغم شامانيته – أى اعتراض تجاه دخول أخيه بركه بن جوجى فى الاسلام فالراهب وليم روبرك قد حكى انه وجد بركة مسلما سنة١٢٥٣م أى وباتو لا يزال على قيد الحياة وأن لحم الخنزير لم يكن ليوكل فى أوردا بركة ". (٢)

وبصفة عامة يمكن أن نقول أن جوجى بن جنكيز خان وأولاده كانوا أكثر المغول رحمة بالمسلمين وانصافا لهم من غيرهم من المغول.

كيف أسلم بركــه :

مما لاشك فيه أن بركة هو أحد الامراء المغول فى بيت جنكيز خان اقبالا على الاسلام(٣) " وبالتأكيد فانحرية التدين أتاحت تعدد الاديان وكان ذلك من أهم العوامل التى أتاحت لبركة ان يميز ويختار فاهتدى الى الاسلام وارتضاه دينا.

يقول استراجانوف" وكان السبب فى اسلام بركةخان أن الشيخ نجم الدين الكبرا كان قد ظهر صيته وارتفع ذكره ففرق مريديه الى المدن العظام ليظهروا بها شعائر الاسلام وأرسل سعد الدين الحموى الى خراسان وكمال الدين الشرياقى الى تركستان ونظام الدين الجندى الى القبجاق وسيف الدين الباخرزى الى بخارى فلما استقر الباخرزى ببخارى أرسل تلميذا له كبير المحل عنده الى بركة خان فاجتمع به ووعظه وحبب اليه الاسلام وأوضح له منهاجه وأسلم على يديه واستمال بركة عامة أصحابه". (٤)

ويضيف ابن خلدونالى الرواية السابقة أن بركة بعد أن اسلم بعث الى الشيخ الباخرزى كتابا باطلاق يده فى سائر اعماله بما شاء فرده عليه". (٥)

ويبدو أن بركة قد قرر أن يلتقى بالشيخ الباخرزى وجها لوجه فشد الرحال الى بخارى يقول استراجانوف" وأقام بركة بباب الشيخ ثلاثة أيام وهو لا يأذن له فى الدخول اليه حتى تحدث مع بعض مريديه فقال ان هذا ملك كبير وقد أتى من بلد بعيد يلتمس التبرك بالشيخ والحديث معه فلا بأس بالاذن له فأذن له عند ذلك فدخل اليه وسلم عليه وجدد اسلامه على يده وعاد عنه الى بلده". (٦)

واسلام بركة على هذا النحو يوءكد حريته فى اختيار الاسلام دينا وتفضيله على غيره من الاديان.. ويشير الى أن الاسلام كان موجودا وذائعا بين مغول القبجاق والى درجة جعلت

(١) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٢
(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٧
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣٠٩
(٤) استراجانوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص٤٧٨
(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٥٣٤
(٦) استراجانوف: تاريخ القبيلة الذهبية ص ٤٧٠

بركة مهيئا لقبول الدعوة الاسلامية عندما وجهت اليه.. وكما يقول علماء النفس أن الانسان لايفعل او يقدم عليه دون أن يكون مهيئا له بصورة أو بأخرى.

بركة فى خدمة الاسلام:

لما أسلم بركة وكان هذا فى حياة أخيه باتوخان - فقد حرص على الاتصال بالخليفة العباسى المستعصم فكاتبه وبايعه وهاداه فترددت الرسل بينهما وتأكدت الموالاة". (١)

فلما خرج هولاكو لمحاربة الخليفة بلغ ذلك بركة فصعب عليه وقال لاخيه باتوخان اننا نحن اقمنا منكوقا ان فلماذا يكافئنا بالسوء فى أصحابنا وينقض عهدنا ويحقر ذمتنا ويتعرض لممالك الخليفة وهو صاحبى وقبح على أخيه باتو فعل هولاكو فبعث باتو الى هولاكو بأنه لايتعدى مكانه فجاءته رسالة باتو وهو وراء نهر جيجون فلما عبره اقام فى موضعه سنتين كاملتين حتى مات باتو وتسلطن أخوه بركة فحينئذ قويت أطماع هولاكو وبعث الى أخيه منكو قا آن يستأذنه فى امضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة وحسن له ذلك فأجابه اليه". (٢)

ومما يلفت النظر ان بركة خان لم يتدخل أو حتى يعترض على مهاجمة هولاكو لقلاع الاسماعيلية على الرغم من قربها جغرافيا من بلاده كذلك لم يقدم معاونة عسكرية فعلية للخلافة العباسية أثناء هجوم هولاكو على بغداد ثم تدميره لها وقتله للخليفة العباسى. فلعله كان مشغولا بتثبيت سلطانه أو ربما خشى أن ينهض الخاقان الاعظم منكو لنجدة أخيه هولاكو فيقدم على مهاجمة بركة خان يقول الدكتور فؤاد الصياد " وصار بركة خان يتوعد هولاكو بالانتقام منه بسبب مااقترفه من مذابح راح فيها الوف من الضحايا المسلمين ولتجرئه على مقام الخلافة وقتل الخليفة" (٣)

ويبدو أن بركة خان قد ضاق بتجاهل هولاكو واصراره على ايذاء المسلمين تحديا له فقرر أن يتخذ ضده عملا فعالا. حسن الامين" وقد اعد بركة بالفعل جيشا لمحاربة هولاكو وسار من القبجاق قاصدا ايران على أنه فيما يبدو مما ذكره صاحب جامع التواريخ ان الخلاف بين بركة وهولاكو كان فى واقعة خلافا شخصيا قبل كل شئ وتنازعا على النفوذ". (٤)

وفى الحقيقة فان مسألة الخلاف الشخصى ليس لها مايؤيدها ذاك أن باتو وبركة وهم أولاد جوجى بن جنكيز خان قد ساعدا بكل جهدهما منكو قا آن شقيق هولاكو وقوبيلاى وهم من أ ولاد تولوى بن جنكيز خان فى مهاجمة محاولات أولاد جغتاى وأوكتاى وهم من أبناء جنكيز خان أيضا . فصار منكو خاقانا أعظم رغم أن أمه لم تكن وصية على العرش الخاقانى.

أما التنازع على النفوذ فقد يكون صحيحا خصوصا فيما يتعلق بأراضى المسلمين فقد كان بركة خان يريد ان يبدو حاميا لهم ومؤيدا ، بل لعل بركة اراد أن يحتفظ بنفس المكانة التى كان يحظى بها أخوه باتوخان حيث كان ينظر اليه بعد وفاة أوكتاى على أنه أعظم أمراء المغول قاطبة.

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٥٢٩
(٢) استراجانوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص ٢٢٤
(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التارخ ص ٢٠٠ عن ا لمقريزى كتاب السلوك جا ق٢ ص٣٩٥
(٤) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٧

أيا كان الامر فمن المؤكد أن اسلام بركة خان وعداء هولاكوخان للمسلمين كان السبب الاول فى الصراع الذى نشب بينهما والذى كان النصر العسكرى فيه حليفا للخان المسلم بركة.

العلاقات مع مصر :

كان طبيعيا بعد ما وجد بركة خان أن عدوه هولاكو ليس وحده فى الميدان وأنه يستعين بأخيه الخاقان الاعظم قوبيلاى وبالمسيحيين على اختلاف مذاهبهم ودولهم أن يعمل على تكوين جبهة اسلامية قوية تصمد فى مواجهة الخصوم وقد ساعده على ذلك عاملان مهمان.

١ - التوتر الشديد فى العلاقات بين هولاكو وبين الخانات المغول أولاد جغتاى فى منطقة التركستان وبلاد ما وراء النهر.

٢ - اضطراب أحوال هولاكو ففى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م توفى منكو قا آن واضطر هولاكو الى أن يصحب جيشه الى أقصى الطرف الشرقى منتظرا ما سوف يسفر عنه الصراع بين أخويه قوبيلاى وأريق بوقا على منصب الخاقان الاعظم ذلك الصراع الذى استمر قرابة عامين.

وبالاضافة الى ذلك فقد هزم جيش هولاكو وقتل قائده الكبير كتبغا فى عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) على أيدى المصريين الذين انتصروا بفضل حماسهم الدينى واصرارهم على انقاذ الكنانة والاسلام من براثن هولاكو الذى لوقدر لجيوشه أن تنتصر فى هذه المعركة فما كان ليتوقف أمام شئ على الاطلاق حتى حدود الاطلسى غربا.

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس أمر مصر ووجد أن المغول لن يتوقفوا عند هزيمة عين جالوت وأن الصليبيين فى ساحل الشام لايزالون يشكلون خطرا حقيقيا على الاسلام والمسلمين فبادر الى الاتصال ببركة خان الذى فكر فى نفس الشئ وفى نفس التوقيت تقريبا يقول حسن الامين " واتصل بركة خان بالمماليك فى مصر واتصلوا به لعقد حلف ضد عدوهما المشترك هولاكو وبعث بيبرس من القاهرة من يفاوض بركة خان سنة٦٦٠هـ/٦٦١هـ كما وصل الى القاهرة سنة١٢٦٢ وفدمن بركة قبل أن ترجع البعثة التى أرسلها بيبرس".(١)

ويذكر الدكتور الباز العرينى مضمون رسالة السلطان بيبرس الى بركة خان "فى سنة ١٢٦٢م /٦٦١هـ جرى تبادل الرسل والكتب اذ وجه بيبرس الفقيه مجد الدين والامير سيف الدين كشن تك وكتب على يدهما كتب بأحوال الاسلام ومبايعة الخليفة ،واستمالة الملك بركة وحثه على الجهاد ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم ومافيها من خيل وتركمان وعشائر وأكراد ومن وافقها وهاداها وهادنها كلها سامعة مطيعة لاشارته الى غير ذلك من الاغراء بهولاكو وتهوين أمره والتحريض عليه وتقبيح فعله ونحو ذلك".(٢)

أما مضمون رسالة بركة خان ردا على الرسالة السابقة فقد وردت عند مفضل بن أبى الفضائل يقول لسان بركة" أنت تعلم أنى محب لهذا الدين وأن هذا العدو(يعنى هولاكو) كافر وقد تعدى على قتل المسلمين واستولى على بلادهم وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك وأقصده أنا من جهتى ونصدمه بدا واحدة ونزيحه عن البلاد وأنا أعطيك مافى

---

(١) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٨
(٢) د. السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٧٢، ٢٧٣

يده من بلاد الاسلام" فشكر له السلطان على ذلك ونفذ اليه هدية حسنة ورسولا "(١).

وتعددت الرسائل والهدايا وظهرت المشاركة الوجدانية وتأكدت الصداقة يقول باتولد "وقد وثق اواصر الصداقة بين بركة وبين سلطان مصر عداوءهما المشترك لمغول ايران ، وبهذه المناسبة استقبل بركة عدة سفارات من قبل سلطان مصر". (٢)

آراء حول اسلام بركة :

أشرت منذ قليل الى الرأى القائل بأن صراع بركة خان ضد هولاكو كان شخصيا ويخفى وراءه أطماعا فى السيطرة والنفوذ.

وقبل ان نشرع فى استعراض اراء آخرى قد تتفق أوتختلف حول اسلام بركة ومدى ايمانه وجهوده فى نشر الدين وتشجيعه للعلماء والفقهاء نود ان نذكر أن صاحب الرأى نفسه وفى نفس الموءلف عاد فذكر" أن بركة قد أسلم وبدأ شعبه فى القبجاق يسلم تدريجيا". (٣)

وأرى أن الاسلام التدريجى – ان صح هذا التعبير – لشعب المغول فى القبجاق لايمكن أن يتم بدافع العداء الشخصى أو السيطرة والنفوذ ورحم الله الاستاذ العقاد عندما قال فى احدى عبقرياته ان الانسان عندما يغير دينه فكأنما قد غير ماضيه ويغير حاضره ومستقبله

ان ذلك كله يدفعنا الى التفكير فى صفات بركة خان باعتباره اول الخانات المغول الذين اسلموا من جهة وباعتباره حفيد جنكيز خان من جهة أخرى لنرى الى أى مدى أثر فيه الاسلام . يقول استراجانوف ." وكان بركة شجاعا حازما عادلا حسن السيرة يكره الاكثار من سفك الدماء والافراط فى خراب البلاد وعنده حلم ورأفه، وكان يميل الى المسلمين ويعظم العلماء ويعتقد فى الصالحين ولهم حرمة عنده وحدث أن توجه اليه طائفة من أهل الحجاز فوصلهم وبالغ فى احترامهم ". (٤)

ويقول عباس العزاوى : " وكانت اسلاميته عن اعتقاد قوى ولذا أعلنها وقاتل من بقى على كفره من قومه وغيرهم ومن ثم تكونت حكومة المغول المسلمة فى القبجاق". (٥)

ويقول ابن خلدون وآخرون "ونهض بركة الى نشر الدين فاتخذ المدارس والمساجد فى جميع بلاده وقرب الدعاة والعلماء والفقهاء ووصلهم مما دفع الى الاسلام سائر قومه وعامة أصحابه وجماعة من أمرائه واكثر جيشه." (٦)

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ١١٠، ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٣٨

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى.

(٣) حسن الامين : الغزو المغولى ص ١٨٧

(٤) استراجانوف: تاريخ القبيلة الذهبية ص ٢٠٢

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج١ ص ٣٢٢

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٥ ص ٥٣٤ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٩٥
استراجانوف: تاريخ القبيلة الذهبية ، ص ٢٠٢، ص٤٧٨

وهذه الاراء كلها تدور حول : الصفات الطيبة لبركة، وحبه للاسلام والمسلمين ،وجهوده في نشر الدين بين أهله وذويه عن طريق العلماء والمدارس والمساجد .. وكلها - في رأيي - سمات المسلم الحقيقي أما بارتولد فهو يقول" ولم يكن بركة خان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين". (١)

ثم يعود فيقول " وبعد وفاة بركة خان ولي الامر من جديد خانات مشركون ولم يستقر الاسلام نهائيا الا في عهد أوزبك خان (١٣١٢- ١٣٤٠)م فكأن بارتولد يريد أن يقول "ان اسلام بركة ورجال حاشيته لم (٢) يجد شيئا اذ بوفاته عاد المغول الى الشامانية مرة أخرى اتباعا للخانات المغول المشركين الذين تولوا بعده.. وهذا رأى لا نوافق عليه فاذا كان بركة قد دخل في الاسلام منذ عام١٢٥٣م كما يقول الراهب وليم روبرك أو ربما قبل ذلك فانه قد توفي في عام ١٢٦٧م أي بعد اسلام دام أكثر من أربعة عشر عاما وهي فترة ليست بالقليلة لايمكن أن يزول اثرها بين عشية وضحاها خصوصا وان الذين اسلموا كان كما ذكرت الاراء المتعددة التي عرضناها ، كانوا سائر المغول وأكثر الجيش وعدد كبير من الامراء والقواد المغول بل والنساء أيضا بالاضافة الى المدارس والمساجد ومجالس العلماء والفقهاء والتي كانت تمثل مراكز انتشار للدين الاسلامي في خانية القبجاق كلها.

فاذا حاولنا تتبع الخانات المشركين الذين أشار اليهم بارتولد فلن يجد سوى الخان منكوتيمور بن طغان بن باتو وهو الذي خلف عمه بركة خان منذ عام ١٢٦٧م ويبدو أنه ظل شامانيا فلم يسلم وما كان ذلك ليؤثر كثيرا على نتاج الجهود الضخمة التي بذلها بركة خان في نشر الاسلام بين المغول في القبجاق .. بل ان هذا الخان قد أرسل الى الظاهر بيبرس سنة٦٦٦ هـ فوض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولاكو من أراضي المسلمين كما طلب منه أن يساعده في استئصال شأفة مغول فارس" وقد حمل الرسالة الى بيبرس عدة رسل من بيت بركة" (٣) مما يؤكد على أن سياسة هذا الخان تجاه المسلمين لم تكن عدائية.

وحدث ان تولى تدان منكو بن طغان بعد أخيه منكو تيمور سنة١٢٨٠ فكان مسلما على غير ما ذكر بارتولد . يقول ابن خلدون" وفي سنة٦٨٢هـ وصل رسول تدان بن طغان المتولي بكرسي الشمال بعد أخيه منكوتمر بخبر ولايته ودخوله في دين الاسلام ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك (٤). ونفس الرواية نجدها عند المقريزي بل ويضيف المقريزي دليلا جديدا على مدى تدين هذا الخان فيقول "وفي سنة٦٨٦ هـ اى بعد أربعة سنوات نزل تدان منكو بن طغان عن مملكة التتر ببلاد الشمال، واظهر التزهد والانقطاع الى الصلحاء وأشار أن يملكوا ابن أخيه تلابغا بن طغان فملكوه عوض تدان". (٥)

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٧٨

(٢) بارتولد : نفس المصدر ص ١٧٩

(٣) د. جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ص ١٠٦

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٩٩، المقريزي: السلوك ج ١ ص ٧١٩

(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٣٨

وهذا الرأى يوضح أن الخان قد تنازل من تلقاء نفسه عن الحكم تماما مثلما فعل معاوية الثانى فى الدولة الاموية... ثم انه لم ينسى أن يختار لهم حاكما من المؤكد أنه لم يكن وثنيا بدليل أنه قبل هديه اسلامية من قبل سلطان مصر المملوكى قلاوون ، يقول المقريزى " وفى سنة ٦٨٦ هـ جهز السلطان قلاوون هدية سنية الى بر بركة و مبلغ الفى دينار برسم عمارة جامع(قرم) وان تكتب عليه القاب السلطان وجهز حجار لنقش ذلك وكتابتها بالاصباغ" (١).

لكن هذا الخان المسلم اغتيل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) بتدبير من الخان(توقتو) كما يسميه بارتولد الذى استولى على الحكم بعده ولم يكن هذا الاخير مسلما. (٢) واستمر (توقتو) يحكم حتى سنة ١٣١٢م ،وهى فترة طويلة نسبيا،ورغم ذلك كان هذا الخان محكوما باعتبارات عديدة منها :

أ - تحول مغول ايران الى الاسلام منذ عهد غازان سنة١٢٩٥م.
ب - تزايد اعداد المسلمين فى القبجاق نتيجة لما بذله بركة وخلفاؤه .
جـ - تحول طرق التجارة بعيدا عن سوريا نتيجة للصراع بين مغول ايران والمماليك فى مصر والشام.

وهكذا التزم هذا الخان بسياسة اسلافه فكان يراعى مشاعر المسلمين وتجنب اثارتهم بكل طريقة ممكنة .

هولاكو العدو اللدود :

يعتبر هولاكو بن تولوى بن جنكيزخان أكبر أعداء المسلمين فى عصره فقد عمد الى تحطيم بلادهم ومحاولة اذلالهم وتمكين غيرهم فيهم وبخاصة المسيحيون الاعداء التقليديون .

ومهمة هولاكو التى كلف بها من قبل أخيه الخاقان الاعظم كانت تتلخص فى تدمير قلاع الاسماعيلية واسقاط الخلافة العباسية وتأمين الوجود المغولى فى ايران وماحولها غربا حتى الشام ومصر.

ولقد بالغ هولاكو فى التنفيذ فاسرف فى القتل والتدمير والابادة فى كل مكان وصل اليه فاعاد الى الاذهان الرعب الذى اصاب الناس من جراء الغزو الاول على عهد جنكيزخان.

حقا ان هولاكو استخدم علماء مسلمين كالطوسى والجوينى وغيرهما غير أن كراهية المسلمين له كانت عميقة لا تنسى ولا تندمل .

وكان هولاكو بوذيا شأن أخيه الخاقان الاعظم قوبيلاى قا آن وكانت نساواه فى معظمهن مسيحيات نسطوريات وكانت سياسته العامة تنطوى على كراهية الاسلام والمسلمين وتتضمن خططا عسكرية وسياسية لتوهين قوة الاسلام والنيل منه.

وبالتأكيد فان هذه الكراهية التى كان مغول ايران يضمرونها للمسلمين ترجع بالدرجة الى الدس المسيحى والبوذى واليهودى على أن الاغلبية السكانية فى الايلخانية كانت مسلمة منذ

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٧٣٨
(٢) اسماعيل الخالدى : العالم الاسلامى والمغول ص ٢١١

القرن الاول الهجرى والمغول الذين قدموا مع هولاكو كانوا أقل عددا وحضارة وقد توزعت دياناتهم بين الشامانية والبوذية والمسيحية. بل وفيهم الاتراك الذين أجبروا على الانضمام الى الجيش الغازى كالاويغور والقارلوق على سبيل المثال.

واذا كانت النتائج العسكرية قد حسمت لصالح المغول وبدأت الاوضاع تستقر وظهرت الدواوين الحكومية والنظم الاساسية لتكوين الدولة فان الوانا من الصراع قد تحتم ظهورها على الساحة. ولم يكن ذلك مع استمرار الوقت فى صالح المغول وهم الاقوى عسكريا يقول بارتولد: " ولما كانت الحضارة الاسلامية تشغل فى ذلك الوقت المكان الاول من الحضارات ، فقد كان أى صدام بينها وبين الحضارات الاخرى يؤدى فى النهاية الى توسيع ساحتها". (١)

أى أن الاسلام قد يخسر عسكريا امام المغول وغيرهم لكنه لايمكن أن يخسر أبدا معاركة الحضارية وعلى هذا فان انتصار الحضارة الاسلامية على المغول لم يعد أن يكون مسألة وقت. وهذا ماكان يدرك حقيقة المغول منذ عهد جنكيز خان حتى عهد قوبيلاى وغازان. ولهذا تركزت هجمات المغول صوب بلاد المسلمين اكثر من غيرهم ونال الاسلام كثير من الاضطهاد اكثر من بقية الاديان وعلى هذا خرج هولاكو على رأس جيش كبير من عاصمة المغول قراقورم فى(٦٥١هـ/١٢٥٣م) فوصل سمرقند (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) ومن هناك وجه عده رسائل الى الملوك والامراك المسلمين فى ايران وكلها تهديد ووعيد.

"عبر هولاكو بجيشه نهر جيجون ثم تقدم بجحافله نحوقلاع الاسماعيلية المنيعة وأخذ يعمل على تحطيمها وتخريبها". (٢)

ونجح هولاكو فى تحقيق أول مراحل خطته فدمر معظم قلاع الاسماعيلية وقتل كل من وقع فى يده منهم وقضى بذلك على خطر توجس منه قواد المغول وأمراؤهم الكثير والكثير.

وفى سنة٦٥٦ هـ /١٢٥٨م دخل المغول مدينة بغداد وقتل هولاكو الخليفة ومعظم اولاده وأزهق من الارواح الوف الالوف. يقول الحافظ الذهبى "ويقال أن هولاكو امر بعد القتلى فبلغوا الف الف وثمان مائة الف وكسر فعند ذلك نودى بالامان". (٣)

أما الحالة النفسية التى كان عليها المسلمون عامة وأهل بغداد خاصة فأمر مؤسف ندر أن يحدث مثله فى التاريخ كله ورحم الله ابن الاثير فتوفاه قبل هذه الكارثة بثلاثين عاما والا لقد مات فى اهابه مرات بعد مرات. يقول الدكتور حسنى الخربوطلى" من الصعب تقدير الارتباك الذى شعر به المسلمون عندما لم يعد هناك خليفة تستنزل عليه بركات الله ، ولم يسبق فى تاريخ الاسلام حادث مثله وكان دعاؤهم فى جامع بغداد يوم الجمعة التالى لمصرع الخليفة يعبر عن همهم العظيم اذ يقولون" الحمد لله الذى أهلك أعاظم الرجال وأنقذ من بقى من هذه المدينة اللهم ساعدنا فى بؤسنا الذى لم يشهد الاسلام وأبناؤه مثله قط. انا لله وانا اليه راجعون". (٤)

وأدى سقوط بغداد على هذا النحو الى انتشار الرعب والهلع بين المسلمين فى أرض الجزيرة والشام كلها وتوالى سقوط المدن فى أيدى المغول فاستولى هولاكو على ميافارقين

---

(١) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١١١

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٣١

(٣) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ٢٢٦

(٤) د. حسن الخربوطلى : غروب الخلافة العباسية ص ١٣٨ عن : ارنولد: الخلافة ص ٤٤

وماردين ونصيبين وحران والرها ثم المدن الكبرى فى الشام: حلب دمشق وأصبحت مصر فى خطر وشيك.

وكذلك أدى سقوط الخلافة العباسية الى أن انتشر التشيع فى المشرق الاسلامى نتيجة نفوذ رجال من الشيعة كانوا يتبوأون مراكز هامة عند المغول كنصير الدين الطوسى ومؤيدالدين ابن العلقمى وغيرهما.. والشيعة بصفة عامة عاونوا المغول وتقربوا الى هولاكو فحظوا عندهم بالتقرب والمناصب سواء فى عهد هولاكو او فى عهد ايلخانات فارس". (١)

واضطر هولاكو بعد أن علم بنبأ وفاة اخيه الخاقان الاعظم منكو ان يهرع الى أقصى الطرف الشرقى الشمالى لايران حتى يكون على مقربة من أحداث الصراع بين أخويه قوبيلاى وأريق بوقا على منصب الخاقانية العظمى وكذلك لمواجهة التهديدات المتعددة من قبل خان القبيلة الذهبية المسلم بركة وكذلك من خانية ابناء جغتاى فى التركستان وبلاد ما وراء النهر.

وشاء الله أن ينصر عباده المسلمين وأن يرفع عنهم مذلة الهوان والخذلان فكرم مصر اذ حظيت بشرف النصر المؤزر فى عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) حيث تمكن الجيش المصرى من دحر المغول وقتل قائدهم وتشتيت شملهم بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل.

ويمكن أن يتصور المرء مدى الحزن والغضب اللذين تملكا هولاكو عندما بلغه خبر هزيمة جنده ومقتل قائده كتبغا فاذا به يسرع الى بعض الاسرى من المسلمين فيقتلهم بيده لعله يشفى ما أصاب صدره من غيظ وحنق وأنى له ذلك ؟

وكان من نتائج النصر فى عين جالوت أن زادت شجاعة بركة خان فهاجمت قواته جيش هولاكو عند نهر تريك (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) وأنزلت بها هزيمة فادحة كانت لها أعظم الاثر فى نفس هولاكو يقول الدكتور الباز العرينى " وتعرض جيش هولاكو لكارثة فاجعة حينما غرق عدد كبير من فرسانه أثناء اجتياز النهر، الذى تجمدت مياهه وقتذاك ولم يجد هولاكو ما يشفى غليله فأقدم على قتل كل من صادفه فى البلاد الايرانية من التجار القادمين من بلاد القبجاق ، ولم يسع بركة الا أن يتخذ نفس الاجراء مع تجار فارس الذين يمارسون تجارتهم فى بلاد القبجاق". (٢)

وكان من نتائج النصر فى عين جالوت التحالف بين بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس والذى بدأ تبادل الرسل فيما بينهم منذ عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وفى نفس العام وفدت على مصر من ايران جماعة كبيرة من التتار مسلمين مستأمنين فأنعم عليهم الملك الظاهر (٣) وأمر أكابرهم ،وأنزل باقيهم فى جملة البحرية". (٤)

كلها ظروف أجتمعت على هولاكو فاصابه التلف اذ كان يصرع فى اليوم الواحد مرتين من جراء مافعله بالمسلمين والخليفة وصاحب ميافارقين.. وهكذا انفذ الله فيه قضاءه فتوفى فى الثامنة والاربعين قبل زفافه الاخير.

---

(١) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٣٥، ١٥٤

(٢) العرينى : المغول ص ٢٧٨

(٣) الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ص ٣٠٥

(٤) العرينى : المغول ص ٢٧٨ ، عن المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٤٧٤

أباقا والحقد الموروث :

لم يكن أباقا أقل من أبيه كاهية للاسلام والمسلمين فهو يشبهه فى كثير من الوجوه اذ ان امه مسيحية نسطورية (دوقوزخاتون) وكذلك كانت زوجته الاميرة البيزنطية (دسبينا) التى كان ابوه هولاكو سيتزوجها لولا أن عاجله الموت فزفت لابنه اباقا.

وبالاضافة الى ذلك كان أباقا بوذيا - كأبيه - وفى عهده ازداد التقارب بين المغول ايران والمسيحيين النساطرة والكاثوليك والارمن والكرج أملا فى مساندة قويتضد المسلمين فى مصر والشام.

ولم ينس اباقا ان يحرض عمه قوبيلاى قا أن على المسلمين فىالصين لعله يشفى صدره مما فيه منغل ورثه عن أبيه هولاكو .

وأيقن اباقا انه لن يستطيع أن يحقق أى انتصار فى حروبه مع المماليك قبل ان ينهى مشاكله مع المغول اعدائه فى القبجاق والتركستان وما وراء النهر. وعلى هذا فما أن توفى بركة خان زعيم القبيلة الذهبية حتى بادر أباقا الى منازلة مغول القبجاق وهزمهم وأوقف تقدمهم.

كذلك استغل وجود بعض الخلافات فى بلاد ما وراء النهر وانقض على بخارى قاعدة الجغتائيين فخربها سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م أيام براق حفيد جغتاى وكان مما دمره المدرسة المسعودية ببخارى.

وعلى الجبهة الاخرى استغل المسلمون فى مصر والشام انشغال اباقا بتصفية خلافاته مع بنى جلدته فهاجموا بقيادة السلطان بيبرس ممتلكات الصليبيين فى الشام واتجه الجيش المصرى الى أرمنية حيث دخل عاصمتها ودمرها تماما عقابا لتحالف ملكها هيثوم الاول مع المغول وكان حينذاك فى تبريز لدى اباقا يستجدى المعاونة.

وكان بيبرس أبرع سياسيا وعسكريا من أن يضيع فرصة المواجهة مع الجيش المغولى فى الاناضول فكان ان دهمه عند صحراء ابلستين فى ابريل سنة١٢٧٧م والحق به هزيمة منكرة". (١)

ولم يتملك اباقا نفسه فكان أن صب غضبه على المسلمين فى ايران الذين لا حول لهم ولا قوة". (٢)

ولما توفى الظاهر بيبرس وحدث خلاف على السلطة بين الامراء المماليك تشجع اباقا فاتجه بقواته الى قيسارية وانتقم من المسلمين فيها أشد الانتقام لانهم رحبوا بالجيش المصرى لكنه لما وصل الى صحراء أبلستين حيث دارت رحى المعركة السابقة تملكه الهم والغضب " فقد شاهد جند المغول صرعى ولم يشاهد أحدا من عساكر الروم مقتولا فأمر بنهب بلاد الروم كلها وقتل كل من يصادفه المغول من المسلمين. فقتل جنوده مايزيد على مائتى ألف نفس". (٣)

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٠
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٦٢
(٣) الذهبى : العبر فى خير من غبر ج ٥ ص ٣٠٥

وفعل أياقا بمدن الشام مثلما فعل أبوه هولاكو ذاك روح العداء قد ملكت عليه نفسه فلم يعد يرى سوى القتل والدمار يقول المقريزى " ولماوصلت الانباء بزحف المغول الى أطراف حلب أخلاها أهلوهاومن كان معسكرا فيها من الجنود ونزحوا الى حماة وحمص ولم يمض وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عين تاب ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا مابها من الجوامع والمدارس ودور الامراء أما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب وهاجر منهم خلق كثير الى مصر ليحتموا بها". (١)

وكان من المؤكد أن يلتقى المصريون والمغول فى أيام اباقا فى لقاء فاصل ففى سنة٦٨٠ هـ /١٢٨١م ، دارت موقعة حمص حيث تمكن ا لمسلمون بقيادة السلطان قلاوون من دحر المغول بقيادة منكوتمر بن هولاكو شقيق أياقا الايلخان الحاقد يقول الحافظ الذهبى "وكان منكو تمر بن هولاكو قائد جيوش المغول ومعه مائة ألف وكانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نتيجة الحماس الدينى وانكسر المغول وفر منكوتمر من أرض المعركة وركب المسلمون أقفيتهم". (٢)

وهكذا هزم جيش اباقا على كثرتهوعلى الرغم من اشتراك الارمن والكرج وغيرهم من المسيحيين فيه.. فلما رأى اباقا المنهزم قد عاد اليه صرخ فى وجهه" لم لامت أنت والجيش ولا انهزمت ، فمات المسكين غما حيث اعتراه مرض الصرع الذى أصاب ابوه هولاكو وكان ذلك سنة٦٨١هـ (٣) وفى نفس العام توفى أخوه اباقا نتيجة افراطه فى الشراب" (٤).

فاتحة خيـــر :

استبشر المسلمون خيرا بهلاك أباقا فى (١٢٨٢ م ـ ٦٨١هـ) وهى السنة التى توفى فيها أيضا منكوثمربن طغان بن باتو خان القبجاق وكلاهمالم يكن مسلما وكلاهما استمر فى الحكم لمدة تزيد على خمسة عشر عاما . فلما ارتقى احمد تكودار عرش الايلخانية(١٢٨٢ ـ ١٢٨٤م) تنفس المسلمون الصعداء وتأملوا خيرا فيه وفى أيامه.

وقد اختلفت الاراء حول دخول تكودار الاسلام فمن المعروف أنه قد عمد على السنطورية فى صباه وسمى نيقولا وعاش فترة من حياته فى كنف عمه البوذى الخاقان الاعظم قوبيلاى الذى أوفده الى ايران أثناء ولاية أخيه أباقا ليساعده فى محابة اعدائه المسلمين. غير أن هناك رواية لابن تغرى بردى مؤداها " أنه يقال ان اسلامه كان فى حياة أبيه هولاكو، وكان اسمه اولا تكودار وسبب تسميته أحمد هوان الفقراء الاحمدية دخلوا به فى النار بين يدى هولاكو فوهبه لهم وسماه أحمد". (٥)

والرواية تبدو ضعيفة لان الدخول فى النار امر يصعب تصديقه من جهة ولأن هولاكو كان يكره المسلمين من جهة أسخرى فكيف يهب ولده لهم وخصوصا أن الاحمدية كانوا من أهل

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الاول القسم الثالث ص ٦٨٠
ابوا لمحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٩

(٢) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ٣٣٦

(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٤

(٤) المصدر السابق ص ١٦٥

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج٢ ص ٢٥٤، ٢٥٥.

السنة نسبة الى الامام أحمد بن حنبل .

وأغلب الظن أن تكودار كان مسلما قبل ارتقائه العرش فلما انتهى اليه أمر الايلخانية أعلن اسلامه على الملأ . يقول الدكتور عبد السلام فهمى" ولم يكد تكودار يتولى العرش حتى أعلن تحوله للاسلام على مذهب اهل السنة والجماعة واتخذ اسم احمد وتلقب بالسلطان".(١)

وكانت القضية الاساسية أمام تكودار هى سرعة العمل على نشر الاسلام بين المغول واتبع طريق الشدة والعنف أولا ثم التحريض والملاينة بعد ذلكوكان من أثر عمله أن اعتنق عدد كبير من رعيته المغولية الاسلام "(٢) ويقول ابن تغرى بردى" وفى أيامه فشا الاسلام بتلك المماليك (الايلخانية) وأظهر شعائر الاسلام وبنى المساجد والجوامع"وصار يتقيد بالاحكام الشرعية".(٣)

وينقل الدكتور عبد السلام فهمى عن دوسون قوله" وبذل قصارى جهده فى حمل المغول على الدخول فى الاسلام وأسلم على يده كثير منهم بفضل ما منحهم اياه من العطايا والقاب الشرف".(٤)

وهذاالقول يحاول من خلاله صاحبه أن يلمز الاسلام فكأنما يريد أن يقول انه لولا العطايا والالقاب لما دخل احد فى المغول فيه.

موقفه من أهل الأديان الاخرى :

كان تكودار يدرك تماما خطورة أهل الاديان الاخرى فالبوذيون نجحوا فى استقطاب قوبيلاى وهولاكو وأباقا الى البوذية وانتشرت معابدهم فى ايران بصورة أوضح وخصوصا فى عهد هولاكو فكان أن أمر تكودار بهدم الكثير من هذه المعابد وتحويل بعضها الى مساجد فلم يملك رجال الدين البوذيون الأن يختفوا بعيدا عن متناول يده وفى نفس الوقت عملوا على تحريض الامراء المغول والقادة ضده فى الخفاء وحاولوا أن يوغروا عليه صدر الخاقان الاعظم قوبيلاى وهو بوذى مثلهم .

ولم يختلف موقف تكودار مع المسيحيين عن موقفمع البوذيين بل كان اشد حيث أبعدهم عن ديوانه واجبر معظم على دخول الاسلام يقول الدكتور الصياد" وقد ترتب على اسلام تكودار انخلا الديوان من المسيحيين واليهود وحولت المعابد البوذية والكنائس الى مساجد وأجبر كثير من المسيحيين على اعتناق الاسلام".(٥)

وبالاضافة الى ذلك فقد الزم أهل الذمة الغيار وضرب عليهم الجزية(٦)" على حين اتخذ منعظماء المسلمين وعلمائهم اصفياء له دون غيرهم من رجال الديانات .

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٧
عن دوسون: تاريخ المغول ص ٥٥٣
(٢) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلامص ١٢
(٣) يوسف بنتغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج٢ ص ٢٥٤،٢٥٥
(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٧
عن دومسون: تاريخ المغول ص ٥٥٣
(٥) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٠
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج٢ص ٢٥٤،٢٥٥

وبالطبع لم يكن اليهود يشكلون خطورة تذكر ولهذا فان الايلجان المسلم ركز عمله في اتجاه البوذيين والمسيحيين الذين كانوا ولا شك قد ظهروا فى صورة واضحة توثره فى عهد هولاكو واباقا .. والذين لم يكونوا ليتوقفوا بدورهم عن التدبير من أجل اقصاء تكودار وفى اسرع وقت ممكن لانه كان يشكل خطرا داهما عليهم وعلى دينهم

العلاقات الخارجية :

اضطربت علاقات الايلخان تكودار مع عمه الخاقان الاعظم قوبيلاى بسبب اسلامه فقد عاش الايلخان فترة من أول شبابه فى الصين ولعل ذلك ما دفع قوبيلاى الى ارساله الى ايران لمساعدة أخيه اباقا فى صراعه ضد المسلمين فى ايران والقبجاق والتركستان وماوراء النهر بل وفى العراق والشام ومصر. أى الذين كانوايحيطون به من جميع الجهات تقريبا فكان أن خيب تكودار ظنه حين انضم الى المسلمين وناصرهم وعمد الى أهل الاديان الاخرى فقلم أظافرهم وحاصرهم وليس أدل من شدة غضب قوبيلاى أنه وعد أعداء الايلخان بالتدخل لحمايتهم وردع الايلخان على أن ذلك لم يكن أكثر من مجرد تعاطف.

وبالطبع توقفت علاقات البابا ودول غرب أوربا مع الايلخانية على حين اضطربت أمور الارمن والكرج فلم يعرفوا أى الطرق يسلكون مع الايلخان السلم الذى أبدى تعاطفا مع أهل العراق المسلمين حيث أرسل الى بغداد يعلن اسلامه ويدعو أهلها الى السير طبقا للشريعة الاسلامية" (١) وهى بالطبع دعوة الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ويقول الحنبلى "وفى سنة ٦٨١ وصلت رسل احمد بن هولاكو الى بغداد بأنه قد استقر فى المملكة عوض اخيه وأمر ببناء المساجد والجوامع واقامة الشرع الشريف على ما كان فى زمن الخلفاء". (٢)

وكان نص منشوره الى والى بغداد" لقد جلست على عرش أجدادى فخذوا علما أننا معشر المغول مسلمون وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة وقد أمرت أن ترد لى الشعب العراقى جميع النكايا والمدارس والموءسسات الدينية والشخصية التى كانت ملكا لهم واغتصبها عمال ووكلاء أجدادى ، وبلغت نائبى لديكم أن يمشى فى جميع احكامه على مقتضى تعاليم الشرع الاسلامى لان محمدا (صلى الله عليه وسلم) بشرنا بالقرآن الكريم ،ان الدين الاسلامى هدانا لهذا والسلام سيظل قائما وسائدا الى يوم القيامة ولنأمل الاعتقاد بذلك فالحمد لله ا لواحد الأبدى". (٣)

وبالطبع كانت رسالته تلك نموذج لرسائل أخرى بعث بها الى مدن اسلامية أخرى

مصر :

نهضت مصر بعبء الدفاع الاسلام وصمدت فى أول مواجهة عسكرية مع المغول فى عين جالوت . فكان أول انتصار اسلامى حاسم يحققه المسلمون على المغول منذ عهد جنكيز خان.

وبمرور الوقت زالت الرهبة وانقشعت اسطورة جيش المغول الذى لايقهر ونجح قطز وبيبرس وقلاوون فى دحر جيوش هولاكو واباقا وحلفائهم الارمن والكرج وغيرهما فى غرب

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص١٢

(٢) الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ص ٣٧٠

(٣) انور الجندى : الموسوعة الاسلامية العربية ج ٥ ص ٢٢٢

آسيا. وايقن البابا فى روما وملوك غرب أوربا وبخاصة انجلترا وفرنسا أن التحالف المسيحى المغولى لن يصمد طويلا فى مواجهة المسلمين والاسلام.

ورأى تكودار – وقد أسلم – أن يغير سياسة العداء مع المماليك فكان أن أرسل الى السلطان قلاوون رسالة طويلة أوردها المقريزى والقلقشندى وابن العبرى وأهم ما فيها" الالتزام باعلاء الدين واظهاره واقامة نواميس الشرع المحمدى واصلاح امور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة البر وتعظيم أمر الحج واطلاق سبيل التجار والتحريم على العسكر والشحانى فى الاطراف ان يتعرضوا لهم" (١)

وقد رد عليه السلطان قلاوون ردا جميلا وهنأه باسلامه وطلب أن يكون التحالف بين المماليك والمغول ضد العدو المشترك وهم الصليبيون" (٢) كماطلب منه أن يكف يد عامله على بلاد الروم – وهى تابعة لسلطان المغول – عن ايذاء المسلمين ومضايقتهم. (٣).

وبالتأكيد كان لهذا الاتصال أكبر الاثر فى مختلف الاطراف المحيطة بالايلخانية والتى كانت فى حاجة الى مزيد من الوقت لكى تكتشف الخطوات التالية للسلطان أحمد تكودار. الذى بادر فارسل كتابا ثانيا الى السلطان قلاوون فى مصر كشف فيه عن محاولة اصلاح ذات البين مع ابناء عمومته مغول القبجاق فى جنوب روسيا وكذا مغول التركستان . وبلاد ما وراء النهر يقول فيها" ولقد أنفذنا الايلجية (الرسل) الى اخواننا نوقاى أقا (حاكم التركستان من أسرة جغتاى) ، وتودا منكو (خان القبيلة الذهبية بعد بركة) وغيرهما ونهاهم على أن الملك العظيم الذى ادخره لناجدنا جنكيز خان واباؤنا الكرام قد أشرف على شحوب بهجته وبهائه، والان آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح تسكينا للفتن الثائرة وحقنا لدماء المسلمين وسدا لكلمة الدين" (٤).

غير أن هذه الرسالة وصلت الى مصر بعد قتل السلطان تكودار وهى تكشف بلا شك عن نية مخلصة فى خدمة الاسلام وحماية المسلمين .

أثر اسلامه:

كانت فترة ولاية تكودار عامين أو تزيد قليلا وهى فترة قصيرة فى عمر الحاكم والمحكومين غير أنه نجح ولا شك فى عدة جوانب :

أ – نشر الاسلام بين المغول فى ايران وبخاصة بين الجنود وبعض الامراء والقادة وهى بداية طيبة اذا ما قورنت بالنشاط البوذى أوالضغط المسيحى فى عهد هولاكو واباقا.

---

(١) د. محمد ماهر حماده: وثائق الغزو المغولى والحروب الصليبيةص ٣٦٨:٣٧٣ انظر المقريزى: السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٧٧، والقلقشندى : صبح الاعشى ج٨ ص ٦٥ : ٦٨ ، وابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٩:٢٩٢

(٢) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص١٦٩ عن المقريزى: السلوك ج ١ ص٧٧

(٣) د.محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٣٧٣ : ٣٧٩ والمقريزى: السلوك ج١ ق٣ ص٩٧٧ : ٩٨٤ القلقشندى : صبح الاعشى ج٨ ص٦٥ : ٦٨ وابن العبرى :تاريخ مختصر الدول ص٢٨٩–٢٩٦ فيه خلافات كبيرة وكثيرة

(٤) د. محمد ماهر حماده: وثائق الحروب اصلليبية والغزو المغولى ص ٣٧٩:٣٨١ عن ابن عبد الظاهر: تشريف الانام والعصور ص ٦٩:٧١

اعادة الطمأنينة الى المسلمين واصلاح بعض ما خربه المغول فكان اسلامه عاملا هاما فى

ب - استقرار الامور لهم" وبخاصة الايرانيون الذين أحاطوه بكل تقدير واكبار". (١)

تجميد حركة البوذية والمسيحية فى ايران ولوالى حين.

ج - وقف حدة التوتر بين المغول فى ايران وبنى جلدتهم فى القبجاق والتركستان وبـــلاد

د - ما وراء النهر ومحاولة اصلاح ذات البين .

اجراء الصلح مع المماليك فى مصر والشام.

هـ - تجميد العلاقات مع المسيحيين فى غرب اسيا وأوربا الغربية.

و - وبالاضافة الى كل ذلك فقد كان اسلامه عنوانا على تهذيب طباعه وتقويم خلقه فقد غير

- الى حين - صورة المغولى الذى جعل همه سفك الدماء وتخريب البلاد .

رأى غريـــب :

يقول لادكتور - محمد موسى هنداوى " ولم تمتد الحياة بالسلطان احمد تكودار فقتل بعد عامين من حكمه سنة٦٨٣ هـ وقد فشل فى سياسته من جميع النواحى فلم يوفق فـــى ايقاف الحرب بينه وبين المصريين مع هذا التحول الجديد، ولم يفكر فى بسط سلطان هـــذا الدين وجعله دينارسميا فكان اسلام السلطان أحمد وحده دون أن يحكم هذه الحركة أو ينميها باعثا على الثورة عليهوانتهى الامر بأن اتفق جماعة من الامراء - وأبناوءه من بينهم - مـــع أورغون خان وقتلوه". (٣)

ويمكننا أن نلاحظ على هذا الرأئ اعتبارات عديدة :

أ - اطلاق حكم عام على سياسة تكودار بأنها فاشلة من جميع النواحى فيه كثير من الظلـــم واجتناب الحيدة التاريخية بلا مبرر واضح .

ب - الزعم بأن ا لحرب لم تتوقف بين تكودار والمصريين فيه مخالفة للواقع التاريخى فلــم يحدث اى اشتباك عسكرى بين المغول والمماليك فى فترة ولاية تكودار القصيرة.

ج - انكار جهود تكودار فى نشر الدين الاسلامى بين المغول فى ايران وهو ما أشار اليــه الكثير من الموءرخين القدامى والمحدثين والاصرار على أن تكودار هو الذى أسلم وحده فيه كثير من التجنى والمخالفة للحقيقة.. هل يرى صاحب الرأئ السابق أن تكـــودار كان عليه أن يصدر قرارا او أمرا يقول فيه ان الدين فى ايران هو الاسلام؟ ذلـــك ما لم يفعله أحد من قبل فهولاكو أو ابنه اباقا لم يصدرا قرارا ينص على أن البوذيـــة هى الدين الرسمى فى ايران . لان الاديان لا تستمد وجودها من قرار الحاكم وانما من نصوصها الشرعية واعتناق الناس لمبادئها وتطبيقها .وبالاضافة الى كل ماسبق كانـــت الغالبية العظمى فى ايران كماهو معروف من ا لمسلمين بل كان الوزراء ورجـــال الادارة مسلمين أيضا. أى أن الايلخانية لن تخرج مهما طال الوقت عن الدخول فى الاسلام وهذا ماحدث فعلا منذ عهد الخان المسلم محمود غازان.

---

(١) . عبد السلا م فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٨

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٦٨

(٣) د. محمد موسى هنداى : سعد الشيرازى ص ٧٠

أما الثورة على تكودار والاطاحة به فهى – فى رأيى – اجراء سياسى استغل اسلام تكودار وتعلل به لا أكثر.

والدليل على ما نقول ان تكودار قد عاش فى الصين فترة من حياته ولم يشترك فى الصراعات العسكرية التى خاضها أخوه الاكبر اباقا ضد المسلمين والتى جلبت على المغول رياح الهزيمة والقهر والخذلان وكانت هناك شخصيات أخرى مرشحة لخلافة أباقا على العرش منها أخوه منكوتمر وابنه ارغون. يقول الدكتور عبدالسلام فهمى " كان امراء البيت المالك المغولى فى ايران وقادة الجيش فى أواخر عهد أباقا خان فى خلاف دائم على السلطة وانقسموا الى ثلاثة مجموعات مجموعة ترغب فى تنصيب الامير ارغون بن أباقا ومجموعة أخرى تتعاطف مع تكودار وتؤيد سلطنته على اساس أحقيته بالملك طبقا لاحكام الياسا الجنكيزخانية التى تنص على أن يتولى العرش اكبر الامراء الاحياء سنا، ومجموعة تتزعمها أولجاى خاتون زوجة اباقا وكانت ترغب فى تنصيب أخيه منكوتمر بن هولاكو وعمل كل فريق منهم فى الخفاء وفى سرية كاملة للوصول الى هدفه وكان أباقا نفسه يريد أن يخلفه على العرش الايلخانى ابنه اغون". (١)

خلاصة الامر أن تكودار تولى بموجب ما تنص عليه الياسا ورغما عن أخيه المتوفى أباقا وزوجته اولجاى وابن اخيه ارغون . كل هذا وتكودار لم يكن قد اعلن اسلامه بعد.

أما أخطاء تكودار فى هذا المجال فيمكن الاشارة الى بعضها :

أ – استخدامه للعنف أول الامر فى اجبار المغول على دخول الاسلام مما أزكى لدى بعضهم وخصوصا الامراء والقواد من أتباع اباقا وابنه ارغون العناد والرغبة فى مقاومة الدين الجديد الذى اختاره لهم الايلخان المسلم.

ب – الاقدام على هدم العديد من الكنائس ومعابد البوذيين اتاح لاصحابها فرصة الظهور بمظهر المستضعفين الذين لا حامى لهم سوى الاماء والقواد المغول أى أنهم غدوا عنصر دس واثارة

جـ – اغداقه الاموال على الامراء حتى أنه وهب الجزء من خزائنه الى اخوته وأقربائه وقادة الجيش المغولى ولم يستثن من ذلك منافسة على العرش الايلخانى ارغون ابن أخيه اباقا" (٢)

٤ – اغفاله أمر أرغون خصمه اللدود وترك امور خراسان بيدهوهى حكم موقعها مركز ممتاز لاعداد الجيوش وتجميع الانصار واستقبال امدادات الخاقان الاعظم عبر البحر فى الجنوب.

بقى ان نقول انه لم يكن لدى الايلخان أحمد تكودار ابناء فى سن يسمح لهم بالمشاركة فى الامور السياسية كما يقول الدكتور هنداوى اذ لم أعثر فى أى من المصادر أو المراجع ادنى اشارة الى هؤلاء الابناء الذى قتلقبل أن يصل الى سن الاربعين على ما يبدو .

غاية الامر أن الظروف لم تسنح لهذا الرجل المسلم ان يستمر فى اداء دوره.. كما أن خصومه قد نجحوا فى التجمع ضده متعللين باسلامه وتفضيله تعاليم القران الكريم على الياسا قانون جنكيز خان. يقول ابو الفدا "وكانت خواطر المغول قد تغيرت على أحمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالاسلام فاتفقوا على قتله فلماقتلوه ملكوا مكانه ارغون بن اباقا". (٣)

---

(١) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٦٦

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٦٨

(٣) ابو الفدا : تاريخ المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٧

نعود الى الوثنية :

تمكن أرغون بن أباقا من التخلص من عمه المسلم أحمد تكودار بمعاونة الحاقدين من الامراء والقادة المغول حيث قام باعدامه عام ٦٨٣ هـ /١٢٨٤م . وبدأ عهد جديد من اضطهاد المسلمين ومحاربتهم فارغون كان بوذيا متمسكا ببوذيته برغم تشجيعه الحار للمسيحيين واليهود فاتاح لهم حرية مزاولة نشاطهم السابق .

وفى عهده الذى امتد لمدة سبع سنوات (٦٨٣هـ/٦٩٠هـ) (١٢٨٤- ١٢٩١م) عادت الى الظهور المحاولات المستميتة لدعم التحالف بين المغول والمسيحيين ضد المسلمين .

وأقدم ارغون على خطوة بشعة اكدت كراهيته للمسلمين ورغبته فى التخلص منهم حيث جرت مذبحة اعدام أسرة الجوينيين جماعة . ذلك أن شمس الدين الجوينى كان وزيرا مخلصا للايلخان السابق أحمد تكودار وعمل اثناء ذلك على تعمير ماخربه المغول فى ايران وعلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الامان والاستقرار للمسلمين فى مختلف أرجاء الايلخانية. فلما سقط الايلخان واعدم اتجه ارغون الى التخلص من الجوينى واسرته وكل من يتصل به فاتى بذلك عملا غير انسانى على الاطلاق .

ولم يتوقف ارغون عند هذا الحد بل حرم على المسلمين ان يشغلوا المناصب العامة فى الدولة كالادارة المالية والقضاء بل ومنعهم من الظهور فى البلاد الايلخانى .

وأغلب الظن أن تولية سعد الدولة اليهودى لمنصب الوزارة فى عهد أرغون - على مهارته - انما كانت نكاية فى المسلمين قبل أى شئ .

ورأى هذا الوزير الماكر ان يتجنب سخط المسلمين فى بداية الامر فأقر بأن يجرى النظر فى قضايا المسلمين وفقا للشريعة الاسلامية وزاد فيمايرصد من الاوقاف على الاعمال الخيرية وشجع العلماء والادباء". (١)

فلما بدأ يأمن جانب المسلمين بدأ يخطط ضدهم مستغلا كراهية الايلخان أرغون الشديدة لهم وبدأ بأن ولى اخوته وأقاربه أهم المناصب الادارية فى الايلخانية ثم أسفر عن وجهه الحقيقى ونواياه العدوانية نحوا لمسلمين فكان أن أوعز الى اغون بان يهدم الكعبة وأن يجعل مكانها معبدا بوذيا . ثم حاول أن يدفع ارغون الى القضاء نهائيا على المسلمين تماما كماحاول أباقا نتيجة للدس المسيحى أن يوعز الى الخاقان الاعظم قوبيلاى بالقضاء على المسلمين فى الصين فكان أن أوعز الى أرغون أن المسلمين يرفضون الاعتراف بالنبوة التى الت اليه عن طريق جدة جنكيزخان .

ولم يسعف الاجل سعد الدولة أو ارغون فقد مرض الاخير ودنت أيامه فسارع الامراء المغول وقادة الجيش الى سعد الدولة فأجهزوا عليه من جراء ماناال بعضهم من الاذى بفعل تسلطه وتحريض الايلخان على بعضهم وجمعه لمختلف السلطات الادارية والمالية فى الايلخانية فى يده وتجاهله لهم احيانا على أننا ينبغى أن نقدر ان قسوة الاجراءات التى اتخذها ارغون كانت تعكس فى الجانب الاخر توجسه الشديد من سريان الاسلام بين المغول فى ايران ذلك أن ما بذله الايلخان المسلم أحمد تكودار فى فترة ولايته أدى بالتأكيد الى لفت انتباه المغول فى ايران الى عظمة هذا الدين الذى ظل صامدا ببساطته وشموخه وحضارته رغم انحسار

---

(١) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٣٠٨

القوة العسكرية للمسلمين عنه. فاثبت بحق أن يستمد قوته من ذاته أيا كانت الظروف حوله.

وتولى كيخاتو الحكم خلفا لارغون خان فكانت فترتولايته (٦٩٠-٦٩٤هـ) (١٢٩١-١٢٩٥م) حافلة بالمشاكل الداخلية فى ايران - كاصدار العملة الورقية (الجاد) لمحنة القحط العام الذى نجم عن انقطاع سقوط الامطار وانتشار الجفاف "وتعرض ايران ضده فى خراسان بقيادة حاكمها "ايبارجى بن منكوتمر" وكذلك اندلاع ثورة أخرى الثورة قام بها التركمان واليونانيون فى بلاد الروم فاضطر كيخاتو الى التوجه اليهم بنفسه وهزمهم بعد قتال عنيف استمر عشرة أشهر". (١)

وبالاضافة الى ماسبق كان كيخاتو نفسه منغمسا فى ملذاته وشهواته الشاذة مما أثار عليه أمراء المغول وقوادهم فقتلوه من جراء فسقه بنسائهم وأولادهم.

وفيمايتعلق بموقف كيخاتو من المسلمين فانه على الرغم من محاولاته تدعيم التحالف العقيم بين المغول والمسيحيين ضد المسلمين الا أنه على المستوى الداخلى كان يتخذ سياسة المصانعة مع المسلمين وعليه هذا فقد أعفى العلماء المسلمين وذرية النبى (صلى الله عليه وسلم) من دفع جميع الضرائب على اختلافها كما أن الاوراق المالية التى أصدرها كانت اسلامية فى مظهرها وكان على وجهى كل ورقة منها يوجد نقش التشهد الاسلامى وهو" أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله". (٢)

ومن خلال هذه الظروف مجتمعه لم يجروء كيخاتو على القيام بأى مواجهة عسكرية ضد المماليك فى مصر والشام وكتفى بأن ارسل الى السلطان الاشرف خليل بكتاب يطلب فيه منه أن يعيد له حلب لانها مما فتحه ابوه هولاكو وهو يريد الاقامة فيها وان رفض السلطان ذلك اخذ منه الشام كله فأجابه السلطان بمايلى" قد وافق القان ما كان فى نفسى، فانى كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله، فانى أرجو أن اردها دار اسلام كما كانت وسينظر اينا يسبق الى بلاد صاحبه." (٣)

ورغم هذا التحدى فلم يحرك كيخاتو ساكنا على الرغم من أن علاقاته بجيرانه المسلمين من خانية القبجاق كانت هادئة وكذلك الحال مع مغول التركستان وبلاد ما وراء النهر.فلعله اثر السلامة والتفرغ لمشاكله الداخلية ورغباته الشخصية وأنى له غير ذلك ونجم المماليك العسكرى يرتفع يوما بعد يوم وانتصاراتهم على هولاكو واباقا لم تزل بعد ماثلة فى الاذهان كما وأن المسيحية فى الغرب قد بدأت تلوح عليها بوادر اليأس من امكانية تحقيق شيءما ضد الاسلام او المسلمين .

وعقب مقتل كيخاتو ولى الامر خصمه بايدو بن طواغان بن هولاكو وبرغم أن العداء بينهما تسبب فى مقتل كيخاتو ووصول بايدو الى عرش الايلخانية الا أنهذا الاخير لم يخرج عن نفس سياسة خصمه كيخاتو من مصانعة المسلمين ومدارتهم" فهو على الرغم من لبسه الصليب فى عنقه كان لايجسر على اظهار عطفه على المسيحيين بل كان يحاول مرضاة المسلمين ولذلك نجده يرسل ابنه ليصلى معهم كمايصلون وعلى كل حال فانا لموءرخين قد أجمعوا

---

(١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٢

(٢) د.مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٣

(٣) د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٣٨٣

على هذه الحقيقة وهى أن كثير من المغول اعتنقوا الاسلام فى عهد بايدو وأصبحوا يـــؤدون فروضه". (١)

فاذا قدرنا أن فترة ولاية بايدو لم تستغرق أكثر من سبعة شهور ادركنا أن ماحدث فى عهد بايدو انما كان نتيجة لماحدث فى عهد الايلخان المسلم تكودار وخصوصا أن ماحـدث الدينى لايمكن أن يتم فجأة أى بين عشية وضحاها يقول أنور الجندى" تحول المغول تحولا بطيئا نحو الاسلام بعد حملات عاطفة ضارية لاحدود لضراوتها فى القتل والتدمير". (٢)

وفى الحقيقة فان دخول مغول ايران فى الاسلام بدأ فعلا فى عهد تكودار وأخذ ينمو بقوة برغم وفاة تكودار وتولى اعدائه من البوذيين السلطة .. وهذا مايعكس بقوة عظمة الاسلام ومدى قدرته على التأثير منفردا دون سلطة تحميه أو جيش يدفع عنه الاذى .

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان انتصار اعداء الاسلام على الايلخان أحمد تكودار لـــم يكن انتصارا حاسما ضد الاسلام فى ايران وعلى الرغم من أن خلفاء الايلخان أحمد تكـودار هم ارغون وكيخاتو وبايدو عاونوا المسيحيين وعطفوا عليهم فان الاسلام سار فى طريقه بخـــطا حثيثة وكثر عدد المسلمين باطراد بين مغول ايران" (٣) فقد أخذ الاسلام يناضل حفاظا على كيانه ضد هجمات البوذية والمسيحية و جدير بنا أن نلاحظ هذا التطور الدينى الذى أصـاب المغول المقيمين فى ايران بينما كان مقتل تكودار يرجع سببه جزئيا الى حبه للاسلام فـان مقتل" بايدو " بعد اثنتى عشرة من هذا التاريخ يرجع الى حد كبير الى بغضه للاســــلام وحبه للمسيحية وتفضيلها عليه. (٤)

محمود غازان :

يعتبر غازان اشهر حاكم مغولى .. بعد هولاكو ــ اعتلى عرش ايران ولقد كانـــت نشأته الدينية مزيجا غريبابين البوذية والمسيحية معا فالبوذية كانت ديانة آبائه وأجــــداده الاقربين والتزم بها كل ايلخانات ايران عداتكودار والمسيحية كانت ديانة نساء القصور فـــى الايلخانية وبخاصة زوجات الايلخانات.

وأوشك غازان ان ينتصر فى مطلع حياته على يد الاميرة البيزنطية المسيحية دسبينـــا زوجة اباقا جد غازان لولا ان أباه ارغون قد أرسله الى خراسان تدريبا له على شئون الحكم والادارة.

وهناك تلقفه الدعاة البوذيون وانعكس اثرهم عليه بوضوح فقد كان يجلس معهم ويصادقهم ويتناول طعامهم وقام فعلا ببناء بعض المعابد البوذية فى خراسان .

فلما تولى بايدو خان عرش الايلخانية هب غازان فى وجهه مطالبا العرش وكان ساعده

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤
(٢) انور الجندى : الموسوعة العربية الاسلامية ج ٥ ص ٢٢٧
(٣) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٢
(٤) د. جرانفيل براون: تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٦
عن دوسون: تاريخ المغول ج ٣ ص ٦٠٨، ج ٤ص ١٤١

الايمن فى ذلك قائد جيوشه الامير نوروز الذى كان مسلما يقول الدكتور مصطفى طه بدر" وقد اعتنق غازان الاسلام بتأثير قائده (نوروز) الذى وعد غازان بمساعدته واشترط عليه أن يعتنق الاسلام ويذكر صاحب كتاب روضة الصفا أن نوروز قال لغازان " ان أملى كله ينحصر فى أن أجلس بمشيئة الله الامير خادم السماء على عرش العالم وأن أرفع بايدو الكافر عن هذا العرش ويشترط لذلك أن يتقلد الملك قلادة الاسلام.(١)

ولا ينبغى أن نفهم من ذلك أن غازان دخل الاسلام مقيدا بهذا الشرط او أنه وازن بين العرش الايلخانى مع الاسلام ى كفوبين البوذية مع الحرمان من العرش فى كفه أخرى فاختار العرش بما فيه الاسلام ذلك أن غازان كان يتمتع بشخصية قوية ومهابة لا تسمع بأن يملى عليه أحد أيا كانت مكانته شروطا - كما أنه كان - فيما يتعلق بالوصول الى العرش - مؤمنا أن باستطاعته ومن خراسان أن يصل الى عرش الايلخانية تماما كمافعل أبوه مع اختلاف بعض الظروف.

ولعل قول الامير نوروز كان من باب تنبيه غازان الى أن الاسلام هو أحق الاديان التى ينبغى عليه أن يلتزم به دون غيره .

وعلى هذا فانى أميل الى القول بأن اسلام غازان كان استجابة للجو الاسلامى العام المحيط به فى ايران فكثير من المغول قد دخلوا الاسلام من قبل طائعين مختارين منذ أيام الايلخان الراحل احمد تكودار وازدادت اعدادهم فى عهد كيخاتو وبايدو زيادة مطردة.

كذلك لم تكن هناك قوة تستطيع أن ترغم غازان بعد اعتلائه العرش الايلخانى على الاستمرار فى الاسلام وبخاصة بعد وفاة الامير نوروز وبصفة عامة فانه من المعروف أن غازان لم يرجع عن اسلامه مطلقا منذ أسلم الى أن توفاه الله .

كيف أسلم غازان ؟

وجب علي غازان وقد دحر قوات خصمه بايدو وصار أمر الايلخانية اليه أن يفى بوعده الذى قطعه على نفسه مختارا طائعا يقول الديار بكرى " دخل غازان بن أرغون الاسلام وتلفظ بالشهادتين باشارة نائبه نوروز ونثر الذهب واللؤلؤ على الخلق وكان يوما مشهودا ثم لقنه نوروز شيئا من القرآن"(٢).

ويقول الدكتور عبد السلام فهمى " وقد تم ذلك كله بناحية (لار) فى دوماند فى شهر شعبان سنة٦٩٤هـ ١٩ يوليو ١٢٩٤م حيث بدأ بدخول الحمام والاغتسال تطهيرا لنفسه وبدنه من رجس الشرك وفعل الشيطان ثم لبس رداء اسلاميا ونطق بالشهادتين على يدى الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن العارف وذلك فى مجلس كبير(٣) ثم أقيمت حفلة فى منزل ريفى حيث وقف غازان فى أسفل عرش اقيم له وجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويتبركون به

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٥

(٢) الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٨١
الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ص ٣

(٣) د.عبدالسلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٢
عن ابن حجر العسقلانى:الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج٣ ص ٢١٢

ويزعجون بالاصوات من كثرة الفرح وارتفع هوعلى كرسى وبقى ا لناس تحته يفعلون مايفعلون من اللعب والفرح وهوينظر اليهم ويضحك .(١)

وأيا كان الخلاف بين الروايات حول اسلام غازان فان هناك حقائق لاخلاف عليها :

أ - أن غازان أسلم عن اقتناع تام لاتختفى وراءه أية أهداف أخرى.

ب - أن اسلام غازان تم على مقتضى الشرع الاسلامى الحنيف فقد بدأ بالاغتسال الواجب فى حالة الانتقال من الكفر الى الاسلام.

جـ - انه نطق بالشهادتين علنا أمام جمع حاشد حضره الكثير من ا لمغول.

د - ان المسلمين قابلوا اسلام غازان بفرح شديد وسعادة غامرة .

نمو الشخصية الاسلامية :

أقبل غازان على الاسلام بقلب مفتوح وعقل يستوعب فتعلم من الامير نوروز بعض آيات من القرآن الكريم كما تعلم الصلاة وصام رمضان كله سنة٦٩٤هـ وكان يتناول معه طعام الافطار كل مساء كثيرون من الترك والفرس(١) وكذا اتباعه من المغول .

ولعل ذلك يؤكد أنغازان قد بدأ يتحرر بصورة عملية من عنصرية المغول الذين كانوا لا يقبلون أن يتعامل معهم على درجة مساوية .

كذلك كان غازان أول من يؤدى فريضة الصلاة فى الجوامع من سلاطين المغول فيحذو حذوه الامراء والصدور وجمهرة الشعب المغولى"(٢).

وبالاضافة الى ذلك عمل غازان على تشجيع الناس على تأدية فريضة الحج وخصص الاعتمادات المالية الكبيرة لشئون ذلك وأصدر فى سنة ٦٩٩ هـ مرسوما فرض فيه للسادة والائمة وخدام الكعبة حقوقهم وعين أحد الامراء قائدا عاما لقوافل الحج وسير للمحافظة عليهم حرسا مؤلفا من ألف فارس بضباطهم وخيولهم وأعلامهم كذلك أرسل غطاءا للكعبة مطرزا بجميع القابه ومخملا ملكيا".(٤)

وأخذ غازان يسنحوفى توزيع الصدقات ويقال انه كان يوزع فى كل سنة عشرين تومانا أى مائتى الف دينار وصار ينفق بسخاء على الزهاد والعباد والسادات الذين وجدوا فى بلاطه ترحيبا ، كما أمر بتشييد دور العبادة وترميم مقابر الشيوخ والائمة المتهدمة نتيجة الغزو المغولى الاول .(٥)

ولعله من الملفت للنظر والاعجاب أن استمر غازان يدعو الى الاسلام بنفسه وبخاصة فى المناسبات الدينية حيث كان يقف موقف الواعظ والمرشد والمعلم من المغول يخاطبهم بالمغولية ويشرح لهم كتاب الله وسنة رسوله والاداب الاسلامية حتى هداهم الله على يديه"(٦)

---

(١) د.مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٧:١٩

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٠
الدياربكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٨١

(٣) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٦٩

(٤) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٨

(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٢

(٦) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٢

وهكذا يمكننا أن نقول ان اسلام غازان كانت نقطة تحول خطيرة فى حياة المغول فى ايران ، ذلك التحول الذى طرأ على حياة المغول عمليا منذ اللحظة الاولى التى أعلن فيها اسلامه. يقول الديار بكرى" وفشا الاسلام فى المغول". (١)

وأول من أسلم من المغول عدد كبير من ضباطه يقدره البعض بعشرة آلاف ويقدره البعض الاخر بمائة ألف" (٢) وايا كانت صحة الرقم فمن المؤكد أن نسبة كبيرة فى جيش غازان قد أسلمت معه .

وكذلك دخلت القبائل المغولية فى الاسلام على أثر دخول غازان فيه فقد حذت هذه القبائل حذو هذا الايلخان العظيم فكان أن اعتنقت بدورها الاسلام". (٣)

وفى الحقيقة كان غازان يسعى لاعادة الاسلام الى مركزه الطبيعى الذى كان يشغله قبل الغزو المغولى الصارم فعمل على أن تظهر السمة الاسلامية فى مختلف الامور التى تتعلق بالدولة فسار على النحو التالى :

أولا : اعلن الاسلام دينا رسميا للدولة لأول مرة. (٤)

ثانيا : أصبحت العمامة الاسلامية زى البلاط الرسمى.

ثالثا : افتتحت الاوراق الرسمية باسم الله العظيم والرسول الكريم" (٥)

رابعا : اتخذ غازان أعوانه من الوزراء والقواد من الاغلبية المسلمة ومن هؤلاء نوروز وصد جهان ورشيد الدين الهمذانى ، وسعد الدين الساوجى". (٦)

خامسا : قصر الوظائف العامة فى الدولة على المسلمين دون غيرهم .

موقفه من أهل الاديان الاخرى :

كان البوذيون والمسيحيون وغيرهم من أهل الاديان الاخرى قد انتابهم الرعب من جراء اعتناق الايلخان أحمد تكودار الاسلام واتخاذه موقفا حاسما فى تأييد الدعوة الاسلامية وتحسين علاقاته مع المسلمين خارج الايلخانية. فلما قتل تكودار فرح هؤلاء فرحا غامرا على حين اصاب المسلمين ضرر كبير وبخاصة فى عهد ارغون كما أسلفنا القول.

وحدث أن تولى غازان الحكم وارتضى الاسلام دينا فعادت مخاوفهم تظهر من جديد - وفى الحقيقة فان غازان التزم سياسة سلفه تكودار فأمر بالزام جميع المغول فى المملكة بالدخول فى الدين الاسلامى وبتحويل جميع دور العبادة غير الاسلامية الى مساجد وبالزام أهل الذمة العيار تمييزا لهم عن غيرهم.

---

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٨١
الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ٣

(٢) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٢٠

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٥، ٤٦

(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٦

(٥) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٤٦

(٦) نفس المصدر السابق ص ٣٨

وأمام هذه الاجراءات الحاسمة أخذ المد المسيحى الذى كان نشط قبله يزوى ويندثر رغم أن غازان ظل على صلة بالبابوات والملوك فى الغرب المسيحى". (١)

وعلى هذا فقد وضع غازان بهذا التحول حدا لسياسة العطف على الاقلية المسيحية وتجاهل الاغلبية الاسلامية تلك السياسة التى كانت متبعة فى عهد الايلخانيين الوثنيين الأول". (٢)

ويصف الدكتور جرانفيل براون نتيجة موقف غازان من المسيحية فى ايران " وقضى نهائيا على أمل تردد فى نفوس المسيحيين بأن يكسبوا الى جانبهم المغول وأن ينجحوا فى جلبهم الى حوزة المسيحية ومعتنقيها حتى يتمكنوا من القضاء على الاسلام القضاء الاخير الذى لابعث بعده". (٣)

وبالطبع فان اليهود — وقد استفادوا من الدرس الذى لقنوه بعد مقتل الوزير اليهودى سعد الدولة فى نهاية حكم ارغون — اثروا السلامة واكتفوا بالتقوقع والعزلة منتظرين ما سوف تسفر عنه الاحداث .

أما البوذيون والذين كانوا يلوحون دائما بأنهم هم الذين نجحوا من التخلص من السلطان المسلم أحمد تكودار فما كان لهم أن يسكتوا عما يجرى حولهم فعمدوا الى تحريض بعض الامراء المغول الى اعلان الثورة ضد غازان وبالفعل رفع جماعة من هؤلاء الامراء بزعامة "سوكاى بن يشموت بن هولاكو" رآية الثورة وتعصبوا للمذهب البوذى وحاولوا جمع المغول الذين لم يسلموا بعد فى صفهم كما اتصلوا بمن أسلم من المغول يثنونه عن دينه الجديد فكان نصيبهم الاعدام بعد فشل مؤامرتهم" (٤) ونهض الامير نوروز بمهمة التخلص منهم واعادة الامر الى ما كان عليه .

وحدث أن تدخل غازان بشكل حاسم ضد البوذيين فقد أمر فى ٧٠٠هـ/١٣٠٠م كهنة المغول الذين يقيمون فى ايران ان يعتنقوا الدين الاسلامى أو أن يتركوا ايران والا أمر بقتلهم والقضاء عليهم". (٥)

وهكذا بدأت الامور تستقر فى صالح الاسلام والمسلمين ،وتلاشت نهائيا أحلام غير المسلمين فى اجتذاب المغول الى حوزتهم .. حينما عاد غازان الى سياسة التسامح الدينى وحماية رجال الدين على اختلاف مذاهبهم . فدل بذلك على تحضر وسعة أفق واستقرار فى الحكم.

علاقاته مع بنى جلدته :

ادى اسلام غازان الى ضرورة اعادة النظر مع جيرانه من المغول وفيما يتعلق بمغول القبجاق فقد ظلت العلاقات هادئة تماما اذ لم تحدث أية مواجهات عسكرية بين الطرفين

---

(١) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٢٠
(٢) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٧٥
(٣) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٢
(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٥
(٥) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٦ عن دوسون : تاريخ المغول ج ٤ ص ٢٨١

فلعل مغول القبجاق رأوا فى اسلام غازان ومن معه من المغول فرصة لتحسين العلاقات التى تعرضت للاضطراب كثيرا أيام هولاكو واباقا.

أما مغول التركستان وبلاد ما وراء النهر من أبناء جغتاى من جنكيز خان فلم تكن علاقاتهم مع غازان على نفس النمط فقد وقعت بينهما مواجهتان عسكريتان غاية فى الخطورة.

الاولى : وقد وقعت فى مطلع ولاية غازان الذى كان مشغولا بالقضاء على بعض الثورات الداخلية حيث انتهز مغول ما وراء النهر فرصة عدم وجود قوات ايلخانية كافية فى خراسان فاغاروا عليها بقيادة أوجاى بن براق)خان ودمروا المنطقة تماما ووصلوا الى حدود اقليم مازندران بل واقتربوا من العاصمة تبريز فتصدى لهم الامير نوروزو وتمكن من انزال هزيمة ساحقة بالمغول الثورانيين وأجبرهم على الفرار الى بلاد ما وراء النهر". (١)

الثانية : وقد جرت عقب عودة غازان من حملته على الشام حيث استغل الجغتائيون فرصة غيابه هناك فانقضوا على خراسان وأحدثوا بها كثيرا من التدمير" فسارع غازان بالعودة الى ايران حيث نهض الى محاربتهم وتمكن من السيطرتعلى الموقف وطرد المعتدين من بلاده ففروا الايلون على شئ ولم يكتف بذلك بل تعقبهم فى ديارهم وبدد جموعهم" (٢)

غير أننا لانستطيع أن نقول أن هذه المعارك كانت ذات صبغة دينية وانما هى - على الارجح - امتداد للصراعات السابقة التى جرت فى عهد هولاكو وأباقا.

نزع التبعية للخاقان الاعظم :

يعتبر غازان خان أول ايلخانات ايران الذين تزعوا عن أنفسهم ميز التبعية السياسية للخاقان الاعظم . وكان هولاكو خان وابنه اباقا وغيرهما من ايلخانات ايران يعتبرون انفسهم نوابا تابعين له فلما ارتقى غازان العرش واستتب له الامر واسلم أعلن استقلاله وأفرد نفسه بالخطبة والذكر" (٣) وأمر كذلك ان تسك العملة المعدنية باسمه فقط فلعله كمسلم قد أبى على نفسه أن يظل تابعا لرجل وثنى ولو كان الخاقان الاعظم المغولى .. أى أننا يمكننا ان نقول ان هذا الفصل انما هو من جراء اسلام غازان والتزامه بتعاليم الدين الاسلامى . يقول الدكتور براون : ومما لا شك فيه أن الامور تحسنت كثيرا عندما ترك أعقاب(هولاكوخان) سفى ايران معتقداتهم الوثنية واعتنقوا الدين الاسلامى فقد كان هذا سببا فى انفصالهم نهائيا عن ذوى قرباهم من أهل (قراقورم) وذلك أن الصلات التى كانت تربط الايلخانيين فى ايران ، بأباطرة المغول فى مواطنهم الاصلى اخذت تنفصم وتتلاشى". (٤)

هذا - ولقد ظل خلفاء غازان ملتزمين بهذا الاتجاه الى أن زالت دولة المغول هنا وهناك.

---

(١) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٥
(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٠٥
(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة لمن بعد المائة السابعة ج ٣ ص ٢١٣
(٤) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايان ص ٥٦٤،٥٦٦
عن دوسون : تاريخ المغول ج ٣ ص ٦٠٨

صراع بلا جدوى :

كان من المتوقع وقد أسلم غازان والتزم سياسة سلفه الايلخان المسلم أحمد تكودار ان يعمل على تحسين علاقته مع المماليك الا أنه لم يستطع التخلص من عقدة العداء الموروث ضد مماليك مصر فكان أن استمر على مداومة الاتصال بالبابا وملوك غرب أوروبا المسيحيين .

على أننا لاينبغى أن نفسر سوء العلاقات بين غازان والمماليك على أنه قضية دينية فكلا الطرفين كان من المسلمين السينيين وانما الحقيقة أنه كان خلافا سياسيا وصراعا على مناطق النفوذ فى الشام.

فغازان - كما ذكرت - لم ينس أن المماليك هزموا أجداده هولاكو وأباقا وأن أباه أرغون وقف حيالهم عاجزا تماما. كذلك لم يقبل غازان ان يستمر المماليك مهددين لحلفاء المغول التقليديين وخصوصا فى الاناضول وآسيا الصغرى .

ومن هنا كانت الحرب واقعة بين الطرفين لامحالة على أن غازان قد بعث رسالة الى السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ هـ قبل هجوم المغول على بلاد الشام نوجز منها قوله" اننا وأنتم أهل ملة واحدة وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره وسبب ذلك أن بعض عساكركم اغاروا على ماردين وبلادها فى شهر رمضان المعظم وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله فأتانا أهل ماردين مستغيثين بالاطفال والحريم فركبنا على الفور بمن معنا فمزقناكم كل ممزق ثم لما رأينا الرعية تضرروا بمقامنا فى الشام لمشاركتنا لهم فى الشراب والطعام وما حصل فى قلوب الرعية من الرعب عند مشاهدة جيوشنا التى هى كطبقات السحاب فلنرجع الان فى اصلاح الرعايا ونجتهد نحن واياكم على العدل فى سائر القضايا فقد تعذر سفر التجار وتوقف حال المعايش ونحن نعلم أننا نسأل امام الله عن ذلك ونحاسب" (١)

ويبدو أن هذه الرسالة كتبت مباشرة عقب موقعة مجمع المروج سنة ٦٩٨هـ التى انتهت بهزيمة المصريين المفاجئة امام غازان.. وتحتوى هذه الرسالة على عدة نقاط أساسية :

١ - استنكار مهاجمة قوات المماليك لماردين فى شهر رمضان وما فعلوه بها .
٢ - استجابة غازان السريعة لاستغاثة أهل ماردين المستضعفين .
٣ - النصر الباهر الذى حققه المغول فى هذه الموقعة .
٤ - مغادرة المغول للشام تخفيفا عن أهلها فى المؤنة والعبء النفسى.
٥ - طلب اجراء الصلح مع المماليك حتى يتحقق النفع العام لجميع المسلمين.

وبالاضافة الى ما أوردناه مختصرا من هذه الرسالة فهناك الكثير من الايات القرآنية التى استشهد بها غازان وجعلها دليلا على صدق رؤيته للامور .

وقد رد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون على رسالة غازان السابقة برسالة مماثلة طويلة اخترنا منها قوله " علمنا ما أشار اليه الملك ونحن تحققنا ان الملك بقى عامين تجمع الجموع وينتصر بالتابع والمتبوع واعتضد بالنصارى والكرج والارمن وتظاهر بدين الاسلام

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٦ : ١٣٩.

والباطن بخلاف ذلك. حتى ظن جيوشنا وأبطالنا أن الامر كذلك فلهذا حصل منهم الفشل وبتأخرهم عن قتالكم حصل ماحصل ، وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك والحرب سجال يوم لك ويوم عليك ، وان الذى جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفى عنك وليس هذا هو فعل المسلمين ولا من هو يتمسك بهذا الدين واخبيناك فى دنياك وأخراك". (١)

وواضح أن هذه الرسالة كتبت بعد انتهاء المعركة وتوجه قوات غازان الى دمشق وارتكاب بعض جنوده لكثير من المحرمات بها. وتحتوى هذه الرسالة على الافكار الاساسية التالية :

١ - تبيان أن هجوم غازان لم يكن رهين اللحظة وانما تم على نية مبيتة فهو ليس استجابة لاهالى ماردين كما زعم بل هو تنفيذ مخطط مرسوم يبغى التوسع.
٢ - القاء اللائمة على غازان الذى يحارب المسلمين مستعينابجنود من أعدائه المسيحيين كالارمن والكرج وغيرهما.
٣ - التشكيك فى مدى صدق ايمان غازان فهولا يعدو أن يكون أمرا ظاهريا فقط.
٤ - بيان أن هزيمة المماليك تمت لايمانهم بأن المسلمين لايقتلون بعضهم.
٥ - فضح الافعال السيئة التى ارتكبها جنود غازان المسلم فى دمشق وهى ايضا مسلمة.

ويعلق الدكتور محمد ماهر حمدة على هذا الموقف الاخير" وكان سلوك غازان كسلوك أسلافه الوثنيين أوهو أسوء بكثير لان أولئك كانوا وثنيين، أماهذا فقد ادعى الاسلام واعتنقه واعتقده ومع ذلك فعل بالمسلمين فى بلادهم ما لم يفعله الا اسلافه الوثنيون فقد هاجم بلاد الشام واجتاحها ووصل فى زحفه الى دمشق واحتلها وفعل بها القبائح". (٢)

ومن الذين يرون أن اسلام غازان ليس عن اقتناع أو فهم كامل أو شعور بالمسئولية الكاتب المسيحى رزق الله منقريوس الصدفى .. يقول" ومع ان غازان كان قد اعتنق الاسلام وآفضى ذلك الى اعتناق مائة ألف جندى من جنوده دين سلطانهم الجديد لكنه كان كثير البغض لملوك المسلمين وأكثر حروبه كانت معهم حتى ابغضه المسلمون والنصارى معا. (٣)

ونلاحظ على هذا الرأى عدة اعتبارات :

١ - أنه يومئ الى أن اسلام جنود غازان كان اسلام التابع المغلوب على أمره الخاضع لامر سيده.. لكن المرء يتساءل ايمكن أن يكون هذا المعيار صادقا على مائة ألف جندى . أليس العدد اضخم من أن يكون كله منقادا دون وعى أو ادراك.
٢ - أنه يومئ الى أن الاسلام انتشر بين المغول بالقوة فى ايران وليس الاقناع. وهى قرية قديمة لا تستند الى دراسة عميقة للواقع الدينى الى كانت تتبارى فيه الاديان جميعا من أجل نيل قصب السبق فى احتواء المغول وادخالهم الى الحوزة.
٣ - انه يوءكد على كراهية المسلمين والنصارى سويا لغازان بسبب حروبه مع ملوك المسلمين فاذا افترضنا أن المسلمين فى مصر والشام كانوا يكرهون غازان لمهاجمته بلادهم فهل كان المسلمون فى ايران يكرهون غازان ؟ ويبقى السوءال لماذا يكره المسيحيون غازان اذا هاجم بلاد الشام ومصر ؟ ألم يكن هذا هو الهدف الذى سعى من أجله البابوات وملوك غرب أوربا وتكتلات الارمن والكرج فتحالفوا مع المغول حتى يحاصروا المسلمين

---

(١) ابن تغرئ بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٢ : ١٤٦
(٢) د.محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٨١
(٣) د. رزق الله منقريوس الصدفى : تاريخ دول الاسلام ج٢ ص ٢٨٧

بين ثلاثة محاور : ايران وآسيا الصغرى وممالك الصليبيين فى الشام.

خلاصة الامر فى هذا الرأى أن صاحبه لم يستطع أن يخفى مايجيش فى صدره تجاه الاسلام والمسلمين فحاول أن يظهر موقف غازان وكأنه موقف كل من يدخل الاسلام. وحاول أن يخفى ذلك بادعاء مشاركة المسيحيين للمسلمين فى كراهية غازان ! !

ولنحاول أن نتأمل بعض النقاط الاساسية التى وردت فى امرسوم الذى أصدره غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ هـ وفيه يوء من أهل دمشق وقد قرئ فى دمشق نفسها.. يقول : "ليعلم أمراء التوامين والالاف والمئات من عموم العساكر المنصورة من المغل والارمن والكرج وغيرهم ممن دخل تحت ربقة طاعتنا ، أننا لما سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا الى هذه البلاد فقهرنا العدو الطاغية فصدرت مراسلنا العالية الا يتعرض آحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها وتباين أناسها واختلاف لغاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الاسلامية وقد تعرض بعض نفر يسير الى نهب الرعايا وأسرهم فأمرنا بقتلهم ليعتبر الباقون ولا يتعرضوا لاحد من أهل الاديان على اختلافهم من اليهود والنصارى والصائبة فانهم انما يوءدون الجزية ليكون لهم أمان فى أموالهم ودماهم". (١)

وفى الحقيقة ، يبدو غازان منصفا تماما فى هذا المرسوم وخصوصا فيما يتعلق بمنع كافة جنوده من التعرض لاى من سكان دمشق أيا كانت ديانته.. بل وجعله عقوبة القتل لمن تعرض او سيتعرض لاهل دمشق لانهم يسددون الجزية نظير الامان فى المال والدم هذا فيما يتعلق بغير المسلمين . أما المسلمون فلا توءخذ منهم جزية وحرمتهم أشد.

فاذا حدث وخالف بعض الجنود من مسيحى الكرج أو الارمن – وهم موتورون بما فعله بهم الظاهر بيبرس سلفا – هذه الاوامر بصورة أو بأخرى فان اللائمة تقع عليهم أولا وكذلك شأن بعض جنود المغول الذى مازالت تعتمل فى صدورهم كراهية المماليك.

ونحن بالطبع لا نبرئ ذمة غازان تماما ولكننا فى نفس الوقت لانحمله كل الذنب ... كان الرجل فى حاجة الى مزيد من الوقت كى يتقبل حقيقة الامر فلعله يتخلص من كراهية ورثها دون ذنب له فيها . يقول الدكتور عبد السلام فهمي " ولم يقلل اعتناق غازان خان للاسلام كمغولى من كراهيته للمصريين ودخل معهم فى صراع رهيب وحروب طاحنة أودت بحياته فى نهاية الامر" (٢) اذ أن حياته لم تطل كثيرا بعد هزيمة جيشه الفادحة فى موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٣.

ماذا قدم المغول للاسلام :

ينبغى أن نذكر بالانصاف أن المغول فى معظمهم كانوا مقتنعين بالحرية الدينية والتسامح الدينى فقبلوا بتعدد الاديان وأصاخوا أسماعهم – أحيانا – للمناظرات الدينية التى جرت بين الاديان المختلفة .

(١) د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص ٤٠٣
عن الدوادارى : كنز الدر من ص ٢٠ : ٢٢

(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٤

وتلك مسألة أدت الى تنشيط أذهانهم وجذب انتباههم الى مافى هذه الاديان من جوانب تختلف وتتفق بين دين وآخر.

وهذه المناظرات – على ما فيها من فضول واضح – أسفرت على سبيل المثال عن كشف سذاجة الشامانية بالقياس لغيرها من الاديان ثم بينت الفارق بين البوذية – وهى دين وثنى – وبين الاديان السماوية من جهة أخرى .

ففى ظلال ذلك كله تهيأت الفرصة كاملة أمام الاسلام والمسيحية كليهما أن يستظهرا مدى العمق والبساطة فيهما. يقول الدكتور محمد موسى هنداوى" وأدى تسامح المغول الدينى الى ان الاديان نفسها لعبت دورا هاما فى اكتسابهم وتوجيه سياستهم حتى ظفر الدين الاسلامى اخيرا على تلك الايان التى كانت تتجاذبهم وهذه مسألة تكاد تكون وحيدة فى التاريخ العام، ينفرد بهاالدين الاسلامى وحده فلم يحدث فى تاريخ الاديان أوالسياسة أن انتصر دين المغلوب على دين الغالب" .

والمعنى هنا أن المغول أعطوا الفرصة او قدموها للاسلام مع غيره من الاديان ولولا ذلك لتغير الحال ولو بعض الشيء.

كذلك اختار المغول – من خلال التسامح الدينى – للمناصب المهمة فى الدولة قيادات اسلامية فجعلوا منهم المستشارين والوزراء والنواب على المناطق الهامة فى الامبراطورية كمحمود الخوارزمى وابنه مسعود واسرة الجوينى فى ايران والعراق وغير أولئك كثير. ومن المؤكد أنهؤلاء عملوا على تخفيف حدة الدمار الذى لحق ببلاد المسلمين وحاولوا قدر استطاعتهم وظروف عملهم أن يقربوا بين المغول وبين الاسلام والمسلمين ما أمكنهم الى ذلك سبيلا.. على أننانبغى أن نقدر أن هؤلاء الاشخاص كانوا على درجة عالية من الكفاءة والاخلاص للمغول أيضا.. وتلك – ولا شك – معادلة غاية فى الصعوبة والحساسية.

هذا .. ولقد منح الاسلام لمغول قوة جديدة عندما اعتنقوه فاسلام بركةخان أدى الى تخالفه مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو خان وانتشار الاسلام فى التركستان وبلاد ماوراء النهر ادى الى احكام الحصار حول الايلخانيين فى ايران وأزعج قوبيلاى الخاقان الاعظم من ناحية أخرى. وهو نفس الحال الذى حدث عندما أسلم تكودار . يقول الدكتور عبد المنعم النمر: "كان المغول يعبدون قوى الطبيعة ، فلما اختلطوا بالمسلمين فى البلاد المفتوحة بدأوا يعرفون الاسلام ويعتنقونه ويتحمسون له وبذلك دخل فى الاسلام عنصر قوى ودم جديد متحمس سواء فى ذلك المغول المقيمون فى الهند وغيرها من البلاد الاسلامية أم المغول الذين يقيمون فى بلادهم بعد احتكاكهم بالمسلمين". (٢)

ومن نتاج هذه القوة أيضا ما أثرت اليه سلفا احترام للمغول لرجال الدين المسلمين واعفائهم من الضرائب وقبول وساطتهم ومنحهم سلطة القضاء فى بعض المناطق وكذلك رعايتهم للاوقاف الاسلامية وتشجيعهم للعلماء والمفكرين المسلمين مثل نصير الدين الطوسى وعطاملك الجوينى ورشيد الدين وغير أولئك أيضا.

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد اشلبرازى ص ٥٩

(٢) د. عبد المنعم النمر: تاريخ الاسلام فى الهند ص ١٤٣

على أن أهم ما قدمه المغول للاسلام والمسلمين فى اعتقادى أنهم كشفوا تماما ضعف القوة العسكرية الاسلامية سواء عند الخوارزميين أوالعباسيين أو الايوبيين أوالاسماعيليين أيضا وأبانوا عن تفكك عرى الوحدة السياسية بين المسلمين بشكل سافر وفى موقف عدة كان يمكن لهذه الوحدة ان تصنع شيئا أوعلى الاقل تؤخر حدوث محنة الى حين مخرج٠

وفى الناحية الاجتماعية كشف الغزو المغولى مدى الهرم الذى أصاب كيان الدول الاسلامية من جراء طول افتقارها الى تطبيق الشريعة الاسلامية فانتشرت فيها الكثير من المخالفات التى حادت بها عن جادة الطريق ٠ فكان أن التقت بضعفها وتفككها مع هؤلاء المغول المتعطشين لكل ماعندها فأصبحت النتيجة محسومة سلفا مثل أى اشتباك عسكرى٠

أثر الاسلام فى حياة المغول :

مما لاشك فيه أن الغزو المغولى قد نبه المسلمين الى مدى ما وصلوا اليه من فرقة وانقسام وابتعاد عن تطبيق روح دينهم٠٠ ذلك الدين الذى يتضمن ارقى معطيات الفكر الحضارى على مر العصور٠

ولقد نهض الاسلام بحضارته من تحت ركام كبوة ابنائه ــ وقد هزموا عسكريا ــ ليصد عنهم أذى الغزاة وليبرهن من جديد أنه قادر على الاستمرار حتى دون سلاح يدافع عنه أو يحميه لانه هو السلاح اذا ما أحسن استعماله فى زمانه ومكانه بحكمة وصدق٠٠

وفى الحقيقة ٠٠ فانه ينبغى أن نسلم بأن المغول الذين ظلوا فى موطنهم الاصلى منغوليا اوالذين أقاموا فى الصين كانوا أقل تأثرا بالاسلام من المغول الذين أقاموا فى غير هذه المناطق ٠ يقول بروى" وكان الاسلام قد سيطر على دول أخرى تقع الى ماوراء تخوم الدولة الايلخانية أمثال دولة جغتاى فى التركستان ودولة القبيلة الذهبية فى روسيا" (١) ويؤكد ذلك رالف لنتون اذ يقول" وكان معظم سكان اقاليم الاستبس حتى الحدود الغربية لبلاد لمغول قد اعتنقوا الاسلام"٠ (٢)

ومرد قضية التأثر هذه يرجع الى البيئة نفسها" فقد أخذ المغول منذ أواخر القرن الثالث عشر يعتنقون الاسلام بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم وانصهرت بينهم أول القبائل المغولية التى دخلت ايران"٠

ولم يكن السكان المسلمون فى المناطق الخاضعة وحدهم مبعث هذا التأثير فان مجريات الاحداث قد تطورت لصالح المسلمين فاعطتهم زادا من القوة كانوا فى حاجة اليه كالنصر الذى وقع فى عين جالوت والذى من خلاله استطاع المسلمون أن يصمدوا أمام مناورات المسيحيين واليهود وأن ينافسوهم فى تبوء الزعامة والصدارة فى محاولةالايلخانيين ، وصاروا يشرحون للحكام المغول تعاليم الاسلام ويرغبونهم فى اعتناق الدين الاسلامى حتى كللت مساعيهم بالنجاح وأصبح الاسلام دينارسميا لدولة المغول فى ايران"٠ (٤)

(١) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ص ٥٥٧
(٢) د٠ رالف لنتون: شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٨١
(٣) د٠ ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٥٥٢
(٤) د٠ فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٠٩

ومسألة ثالثة حفزت المسلمين الى الاستماتة فى ضرورة التأثير على المغول تلك هى المواقف المتتابعة التى عمد اليها أصحاب الاديان الاخرى كالبوذية والمسيحية واليهودية والتى لم تتوقف عند حد محاولة استقطاب المغول وانما امتدت الى محاولة انتقاص الاسلام والمسلمين

ولقد أشرت عند الحديث عن اسلام بركة خان القبجاق الى تنظيم الدعوة الاسلامية وتوزيع كبار الدعاة على معظم المدن الكبرى فى ايران والتركستان وبلاد ماوراء النهر.. الخ.

خلاصة الامر هنا أن التأثير الاسلامى على المغول نتج عن ثلاثة محاور :

أ - الاقامة الدائمة فى مجتمعات اسلامية مثل ايران والتركستان وبلاد ماوراء النهر والقبجاق.
ب - التطورات العسكرية والسياسية التى أذنت بتغير ميزان القوى لصالح المسلمين.
ج - نشاط الدعاة المسلمين على مختلف المستويات .

ولنحاول أن نجد مثلا لاطراد هذا التأثير الاسلامى على آخر شخصية مغولية اعتنقت الاسلام فى الفترة التى يدور حولها بحثنا يقول الدكتور مصطفى طه بدر" لم يكتف غازان بصبغ حياته الخاصة وتصرفاته بالصبغة الاسلامية بل تعدى ذلك الى رفع المظالم عن طبقات الشعب المظلومة طبقا لما تمليه الشريعة الاسلامية ومحاربة ضروب الفساد المختلفة مثل شرب الخمر والبغاء والربا والتفوه بألفاظ الكفر". (١)

ولم تتوقف انجازات غازان الاسلامية عند ذلك على مافيه عظمة بل امتدت الى جوانب أخرى مشرقة منها :

أ - تنشيط المدارس الاسلامية وتخصيص الاوقاف الضخمة للانفاق عليها.
ب - تدعيم بناء المساجد الكبيرة وتزويدها بكل محتوياتها .
ج - اقامة المستشفيات والملاجئ ودور رعاية المسنين.
د - تشجيع الدعاة والتأكيد على أهمية دورهم بمساهمته هو شخصيا فى المناسبات باتخاذ موقف الداعى والواعظ .
هـ - محاربة كل دواعى العودة الى الوثنية البوذية من قبل الامراء المغول .

أثر الاسلام فى حياة المغول :

تميز الاسلام دائما بقدرته المتميزة على التأثير حتى لدى معارضيه وهى نقطة تضيف الى امكانياته الواسعة بعدا جديدا لا يتوافر لاى دين آخر وبالنسبة للمغول فقد كان تأثيره عليهم بعيد الاثر وفى مواضع عدة منها.

أولا : تطبيق الشريعة الاسلامية :

ترك المغول فى المناطق الاسلامية التى خضعت لهم حرية التقاضى على الطريقة الاسلامية وجنكيز خان نفسه اختار قضاه مسلمين ليحكموا بين المسلمين فى بلادهم. غير أن الامر لم يخل احيانا من تزمت كما حدث أيام قوبيلاى خان على سبيل المثال.

فلما دخل المغول الاسلام أخذوا فترة من الوقت مترددين بين الياسا التى تعبر عن عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم وبين الشريعة الاسلامية التى تحقق سعادة الانسان فى الدنيا

---

(١) د. مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٣٨

والاخرة.. ومع الوقت بدأ التحول الكبير الى تطبيق الشريعة الاسلامية فى حياتهم فشمل الامر تغييرات جذرية منها .

أ - نبذ العادات المغولية الكريهة "،مثل خنق الحيوان وشق صدره، وأكل الميتة وشرب الدم أحيانا.. والسمت الخشن .

ب - الالتزام بالزى الاسلامى كلبس العمامة والجلباب وما يستتبع ذلك من حرص على الطهارة التامة بالوضوء والاغتسال .

جـ - اجراء المعاملات العامة - كالمالية والتجارية على النمط الاسلامى .

د - رعاية الاوقاف الاسلامية وما تنفق عليه من مندارس وملاجئ ودور رعاية للمسنين.

ثانيا: تهذيب الطباع الحادة :

اكسبت البيئة التى عاش فيها المغول الاول فى منغوليا صفات غاية فى الخشونة والقسوة والفظاظة حتى صاروا بالنسبة للاخرين اقرب الى الوحوش من البشر.

وتوارث المغول هذه الصفات جيلا عن جيل.. وكان عامل الوراثة هذا قويا جدا لدرجة أن التاثير عليهم من قبل الحضارات التى احتكوا بها ظل بطيئا الى درجة كبيرة .. فلما اعتنقوا الاسلام اختلف الامر .. فهذا بركة خان يذهب بنفسه الى بخارى ويمكث على باب الشيخ اياما حتى يسمح له بالدخول .. ثم هو يتألم لما أصاب المسلمين فى بغداد ويستنكر أفعال هولاكو مع الخليفة والامير مبارك الذى تولى الحكم فى التركستان كان مسلما على أفضل ما يكون عليه الخلق القويم بشهادة أرمنيوس فامبرى الذى لايكن ودا للمسلمين.

وتكودار تغيرت بعض سلوكياته وغدا رجلا متحضرا فخرج على قاعدة العداء الوثنى مع المماليك .وغازان تحدثنا كثيرا عن الاصلاحات الاجتماعية الممتازة التى نهض بها وعن تشجيعه للادباء والمفكرين ورجال الفنون عن فهم وثقافة وتبصرة وليس ادعاء أو تظاهرا .

وهكذا أثمرت الحضارة الاسلامية فيما اخفقت فيه القوة العسكرية. يقول الدكتور حسين مؤنس" ولم تنهزم الحضارة الاسلامية ابدا حيث ظلت طول العصر الوسيط نتسلم البدو والهمج من هضاب القرغيز والتركستان والمغول فنكسر شرتهم وتذيب همجيتهم وتصدهم فى بوتقة الاسلام وترفعهم الى مستوى حضارته" .(١)

ويقول حسن الامين " ولم يكن القرن السابع الهجرى ينتهى حتى كان التكيف قد زاد بالتصاق المغول بالاسلام وتحسسهم بمظاهر الحضارة الاسلامية فأخذت رواسب الوثنية تذوب فى النفوس والادارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل فقد عمد المغول الى ترويض جماح أنفسهم وتهذيب عتوهم فبدأوا يلتقون الى غير الطغيان والجبروت" .(٢)

ويقول الدكتور عبد السلام فهمى" ولم يعد يسمع أنهم آذوا الاهالى المسلمين فلم يقوموا بدك المدن أو ذبح الاهالى كعهد الناس بهم وهذا فى حد ذاته يدل على أن الاسلام قد هذب نفوسهم وحولهم عن البربرة والتوحش" .(٣)

---

(١) د.حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ١٠

(٢) حسن الامين: الغزو المغولى ص ٩ ، ١٥

(٣) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران عن ميراخوند، روضة الصفا جـ ٥ ص ٤٠٣

وبذلك نجحت الحضارة الاسلامية فيما أخفق فيه غيرها من الحضارات والأديان الاخرى فأخذت الصفات العاتية عند المغول كالتوحش والرغبة فى التدمير والعنصرية تذوب على حين نمت فيهم صفات الصبر والصدق والرحمة ٠ وتلك فى الحقيقة هى الرسالة الاسمى لأى دين او حضارة حقيقية ٠

ثالثا : الاندماج فى الشعوب المسلمة :

من المزايا الفائقة التى يعتز بها الاسلام والمسلمون أنه ليس دينا عنصريا فهو لايعترف بالحدود السياسية اوالعصبية القبلية التى تفرق بين ابنائه فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى والناس أمام الله سواء وعلى هذا فلا تمييز بينهم فى الحقوق والواجبات أو أداء الشعائر والاركان ٠

فلما دخل المغول الاسلام – وكانوا أهل عنصرية واستعلاء – واتصلوا برجال الدين عن قرب واحتكوا بالمسلمين وتأملوا أنماط سلوكهم أخذت الحواجز تذوب وتتلاشى٠ يقول أستاذنا الدكتور احمد شلبى" وقد اعتنق المغول الايلخانيون فيمابعد الاسلام فاذا بنا نشاهد حدثا عجبا لم يقتصر على جمع الذئب والحمل فى مكان واحد بل ان الذئب أفنى نفسه فى الحمل فان المغول فى الواقع عملوا على هضم ما تبقى من المدينة التى دمروها واندمجوا جسم العالم الاسلامى ولم يبق لهم كيان قائم بنفسه بالمرة "٠ (١)

ونفس المعنى تقريبا أشار اليه الدكتور الصياد ،اذ يقول " وقضى على الهوة السحيقة التى كانت تفصل بين الحاكمين والمحكومين بسبب اختلاف الدين واصبح المحكومون ينظرون الى الحكام المغول كما كانوا ينظرون الى أمرائهم المحليين يتكاتفون معهم ويعاونونهم على النهضة ببلادهم واصلاح أحوالهم"٠ (٢)

رأى متطرف :

أشرت سلفا الى رأى للمستشرق المجرى أرمنيوس فامبرى خلاصته أن الاسلام لم يكن صالحا للتطبيق على حياة المغول بالمقارنة مع الياسا وأن الاسلام قد يكون صالحا لادارة مدينة دينية الا انه لايصلح ابدا لادارة عسكرية ٠

وهنا نعرض رأيا آخر كفامبرى لايكاد يختلف عن سابقه يقول فيه "وهؤلاء المغول باعتناقهم الاسلام ورسوم حضارة آسيا الغربية، انما قد تخلوا بذلك عن القوة الوحشية التى كانوا قد قدموا عليها من مواطنهم القديمة فى الصحراء فأمدتهم بقدرة لاتبارى، فأصبحوا من بعد ذلك كالليوث التى سقطت معارفها ولم يعد يهابها أحد"٠ (٣)

وهذا الرأى يشير الى أن اسلام المغول واتباعهم لحضارة المسلمين قد أفقدتهم قدرتهم العسكرية فأصبحوا عاجزين لا قدرة لهم ولا مهابة ٠

وسنكتفى فى هذا المقام برأى منصف للدكتور رالف لنتون : يقول فيه" ان الاسلام دين لا يمكن ان نقول عنه أنه يدعو للخنوع"٠ فاذا كان المغول قد فقدوا قدرتهم العسكرية

---

(١) د٠أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٥٧

(٢) د٠ فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى ص٧٥

، د٠ مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٣٥

(٣) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٩٩

فليس للاسلام ذنب فى ذلك . اذ أن الامم الاخرى قد طورت من أساليبها العسكرية واستفادت من الهزائم السابقة فتحسنت وسائل التدريب وستعمال السلاح والسياسة فصح على المغـول كما صح على غيرهم قول ابن خلدون فى تطور الامم من البناء حتى الفناء .. لكنها روح العـداء للاسلام والمسلمين التى تعتمل فى صدور بعض المستشرقين فيروق لهم ان ينسبوا كـــل مثلبة للاسلام وأن يرفعوا كل مزية الى غيره ولو خالفوا بذلك الواقع والحق .

رأى آخر:

وهذا الرأى يعرض فيه الدكتور فؤاد الصياد وجهة نظر أحد الكتاب المبرزين الذيـــن كتبوا عن تاريخ المغول والاستبس الاسيوى . يقول " الواقع أن حكم غازان يحدد اللحظـــة التى تحول فيها هؤلاء البدو البدائيون شيئا فشيئا الى الحياة المستقرة فى ايران الا أن هذا الاستقرار لسوء الحظ لم يتم دون أن يكون له مضار فانهم حين خرجوا عن تسامحهم العـــام الى اعتناق دين خاص هوالاسلام لم يلبثوا ان فقدوا جنسيتهم وأن فقدوا معها مميزاتهـا ، وأن يتركوا أنفسهم للوسط الذى هضمهم وشربهم وأخفاهم ولكن لم يكن الوقت قد اتسع ولا الوسيلـة قد تهيأت لظهور هذه النتائج الضارة فى أيام غازان خان الحازم" . (١)

ويمكننا أن نلاحظ على هذا الرأى ملاحظات عديدة :

١ ــ أن ايحاءات الالفاظ (سوء الحظ ــ فقدوا ــ مضار ــ الضارة) تكشف عن مدى عمـق حزن الكاتب لاعتناق المغول الاسلام.

٢ ــ ان صاحب هذا الرأى لم يفهم طبيعة الاسلام فهما دقيقا فليس الاسلام دينا خاصا . والدليل أنه باق حتى الان وانه امتد الى دول فى مختلف قارات العالم الحديث لم يكن بينها وبين دعاته الاول ادنى صلة.

٣ ــ أن من أسرار عظمة الاسلام أن الدول والجنسيات تذوب كلها فيه مع مرور الوقـــت ولكنه هو لايذوب فكل من اعتنقه مسلم وطنه هو الاسلام وحدوده السياسية تمتـــد الى كل مكان فيه مسلم مثله. بل ان عمر المسلم لا يقاس بمقدار سنواته ، وانما يمتـد فيصبح عمر الدعوة كلها منذ فجر الاسلام والى ماشاء الله له ان يعيش.

٤ ــ وكنا نود أن نسأل صاحب هذا الرأى عن المغول الذين اقاموا فى الصين أو فى وطنهم الام منغوليا ــ وهم أقل من غيرهم تأثرا بالاسلام ــ اين هويتهم أوجنسيتهـم ؟! ان منغوليا الان جزء تابع للاتحاد السوفيتى تصارعها عليه الصين .. أى أنها دولـة بلا كيان سياسى. أما مغول الصين ، فجزء منهم عاد مطرودا الى منغوليا علـــى حين ذاب الجزء الاكبر فى الشعب الصينى الكثيف . انها سنة التغير لا اكثــر فما من شئ يدوم الا وجه الله. والله خير حافظا تعهد أن يحفظ دينه فكـان .. وسيبقى الى ما شاء الله له أن يكون .

---

(١) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٧٥ عن

الباب الرابع

الخاقان الاعظم وفنون الحكم

الفصل الاول

الحياة الخاصة للخـــان

١ ـ مقر الخـــان ٠

٢ ـ الحرس الخاص للخان ٠

٣ ـ دور الاتبـــاع ٠

٤ ـ الحياة الشخصيـــة

أ) تفسير الاحلام

ب) ثقافة الخـان

جـ) هندام الخان وهيئتـه

د) زواج الخـان ٠

هـ) وسائل التسليـة

× الصيـــد

× الرياضـة

× مجالس الشراب واللهو

× الاحتفـــالات

× الرقص والموسيقى والغناء

٥ ـ زواج الخـان

٦ ـ وفاة الخـان

مقر الخـــان :

كان المسكن المغولى الشهير (اليورث) يمثل أداة طيعة سهلة الفك والتركيب خفيفة الحمل والنقل من مكان لاخر . فهو بهذه الصفات صدى عميق لبيئة المغول الرعوية الصرفة.

وقد حرص جنكيزخان على أن يظل محتفظا بالخيمة مقرا له . تلك التى كان يميزها سارى العلم ذو الذيول لتسعة البيضاء" (١) كما كانت تغطى - دون غيرها من الخيـام - باللون الابيض او الذهبى .

فلما صار جنكيز خان خاقانا أعظم تطور هذا الشكل فقد اتخذ سرادقا مرتفعا صنع من اللباد الابيض وبطن بالحرير والى جانب المدخل وضعت منضدة من الفضة عليها لبن الخيـل والفاكهة واللحوم حتى يأكل ويشرب كل من يأتى لمقابلته". (٢)

وبمرور الزمن ظهرت علامات الابهة داخل السرادق . فكان الضيوف يطفئون ظمأهـم بمشروب العسل المخمر، وأنبذة شيراز بدلا من لبن خيل الرجل. وكانت رياش الطـاووس تتمايل فوق الستائر المصنوعة من الحرير والذهب على حين كانت الفتيات الصينيات الاسيـرات تغنى بالنغم العذب". (٣)

وفى داخل السرادق الكبير اقيم عرش لجنكيزخان صممه صناع الصين على هيئـة تنين السعادة وحسن الطالع أما ذراعا العرش فعلى هيئة نمرين كاشرين عن انيابهما وكـان هذاالعرش لاباطرة الصين من قبل ولكن جنكيزخان غنمه فيماغنم وهوينقله معه أينماذهـب فى فجاج الارض". (٤)

وفى الاجتماع الاخير الذى عقده جنكيز خان عند منابع نهر ارتيش اضحى السـرادق الكبير مصنوعا من الحرير الاصفر وظهر منوراءه جناءان من الوبر الابيض على طراز أخبيـة المغول فى أحدهما تنزل احدى زوجات جنكيز خان أما الخباء الاخر فنقيم فيه الخادمـات الصينيات السبع". (٥)

ونلاحظ أن جنكيزخان رغم كثرة المدن التى وقعت فى قبضته والقصور التى هيمـن عليها لم يفكر فى الاقامة فى قصر حتى فى عاصمته قراقورم على حين أنه كلف أكبر ابنائـه جوجى - بالاضافة الى كونه أمير الصيد - بالاشراف على تنظيم القصور وتزيينها" (٦)

وفى الحقيقة كان جنكيز خان مضطرا للالتزام بهذا المنهج الخشن ، فقد كان يرى أن التمسك بالبداوة والخشونة واجتناب حياة البذخ والنعيم كلها وسائل استمرار قوة وبقاء المغول.

أما أوكتاى من جنكيزخان وخليفته فكان أول من هجر الخيمة من أبناء أسرته فاتخـذ له من الور مقاما حين بنى لنفسه مايشبه القصر فى العاصمة قراقورم على أنه لم يقم بـه الانادرا". (٧)

---

(١) د.هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٩
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٠
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٦
(٤) الكاتب اصلينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٠
(٥) المصدر السابق نفسه ،ص ٨٠
(٦) د. فؤاد الصياد :المغول فى التاريخ ص ١٠٩
(٧) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٧

ويبدو أن أوكتاى قد اقتنع أن الخاقان الاعظم وقد بدأي قيم فى ء اصمة ثبتة لابـــد وأن يكون له ولو مقر رمزى ثابت وليس بخيمة .

وكيوك هو اول من بنى قصرا كبيرا بالمعنى المفهوم وكانت الى جوار هذا القصـــر كنيسة نسطورية أمامها ارضاء لوالدته الوصية على العرش(توراكينا) خاتون ونستطيع أن نقـدر مدى اتساع هذا القصر مما حدث عقب انتخاب كيوك خاناأعظم خلفا لابيه أوكتاى فانالامـــراء انتخبوا من بناتهم الابكار الصالحة لخدمته أربعين بنتا وحملوهن مزينات بالحلى الفاخـــرة والخيول الرائعة الى خدمته". (١)

فان تخصيص هذا العدد الكبير بالخدمة لدى كيوك علاوة على الخدم والمغنيـــات والعبيد يكشف عن ضخامـة القصر الذى كان يقيم فيه كيوك.

واختير منكوبن تولوى خاقانا أعظم. فكان عليه أن يقيم قصرا يناسب عظمة الامبراطورية التى استوى على عرشها والتى تسابق الملوك فى كان مكان على أن يخطبوا ودها.. ولم يكـن ذلك القصر هو نفس الدار التى بناها أوكتاى سلفا ذلك أن الراهب وليم روبرك الذى زار بلاط منكو يقول ان منكوا لم ينزل فى هذه الدار الا مرتين فى العام لمجرد عقد مجلسللشراب"(٢) أما القصر الخاقانى لمنكو فكان محاطا بأسوار مبنية بالاجر وبطرفه الجنوبى ثلاثة أبـــواب ، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة ،ويفصل جناحى ردهة فسيحة يتوسطها عمد مرفوعة كان يجلـس فيها رجال البلاط، وأمام ءلعرش شجرة من الفضة على حافتها السفلى أربعة اسود يخرج مـــن أفواهها الخمر والنبيذ، فتنصب فى أربعة أحواض من الفضة، وفى أعلى الشجرة تمثال مـــن الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع الاربعة اذا ما نصب خمرها". (٣)

على أن باتوخان القبيلة الذهبية وهو معاصر لمنكو وابن عم له كان يتخذ سرادقـــا فخما مقرا له" فقد ذكر كاربينو احد معتمدى البابا انوسنت الرابع انهم اخذوا الى ســـرادق باتو يوم جمعة آلالام فكان عليهم أن ينحنوا مرارا ثم يدخلوا السرادق دون أن تمس أرجلهـــم العتبة وكان الخان جالسا على عرشه مع احدى نسائه واخوته وأولاده ، واشراف القوم كانـــوا جالسين على مقاعد خاصة والبقية كانوا جلوسا على الارض الرجال عن المين والنساء عن اليسار(٤).

ويبدو أن باتو كان مصرا علىلالتزام بهذا النهج تماما لان مبعوث البابا أبو سنـــت تحرك نحو بلاط المغول سنة١٢٤٤م وبعده بحوالى عشر سنوات تقريبا قام الراهب وليم روبرك بزيارة الى بلاط باتوخان وهو فى طريقه الى بلاط منو قاآن الخاقان الاعظم فوصف ســـرادق باتوخان فيقول " وقادونا الى داخل السرادق حيث كان باتوجالسا على متكأ طويل عريض يشبه السرير وعليه غطاء مموه بالذهب ويرتفع ثلاثدرجات عن الارض وقد اتخذت احدى زوجاته مكانهـا الى جواره على حين جلس حوله كبار رجاله والى جوار المدخل اقيمت مائدة عليها كؤوس مـــن ذهب وفضة محلاة بالجواهر وبها لبن أناث الخيل". (٥)

منكو

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٤٦.
(٢) جون هامرتن : تاريخ ءلعالم ج ٥ ص ٢٣٧
(٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى والدينى ج ٤ ص ١٥٤
(٤) باسيليون خرباوى: تاريخ روسيا ص ٧١
(٥) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٢

ونلاحظ أن هذا الوصف لايكاد يختلف كثيرا عن الوصف السابق مع الفارق الزمنى بين الحدثين .

ولقد أدى نقل العاصمة المركزية من قراقورم الى بكين فى عهد قوبيلاى الى تأثر واضح بالصينيين ترتب عليه اختلاف ظاهر فى البلاط الامبراطورى الذى أصبح على درجة عالية من الفخامة والعظمة . فالقصر الامبراطورى غدا عظيم الاتساع حتى أن الرحالة الايطالى ماركو بولو يصرح انه لم يكن له بالدنيا نظير فردهته الرئيسية كانت تتسع لستة آلاف من الناس يتناولون الطعام فيها براحة تامة أما السطح الخارجى فكان من القرميد المتعدد الالوان : وقد طلى بطلاء أكسبه تلألؤا كتلألئ البلور وأما الحوائط الداخلية فقد كسيت بالذهب والفضة وحليت بنقوش على هيئة الاخطبوط والوحوش والفرسان والاوثان كما زخرفت السقف وطعمت بالذهب والفضة ويجاور القصر بحيرة كبيرة لصيد السمك وعليها معابد من الرخام تصل الى قصر آخر يشغله ولى العهد." (١)

ولم يكن هذا القصر الامبراطورى وحده مقرا لاقامة الخاقان الاعظم قوبيلاى فحسب فقد كانت لديه قصور أخرى فى هانج تشاو، وشانج تو وغيرهما من المدن الصينية. (٢)

وأغلب الظن أن قصور خانات التركستان وبلاد ما وراء النهر وكذلك قصور الايلخانات فى تبريز لم تكن لتقل فخامة أوعظمة عن قصور قوبيلاى قا آن فقد تأثر أصحابها بمدى التحضر الذى وجدوه هناك . منذ أيام السلاجقة والخوارزميين وغيرهما كما تأثر قوبيلاى بحضارة الصين .

وهكذا تطور مقر الخان المغولى من مجرد خيمة تميز باللون الابيض أو الذهبى ويسارى العلم بين غيرها من خيام الاتباع والقبيلة حتى أضحى فى النهاية قصرا منيفا تحيط به كل معانى العظمة و الفخامة .

الحرس الخاص :

كان الحرس الخاص للخان يمثل دعامة أساسية فى حياة المغول من نواح عدة. فهو لا يتولى مهمة حراسة الخان فحسب وانما ينهض بمهام كثيرة أثرت الى حد بعيد فى النجاح الذى حققه المغول وبخاصة فى مجال الحرب والامن ." (٣)

ونظام الحرس الخاص أمر تقليدى قديم لكن جنكيزخان أعطاه أولوية خاصة وأناط به مهام حساسة جعلته بحق عنوانا بارزا فى مجال التفوق العسكرى لدى المغول .

أ - الاختيار :

حرص جنكيز خان على اختيار حرسه الخاص بنفسه فقد كان ينتقى من خبره من بين جنوده وعرفه شخصيا ". (٤)

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٦
ول ديورانت : قصة الحضارةجـ ٤ ص ٢٢٢
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٢
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٦
(٤) ارنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٨٠

ولم يكن هوءلاء من الجنود العاديين فقد كانوا جميعا من أبناء الاسياد والاحرار وكان يختارهم استنادا الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهم" (١) وما يتمتعون به من صفات خاصة كالذكاء والحذر والاخلاص التام للخان ٠٠ على أنه فى معظم الحالات لم يكن يسمح بالانخراط فى صفوف الحرس الخاص الا لابناء كبار الاشراف من المغول (٢) ٠

وبالطبع لايخلو الامر هنا من نزعة ارستقراطية غير أننا يمكن ان نرى أيضا أن المسألة كانت ترتبط بتوخى الحرص عند الاختيار ٠ فمن الموءكد أن جنكيز خان كان يعرف الاغنياء والسادة الاشراف من المغول اكثر مما يعرف غيرهم من العامة ٠

ب - الهيئة والمكانة :

كان طبيعيا ان يتميز الحرس الخاص للخان بالقوة الجسدية الفائقة ٠ والبنيان القوى والمهارات العالية فى ركوب الخيل والقنص والحرب ٠ أى أنهم كانوا نماذج عسكرية ممتازة حرص جنكيزخان على أن يكونوا فى أحسن صورة من القوة والخشونة فكان هوءلاء يظهرون فى وقت الحاجة وهم يمتطون جيادا مدرعة بدروع من الجلد" (٣) ٠

ومع مرور الوقت أصبح جنود حرس الخان يوءلفون فى الامبراطورية المغولية طبقة أرستقراطية ممتازة لان الجندى فى هذا الحرس يكون أعلى مرتبة من قائد الالف فى الفرق الاخرى (٤) بل انهما اذا ما تنازعا فى أمر ما فالقائد هو من يعاقب" (٥) ٠

وفى عهد قوبيلاى الذى وهبهم الاقطاعيات الكثيرة فى الصين - كانوا يظهرون فى كل عيد وهم يرتدون ثيابا فاخرة كلها من لون واحد" (٦) ٠

اضطراد العدد :

اختلفت الاراء حول تحديد عدد الحرس الخاص للخان ونرجح أن العدد بدأ ضئيلا عندما كان جنكيز خان زعيما لقبيلة (قيات) فقد كان هناك أربعة من الحراس المخلصين يسهرون حوله بالتناوب (٧) وأغلب الظن أنهم كانوا من أقربائه وأخوته ٠

ومع ازدياد قوة جنكيز خان وتعاظم سلطانه وصل عدد حرسه الخاص الى ألف فارس (٨)

وقد خص جنكيز خان منهم مائة وخمسين فارس لحراسة سرادقه من الخارج وكان يطلق على كل منهم" كشنكجى" وهى كلمة مغولية معناها النوبة - منهم ثمانون شخصا لنوبة الليل وسبعون لنوبة النهار" (٩) وهوءلاء كانوا أقراب حراساليه وكان يعرفهم معرفة شخصية تامة ويعرف اسرهم ويثق تماما فى اخلاصهم وحبهم لموتفانيهم فى خدمته وحمايته وافتدائه بأرواحهم ٠

---

(١) د- ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٧٣
(٢) الكاتب الصينى ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب
(٣) د٠هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦
(٤) د٠فوءاد اصلياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٧
(٥) د٠ ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٤
(٦) المصدر السابق نفسه حـ ٣ ص ٣٧٠
(٧) الكاتب الصينى ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٠
(٨) د٠هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦
(٩) د٠ فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٦

ومع نمو حجم الامبراطورية وانتشار حركة الغزو وكثرة تردد الوفود على مقر الخــان وبالتالى ازدياد الاجتماعات والمناظرات والمناسبات" اكتمل عدد الحرس الخاص لجنكيز خـــان حيث بلغ عشرة آلاف رجل "٠ (١)

وعند وفاة جنكيز خان كان عدد الجيش المغولى ـ على ذمة رشيد الدين ــ ١٢٨٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ رجل لحراسة الامبراطور والامراء الامبراطوريين "٠ (٢)

فاذا صحت هذه الرواية فان عدد الحرس الخاص للخان بالنسبة لعدد الجيش المغولى كله يكون حوالى ٢٢٪ وهى نسبة كبيرة تدل على مدى أهمية هذا الحرس وبالتالى تعـــدد وحساسية المهام التى تناط به من قبل الخاقان الاعظم والتى منها :

أ ـ حراسة الخاقان :

وتلك أهم الاعباء التى يمكن أن ينهض بها الحرس الخاص الذى كان يوكل لقـواده مهمة النظر فى أدق التفاصيل الخاصة بمعسكر الخان" (٣)٠

وعلى هذا فلم يكن يسمح لمخلوق حى أن يدنو من مضارب الخاقان بل ولا يسمــح أيضا باجتياز البوابة المقامة وسط نطاق الحراسة الا لبضعة أشخاص قلائل يحملون اسطوانـــة ذهبية مرسوم عليها رأس نمر" (٤) وبالطبع فحتى هوءلاء الاشخاص الذين يحملون مايشبـــه جوازات المرور وهم بالتأكيد على درجة عالية من المكانة او الخصوصية كانوا يتعرضون للتفتيـش الدقيق قبل الدخول الى حضرة الخاقان اذ لايسمح لهم أو لغيرهم بأن يحملوا سلاحـــا أثناء مقابلة الخاقان٠

ب ـ عرض الشـــرف :

كان من واجبات الحرس الخاص الاصطفاف ــ تماما كما يحدث الان ــ فى اثناء خروج او دخول الخاقان من مقره وكذلك فى المناسبات الهامة والاعياد وعقد الاجتماعات". القوريلتاى " ومراسم تعيين الخاقان الجديد٠٠ وكذا القيام بأعمال الخدمة ."والتشريعات" للخاقان فى أى مكان يذهب اليه ومن ذلك أنه لما وصل ركب جنكيزخان الى الميدان الاكبر فى بخـــارى اصطف فرسان الحرس فى ثلاثة صفوف قباله درج المسجد الكبير"٠ (٥)

جـ ـ مهام الحـــرب :

كان لانشاء الحرس الخاص للخان أهمية كبيرة فى النجاح الحربى الذى أصابه المغـول فقد كانت تختار فرقة خاصة من هوءلاء الحرس مكونة من ألف رجل هم نخبة المحاربيـــن وتكون المهمة القيام على خدمة الخان أثناء الحرب فهذه الفرقة لاتخرج الى الحرب الا اذا كـان الخان نفسه مع جيشه فى ميدان القتال٠ (٦)

---

(١) د٠فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٧
(٢) د٠ ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٥
(٣) د٠ فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٧
(٤) الكاتب الصينى ف٠ يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٦
(٥) الكاتب الصينى ف٠ يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٨
(٦) د٠ فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٢٦، ٢٤٧

وبالاضافة الى أعمال الخدمة والحراسة كان جنكيزخان يختار بنفسه قواد الكتائب المختلفة فى جيشه الكبير من بين هؤلاء الحراس" (١)

وكان هذا الاختيار يتيح له احكام قبضته على الجيش كله. فالقواد من حرسه الخاص وهو يعرفهم جيدا، وهم لا يطيعون سوى أمر الخان والجنود القطيعة فى أيدى القواد لاينفذون الا أوامرهم وهذا التسلسل القيادى الرائع الذى بنى على الطاعة والاستجابة هو- بلا شك - واحد من أهم مقومات النصر الذى اصابه المغول والذى افتقرت اليه معظم الجيوش التى تصدت لهم.

وبالاضافة الى كل ماسبق كان القواد فى الحرس الخاص للخان يشتركون معه فى رسم خطط المعارك المقبلة. تلك الخطط التى كانت تطرح على بساط البحث فى سرية تامة قبيل الاشتباك الحاسم مع الاعداء.

وهكذا كان الحرس الخاص للخاقان يشكل اهمية حربية خطيرة تتجاوز بكثير مجرد القيام على خدمته والحفاظ على حياته أو أى أعمال أخرى ثانوية .

د - أعمال الصيد :

ذكرت فيما سبق أن الصيد كان عملية عسكرية للتدريب الحربى عند المغول وان كل القادرين فى المجتمع كانوا ينضهون للمشاركة فيه بدافع التدريب والحاجة الى الطعام والكساء. وبالطبع كان اشتراك الخان فى عملية الصيد يضفى عليه أهمية كبيرة. يقول هارولد لامب (٢) وفى الصيد وعندما يلحق بالمغول تيموجين خان ومعه حرسه الخاص وقواده المختارون كان يعطى الاشارة فيبدأ الصيد الكبير".

فالصيد كانت فرصة عملية لكى يثبت فرسان الحرس الخاص مدى مهارتهم فى فنون المطاردة والقنص وركوب الخيل واستعمال السلاح والذكاء .

هـ - المهام الخاصة :

وتلك لا ترتبط بتكنيك معين وانما تنبع من خطورة موقف خاص يحتاج الى امكانيات مميزة ومؤهلات غير عادية . يقول الكاتب الصينى ف.يان" (٣) وكانت القافلة القادمة من لدى خان المغول مكونة من خمسمائة جمل واربعمائة وخمسين رجلا فى زى التجار ومعاونيهم وجعل جنكيز خان على رأس هذه القافلة رجلا من حرسه الخاص مقربا اليه هو (أوشون) (٤) .

ولم تكن مهمة الرجل مجرد قيادة قافلة تجارية . بل كانت مهمة عسكرية تهدف الى معرفة كل مايتعلق بمدينة (اترار) وعدد افراد حاميتها ونقاط القوة والضعف فى أسوارها وأيسر الطرق فى النفاذ اليها ومهاجمتها فقد كانت هذه المدينة أول نقطة للغزو المغولى فمابعد.

---

(١) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٧
(٢) جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٤
(٣) جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٠٩

مخالفات وعقوبات :

لم يكن الخان وهويدرك تماما أهمية حرسه الخاص ان يغفل عن مراقبة التـــزام افراد هذا الحرس بمختلف الواجبات المنوطة بهم • ولو بين الحين والحين ولهذا كـــان يتابع بنفسه المخالفات التى يرتكبها البعض فيتخذ حياله بعض العقوبات التى تحولت مع الوقت الى قوانين صالحة للتطبيق على كل حالة مشابهة و من هذه المخالفات على سبيل المثال :

١ – التأخر عن حضور" نوبة" الخدمة •
٢ – التخلف عن الخدمة•
٣ – ترك مقر الخدمة •
٤ – اغفال مراقبة المرؤوسين•
٥ – افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم•

أما العقوبات فكانت تختلف وفقا لنوع المخالفة أوتكرارها وكانت تتنوع مابين الضـــرب والغرامة العينية والفصل من الخدمة والنفى وقد تنتهى بالقتل (١) وهوأشد العقوبات ويكون عند مخالفة أوامر قادة الحرس اوالياسا او الاخلال الشديد بأحد معانى الشرف والامانة •

وفى نهاية المطاف ظل حرس جنكيز خان الخاص رمزا باقيا للتفانى فى الخدمـــة العسكرية الممتازة ولكل معانى الطاعة الولاء حتى بعد وفاته فقد قام منكو قا ان الخاقـــان الاعظم باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان ليكون حرسا خاصـــا لهولاكو• (٢)

ولقد أصبح حربا بمختلف خانات المغول ان يلتزموا بهذا النمط الممتاز الذى انتهجـه جنكيزخان والذى اثبت – مع الايام – كفاءة عالية فى الاداء والالتزام•

دور الاتبـــاع :

كان المجتمع المغولى البدوى مجتمعا طبقيا تراعى فيه الدرجات المتفاوتة بين أفـــراده فى العديد من الجوانب والاتجاهات•• وكانت خيمة الخان – كما ذكرت – تتميز عن غيرهـا من الخيام بشكلها وحجمها والسارى الذى يعلوها •

وخيمة الخان لانه الرئيس الفعلى للتجمع تشكل مركز دائرة تتسع شيئا فشيئا ويحيـط بها عن قرب خيام أسرة الخان وعشيرته الاقربين ويلى ذلك خيام بقية الامراء وقواد الجيـــش وأولئك كانت خيامهم بيضاء من فراء الياك ويكونون الحرس ا لخاقانى الخاص"• (٣)

وكلما اتسعت الدائرة ظهرت خيام عامة المغول الى يمين او يسار مقر الخان حيـــث تخصص لهم الخيام فى هذه الاماكن" • (٤)

ويبدو أن هذا النظام ظل سائدا بين المغول حتى أيام منكو وباتو وهولاكو ذلــك أن الخيام الكبيرة كانت فى هى المنازل الوحيدة التى أورد ذكرها الراهبان جون بلانو كرينـــى ،

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٢، د• ادوار بروى :تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٤ ، د•فوءاد الصياد: المغول فى لتاريخ ص ٢٥٧
(٢) د•مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ١١٤
(٣) الكاتب الصينى ف•يان: جنكيزخان سفاح الشعوب ص ٨٦
(٤) د•هارولد لامب :جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٢

وليم روبرك وكان افخمها على وجه الخصوص التى كان يجلس فيها الخاقان الاعظم أو كبار أتباعه مثل باتوخان فقد كانت هائلة الحجم". (١)

على أن هذا كله بدأ يتعرض تدريجيا للتغير بفعل التطور الذى طرأ على حياة المغول من جراء احتكاكهم بالامم الاخرى المتحضرة. واستقرارهم فى المدن الكبيرة مثل بكين، سراى، سمرقند، بخارى، مراغة، تبريز.

ومن هنا اخذ المغول يقيمون فى الدور المصنوعة من الاجر وظهرت فى حياتهم المبانى الفخمة والقصور على النمط المحلى .. ففى ايران – على سبيل المثال – أمر هولاكو خان بتجديد عمارة مدينة خيوشان ودعا الامراء والاعيان ليقيم كل منهم منزلا هناك يتفق مع قدرته ومرتبته. (٢)

على أن هذا التطور لم يكن خالصا تماما فالمغول قد عرف عنهم التمسك الشديد بعاداتهم وتقاليدهم التى درجوا عليها، يقول صاحب صبح الاعشى عن مقر خانات المغول فى ايران .. "وللسلطان بهذه المملكة مشتى ومصيف فأما مشتاه فيظاهر تبريز وبه قصور لاكابر الامراء والخواتين أما عامة الامراء والخواتين فانهم ينصبون الخيام فتصير مدينة متسعة الجوانب، فسيحة الارجاء، وأما المصيف فمكان بقراباغ ومعناه بالمغولية" البستان الاسود" واذا نزل به الاردوا (وطاق السلطان) أخذت الامراء والخواتين منازلهم ونصب هناك مساجد جامعة وأسواق. (٣)

ويفهم من المساجد الجامعة أن الحديث عن الايلخانية فى ايران فى عهد تكودار السلطان المغولى المسلم الذى خلف أخاه أباقا وكان هذا الاخير قد اختار مدينة تبريز لتكون عاصمة له بدلا من مراغة عاصمة هولاكو.

ما يهمنا – فى هذا المقام – أن الاتباع كانت منازلهم على قدر مكانتهم أو قرابتهم من الخان. ولهذا فبعضهم يقيم فى قصور والبعض الاخر يقيم فى خيام. وهم جميعا مقربون على غيرهم فى الاقامة الى جوار مقر الخان.

ولا يكاد يختلف الحال عن هذا كثيرا فى تالتركستان أو بلاد ما وراء النهر أو خانية لقبجاق.. وحتى لدى قوبيلاى فى بكين نرى صورة مشابهة لهذا الحال. ذلك أنه كان يقيم فى قصره الامبراطورى خلال أشهر الامطار الستة أى من ايلول الى شباط وفى أذار ينتقل المعسكر الامبراطورى الى" شانغ – تو" حيث يذهب الخاقان الاعظم لقضاء فصل الحر فى مقره الصيفى وهو قصر من الخيزران". (٤)

والى جوار هذا المقر الصيفى لقوبيلاى تنتشر دور الاتباع الذين يحرصون دائما على أن يكونوا فى أقرب مكان منه لان ذلك يدل على مكانتهم العالية وحظوتهم عنده.

---

(١) جون أ. هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٣٧
(٢) رشيد الدين فضل الله الهمذانى: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٤٩
(٣) القلقشندى: صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٧
(٤) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٢

الحياة الخاصة للخان :

ارتبطت الحياة الخاصة للخان المغولى كثيرا بظروف البيئة التى يعيشها مع قومه فاذا تغيرت هذه البيئة أو تطورت دارت معها حياته الخاصة سلبا وايجابا • فحتى جنكيزخان الذى تمسك بحياة البداوة كاملة لم يسمح لنفسه أن تحظى بما فى المدينة - التى خضعت تحت وطأته - بآيات التعليم او الرفاهية قد تلونت حياته أحيانا باشكال من الرخاء لم يألفها وفرضتها عليه ظروف البيئة ومقتضيات السياسة ، فتغيرت خيمته الى سرادق كبير وتعددت ألوان الطعام لديه وظهرت الوان منا لمسويقى والغناء فى حضرته •• وجلس على عرش فخم فى نهاية المطاف يضاهى اجمل عروش الدنيا آنذاك •

ولقد حق لجنكيز خان أن يعتز بنفسه ويراها نموذجا مثاليا للمغول جميعا• وحق لهم أن يفخروا به فقد حقق لهم أعظم امبراطورية فى الشرق كله• اذ لم يكن هناك منافس له يباريه فى القوة العسكرية أو الحنكة السياسية طوال حياته المديدة•

وفى الحقيقة ارتبطت قيمة جنكيز خان بالعديد من المواهب التى كان يمتلكها فقد نشأ مصارعا قوى البنية حاد الذكاء يتمتع بكل قدرات الجندى الباسل الملتزم • ثم اذا هو ادارى حازم يفهم طبيعة المغول وتجلى ذلك حين استنن لهم الياسا ذلك القانون الصارم الذى يعتبر أحد العوامل الحاسمة فى النجاح الباهر الذى حققه جنكيز خان والذى مهد الطريق امام خلفائه من بعده ولولاه لظلوا هائمين فى صحارى جوبى بمنغوليا بدوا كهيئة أجدادهم الاول •

وعندما يدقيق المرء النظر فى شخصية جنكيز خان يكتشف فيه كثير من الجوانب التى تتداخل وتتمازج مع بعضها طورا وتتباعد وتتنافر طورا حتى لتكاد تصل الى حد التناقض • فعلى سبيل المثال ، كان جنكيز خان أميا يجهل القراءة والكتابة لكنه حث أبناءه وأبناء المغول جميعا على تعلم الخط الاويغورى ليس باعتباره لونا من الفنون اوالتسلية وانماباعتباره وسيلة تدفع الجهل وتفتح المجال أمام العلم - الذى أدرك بذكاءه وفطنته أن أول أسرار الحياة وأكثرها جدوى للانسان•

وكان جنكيز خان - شأن المغول جميعا - عنصريا ولكنه لم يغلق أذنيه دون سماع النصح من الاخرين فى أمور لايفهمها أو يحتاج الى مزيد من الوضوح بشأنها •• بل انه قرب اليه كل من توسم فيه الوفاء والصدق ايا كانت جنسيته أو ديانته التى يدين بها•

وبرغم أنه كان شديد القسوة مع اعدائه غير أنه كان يعجب بالشجعان منهم ولهذا لم يستطع أن يخفى اعجابه بعدوه الشجاع جلال الدين الخوارزمى بعد مغامرته الجريئة عند نهر السند•

وكان يكره الخونة ولا يحترم من يخون سيده أو صديقه أيا كانت أسبابه وكم قتل من رجال خانوا أوطانهم وفضلوا الانضمام اليه طائعين وطامعين فى نيل الثروة أوالجاه•

وذلك هو جنكيز خان فيه الخير والشر شأن الناس جميعا•• غير أنه بحكم البيئة والفطرة يختلف ويتفق مغيره•• وفى كل الاحوال ظل الرجل اعظم شخصية مغولية عرفها التاريخ بما فيها من مزايا وعيوب فأوكتاى الذى اشتهر بالسماحة والكرم وكيوك الذى تميز

والمرامة والالتزام ومنو ا لادارى المتفتح وقوبيلاى المتحضر المثقف٠٠ كل أولئك لم يرتـــق واحد منهم ليشغل ذهن التاريخ كجنكيزخان ليس من جانب قدراته العسكرية فقط وانما بمـــا تتضمنه شخصيته من جوانب عديدة وعجيبة٠

فعلى سبيل المثال كانت تكثر الاحلام أثناء نوم جنكيز خان فيلجأ الى الكهـــان والمنجمين لتفسير تلك الاحلام، وكان أحيانا يطلب تفسيرها لدى مستشاريه ومنهم مستشـــاره الصينى الحكيم (بى٠ليو٠ جوتساى) ٠ ولكنه قلما كان يثق بما يقول المفسرون لانه يعلم أن الملق داء دفين فيهم" ٠ (١)

وذات مرة رأى "جنكيز خان" فى منامه أنه قابل حيوانا عجيبا أخضر اللون له قـرون الغزال، وظهر له فى الحلم ان هذا الحيوان يحاول أن يتودد اليه ويتحدث معه ولكـــن جنكيزخان لم يفهم كلماته٠ فسأل الصينى الحكيم"بى٠ليو٠ جوتساى" أن يفسر له الحلـــم فأجابه : ان هذا الحيوان اسمه"قطوان" وهويحب الاحياء من الرجال وسوف لا يقترب منك اذا ماأريق دم على الارض" ٠ (٢) ولعلها كانت محاولة غير مباشرة لمنع الخان من سفك الدماء٠

ويروى عنه أنه رأى رؤية مزعجة فى المنام مؤداها "أن احدى نسائه تتآمر عليـــه للايقاع به فعندما أفاق من نومه نادى من فوره قائد الحرس فى مدخل سرادقه وقال لـــه "ان المرأة الفلانية لك وهى هدية منى اليك فخذها الى خيمتك" ٠ (٣)

سلوك فطرى بحت دافعه الخوف والرغبة فى التخلص من الخطر٠٠ غير أنه لم ينتـه الى قتل المرأة أو تعذيبها ٠ وانما اكتفى بسرعة ابعادها ٠

ولم يخل الامر من أن البعض حاول تفسير احلام جنكيز خان بما يخدم آراءه الخاصة فالكاتب المسيحى رزق الله منقريوس الصدقى ينقل عن ابن العبرى "أن جنكيز خان رأى فـى منامه راهبا عليه السواد وبيده عجازه وهو قائم على بابه يقول له" لاتخف افعل ماشئـــت فانك ثويد فانتبه جنكيزخان مذعورا ذعرا مشوبا بالفرح وعاد الى منزله وحكى حلمه لمن كـــان فى خدمته من نصارى الاويغور فاشاروا عليه بالاسقف "دنجا" فلما دخل عليه بالبيرون٠ قال٠ هذا ذى من رأيت فى منامى لكن شخصه ليس ذلك فقال الاسقف "يكون الخان قـــد رأى بعض قديسينا" ٠

ويعلق صاحب الرأى على هذا الموقف ٠٠٠ ومن ذلك الوقت صار يميل الى النصـارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم" ٠ (٤)

ونلاحظ أن أصحاب هذه الرواية على ـ افتراض صحتها ـ يحاولون الايعاز بـــأن جنكيزخان قد لقى تأييدا غير مباشر من المسيحيين ٔالنساطرة حوله قبل الهجوم المنظم الـذى قاده ضد الدولة الخوارزمية ٠٠ أى ضد المسلمين فلعل ذلك ـ من وجهة نظرهم ـ يشيـر الى أن المسيحية قد شغلت على الرجل كيانه حتى أنها قد راودته فى أحلامه عبر صـــورة القديس المزعوم٠

---

(١) الكاتب الصينى٠ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٠٠

(٢) د٠هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١٣

(٣) د٠هارولدلامب :جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٣

(٤) رزق الله منقريوس الصدقى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٧٠، وانظر : ابن العنبرى ـ تاريخ مختصر الدول ص ٤٠١

وفى الحقيقة لا يعدو الامر أن يكون حلما مثل غيره من الاحلام ولعل جنكيز خان قد أمعن النظر - كعادته - فى ثياب بعض القساوسة - وهى غريبة فى تصميمها فظرت له فى المنام مقترنة بما يفكر فيه وهو الحرب . كذلك فان صراع جنكيز خان ضد الخوارزميين كان بالدرجة الاولى صراعا عسكريا وسياسيا فهو قد اختار لنفسه كبار مستشارية من بين المسلمين وخصوصا التجار فكانوا رسله ونوابه فى كثير من المواقف المهمة كما أن منح أئمة المسلمين سلطة القضاء فى بلادهم وأعفى رجال الدين منهم من الضرائب .

ثقافة الخـــان

كان جنكيزخان أميا يجهل القراءة والكتابة وكانت ظروف حياته غاية فى القسوة حتى أنه ظل الى آخر ايام حياته بعيدا عن كل ثقافة فلم يكن يتحدث الا بلغة المغول"(١)

وفى نفس الوقت كان جنكيزخان يتمتع بذكاء فطرى حاد، وحافظة قوية نادرة وخبرة واسعة فى مجالات شتى. فثقافته الاجتماعية تجلت فى قانونه "الياسا" الذى ظل مرجعا لخانات المغول بعده الى فترة طويلة وثقافته العسكرية تمثلت فى تنظيم الجيوش المغولية الجرارة ودقة نظم التدريب وبراعة التخطيط للحرب .

حقا ان ثقافته السياسية كانت محدودة بالقياس الى قدراته الاخرى غير انه أحاط نفسه بهيئة من المستشارين الاكفاء من مختلف الامم ، كما أصاخ السمع لكل ما هو جديد ومفيد وأحسن الاستفادة من تجارب السابقين... فكشف عن عقلية متزنة وادراك سليم .

على أن جنكيز خان كان يتمتع بالوان أخرى من الثقافة لايخلو بعضها من طرافة يقول د.هارولد لامب (٢) "وفروسية الخان" جنكيزخان" فى تقديمه الجمال فى النساء لاتقل عن فروسيته فى معرفة فطنة الرجال واقدامهم، وفى سرعة الخيل الاصيلة وتحملهم فاذا وصف له مغولى وجه فتاة فاتنة وقوامها من فتيات البلاد المحتلة وكان ذلك المغولى لايعرف تماما أين يعثر عليها اجابه الخان من فوره عن مكانها".

هكذا كانت ثقافة جنكيز خان واضحة صريحة بنفس مستوى البيئة التى نشأ فيها ولقد أدرك الرجل قيمة التعليم فحث اولاده وأولاد المغول كلهم على تعلم الخط الاويغورى وشجع المعلمين لهم ويكفيه هذا بمقياس البداوة التى نشأ فيها .

أما القول بأن ما لجأ اليه جنكيز خان من محاولة التوفيق بين أمرين متناقضين: الحياة البدوية والثقافة الفكرية فيعتبر أضعف نقطة فى نظامه ، وكان سببا أساسيا لانهياره وسقوطه"(٣) ففيه كثير من الظلم وكان أوكتاى أذكى اخوته واشتهر بالادراك السليم والنشاط الجم وتوقد العاطفة وقد رأى فيه أبوه جنكيز خان افضل ابنائه فعهد اليه بخلافته دون أبنائه الاخرين.

وليس بين أيدينا دليل على مدى ثقافة أوكتاى غير انه تعلم الخط الاويغورى وفقا لتعليمات ابيه .. وكذلك كان تلميذا نال رعاية الحكم الصينى المثقف يى.ليو.جوتساى .

---

(١) د. بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٤٤

(٢) جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٣

(٣) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى، د. السيد العرينى المغول ص ٦٤٥.

فلما انتهى أمر الخاقانية اليه ظل معلمه الى جواره مستشارا له فكان أن تأسست المدارس المختلفة وبخاصة فى الصين وهي بلاشك عنوان تحضر وتمدن يدل على سعة أفق الحاكم ومستشاره •

على أن ابرز ما يدل على تلك الناحية فى أوكتاى أنه رفض كل المحاولات التى بذلها اخوه جغتاى بهدف القضاء على المسلمين واعترف بما لهم من فضل على امبراطورية المغول •

أما كيوك بن اوكتاى فكان رجلا عسكريا صارما لدرجة أنه لم يبتسم مطلقا فى وجه رعاياه مماأثار فى نفوسهم الرعب والقلق" (١) وفترة ولايته القصيرة التى امضاها مشغولا بالحروب لم تتح له أن يظهر أيا من ألوان الثقافة الفكرية أو الادبية •

ويعتبر منكو بن تولوى اول احفاد جنكيزخان الذين اتسموا بعمق التفكير وبعد النظر والجمع بين الكفاءة العسكرية والادارة الحازمة والتبصر السياسى فأعاد الى الاذهان قدرات جنكيزخان الخاصة ومن مقوماته الثقافية أنه كان يحضر قداس الاحد وفى نفس الوقت يواظف على حضور المناظرات الدينية التى جرت فى عهده بين رجال الاديان من شامانيين وبوذيين ومسيحيين ومسلمين •• ولقد سمح للراهب وليم روبرك سفير الكنيسة الكاثوليكية بالمشاركة فى هذه المناظرات وكان يرى أن الاديان كلها تعود فى النهاية الى مصب واحد تماما كما تعود الاصابع الى راحة اليد• غير أنه اجتهد فأخطأ حين جعل البوذية هى تلك الراحة •• على الرغم أنه لم يكن بوذيا •ولعل اعتبرها أقدم الاديان جميعا فهى المصدر الذى تعود الاديان فتصب فيه •• وبوجه عام كان الرجل محبا للحكمة ملتزما بها فى ادارته للدولة كما قيل عنه أن كان محبا للفلك غارقا ببعض مسائل الرياضيات •

أما قوبيلاى فيعتبر بحق أكثر خانات المغول ثقافة وتحضرا •• وقد ظهرت عليه ملامح النبوغ فى هذا المجال منذ صغره"فعندما تحدث اليه جنكيزخان اكتشف أنه يعرف عن الكتب وحياة القصور اكثر مايعرف عن الصيد وذلك بفضل عناية (بى•ليو• جوتساى) به ولقد صرح جنكيز خان عنه راضيا" ان كلمات قوبيلاى مليئة بالحكمة" (٢) •

وأغلب الظن أن تربية الحكم الصينى (بى •ليو• جوتساى) لقوبيلاى قد أسفرت عن اثار مهمة منها •

١ - اعتناقه للديانة البوذية •

٢ - ميله الى الحضارة الصينية التى تشبع بها فكانت أهم عوامل انتقاله لبكين فى الصين الشمالية وجعلها عاصمة مركزية للمغول •

٣ - تشجيعه للعلم والعلماء والذى كان ايته اقامة المجتمع العلمى الامبراطورى فى بكين على عهده كما سبق القول •

فلا غرو ان كان قوبيلاى بعيدا كل البعد عن أن يكون خانا مغوليا بربريا بل لقد كان فى الحقيقة امبراطورا صينيا متحضرا أكثر من أى شئ اخر وكذلك كان على حظ عظيم من حب الاستطلاع الذى هوبداية الحكمة ولهذا صار ماركوبولو يسعى - كلماسافر فى

---

(١) بارتولد : تاريخ ا لتركستان قبل الغزو المغولى ص ٦٧٨

(٢) د•هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٩

وقد - للحصول على أصح المعلومات عن عادات الناس وطبائعهم وعن أحوال الاقطار النائية حتى يشبع فضول سيده". (١)

وبالاضافة الى ما سبق فقد تطورت فى عهد قوبيلاى فنون ادبية فى الصين مثل فن المسرح والقصة والأدب بوجه عام . حقا انهاكانت معروفة من قبل غير أنها ارتقت فى أيام قوبيلاى حتى ليعد عصره من ازهى عصور الثقافة فى الصين .

فاذا بحثناعن ثقافات أخرى عند الحكام المغول وجدنا أن هولاكو كان محبا لعلوم الفلك والكيمياء دون أن يفهمها وعلى هذا اكتفى بتشجيع العلماء واقامة المراصد لهم وبخاصة نصير الدين الطوسى .

أما خانات المغول من المسلمين فى التركستان وبلاد ما وراء النهر وخانية القبجاق وايلخانية ايران فقد كان بعضهم نماذج ممتازة من الثقافة وعلى سبيل المثال كان مبارك خان التركستان نموذجا رائعا لاحسن مايكون الحاكم الملم بأصول البروتوكول واداب الحكم والتعامل مع لمحكومين .

وبركة خان القبجاق الذى اعتنق الاسلام طواعية واختيارا ، وبعد حوار مع الدعاة التزم بروح الاسلام فى كل سلوكياته . بشهادة بارتولد نفسه فقد أقام مدارس تحفيظ القران الكريم فى كل مكان تقريبا . وعلى الرغم من أن صراعه مع ابن عمه هولاكو لايخلو من نزعة سياسية الأن هذا لايقلل من مدى تفاعله مع الاسلام كدين وحضارة فاستنكر مافعله المغول بالخليفة العباسى وببغداد وأقدم على التحالف والتصاهر مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك فى مصر ضد هولاكو .

وعلى نفس المنوال حاول أحمد تكودار ان ينهض من خلال اسلامه وثقافته الاسلامية بمواجهة التيارات المسيحية والبوذية وعزم على اقامة المساجد الجامعة والمدارس فى أرجاء الايلخانية كما أشار الى ذلك فى رسالته التى بعث بها الى السلطان المملوكى قلاوون .

أما غازان " فهو صورة مشرقة للخان المغولى المسلم وبصرف النظر عن صراعه مع المماليك يبدو نموذجا ثقافيا رائعا لدرجة متميزة " فقد كان مطلعا على العلوم المعروفة لدى المسلمين وهو الذى وضع فكرة تأسيس مرصد كبير فى تبريز وشجع على دراسة الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية كما كان يجمع أثناء خروجه للصيد بعض النباتات الطبية وكذلك كان يعرف بالاضافة الى المغولية عدة لغات اخرى كالفارسية والعربة بل واللغات الهندية ولغة كشمير والتبت والصين والفرنج". (١)

ومن أقواله التى تدل على ثقافته وحكمته "افة العقل الغضب ولايصلح للملك من يتعاطى مايضر عقله". (٣)

---

(١) ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧٩

(٢) د. فوءاد الصياد : موءرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٧٦

(٣) عن رشيد الدين فضل الله: تاريخ مبارك غازانى ص ١٧١ : ١٧٣

الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ٣

وهكذا رأينا كيف تطورت ثقافة خانات المغول من جنكيز خان البدوى الى قوبيلاى خان المتحضر وغازان المسلم الذى أمده الاسلام بزاد وتبصر وحكمة جعلت عهده عهد الاصلاح الاجتماعى بحق فى الايلخانية المغولية فى ايران .

هندام الخـان :

تحدثت فيما سـبق عن المظهر العام لدى عامة المغول وعن ثيابهم وتطور ازيائهـم وملابس الرجال منهم والنساء وطرقهم فى غسل الثياب والنظافة بوجه عام وأشرت الى التطـور الذى طرأ على ذلك كله مع تغير الزمن .

وفى الحقيقة ظل جنكيزخان بسيطا فى ملبسه لم يغير منه شيئا يذكر فهو فى مطلـع حياته كان يغطى رأسه ورقبته بغطاء من فرو السمور تتسدل منه حاشية من الجلد أما سرواله الواسع المصنوع من الجلد فقد كان يزمه داخل حذائه الطويل المصنوع من اللباد". (١)

وظل ذلك حاله حتى بعد أن أخضع لسلطانه غالبية قبائل المغول والترك فـى منغوليا فلما تحقق له النصر على الصين الشمالية سمح لافراد من عائلته أن ينعموا ببعـض الوان الثياب التى ترد من هناك." فكانت زوجة "بورتاى" ونساؤه الاخريات يجلسن راكعـات عند قدميه وهن مرتديات ثيابا من القطيفة المطرزة بخيوط من اللآلئ وكذلك كان جوجـى وأولاده"بورتاى" الثلاثة الاخرون يرتدون ملابس بلاد (الخطا) الطويلة المبطنة وعلـى رؤوسهم قبعات يتدلى منها ا لريش" (٢)

وازدادت الاوضاع السياسية تطورا واتسعت الامبراطورية وغدا جنكيزخان اشهر الحكـام فى الشرق على الاطلاق غير أنه كان متمسكا ببداوته الى أقصى درجة ممكنة.. وعلى هـذا فعندما دخل مدينة بخارى لم يكن ثوبه فاخرا اومزركشا بل كان رداء سابغا أسود اللـون ، وقد وضع فوق جواده الادهم سرج من الجلد لا زخرفة فيه، وأما عيناه ووجهه، فشـئ يخيف حقا، صرامة ، قسوة، ازدراء يزيد من وطأتها على الناظرين لحية حمراء كأنهـا شعلة من لهب" (٣)

تلك كانت هيئة جنكيز خان الذى كان قطعة من بيئته بكل خصائصها ملبس جـاف خشن ،وملامح قوية حازمة. اصرار لا يلين مطلقا . وكان الرجل يفهم التطور الذى سيعيشـه أبناؤه من بعده. ولقد أكدت الايام صدق توقعه او بالاحرى مخاوفة ماسيأتى مع الزمن والتطور

هذا ويمكننا أن نستنتج أن أوكتاى وهو من الذين أقبلوا على الحياة يتنعمون بهـا ويسمحون لغيرهم بذلك .. وقد اتخذ لنفسه عاصمة مستقرة هى(قراقورم) قد قبل التغييـر الحتمى الذى طرأ على حياة ا لمغول عامة .

وعلى هذا فقد تغير زيه وهندامه بصورة تختلف قطعا عن ابيه جنكيز خان وبخاصـة أن مستشاريه – على اختلافهم – يى . ليو. جوتساى الصينى ، تشنكاى الاويغـورى ،

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٠
(٣) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٨.

محمود الخوارزمى وهم متحضرون بلا شك كانوا أكثر تأثيرا عليه وبصورة أكبر من أبيه٠فلعلهم رأوا أنه من الضرورى أن يبدو ا لخاقان الاعظم فى صورة تناسب مكانته٠

أما كيوك فقد كان فظا غليظا مفرطا فى كل شئ بما فى ذلك الشراب والملذات وعلى هذا فاهتمامه بمظهره كان نابعا من خشونته وفظاظته وبخاصة أن عهده القصير كان فترة حرب وصراع — كما سبق القول ٠

وتولى منكو منصب الخاقان الاعظم وهو فى الثالثة والاربعين من العمر واشتهر بأنه يكره الترف وينكر المباذل ولم تكن له هواية سوى الصين٠ (١) ولهذا فقد اقترب كثيرا من صفات جدة جنكيز خان فكان مثله مهابا موقرا لكنه بالطبع — وفقا لمقتضيات العصر— التزم بماينسبه من زى وهيئة فقد كان يفد الى بلاطه معظم ملوك الدنيا انذاك وكانت تأتيه الرسل من مختلف أرجاء المعمورة ولهذا فان وليم روبرك الذى أهدشه فخامة بلاط باتوخان وحسن هندامه وزيه يقول ان بلاط الخاقان الاعظم كان أشد بهاء وفخامة وبدهى أن يكون الخاقان الاعظم نفسه على هذا المستوى من حسن السمت والهيئة ٠

ولا يكاد يختلف اثنان على أن قوبيلاى قد تشرب الحضارة الصينية تماما منذ نعومة أظفاره ولذا فقد كان حريصا على مظهره دائما طوال سنى عمره فماركوبولو يحدثنا عن مظهره حتى بعد أن جاوز الستين من عمره فيقول ان لقوبيلاى هيئة حسنة فهو متوسط الطول متناسق الاعضاء له وجه مشرب بالحمرة وعيناه سوداوان صافيتان وفى حفل عيد ميلاده فى شهر سبتمبر كان يرتدى اغلى اكسيته وكانت جميعا موشاة بالذهب" (٢)٠

أما فى المقاطعات الاخرى كايران فقد كانت هيئة الايلخان مختلفة بعض الشئ وعلى سبيل المثال كان هولاكو لا يمانع من وضع بعض الاقراط فى اذنيه فقد استقبل بدر الدين لوءلوء صاحب الموصل بجبال همذان فأصعده اليه على التخت وأذن له أن يضع بيده فى أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درنان يتمتان" (٣)٠

من هذا ندرك أن وضع الاقراط الثمينة فى أذن الخان كان واحدا من علامات الفخامة والابهة ٠

أما غازان خان فالدكتور الصياد يشير الى أنه كان رجلا قبيح المنظر قصير القامة" (٤) على حين يقول الشوكانى" وكان غازان شابا عاقلا مهيبا مليح الوجه" (٥)

أيا كان الوضع فلقد كان غازان مسلما لبس العمامة ارتضى الزى الاسلامى فزاده مهابة ووقارا وازداد به طهرا وبركة وليس بمستبعد ان يكون ذلك الزى هو نفسه الذى كان يرتديه سلفه الايلخان أحمد تكودار ٠

وكذلك كان بركه خان القبجاق المسلم يرتدى زيا مشابها لهذا الزى فقد كان وهو فى السادسة والخمسين (أثناء زيارة رسل الملك الظاهر بيبرس لبلاطه) خفيف اللحية كبير الوجه

---

(١) د٠ السيد الباز العرينى : المغول ص ١٩٨
(٢) جون أ٠ هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٧
(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٣
(٤) د٠ فوءاد الصياد : موءرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٧٥
(٥) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ٤

فى لونه صفرة يلف شعره عند أذنيه ، وفى أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة مثمنة وعليه قباء خطائى وفى رجليه خف أحمر وليس فى وسطه سيف وفى حياضته قرون سود معوجة مقمعة بذهب" (١) .

فهذا الزى لا غبار عليه سوى التزين بالذهب الذى يحرمه الاسلام على الرجال المسلمين فلعله أثر من دراسات تعود عليها خانات المغول بعد عصر جنكيزخان .

عموما فقد تغير زى خانات المغول وفقا لتغير البيئة وبتدخل عامل الزمن وكذا بتأثرهم بالحضارات والاديان الاخرى .

زواج الخان :

تحدثت فى الباب الثانى عن الزواج عند المغول بعامة .. وأشرت الى أنه كان قائما ومشروعا حتى قبل خروجهم من منغوليا .. غير أن الخانات المغول كانت طريقتهم فى الزواج تختلف بعض الشئ عن زواج العامة ربما فى العدد وربما من واقع الارستقراطية الحاكمة او لمقتضيات السياسية ... الخ .

وكان للخان ان يتزوج ممن يشاء من النساء فقد كان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات والعادة المتبعة أنه اذا تغلب على ملك أو أمير أو عقد معه اتحادا أو تحالفا فانه يتزوج بابنته او اخته أما اذا تغلب عليه وقتله فكان يتزوج من أمرأته وكان جنكيز خان يسير على هذه الطريقة" (٢) .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان من عادة المغول أن يطيعوا الخان وأن يتوددوا اليه بكل طريقة ومن ذلك ان يعرضوا عليه ابكارهم الحسان ليختار منهن لنفسه وأولاده ومن شاء من حاشيته ماشاء منهن" (٣) .

أى أن الخان كان يتزوج بنات الامراء أواخواتهم فى حالة التحالف أو الاتحاد أو عندما يعرض عليه عند اعتلائه العرش أو فى رأس كل سنة أما الامراء أعداؤه فعندما يتغلب عليهم ويقتلهم فقد كان يتزوج من نسائهم امعانا فى استظهار القوة والعظمة .

وتعتبر" بورتاى" وهى ابنة زعيم قبلى مغولى من طائفة القنقرات أول زوجة ارتبط بها جنكيزخان كان انذاك فى السابعة عشرة من عمره وقد أنجب منها ابناءه المشهورين جوجى ، جغتاى ، اوكتاى ، تولوى ، وهى التى استردها من أيدى قبائل الميركيت الذين خطفوها ثأرا من أبيه بيسوكاى بهادر ولم يكن لها أدنى نشاط سياسى .

غير أن "بورتاى" لم تكن الزوجة الوحيدة فى حياة جنكيز خان بالطبع فقد تزوج من ابنة اخى اونكخان ملك الكرايت ويدعى "جاكمبو" .وكان ذلك فى أثناء التحالف الذى ارتبط فيه جنكيز خان مع قبيلة الكرايت ." فلما تغيرت الاحوال ودب الخلاف بينهما

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ١١٨
(٢) د.فؤاد الصياد : المغول فى التريخ ص ٢٤٨
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٩
د.ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٣٣

وانتهى الصراع الى مقتل اونك خان وابنه تزوج جنكيز خان من ابنة خان الكرايت الصريع" (١)
وكان هذا قبل اصطدامه بالخوارزميين" فتلك الزوجة - وكانت كأبيها مسيحية نسطورية -
قد فسرت له حلمه عند رأى قسيسا فى المنام يبشره بالنصر اذا هاجم السلطان الخوارزمى
علاء الدين قالت" هذا أسقف كان يتردد الى أبى ويدعو له .ومجيئه اليك دليل انتقال
السعادة اليك" (٢) - تفسير يحمل كل معانى الرهبة والتملق والمداهنة .

"أما اخر زوجاته فقد كانت(قولان) خاتون الفاتنة وهى من قبيلة بدوية فى
منازل القبجاق وكان جنكيز خان قد قتل جميع أهلها وعشيرتها وقتل أباها واخوتها وكذلك
وبنى بها على شرعة الحرب فى الزمن القديم ، وقد أنجبت منه غلاما أسماه"قول كان" (٣)

هذا .. وقد بلغ عدد زوجات جنكيز خان اكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحد
وجميعهن من بنات الامراء والخانات. (٤)

وبالطبع يبدو العدد ضخما ومبالغا فيه غير أن العديد من المؤرخين يجمع عليه
كرشيد الدين الهمذانى ،وحافظ أحمد حمدى ،والدكتور فؤاد الصياد ، والدكتور سعيد عاشور،
الكاتب الصينى .ف .يان والمؤرخ الامريكى هارولدلامب. (٥)

ولعله من العجيب أن يحاول المرء تصور اجتماع هذا العدد أو معظمه فى مكان
واحد أوحتى فى عدة أمكنة وما يتبع ذلك من الاطفال والخدم والعبيد والماشطات . مما يدفع
الى القول ان هذا الزواج كان مسألة شكلية ليس اكثر اذ لم يعرف عن جنكيز خان انهماك
فى الشهوات "فعلى الرغم من أنه قد بلغ سنا متقدما من العمر فقد ظل متمتعا على الدوام
بكامل قواه العقلية وصفاء ذهنه ان ذلك ليقف برهانا على أنه لم يطلق العنان لشهواته
بالدرجة التى بلغها معظم خلفائه ". (٦)

وقد كان جنكيز خان - رغم ذلك كله - شديد الغيرة على زوجاته" ففى أثناء
مجلس الطعام التفت جنكيزخان فى غيرة شديدة الى سفير (القانجوت) الذى كان جالسا
بجوار زوجة الخان الشابة الحسناء" قولان خاتون". وكان يدخل السرور على قلبها بما يرويه
من الملح والنكات وكانت هى تضحك مسرورة.. التفت اليه وصرخ فى وجهه .. اخرجوا هذا
الصنم المزوق (السفير) من تحت سقف خيمتى". (٧)

---

(١) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٣٥
(٢) رزق الله منقريوس الصدفى: تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص٢٧٠، ابن العبرى :تاريخ مختصر الدول ص ٤٠١
(٣) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٥
(٤) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ نشر كاترمير مجلد ٢ جزء ٢ ص ٩٢
حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١١
الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشـ وب ص ١٠٠
سعيد عبد الفتاح عاشور: اوربا فى العصور الوسطى ج١ ص ٦٠٥
(٥) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٨
د.هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٣
(٦) بارتولد: تاريخ التركستان قبل الغزو المغولى ص ٦٤٤
(٧) الكاتب الصينى ف. يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٢.

وبالطبع سارع الحرس الخاص الى تنفيذ رغبة الخان بمنتهى السرعة و الحزم .
أما أوكتاى فقد كانت توراكيناخاتون الاميرة النايمانية اشهر زوجاته على الاطلاق وهى التى استطاعت أن تقبض على زمام الامور بعد وفاته لمدة خمس سنوات حتى مكنت لابنها كيوك من ارتقاء عرش الخاقانية خلفا لابيه..وعلى الرغم من ذلك فقد كان لاوكتاى ثلاث زوجات غيرها " هذا بالاضافة الى السرارى والمحظيات وقد تجاوز عددهن ستين سرية". (١)

ومعظم هوءلاء السرايا كن من بنات أمراء المغول الذين سارعوا - كالعادة - عقب تولى اوكتاى خلفا لابيه فانتخبوا من بناتهم الابكار الصالحة فكان عددهن اربعين بنتا وحملوهن مزينات بالحلى الفاخرة والخيول الرائعة لخدمته". (٢)

أما كيوك فقد كانت (أوغول قاميش) أشهر زوجاته وهى التى تولت الوصاية على العرش عقب وفاته لكنها اعدمت غرقا فى عهد منكو قا ان الذى خلفه على العرش. وبالطبع كان لكيوك زوجات عدة غير هذه الزوجة بالاضافة الى ان الامراء المغول قد فعلوا معه كمافعلوا مع أبيه فانتخبوا من بناتهم الابكار الاربعين لخدمته". (٣)

أما منكو خان فلم أعثر على أحد المصادر عن أى حديث حول زوجاته سوى تلك المرأة النسطورية التى كان يذهب معها الى قداس الاحد كل اسبوع بل ان الموءرخين لا يكادون يذكرون شيئا عن أولاده باستثناء ولديه أسوتاى ،وأوردو نكتاش". (٤)

وفى الحقيقة كان هذا الخاقان صورة من جدة جنكيز خان فى النواحى العسكرية والادارية بل كان مثله فى اعتداله فى مسألة الشهوات والرغبات وكان أكبر هواياته الخروج الى الصيد فلعله لم ير داعيا لكثرة من الزوجات بصرن عبئا على ميزانية الخاقانية اوعبئا عليه شخصيا.

أما قوبيلاى فقد كان له أربع زوجات يسمين بالامبراطورات" (٥) بالاضافة الى جيش ضخم من الجوارى والسبايا والمحظيات قد جىء بهن من بلاد التانجوت وفقا لرغبة الخاقان الاعظم ولقد فصلت الحديث عن ذلك فى فصل المرأة المغولية .

ولايكاد يختلف الايلخان هولاكو شقيق الخاقان الاعظم قوبيلاى عنه فى كثير من الامر فقد تزوج بكثيرات منهن (دوقوز) خاتون الشهيرة وكانت فى الاصل زوجة لابيه تولوى ابن جنكيزخان ومنهن أيضا (بييسونجين) خاتون أم ولده أباقا الذى خلفه على عرش الايلخانية ومنهن (أولجاى) خاتون أم ولده منكوتمر الذى هزم أمام المماليك. ومنهن (ماما) خاتون ابنة الملك داود ملك الكرج على افتراض صحة الروايات الواردة فى هذا الشأن ،وكذلك (توقنى) خاتون وهى ابنة أخت دوقوز خاتون وهى مسيحية نسطورية مثلها". (٦)

---

(١) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٢٢
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٨
(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ١ ص ١٤٦
(٤) د.بارتولد : تاريخ التركستان قبل الغزو المغولى ص ٧١٥
(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة جـ ٤ ص ٥٢٦
(٦) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢١٢

وكان لأباقا بن هولاكو زوجات ومحظيات كثيرات على أن أشهرهن على الاطـــــلاق الاميرة البيزنطية(ماريا) وكان أبوه هولاكو قد سير فى طلبها لنفسه لغرض سياسى" فلمـــا اخذها الرسل وخرجوا بها ووصلوا الى قيسارية بلغهم الخبر بموت هولاكو ولم تتمكن مـــن الرجوع الى بلادها (١) .

وماريا تلك التى سماها المغول فيمابعد دسبينا خاتون هى ابنة غير شرعيـــة للامبراطور البيزنطى باليولوجوس" وقد اختارها لتحظى بشرف الزواج من الايلخان المغولــى ورافقها الى تبريز العاظمة البطريرك بوثيميوس الذى كان قد لجأ الى القسطنطينية ومعه قـدر من الهدايا ولم يلبث اباقا أن أظهر لها عميق احترامه" (٢) وتزوجها .

وسار أرغون على نفس منهج تعدد الزوجات" فقد كانت من زوجاته (أوروق) خاتـــون التى تنتمى أصلا الى الكرايت هى ابنة أخت الملكة الراحلة دوقوز خاتون وكانت مسيحيـــة نسطورية. (٣)

أما أشهر زوجاته فهى (بولغان) خاتون . وقد أوصته قبل ان تموت أن يتزوج فتـاة من بنات قومها ا لمغول فأرسل تنفيذا لوصيتها سفراء من قبله الى بلاط بكين يخطبون لـــه زوجة". (٤)

وفى خانية القبجاق كانت خانات القبيلة الذهبية على نفس المنوال تقريبا فلقد تــزوج جوجى بكثيرات بعضهن من قبيلة الكرايت والبعض الاخر من أميرات خوارزميات من بيت السلطان الخوارزمى علاء الدين وحفيده سارتاق بن باتو كانت له ست زوجات". (٥) حتى أن بارتولـد استدل من ذلك على أن سارتان لم يكن من موءمنى الكنيسة المسيحية والاكان انضمامه لهـــا مجرد امر شكلى.

ولقد أشرت فى فصل المرأة المغولية الى أن بركة خان كان له غير زوجته المسلمـــة "ججنك" خاتون زوجتان : (طقطقاى) الخاتون الكبرى، والثانية(كجهار) خاتون وهما غيـــر مسلمتين .

أما فى خانية التركستان وبلاد ما وراء النهر وهى أكثر المناطق التى خضعت للمغــول اضطرابا فان معظم المصادر التارخية لا تكاد تهتم بهذه الناحية حيث أن الاضطرابات والحروب التى وقعت فى عهد هوءلاء الحكام المغول كانت من الكثرة بحيث شغلت الاذهان بنتائجهـــا المروعة التى انصبت على روءوس الاهالى التعساء وبخاصة فى بخارى وسمرقند . على أنه يمكننا القول ان جغتاى بن جنكيز خان قد تزوج بكثيرات ـ كعادة المغول ـ منهن احدى بنـات السلطان الخوارزمى علاء الدين على أن اشهر زوجاته كانت الاميرة (ابيسكون) خاتون التـــى تولت الوصاية على العرش بعد وفاته لحين تولى حفيده (قراهولاكو) الحكم.

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤١٨
(٢) د.فوءاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد اسرة الايلخانيين ص ٥٥
(٣) د. العرينى : المغول ص ٣٠٩
(٤) ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٨٣
(٥) د.بارتولد: تاريخ التركستان قبل الغزو المغولى ص ٦٩٢

أما (قراهولاكو) فقد تزوج الاميرة الشهيرة (أورغنه) خاتون التى اشتهرت بجمالها وفطنتها ودرايتها لشئون الحكم والسياسة .

فلما أزيح (قراهولاكو) عن العرش فى عهد كيوك.. تولى مكانه (بيسو) بن جغتاى (٦٤٥ ـ ٦٤٨هـ) وكان مفرطا فى شرب الخمر فنهضت اشهر زوجاته (نوقاشى) خاتون بمباشرة كل شئون الحكم غير أنها تعرضت للقتل تحت سنابك الخيل عندما أعيد قراهولاكو الى الحكم مرة ثانية سنة٦٤٨هـ فيعهد الخاقان الاعظم منكو ـ على حين تخلصت الاميرة (أورغنه) خاتون من الخان (بيسو) بعد ذلك .

وقد أدت حالة الاضطراب والفوضى بعد وفاة الخان الاعظم منكو تتجه للصراع بين أخويه قوبيلاى وأريق بوقا على الحكم. الى وصول الامير (آلقو) الى الحكم..

وقد تزوج (آلغو) خان من الوصية على العرش آنذاك الاميرة (اورغنة) خاتون التى كانت تسعى الى الحفاظ على حق ابنها الامير (مباركشاه) فى تولى الحكم بعد (آلغو) خان .

عموما .. فان خانات المغول قد أسرفوا فى تعدد الزوجات بصورة غير عادية جعلت من هذا الزواج أمرا شكليا يخفى وراءه أهدافا سياسية أو دينية قد تبعد كثيرا عن الهدف الحقيقى منا لزواج نفسه الذى حدده القرآن الكريم فى قوله تعالى "و من أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون". (١)

وسائل التسلية :

كانت حياة ا لمغول قبيل عهد جنكيز خان غاية فى الخشونة والشظف فلم تكن لديهم أوقات فراغ كافية اذ هم فى صراع شبه مستمر مع البيئة القاسية وفى توجس وحذر منهجوم مباغت يشنه أعداء متربصون يدفعهم الفقر او الطمع .

ولم يكن الخان بمعزل عمايعيشه قومه من حوله آنذاك غير أن حياة المغول تغيرت والامبراطورية تكونت واتسعت وزاد الرخاء من جراء الغزو و ما استتبعه من أسلاب وضرائب وجزية.. الخ . ولم يعد شبحالجوع يهدد حياة المغول وبخاصة فى فصل الشتاء القارس وعندئذ وجد المغول وخاناتهم فرصة للتسلية وتمضية أوقات الفراغ ..

أولا: الصيد :

تحول الصيد تدريجيا ليصبح وسيلة من وسائل الترفيه والرياضة وبخاصة عند الخان المغولى غير أن هذا لم يحدث الا فى أواخر أيام جنكيز خان" فقد قاد فرقته الخاصة الى أعالى التلال ليصطاد وليأخذ قسطا من الراحة" (٢) غير أنه سقط عن فرسه وهو يصطاد وكان خنزير برى ان يقتله فاغتنم الحكيم تشان تشونج فرصة الحادث ليقنعه بالاقلاع عن الصيد بسبب تقدمه فى السن". (٣)

(١) سورة الروم الاية رقم (٢١)
(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١٣
(٣) د.بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٣٨.

ولما كان الخاقان الاعظم منكو صورة تقترب كثيرا من جده جنكيز خان اذ كـــان يكره الترف وينكر المباذل فان هوايته الوحيدة كانت هى الصيد" ٠ (١)

أما قوبيلاى قا آن الذى تأثر كثيرا بأساليب الحضارة الصينية فقد كان لهوة الاول هو الصيد وكان يسهم فيه من على ظهر فيله فى محمل له بمثابة غرفة أثناء تنقلاته" ٠ (٢)

وفى الحقيقة لم يكن قوبيلاى يصطاد أملا فى الحصول على الطرائد ٠ وانما كـــان يهدف الى تمضية أوقات الفراغ وكذا اختبار قدرات رجاله٠ من الناحية العسكرية والتنظيمية٠

ولم ينس هولاكو ـ وكان موقدا من قبل أخيه الخاقان الاعظم منكو لتدمير قـــلاع الاسماعيلية ـ أن يقوم بتنظيم رحلة لصيد الاسود على الضفة اليسرى لنهر أموديا" ٠ (٣)

وكذلك عرف عن اباقا بن هولاكو انه كان مغرما بالصيد كما كان يحب أن يـــرى المهرة من الصيادين ويقف على براعتهم فى الصيد" (٤)

أما غازان خان فانه عند ما كان يركب للصيد كان يأمر أتباعه بأن يشتروا كل مايلزمهم ويلزم الخاصة الخانية من مأكولات ومشروبات باثمان عادلة فوضع بذلك حدا للفوضى والظلـــم والاغتصاب على النحو الذى كان سائدا قبله" ٠ (٥)

وهكذا رأينا كيف تطور الصيد حتى غدا احدى وسائل التسلية عند خانات المغـــول مع مرور الزمن ٠

ثانيا : الرياضـــة :

كان المغول يهتمون بالرياضة اهتماما كبيرا ولذا كانوا يعلمون ابناءهم منذ الطفولـــة ركوب الخيل وفنون المبارزة والمصارعة وكانت المباريات تقام لتنمية روح التنافس وعلى سبيـــل المثال كان تيموجين بارزا بين أقرانه فى فن المصارعة فقد كان باستطاعته أن يتغلب علـــى أقوى المصارعين" ٠ (٦)

وكان الخاقان الاعظم أوكتاى مولعا بمشاهدة مباريات المصارعة وقد اجتمع عنده عدد من المصارعين فذكر له انسان بخراسان فأحضره فصرع جميع من عنده فأكرمه وأعطاه وأطلق له بنتا من بنات الملوك حسناء" ٠ (٧)

أماقوبيلاى قا آن فكان يستمتع بلون آخر من الرياضة اذ كان يتلهى بلعبه الكـــرة

---

(١) د٠ السيد العرينى : المغول ص ١٩٨

(٢) د٠ ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٣

(٣) د٠بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٩٠

(٤) د٠ فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ١١٦

(٥) نفس المرجع ص ٣٣٢

(٦) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٩

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١٢١

الهوائية التى كان يشترك معه فيها كبار موظفيه" (١)

وأغلب الظن ان ذلك كله كان يتم فى مقر الخان فى مكان متسع يخصص لهذه الرياضيات ويتاح لاكبر قدر من الاتباع أن يشاهدوها .

ثالثا: مجالس الشراب واللهو :

كان المغول - كما ذكرت - يفرطون فى شرب الخمر وبخاصة القوميس الذى كـــان يصنعونه من اللبن المخمر وهو شراب قوى جدا كما وصفه الرحالة الاوروبيون الذين كانـــوا - ولا شك - متمرسين بانواع الخمور المختلفة .

وفى مقر الخان كانت تعقد مجالس الشراب ، فيستمع هو ومن يجب أن يشاركه الشراب تحت رعايةحرسه الخاص أما الذين يتصادف وجودهم أثناء انعقاد هذه المجالس فكان يباح لهـم أن يمثلوا فى حضرة الخان ولا يسمح لهم بتعاطى الشراب الا أن يأذن لهم الخان نفسه وآيـــة رخصته هى أن يأمر الموسيقى فتعزف". (٢)

وعلى الرغم من أن جنكيز خان قد اشار فى الياسا الى خطورة تسلط الخمر علـــى صاحبها فقد كانت مجالس الخمر لديه تعقد عادة بعد اتمام الغزو أو الانتهاء من الاجتماعـــات المهمة ، أو كيفما شاء.

ولقد تجاوز أوكتاى بكثير أية حدود وضعها جنكيزخان فقد كان مولعا بالخمر الى درجة كبيرة عجلت بوفاته.. وحتى أن أخاه الاكبر - آنذاك - جغتاى اضطر الى لفت نظره الـــى افراطه فى شرب الخمر فلجأ أوكتاى الى الحيلة ليتفادى ذلك". (٣)

والعجيب أن جغتاى نفسه كان مفرطا فى تناول الخمر حتى أنهاكانت احدى أسبـــاب وفاته هو الاخر سنة ١٢٤١م (٤)

أما كيوك وهو أول أحفاد جنكيز خان فى تولى منصب الخاقانية فقد كان شديد الولـع بالخمر والنساء حتى أحاله التهالكعلى الملاذ الى كائن عبوس كئيب سقم النفس والجسد". (٥)

ولم يكن منكو مفرطا فى تعاطى الخمور كمن سبقوه لكنه يسمح بأن يكون فى بلاطـــه مجالس للخمر ولو على سبيل البروتوكول .. وقد وصف الراهب وليم روبرك - الذى كـــان مبعوثا من قبل لويس التاسع الى المغول مزار باتوخان فى القبجاق ثم التقى بالخاقان الاعظم منكو عند جبال اكتاى وعاد منحيث أتى دون أن يزور الصين - فقال بعد أن شاهدهـــا بنفسه - ان مجلس الشراب بدأ عند الظهر واتمسر الى المساء وكان متعة للنظر ."ويضيـف هامرتن الى هذا.. أن ا لحضور كانوا يبدأون فى الرقص على صوت القيثارة ا لوطنية ويحتسون الشراب بافراط فى فترات الاستراحة". (٦)

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٣
(٢) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٣٨
(٣) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٦٠
(٤) د.حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى والدينى والاجتماعى جـ٤ ص ١٥٢
(٥) د.بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزوالمغولى ص ٦٧٦
(٦) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٠

فلو صح قول هامرتن لاعطى دليلا على مدى تأثر بلاط منكو بما كان يجرى فى القصور الملكية فى اللصين أو روسيا أو دل غرب أوربا حيث كان تعاطى الخمر مرتبطا دائما بالرقص والموسيقى •

أما قوبيلاى قا آن فكان – بدوره – يتلهى بمعاقرة السكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى" •(١)

غير أن هناك رأى يقول أن قوبيلاى كان قليل الاهتمام بالنزوات ولهذا كان معتدلا فى تدبير الشهوات والشراب واللهو •

وأغلب الظن أن قوبيلاى كان متأثرا بحضارة وسلوكيات الصينيين فلا غرو أن كان مثل اباطرتهم فكان يكثر من الشراب والملذات ويستمتع بعروض الرقص الصينى المصاحب بالعزف الموسيقى •

ولم يكن خانات المغول فى التركستان وبلاد ماوراء النهر ليغفلوا اقامة مجالس الشراب فى بلاطهم وقد رأينا كيف كان جغتاى نفسه مسرفا فى تعاطى الخمور ومثله كان ابنه الخان بيسكو منكو الذى فرضه كيوك الخاقان الاعظم – لصداقة بينهما – على عرش الجغتائية وعزل بسببه قراهولاكو حفيد جغتاى •• كان" هذا لايفيق من السكر حتى ان زوجته "نوقاشى " هى التى كانت تدبر شئون المملكة بما فى ذلك تنظيم الصيد" •(٢)

غير أن قايدو بن قاشين بن أوكتاى – الذى أسس دولة مغولية مستقلة فى غرب منغوليا وجبال (آكتاى) وكان ابوه قد أسلم نفسه للخمر فمات فى سن مبكرة أخذ يلفت النظر بوقاره" فهو وان كان ابنا وحفيدا لرجلين أفنيا حياتهما فى معاقرة الخمر• كان الوحيد من بين كل آل جنكيزخان الذى لم يمس خمرا ولا قوميس ابدا" •(٣)

وأميز من ذلك كان الخان مباركشاه الذى تولى أمر الجغتائية لمدة عام واحد فقد كان مسلما لايشرب الخمر وكان على أفضل مايكون الحاكم كياسة ووقارا •

كذلك كان هولاكو كبقية أفراد عائلته يستمتع بحياته الى أقصى درجة ومنذ أن بدأ فى الظهور على مسرح الاحداث السياسية وقبل أن يرتقى عرش الايلخانية ففى سنة ٦٥٣هـ /١٢٥٥م فى بداية حملته الشهيرة على قلاع الاسماعيلية – " عسكر فى مراعى" كانى – كل "الواقعة على ابواب سمرقند ،وهناك أقام له الوزير مسعود بلخيمة من النسيج كان غطاؤها من الفرو الابيض فبقى هولاكو حوالى أربعين يوما هناك قضاها فى الشراب والمتعة" •(٤)

فلما عبر نهر جيجون ونزل فى مراعى (شقورقان) قضى وقته هناك منصرفا الى اللهو والاستمتاع وقد أعد له الامير أرغون (الاويرانى) سرادقا ضخما من الكتان الناعم مثبتا بألف مسمار وفيه صحون ذهبية وفضية• "(٥)

ولم يكن أباقا بن هولاكو أقل اسرافا من أبيه فى اقامة مجالس الخمر واللهو حتى

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩١
(٢) د• بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٨
(٣) د• بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٧٠٥
(٤) د• جعفر خصباك : العراق فى عهد المغول الايلخانيين ص ٤٧
(٥) نفس المصدر السابق ص ٤٨

ليعد الخمر واحدا من أسباب وفاته فلقد زاد هذيانه وكان يرى قبيل وفاته خيالات تتحرك فى الهواء.

أما الايلخان كيخاتو فقد فاق كل أسلافه ومن جاءوا بعده فى هذا المجال فبزهم جميعا.. فقد كان لايبالى بالمحرمات حتى انه كان يفسق بنساء المغول وصبيانهم كما كان ولعا بالشراب مصابا بالشذوذ الجنسى واللواط حتى أنه أنفق خزائن الدولة على تلك الملذات (١) فثار عليه المغول واعتبروه خارجا عن الياسا فقتلوه شر قتله وكان ذلك على يد بايدو الذى خلفه على العرش.

وعلى النقيض من ذلك نجد مثالين عظيمين فى هذا المجال : أحمد تكودار (٦٨٠ — ٦٨٣هـ) ومحمود غازان (٦٩٤ — ٧٠٣هـ) فقد هداهما الله الى نور الاسلام فتركا الظلمات الى انور واستبانا وجه الحق فاذا هما — رغم محاولات البوذية والمسيحية — مسلمان لايقربان الخمر ولايسمحان به فى مجلسهما.

وعلى نفس المنوال سار بركة خان زعيم القبيلة الذهبية فى القبجاق والتزم كثير من خلفائه بهذا النهج : مثل ، تدان منكو، تلانغا، فقد كانوا مسلمين ملتزمين .

عموما يمكننا أن نقول انه فى الوقت الذى اهتدى فيه خانات المغول الى الاسلام اختفت لديهم مجالس الشراب واللهو .

رابعا : الاحتفالات :

كانتاحتفالات المغول — فى بداية عهد جنكيزخان — تكاد تقتصر على الاحتفالات الاجتماعية العادية كالزفاف وميلاد الاطفال وعودة فرسان القبيلةمن الحرب او الصيد.

وكذلك كان الربيع — وهو فصل قصير وجميل — يعتبر العيد السنوى حيث تتحسن فيه أحوال المغول ويكثر بينهم ا لمرح والسرور والبهجة نتيجة لتحسن احوال المناخ ووفرة الغذاء والنبات.

غير أن المستشرق المجرى أرمنيوس فاميرى يصور الحالة النفسية للمغول أثناء احتفالاتهم تصويرا غريبا — يقول "و هم قوم يغلب عليهم البكاء فى أعيادهم" (٢) . ولايملك المرء الا أن يندهش لهذا..!!

وبدهى أن جنكيز خان بعد أن استقرت له الامور اعتبر انتصارات المغول — على كثرتها — اعيادا يستحق الاحتفال بها .. فكان يبيح للامراء من أسرته وكذلك أشراف الجند "الطرخانات" بالدخول الى بلاطه اثناء الحفلات فيتناول كل منهم كأسا من الشراب من يد الخان نفسه". (٣)

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٣٩ ،ابو الفدا — تاريخ المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ ص ٢٦ ، ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٥٤٧.

(٢) ارمنيوس فاميرى : تاريخ بخارى ص ١٨٢

(٣) د.فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٨

وفي عهد خلفائه أوكتاى وكيوك ومنكو كانت الاحتفالات تجرى فى البلاط عقب عقد القوريلتاى او عقد مؤتمر الحرب تاو وفقا لرغبة الخاقان الذى اتسعت تدريجيا اتصالاته بالدول الاوروبية والصديقة وكذا تلقى انماطا من البروتوكول لدى شعوب وحضارات مجاورة .

أما لدى قوبيلاى قا آن الذى غدا امبراطورا صينيا أكثر منه خاقانا ، أعظم للمغول ومع طول عهده تعدده الاعياد والاحتفالات الرسمية فى البلاط فكان ذلك آية استقرار الامور له فى مملكته . وكان أهم الاعياد جميعا عيد تتويج الامبراطور وفيه تقام الصلوات وتعزف الموسيقى ويرتدى قوبيلاى وكبار موظفيه الثياب المذهبة ويتقبل الضرائب والهدايا العينية من رعاياه ويختتم الحفل بتكرار السجود للامبراطور مرات تسع". (١)

أما العيد الذى يلى ذلك فى الاهمية فهو عيد رأس السنة الجديدة الذى يحتفل به فى فبراير (شباط)* من كل عام وترتدى البلاد كلها حلة بيضاء فيه ويحاط الامبراطور فى هذا العيد بأفراد عائلته وتقدم له الهدايا ثم ينجز اللوحة الذهبية التى تحم اسم الامبراطور والتى تكون موضوعة على طاولة اشبه بالمذبح". (٢)

والعيد الثالث الذى يحتفل به فى بلاط قوبيلاى قا آن هو عيد ميلاد الامبراطور فى شهر سبتمبر فيقدم الى تهنئته بالبلاط ما لايقل عن اثنى عشر الفا من النبلاء والضباط وقد ارتدواجميعا ثيابا صفراء وتمنطقوا بأحزمة ذهبية وهذه الثياب جميعا قد صنعت على نفقة الامبراطور الذى يكافئ رجاله بها مكافأة ملكية حقا". (٣)

وهكذا رأينا معانى البهجة والسرور والسعادة تفيض بها احتفالات المغول والملابس الجميلة الملونة واجتماع أصحاب الشأن فى البلاد وتبادل التهنئة ، فأين هذا كله من عبادة قامبرى .

ومن المؤكد أن المغول عندما أسلموا تغيرت أعيادهم وأنماط احتفالهم لتكتسب روح الاسلام فى عيديه العظيمين عيد الفطر وعيد الاضحى فأكرم بهما من عيدين لهما من المعانى الانسانية ما يفوق أية أعياد أخرى أية كانت هويتها .

خامسا : الولائم :

لم يكن المغول يعرفون ـ أول أمرهم ـ ما يتبع فى اقامة الولائم فقد كانت طريقتهم ساذجة بسيطة ، يغلب عليها طابع البداوة .

فلما اتسعت الامبراطورية واطلع المغول على أنماط غيرهم من الام فى هذا الشأن ظهرت لديهم الولائم الفخمة " وقد أدهش جنكيز خان مدعويه حينماحضروا مآدبته بما أبداه فيها من ضروب البذخ فى آنية الطعام والوانه وكئوس الشراب وفخامته . أما الفاكهة الغريبة فكان احضاره

---

(١) جون أ. هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٧

* الاحتفال بعيد رأس السنة فى شهر فبراير (شباط) ينفى أثر المسيحية حيث يحتفل المسيحيون بهذا العيد فى الليلة الاخيرة من شهر ديسمبر فلعل التأثير هنا ناجم عن البوذية التى كان يعتنقها قوبيلاى قا آن .

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٢

(٣) جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٧

الخيل لم يتوانوا عن الجرى بها فى ليل أو نهار" . (١)
لها من بلادها البعيدة دون ان تفسد معجزة كبرى فىنظر القوم فقد أحضرها سعاة على

ويبدو أن ذلك قد جرى بعد انتصار جنكيز خان على امبراطور الصين الشمالية فقد ظهر الاثر الصينى واضحا فى هذه المأدبة .. "ففى أثناء تناول المدعوين للطعام كانت أغانى المطربات والقيان الصينيات تصل الى أسماعهم تزجيها أنغام المزمار والصنج ثم ظهرت راقصات صينيات أيضا عرضن على الطاعمين فنون رقصهن" . (٢)

وأحيانا كانت المآدب تأخذ شكلا حزينا تماما كماحدث " فى تنصيب أوكتاى خانا اعظم للمغول بعد وفاة أبيه . فقد ظل المغول بعد أن انتهت مراسم الحفل مستمرين ثلاثة أيام يهيئون الطعام ويقدمون القرابين على روح جنكيز خان" . (٣)

أما الولائم التى أقامها قوبيلاى قا آن فكان صينية صرفة وفى الحقيقة كان كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليمة فاخرة وقد وصف لنا تنظيمها "ماركوبولو" يقول .. " ويجلس الامبراطور باتجاه الجنوب أمام الطاولة العليا بحيث يستطيع رؤية جميع مدعوية ويوضع على طاولته اناء ذهبى كبير يعترف منه النبيذ بأكواب من الصينى المذهب ويسكب فى أكواب أصغر حجما ، ملأى بالتوابل — ويؤمن خدمه الخان أسياد عظام يستر وجوههم حجاب حريرى مذهب" (٤)

وكانت زوجات قوبيلاى المفضلات يجلسن على نفس مستواه الى يساره فى حين كان يجلس على يمينه أولاده وأقاربه ومعهم زوجاتهم وقد هيئت موائدهم فى وضع تكون رؤوسهم عند قدميه وعلى هذا القياس كان يجلس الاعيان وزوجاتهم با لنسبة لمجلس الامراء أما الضباط العاديون والجند فكان عليهم أن يقنعوا بافتراش الارض المفروشة بالبسط" . (٥)

وتقدم الى الخان أصناف المأكل والمشرب فاذا بالالات الموسيقية تعزف حين يهم بالشراب فيبادر الحاضرون فيحبثون الى أن يشفى غلته (٦)

أما الطعام فلا شك فى أن الصينيين كانوا أعرق من المغول فى فن الطبيخ وان كان بولو يكتفى بأن يذكر لنا أن الطعام كان فى كميات وافرة فى كل صنف حتى اذا ما انتهت الوليمة رفعت الموائد وجئ باللاعبين والحواة ليرفهوا عن القوم بالعابهم وحيلهم وهم منهمكون فى الشراب ، كذلك يذكر بولو أن القوم كانوا عند الدخول يحذرون التعثر بالاعتاب ولكنهم حين كان يستخفهم الطرب لا يبالون عند انصرافهم بذلك" . (٧)

وبالاضافة الى ان الولائم كانت تقام فى الاعياد والاجتماعات الهامة واستقبال الملوك أو الرسل (السفراء أو فوق العادة) كانت تعتبر كذلك احدى وسائل الترحيب بكبار عظماء

---

(١) الكاتب الصينى ف.بان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢١
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢١
(٣) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٢
(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٢
(٥) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٦
(٦) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٢
(٧) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٦ .

المغول ففى خريف سنة٦٥١هـ /١٢٥٣م وحينما بدأ هولاكو زحفهووصل الى المالبغ(من مدن مملكة أولاد جغتاى)جاءت أورغنه خاتون (ا لوصيةعلى عرش الجغتائيين) لاستقباله وأقامت له عدة ولائم". (١)

ولم تكن مأدب أوحفلات السلطان محمود غازان على هذا النحو الذى كان يتبعه المغول الوثنيون الذين كانوايشربون الخمر ويجلسون مع النساء بل كان يعطى مآدب وحفلات مينة اسلامية وعلى سبيل المثال فقد أقام فى فسطاطه فى(أجان) حفلة افتتحت واختتمت بقراءة القرآن وحضرها رجال الدين ولم يسمع أن امرأة حضرتها". (٢)

سادسا : الرقص والموسيقى والغناء :

كانت موسيقى المغول الاول بدائية مثل حياتهم تماما فلم يكن لديهم من آلات العزف سوى الربابة ذات الوتر الواحد وهى آلة بسيطة يمكن صناعتها بأيسر مايكون فهى لا تتجاوز قطعة خشبية مرنة ووتر يصنع من أمعاء الحيوان وعندما يلامس الوتر المشدود الى العصا المرنة التى تشبه القوس أى عصا أخرى تصدر عنه نغمه مكررة.

وكانت مناسبات الزفاف فرصة ملائمة تقدم فيها الوان من الموسيقى والغناء الذى يصاحبه التصفيق القوى بين الحاضرين وبعض قفزات هناوهناك يقوم بها شباب القبيلة تعبيرا عن سعادتهم . كذلك كان يمر بين الحين والاخر رجال مسنون ينشدون قصص الاجداد ويمدحون فروسيتهمو مناقبهم.

فلماحدث الاتصال بينا لمغول والشعوب المجاورة التىعرفت حياة القصور والقيان وازدهرت فيها هذه الفنون الى درجة كبيرة بدأ التأثير واضحا لدى المغول منذ عهد جنكيزخان الذى خصص فى سرادقه مجموعة من الفتيات الاسيرات من بلاد الصين الشمالية كن يغنين بالنغم العذب لادخال السرور عليه قلبه". (٣)

وعندماس قطت بخارى تحت وطأة المغول أراد جنكيزخان أن يستمع الى لون من الغناء يحبه.. فقد بدأ غلام يغنى.. وكانت أغنيته ملأى بالتفجع على الابطال الصرعى وعلى استقلال بخارى الذى داسته أقدام الاعداء وكانت النسوة يقطعن هذه الاغنية بالنحيب والعويل وارتفع بكاء جميع الخوارزميين المحيطين بالميدان حتى الشيوخ اخضلت لحاهم بالدموع". (٤)

وانطلق جنكيز خان يضحك ويقهقه وهو يقول : ياللسماء هذه هى الاغنية التى أطرب لها فعلا فلينتحب العالم اجمع كيما يضحك جنكيز خان اه لو تعلم يامحمود* اننى عندما أضع قدمى على صدر عدوى احب ان اسمعه يصرخ ويتوجع ويطلب الرحمة ولا أرحمه". (٥)

---

(١) د. جعفر خصباك : العراق فىعهد المغول الايلخانيين ص ٤٧

(٢) د. مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٣٩

(٣) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٦

(٤) الكاتب اصلينى.ف .يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٥٩

* محمود الخوارزمى : سفير جنكيز خان الىخوارزم شاه قبل سقوطه وكان مستشارا بارزا لجنكيزخان وخلفائه وتولى ادارة بلاد التركستانوما وراء النهر والصين .

(٥) الكاتب الصينى ف. يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٦٢

وازداد اعجاب جنكيزخان بفنون الرقص والغناء والموسيقى حتى انه اتخذ وسيلة تسلية أثناء الغزو وعلى هذا ففى اثناء مطاردته للسلطان جلال الدين منكبرتى عند نهر السند اعتصم من حرارة الطقس بالجبال العالية وأخذ يقيم السهرات الليلية ويستمع فيها للرواة من الصين والفرس على حين كانت الراقصات البارعات من منشوريا يعرضن على أنظاره فنونهن الرائعة فى أثوابهن الفاخرة ذات البهاء واللالاء" (١)

وبمرور الوقت وازدياد عظمة البلاط وتعدد الحفلات والولائم ومجالس الشراب وكثرة الاعياد التى بدأ الامبراطور يهتم بها شخصيا كعيد التتويج ورأس السنة وميلاد الامبراطور نفسه — اصبحت الموسيقى جانبا مهما فى هذا كله وارتبط بها غالبا الرقص والغناء.

وفاة الخان :

الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة كما يقول بعض الفلاسفة وهو أحد معالم المساواة التى يشترك فيها البشر جميعا على اختلافهم وتنائيهم وقد توفى جنكيز خان فى الثانية والسبعين من عمره وكان متوجها فى حملته الاخيرة ضد قبائل التانجوت التى أعلنت الثورة انذاك غير أنه بدأ يرى فى بعض الطريق رؤى مزعجة وصار يتحدث عن قرب موته ويقول ان جميع الناس يؤثرون الموت فى ديارهم بيد أننى أوثر أن أموت وسط جيشى. ولما أخذت العلة تشتد عليه يوما بعد يوم وأحس بدنو أجله أمر ألا يذاع خبر موته بأية صورة فلا بكاء ولا عويل حتى لا يشمت العدو ويطرب" (٢).

ويبدو أن السبب فى مرضه الاخير — بالاضافة الى الشيخوخة — يرجع الى رداءة الجو على شاطئ نهر السند أثناء مطاردته للسلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى فقد كان الهواء متعفنا من جراء تراكم جثث القتلى وتناثرها فى كل مكان تقريبا. (٣) وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ٦٢٤ (٤) الموافق لعام ١٢٢٧م.

أما أوكتاى فقد كان الافراط فى الشراب هو السبب فى موته وفقا لقول الجوينى فى الخامس من جمادى الثانية ٦٣٩ هـ ديسمبر ١٢٤١م" (٥)

ولم تطل فترة ولاية كيوك خان لانه فى سنة ٦٤٧هـ توفيت والدته ثوراكينا خاتون بقراقورم فرحل عنها متوجها ناحية الغرب ولما وصل الى ناحية (كمستكى) فى اتجاه القبجاق ادركه أجله فى ربيع الاخر من نفس السنة" (٦) ومن المعروف عن كيوك أنه أيضا كأبيه كثير الشراب والشهوات حتى لقد أصبح كثير المرض والسقم.

ولما مات كيوك سنة ١٢٤٨م/٦٤٦ هـ خلفه على عرش المغول ابن عمه منكو فتآمر عليه أحفاد (أوكتاى) لخروج الملك من فرعهم ولكن (منكو) أسرع بالقبض عليهم وقتلهم قبل أن تفلح مؤامرتهم". (٧)

---

(١) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢١٦

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٢٤

(٣) عباس اقبال : تاريخ مفصل ايران ص ٦٥

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٦

(٥) بارتولد: تاريخ التركستان قبل الغزو المغولى ص ٦٧١

(٦) رزق الله منقريوس الصدفى : تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢٧٨

(٧) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٥، وانظر د. ستيفن رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٦، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٨، ٤٥٩

وقضى الخاقان الاعظم منكو نحبه فى أغسطس ١٢٥٨ بينما كان يشترك مع أخيه قوبيلاى فى القتال بالصين"(١) وليس هناك ثمة دليل على أنه قد قتل فى ميدان الحرب.

أما قوبيلاى قاآن فقد توفى فى عام٦٩٣هـ / ١٢٩٤م ولم أعثر عند المؤرخين على سبب غير عادى لوفاته ومن الراجح أنه قد عمر طويلا فقد عاش أكثر من سبعين عاما.

وفى الايلخانية تعددت الاسباب والموت واحد فقد توفىهولاكو بعلة الصرع الذى اعتراه منذ قتل صاحب ميافارقين الملك الكامل محمد غازى حتى انه كان يصرع فى اليوم مرتين وكانت وفاته بمراغة سنة ٦٦٤ هـ(٢) ويقال أنهم صبروه وجعلوه فى تابوت.(٣)

أما أباقا بنهولاكو فقد توفى بهمذان فى ذى الحجة عام٦٨٠هـ /١٢٨٢م ويقال انه مات مسموما(٤) او أنه مات بمرض هذيان السكارى (نوع من الحمى نتيجة للسكر الشديد)(٥) حيث تغير مزاجه وصار يرىخيالات فى الهواء"(٦)

وأغلب الظن أنه توفى نتيجة افراطه فى الشراب وحزنه على هزيمة أخيه منكو تمر فى سورية أمامالمماليك(٧).

وكان الايلخان المسلم أحمد تكودار أول حاكم مغولى فى ايران يدفع حياته ثمنا لاسلامهوكان ذلك بأمر ابن أخيه أرغون بن أباقا الذى وافق على اعدامه فى جمادى الاولى سنة ٦٨٣هـ / أغسطس ١٢٨٤م(٨). بعد أنحملوه اليه بطريقة بعيدة عن الشهامة والنبل. ويدهى أن ذلك مخالف تماما لقوانين المغول التى تنص على ضرورة احترام مكانة الخان ايا كانت الاسباب او الظروف.

وعبثا حاول أرغون خان أن يطيل عمره وأنى له ذلك فقد ركب بعض السحرة الهنود لارغون دواء ليحفظ الصحة ويديمها ولكن هذا العمل أتى بنتيجة عكسية اذ اشتدت عليه العلة وأصيب بالفالج وساءت حالته حتى مات "(٩) ويقال ان دواء السحرة هذا اشتد أثره العكسى بأرغون حتى أصابه الصرع فمات به"(١٠) . فما أقرب الشبه بين وفاته وبين وفاة جده هولاكو وكلاهما اشتد فى ايذاء المسلمين وتعذيبهم وقتلهم فكان هذا جزاء وفاقا". وكان ذلك فى عام ٦٩٠ هـ .

أما كيخاتو شقيق ارغون فقد اعدم خنقا فى جمادى الاولى سنة٦٩٤ هـ الموافق أبريل ١٢٩٥م قتله امراء المغول لانحلاله وفسقه وعبثه بنسائهم واولادهم.(١١)

---

(١) د. السيد الباز العريني: المغول ص ٢٥٥
(٢) الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ابن الوردى :تاريخ ابن الوردى ج٢ص٢١٨
(٣) الكتبى : فوات الوفيات والذيل عليها ج ٤ ص ٢٤١
(٤) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٢٩
(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة تالمغولية فى ايران ص ١٦٥
(٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٥
(٧) د. فوءاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد الايلخانيين ص ١١٤
(٨) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧١
(٩) د. فوءاد الصياد: موءرخ المغول الكبير ص ٦٤
(١٠) ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٥٤٦ ، رزق الله منقريوس الصدفى: تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢٨٥
(١١) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٦

ولم يتح لخلفه بايدو ان ينعم طويلا بالحكم أو الحياة فلم تتجاوز فترة ولايته بضعة شهور حتى نهض فى وجهه غازان بن أرغون مطالبا بثأر عمه كيخاتو وبأحقيته فى الحكم فجرى اعدام بايدو فى ذى الحجة سنة٦٩٤ هـ على يد نوروز قائد جيش غازان.(١)

وجاءت وفاة غازان مفاجأة غير متوقعة اذ لم يكن قد وصل بعد الى سن الاربعين. وكانت الوفاة على أثر معركة مرج الصفر التى انهزمت فيها جيوشه أمام المصريين سنة ٧٠٣هـ ، اذ لمابلغه الخبر اغتم غما عظيما وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت واحتجب حتى عن الخواتين (٢) ويبدو أن الحمى الحادة قد لحقته حتى مات مكودا بها أيضا(٣) غير أن الشوكانى ينقل عن الحافظ الذهبى سببا غريبا لهلاك غازان فيقول " واشتهر انه سم فى منديل يمسح به بعد الجماع فتعلل وهلك". (٣)

ويبدو هذا الرأى الاخير ضعيفا بالقياس الى ما سبقه فأغلب الظن أنغازان خان توفى متأثرا بالهزيمة القاسية فى معركة" مرج الصفر" من الهم والكمد وقد كان شديد الثقة بنفسه معتدا بقوة جيوشه .

وفى خانية القبجاق بيت اولاد جوجى بن جنكيز خان يعتبر بركة خان بن جوجى من أشهر خانات المغول هناك لانه أول خان اعتنق الاسلام وعمل على نشره وحارب هولاكو من أجله واستمر على موقفه ثابتا فى وجه أباقا بن هولاكوغير أنه توفى بمرض الفالج عام ٦٦٤ هـ وكانت وفاته بالقبجاق" (٥) وعم المسلمين حزن شديد لوفاته.

وبعد سلسلة من الخانات المسلمين فان تلابغا بن منكوتمر قد أغتيل سنة ٦٩٠هـ بتدبير من (توقتو) الذى تولى الحكم ولم يكن مسلما". (٦)

وفى خانية التركستان وبلاد ما وراء النهر فان جغتاى بن جنكيز خان قد توفى سنة ١٢٤١ م فاتهمت زوجته وزيريه بدس السم له وانتهى الامر الى قتلهما وأولادهما وكل من يتصل بهما". (٧)

ورغم الصراع العنيف على الحكم وتدخل الخاقان الاعظم العزل بعض الخانات فى التركستان او بلاد ما وراء النهر فانمعظم أولئك الخانات كانت وفاتهم عادية.

وهكذا رأينا. أن معظم خانات المغول – على كثرتهم – قد قتلوا بالاعدام أو بدس السم أو بأمراض نفسية كالصرع والهذيان والاكتئاب او نتيجة افراطهم فى الشراب والشهوات . وكلها أمور تدل على أن حياة أولئك – على وجه العموم – لم تكن مستقرة أو هادئه بل لم تختلف عن حياة غيرهم كالمماليك فى مصر والشام على سبيل المثال.

---

(١) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٨

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٩٣٧

(٣) الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ص ٤

(٤) ابو الفدا : كتاب المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٠، ابن خلدون : العبر ج٥ ص ٤١٨.

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٢٢

(٦) اسماعيل الخالدى : العالم الاسلامى والغزو المغولى ص ٢١٠

(٧) بارتولد : تاريخ تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٢

الفصل الثانـــى

شئون الحكم والحياة الرسميـــة

١ ـ أعمال البروتوكـــول

أ) تقديم التقاريـر

ب) الرسائل الديوانية

ج) الاختـــام

د) البراليـــغ

هـ) البايزات

و) الالقـــاب

ز) تسجيل اقوال الخان

ح) الوقوف بين يدى الخان

ط) ايفاد الرسل واستقبالهم ٠

٢ ـ القوريلتاى

أ) الحضـــور

ب) مكان الاجتماع

ج) قرارات الياسا

د) وصية الخان الراحل

هـ) هيئة المجلس

٣ ـ مكافأة الاعوان ومجازاة الخونة بالبلاط

شئون الحكم والحياة الرسمية

تمهيـــد :

يقاس عمر الدول فى التاريخ بمقدار استقرارها وقدرتها على تأكيد معانى الحضارة فيها ومن معالم ذلك تنظيم شئون الحكم ورقى نظم الادارة.

ولم يكن المغول – وهم بدو – يعرفون شيئا عن نظم الادارة (البروتوكول" وأنــى لهم ذلك وهم يعيشون حياة رعوية تنتقل بهم هناوهناك دون استقرار فى مكان ثابت . وفــى الحقيقة لم تكن نظمهم العامة لتتجاوز حدود النظام القبلى الذى درجوا عليه.

كذلك أدى ا نتشار الجهل والامية وشيوع الخرافات و الاساطير الى قصور بين عــن ادراك اهمية أى تنظيم حضارى لدى الامم المجاورة التى كانوا يغيرون على أطرافها فــى أيام القحط والجفاف.

على أن جنكيز خان – رغم جهالته – تميز بالادراك السليم لكل شئ حوله فوقــر فى نفسه أنيستفيد بكل ماهونافع أو جديد يجده عند الاخرين ولم كانوا من أعدائه.

البروتوكـــول :

يقصد بالبروتوكول مجموعة النظم واداب السلوك التى يلتزمها رجال البلاط فى تصريــف شئون الدولة.. وبالطبع لم يكن ينتظر من المغول – فى البداية – أن يكونوا على نفــس درجة معاصريهم فى هذا الشأن. لكنهم كانوا يكنون أعظم أيات الطاعة والاحترام لزعمائهـــم وخصوصا جنكيزخان ولذلك كان سلوكهم فى حضرته نموذجيا برغم تأخر بيئتهم الا أن سلوكهـــم كرجال حاشية كان على أحسن مايبتغيه أى كبير للامناء والتشريفات" (١) . فقد كانـــوا يحصرون على ألا يمسوا أجزاء خيمة الخان بما يسبب عدم نظافتها وكانوايدخلون فى صمـــت وهدوء ويخرجون على نفس الصورة رغم ماجبلوا عليه من خشونة فى الطبع وبدائية فى السلـوك ولا يمكن أن ترجع ذلك كله الى الرهبة من الخان أو الخوف من حرسه الخاص .

وبدهى أن يكون للبروتوكول فى بلاط الخان أنماط عديدة منها :

١ – تقديم التقاريـــر :

كان الخان الاعظم فى حاجة يومية الى سرعة التعرفعلى أحوال الامبراطورية التـــى اتسعت ولهذا اختار لنفسه كاتبا مميزا يكون رئيسا لكل الكتبة فى البلاط ويسمى (لنجـــون) وكانت وظيفته تلك تعادل ما يمكن أن نسميه كاتب السر" (٢) أو كاتم الاسرار.

وكان هذا الكاتب ملما بلغات عدة غير اللغة المغولية حتى يمكن أن ينقل فــورا الى الخان ترجمة فورية لبعض الرسائل المهمة .

---

(١) الكاتب الصينى ف. يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٥

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨٦

وكان على الكاتب أن يركع على ركبتيه – فى حضرة جنكيز خان – ويرفع اليه لفافة من الورق (التقارير) ولم يكن ذلك فى الواقع الا عملا من أعمال البروتوكول فقد كان الخاقان الاعظم يجهل القراءة والكتابة" (١)

ورغم ذلك كان جنكيز خان من الحصافة والحكمة بحيث يدبر فى رأسه التقارير التى تحمل اليه من جواسيسه وهم من كبار الرجال فى بلاد الأعداء ويميز بعقله الصحيح فيها من الزائف" (٢).

وفى الحقيقة كانت التقارير التى تعرض على الخان تشمل أمورا غاية فى الاهمية وكان الخان يعطيها من وقته وجهده ما يناسب تلك الاهمية فحتى مباريات الصيد كانت تحمل اليه عنها تقارير مفصلة تحوى كل ما دار فيها .. وهى التى كانت تشبه الى حد كبير مناورات الجيوش فى العصور الحديثة" (٣) فقد كانت فى الواقع اختبارا حقيقيا لمدى قدره الجيش على خوض المعارك القادمة.

وليس أدل على قيمة هذه التقارير من أن منكو ا لخاقان الاعظم جمع حكام البلاد المختلفة الخاضعة للمغول الذين كانوا قد اجتمعوا لانتخابه فى (قراقورم) للتشاور معهم فى وضع اساس قويم لحكم البلاد الخاضعة للمغول بوجه عام ومن بينها البلاد الاسلامية وقد طلب منكو من كل واحد من هوءلاء الحكام أن يكتب له تقريرا عن حالة الاقليم الذى بيده والطريقة التى يراها مناسبة لاستقرار الحكم فيه (٤).

٢ – الرسائل الديوانيـــة :

وهى الرسائل التى تصدر عن ديوان الحاكم متصلة بشئون الحكم والدولة وكان جنكيزخان قد أرسل الى "واى " وانج ، الامبراطور الذهبى الذى كان يحكم شمال الصين رسالة لايمكن ان تدل كلماتها بآيتحال على أنها رسالة من زعيم قبائل رجل جاهل الى امبراطور قوى عظيم فقد قال "لقد بلغ سلطانى الان حدا أستطيع معه أن أتقدم الى بلاد الصين فهل لى أن أسأل عما اذا كان الامبراطور الذهبى مستعدنا لاستقبالنا سوف تحضر على رأس جيش يهدر كالمحيط .. وسنبقى فى بلادكم الى أن يكون حليفنا النصر أوالهزيمة". (٥)

ولقد اختار اوكتاى بن جنكيز خان عبارة أوصى كتبته أن يدونوها فى صدر رسائله الموجهة الى الملوك بهدف ادخالهم فى الطاعة " .. من نائب رب السماء ماسخ وجه الارض ملك الشرق والغرب قا آن" (٦)

أما اذا كتب لاحد من أتباعه من خانات المغول فيبدأ باسمه قبلهم واذا كتبوا اليه بدأوا باسمه قبلهم وكلهم مذعنون له بالتقدم عليهم واذا تجدد فى مملكة أحد منهم فهم كبير قبل لقاء عسكر أوقتل أمير كبير بذنب أو ما يناسب ذلك ارسل اليه وأعلمه به وان كان لا افتقار الى استئذانه ولكنها عادة مرعية بينهم". (٧)

---

(١) الكاتب الصينى ف ٠يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٤
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٠
(٣) د٠ فوءاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٢
(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٣٢
عن هوارث : تاريخ المغول ص ١٩٢
(٥) د٠ هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٩
(٦) ابن كثير: ابلداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١٥٦
(٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧٧

ولا زالت رسالة أرغون خان الى فيليب الجميل ملك فرنسا تؤكد ذلك فهى كتبت باللغة المغولية وبحروف أويغورية وتبدأ الرسالة باسم الخان الكبير قوبيلاى قا ان ٠وتدور الرسالة حول ضرورة تحقيق تحالف مغول ايران مع مسيحى غرب أوربا فى القضاء على دولة المماليك فى مصر والشام" ٠ (١)

ولقد أشرت الى الرسائل التى بعث بها كل من كيوك والوصية على العرش أوغول قاميش وكذلك منكو الى البابا فى اوربا وملوك غرب اوربا وخصوصا القديس لويس التاسع ملك فرنسا وعلى نفس النمط رأى قوبيلاى أن يبعث مع (والد ماركوبولو وعمه) رسالة الى البابا يطلب فيها وعاظا من البابوية وكمية من الزيت المقدس يؤخذ من السراج الذى يضئ ضريح السيد المسيح فى القدس ٠٠٠ "وقد جهزهما بقرص شرف ذهبى كان بمثابة جواز سفر لهما وأمر بأن يكرم مثواهما ويسهل أمر سفرهما فى كل مدينة يحلان فيها داخل حدود مملكته" (٢)

أما هولاكو فقد اعتمد فى رسائله على العالم نصير الدين الطوسى الذى كان يجيد العربية والفارسية وعلى هذا فقد كتب غالبية رسائل هولاكو الى ملوك المسلمين فى ايران والعراق والشام ومصر" (٣)

ومما يؤكد ذلك ما تضمنته هذه الرسائل من أشعار وعبارات مستقاه احيانا من القرآن الكريم والادب العربى وتدل على معرفة والمام باللغة العربية ومثال من ذلك الرسالة التى كتبت لارهاب الملك السعيد صاحب ماردين قبل مهاجمته فى قلعته فقد ورد فيها "اهبط من القلعة وقدم الطاعة والولاء لملك العالم ليبقى لك رأسك ومالك ونساؤك وأبناؤك

مهما تكن قلعتك محكمة مرتفعة

فلا تغتر بأبراجها وارتفاعها

ولو بلغت رأسك السماء فانها ستصير ترابا تحت أقدام جيش المغول فان كان الاقبال والسعادة حليفين لك فعليك أن تستمع لنصحى وتعمل بموجبه أما اذا لم تستمع وخالفت اوامرى ٠ فالله المتعال أعلم بما يحدث" ٠ (٤)

هذا ولقد اتضح أثر الاسلام فى الرسائل التى كتبها خانات المغول بعد ان اعتنقوا الاسلام ومن أمثلة ذلك الرسالة التى بعث بها أحمد تكودار الى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ/ (١٢٨٢م) قد بدأها على هذا النحو " بسم الله الرحمن الرحيم" ، بقوة الله تعالى ، باقبال قا آن ، فرمان أحمد الى سلطان مصر ٠٠ أمابعد فان الله سبحانه وتعالى ، بسابق عنايته ونور هدايته قد كان ارشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته ٠٠٠٠ الخ" (٥)

---

(١) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٠
(٢) ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧١
(٣) على ظريف الاعظمى : مختصر تاريخ بغداد ص ١٣٢
(٤) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٣٢٤
(٥) د٠ السيد الباز العرينى: المغول من ص ٣٦٠ : ٣٦٤

٣ - الاختـــام :

لم يعرف المغول حتى مطلع عهد جنكيز خان شيئا عن الاختام أو طريقة صنعها أو استخدامها ولقد " أعرب جنكيزخان عن دهشته عندما صادف سنة ١٢٠٤م كاتبا تركيا فـــي خدمة زعيم النايمان وقد وقع فى الاسر حاملا خاتم سيده" (١)

وأخذ هذا الاسير يشرح له أن هذا الشئ المصنوع من الذهب كان خاتم مولاه الذى تمهر به الاوامر المكتوبة دليلا على صفتها الملكية وفى الحال أصدر جنكيز خان أمره بصنـــع خاتم مثله" (٢)

وهكذا برهن جنكيز خان عن قدرة ممتازة فى الاستفادة من السمات الحضارية حوله. وعلى هذا فكثيرا ما انتزع من يده خاتمه الذهبى وطلاه بحبر أزرق ليختم رسائله الى الملوك اما سائر الوثائق فكان يختمها بحبر أحمر وكان النقش الذى اختاره على خاتمه هو عبـــارة: "الله فى سمائه.. وجنكيز خان على الارض " ظل قوة الله ، خاقان المغول عاهــــل جميع شعوب الدنيا" . (٣)

وطول العبارة علـى الخاتم يوحى بصغر الخط الذى نقشت به وهو الخط الاويغورى فى الغالب ويوحى أيضا بمدى ضخامة هذا الخاتم .

فلما اتسعت الامبراطورية خصص كاتب معين بحمل الاختام ويقال له"تمغاجـــى" (٤) ويبدو أن مهمته الاولى كانت ختم المراسيم والرسائل التى تصدر عن ديوان الحاكم وبالتالـــى مار فى عهدته المحبرة وأوراق الرسائل وكافة الشئون المتعلقة باختام الخان (التمغا) *.

وليس بين أيدينا دليل اذا ماكان كتبة البلاط يكتبون نسخة من الاوراق الرسميـــة المكتبة أم لا .. لكنهم كانوا يحتفظون بسجلات يدونون فيها تاريخ صدور هذه الاوراق وجهـــة ارسالها والغرض الذى تحتويه فلقد أدرك جنكيز خان - رغم جهالته - قيمة السجلات فـــى حفظ حسابات الدولة وكافة الامور المهمة التى تجرى فيها .

٤ - البراليـــغ :

البرليغ كلمة مغولية بمعنى حكم أو قرار أو أمر ثم استعملت بمعنى التفويض الصـــادر عن الخان الى الاشخاص المنوط بهم الامر ". (٥)

وكان البرليغ يصدر فى مختلف الشئون مثل تعيين الولاة أو فى شئون المال كالضرائب والتجارة والجزية أوعند معاقبة بعض الامراء الكبار أو القواد أو الانعام عليهم باقطاع أو رتبـــة جديدة.... الخ.

---

(١) د. ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٦
(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٨
(٣) الكاتب الصينى فا.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٤
(٤) د. بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢٨
* التمغا كلمة مغولية مركبة من آل بمعنى أحمر ، وتمغا بمعنى خاتم أى الخاتـــم الاحمر.
(٥) القلقشندى :صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٣، ٤٢٨

ويكتب البرليغ عادة بالمداد الاسود (قراتمغا) او بماء الذهب (التون تمغا) ثم يختم بخاتم الخان حتى يكتسب الصفة الرسمية" (١)

فاذا تم ذلك لفت هذه البراليغ فى شكل أسطوانى مغلق من كافة الاطراف ثم أعطيت الى (الخيالة) المخصصين لحمل أوامر الخان فيضعونها فى أنابيب من ذهب تشد الى مناطقهم (١) فيسرعون بها الى حيث بريد لها الخان أن تصل فى أسرع وقت ممكن .

وفى الحقيقة كان الوزير مسئولا عن اتمام اجراءات كافة البراليغ التى تصدر عن ديوان الخان متعلقة بشئون المال أو الادارة أو ما شابه ذلك فيما عدا النواحى العسكرية التى كانت تناط عادة بقادة الجيوش" (٣)

والبراليغ بهذه الصورة الدقيقة لم تكن معروفة لدى المغول الاول ولهذا فهى صورة من صور او من نتائج اتصال المغول بغيرهم من الامم المتحضرة كالاويغور ، والصينيين ، والخوارزميين ، ومن المؤكد أن جنكيز خان قد استخدم البراليغ تحت اشراف مستشارية الاكفاء فكم من أوامر صدرت عنه بالعزل أو التعيين بالنسبة للقواد العسكريين او الاداريين .

ويشير (بارتولد) الى مسألة غاية فى الاهمية على عهد الخاقان الاعظم اوكتاى فيقول " ان جميع الاوامر التى حملت ختم أوكتاى جرى تنفيذها بلا حاجة للرجوع الى القاآن الجديد" (٤)

والمعنى فى ظاهره يوحى بأن الاوامر كانت تصدر دون علم الخاقان اى من وراء ظهره لانه كان مشغولا فى أمور أخرى تخصه .. لكن الأرجح ان تكون العبارة دليلا على انتظام أعمال البروتوكول فى البلاط لدرجة أن مثل هذه الامور يمكن ختمها بعد مناقشة الخاقان فها وأخذ موافقته عليها شفهيا وبالتالى فلا حاجة الى الرجوع اليه بشأنها مرة ثانية وقد تكون هذه الامور عادية أو متكررة فيترك للوزير المخلص (بى. لبو جوتساى) امر الفراغ منها واتمام الاجراءات الادارية الشكلية المتعلقة بها ومن ذلك ختمها وتسجيلها وارسالها .

وفى سنة ٦٤٥ هـ كتب كيوك الخان الاعظم آنذاك براليغ عهد وأمان للتكفور (ملك الروم) والملك الناصر صاحب حلب" . (٥)

ولقد كان غازان حريصا تماما فى شأن البراليغ فاذا اقتضى الامر صدور قرار بشأن مسألة من المسائل يكتب مرسوم يطابق هذا القرار . ويعرض على الايلخان ليعرف الشخص الذى كتب القرار والتاريخ الذى كتب فيه حتى يأذن بكتابه المرسوم ثم تعد صورة مطابقة للاصل الذى صدر عليه المرسوم مع ضرورة النص على اسم محررها وتاريخ تحريرها ومضمونها واسم الشخص الذى قام بعرضها ويثبت كل ذلك فى دفتر يجدد كل سنة حتى لايحدث لبس أوغش" . (٦)

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٢٣

(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٣، ١٢١

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٢٨

(٤) د.بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٧٦

(٥) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٠

(٦) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد اسرة الايلخانيين ص ٣٢٩، ص ٣٣٠

وفى عهد غازان أيضا تغير شكل الخاتم الكبير الاحمر" اكتمغا" فصار مستديرا بدل أن كان مربعا وذلك بقصد التيمن والتبرك والتفاؤل . فكانت تختم به المنشورات والفرمانات والاحكام بالمداد الاحمر" (١)

وفى الحقيقة كان غازان حريصا فى استعمال الاختام فهو على خلاف أسلافه كان يحتفظ بالصندوق الصغير الذى يحفظ فيه الختم الكبير وبعد انجازالعمل يتم اعادته الى موضعه من الصندوق وفى النهاية يحكم اغلاق الصندوق ، ويسلم مفتاحه لغازان شخصيا" (٢)

وبدهى أن هذا الحرص كان بدافع منع تزوير الاوراق الرسمية الصادرة عن ديوان الحاكم وبخاصة ان الفترة التى سبقت تولى غازان لعرش الايلخانية فى ايران قد كثرت فيها الدسائس والفتن والمؤامرات داخل بلاط الايلخان نفسه وكثر اتهام الوزراء والموظفين بالاختلاس من أموال الدولة وتبديد ثرواتها فى المصلحة الشخصية .

٥ - البايـزات :

كانت " البايزة" عبارة عن لوحة من الذهب أو الفضة وفى بعض الاحيان من الخشب وذلك على حسب رتب الاشخاص،وينقش على وجهها اسم الله(عند المغول) واسم السلطان (الخان) وعلامة خاصة مميزة وتمنح للاشخاص الذين يتمتعون بثقة المغول.ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة". (٣)

ويبدو أنها كانت صغيرة الحجم مستديرة بحيث يمكن لصاحبها الاحتفاظ بها أو اظهارها عند الحاجة بسهولة وبالطبع كانت لا تمنح الا لكبار رجال الدولة حسب رتبهم والمهام المنوطه بهم .. " فالذهبية منها تزدان برأس أسد وتحمل عبارة" تبارك الخان الاعظم وتلعن من يعصى أوامره" (٤) ويبدو انها كانت تـ منح للملوك والسلاطين والحكام" (٥) ومنها ما تكون عليها صورة صقر مبسوط الجناحين التى كان يحملها التاجر محمود يلواج الخوارزمى" (٦).ويبدو أنها كانت تمنح لكبار مستشارى الخاقان أوسفرائه غير العاديين ومنها ما تكون مزدانه برأس نمر وتمنح للقواد العسكريين أوبمن له حق مقابلة الخان فى مقره.

وقد يكون البايزة فضية أو أصغر حجما وتلك كانت تمنح لكبار الموظفين فى الدولة أو من يلتحقون بالخدمة الخاصة فى مقر الخان .

أما الامتيازات فمنها تسهيل مهمة من يحملها بكل السبل ومنها الدخول الى مقر الخاقان الاعظم ومنها الاستفادة من الالغامات الامبراطورية : الجواهر والحجارة الكريمة ، الانية الملكية ، السروج الجميلة، الخيول الفاخرة". (٧)

---

(١) د.فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيدالدين ص ٧٧

(٢) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٣٢٩

(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٤٧

(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٠

(٥) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد الايلخانيين ص ١٦٢

(٦) الكاتب الصينى ف. يان: جنكيز سفاح الشعوب ص ٨٠

(٧) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٠

وفى عهد غازان وجد أن عدد البايزات قد زاد عن الحد الى درجة الاسراف فى منحها حتى ان البايزات التى تمنح للحكام كانت لا تسترد منهم بعد عزلهم فقرر منح مهلة ستة أشهر لتسليم البايزات القديمة وهدد باعتقال كل من يحوز بايزة قديمة أو ملغاه باعتباره مذنبا، وقصر البايزات على العاملين الحاليين لانها ملك للدولة لا الافراد وأمر بتسجيل أسمائهم فى سجلات الديوان ". (١)

على أن أطرف حدث يروى حول البايزات هو أن بركة خان قد أمر بارسال (بايزة) الى الشيخ الباخرزى قبالة ما أسداه اليه (أى اسلامه) وكانت هذه البايزة تعطى الشيخ حق جباية الضرائب فى البلدة لتكون تحت تصرفه واشترط بركة خان أن تستخدم هذه الضرائب فى رعاية الفقراء والصلحاء" فلما وصلت البايزة الى الشيخ قال لرسول بركة: ماهذه ؟ قال تكون فى يدى اشليخ يحمى كل من يكون منجهته، فقال الشيخ: اربطها على حمار ثم ارسله الى البرية فان حمته من الذئاب فانا اقبلها ان كانت لاتحمى الحمار فما عسى يكون لى فيها !! وأبى أن يقبلها، فعاد الرسول وأخبر بركة خان بما قال الشيخ ". (٢)

وهذه الرواية تعطى فى الواقع دلالات مهمة .

١ - ان الشيخ يرفض أن يقبل أئ ثمن مهما كان مقابل دعوته الى الله.
٢ - أنه يرى ان المغول غير مستحقين لانيجمعوا الضرائب من مسلمى بخارى فهم لايقدمون أى شئ مقابلها .
٣ - أن الفقراء والصلحاء ليسوا فى حاجة الى مال انتزع بالاكراه من أصحابه.
٤ - انه لاشئ يحمى الانسان قدر ايمانه فاذا فقده فلا أمان.

وتبقى فى النهاية دلالة الرواية على شجاعة الشيخ وبراعة منطقه.

الالقـــاب :

لم يكن جنكيز خان - كأهل البادية - يجب الاكثار من استخدام الالقاب ولذا " يقال أنه منع المغول - فى الياسا - من تفخيم الالفاظ ووضع الالقاب وقصر استعمالها على ذوى المكانة العالية كالخانات وأما من دونهم فيدعى باسمه فقط". (٣)

بل لقد امتد هذا المنع فشمل كافة الزعماء من غير المغول وكذا العشائر الخاضعة للمغول حيث حرم عليهم حمل الالقاب الفخرية" (٤).

غير أن تطور حياة المغول واتصالهم بغيرهم من الأمم الذين يستخدمون الالقاب الفخمة المتعددة كالصينيين والخوارزميين وغيرهم حدا بجنكيز خان الى التفكير فى استخدام الالقاب الفخمة خصوصا فيما يتعلق به هو شخصيا أو بأفراد أسرته.

---

(١) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد الايلخانيين ص ٣٣٠
(٢) استراجانوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص ٤٧٠
(٣) المقريزى: الخطط جـ٢ ص٢٢٠، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٢
ابن كثير، البداية والنهاية فى المغول جـ ١٣ ص ١١٩
(٤) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤

وفى القوريلتاى الذى عقد فى سنة٦٠٣ هـ / سنة١٢٠٦م وقد توج فيه جنكيز خان حاكما أعلى للمغول تقدم اليه أحد العرافين وأشار عليه لاول مرة بلقب جديد هو جنكيزخان (١)

أى أن هذا اللقب كان واحدا من آيات عقد القوريلتاى العام ولقد جاء تعبيرا عن الرغبة فى أن يحظى جنكيز خان بلقب فخم لا يقل عن الخانات الاخر: فقد كان خان الكرايت يحمل لقب (وانج خان) وهو لقب يتضح فيه الاثر الصينى والتركى فى نفس الوقت وكان خان الاويغور يلقب(ايديقوت) أى ابن السماء ، وكذلك كان خان النايمان يلقب" كوجلك" بمعنى الملك المعظم القوى٠٠وكان السلطان الخوارزمى محمد علاء الدين يلقب(الشاهنشاه) أى ملك الملوك٠٠ وكان أباطرة الصين يختارون ألقابهم مقرنة بالذهب٠كالامبراطور الذهبى٠٠ الخ ٠

وتوالى ظهور الالقاب عند المغول فقد أطلق جنكيز خان على أسرته (التون يوروك) أى الاسرة الذهبية حيث كانت اسماء أفرادها تكتب بحبر الذهب"٠ (٢)

وهو لقب متأثر بالصينيين و فى الحقيقة كان جنكيزخان يؤمل أن تحكم هذه الاسرة كل أقاليم آسيا٠ وقد تحقق له معظم ما يريد بالفعل٠

وكذلك أطلق على طبقة الامراء من أسرته لقب" نوين" أو "نوايان" (٣) ولقد كان ابنه الاصغر تولوى يحظى بلقب " أولغ نوايان" اى الامير الكبير"٠ (٤)

ولقد منح أبناءه الكبار القابا آخاذه تناسب ما كلفهم به من عمل فابنه الاكبر"جوجى" لقب بأمير الصيد (٥) وكان يعتز به كثيرا لان الصيد كان آنذاك من أهم الاعمال وأحبها الى المغول ٠ ولقب ابنه الثانى "جغتاى" بأمير العقاب٠ لانه كان أقدرهم على فهم مقتضيات الياسا ولقب" تولوى" ابنه الاصغر بأمير ٠ فقد كان مسئولا عن شئون الدفاع وتولى قيادة العديد من المعاركالمهمة ضد الخوارزميين، بل لقد ظل تولوى يحكم الامبراطورية المغولية بأسرهالمدة عامين عقب وفاة أبيه ولحين تتويج أخيه" أوكتاى" الذى أوصى له جنكيز خان بخلافته لما توسم فيه من سلامة الادراك والتبصر وحسن السياسة٠

هذا ٠٠ وقد جرت العادة بعد جنكيزخان أنه كلما اجتمع القوريلتاى فى مناسبة تتويج الخاقان الجديد٠ يبدأ هذا عهده بتوزيع الالقاب والرتب والدرجات الرفيعة على كل من يخدم الامبارطورية باخلاص" (٦) ٠

---

(١) اختلفت التفسيرات حول لقب جنكيزخان ،و د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٩، ويرى أنه بمعنى الخان العظيم الذى يبسط سلطانه حتى شاطئ التمر، الكاتب الصينى ف ٠يان : جنكيزخان سفاح لشعوب ص١٠، يرى أنه محرف عن الكلمة الصينية(شبح شر) ومعناها ابن السماء، د٠مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٧٨ ، يرى أنها بمعنى ٠٠ ملك الاقوياء صاحب القوة والبطش٠

(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٤

(٣) د- فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٧

(٤) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠١

(٥) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠١

(٦) د٠ ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٠

وقد حاز هولاكو لقب ايلخان أى الخان التابع وصار هذا اللقب وراثيا تلقب به بعد الانتصار على العباسيين وتدمير بغداد" (١)

وظل هذا اللقب قائما حتى أعلن غازان الاستقلال عن الخان الاعظم فى بكين. فأطلق عليه لقب خان فلما دخل دمشق خطب له على منبرها بالقابه وهى السلطان الاعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان". (٢)

٦ - تسجيل أقوال الخان:

أدرك جنكيز خان بحصافته أن الحكمة والحسابات يمكن الاحتفاظ بها جميعا فى سجلات (٣) وكان ذلك بتأثير مستشاره الصينى يى.ليو.جوتساى من جهة وبتأثير الاويغور الذين عملوا فى ديوانه من جهة أخرى ولعل ذلك كله من أهم الاسباب التى دفعته الى حث المغول على تعليم ابنائهم الخط الاويغورى.

وفيما يتعلق بأعمال البلاط فقد كان يجلس خلف جنكيز خان كتبة من بلاد الصين الشمالية ليسجلوا ماينطق به (٤) وكان يشاركهم فى ذلك كتبة من بلاد الاويغور أيضا. أى أن أقوال الخان كانت تسجل بلغة الصين وباللغة الاويغورية التى أصبحت لغة المغول المكتوبة.

وفى عهد اوكتاى كانت العادة قد جرت آنذاك بتدوين أقوال الخان يوما بيوم حتى أصبح من عادة الخان أن يتحدث بقول مسجوع ويسوق الاقوال المأثورة(ببليك).. وكان يقوم بمهمة تسجيل اقوال أوكتاى الخاقان الاعظم وزير مسيحى أويغورى يدعى(تشكاى) (٥)

ومن ثم درج المغول على أن يسجلوا أقوال ملوكهم ويعلقونهم بعد موتهم اعتزازا بهم وبأقوالهم .. على أن الكتبة الذين كانوا يسجلون اقوال الخان كان يعرضونها عليه فيجيز تسجيل بعضها دون غيره فيقومون بتسجيل مايراه الخان فى سجلات الديوان.. وبالطبع ادى هذا الحذق الى اخفاء كثير من الحقائق والمعلومات كانت ولاشك فى غاية الاهمية بالنسبة لتدوين تاريخ المغول.

ولقد جمع المغول "حكم جنكيز خان" ببليكهاى جنكيز" وصارت مرجعا لجميع طوائف المغول يستشهدون بها ويستشيرونها فى مختلف شئون حياتهم كما كانوا يستشيرون أحكام الياسا" (٦) ومن المؤكد أن الكتاب الذهبى الذى كان يحكى قصص خانات المغول منذ عهد جنكيز خان كان يعتمد بصفة أساسية على هذه التسجيلات ولهذا أعطاه غازان خان لوزيره رشيد الدين كى يرجع اليها عند تدوين كتابه الضخم(جامع التواريخ).

---

(١) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص٨٥٨

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٩١

(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٨

(٤) نفس المصدر السابق ص ٩٠

(٥) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٦٩

(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٦

الوقوف بين يدى الخان :

اهتم جنكيزخان اهتماما واضحا بحرسه الخاص ــ كما ذكرت ــ وكانت هناك تعليمات مشددة لدى الحرس الخاص بأنه بعد اتخاذ كافة الاجراءات الامنية لايسمح لاى شخص بالمثول فى حضرة الخان ما لم يكن الخان مستعدا أو راغبا فى استقباله.

وكان الحرس ينبهون الزائرين وخصوصا الاجانب بأن عليهم ألا يلمسوا حبال الخيمة أوعتبتها وأن يدخلوا حفاة الاقدام عراة الرؤوس وألا يبادروا الخان بالكلام قبل أن يبدأ هو" (١)

وعادة ماتكون لدى الخان فكرة مسبقة عن زائريه فاذا أراد أن يتعطف على أحد منهم ورغب فى تكريمه فانه يسلمه بنفسه كأسا من النبيذ أوالقوميس فيتناول هذا الشخص الشراب ويؤدى التحية وذلك بأن يبرك على أحدى ركبتيه ثم يشرب ما فى الكأس دفعة واحدة" (٢)

وكان من تقاليد المغول ألا ينكس الزائر رأسه فى حضرة الخان فقد كان ذلك ــ فى تقديرهم ــ نذيرا سيئا " (٣) وعلى هذا كان يباح للماثل فى حضرة الخان أن يرفع رأسه وأن ينظر الى وجه الخان.

وامتدت الامبراطورية وتعددت الشعوب الخاضعة وهرع السفراء والنواب الى حضرة الخان الاعظم لتقديم فروض الولاء والطاعة أو لشئون أخرى. وعلى هذا كان يجتمع فى حضرة الخان عدد ضخم من الزوار فكان عليه أن يستقبلهم بعد أن يؤدوا آداب التحية التى ظل المغول حريصين عليها فى مختلف أنحاء الامبراطورية. وعلى سبيل المثال " مضى الامير الروسى اسكندر الى مدينة (سراى) صاغرا ولما مثل بحضرة الخان خاطبه قائلا" أيها القيصر الكلى القوة والعظمة اننى أشعر بمدى مخالفتى أوامرك ونادم عليها وها آنذا أتيتك صاغرا لانال اما موتا أوحياة فأفعل ما يوحيه الله اليه واننى مستعد لقبول أيهما بالفرج". (٤)

وكان طبيعيا أن يرق قلب (باتو) خان لهذا الامير الروسى فعفا عنه وأحسن استقباله ومعاملته.

أما فى الايلخانية وفى مراغة عاصمة هولاكو فهناك جرى نمط من الاستقبال مختلف حيث "حضر الى مقر الخان ناصر الدين المحتشم صاحب قلعة سرتخت لتقديم فروض الطاعة وكان حينذاك قد هرم وضعف فقدم لهولاكو أنواعا كثيرة من التحف والهدايا بعد أن قبل الارض بين يديه فتعطف هولاكو وقبل تلك الهدايا وقال له " انك نزلت من القلعة وقبلت الخضوع لانقاذ حياة زوجتك وأبنائك". (٥)

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٥٢، ١٥٤

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٣

(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٤

(٤) باسيليوس خرباوى: تاريخ روسيا ص ٨٨

(٥) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٤٦

ويلاحظ أن مسألة تقبيل الارض بين يدى الخان لم تكن معروفة فى تقاليد المغول الاول اذ كان يكتفى بالركوع على ركبة واحدة. وكان هذا عادة لا يقابل بمثل هذا الصلف الذى لدى هولاكو .

أما بلاط قوبيلاى قا آن فى بكين فقد كان متأثرا تماما بنظم أباطرة الصين حيث القصور الفخمة ومراسم الاستقبال على أرقى درجة من التزام الادب وأنماط السلوك الملكى وكان قوبيلاى نفسه متحضرا واستقباله لماركوبولو يعد دليلا على هذا التحضر الذى يحفظ على الزائر كرامته ويلزم الزائر ألا يخل بآداب وبروتوكول اداء التحية فى قصر الخان الاعظم ولقد أشرت الى ذلك عند الحديث عن الاحتفالات السنوية التى كانت تقام فى قصر قوبيلاى : عيد التتويج ،و عيد رأس السنة الجديدة، وعيد ميلاد الامبراطور.

وبصفة عامة كان الكلام فى مجلس الخان همسا ويجب أن ينقطع الهمس اذا ما تكلم الخان فاذا قال كلمته فى موضوع ما ثم أمره وليس لأحد أن يضيف على ما يقال فالنقاش زيوغ عن الادب والمبالغة زلة اخلاقية وينبغى أن تكون الكلمات قليلة ،وجيزة ، صادقة لاشائبة فيها". (١)

ايفاد الرسل :

كان منعوامل نجاحالمغول فى تكوين الامبراطورية واستمرارها نظام البريد الذى أولاه جنكيز خان عناية خاصة فقد كان يعتبره واحدا من اهم وسائل الاستطلاع الحربى لدى المغول .

وكانت عادة المغول أنه اذا حدث أمر هام كتنصيب خان جديد أو القيام بحملة حربية أن يدعى أمراء المغول عامة الى القوريلتاى بواسطة رسل يقال لهم" ايلجيان" ومفردها" ايلجى" اى مبعوث أو سفير للتشاور على بساط البحث". (٢)

وكان أولئك الرسل يمتطون أسرع الجياد ويقطعون مائتى ميل فى اليوم الواحد، ويستبدلون خيولهم عند محطات البريد المغولية ، وفى الشتاء القارس كانوا يطلون وجوههم وأجسامهم بالشحم اتقاء للبرد وكان من حقهم أن يوقفوا أى مسافر حتى ولو كان قائدا أو طرخانا ليأخذوا جواده لاتمام مهمتهم وكانت الاجراس المعلقة فى أحزمتهم تجلجل محذرة المسافرين الاخرين لكى يخلوا لهم الطريق" (٣).

وبدأت الامبراطورية تتسع وأصبح للمغول علاقات مع الصين وخوارزم وبدأ جنكيز خان يوفد الرسل الى بلاط كين او السونج والى بخارى بغرض فتح علاقات تجارية أو تدعيم علاقات الصداقة أو للتعرف على امكانيات الدول المجاورة من الناحية العسكرية والاقتصادية.. الخ . وقد حتم الامر اختيار رسل على درجة عالية من الكفاية (الدراية . ولقد كان محمود الخوارزمى نموذجا مثاليا فقاد سفارة بارزة الى بلاط السلطان الخوارزمى علاء الدين وأسفرت عن قبول الاخير لاقامة علاقات تجارية مع المغول .

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨٢

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٨

(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٣، ١٢٠

وفى الحقيقة كان المغول يعتبرون رسلهم رمزا لهم ولكرامتهم فلما قتل خوارزم شاه رسول جنكيزخان التركى "بغرا" وأمر الرسوليين المغوليين الاخريين بالعودة الى جنكيز خان بعد أن حلق ذقنيهما نار جنكيزخان لاهانة رسله فعقد .. القوريلتاى" وقرر مهاجمة "خوارزم شاه" (١) . ويقول الجوينى " ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار المغول قد أجرت نهرا من دماء المسلمين وكان القصاص بكل شعرة مئات الالوف من الرؤوس". (٢)

ولقد ظل هذا النظام المغولى فى ايفاد الرسل معمولا به حتى عهد غازان خان المسلم وبالطبع كان قد شابه الكثير من المخالفات. فقد بلغ الاستهتار واللامبالاة ببعض الرسل حدا جعلهم يغتصبون خيول الامراء والحكام والملوك والجباة والسادات والائمة وأرباب الحاجات الذين كانوا يترددون على معسكر الخان. بل ان اللصوص انتحلوا شخصية هؤلاء الرسل واستولوا على خيول الناس وباعوها . وبالاضافة الى ذلك كان هؤلاء الرسل ينزلون فى بيوت الرعايا وأرباب الحرف فكانوا يأتون على مافيها وأحيانا كانت تصدر عنهم أفعال شائنة.

وأمام تضخم عدد هؤلاء الرسل وكثرة تكاليفهم قرر غازان خان أن تقام دور خاصة لاستقبالهم و عين أميرا كبيرا للاشراف عليها ومتابعتها والزم الرسل أن يحملوا مرسوما ممهورا بالخاتم الذهبى". (٣)

على أننا ينبغى أن نتذكر أن المغول قد اوفدوا سفارات على مستوى راق الى جهات كثيرة متحضرة فقد كانوا يتصلون بالامبراطور البيزنطى والبابا فى روما ودول غرب آوربا وانجلترا وفرنسا.

ورغم خلافهم الحاد مع المصريين الا أن الرسل لم تنقطع بين الايلخانية فى ايران وبين مصر أيام هولاكو واباقا وتكودار وكيخاتو وغازان بل ان خانات القبيلة الذهبية فى القبجاق منذ عهد بركة خان المسلم داوموا على ايفاد سفاراتهم الى القاهرة فى عهد الظاهر بيبرس وخلفائه ولقد أشرت الى احدى هذه السفارات التى أوفدها بركة عند الحديث عن اسلامه وعلاقاته مع المصريين فى مواجهة هولاكو .. ومما لا شك فيه أن رسل المغول قد أضحوا على درجة عالية من الالمام بجوانب البروتوكول وآداب السلوك لانهم رأوا بأعينهم مدى التحضر فى هذه الجوانب لدى الدول التى قاموا بزيارتها موفدين من قبل خانات المغول.

استقبال الرسل :

اقتضت ظروف التطور السياسى الذى أحدثه المغول على خريطة اسيا السياسية واختلاف الموازين العسكرية وتداعى الكثير من الدول والامارات أمام التوسع المغولى الى اقامة علاقات مكثفة مع المغول حتى أن القوريلتاى مثلا كان أشبه بالجمعية العامة للامم المتحدة كما سبق القول وحتى غدا المغول يستقبل الرسل من مختلف أنحاء المعمورة تقريبا بصفة دورية - فكيف كان المغول يستقبلون الرسل ؟

---

(١) د. براون : تاريخ الادب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ص ٥٥٧

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٥٣

(٣) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٣٢٦:٣٢٨

كان الرسل اذا لاحوا فى الاطراف استقبلهم ضباط المغول فأوفدوا معهم الاولاد الى (قراقورم) " وقد سبقتهم أخبار مجيئهم يحملها البهم المراسلون الدائبون فى أعمالهم على طرق القوافل واذا ما اقتربوا من مقر الخان استلمهم رئيس الحرس الخاص ونزولا على عادة من عادات الرجل القديمة كان على الضيوف أن يمروا بين نارين عاليتى اللهب لايصيبهم ضرر من ذلك فى الغالب لكن المغول كانوا يعتقدون أن النار ستلفحهم اذا كانت الخيانة منطوية فيهم ثم تخصص لهم المساكن ويقدم لهم الطعام ومتى أبدى الخان رضاه، قادوهم الى ديوانه" (١)

وفى العادة كان المغول يحسنون استقبال الرسل"فعندما وصل رسل السلطان محمد خوارزم شاه، الى معسكر جنكيزخان استقبلهم بأبلغ مظاهر الحفاوة والتكريم وحملهم رسالة ليبلغوها الى السلطان. (٢)

وفى سنة ٦٣٠هـ اثناء ولاية أوكتاى من جنكيز خان " ارسل السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم رسولا الى الخاقان الاعظم فقال للرسول اننا قد سمعنا برزانة عقل علاء الدين واصابة رأيه فاذا حضر بنفسه عندما برى منا القبول والاكرام فى حضرتنا وتكون بلاده جارية عليه فلما عاد الرسول بهذا الكلام تعجب منه كل من سمعه واستدل على ما فيه الخاقان من العظمة". (٣)

ولقد خرج ا لخاقان كيوك على هذه القاعدة ففى القوريلتاى الذى عقد فى منغوليا عام ٦٤٤ لتتويجه وحضرة جميع الامراء المغول والولاة التابعون وممثلون عن الدول الاجنبية "راح يصب جام غضبه على ممثلى الاسماعيلية وصدفهم أذلاء مهانين ورد على محتشمهم ردا جافا" (٤)

ويرجع ذلك الى أن المغول قد شعروا بأن الاسماعيليين بدأوا يتصلون سرا بالملوك فى غرب أوربا ويطالبون تحالفهم ضد المغول.

أما قوبيلاى قا آن — فكان مثالا للكياسة والسماحة" فعندما دخل عليه البندقيان نيكولو بولو وأخوه ومثلا فى حضرته استقبلهما بما عرف عنه من لطف وبشاشة ووداد وأسبغ عليهما آيات الحفاوة والتكريم وتحدث اليهما بلطف وايناس واستفسر عن أحوال القسم الغربى من العالم وعن امبراطور الرومان وعن الملوك والامراء المسيحيين الاخرين وعن البابا بصورة خاصة وأحوال الكنيسة وعقائدها مبديا اهتماما عظيما بهذه الامور. (٥)

ولم يكن هولاكو — كابن عمه كيوك — متسامحا أو عطوفا وعلى هذا فان استقباله للرسل كان يتسم بالخشونة والجفاء." فخورشاه" اخر الزعماء الاسماعيليين أرسل وفدا من كبار رجاله على اختلاف مناصبهم لمقابلة هولاكو فاستقبل المغول الوفد ثم أنزلوهم فى أماكن متفرقة كل رجل بمفرده ثم استجوبوهم واحدا واحدا بهدف استطلاع حقيقته الحال فى القلاع الاسماعيلية والتهويل على الموفدين". (٦)

---

(١) د.هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٨١، باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٧١

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٤٧

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٤

(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٠

(٥) ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٧٠

(٦) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١١٧

"ولا يدخل أحد معه (آلة حادة) إلى حركاته بسيف أو سكين أو مدية ولا يطأ برجله عتبة الحركاة، ولا يقطع الإنسان مدية إلا على الجانب اليسار منحنيا ولا يترك القوس في القربان، ولا يخليه موتورا موترا ولا يبيط في حركاته شابا، ولا يأكل الثلج، ولا يغسل ثوبه في الماء"

المورد ١٠٦/٣٠

ويبدو أن طريقة المغول فى استقبال الرسل ظلت واحدة وان اختلف الزمان والمكان ففى سنة ٦٦١ هـ وصلت سفارة الملك الظاهر بيبرس الى بركة فى القبجاق فكان عليهم اتباع الاداب المغولية وهى الدخول من جهة اليسار فاذا أخذت منهم الكتب كان عليهم الاتجاه الى اليمين ويكون القعود على الركبتين ولايسمع باصطحابه أية أسلحة او الدوس على عتبة الخيمة.. بعدها التقوا ببركة خان فى خيمة كبيرة تسع مائة رجل مكسوة لبادا أبيض وذات فخامة من الداخل وهو جالس على تخت والى جانبه الخاتون الكبرى وعنده أمراؤه فأمر بقراءة الكتاب ثم نقل الرسل من يساره الى يمينه". (١)

ثانيا : المؤتمر العام" القوريلتاى" :

القوريلتاى هو المؤتمر العام الاعلى الذى يعقده المغول فى الخطوب الجسام ويشترك فيه كافة الامراء والقواد تحت رعاية اسرة الخاقان الاعظم الذى لهم حق السبق والتقدمة فى هذا الشأن.

وفى بادئ الامر كان القوريلتاى اقرب ما يكون الى مجلس الحرب حيث كانت القضايا الملحة فى معظمها قضايا عسكرية" فقد كان على المغول قبل أن يقوموا بغزو اقليم من الاقاليم ان يطرحوا الخطة الحربية التى سوف يتبعونها على بساط البحث فى جلسة القوريلتاى" (٢)

وكان مجلس الحرب يعقد فى خيمة الخان على شكل بسيط " حيث يجلس القواد على البسط فى نصف دائرة ضيقة القطر على حين يجلس جنكيز خان امامهم على عرشه الذهبى" (٣)

على أن مجلس الحرب هذا كان يعقد احيانا على هامش قوريلتاى التتويج فعندما اجتمع القوريلتاى فى سنة ٦٤٩هـ /١٢٥١م لتتويج "منكو" تقرر ايفاد بعثتين حربيتين ، أحدهما الى الصين والاخرى الى ايران". (٤)

ومن القضايا المهمة التى طرحها القوريلتاى منذ عهد جنكيز خان الدستور الحديدى الصارم"الياسا" فمن المعروف أن هذا القانون قد صدر تباعا طوال حياة جنكيزخان ولم يكن هناك مجال أنسب من الوجهة الرسمية من أن يعرض فى أثناء انعقاد ذلك المؤتمر العام حيث يمكن لجميع الامراء والقواد ان يتعرفوا على جزئياته بسهولة.

كذلك كان من مهام القوريلتاى رسم خطط المستقبل ففى سنة ٦٢٠هـ وفى صحراء "قلان باشى" * انضم جوجى الى أبيه، فعقد جنكيز خان مع ابنائه اجتماعا كبيرا "قوريلتاى" للتشاور معهم فى هذا الشأن" (٥) ويلاحظ أن جوجى لم يحضر اجتماعا اخر بعد هذا حيث تخلف عن حضور الاجتماع التالى فكان هذا سببا فى قتله كما هو معروف.

---

(١) استراجانوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص ٥٥ ؛ النويري : نهاية الأرب جـ٣٠ ص ١٠٦

(٢) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٦٠

(٣) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٢٠

(٤) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٥

* فى القسم الشرقى من منطقة سيمون الحديثة الى الشمال من جبال الاسكندر.

(٥) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٨٨

وعلى هذا ففى سنة٦٢١هـ/١٢٢٤م عاد جنكيزخان الى بلاد ما وراء النهر ثم اتجه الى موطنه بعد اقامة قصيرة فى سمرقند، فعقد قوريلتاى وفيه قسم مملكته بين أبنائه أوكتاى جغتاى ،تولوى ، باتو الذى خلف أباه جوجى أكبر أبناء جنكيزخان. (١)

انتخاب الخاقان الاعظم :

وتلك كانت أكبر المهام المستهدفة من وراء عقد هذا الاجتماع العام، الذى بدأ مغوليا صرفا ثم انتهى الى ما يشبه الجمعية العامة للامم المتحدة حاليا حيث كان يحضره مندوبون من مختلف أنحاء العالم آنذاك. ولهذا عمد جنكيزخان الى مجموعة من التنظيمات تكفل النجاح لهذا المؤتمر.

(أ) المواظبة على الحضور :

كان جنكيز خان يرى أن التخلف عن حضور القوريلتاى ذنب لايغتفر ويستحق من يفعله أقسى أنواع العقاب وعلى هذا فقد نص فى الياسا "على أن حضور هذا المجلس (القوريلتاى) أمر اجبارى وعقوبة من يتخلف عنه الاعدام فكل من تحدثه نفسه فى البقاء فى خيمته بدلا من المجيء الى المؤتمر للاستماع الى أوامرى (جنكيزخان) فمصيره الصخر يلقى به فى قاع البحر أوالسهم يقذف به فى وسط الغاب" (٢) والمقصود القتل.

وعلى هذا ففى الاجتماع الذى عقده جنكيز خان سنة٦٢٢هـ حضر – باستثناءجوجي – كافة الامراء والقواد من المغول أما منغير المغول" فقد حضر زعماء قبائل الاويغور وكهنة بوذيون من التبت ، ومبعوثون أرسلهم خليفة بغداد وسلاطين الهند.. وتقدم هؤلاء بالهدايا الفاخرة، الجياد الاصيلة، الفراء، المصنوعات الذهبية والفضية وأوانيه من الزجاج وعروش من الفيروز والياقوت". (٣)

وبدهى أن الخوف والرهبة والامل فى تفادى الخطر والنقمة، كلها كانت من عوامل المواظبة على حضور القوريلتاى .

ولقد كان القوريلتاى الذى توج فيه كيوك خاقانا أعظم سنة٦٤٤هـ اضخم وأعظم بكثير من أى قوريلتاى قبله أوبعده فقد حضره بالاضافة الى ابناء أوكتاى وجغتاى وتولوى وجوجى فيما عدا باتو الذى اعتذر لمرضه – الامير مسعود نائبا عن بلاد ما وراء النهر وتركستان والامير ارغون أغا الاويراتى نائبا عن خراسان وبصحبته أكابر العراق واذربيجان ووفود عن الكرج واللور والارمن وشقيق الملك الناصر صاحب حلب والقاضى فخر الدين قاضى قضاة بغداد ونواب عن الاسماعيلية من قهستان" (٤). كذلك حضره اثنان من الكهنة المسيحيين : سمباد أخو هيثوم ملك كليكتا والاخر جون دى بلانو كاربينى وقد قدم هؤلاء جميعا الى منغوليا محملين بالاحمال الكثيرة والهدايا الفاخرة المناسبة لمقام الخان المغولى". (٥)

---

(١) أرمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٧٩
(٢) د.ابراهيم العدوى: العرب والتتار ص ٣٩
(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٧
(٤) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٤٤٩، ارمنيوى فامبرى : تاريخ بخارى ص١٨٨
(٥) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٦

ب – مكان الاجتماع :

لم يحدد جنكيز خان فى البداية مكانا بعينه لاجراء القوريلتاى غير أن الاجتماع الاخير الذى عقده فى قراقورم قبيل وفاته وما تحقق فيه من عظمة ووفرة فى الاعضاء من المغول وغيرهم وفى الهدايا الفاخرة • أعطى انطباقا قويا لدى المغول بأن عاصمتهم "قراقورم" ينبغى أن تكون المقر الدائم لهذا المؤتمر العظيم وبالفعل جرى تتويج اوكتاى وكيوك فى قراقورم•

لكن الذى حدث عقب وفاة كيوك كان غير ذلك فقد رأى باتو خان الذى كان يعد أعظم شخصية مغولية فى عصره حيث اعترف جميع أبناء جنكيز خان باهمية رأيه عند انتخاب الخاقان الجديد بوصفه اكبر افراد جنكيز خان سنا (١) رأى أن يكون القوريلتاى فى عاصمة ملكه (سراى) بالقبجاق وعلى هذا ا عتذر بمرضه ودعا الى الاجتماع كافة الامراء والقواد المغول •

ولقد بادر أبناء جغتاى داوكتاى – رغم ارسالهم مندوبا عنهم – الى الاعتراض على قرار القوريلتاى بانتخاب منكو بن تولوى خاقانا أعظم للمغول وكان من أسباب اعتراضهم أن المؤتمر لم يعقد فى العاصمة الام قراقورم• مما اضطر باتوخان الى حسم الموقف وعقد القوريلتاى فى قراقورم سنة ٦٤٨ هـ اى بعد عامين من الخلاف والشقاق•

وبعد وفاة منكو قا ان "أعلن أخوه (أربق لوكا) نفسه خاقانا أعظم ولكن قوبيلاى – وهو أخ ثالث لهما – الذى كان قد تشبع بروح الصينيين واتصل بهم اتصالا وثيقا وضمن وقوف الجيوش المغولية فى الصين الى جانبه رفض النزول على ذلك ففى سنة٦٥٨هـ عقد مجلسا خاصا فى احدى مدن الصين الشمالية" كى مينك فو" وأعلن خلع أخيه ونصب نفسه امبراطورا على المغول " (٢)

وكان كلا الامرين غير صحيح فالأول لم ياخذ موافقة كل الامراء والقواد المغول خصوصا أبناء جنكيزخان والثانى لم يعقد المؤتمر بنفس الصفة فى العاصمة قراقورم والثانى لم يعقد المؤتمر بنفس الصفة فى العاصمة قراقورم ولم يحسم الموقف الا بتمكن قوبيلاى من هزيمة أخيه عسكريا وزجه فى السجن حتى مات•

ومع اتساع الامبراطورية وانحسار سلطة الخاقان الاعظم الفعلية فى عاصمته بكين ومنغوليا تعددت العواصم وأصبح من حق كل مملكة مغولية أن تعقد القوريلتاى الخاص بها : الايلخانية فى تبريز، والقبجاق فى سرائ ،ولتركستان فى الماليق ، واكتفى الخاقان الاعظم بأن يبعث تأييدا لما ينتهى اليه القوريلتاى • وعلى سبيل المثال فان اباقا تولى الحكم سنة ٦٦٤هـ بعد وفاة أبيه هولاكو باجتماع الاولاد والامراء والخواتين الذين اتفقوا على ذلك لماعنده من العقل والكفاية والعلم والدراية" (٣) بالاضافة الى أنه أكبر ابناء هولاكو وأقربهم اليه• ثم حدث فى ربيع الاخر سنة٦٦٩هـ/١٢٧٠م أن وصل الرسل من قبل الخان الاعظم قوبيلاى قا آن حاملين اليه الفرمان والتاج والخلع (٤) ولقد حدث الشئ نفسه مع أرغون

(١) بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص٦٨١، ٦٨٢

(٢) د•فؤاد الصياد: المغول فىالتاريخ ص١٣٤ نقلاعن رشيد الدين،جامعالتواريخ ص٣٩١

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٩

(٤) د•فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٥١

اذا جاء قرار التثبيت من الخاقان قوبيلاى قا آن فى ربيع عام ١٢٨٦م (١) أى بعد عامين مع انعقاد القوريلتاى فى عام ٦٨٣ ــ ١٢٨٤م٠

جـ ــ اليا‌سا والقوريلتاى :

ذكرت توا أن الياسا كانت تعاقب بالموت كل من يتخلف عن الحضور الى القوريلتاى وأغلب الظن أن هذا النص كان السبب الرئيسى فى اقدام جنكيز خان على تدبير مسألة التخلص من ابنه الاكبر جوجى لانه اعتقد أن تخلفه يعنى العصيان ورفض الطاعة والامتثال٠

"وفى الحقيقة كان لابد للاعتراف بالخان الجديد أن يحضر كل أعضاء الاسرة حفل اعتلاء العرش ٠ كذلك كانت ارادة الخان المتوفى مرعية ولكنها لم تكن تفرض على الامراء بلاقيد أو شرط" (٢)

هذا ٠٠ وقد تضمنت الياسا جوانب أخرى تتعلق بالقوريلتائ منها :

١ ــ يعاقب بالاعدام كل من يعلن نفسه امبراطورا خلافا لارادة المؤتمر المغولى العام "القوريلتاى" ٠ (٣)

٢ ــ يتولى العرش أكبر الامراء الاحياء سنا" (٤) منأبناء جنكيز خان وقريب من هذا أن كيوك الخاقان الاعظم قد عزل رأس ألوس "جغتاى" وهو"قراهولاكو" وذلك وفقا لرأيه انه لايجدر بالحفيد أن يرث العرش فى الوقت الذى مايزال فيه أحد أبناء الخان الراحل على قيد الحياة وأجلس مكانه" بيسو مونكو" أكبر من بقى على قيد الحياة من أولاد جغتاى" (٥)

غير أن مافعله كيوك كان على الاغلب يرجع الى رأيه الشخصى والى علاقته الحميمة مع بيسومونكو فقد كان نديمه فى مجالس الشراب واللهو٠

وفى الحقيقة كان الامر محل نقاش وجدال بين الامراء المغول بعد وفاة كل خان مما يؤكد أن نصوص الياسا لم تكن صريحة فى تحديد أحقية هذا الخان من الناحية الوراثية وعلى هذا فقد كثرت الدسائس والفتن والمؤامرات وغالبا ما كان الامر ينتهى الى الحرب فيسقط أحد الخانات ويحل محله غيره وأصدق مثال على ذلك تاريخ الايلخانيين فى ايران٠ تكودار، ارغون ،وكيخانو ، بايدو ،غازان٠

وصية الخان :

كانت وصية الخان ــ كما ذكرت ــ توضع فى الاعتبار عند انتخاب من يخلفه والوصية فى حد ذاتها تكشف عن عدم وجود نص صريح فى الياسا يحدد من يتولى الحكم بعد الخان الحالى ٠ كما أنها تعبر فى رغبة الخان فى العدول عما اقتضاه العرف المغولى الذى كان يقضى بأهمية ابناء الزوجة الاولى اذ يكون لاكبر أبنائها الحق فى أن يخلف اباه فى زعامة

---

(١) د٠ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة ا لمغولية فى ايران ص ١٧١

(٢) د٠ بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٨٦

(٣) د٠ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤

(٤) المصدر السابق ص ١٦٦

(٥) بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٧٧

الأسرة كلها كما يكون لاصغر أبنائها ان يرث الجزء الاكبر من ممتلكات أبيه بما فى ذلك زوجاته .

وهذا التداخل العجيب بين الاثنين أدى الى وجود الفجوة أو الثغرة التى نجم عنها الاختلاف الدائم حول شخصية من يلى العرش .

والغريب أن جنكيزخان لم يحسم الموقف فى الياسا . اذ كان بوسعه مثلا أن ينص فيه على أن يكون أكبر أبناء الخان الراحل وليا لعهده، وبذلك تحدد الامور مسبقا. لكنه وقد وقر فى نفسه ان يختار ابنه الثالث أى ليس الاكبر او الاصغر، ما كان لينص على شئ فى الياسا وهو يعلم انه سيخالفه لان ذلك سيفقد الياسا قيمتها وأثرها عند المغول.

أيا كان الامر فقد أوصى جنكيزخان بولاية عهده الى ابنه أوكتاى اذ لما قوى مرض جنكيز خان استدعى أولاده جغتاى وأوكتاى والغ توين وكلكان وجورختاى وأوردجار وقال لهم : اننى قد أيقنت مفارقة الدنيا لعجز قوتى عن حمل مابى من الالام ولابد من شخص يقوم بحفظ المملكة على حالهاوالذب عنها . وقد أعلمتكم غير مرة ان ابنى أوكتاى يصلح لهذا الشأن لما رأيت من مزية رأيه المتين وعقله المبين والان فقد جعلته ولى عهدى وقلدته مابيدى من جميع الممالك فما قولكم فى هذا الذى استصوبته، فجثا الاولاد والنوينية المذكورون على ركبهم وقالوا جنكيزخان هوالمالك للرقاب ونحن العبيد السامعون المطيعون فى جميع ما يتقدم به على وفق مراده ومرسومه." (١)

ولقد شعر الابن الاكبر(جغتاى) ،الابن الاصغر(تولوى) بمدى الظلم الذى وقر عليهما وكان أوكتاى نفسه يشعر بما هما فيه .. لكنه لم يدر ما ذلك يفعل. على حين بادر (تولوى) الى تحمل مسئولياته لحين عقد القوريلتاى. وعند التتويج عبر أوكتاى عن نهمه الدقيق للموقف .. فامتنع حينها عن قبول المنصب أو لنقل أنه تظاهر بذلك. فقد قال "فى اخوتى وأعمامى من هو اكبر منى وان أولغ(نوين) (يقصد أخاه تولوى) هو صاحب البيت وأكثر مواظبة لخدمته وأبلغ منى تعلما لسياسته فالمصلحة تقويض الامر اليه". (٢)

لكن الامراء والقواد المغول ظلوا به حتى قبل فملكوه عليهم ولقبوه بالقا آن".

وماحدث فى هذاالامر تكرر مع أوكتاى نفسه الذى كان يرى أن يخلفه على العرش ابنه الثالث(كوجو) ولكن (كوجو) مات قبل والده، لذا وقع اختياره على (شيرامون) بن (كوجو) غير أن المغول عدوا (شيرامون) حدثا صغير السن ولذا فقد اختير كيوك" (٣) بعد خمس سنوات من وصاية امه الاميرة (ثوراكينا) خاتون – كما سبق القول.

وعند عقد القوريلتاى لتتويج (كيوك) احتج بضعفه ومرضه الا أنه فى النهاية قبل أن يتقلد المنصب نزولا على رغبة الامراء بشرط أن يكون الحكم وراثيا فى سلالته فوافق الجميع على ذلك وأعلنوا انتخابه رسميا". (٤)

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٦، رزق الله الصدفى: تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٣٧٤، عباس الغزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ص ١٢٨

(٢) الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها ج ١ ص ٣٠٢،وابن العبرى: تاريخ مختصرالدول ص ٤٢٨.

(٣) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٧٥ . د. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٣٥

(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٤

وهكذا رأينا كيف أن وصية الخان الراحل كانت تنفذ أحيانا ولا تنفذ في مـــرات أخرى حسبما تقتضي الظروف ذلك .

د ـ هيئة المجلـس :

كاد القوريلتاى على عهد جنكيز خان أن يكون مغوليا صرفا لانه كان في معظم الاحوال يبحث قضايا عسكرية على أنه قبيل نهاية هذا العهد خرج الى حيز اوسع بكثير من هذا الطابع المحلي.

ولقد كان تتويج جنكيز خان في عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م وكان عمره آنذاك حوالي ٤٩ عاما وقد "أجرى له احتفال عظيم بأبهة وزينة لا مثيل لها (١) فقد اجتمع الامراء والخانات فخطب فيهم وأبدع ثم جلس على لباده سوداء فرشوها له هناك ثم تقدم سبعة أمراء نهضوا باحتـرام وساروا بين يديه حتى أجلسوه على عرشه ونادوا باسمه "جنكيزخان" ملكا على المغول" (٢).

وفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٧م جرى عقد القوريلتاى لتنصيب اوكتاى وكان أبوه جنكيزخان قد أوصى له بخلافته.. وعبثا حاول أوكتاى في بداية عقد القوريلتاى أن يعتذر عن قبـول هذا المنصب لكنهم ظلوا به حتى أجابهم الى مطلبهم " عندئذ كشفوا عن رؤوسهم ورمـــوا مناطقهم على أكتافهم وأخذ جغتاى (أخوه الكبير) بيده اليمنى، وأوتكين عمه بيده اليسـرى فأجلساه على سرير المملكة ولقباه (قا آن) وأمسك له أخوه (تولوى) الملقب بالغ نويـن كأس شراب فسقاه وجثا كل من كان حاضرا داخل المخيم وخارجه على ركبتيه تسع مـرات ودعوا له ثم برزوا كلهم الى الخارج وجثوا ثلاث مرات حيال الشمس". (٣)

وفى سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م كان القوريلتاى الذى توج فيه كيوك خانا أعظم علـى المغول فجرت الاحتفالات المهيبة بأكثر مما كان عليه الحال في قوريلتاى أوكتاى وأنزل الضيوف في الفى خيمة بيضاء ولم يحدث أن شوهد مثل هذا الجمع الحافل من قبل". (٤)

وقد وصف الراهب الايطالى" جان دى بيان كاربينو" حفل تتويج كيول.." اجتمع الفرسان وأهل المقامات داخل أسوار القصر وفى الخارج كان ينتظر الحدث حشد غفير بالاضافة الى الجيش الملتف حول أعلامه. وما أن تم التعيين حتى قام الحاضرون بالطقوس التقليديـة فأخذوا يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم ،ويحلون زنانيرهم ويلقونها حول أكتافهم ثم يجلسـون الملك على العرش المذهب الذى حل محل الطنفسة اللبدية القديمة ويحيونه بلقبه الجديد، ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم الارض، فتحذو حذوهـم جماهير المنتظرين في الخارج" (٥)

وانتهى الحفل بتبادل شراب القوميس وخمير العسل حتى ساعة متأخرة مـن الليـل وقد قدمت العربات تحمل اللحم المطبوخ بلا ملح فأصاب القوم منه". (٦)

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٨٢
(٢) رزق الله منقريوس الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٦٨
(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٨
(٤) د. بارتولد: تاريخ تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٧٦
(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٠
(٦) جون أ. هامرتن: تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٣

أما الهدايا التى ظهرت فى هذا المهرجان فكانت من الكثرة والبهاء بما يفوت الوصف.. مظلة مرصعة بالاحجار الكريمة وهى شعار الملوك الاسيويين السائد، وأريكة الامبراطور وكانت مرشا من الابنوس نقشه عجيب وزينته من اللآلئ والاحجار الكريمة الاخرى .. وكان الذهب ظاهرا فى اسراف حيث يقف بخارج الخيمة خمسمائة من العربات المحملة بالذهب والفضة والحرير ليقبلها الامبراطور ويفى بها على خاصته" (١)

ولم تكن المراسم التى أجريت فى تتويج منكوخاقانا أعظم تختلف كثيرا عن مثل هذا وان كان أقل لان القوريلتاى عقد أول مرة سنة٦٤٨هـ فى (سراك) بالقبجاق ثم أعيد فى قراقورم ربيع الاخر سنة٦٤٩هـ .. حيث كشف الجميع عن روءوسهم ورموا مناطقهم على أكتافهم ورفعوا منكو على سرير المملكة وجثوا على ركبهم تسع مرات على حين ترتب أخوته السبعة جالسين عن يمينه والخواتين على يساره وعملوا الفرحة سبعة أيام". (٢)

مكافأة الاعــوان :

كانت حياة المغول صراعا مريرا ضد الطبيعة القاسية فى منغوليا وضد الاعداء المتربصين وكانت المواقف العملية فى الطاعة والاخلاص والتفانى تشكل دعامات الترابط الاجتماعى الذى يضمن الاستقرار والامان للجماعة كلها .. وفى المقابل كانت أقل خيانة كفيلة بتعريض حياة الجماعة للهلاك او الوقوع فى مذلة الأسر.

ومن هنا كان "جنكيزخان "يكره الخونة والمنافقين أيا كانت هويتهم وانتماءاتهم كما كان يقدر صفات الشجاعة و الوفاء حتى لو كانت لدى أعدائه ولهذا قبل فى خدمته الوزير الصينى بى .لبو. جوتساى الذى لم ينكر أو يخفى حبه لبلاده حتى لقد قيل انه كان يمثل أحد الاسباب التي دفعت جنكيزخان الى الغرب حتى ينشغل بقتال الخوارزميين عند التوجه شرقا الى الصين .

وفى الحقيقة كان المغول جميعا يقدرون الاشخاص الذين يوءدون لهم خدمات جليلة او يقدمون لهم مساعدات قيمة فى أوقات المحنة والشدة وعرفانا بهذا الجميل كانوا يعنون بمثل هوءلاء الاشخاص ويتعطفون عليهم " وهذا العطف والتقدير يسمى بالمغولية" سيور غاميشى " وبموجبه يهبونهم الاراضى والاملاك ليستغلونها ولينتفعوا بماتدره عليهم ثم توءول تلك الاملاك الى أعقابهم بالوراثة". (٣)

ولعل أصدق مثال على ذلك ما حدث مع جنكيز خان بعد أن ترك منازل الكرايت عائدا وقومه الى منازله بعد أن اطمأن قلبه تماما من جهة الكرايت وقد كان ا لتحالف الوطيد قائما بين الطرفين منذ عهد أبيه "بيسوكاى بهادر" فاذا باثنين من الرعاة هما جغتاى الصغير من قبيلة سونيت ، وقشليق
يحذرانه من الموءامرة الغادرة التى كان يدبرها له(أونك خان) فجوزيا على ذلك بأن رفعا الى درجة النبلاء" (٤) وحصلا على رتبة طرخان" (٥) بل ان جنكيز خان وقف طويلا معجبا بهاحتى أنه سلم لهما عرش "أونك خان" المحلى بخيوط الذهب". (٦)

---

(١) جون.أ.هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٤
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٨
(٣) د.فوءاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٤
(٤) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٦١
(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٨٠
(٦) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٥

وبالاضافة الى ذلك كان جنكيزخان يقدر الاعوان المخلصين ويعفو عنهم اذا أخطأوا عن غير قصد "فعندما هزم قائده" شيكاكو" أمام جلال الدين الخوارزمي لم يلس جنكيز خان لهذا القائد أنه قد حدث لسنوات كثيرة مضت أن اعترضت عاصفة ثلجية طريق جنكيز خان وبعض رفاقه واذ لم يكن معهم أى طعام فقد خرج شيكاكو بمفرده لصيد الغزلان واطعام الخان وانقاذ حياته" قال جنكيز خان : لقد أهمل" شيكاكو" لانه قد اعتاد النجاح ولكنه من الآن فصاعدا سيحرص على أن يكون حذرا كالذئب طوال الوقت". (١)

وأهم من ذلك كله أن جنكيز خان صحب قائده هذا الى سهل مرو حيث دارت الموقعة وشرح له كيف حدثت الهزيمة وأبان له عن خطة جلال الدين منكبرتي.. وأكد على ثقته في أن النصر سيكون حليفا له في المرة القادمة ..فدل جنكيز خان بذلك على سعة أفق وبعد نظر كبيرين.

مجازاة الخونة وعقاب الاعداء :

لم يكن جنكيزخان أو أحد خلفائه بمنأى عن المؤامرات والدسائس وبخاصة من أولئك الذين اعتقدوا أن لهم حق المنافسة على الزعامة وهؤلاء كانوا - بطبيعة الحال - من كبار الامراء . أى ليسوا أشخاصا عاديين وبالتالى كان عقابهم مختلفا وقاسيا غاية في القسوة ومن ذلك :

(أ) الخنـــق :

كان المغول يعتقدون أن الروح تقيم فى الدم (بتأثير الشامانية) وعلى هذا فلا يستفيد من عقوبة الموت خنقا بدون اراقة دماء سوى أولئك الذين يكونون لهم بعض الاعتبار (٢) فلما وقع "جاموكا" فى يد جنكيز خان - وهو أحد المتآمرين عليه برغم صلة القرابة بينهما - اقتيد خارج خيمة جنكيز خان حيث أخمدت أنفاسه تحت ضغط أقمشة ثقيلة وفقا لتقاليد المغول التى كانت تحرم اراقة دم زعيم أى قبيلة يجرى فى عروقه الدم الملكى". (٣)

(ب) كسر الظهر :

وهى طريقة وحشية كانت تناط بجماعة من المصارعين الاشداء يكلفهم الخان بها وقد اتبعها المغول فى اعدام الامراء منهم اذ كانوا لايقتلونهم بالسلاح بل يكتفون بكسر ظهورهم .. وقد طبق ذلك على جوجى بن جنكيزخان عندما شك ابوه فى اخلاصه لتخلفه عن حضور لقوريلتاى ولادعائه المرض .. "فبينما جوجى يتسلى بالصيد بالقبجاق بحثوا عنه طويلا لابتعاده عن مرافقيه وأخيرا وجدوه ملقى بين الاعشاب به رمق لكنه جامد السيطرة لاينطق لان ظهره كان قد كسرت فقاره على عادة المغول فى الاعدام". (٤)

(جـ) الغلى فى الزيت أوالماء :

ولعل الغرض من ذلك الحرص أيضا على عدم اسالة الدم الملكى ولكنه حرص يتسم بالبشاعة ، ولقد ذكر التاجر محمود يلـواج الخوارزمى وكان فى خدمة جنكيز خان فأوفده الى خوارزم شاه فى سفارة مهمة.

---

(١) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١١٩
(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦٤
(٣) د. هارولد لامب جنكيز خان وجحافل المغول ص ٦٦
(٤) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٢١٤

انجنكيز خان جعل يغلى فى الماء أو الزيت الخانات المتمردين عليه أوالذين شك فى ولائهم التام له" (١) اذ كان يرميهم أحياء فى المراجل ويبقيهم حتى ينضجوا (٢) حتى يتأكد من موتهم وليكونوا عبرة لغيرهم " وممن تم فيهم الاعدام بهذه الطريقة"ايلجيغداى" نائب الخان فى حكم فارس لولائه لبيت أوكتاى سنة١٢٥٢" (٣) وتم هذا فى عهد منكو حيث أوكل لباتوخان زعيم القبجاق تنفيذ هذه المهمة المروعة ٠

(د) الفضة السائلة :

وجرى ذلك فى مدينة اترار اول مدينة خوارزمية سقطت فى أيدى المغول فقد أحضر (ينال) خان الخوارزمى حاكم المدينة بين يدى جنكيز خان فأمر بسبك الفضة وقلبها فى اذنيه وعينيه فقتل تعذيبا لانه أمر بقتل التجار المغول فكان هذا جزاء فعله الفظيع وخطبه الشنيع وسعيه المذموم عند الجميع (٤) كما يقول النسوى كاتب السلطان ا لخوارزمى جلال الدين منكبرتى٠

(هـ) الاغراق فى الماء:

ذكرت فى الباب الثانى عند الحديث عن وصاية العرش الى الطريقة التى انتهت بها حياة الوصية على العرش " أوغول قاميش" زوجة كيوك ،ومعها أم الامير شيرامون الذى كان مرشحا من قبل بيت أوكتاى لتولى عرش الخاقان الاعظم ٠ فقد حكم عليهما بالاعدام غرقا لانهما مارستا السحر٠"أما الامير شيرامون وكان الخاقان الاعظم منكو قد عفا عنه بعد اكتشاف المؤامرة الكبرى على حياته ولقلب نظام الحكم فان منكو قد عاد بعد عدة أعوام من ذلك العفو وأمر بقذفه فى الماء ليموت غرقا" ٠ (٥)

(و) الرفس فى الاكياس المغلقة :

وسيلة أخرى للحيلولة دون اسالة الدم الملكى على الارض ولكنها غاية فى القسوة ايضا وقد اتبعها منكو قا آن عندما اكتشف تآمر بيت أوكتاى عليه ورغبتهم فى انتزاع الحكم منه "فأمر بوضعهم فى أكياس مغلقة ورميهم تحت حوافر الخيل فهشمت عظامهم ثم أمر باعدام اتباعهم – وهم أشخاص عاديون وليس بأمراء أو من البيت الملطى – رميا بالحجارة" ٠ (٦)

هولاكو أمير الانتقام :

كان جنكيز خان جافا خشنا مع أعدائه قاسيا اذا تمكن منهم وكان كيوك ومنكو على نفس الدرجة غير أن هولاكو فاق سابقيه ولاحقيه فلا يكاد يضاهيه فى قسوة العقاب أحد لامن المغول ولا من غيرهم٠

واعتقد أنه كانسان لم يكن سويا فاحكامه غاية فى التطرف والعناد يقبل على تشجيع العلوم العقلية دون أن يفهمها يقتل دون سبب ويعفو عن المنافقين وأغلب الظن أنه كان

---

(١) الكاتب الصينى ف٠ يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٥
(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٧٥
(٣) د٠السيد العرينى: المغول ص٢٠٧، رزق الله منقريوس: دول الاسلام ج٢ ص ٢٦٧
(٤) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ابن خلدون، العبر ج ٥ ص ١١٢
(٥) بارتولد :تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٨٣
(٦) د٠ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٦

مصابا بالنرجسية× وقد انتهت حياته وهو فى الثامنة والاربعين من جراء مرض الصرع يصيبه فى اليوم مرتين .

وهولاكو ارتكب أفظع عمل فى تقدير المسلمين حيث أقدم على قتل الخليفة المستعصم ومعظم أولاده خصوصا بعد أن انتهى الامر بينهما وخرج الخليفة اليه بل وارشده الى مختلف الثروات التى كانت تحت يديه فى بغداد ، لكن نفس هولاكو المفعمة بالغضب والحقد أبت عليه ألا أن يقتل الخليفة نكاية فى المسلمين دون أن يكون هناك سبب حقيقى لعدائه لهم واختلفت الاراء حول الطريقة التى قتل بها الخليفة ومن ذلك انه قتل رفسا أو وضع فى عدل ورفس حتى مات أو خنق أو مزق جسمه أربا ، أو لف فى بساط والقى فى دجله أو وضع فى عدل وشدخ بالمعاول أو ترك فى غرفة مغلقة مع بعض الذهب حتى مات جوعا وعطشا". (١)

اختلاف هذه الاراء يعكس حقيقة واضحة هى أن الخليفة قتل بطريقة غامضة وأخفى خبر موته كما أخفى قبره.. لكنه قتل بلا رحمة!!

ثم أقدم هولاكو على مجموعة من جرائم القتل البشع وتناسى قانون المغول الذى يمنع اسالة الدم الملكى على الارض وغلبته رغبته المدمرة فى الانتقام من الامراء والملوك بسبب او بدون سبب ومن أمثلة ذلك :

(أ) <u>الملك الكامل صاحب ميافارقين :</u>

وكان هذا الملك قد رفض التسليم وقاوم المغول بعد أن رأى أنهم لا يصدقون الوعد ويسارعون الى الغدر" فلما وقع أسيرا اقتيد الى حضرة هولاكو فأمر بتقطيعه اربا اربا كانوا يضعونها فى فمه حتى هلك سنة١٢٥٩ وكان رجلا زاهدا عابدا (٢) . وبعد أن قتل حملوا رأسه على رمح وطيف به فى البلاد ومروا به على حلب وحماه ووصلوا به دمشق بالمغانى والطبول ثم علق رأسه فى شبكة بسور باب الفراديس الى أن عادت دمشق الى المسلمين فدفن بمشهد الحسين". (٣)

قتل بشع وقسوة تفوق كل وصف ثم تمثيل بجسد ميت لبث الرعب والهلع فى نفوس المسلمين من مراغة الى دمشق.

(ب) <u>الملك الصالح صاحب الموصل :</u>

لم يكن هذا الملك أحسن حالا من صاحبه" فقد أمر هولاكو به فسلخ وجهه وهو حى"(٤) ثم أمر بأن يدخلوا جسمه فى الدهن "الليه ويربطوا عليه باللبد والحبال باحكام،

× النرجسية مرض نفسى ويعنى الافتتان بالذات . وينتج عن عدم قدرة المصاب به على تحقيق التوازن السوى بينه وبين الاخرين.

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص ٣٢٧، ابن الوردى :تاريخ ابن الوردى ج٢ص١٩٧ الدياربكرى : الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج٢ ص ٣٧٦، ابن خلدون : العبر ج٥ص ٥٤٣

(٢) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٣٢٣

(٣) ابو الفدا : كتاب المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٣، ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ص ٢٠٥ ،عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين ج١ص٢٦٥

(٤) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٤٧

ويلقوا به فى شمس الصيف القائظ فاستحالت الليه بعد أسبوع الى ديدان أخذت تلتهم جسمه حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء ثم بعثوا بابنه الذى كان فى الثالثة من عمره الى الموصل ليقدوه نصفين على ساحل دجله ، وعلى سبيل الاعتبار علقوا جثته على الجانبين حتى تعفنت وتناثرت" • (١)

قتل بشع بغرض الامعان فى التعذيب ثم قتل للاطفال فى سن الثالثة فثمة السارية التى تتلذذ بتعذيب الاخرين وتجد غمرة السعادة فى ايذائهم•

(جـ) الملك الناصر صاحب دمشق :

كان انتصار المصريين فى عين جالوت لطمة قوية اثخنت قلب هولاكو بالخزى والعار وطأطأت رأسه المزهو الى الارض مذلة وانكسارا • فامتلأ فوءاده حزنا وحرة على هزيمة جيشه ومقتل قائده كتبغا ثم انحدار عسكره ثانية عند حمص فلما توهج الغضب فى نفسه أمر باحضار الملك الناصر صاحب دمشق وكان عنده فى تبريز واتهمه بتغزيره وخداعه " وفوق سهما وضربه به فقتله ثم أمر المغول فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والصالح ابن صاحب حمص ومن معهم وشفعت زوجة هولاكو فى العزيز بن الناصر لصغره فاستبقاه" • (٢)

هذا •• ولقد أمعن الايلخانيون بعد هولاكو فقتلوا الكثير من الامراء والوزراء بل وقتلوا بعضهم البعض •• لكن قسوة هولاكو ووحشيته فى العقاب ظلت مثالا لانظير له•

---

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٣٣٠

(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ص ٢١٣،ابن خلدون : العبرجـ ٥ ص ٣٦٧

الفصل الثالث

السياسة والاقتصاد فى المجتمع المغولـــى

١ ــ تمهيـــــــد
٢ ــ النظام الادارى
- ــ الخاقانيـــــة
- ــ الادارة المزدوجة فى الاقاليم
- ــ الانفصال الادارى

٣ ــ الجهاز الادارى الحكومى
- ــ الوزيـــــر
- ــ الكاتـــب
- ــ القاضـــى
- ــ الجابـــــى
- ــ رجل البريـــد

٤ ــ الاقتصاد المغولـــــى
- ــ الموارد الاقتصادية التقليدية
- ــ الموارد الجديـــدة
  - × الضرائـــب
  - × الجزيـــة
  - × التمويـــن

٥ ــ نظام العملة (المعدنية ــ الورقية).

تمهيـــد :

السياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة هى الدولة المتحضرة. وبقدر نجاح الدولـة فى تحقيق التوازن بين سياستها واقتصادها تتوافر لديها أنسب فرص الاستقرار والاستمرار.

وبمعنى آخر فان الامكانيات العسكرية مهما بلغت قوتها قد تكفى لفترة من الوقـت لفرض المزيد من السيطرة والتوسع غير أن ذلك لايمكن أن يدوم طويلا مالم يكن هناك دعـم اقتصادى ثابت، وتوجيه سياسى واع.

وقضية التوازن بين السياسة والاقتصاد فى الدولة قضية قديمة عالجها الاسلام فـى القرآن والسنة ووضع لها من المعايير الدقيقة ماجعل من العرب أمة واحدة . دين وحضـارة فى زهاء قرن واحد منذ هجرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الى تكوين الدولة العربية الكبرى. (١)

ولقد كانت المشكلة الاساسية فى بناء الدولة المغولية هى النظام الادارى. فالياســا (قانون جنكيز خان) والتى تعتبر بحق خلاصة التجربة البدوية المغولية فى الشئون الحربيـة والاجتماعية لا تكاد تحتوى على تنظيمات ذات قيمة فيما يختص بالنظام الادارى للدولة.

ومن هنا أصبح الخاقان الاعظم مصدرا لكافة التشريعات والتنظيمات الادارية التى تحدد بنيان الدولة من مختلف الاتجاهات. وكان جنكيز خان يدرك تماما أن هذا العمل فـوق طاقته كرجل بدوى لا خبرة لديه بشئون حياة الحضر وقد أصبح لزاما عليه بموجب الفتـح أن يدير شئونهم مقابل خضوعهم اليه .

وعليه بادر جنكيز خان الى الاستعانة بهيئة من المستشارين الاكفاء الذين عاونـوه بصدق وأمانة وبذلوا له النصح فى كثير من الامور والمواقف حتى عزى اليه بحق أنه أول زعيـم قبلى مغولى فكر فى أن يقوم بتطبيع النظام القبلى - الذى درج عليه المغول - فى اطـار الدولة بالمفهوم الحضارى فظهرت لاول مرة فى حياة المغول السجلات والدواوين وأساليـب الحكم والادارة .

وفى الحقيقة كان جنكيز خان يتمتع بكثير من الصفات الادارية كالادراك السليم وصفاء الذهن وسرعة الاستجابة لكل جديد ومفيد ، وعلى هذا فقد بدأ جنكيزخان ا لتمهيد لقيـام دولته على نظام ادارى ملتزم فاتخذ عدة خطوات منها :

١ - عزل القواد والامراء الذين كانوا يتولون مناصبهم بحق الوراثة وجعل الوصول الـى مناصب القيادة أو الادارة بالكفاية الشخصية وحسن الولاء والبلاء. (٢) لكنه لـم يطبق هذا المبدأ على أسرته هو اذ حفظ لها دائما حق الوراثة فى مناصب الحكم.

٢ - الاستفادة بما فى الياسا من قوانين عسكرية صارمة تحقق النظام التام بما تفرضـه من عقاب رادع.

---

(١) انظر د. احمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٣ ، ص ٤

(٢) الكاتب الصينى .ف .يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٩٦

٢ - تكوين هيئة استشارية عليا تضم عناصر أجنبية تنتمى الى الشعوب المغلوبة الخاضعة وفى نفس الوقت تكون فى خدمة المغول بكل الولاء والانتماء ومن أبرز أعضاء هـذه الهيئة :

(أ) المستشار الصينى (يى ٠ليو٠جوتساى) وكان أبوه وزيرا فى حكومة الامبراطور الذهبى الذى يحكم الصين الشمالية وتولىهو نفسه ادارة بكين قبل سقوطها فى أيدى المغول وكان على أعلى درجات الثقافة درس الفلكوالجغرافيا والكيمياء والطب والحكمة والتاريخ. واليه يرجع الفضل فى لفت نظر جنكيزخان الى ضرورة تنظيم الادارة وتحديد الضرائب والاهتمام بالتعليم ويعتبر قوبيلاى حفيد جنكيزخان من أبرز تلاميذه.

(ب) المستشار الاويغورى تاتاتونجا وكان يعمل فى خدمة اخر الامراء النايمان، (١) ولقد استفاد منه المغول كثيرا فمن خلاله عرفوا نظام الاختام كما تعلم ابناؤهم بفضله الكتابة الاويغورية .

(جـ) المستشار الخوارزمى: محمود بلوج وأصله من جرجان وهو تاجر محنك خبر طرق القوافل وعرف طرائق حياة الناس وأساليبهم فكان اول سفير يبعث به جنكيز خان الى السلطان الخوارزمى محمد علاء الدين + .

ومن خلال هؤلاء المستشارين كان لجنكيز خان فكرة واضحة تماما عن الشعوب المحيطة بالمغول : الصين ،خوارزم ، ا لقبائل التركية خارج منغوليا . كما توفرت لديهم أفكار شاملة عن أفضل نظم الادارة لدى هذه الشعوب التى كانت ولاشك أكثر تحضرا ومدنية من المغول.

وهذه اليساسة هى نفسها التى اتبعها المغول بعد جنكيز خان فقد كانوا يصطحبون مع قواتهم العسكرية مستشارين للاستعانة بهم فى الشئون الادارية والتعمير (٢) وأغلب الظن أن هؤلاء عملوا دائما على تحقيق الوان من الاستقرار السياسى عقب كل غزو عسكرى كان يقوم به المغول.

النظام الادارى :

اختلف النظام الادارى فى عهد جنكيز خان عن ذى قبل وطرأت على أساليب الادارة فى عهده تطورات كثيرة نتجت عن تغيرات عامة فى الامبراطورية المغولية كلها من مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فقد اتسعت الامبراطورية وتعرضت لظروف جمة.

أولا : الخاقانية :

وهى مركز الحكم الرئيسى فى العاصمة المغولية التى تخضع مباشرة للخاقان الاعظم باعتباره الرئيس الاعلى للامبراطورية. ويساعده هيئة من المستشارين بالاضافة الى الوزراء وهممسئولون عن كل مايتعلق بديوان الخاقان من أعمال البروتوكول والمراسيم والسفارات وكذا متابعة التقارير والبراليغ التى تصدر مرتبطة بما يجرى فى مختلف الولايات التابعة وبخاصة ما يتعلق منها بالشئون المالية والادارية .

وأول من شغل منصب الخاقان الاعظم جنكيز خان الذى توج سنة٦٠٣هـ /١٢٠٦م وقد حدد سياسته العامة فى ثلاثة محاور.

---

(١) الكاتب الصينى ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٩٦

(٢) د٠ بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٦

١ - مركزية الادارة بمعنى أن الحكام العسكريين او الاداريين ليس لهم حق الاستقلال بأى صورة عن الخاقانية فهم نواب يقومون بالعمل نيابة عن الخاقان الاعظم .

٢ - تعيين حكام مدنيين مسلمين فى البلاد الاسلامية التى خضعت للمغول أى فى أملاك الدولة الخوارزمية ، وماجاورها فى اتجاه الغرب.(١)

٣ - تعيين قواده العسكريين على رأس الامبراطوريات النائية ليحكموها كما كانت الحال فى كوريا وشمالى الصين انذاك(٢) غير أنه اضطر - نتيجة احتياجه لهؤلاء القواد- أن يعين مستشاره محمود الخوارزمى حاكما على بكين .

وقبيل وفاة جنكيز خان رأى أن يقسم الامبراطورية الضخمة بين أبنائه" فأوكتاى يخلفه - وهو ثالث أولاده -خاقانا أعظم ويؤول اليه الجزء الشرقي من الامبراطورية الذى ضم اليه قوبيلاى فيم بعد كل ارجاء لصين على حين أعطى جغتاى ثانى أولاده الجزء الاوسط (التركستان وبلاد ما وراء النهر) وحكم باتوبن جوجى اكبر أولاد جنكيز خان الجزء الغربى وتلقب بخان القبيلة الذهبية وحكم تولوى رابع أولاد جنكيزخان بلاد فارس التى ضم اليها هولاكو فيماجزءا عظيما من آسيا الصغرى". (٣)

وفى الحقيقة ، لم يقم واحد من أبناء جنكيز خان الثلاثة أوكتاى ،جغتاى، تولوى باستثناء جوجى الذى توفى قبيل أبيه بستة أشهر - بمباشرة شئون الحكم عمليا فى المملكة التى خصصت له" فهم رغم ما كانوا يتمتعون به من شهرة حربية فائقة لم تكن لهم خبرة بادارة تلك الممالك، كما كانوا يجهلون النظم والرسوم التى كانت تتعلق بالحساب والاستيفاء وشئون الحكم والقضاء". (٤)

وعلى هذا فقد اقتصروا على ارسال حكام عسكريين للاشراف على السياسة العليا فضلا عن الحاميات العسكرية التى زودوا بها المدن المختلفة وعلى هذا الاساس نجد الادارات المدنية فى فارس والعراق وجورجيا وأرمنية وبلاد الصين فى آيدى أمراء من أهالى هذه البلاد الاصليين" (٥).

ويرى الدكتور جرانفيل براون ان هؤلاء المدنيين كانوا يتمتعون بصفات خاصة أهلتهم لتولى هذه المناصب من قبل المغول .. يقول" وكانت حكومتهم (المغول) تعمل على نشر الفساد فتقضى كل من عرف بالشرف والنبل وتقرب كل من اشتهر بالضعة والخسة وتجزيهم على طاعتهم الذليلة وعلى خضوعهم لساداتهم من ذوى القلوب الغليظة بكل مايتمنون من مال أو قوة او سلطة يستطيعون بها التعسف مع ذوى قرباهم وأبناء جلدتهم". (٦)

---

(١) أمرنبوس فامرى : تاريخ بخارى ص ١٨٢

(٢) د.هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٢، د. ارنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٨٠.

(٣) توماس ارنولد: الدعوة الى الاسلام ص ١٩١

(٤) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ١١٦

(٥) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٢٨

(٦) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٥٣

ولكن هذا الرأى فى مجمله يظلم بعضا من أولئك الين حاولوا قدر جهدهم وظروفهم ان يخدموا أوطانهم أو أهل دينهم ونذكر من أولئك على سبيل المثال التاجر الخوارزمـــــى محمودا وابنه مسعودا .

وفى فترة وصاية تولوى بن جنكيز خان على عرش الخاقانية (٦٢٤هـ – ٦٢٦ هـ) لم تحدث تغييرات فى النظام الادارى فلقد كان مشغولا بأعباء منصبه الفخم لدرجة أنه حـــاول ان يستأثر به دون اخيه أوكتاى لولا تدخل المستشار الصينى . يى .ليو. جوتساى والحاحه على وصية جنكيز خان (١) فتوقفت اطماع كولوى وجغتاى فى نيل هذا المنصب .

وعلى الرغم من أن أوكتاى تولى عرش الخاقانية لفترة ثلاثة عشر عاما (٦٢٦هـ/٦٣٩هـ) الا أنه صرف جل همه الى الشئون العسكرية لكنه على غرار أبيه استعان بهيئة ممتازة مـــن المستشارين الاكفاء ، فقد نجح (يى . ليو – جـوتساى) فى اعداد ميزانية ثابتة للامبراطورية المغولية وعلى سبيل المثال فان ما جرى فتحه من بلاد الصين تقرر تقسيمه منذ سنة ١٢٣٠ بين عشرة دواوين يتولى ادارتها موظفون من المغول والصينيين المثقفين". (٢)

ومن مستشارى أوكتاى اللامعين أيضا (تشنكاى) الكرايتى النسطورى وكان قد حظــى بثقة جنكيزخان وقد نعته الراهب بلان كار بيونتى بأنه مستشار الامبراطورية". (٣)

وفى فترة وصاية توراكيناخاتون كانت مشغولة تماما بالاعداد لابنها (كيوك) كى يتولــى عرش الخاقانية وحدث أثناء وصايتها محاولة التخلص من عدد كبير من مستشارى أوكتاى و علــى سبيل المثال فقد عزلت "قورغز الايغورى" حاكم الشطر الشرقى من ايران" خراسان" وعينــت مكانه سنة ٦٤١ هـ الامير "أرغون" اغا الادبراتى لانه كان على صلة قديمة بها. (٣)

فلما تولى كيوك الخاقانية (٦٤٤ – ٦٤٦هـ) (١٢٤٦–١٢٤٨م) قام سنة ٦٤٥ هـ باصدار عدة قرارات خاصة بالنظام الادارى فى الدولة " فقد ولى الاشراف على بلاد الـــروم والموصل والكرج الامير (ايلجيغيداى) وعلى ممالك الخطا (الصين) الصاحب محمود يلواج وعلى ماوراء النهر وتركستان الامير مسعود، وعلى بلاد خراسان والعراق واذربيجان وشروان واللــور وكرمان وفارس طورف الهند أرغون أغا، وقلد سلطنة بلد الروم السلطان ركن وأمر بعزل السلطان عز الدين وجعل داود الصغير ملكا محكوما لداود الكبير صاحب تفليس". (٤)

وبالاضافة الى ذلك أعاد كيوك (تشنكاى) النسطورى الكرايتى من جديد مستشـــارا للامبراطورية". (٥)

ولما كان منكو بن تولوى يتمتع بكثير من صفات جدة جنكيزخان فقد عمل – بعـد الانتهاء من المتامرين عليه – الى اجراء العديد من الاصلاحات الادارية حيث استدعــى طائفة من الايرانيين المستنرين وطلب اليهم تنظيم الادارات و الدواوين فى قراقورم علــى اسس سليمة". (٦)

---

(١) د.بارتولد: تاريخ التركستان الى الغزو المغولى ص ١٦٤ والعرينى: المغول ص

(٢) العرينى : المغول ص ١٦٦

(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٥

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٠، د. السيد العرينى: المغول ص١٩٦

(٥) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ١٩٦

(٦) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٢٩

وقد ولى منكو على البلاد الشرقية من شاطئ جيجون الى منتهى بلاد الخطا الصاحب المعظم محمود يلواج وولده مسعود بلكوعلى ممالك خراسان ومازندان وهندوستان والعراق وفارس وكرمان ولور واران واذربيجان وكرجستان والموصل والشام الامير أرغون". (١)

وفى عهد منكو أصبح أخوه قوبيلاى قا ان مسئولا تماما عن كل فتوحات المغول فى اتجاه الشرق . بلاد الصين كلها بل وأضاف اليه منطقة التبت أيضا.

وتولى قوبيلاى (٦٥٨ - ٦٩٣هـ) (١٢٦٠- ١٢٩٤م) وفى عهده ظهر واضحا الاثر الصينى فى نظم الادارة وخصوصا فى الصين ذاتها وقد قسمت الامبراطورية فى عهده الى عدة اقسام هى :

١ - الخاقانية : وعاصمتها بكين وتشمل الصين كلها وبلاد التبت ومنغوليا الوطن الام ، وكل ما جاورها فى اتجاه الشرق تجاه كوريا.

٢ - الايلخانية : وعاصمتها تبريز وتشمل كل ايران والعراق والشام وبلاد أذربيجان والروم ويخضع لها ملوك الكرج والارمن.

٣ - القبيلة الذهبية : وعاصمتها" سرائ" وتمتد منغرب منغوليا فتشمل كل جنوب روسيا ومنطقة القبجاق وكذلك منطقة خوارزم.

٤ - مملكة التركستان وبلاد ما وراء النهر" وعاصمتها " الماليق" وتشمل كلبلاد الخطا فى التركستان وممتلكات الخوارزميين السابقة وتجاور شمالا القبيلة الذهبية وغربا أملاك الايلخانيين.

ثانيا: الادارة المزدوجة فى الاقاليم :

أقام المغول فى البلاد التى فتحوها منذ عهد جنكيز خان نظاما اداريا مزدوجا حتى بات كل شئ محصورا تحت اعينهم الساهرة سواء من جهة المصارف أو الموارد أو كل ما يصدر عن السكان من فعل أو قول وانها للفتة عبقرية منجنكيزخان الامى أن يجعل الحكام من أهل البلاد" برادع" المحتلين وهم نفس الوقت بمثابة " مخالب القطط" "فهو يحمل مسئولية العمل للاهلين والثمرة خالصة للغاصبين" (٢) وقد سار هذا النظام على النحوالتالى :

(أ) الحاكم ا لمغولى :

ويعين من قبل الخاقان الاعظم مباشرة وهو الرئيس الفعلى وفى يده كافة السلطات وتدعمه جاميات عسكرية قوية موجودة تحت امرته.

(ب) الحاكم الادارى :

وهو فى الغالب من سكان البلاد الاصليين ويعين من قبل الخاقان الاعظم مباشرة دون تدخل من الحاكم المغولى العسكرى ، وسلطاته ادارية فهو يتولى تنظيم عمل الديوان وشئون الضرائب والبريد والعملة.. الخ وبمقدار خبرته وكفاءته تتجمل فى يده معظم السلطات الحقيقية.

---

(١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩

(٢) ف .يان الصينى: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٨٢

وكان هذا النظام يؤدى غالبا الى نشوب صراع خفى بين الادارتين لان كلاهما معين من قبل الخاقان الاعظم فعلى سبيل المثال" وفى حياةجنكيز خان الذى جعل لابنه جغتاى حكم مملكة التركستان وبلاد ما وراء النهر كان محمود يلواج يحكم هذا الاقليم باسم الخاقان الاعظم". (١)

فلما توفى جنكيز خان عزل جغتاى محمودا من منصبه فى التركستان دون أن يستشير أخاه (أوكتاى) الخاقان الاعظم و عين مكانه حاكما اخر ، فلما شكا محمود الى أوكتاى استوضح اخاه الامر فرد عليه معتذرا فلم يكتف أوكتاى بقبول العذر بل منح أخاه جغتاى التصرف فى كل ماوراء النهر". (٢)

ونقل محمودا الخوارزمى الى الاشراف على الاجزاء الخاضعة من الصين فصار حاكما عاما على بكين وما حولها من المناطق .

هذا .. ولقد كان الخاقان الاعظم الجديد يبدأ عهده دائما باصدار البراليغ التى تثبت هؤلاء الحكام (عسكريين - اداريين) أو تعزلهم وأغلب ما يكون العزل فى الحكام الاداريين الذين كانوا يتعرضون للوشاية عند الخاقان الجديد. مما جعل هؤلاء فى حالة مضطربة متوجسه ففى عهد أوكتاى هرب مسعود بك بن محمود الخوارزمى مع بعض الحكام الاخرين خوفا من أن ينقلب عليهم " أوكتاى ولجأ مسعود الى(باتو) لكنه استطاع قبيل تنصيب كيوك ان يرجع واشترك فى قوريلتاى سنة ١٢٤٦ م بصفته واليا وصدق كيوك على تعينه واليا على (ما وراء النهر وتركستان" (٣).

وكان من الامور المألوفة ان يعمد هؤلاء الحكام الاداريين أو بعض أتباعهم الى تأمين حياتهم المادية بطرقهم الخاصة . وعلى هذا فقد كانوا متهمين دائما بالاختلاس وكان مصيرهم ينتهى غالبا بالاعدام أو العزل .

ثالثا : <u>الانفصال الادارى :</u>

لعله يمكننا القول ان النزعة الاستقلالية عن الامبراطورية بدأت تظهر فعلا منذ أواخر عهد جنكيز خان نفسه وان كانت قاصرة على القبيلة الذهبية حيث كان ابنه جوجى يحكم هناك فى كيان شبه مستقل تماما عن أبيه الذى شعر بمدى رغبة جوجى فى الاستقلال فكان ذلك السبب الرئيسى فى التخلص منه بصورة غير مباشرة.

ورغم ذلك اعترف جنكيز خان نفسه قبيل مماته بباتو بن جوجى حاكما على سائر جنوب روسيا والقبجاق خلفا لابيه جوجى فاتخذ عاصمة له "سراى" وتوغل فى روسيا وبولندا والمجر (٦٣٥ - ٦٤٠هـ) وازداد نفوذه فأصبح صاحب الكلمة الاولى فى تولية منصب الخاقان الاعظم وأصبح يعدل فى السلطان والعظمة منكو قا آن". (٤)

وفى الحقيقة لم يكن لاى من خلفاء جنكيز خان سلطة حقيقية فى أملاك القبيلة الذهبية لكن باتوا كان يرى من الكياسة والحكمة أن يرجع فى بعض الامور الى الخاقان

---

(١) عبد العزيزجنكيزخان : تركستان قلب آسيا ص ٧١
(٢) د. بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٨٥
(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٨٧
(٤) د. جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٠٢

الاعظم وعلى هذا وجه الراهب وليم روبرك من عنده فى القبجاق الى بلاط منكو فى منغوليا . كذلك كان يبعث بالامراء الروس الذين توافدوا على بلاطه لاعلان الخضوع والطاعة الى قراقورم لنيل هذا الشرف السامي بالمثول بين يدى منكوقا ان . ولم يكن ذلك فى الواقع أكثر من مجرد مسألة شكلية اذ أن باتو كان يتخذ كل القرارات الخاصة بمملكته منفردا فهو يعد أن "أذل روسيا وأخضعها لسلطته ونال منها ما أراد لم يغير فى شئونها السياسية فترك لكل بلاد اميرها وقضاتها ومحاكمها ولكن فى نفس الوقت لم يكن أحد من الامراء الروس يتولى الادارة بدون فرمان منه ولم يكن مسموحا لاحدى المقاطعات الروسية ان تشهر حربا دون مشورته وموافقته" (١) .

وفى عهد بركة خان المسلم اشتدا عداوءه مع هولاكو بن عمه تولوى وشقيق الخاقان الاعظم قوبيلاى الذى تدخل لموءازرة أخيه فارسل اليه ثلاثين ألفا من جنود الخاقانية. مما أثار فى نفس بركة خان حتمية الانفصال عن هذا الخاقان الوثنى ا لذى تبعد بلاده كثيرا عنه. وهكذا استمرت القبيلة الذهبية منفصلة تماما عن سلطة الخاقان الاعظم اذ ان أكثر خلفاء بركة كانوا مسلمين فاتبعوا نفس سياسته .

وفى بلاد التركستان وما وراء النهر وهى أقرب المناطق الاسلامية الى منغوليا والتى تلقت عنف الضربة الاولى القاصمة فى عهد جنكيزخان ذلك الذى حرص على أن يترك عليها حكاما اداريين مسلمين من قبله .

تولى جغتاى الحكم عليها منذ أيام أبيه وعزل محمود الخوارزمى دون استشارة الخاقان الاعظم انذاك .. كما سبق القول .. وهو مالم يكن بوسعه ان يقوم به فى عهد أبيه جنكيز خان. الذى كان يحسن تقدير مكانة أتباعه المخلصين .

فلما تولى كيوك خاقانا أعظم تدخل فى شئون الجغتائية فعزل قراهولاكو حفيد جغتاى وعين مكانه صديقه الحميم بيسو منكو بن جغتاى.

كما أن اريق بوقا ــ بعد وفاة منكو الخاقان الاعظم فى الصين ــ تدخل فى أمور خانية التركستان بأن عزل الوصية على العرش أورغنة خاتون وأحل محلها الامير (الغو) ابن عم زوجها ، وبذل له من المساعدة ماجعله يفوز بتركستان. (٢)

غير أن (الغو) هذا وهو حفيد جغتاى خان كان يعمل لمصلحته هو" فقد أسس امبراطورية مستقلة فى هه البلاد حيث جعل تحت صولجانه تركستان الكبرى وبلاد افغانستان وأعلن استقلاله" (٣)

وعلى نفس السياسة سار خلفاوءه (براق) ، (بنكباى) (دوا) حتى أن هذا الاخير فكر بالمشاركة مع(قايدو) فى مهاجمة جيوش الخاقان الاعظم لكن الحملة لم تكن موفقة.

وفى سنة ١٢٦٥م نهض قايدو حفيد اوكتاى بمهمة تأسيس مملكة مستقلة فى اسيا الوسطى" (٤) ورغم محاولات قوبيلاى قا آن العديدة الا أنه عجز عن القضاء عليه حتى وافت المنية قوبيلاى قا آن سنة١٢٩٤.

---

(١) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٧٠، ٧٢

(٢) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٥٦

(٣) عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ص ٧١

(٤) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٧٠٥

هذا كلههو ماحدا بالمستشرق الروسى بارتولد أن يقول "وكان النظام السياسى فـــى المناطق التى غزاها المغول بتركستان وفى اسيا الوسطى بوجه عام مائعا مطموس المعالم" (١)

فاذا كان هذا الاضطراب قد وقع فى بنيان السلطة السياسية العسكرية بمثل هـذه الصورة فكيف يكون الحال بالنسبة للنظام الادارى ؟

وفى غرب التركستان بدأ عهد جديد بدخول ايران تحت سيطرة الايلخانيين فى الفترة التى بدأت من ١٢٥٦م /٦٥٤ هـ حيث اصبحت ايران وغرب اسيا مقصورة على فـــرع خاص من الاسرة المغولية المالكة ، يتبع اسميا الخان الاكبر فى منغوليا ولكنه مستقل استقلالا تاما عنه" (٢).

وقد راعى هولاكو فى سياسته بعد أن استقرت حركة الفتح أن يبقى على نظـــام الادارة الدينى والمدنى على الشكل الذى كانت عليه أيام الخلفاء العباسيين (٣) "ومن ذلـــك أنه لماقدم ناصر الدين المحتشم فى قلعة (سترنخت) الى هولاكو التحف والهدايا وقبـــل الارض بين يديه تعطف هولاكو خان وقبل تلك الهدايا ثم انعم عليه بلوحة ذهبية (بايـزة) ومرسوما (برليغ) ونصبه حاكما على مدينة تون الى أن توفى سنة ٦٥٥هـ" (٤)

وفيما يتعلق بالعراق فقد ولى هولاكو ابن العلقمى حكومة بغداد فلما توفى بعـــد ثلاثة اشهر ولى مكانه ابنه شرف الدين ثم ولى على العراق علاء الدين عطا ملك ا لجوينـــى فأحسن السيرة والتدبير ونشر العدل والامن واهتم باصلاح ما أفسدته الفتن والحروب" (٥)

غير أن عطا ملك الجوينى . وهو موءلف كتاب تاريخ جهانكشاى الشهير عجز عن ابراء ذمته المالية فيما نسبه اليه أعداوءه" حتى أن هولاكو أمر بقتله فستل العفو، فأمر بحلـــق لحيته فحلقت فكان يجلس فى الديوان ويستر وجهه" . (٦)

وفى عهد اباقا بن هولاكو اتهم الجوينى بمواصلة المصريين ومكاتبتهم سرا ورغم عـــدم ثبوت التهمة عليه فقد أمر اباقا خان بحبسه و ضيق عليه والزمه بدفع مال كثير فلما عجـــز قبض عليه وجرده من الثياب وأمر ان يطاف به على تلك الحالة فى شوارع بغداد وأسواقها" (٧)

هكذا كان شأن ا لحكام الاداريين على عهد المغول فى العراق . الذى يقول عنـــه الدكتور أحمد شلبى ، وقد كان المغول بارعين فى الفتح ولكنهم كانوا متخلفين فى تأسيـــس الامبراطوريات وادارتها وكذا طبعت قوتهم العظيمة مطالع عدم الثبات وعدم الاستقرار وظهـــرت نقاط ضعفهم بوضوح عند حكمهم للعراق ففى حكومات بغداد والبصرة والجزيرة التى أصبحـــت وحدات مختلفة انتشرت الدسائس وبرز الجهل فى تسيير الامور . (٨)

---

(١) د.بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٣
(٢) د.براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٧٥
(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٣٤
(٤) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء٢ ص ٢٤٧
(٥) على ظريف الاعظمى : مختصر تاريخ بغداد ص ١٣٢
(٦) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٤٣
(٧) على ظريف الاعظمى: مختصر تاريخ بغداد ص ١٣٤
(٨) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٥٩

عموما فان دولة الايلخانيين كانت مستقلة فى حقيقة الامر عن سلطة الخاقان الاعظم غير أن هولاكو وأباقا ظلا عاملين بهذه التبعية اسميا على حين بدأ ارغن يظهر بعض الاستقلال حين جعل اسمه على السكة مع اسم الخان الاعظم قوبيلاى" (١) على حين أعلن غازان رسميا اسقاط التبعية للخان الاعظم وأن الايلخانية مستقلة تماما بذاتها٠

الجهاز الادارى

١ — رجال الادارة :

بدهى فى حياة المجتمعات البدوية التى تقوم احتياجاتها على أوليات بسيطة أن يكون النظام الادارى فيها — ان صح هذا التعبير — بسيطا ٠ اذ لايعدو الامر أن يحتاج رئيس القبيلة الى كاتب يدون له بعض الرسائل او يسجل له بعض التواريخ أوا لمواقف وقد يتطور الأمر أحيانا الى أكثر من ذلك قليلا يقول بروى (٢) " وكان زعماء القبائل يستخدمون مندوبين وسفراء وموظفين اداريين يتحولون بعد اعادة السلم الى خدام ويدخلون فى حاشية الزعيم الذين قد يغدون مستشاريه وأصدقاءه الخلص الذى يتوجب عليه حمايتهم"٠

وهذا الرأى يشير الى أنهذه الوظائف كانت موءقتة أثناء الحرب فقطأى ليست لها صفة الدوام وهذا لا يتنافى مع طبيعة المجتمع البدوى٠

غير أن هذا النظام القبلى المحدود أخذ يتطور رويدا رويدا نتيجة اتصال المغول بغيرهم من الامم المتحضرة، ولا يكاد يلحظ هذا التطور الا قبيلة نهاية حكم جنكيز خان حين اتسعت دائرة الغزو فى مختلف الجبهات واشتد احتياج المغول الى موظفين أكفاء ذوى خبرة فى المجال الادارى ٠ يقول الدكتور الصياد (٣) " وفى عهود سيطرتهم على الصين وايران وروسيا كانوا يستخدمون موظفين وأطباء وعلماء وتجار وكتاب ووزراء وأغلب هوءلاء من الايرانيين والصينيين والاويغوريين" أى من أهل البلاد المفتوحة ٠

وهكذا صار لدى المغول موظفون مدينون لهم صفة الاستمرار وتوجب عليهم الاتصال بمختلف الطوائف لذا كانوا ملتزمين باداب معينة فى عملهم الوظيفى يقول فامبرى (٤) " وكان الموظفون المدنيون يلتزمون أثناء اضطلاعهم بواجباتهم بمعاملة الاهلين بالعدل والانصاف مع رعاية شئون ا لتجارة "

بل ان الامر قد تطور الى درجة هامة تعكس مدى اهتمام المغول بهذا الأمر واتضح ذلك حين أسس اباطرة المغول الاوائل المدارس فى شمالى الصين لاعداد ما يلزمهم من الموظفين الاكفاء" ٠ (٥)

ولم تكن هذه المدارس بطبيعة الحال هى المصدر الوحيد لوجود الموظفين عند المغول فان المسلمين بالذات كان لهم مكانهم ومكانتهم يقول ارنولد توينبى (٦) : والمغول

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٥٣٠

(٢) تارخ الحضارات العام ج ٣ص ٣٦٦

(٣) موءرخ المغول الكبير ص ١١٧

(٤) تاريخ بخارى ص ٢١٥

(٥) كشتسر ٠ أ٠ بين : اشلرق الاقصى ص ١٦

(٦) تاريخ البشرية ج ٢ ص ١٧٩

لم يحكموا الصين بواسطة الموظفين الكونفوشيين بل استعملوا المسيحيين والمسلمين فى أعمالهم، ومن ذلك أن عملاء المغول فى بدء فتح الصين سنة١٢٥٣م كانوا مسلمين من أواسط آسيا".

ويبدو أن الدائرة قد اتسعت تدريجيا فقد هرعت الى الصين جموع حاشدة من طلاب الوظائف من جميع أنحاء امبراطورية المغول ونقلوا اليها آراءهم الجديدة ومهارتهم الفنية وأنويتهم ،بل نقلوا أيضا الاتهم الموسيقية". (١)

وأمام كل هذا اضطر قوبيلاى الى اتباع نظام معين فى تقلد الوظائف العامة يقول ول ديورانت(٢) : "وقد عمل قوبيلاى على الغاء تقلد المناصب العامة بالامتحان وذلك لانه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من غير المغول ثم قصر معظم الوظائف العامة على اتباعه من المغول".

ويشير ذلك الرأى الى أن المغول حتى عهد قوبيلاى كانوا غير أكفاء لتولى الوظائف الادارية العامة ،ونظام الامتحان كان كفيلا باثبات ضعفهم فى ها المجال.

وهكذا تغلب - مع الاسف - الاتجاه العنصرى على تفكير قوبيلاى الذى كان يعتبر أكثر تحضرا بالقياس الى غيره من خانات المغول.

ورغم ذلك ارتقى العمل الوظيفى فى الصين فى عهد المغول وبايد غير مغولية ومما يلفت النظر هنا أن الموظفين الاداريين كانوايحملون على صدورهم شارات تميزهم عن غيرهم كتلك التى يضعها موظفوا المطارات والموانئ والجمارك الان". (٣)

وسنحاول فيما يلى الاشارة الى أهم الوظائف الادارية عند المغول.

١ - الوزير :

يعد منصب الوزير أهم منصب فى النظام الادارى للدولة. بل هو عصب النظام الادارى كله، وبالطبع لم يكن النظام البدوى يتطلب وجود هذا المنصب . لان طبيعة البدو هى فى الغالبية العظمى طبيعة عسكرية مما قد لايجعل فى حياتهم للعمل الادارى مجالا واضحا.

غير أن جنكيز خان وقد بدأت دولته تتسع وتتصل بالنظم الاداريةفى دول مجاورة متحضرة رأى أن يختار لنفسه وزيرا ، وبالعقل كان (بى .ليو.كوتساى) اول وزير له ، وقد اختلفت الاراء حول حقيقة أصل الرجل الذى لم يكن مغوليا.

وأميل الى القول أنه كان صينى الاصل يتضح ذلك من تركيب حروف اسمه علاوة على اهتمامه الفائق بشئون الصين لدرجة أنه ظل يدفع جنكيزخان بعيدا عنها فزين له غزو بلاد خوارزم شاه.

وقد نجح الرجل فى عمله وأظهر كفاءة عالية فظهرت الدواوين ومحطات البريد المغولية

---

(١) تشتنر.أ.بين : الشرق الاقصى ١٧

(٢) قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٥

(٣) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٢٢٥

ولاحت فى الافق ملامح البروتوكول وكذا سجلات الدولة وحساباتها .

وليس أدل على كفاءة هذا الوزير من استمراره فى عمله فى عهد (أوكتاى) الذى وكل اليه مهام الاهتمام بالصيين بالاضافة الى عمله كوزير للدولة كلها .

وفى عهد كيوك – وبعد وفاة (يى ٠لبو٠كوتساى) تولى الوزارة رجل نسطورى ، أويغورى "فبالاضافة الى السنطورى تشنكاى الكرابينى (١١٧١–١٢٥١م) فقد كان هناك نسطورى اخر هو كاداك ذو الثقافة الاويغورية والذى أسندت اليه مهمة تهذيب كيوك ثم أصبح رئيس وزرائه الا أن الاثنين أعدما عندما ال الحكم الى منكو الذى أتى بذلك عملا سياسيا لا اضطهادا دينيا" . (١)

اذن .. صار منصب الوزير ذا أهمية بالغة فكان أن سارع النساطرة الى محاولة الاستحواذ عليه والاستئثار به وعلى هذا" فقد عين منكو خان – وهو ابن سيده مسيحية نسطورية – وزيرا نسطوريا" . (٢)

وتبدو الصورة اكثر وضوحا فى عهد قوبيلاى ، "فقد عين النسطورى عيسى وهو سورى كان فى خدمة (كيوك) مديرا لمكتب الابحاث الفلكية (١٢٦٣) ، ثم عين بعد ذلك مفوضا لشئون العبادة المسيحية ثم وزيرا ، فعين كافة أبنائه وهم نسطوريون أيضا فى مناصب مرموقة" . (٣)

غير أننا نلاحظ أن النظام الوزارى فى الصين فى عهد قوبيلاى قد أصابه بعض التطوير . فقد تعدد الوزراء وتعددت اختصاصاتهم . اذ اسندت ادارة الامبراطورية المقسمة الى ٣٤ مقاطعة الى اثنى عشر وزيرا صينيا من عظام الاسياد يقيمون فى أحد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع معين من الشئون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ويؤلفون أخيرا محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة و يتخذون قرارات مطلقة فى الشئون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجنيدها ويصدرون فى الدعاوى الهامة أحكاما مبرمة ، باستثناء الحالات الخطيرة التى تعرض على الامبراطور للفصل فيها" . (٤)

وكان طبيعيا أن ينجح هذا النظام الوزارى الجيد فى الصين التابعة للمغول فالصينيون أهل حضارة وتمدن وقوبيلاى قابض على الحكم بقوة فليس ثمة منافسين وكذلك فان فترة حكمه اتصفت بالامتداد الزمنى واتصف هو نفسه بالتحضر والمدنية .

اذا كان هذا حال الوزارة فى قراقورم والصين فماذا عن حالها فى ايران التى خضعت لهولاكو وأولاده فترات طويلة .

يبدو أن أسرة الجونيين قد استحوذت على منصب الوزارة فى ايران والعراق معا فترة طويلة ومن هؤلاء الوزراء الخواجة شمس الدين محمد صاحب الديوان وأخوه علاء الدين عطا وأبيه بهاء الدين وقد تولى شمس الدين الوزارات لهولاكو واباقا والسلطان أحمد" . (٥)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٢

(٢) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ١٢٧

(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٤

(٤) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(٥) د. فؤاد الصياد : مؤرخ المغول الكبير ص ١١٨ ، الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٣٦

ولكن هذه الاسرة تعرضت لمحنة خطيرة تشبه الى حد ما محنة البرامكة فى عهد الرشيد فالدسائس والمكائد سرعان ما أودت بمصير هذه الاسرة التى أفل نجمها فى عهد أرغون "فقد توفى علاء الدين عطا ملك الجوينى سنة ٦٨١هـ ، وأما أخوه شمس الدين الوزير الاعظم فقد لقى حتفه هو وأبناؤه بأمر أرغون سنة ٦٨٣هـ". (١)

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل وكراء المغول فى ايران والعراق من الايرانيين المسلمين فيما عدا سعد الدولة اليهودى الذى تولى فى عهد ارغون "كان طبيبا يهوديا استغل الاحداث بمكر ودهاء فى عهد ارغون (٦٨٣ ــ ٦٩٠هـ) فقام بالقبض على بعض رجال الادارة فى العراق وقتل بعضهم وعين مكانهم نوابا من أقاربه اليهود" (٢)

وفى عهد كيخاتو خان ٦٩٠ ــ ٦٩٤هـ " تولى الوزير صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى ولقب بلقب "صدر جهان" اى صدر العالم وقد أعطاه كيخاتو سلطات واسعة مطلقة فصار هو الشخص الاول فى الامبراطورية الذى يستطيع أن يقف على قدم المساواة مع القائد العام لجيش المغول". (٣)

وفى عهد (بايدو) سنة ٦٩٤ هـ اختار جمال الدين الدستجردانى وزيرا له خلفا لصدر جهان وزير كيخاتو فاختار لقب الوزير بدلا من لقب صاحب الديوان". (٤)

ويبدو أن هذه الفترة ــ رغم ما حدث فيها ــ كانت تمثل فترة اتساع نفوذ الوزراء فى الايلخانية وذلك ان شمس الدين الجوينى كان يلقب بالوزير الاعظم و الزنجانى لقب بصدر العالم واتسعت سلطاته حتى تساوى مع القائد العام لجيش المغول. والدستجردانى طرح لقب صاحب الديوان . ولعل هذا ما حدا بالقلقشندى (٥) أن يقول عن منصب الوزارة فى مملكة هولاكو" وأمر متحصلات البلاد ودخلها وخرجها الى الوزير ،واليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب شرعى وله التصرف المطلق فى الولاية والعزل والعطاء والمنع لايشاور السلطان الا فيما جل من المهمات وما قل من الامور وهو السلطان حقيقة وصاحب البلاد معنى، واليه ترجع الامور كلها واليه عقدها وحلها" (٦)

وفى تقديرى ان القلقشندى . قد بالغ فى وصف مكانة الوزير وفى تعدد سلطاته وقدراته .. عموما فان هذه المكانة بدأت تواجه أخطارا عدة منذ عهد غازان خان الذى رأى ان الدولة قد اتسعت والاعمال قد تشعبت ولذافقى سنة ٦٩٦ هـ عهد بمنصب الوزارة الى اثنين بدلا من واحد حتى ينهضا بالتبعات الكثيرة الملقاة على عاتقهما وحتى يكون كل منهما رقيبا على عمل الاخر فيأمن بذلك استبداد الوزير وطغيانه فكان تنظيم الادارة على هذا النحو

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٩٧ : ٩٩

(٢) يوسف رزق الله غنيمة : نزهة المشتاق فى يهود العراق ص ١٤٧

(٣) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ٦٨

(٤) د. عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٧

(٥) صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٤

سببا فى اثارة النزاع بين الوزيرين كما أدى هذا النظام الى اشاعة الفرقة والانقسام بين المروءوسين فكل فريق يناصر وزيرا ويتحزب له". (١)

ولم تكن مشكلة الوزير هى ما يحدث فى الديوان من اختلاف بين الموظفين أوا نحيازهم أو دسائسهم بل كانت لديه صعوبات اعظم خطرا من ذلك بكثير يمكن الاشارة الى بعضها فيما يلى :

أولا : تدخل القائد الاعلى للجيش المغولى فى سلطات الوزير، واضطرار الوزير لاستجلاب رضاه لانه اكثر صلة منه بالسلطان وعادة ما كان هذا التدخل على حساب مقتضيات النظام الادارى لديوان الوزارة.

ثانيا : تدخل أمراء المغول الدائم فى عمل الوزير واملاء ارادتهم عليه وحرصهم على أن يظل أداة طيعة لتحقيق ماربهم والا فسرعان ما يعملون على اقصائه بمختلف الوسائل.

ثالثا : المنافسون الطامعون فى نيل اعلى المناصب ويرون الوزير عقبة دون أطماعهم فأسلحتهم الدس والتآمر متخذين من الامراء عونا لهم فى الوصول الى أهدافهم.

رابعا : الصراع المرير على الحكم بين سلاطين المغول ومنافسيهم من الامراء الاخرين من المغول الطامعين فى الحكم.

خامسا : اضطراب النظام المالى للدولة من جراء الاسراف والبذخ اللذين كان عليهما سلاطين المغول وكذا من جراء الحروب الطاحنة الداخلية والخارجية التى خاضها المغول.

سادسا : كثرة رغبات الايلخان ومعظمها طلب مبالغ مالية ضخمة لاتتحملها الميزانية.

اذن كان الوزير عاجزا عن أداء واجبه وأنى له ذلك ؟

يقول الدكتور فؤاد الصياد " وهكذا كان يستحيل على الوزير مهما كان عبقريا تحقيق كل ما يطلب منه فلا غرو أن يعيش فى رعب مستمر فهو معرف فى أية لحظة للاغتيال أو صدور الحكم عليه بالاعدام وكان هذا هو المصير المحتوم الذى لاقاه جميع الوزراء فى عهد الايلخانيين باستثناء وزير واحد هو على شاه" (٢)

فهذا هو حال الوزير الذى لايحسد عليه فأين كان سيجديه قول ابن طباطبا اذيقول "الوزير وسيط بين الملك ورعيته فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة". (٣)

صاحب الديوان :

وهذا المنصب يناط بالوزير بطبيعة الحال باعتباره رأس النظام الادارى فى الدولة. فلا غرو أن يطلق على الوزير لقب صاحب الديوان. واذا كان جمال الدين المستجردانى قد رأى أن يطرح لقب صاحب الديوان وأن يختار لقب الوزير فى عهد بايدو سنة ٦٩٤ هـ فان مسألة تغيير الاسم لا تعنى لدينا شيئا فالوزير او صاحب الديوان كلاهما مسمى لرجل واحد هو المسئول عن ادارة الديوان. يقول الدكتور محمد موسى هنداوى" وعلاء الدين الجوينى بعد أن اسندت اليه ادارة حكومة العراق — عقب زوال الخلافة — كانت له بطبيعة الحال أعمال الديوان أيضا فى تلك الولاية فاشتهر بصاحب الديوان". (٤)

---

(١) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ١٢٢
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٣
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٣٠
(٤) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٩٣

ويعود الدكتور محمد موسى هنداوى الى الحديث عن بهاء الدين محمد الجوينى فيقول " وأما بهاء الدين محمد فكان ملازما لحكام المغول وعمالهم ،وأسندت اليه وظيفة صاحب الديوان وفى سنة ٦٣٣ هـ بعث فى رسالة الى اوكتاى قا آن فأكرم وفادته وبالغ فى احترامه واسند اليه وظيفة صاحب الديوان فى عموم المملكة". (١)

وفى رأيى أن هذا العمل او اللقب بمعنى أدق كان شرفيا أكثر منه عمليا فى هذا الوقت لان المغول لم تكن لديهم بعد قدرة تنظيم ديوان عام على مستوى الامبراطورية كلها خاصة وأن الامبراطورية قد اتسعت وتشعبت بسرعة كبيرة وأوكتاى كان أول خليفة لجنكيزخان فلم يقدر له أن يطور الادارة بمثل هذه السرعة أو الكيفية.

وسنحاول فى السطور القليلة القادمة أن تتبع حركة الدواوين لدى المغول.

الديوان والموظفون فيه :

يقاس نجاح النظام الادارى فى الدولة بمدى قدرتها على تنظيم الدواوين فيها بحيث تنهض هذه الدواوين بمختلف المتطلبات الادارية والمالية فتصبح شبكة فعالة للاتصال القوى بين كافة قطاعات الدولة من ناحية ،وكذلك وسيلة تنظيم للشئون المالية والموارد الاقتصادية من ناحية أخرى.

وغاية الامر فان استقرار الدولة يعتمد بصفة أساسية على مدى نجاح الدواوين ونظم الادارة فيها.

ولقد أدرك جنكيزخان خطورة هذا الامر فلم يغفل عنه خاصة وأن الدول المجاورة التى احتك بها المغول كانت تتمتع بنظام ادارى عريق وبالطبع لم يكن لدى المغول خبرة بمثل هذه الشئون الادارية " وأنى لهم ذلك وهم أصحاب بداوة وترحال.

وتفتق ذهن جنكيز خان عن حل سريع لهذه المعضلة.. ذاك هو الاعتماد على أهل الممالك المغلوبة فكان المغول يتخيرون منهم الخبراء فى هذه الامور ويلحقونهم بخدمتهم ويسلمون اليهم أغلب الشئون المتعلقة بالديوان والادارة". (٢)

ولم يغفل جنكيزخان نقطة مهمة ، ذلك أن الاشراف على الديوان كان لابد أن يكون فى يد مغولية أو يضمن ولاءها للمغول ، فكان أوكتاى فى حياة ابيه مختصا بالشئون المالية والادارية وتنظيم شئون الملك وتدبير مصالح الناس والاشراف على الرعايا". (٣)

وقد استوعب (أوكتاى) الدرس واضحا ، فاسند الامر الى يد أمينة مخلصة للمغول "اذ ترك (أوكتاى) زمام الامور فى الصين فى يد وزيره المصلح· يى ليو· جوتساى" الذى استطاع أن ينشئ فى هذا الاقليم ادارة حازمة منظمة مستعينا فى ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والاويغوريين والايرانيين وأهل التبت كذلك نجح فى تنظيم الشئون المالية وضبط عمل الدخل والخرج". (٤)

---

(١) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٩٤

(٢) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ١١٧

(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٩

(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٢

وقد استكمل قوبيلاى قا آن نفس السياسة التى نهجها اسلافه من قبل بل لعله أمعن فى ذلك. يقول ادوار بروى " وكان الخان الاعظم آنذاك فى الدرجة الاولى . امبراطورا للصين ولذلككانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيين" (١)

الاويغوريون فى ديوان المغول :

لم يكن الصينيون وحدهم هم الذين قاموا بأعمال الديوان لدى المغول. قد أسهم الاويغور فى ذلك بنصيب وافر فقد كان هؤلاء فى الغالب يقومون على بيت المال عند جنكيز خان وخلفائه ومنهم حجابهم وعمال دواوينهم". (٢)

اذن نهض الاويغور بضبط حسابات الدولة بالاضافة الى أعمال الحجابة ومختلف الجوانب الادارية اذ كان ممادونوه لجنكيزخان الياسا" (٣)

وتسجيل الياسا فى حد ذاته يعتبر عملا خطيرا يفوق غيره من الاعمال فلقد انتفع بذلك كثير من المؤرخين خاصة مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى صاحب كتاب جامع التواريخ .

الايرانيون فى ديوان المغول :

وأولئك لايمكن اغفال دورهم خاصة فى الجزء الاسلامى من امبراطورية المغول. وغنى عن البيان أن الايرانيين كانوايمثلون خلاصة التجربة الاسلامية فى مجال الدواوين خاصة فى بلاد خوارزم شاه أو ايران التى خضعت لحكم هولاكو وأبنائه فيمابعد ، فقد كانت طبقة الوزراء والكتاب الذين دخلوا فى خدمة المغول من هؤلاء الايرانيين من بقايا أولئك الذين كانوا يكونون الجهاز الادارى للخوارزميين أو أعقاب الكتاب والوزراء للدويلات الفارسية وقد نقل هؤلاء الاداب والرسوم الادارية الايرانية مرة أخرى الى دولة المغول". (٤)

وهكذا رأينا أن الايرانيين ساهموا بنصيب وافر فى أعمال الدواوين حتى فى العاصمة المغولية نفسها فمنكوخان قد راهم أكثر كفاية ودراية من غيرهم ولهذا أسند اليهم تنظيم الادارات والدواوين فى قراقورم على أسس سليمة" (٥).

وبدهى أن الايرانيين ماداموا قد وصلوا الى هذه الدرجة من الخبرة ان يستفيد بهم هولاكو خاصة فى بلادهم ايران ويبدو أن ذلك قد تم فعلا يقول القلقشندى ، "أما الكتاب وأصحاب الدواوين من ديوان الانشاء ودواوين الاموال فعلى أتم نظام. (٦)

وعلى الرغم من ذلك فان العراق لم يحظ بالقدر الكافى من ناحية تنظيم الدواوين بعد أن استولى المغول على زمام الامور فيهأى عقب سقوط بغداد. يقول استاذنا الدكتور أحمد شلبى (٧) " وقد امتد الاهمال الى الديوان نفسه فقد دبت فيه الدسائس وانتشرت

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧
(٢) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص١٦٣،د.ادواربروى : تاريخ الحضارات العام ج٣ ص ٣٧٦
(٣) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩
(٤) د.فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ١١٧
(٥) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٩
(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٤
(٧) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٦٠

المؤامرات ولم يكن أحد من رجال الديوان امنا على نفسه أو ماله بل كان كل منهم يتوقع السجن والتعذيب والقتل فى أية فترة من الفترات ،واذا كان هذا شأن الديوان فقد كان شأن البلاد أخطر وأشد سوادا " .

ويبدو أن المغول قد حاولوا تدارك هذا الموقف المتدهور للدواوين فى العراق فعملوا على متابعة الاشراف على هذه الدواوين لانها الوسيلة المثلى لضبط الامور المالية على وجه الخصوص. يقول استاذنا الدكتور أحمد شلبى " وكان السلطان المغولى من حين الى اخر يرسل موظفا كبيرا الى صاحب الديوان ، ليتعرف على أحوال البلاد وسير الحكم فيها ، ولينقل الى الوالى تعليمات السلطان وأوامره ثم يعود للسلطان بصورة عما وجده فى البلاد ويقدم معها نصائحه وتعليقاته وكان هذا الموظف يسمى(المشرف) . (١)

هذا .. وقد كانت هناك وظائف عدة ترتبط بالديوان فى العمل. أو لنقل أنها كانت تنبثق عن مقر الخان بهدف تحقيق الامن والاستقرار أو تقديم خدمات خاصة للخان نفسه ومنها :

(أ) التفتيش الزراعى :

ويبدو أن هذا العمل كان مناط اهتمام المغول خاصة فى البلاد التابعة لهم والتى كانت تمتاز على بلادهم بوفرة انتاجها الزراعى والتى كان المغول يرونها مركزا للامداد الزراعى خاصة أثناء المجاعات والاوبئة وعلى سبيل المثال وفى عهد قوبيلاى خان قام المفتشون الامبراطوريون كل سنة للتفتيش على المحاصيل والمواد الغذائية كشراء الفائض واختزانه لمقاومة المجاعات" . (٢)

(ب) التفتيش على رجال الشرطة :

وهى وظيفة تعادل وظيفة رئيس الشرطة (وزير الداخلية) فى العصر الحالى . ويناط بصاحبها مسئولية التفتيش على رجال الشرطة ومتابعة التزامهم بتحقيق الامن. وهذا العمل كان معروفا من قبل فصاحب الشرطة كوظيفة كان معروفا فى العصر الاسلامى منذ عهد المسلمين الاول فى المدينة.. وفى ايران على عهد الامير بوقا – نائب أرغون – كان الامير طوغان يشغل وظيفة(شجنجى) وهى وظيفة تعادل رئيس الشرطة فى العصر الحالى" . (٣)

(جـ) التفتيش عن وصيفات للقصر :

وقد يبدو هذا الامر غريبا أوغير مألوف الا فى عهد قوبيلاى خان فقد قال ماركوبولو: "ان عددا من ا لموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون الى بلاد التانجوت فى بلاد التتار ليجندوا فى خدمة جلالة الامبراطور قوبيلاى قا ان مائة من الفتيات حسب الاوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية،فاذا ما مثلن أمامه أمر ان تختبرهن اختبارا جديدا طائفة من الباحثين ثم يعهد بكل واحدة منهن الى احدى كبار السيدات لتتأكد من أنها ليس فيها شئ من العيوب التى تخفى عن الاعين" (٤)

---

(١) د.أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٥٩

(٢) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٠

(٣) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٥

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٦

واذا كنت قد أشرت الى دور الوزير وعمل الديوان وبعض الاعمال الوظيفية الاخرى فى القصر فان الامر يحتم الاشارة الى بعض الوظائف الاخرى التى وجدت لدى المغول كالكتبة والقضاة والجباة وعمال البريد .

الكاتب :

لم تكن وظيفة الكاتب دوما عملا واضح المعالم فى المجتمع البدوى فطبيعة هذا المجتمع فى حله وترحاله واهتمامه بالعمل البدوى احرفى أكثر من غيره واحتياج وظيفة الكاتب الى قدر كبير من الثقافة والالمام ببعض من اللغات الاجنبية جعل هذه الوظيفة غير ذى بال لدى المغول فى مطلع الامر .

وسوف نحاول أن نتبين مدى أهمية هذه الوظيفة التى تغير النظر اليها بعد اتصال المغول بالامم المجاورة ، ففى عهد جنكيزخان وبعد أن أصبح حاكما وسيطرا على قبائل عدة من المغول وغيرهم ،كان لابد أن يكون له كاتب او كتبة يقومون على أعماله الادارية . ليسجلوا ما ينطق به الخان" (١) من أقوال أو أوامر حتى لا تنسى او تضيع فى زحام الاحداث .

وكان هؤلاء الكتبة ينسخون اسمه بحروف من ذهب" (٢) على رسائله التى كانت يبعث بها الى الملوك وزعماء القبائل الذين تعامل معهم بالاضافة الى ختم الاوامر أو الرسائل التى تخرج من عند الخان " فقد كان (التامغاجى) أى الختام (المهردار) يؤدى كل الامور الكتابية بما فى ذلك أعمال الترجمة والبروتوكول المختلفة .

وهكذا أصبح وجود الكاتب أمرا مهما بالنسبة للخان ويبدو أن هذه الوظيفة قد استمرت لفترة طويلة بعد جنكيز خان فعلى سبيل المثال وكانت علاقة علاء الدين الجوينى بالامير أورغون — فى مدة ادارته — على علاقة طيبة وكثيرا ما كان يصطحبه فى أسفاره أو ذهابه الى حاضرة ملكهم (قراقورم) وكان يقوم دائما فى تلك الاسفار بعمل الكاتب الخاص له" (٣) .

وفى عهد الخاقان الاعظم منكو استجلب الديوان المحلق ببلاطه كتبة من مختلف الاديان والشعوب فكان يرى من بينهم الفرس والاويغور وأهل الصين والتبت وكانت القرارات والاوامر التى توجه لاهل قطر ما يتم تحريرها باللغات المحلية وبالكتابة المستعملة لديهم وفقا للنماذج التى كانت تصدر فى عهد ملوكهم السابقين" . (٤) فاذا تأملنا عمل الكتاب خارج هذا الاطار الرسمى وجدنا لهم أعمالا عدة منها :

(أ) مراقبة موظفى البريد :

كان هؤلاء الكتبة يقيمون فى مراكز البريد ليراقبوا موظفى البريد فى أعمالهم وربما ليسجلوا بعض الملاحظات الهامة من هنا أو هناك والتى تشبه الحد حد كبير أعمال التجسس وتتبع الاخبار . ففى كل محط يسجل الكاتب وقت وصول كل ساع ووقت رحيله" (٥) . ويراقب أيضا تنقلات موظفى البريد" . (٦)

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٢
(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٠
(٣) د. محمد موسى هنداوى : سعد الشيرازى ص ٩٦
(٤) د. بارتولد : تاريخ الترکستان من الفتح لعربى حتى الغزو المغولى ص ٦٨٧
(٥) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٠
(٦) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(ب) معاونة الوزير او القاضى :

ذلك أن كلا من الوزير او القاضى كان يحتاج الى اتمام عمله بواسطة كتبه ينهضون بأعمال التسجيل أو المتابعة فلما ترك أوكتاى زمام الامور فى الصين فى يد وزيره الصالح "بى .ليو. جوسناى" استطاع أن ينشئ فى هذا الاقليم ادارة حازمة منظمة مستعينا فى ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين وغيرهم. (١)

ومن هنا تبرز معاونة الكتبة للوزراء والقضاة فى كل أعمالهم (٢).

اجور الكتبة :

يبدو أن أجور الكتبة ـ شأن غيرهم ـ كانت فى بادئ الامر جزء من الغنائم أى ليس لها صفة الثبات ولكن مع تطور الاحوال واستقرارها صارت لهذه الوظيفة أجور ثابتة . يقول القلقشندى " وأما الخواجكية من ارباب الاقلام فمنهم من يبلغ فى السنة ثلاثين تومانا وهى ثلثمائة ألف دينار". (٣)

الجابى :

وهو جائع الضرائب التى يعينها الخان من مكوس أو عشور أو جزية أو خراج والتى كان يلتزم بها التابعين من القبائل المغولية أو الخاضعين من الامم الاخرى .

فالجابى كان يمثل السلطة التنفيذية فى ها المضمار. وعادة ما كان هذا الجابى فى مطلع الامر هو أحد ضباط الخان الذى يصطحبون معهم فرقة من الجند للتفيذ او الارهاب الممتنعين.

وبالنسبة للقبائل أو المدن التى خضعت للمغول دون قتال فان جباة الضرائب كانوا يمثلون همزة الوصل الاساسية بين المغول وبين هؤلاء الخاضعين فالحاكم المغولى لايتدخل فى امرها بل يتركها وشأنها ، طالما احترمت قوانينه ثقيلت الوطأة وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من أتاوة باهظة". (٤)

وبدهى أن هؤلاء الجباة كانوا غاية فى القسوة والعنف مما أثار عليهم سخط الاهالى فى أماكن عدة ـ ففى روسيالما رغ صبر الاهالى وضجروا من سوء معاملة الجباة قاموا عليهم وقتلوهم وأخيرا صار أمراء موسكو يجمعون الجزية فجمعو بذلك ثروة وافرة لانفسهم". (٥)

أى أن الامراء الروس عندما أحلوا أنفسهم مكان الجباة المغول استفادوا لانفسهم فأرسلوا بعضا من الضرائب للمغول واستأثروا بالبعض الاخر . ويعنى ذلك أن الضرائب قد زادت فوق كاهل الاهالى المساكين .

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٢٤

(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(٣) صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٦

(٤) ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٦

(٥) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٧١

ولعل المغول قد استوعبوا مؤخرا نصيحة الوزير الحكيم حين نبه جنكيز خان الى أن هذا الامر يجب أن يأخذ الشكل المدنى لا الارهاب العسكرى فهو يحتاج الى موظفين مدنيين ذوى خبرة فى هذا المضمار.. فقد قال الحكيم الصينى(بى .لبو. جوتساى) ينصح "جنكيزخان" وفيما يخص جمع الضرائب ينبغى أن يعمل معهم(يقصد أبناء جنكيز خان وقواده) موظفون صينيون ممن يتقنون هذه الامور". (١)

ومعنى هذا أن خبرة المغول فى جمع الضرائب على المستوى غير القبلى كانت محدودة تفتقر الى التنظيم والدقة والسجلات.

وليس لدينا دليل على الاجر الذى كان يتقاضاه الجابى . وانما نرجح أنه كان بعض نصيب مايجمع .. وهذا أمر يناسب طبيعة هذا العمل - ويبدو أنه كان يعفى من الضرائب بطبيعة الحال.

القاضـــى :

لانستطيع القول بأن هذه الوظيفة كانت موجودة قبيل جنكيز خان لان الرئيس القبلى كان يقوم بهذه الوظيفة باعتبارها أحد المهام المنوطه به. فقد كان يقضى فى كافة أمور النزاع وفقا لعادات القبيلة أو تقاليدها او بالرجوع الى مستشاريه من كبار رجال القبيلة وكثيرا ما كان يستبد برأيه الشخصى .

ولقد فكر جنكيز خان فى هذا الامر ورأى أن يكون وحده القاضى فى كافة مواد النزاع بين أفراد المجتمع المغولى أو من يتصلون بهم حتى بعد وفاته .ومن هنا تفتق ذهنه عن الياسا. ذلك الدستور الحديدى الصارم الذى يخضع فيه الجميع لارادة صاحبه.

ومن الحق أن نقول أن هذا الدستور الحديدى لم يكن وليد بنات أفكار جنكيزخان وحده وانما كان بمثابة استخلاص للتجارب السابقة للاباء والاجداد اذ لم يكن له أن يتجاهل العادات و التقاليد التى درج عليها المغول منذ زمن بعيد وعلى هذا فقد تقبله المغول وارتضوه وظلوا ملتزمين به - بعد جنكيزخان - لفترات طويلة . فقد نفذ الجيل الذى أتى بعد جنكيز خان كلما سطر فى قانونه". (٢)

لكن كيف كانت تتم المحاكمة ؟

يقول الدكتور الصياد "واذا شك الخان فى أحد اتباعه فانه يحيله الى المحاكمة التى يقال لها "برغو" ويستعد القضاة"برغوجيان" لمحاكمته على أن الرحل كانوا فى الغالب يعترفون بذنوبهم عند اتهامهم بالجرائم وكان المغول على وجه الخصوص يحبون الصراحة ويكرهون الكذاب . (٣)

وبالطبع كان القضاة ملتزمين بنصوص الياسا فى المحاكمة ولقد كان الياسا كقانون صريحا - يمثل صراحة البدو وصرامتهم ولكن هل كان هناك شهود يؤخذ بشهادتهم ؟

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٩
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤٧
(٣) المغول فى التاريخ ص ٢٥٤

يقول القرمانى "ومن الاحكام المظلمة.. الاخذ بقول الجوارى والصبيان وان شهد بذلك واحد فلا يحتاج الى ثان". وواضح أن الشهادة هنا تختلف عنها فى الاسلام التى لها شروط خاصة يجب توافرها فى الشهود. (١)

ولقد حق لجنكيز خان فى أواخر أيامه أن يفخر بالياسا فقد كان الخان المسن دائما يقول للمغول " لقد اكتسبت هذه السيطرة عن طريق تنفيذ القانون فعليكم انتم من الان فصاعدا ان تعيشوا فى ظل القانون" (٢)

ولعلنا قد لاحظنا مما سبق أن النظام القضائى قد تطور - فقد صار هناك قضاة يحكمون فى القضايا ولم يعد الرئيس القبلى هو الذى يصدر الحكم وان كان الجميع محكومين بنظام عام أعلى هو الياسا.

وبدهى أن القاضى علاوة على تفهمه للياسا لابد أن يكون موصوفا بالحكمة والمرونة فقد اقترح (يى ·ليو· جوتساى) على جنكيز خان رايا فقال :" فيما يتعلق بالقضاء فينبغى أن يكون هناك رجال حكمه". (٣)

وهذا القول يربط بين منصب القاضى وبين الحكمة التى يجب أن يلتزم بها ويشير بطريقة غير مباشرة الى افتقار المغول الى هذا النوع من الرجال. وبالفعل كلف جنكيز خان ابنه الثانى جغتاى بمهمة ترتبط بالقضاء "فكان جغتاى فى حياة أبيه يشرف على القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقانونه (الياسا) وتوقيع الجزاء والعقاب على المقصرين". (٤)

اذن جعل جنكيزخان من ابنه جغتاى مراقبا عاما لاعمال القضاة وتطبيق الاحكام.. فكيف كانت اجراء القضاء تتم على مستوى كل قبيلة. يقول ادوار بروى (٥) "ثمة محكمة أولية تسوى الخلافات فى كل معسكر بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية أعلى فى اقطاعاتهم وعلى مستوى القبيلة توجد محكمة أعلى برأسها قاض كبير".

وهذا الرأى يشير الى أن مجموعة العشائر التى تنضوى تحت أحد بطون القبيلة وتوجد فى معسكر واحد يشكل لها محكمة أولية، تكون تحت اشراف السادة فيها الذين يمارسون السلطة القضائية فى الموافقة على قرار هذه المحكمة أو ابطاله. وفقا لنصوص الياسا. فاذا ارتقينا الى مستوى القبيلة وجدنا محكمة أعلى درجة تحكم فى مختلف الشئون وربما فى الخلافات التى تقع بين العشائر او القضايا التى تعجز فيها المحاكم الاولية عن ان تصدر حكما فى شأنها.

---

(١) أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ٢٨٥

(٢) هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٧

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٣٩

(٤) د·عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٢٠١، ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٤

(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

تطبيق القانون فى المجتمعات التابعة :

منح جنكيز خان أئمة المسلمين سلطة القضاء – فى البلاد الاسلامية التى خضعت له – ليحكموا بين الناس كما أعطاهم حق العفو عن المحكوم عليهم بالاعدام". (١)

وموقف جنكيزخان هنا هو موقف السياسى البارع الذى لايريد أن يشغل نفسه بقضايا فرعية لا تهمه كثيرا ويذكرنا هذا بموقفه من الاديان الاخرى. فهى سياسة واحدة ظاهرها التسامح وجوهرها الرغبة فى التفرغ لقضايا اخرى مهمة كالغزو وجمع الضرائب .. الخ.

يقول القلقشندى : (٢) عن القضاة فى ايران فى عهد هولاكو. "وأما القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها فى صحبة السلطان قاضى قضاة الممالك وهو الذى يولى القضاة فى جميع أنحاء المملكة على تنائى اقطارها الا العراق فان لبغداد قاضى قضاة يستقل بها لولى فيها وفى بلادها من جميع عراق العرب".

وغنى عن البيان أن مملكة هولاكو كانت اسلامية بالدرجة الاولى . كما أن منصب قاضى القضاة انما هو منصب اسلامى كان عمر بن الخطاب يشغله فى خلافة أبى بكر.

ومما يلفت النظر هنا أن قاضى القضاة هو الذى يولى القضاة فى الولايات التابعة وليس الحاكم ومعنى ذلك أن القاضى كان بمنأى عن الخضوع لسلطة حاكم الولاية وفى هذا ضمان لنزاهته وحيدته.

هذا – واستثناء بغداد مرجعه – فى رأيى – الى مكانتها التاريخية ومنزلتها الدينية فى نفوس المسلمين وغيرهم.

ولعل هذا يدفعنا الى تأمل قول رشيد الدن" وكان قاضى القضاة شمس الدين القزوينى على اتصال بالمغول وكان اماما وعالما كبيرا ذهب مرة الى منكو خان وطلب منه أن يضع حدا لشر الملاحدة الاسماعيلية وأن يخلص الناس من فسادهم". (٣)

وبالطبع كان هذا الموقف قبل خروج هولاكو الى ايران – وهو موقف نفهم منه أيضا أن المغول تركوا وظائف القضاء فى البلدان الاسلامية كما هى.

أما فى الصين فى عهد قوبيلاى فالوضع كان مختلفا .. فقد اسندت ادارة الامبراطورية المقسمة الى ٣٤ مقاطعة تالى اثنى عشر وزيرا صينيا كانوا يؤلفون محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة ويصدرون فى الدعاوى الهامة أحكاما مبرمة باستثناء الحالات الخطيرة التى تعرض على الامبراطور للفصل فيها". (٤)

السلطة الاعلى :

كانت الياسا تمثل القانون العام الذى ينبغى أن تكون مواده مطبقة على المغول وعلى كل من اتبعهم وكانت مواد هذا القانون – لانها نابعة من بيئة المغول – غاية فى القسوة والصرامة حتى يمكن أن تردع فعلا هؤلاء البدو الاخلاف وتحول بينهم وبين انفلات طبائعهم الوحشية.

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٣
(٢) القلقشندى: صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٢٤
(٣) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ(نشر كاترمر) مجلد ٢ جـ ٢ ص٢٢٣
فضلا عن الجوزجانى: طبقات ناصرى ص ٤١٣ ، ٤١٤
(٤) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٧

غير أن الخان الاعظم فى معظم الحالات كان يمثل سلطة تعلو أى سلطة بما فى ذلك الياسا ذاتها فعلى سبيل المثال كان الخان الاعظم اذا حرم على أحد شيئا فلا يحل أن يأتيه الى الممات". (١)

كذلك كانت هناك اشارة معينة من ابهام جنكيزخان كانت تعنى تنفيذ حكما لاعدام على من يشير بها نحوه وتلك اشارة كان يعرفها جميع المغول ويرهبونها تماما". (٢)

على أن أطرف ما روى فى هذا المقام أن الخان الاعظم (أوكتاى) أمر بقتل ثلاثة أشخاص قضت الياسا بقتلهم ، فلما حان وقت التنفيذ جاءته امرأة تطلب العفو عنهم، قالت: هذا بنى ، وهذا زوجى ،وهذا أخى فقال الخان الاعظم اختارى واحدا من الثلاثة أطلقه لك ـ(يقصد اختبارها) فاختارت أخاها وقلت أما الابن والزوج فيمكن تعويضهما، فاعجب أوكتاى بحكمتها وأطلق لها الثلاثة". (٣)

وقد تكون هذه الرواية موضوعة كغيرها ـ ذلك أن ما نسبح حول اوكتاى الذى اشتهر ـ بالقياس الى غيره من خانات المغول ـ بالسماحة واللين كان كثيرا.

لكن الامر لايخلو فى النهاية على الدلالة من الخان الاعظم الذى كان يملك سلطة العقاب فوق مانقضتيه أحكام الياسا كان يملك فى الوقت نفسه سلطة العفو عمن حكمت الياسا بادانتهم أو قتلهم .

رجال البريد :

لم يكن المغول أول من فطن الى استعمال البريد فقد سبقهم غيرهم من الامم فى هذا المجال وعلى سبيل المثال يرجع الفضل لامير المؤمنين عمر بن الخطاب فى تنظيم البريد باعتباره جانبا اداريا مهما فى ديوان الدولة الاسلامية الفنية انذاك.

ولقد كان نظام البريد لدى المغول أشبه بالبريد فى الدولة الاسلامية فكانت الرسل (عمال البريد) عند المغول اشبه بأصحاب الريد وعماله عند المسلمين يركبون خيولا خاصة يقطعون بها مسافات تقرب فى اليوم من خمسين ميلا"(٤) وربما أكثر من ذلك.

ويبدو أن المغول كانوا يرون فى البريد استخدامات أخرى عديدة منها :

(أ) أعمال التجسس وجمع الاخبار:

وبذلك يمثل أحد العوامل الحاسمة التى وجدها المغول أساسا للنصر فقد كان سعاة البريد خلف جيوشهم ينقلون الاخبار ذهابا وجيئة"(٥) وهذا العمل يجعل لموظفى البريد صفة شبه عسكرية اذ أن عطهم هذا كان مسخرا فى خدمة الجيش المغولى وأهدافه. ولقد كان هذا العمل المهم يتم فى سرعة بالغة تثير الانتباه. اذ بواسطتهم كان يمكن للامبراطور أن يحصل على الانباء من أى مكان على مسيرة عشرة أيام فى فترة وجيزة". (٦)

---

(١) الكتبى: فوات الوفيات والذيل عليها جـ ١ ص ٣٠٢
(٢) الكاتب الصينى ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٩
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ص ١١٨
(٤) د٠ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٣٨
(٥) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٠
(٦) نفس المصدر السابق ص ١٢٠

ب) طلبات الاستدعاء :

ويقصد بذلك استجلاب الاشخاص المطلوبين للمثول أمام الخان أوالوزير أو قــواد الجيش (١) وقد يكون هذا الاستدعاء لعمل عسكرى أوغيره كاستقدام الاشخاص المطلوبين للتجنيد فى جيش الخان اوبعض الاطباء أوالعمال الى حضرة ا لخان .. الخ وبالاضافة الى ذلك كان تنظيم البريد يفيد فى تسهيل حضور زعماء المغول الى العاصمة قراقورم على جناح السرعة كما كان بيسر للامراء والرعايا وأسرى الحروب والمغامرين المتطوعين للحصول على عمل أو وظيفة والتجار ان ينتقلوا فى الامبراطورية" (٢)

جـ) نـقل الامتعة والادوية :

وأغلب الظن أن هذا كان يتم تلبية لاحتياجات الحكام لا الجماهير فقد كان سعاة البريد ينقلون الرسائل والمواد الغذائية والاشياء الغريبة الاخرى المبعوث بها الى الامبراطور" (٣)

محطات البريد المغولية :

بلغ من شدة اهتمام المغول بتنظيم البريد ان اقاموا محطات للبريد تتصل ببعضها اتصالا مباشرا جعلها أقرب ما تكون الى النظام الحالى للبريد وعلى هذا فقد امتدت شبكة طرق البريد عبر معظم العالم القديم وكان الرسل (الموظفون) ينقلون الاشياء القيمة والرسائل من الشرق المجهول الى حدود أوربا". (٤)

ويبدو أن محطات البريد المغولية كانت تقام عند مفارق الطرق الرئيسية فقد كانت هذه تمثل حلقة الاتصال بين الطرق جميعها وفى كل محطة كان يحتفظ بقطيع من الخيول الاحتياطية كما كان يعسكر حراس الطرق المسلحون الى جوار استراحات المحطات ليطهروا الطرق من الاعداء". (٥)

وقد كانت هناك محطات بريد فرعية تنبثق عن المحطات الرئيسة ويعمل فيها سعاة لا يعتمدون على الخيول. حيث قامت بين كل محطة بريدية وأخرى مراكز سعاة ينتقلون سعيا على الاقدام". (٦)

نظام العمل :

وغير السعادة الذين ينقلون البريد بالخيول أوسعيا على الاقدام كان يوجد كاتب البريد ومهمته أن يسجل فى دفاتر المحطة وقت وصول كل ساع ووقت رحيله" (٧)

---

(١) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٣٨
(٢) أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٧٨، ١٧٩
(٣) ادوار برون : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٦
(٤) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٤٩
(٥) نفس المصدر السابق ص ١٢٠
(٦) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٦
(٧) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٠

وقد كان هذا التسجيل يشمل أيضا كل مايرد الى هذه المحطات من رسائل ومنقولات ومواد غذائية .. الخ.

وعلاوة على التسجيل كانت هناك مهمة اخرى للكاتب هى مراقبة تنقلات سعادة البريد ضمانا للاسرار وحرصا على دقة العمل وانتظامه. (١)

وهكذا كان النظام الادارى فى تسيير عمل هذه المحطات على درجة عالية من الكفاءة والفعالية بما كفل له التفوق على النظم البريدية الاخرى المعاصرة له ،حيث بلغ هذا النظام درجة كبيرة من الدقة حتى انه اذا اخترق السعاة مناطق عديمة الطرق فانهم يجدون مخيمات وخيولا تنتظرهم". (٢)

وأحيانا كان يمر بهذه المحطات رسل الخان أو كبار القواد أو بعض رجال الدين، لامات يغطون رؤوسهم بقبعات صفراء، وحجاج بوذيون ذووعيون منحرفة ينزلون بخطوات سريعة من اعالى التبت، وكهنة مسيحيون نسطوريون يرتدون ثيابا سوداء ويتمتمون بصلواتهم" (٣)

ويبدو أن ذلك قدذ استلزم العناية بهذه المحطات وتوفير وسائل الراحة فيها اذ كان يلحق بالمحطات التى يطلقون عليها اسم(مراحات الخيل) والبريد بناء ضخم جميل يجد فيه الراكبون راحتهم وقدأثثت حجراته بأفخم الاسرة التى يغطيها الحرير. (٤)

وفيما يتعلق بأجور عمال البريد فيبدو أنهمكانوا أصحاب أجور ثابته معفاه من الضرائب". (٥)

أما مصدر هذه الاجور ذاتها فما كان ليعجز الدولة المغولية التى اتسعت وتعددت مواردها من الغزو والضرائب والجزية .. الخ .

الاقتصاد المغولى :

كان المغول رعاة فى الاصل ـ كما نعرف ـ يعيشون حياة بائسة غاية فىالخشونة وبرغم كثرة القطعان التى كانوا يربونها من الاغنام والماشية والخيل والابل الا أنها كانت تستهلك محليا لاعتمادهم على الحيوان فى كل مايتعلق بالغذاء والكساء والمسكن. كما أن هذه القطعان كانت تتعرض كثيرا لخطر الهلاك من جراء التغييرات المناخية الحادة فى معظم فصول السنة . كما أنها ا ختبيرت بغارات السلب والنهب التىتشنها القبائل على بعضها.

وكان الصيد فى فصل الشتاء القارس وسيلة تعويض عن نقص الموارد الاقتصادية فقد كانوا يجدون فى حيوانات الصيد بعض ما ينفع عند الحاجة الملحة وبخاصتفى شئون الطعام والكساء. وبالاضافة الى ذلك كان المغول يسعون وراء الربح من تبادل الجلود والدواب مع اقربائهم من الخطا او مع الترك والصينيين". (٦)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٦
(٢) هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٢٠
(٣) نفس المصدر السابق ص ١٢٣
(٤) نفس المصدر ص ١٢١
(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧
(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٣٣

والاقتصاد بهذه الصورة لايعدو أن يكون هشا ضعيفا لا يكفي ولا يغني ولهذا كان المغول يتحولون الى الحرب والاغارة يهاجمون حدود الدول المتحضرة المتاخمة لهم يسلبون وينهبون ويرتدون مسرعين الى حيث لا تستطيع الجيوش النظامية أن تتابعهم.

ولقد دأبت هذه الدول على حماية ممتلكاتها من غاراتهم فأقامت الصين سورها العظيم ولجأت الى تحريض القبائل البدوية المجاورة لها بعضها على البعض الاخر.. فكانت أن استعانت بالمغول والكرايت ضد التتار وهكذا دواليك .

غير أن ظهور جنكيزخان وقدرته الفائقة على توحيد القبائل المغولية والتركية تحت سيطرته كان نذير شر مستطير لكل الدول المتاخمة ذات الثراء العريض والتى كانت تعتمد على حكومات لاهية مترهلة وجيوش ضخمة لكنها تفتقر كثيرا الى براعة التخطيط ودقة النظام واستمرار التدريب بل والقيادة الحازمة الخبيرة وكلها مقومات عسكرية كان المغول يتمتعون بها وزيادة .

من هنا فانهجوم المغول على هذه الدول كان مضمون النتائج اذ لم يخسروا معركة واحدة ولا استمر جيش فى مناوئتهم طويلا فلا يملك عدوهم فى النهاية الا الفرار تاركا كل ما يملك أو التسليم الذليل لهم والنتيجة منالناحية العسكرية والاقتصادية فى الحالين واحدة .

غنائم الحرب :

كانت الغنائم والاسلاب تشكل حافزا قويا لدى المغول يدفعهم الى القتال فى عنف وضراوة حتى فيما بينهم ولقد استغل جنكيزخان هذا لميل الغريزى لدى المغول فحرك فيهم كل بواعث العدوان وحب السيطرة والتملك وقذف بهم خارج منغوليا كى يشغلهم عن الحروب القبلية فيما بينهم .

واشتملت الغنائم على العينيات والاموال والجوارى .. الخ . وتلك كانت توزع على القادة و المحاربين بعد خصم حصة الخان الاعظم .

وبمعنى اخر لا تكاد تشكل هذه الغنائم جزءا ثابتا يذكر فى اقتصاد المغول اذ الحروب نفسها – مهما طالت – ظاهرة مؤقتة فى حياة المجتمعات قد تبقى اثارها لبعض الوقت لكنها تذوب مع المتغيرات التى تطرأ على حياة) الناس بفعل الزمن والتطور. لكن هذا لا ينفى أن المغول قد جمعوا ثروات طائلة من الغزو ما كانت لتخطر لهم على بال.

الموارد الثابتة :

كان المغول يعانون – كما ذكرت – من البؤس والقحط والشقاء فى حياتهم داخل منغوليا فلماأتيح لهم السيطرة على مقدرات الشعوب الاخرى كشفوا عن مظاهر الكبت والحرمان لديهم " اذ لم يكن هم سلاطين المغول متجها الا الى جمع المال ومن أجل أن يحققوا هدفهم اتجهوا لجمع المال من الرعية بوسائل مختلفة كان منها فرض الضرائب والالزام بسداد ديون يعينها الوالى التابع كما وصلت الى المصادرة فى كثير من الاحوال".(١)

(١) د.أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٦٠

ولقد اتبع المغول أساليب غاية فى الشدة والقسوة فى الحصول على ما فرضوه على غيرهم من ضرائب أوجزية أوخراج حتى ادى ذلك فى كثير من الحالات الى تعطيل الحياة العامة وضياع الامن والاستقرار • وربما أدى الى فرار الاهالى هربا بأرواحهم بعد أن تأكد لهم العجز عن سداد الضرائب الباهظة المتكررة • وبالطبع كان الفرار أفضل من يضطروا الى بيع اولادهم أن أن يتحولوا هم أنفسهم الى رقيق تحت وطأة المغول •

الضرائب :

الضريبة فى ايجاز شديد هى مايفرضه القوى على الضعيف نظير حمايته له من كافة الوان الاعتداء • أى هى نتاج قوة فى طرف يوازى ضعف فى طرف اخر• فاذا ما اشتد ساعد الضعيف واستغنى عن حماية القوى أو عجز القوى عن الاستمرار فى حماية الضعيف سقطت هذه الضريبة وتلاشت •

هذا – وقد عرف المغول الضرائب منذ وقت غير قصير – وتعرضوا لمحنة الوقوع تحت طائلتها طالما تعرضت بلادهم للخضوع لحكم أجنبى قوى وسبق أن أشرنا الى أن الاتراك (أويغور – قرغير) قد دانت لهم منغوليا فترات من الوقت• فكان طبيعيا أن يفرضوا الضريبة على القبائل المغولية التى خضعت لسلطانهم او وقعت فى دائرة نفوذهم•

ولم يكن الاتراك وحدهم هم الذين الزموا المغول بدفع الضريبة اذ أن أباطرة الصين الشمالية كثيرا ما أرغموا المغول على سداد هذه الضريبة حين كانت هذه الامبراطورية فائقة القوة ذائعة الصيت •

وفى الوقت الذى كانت تتغير فيه الظروف كان وضع المغول حيال هذه الضريبة يتغير أى اذا ظهر بينهم زعيم قوى سيطر على المنطقة وجمع حوله بعض الاحلاف فأرهب القوى المجاورة له بادرت هذه القوى – حسب ظروفها – الى تقديم الضريبة اليه حتى نأمن شر غاياته عليها ولقد سبق ان أشرت الى ان الصينيين الشماليين كانوا يدفعون الجزية أحيانا للمغول•

فاذا عاد المغول الى حالة التفكك والصراع عاود الصينيون فرض الضرائب عليهم من جديد حتى ظهر الزعيم القوى "بيسوكاى بهادر" الذى عمل على تفادى محنة الضرائب هذه لانها تحتوى على مضمون الاذلال والخضوع وذلك بعقد معاهدة صداقة مع الكرايت الاقوياء، واخضاع الطوائف المغولية المتناثرة تحت سيطرته•

وبوفاة (بيسوكاى بهادر) عاد المغول الى تقديم الضرائب الى الصينيين مرة أخرى• أما تيموجين نفسه فقد كان عاجزا عن جمع هذه الضرائب لنفسه باعتباره الابن الاكبر للخان الراحل• ففى كل مستعمرة كان (تيموجين) يجد فى طلب ضرائب الخان التى كانت تشمل أربعة حيوانات هى جمل ، وثور، وحصان وشاه، ولكن لم يجد هوءلاء المحاربون اى سبب من أجله يدفعون هذه العشور الى صبى لاجئ هارب ليس فى استطاعته أن يحميهم أو يدافع عنهم" • (١)

---

(١) د•هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٢٣

ولما تمكن جنكيز خان بعد صراع مرير من استرداد ملك ابيه ثم بسط سيطرته على القبائل المغولية كلها وأخذ يهدد الصين تهديدا خطيرا لاهزل فيه .. تغير الحال وتبدلت الاوضاع . فمن العجيب انه من عدة سنوات خلت كان الامبراطور الذهبي الذي يحكم فى شمال الصين قد طالب قبائل جوبى الرحل بدفع جزية سنوية. ولكن انقلبت الاية الان وارسل جنكيز خان رسالة يطالب فيها الامبراطور نفسه بدفع الجزية وردا على تلك الرسالة بعث الامبراطور مئات من العبيد الصغار ومعهم خيول مطهمة وعربات محملة بالذهب والحرير وهو يأمل أن يصل مع المغول الى هدفه". (١)

وعندما بدأت الامبراطورية المغولية فى الانتشار فى كل اتجاه تقريبا أخذ المغول ـ بقوتهم العسكرية ـ يفرضون الضرائب على غيرهم من الشعوب الخاضعة لهم.. فكان جمع هذه الضرائب هو أبرز علامات قوة المغول وخضوع أعدائهم .

تقدير قيمة الضريبة :

اختلف تقدير قيمة الضريبة تبعا للطريقة التى سار عليها المغول فى الجباية والتى تنوعت من مكان لاخر ومن نوعية لاخرى.

أولا : ضريبة الرأس :

وتلك كانت ترتبط غالبا بمدى ثراء الشخص فعلى سبيل المثال " ربط جغتاى ـ ثانى أبناء جنكيز خان والذى حكم واسرته بلاد ما وراء النهر ـ ضريبة الرؤس على سبع فئات وفق ثراء كل شخص". (٢)

وبدهى أن تقسيم الناس الى فئات حسب اثراء واعفاء رجال الدين من الضرائب يدل على تغير فى نظرة المغول الى الشعوب الخاضعة لهم .

وفى بلاد فارس(ايران) "فان هذه الضريبة التى عرفت بضريبة الرؤوس كانت تتراوح بين دينار وسبعة دنانير" (٣)

على حين أمر منكو خان أن يؤدى الغنى فى بلاد ا لخطا (الصين الشمالية) ١٥ دينارا والوضيع دينارا واحدا" (٤)

والعجيب أن بعض الحكام المسلمين قد فرضوا على مدن اسلامية ضرائب تؤدى الى المغول فقد ورد خطاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الى أهل دمشق يفرض عليهم ضريبة التتر يقول " انى قررت على أهل دمشق قطيعة التتر فى كل سنة من الغنى عشرة دراهم ومن المتوسط خمسة دراهم ومن الفقير درهم" (٥)

غير أن ضرائب المغول التى فرضوها على الاهالى فى روسيا كمايرى الدكتور سعيد عاشور قد خرجت على اعتبار مراعاة ثراء كل شخص وان ذلك الامرقد طبق فى كافة أجزاء الامبراطورية .

---

(١) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠٣

(٢) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٤

(٣) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٣٢ نقلاعن دوسون : تاريخ المغول جـ ٤ ص ٢٠٣

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٤٥٩، بارتولد : تاريخ التركستان ص ٦٨٨

(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٥

يقول "وكان على الروس — شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول دفع ضريبة الرأس دون تمييز بين الاثرياء والفقراء فى دفع هذه الضريبة ولم يشترط ان تدفع هذه الضريبة نقدا وانما كانت تدفع عينا فى بعض الاحيان" (١)

وهذا الرأى الاخير القائل بالمساواة المطلقة فى ضريبة الرأس على خلاف ما أورده معظم المؤرخين يدفعنا الى تأمل رأى اخر يشير الى أن ضريبة الرأس لم تكن فردية وانما كانت تؤخذ على البيت الذى يحوى مجموعة من الاشخاص يقول بارتولد" وقد حاول المغول فى عهود مختلفة أن يأخذوا الجزية عن كل شخص ولكن الموظفين الصينيين قاوموا هذه القاعدة بشدة، ولم تختف قاعدة (القار اخيطاى) وهى فرض الضريبة على البيت كوحدة دون أن تترك أثرها فى اسيا الوسطى قد كانت لاتزال موجودة فى أمارات تلك المنطقة حتى القرن التاسع عشر". (٢)

وهذا الرأى يبين أن القاعدة التى اتبعت فى جمع الضرائب فى اسيا الوسطى (منغوليا والتركستان) وبلاد ما وراء النهر كانت ضريبة البيت كوحدة وليس ضريبة الرأس الواحدة كما أنه يشير الى موقف الموظفين الصينيين. وليس هناك من دليل على مدى قدرة هؤلاء الموظفين على هذا الاعتراض القوى. او مدى تساهل المغول امام هذا الاعتراض مالم يكن فيه نفع لهم.

عموما فان الرأى الذى نميل اليه هو أن المغول فى معظم الدول التابعة لهم قد أخذوا ضريبة الرؤوس على الفرد الواحد وراعوا فى ذلك الفروق الفردية بين الاشخاص فى الثراء او الفقر.

ثانيا : ضريبة الماشية والاغنام :

كان المغول كما ذكرنا رعاة فى المقام الاول ولذا كانت حيوانات الرعى موضع اهتمامهم الكبير .. ومن ثمة كان لابد أن يكون هناك نظام محدد للضريبة على القطعان.

ولقد وضع الوزير (يى.ليو.جوتساى) نظام جباية هذا النوع من الضرائب على قاعدة ثابتة وهى رأس من كل مائة رأس من قطعان المغول (٣) واذا قل ما يملكه الراعى عن مائة رأس اعفى من الضريبة.

ويبدو أن منكوخان حفيد جنكيزخان قد التزم بسياسة جده فى ذلك فقد أمر أن يؤخذ عن ذوات الاربع مما يسمونه (تويجور) (الشاه والغنم) واحد عن كل مائة رأس من جنس واحد ومن لبس له مائة لايؤخذ منه شئ". (٤)

---

(١) د. سعيد عبدالفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ١ ص٦٢١

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٢٥

(٣) هارولدلامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٤
ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٦
حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٣٢، نقلا عن دوسون، تاريخ المغول جـ ٤ ص ٢٠٣

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩

وهذا النظام يفهم منه أن صغار الرعاة ممن يملكون قطعان صغيرة كانوا بمنأى عن اضلريبة التى لا تعد بالقياس الى العدد ذات أهمية كبيرة .

ثالثا : ضريبة البضائع :

كان احتياج المغول الى تنشيط حركة التجارة وحماية طرق القوافل ضرورة ملحة دفعتهم الى رفع الضرائب عن البضائع عملا بنصيحة مخلصة فقد بين الوزير (بى.ليو.جوتساى) لجنكيزخان قيمة رفع الضرائب عن البضائع" (١) فلعل ذلك كان يغرى التجار بمداومة السعى نحو مراكز التجارة على طرق المغول .

رابعا : ضريبة الاراضى الزراعية (الخراج)

لم تكن منغوليا بحكم طبيعة التضاريس والمناخ تشمل أرضا صالحة للزراعة فى الغالب ولم يكن المغول يحبون الزراعة . أو يميلون اليها غير أن هذا كله لم يمنعهم من الاستفادة بالمحاصيل الزراعية لدى الشعوب الخاضعة أو على الاقل فرض الضريبة على الاراضى الزراعية .

يقول ادوار بروى" وكان هناك عشر نقدى يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من أصل مواسمهم (٢)" فالضريبة موسمية عن المحصول وتدفع نقدا . وليست جزءا من المحصول .

والى مثل هذا ذهب ول ديورانت" وسمح باتو خان للامراء ا لروس بأن يحتفظوا بارضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبى أوللخان الاعظم فى قراقورم المغولية" (٣)

وتعتبر الضريبة على الاراضى الزراعية شيئا مألوفا لم يأت فيه المغول بجديد لكن المشكلة ان المغول كانوا يكررون الضرائب على الاراضى الزراعية حتى اضطر السكان الى هجرها والفرار منها فكان المغول يعيدونها بالاكراه وبدهى أن هذا كله أدى الى ضعف الانتاج الزراعى بوجه عام .

ومما يذكر بالخير للسلطان محمود غازان أنه قد أمر بعدم تحصيل الضرائب من الناس اكثر من مرة واحدة فى العام ، ومن يحاول من الجباة تحصيل هذه الضرائب فى غير الاوقات المحددة لها أو يسلك مع الرعية مسلك التعسف والاجحاف بحقوقهم ، يعرض نفسه لاشد أنواع العقوبات" . (٤)

مواد اضلريبة :

سبق أن اتضح أن الضرائب التى كان يجمعها المغول كانت تأتى فى أشكال عدة منها عملة نقدية ، أوضريبة عينية . أو فى شكل عبيد يسخرون فى خدمة المغول .

ويوضح ادوار بروى أشكال هذه الضرائب وامثلتها اذ يقول "وكان للضرائب العينية أهمية عظيمة فمنها الجياد التى يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش، والمواد الغذائية

---

(١) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٠٣
(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٧٦
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٤ ص ١٥٩
(٤) د. فؤاد الصياد : الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٣١٥

على أنواعها بمافيها البطيخ والعنب التى تقدمها البلدان المحتلة، ويضاف الى ذلك الضريبة النقدية (القمغة) المفروضة على المزارعين المتحضرين وضريبة أخرى (الذهب) مفروضة على الملح ورسوم أخرى على السكر والفحم الحجرى المستخرج من جبال الصين الشمالية، ويدخل الخزانة أيضا قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع و(الجزى) المتوجبة على البلدان الاجنبية أو التابعة للامبراطورية". (١) فاذا كانت هذه هى مصادر الضرائب لدى المغول فما مصارفها.

مصارف الضرائب :

بديهى أن الجزء الاكبر من هذه الضرائب كان يذهب الى خزانة الخان الاعظم باعتباره صاحب المملكة ومالكها حيث يكون الانفاق على مخصصاته ومخصصات أسرته و الديوان التابع له.

ثم يأتى البند الخاص بالرواتب . رواتب الجند والموظفين ورجال البريد والجباة وكذلك هناك الاهتمام بالمرافق العامة كمحطات البريد والطرق والمدارس والمستشفيات .. الخ ، وهناك من يرى أن هذه الضرائب كانت لا تذهب الى خزانة الخاقان بل يدفع منها أولا رواتب الجند وينفق منها على اصلاح محطات البريد والطرق العامة التى كان المغول يهتمون بها اهتماما خاصا لاهميتها فى تنقلات جيوشهم فى أوقات الحرب فضلا عن أهميتها التجارية فى أوقات السلم" (٢) . أيا كان الامر فالنتيجة فى النهاية واحدة غير أن القول بأن هذه الضرائب تذهب الى الخان الاعظم اولا بعد مطابقا للواقع اكثر.

العجز عن سداد الضريبة :

"يذكر التاريخ بالحمد والثناء لمنكو قا ان (٦٤٨ – ٦٥٥)هـ أنه خفف الضرائب عن كاهل رعاياه فأصدر أوامر مشددة الى الحكام والولاة بتحريم اغتصاب الدواب من الناس وتجنب ظلمهم وعدم تحصيلهم ما لا يطيقون" (٣) بل أعلن الخاقان جهرة ان اهتمامه موجه الى تحسين أحوال الرعية لا الى توفير الاموال لخزائن الدولة . (٤)

غير أن هذا لم يكن شأن معظم الشعوب الخاضعة للمغول ففى روسيا مثلا كانت الضرائب تجمع فيها بصورة غاية فى القسوة ،وكانت العواقب الوخيمة تتهدد من يعجز عن دفع الضرائب كالضرب المبرح والعبودية وربما القتل – أما فى ايران على عهد الايلخان (أرغون) فان الامير (بوقا) الذى وكل اليه ادارة شئون الدولة لم تكن له دراية كاملة بالشئون المالية والادارية مما سبب ارتباكا شديدا لاجهزة الحكومة المغولية فى ايران واضطرابا وقلقا لكافة الطبقات المحكومة ووصل الامر الى أن الدولة لم تتمكن من جمع الضرائب المقررة على الاهالى نتيجة ما وصلوا اليه من فقر وجوع. (٥)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٥٩

(٢) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٣٢ ،نقلا عن دوسون : تاريخ المغول ص ١٩٢.

(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٢٩

(٤) د.بارتولد : تاريخ تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٨٧

(٥) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٧٣

الاعفاء من الضرائـــب :

يجمع كثير من المؤرخين على أن المغول قد أعفوا من الضرائب شرائح كثيــرة كالامراء والضباط ورجال الدين وبعض الحرف والمهن المختلفة وبدهى أن الاعفاء من الضرائـــب يمثل بادرة خير لدى المغول خاصة اذا كان هذا الاعفاء مرتبطا بالعاجزين او الضعفاء مـــن جهة أو بالعلماء من جهة أخرى . وعلاوة على ذلك فان هذا الاعفاء فى حد ذاته دليل علـى العائد الضخم الذى جناه المغول من جراء هذا الضرائب .

وعموما فلدينا نوعان من الاعفاء الضريبى .

أولا : الاعفاء الدائـــم :

(أ) طبقة الامـــراء:

ويقصد بها اسرة الحاكم المغولى والتى تتميز عن غيرها من الاسر المغولية الاخـــرى فقد كانت طبقة الامراء مـــن آسرته تأتى فى المقدمة وهم جميعا معافون من دفع الضرائب"(١) وبالطبع فان هذا الاعفاء يحمل فى طياته معنى طبقى واضح فى تكوين المجتمع المغولى فهـــو أحد رموز الارستقراطية لدى المغول .

(ب) الضبـــاط:

ويقصد بها الضباط أصحاب الكفاءة العالية الذين نهضت على أكتافهم الدولة الناشئـــة ومن هؤلاء الضباط الذين خدموا (تيموجين) بأمانة واخلاص وعلى رأسهم شيبه وسوبوتاى. فقـــد كانوا يعفون من جميع انواع الضرائب"(٢)

وفى عهد قوبيلاى نعم قواده أيضا بهذا الاعفاء، فقد كان اغلبية الضباط الامبراطوريين معافين من الضرائب"(٣)

(جـ) رجال الدين :

وهذا الاعفاء ربما أشار الى احترام المغول لرجال الدين وتقدير مكانتهم أيا كانـــت ديانتهم فهو ينطوى على شعار التسامح الدينى الذى اعلنه المغول حيث قد ميز المغـــول رجال الدين فى مختلف العقائد بالاعفاء من الضرائب"(٤)

ويبدو أن هذا الاعفاء قد ورد ضمن ما ورد فى تشريع جنكيزخان فى الياسا من أحكام فقد كان من أحكام الياسا ان لايكون على الفقهاء ولا القراء وأصحاب العبادة والمؤذنيـــن ومغسلى الاموات كلفة ولا مؤنة". (٥)

وبدهى ان هذه الطوائف التى ذكرها المقريزى نقلا عن الياسا انما تمثل رجـــال الدين او من يؤدون وظائف دينية.

اذن فجنكيزخان هو أول حاكم مغولى يرفع الضرائب عن رجال الدين فقد كان يكـرم

---

(١) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٠٣
(٢) هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص٢٣
(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٦
(٤) براون : تاريخ الادب فى ايران ص٥٦١ ،بارتولد، تاريخ التركستان، ص ٦٣٣
(٥) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٢٠ومابعدها، عباس العزاوى، تاريخ العراق جـ١ ص١٤٦

علماء الدين والزهاد من كل طائفة ويعفيهم من الضرائب" (١)

ويؤكد ذلك موقفه من رجال الدين فى سمرقند حاضرة بلاد ماوراء النهر بعد الانتهاء من هزيمة جلال الدين منكبرتى عند نهر السند فقد خرج اليه كبار رجال الدين فى سمرقند لاستقباله ولما مثلوا بين يديه طلب الدعاء له فى الخطبة ثم أمر باعفائهم من الضريبة التى كانوا يدفعونها" (٢)

وكذلك سبق أن أشرنا الى ان جغتاى بن جنكيز خان – فى بلاد ما وراء النهر – قد أعفى رجال الدين من الضرائب على اختلاف عقائدهم" . (٣)

أما منكو خان فقد التزم بهذه السياسة اقتداء بجده وعمه . تلك السياسة التى ترمى الى اعفاء رجال الدين من المسلمين والمسيحيين والوثنيين من الضرائب" (٤)

وقد استمرت سياسة الاعفاء هذه حتى عهد الخان الاعظم قوبيلاى قا ان "ففى عهده تكرار الاعفاء من الضرائب الامر الذى استفاد منه كافة الرهبان نساطرة أو طاويين مسلمين أو بوذيين" (٥) .

وقد استتبع اعفاء رجال الدين من الضرائب اعفاء اخر تمثل فى اعفاء الاوقاف الاسلامية والكنائس .

١ – الاوقاف الاسلامية :

ويقصد بها المخصصات التى أوقفت على المدارس والمستشفيات والملاجئ اذ لما تولى بايدوخان سنة ٦٩٤هـ قرر اعادة الوظائف والحقوق الى أصحابها وأعفى الاوقاف الاسلامية من الضرائب " (٦) ولم يكن بايدو خان أول من فعل ذلك فقد سبقه الى ذلك السلطان أحمد تكودار . بل ان كيخاتو – على ما فيه – كان قد فعل نفس الشئ" . (٧)

٢ – الكنائس :

انتشر الدعاة المسيحيون فى منغوليا منذ زمن سبق على ظهور التجار المسلمين فيها ومن ثمة فان تأثيرهم خاصة على الحكام المغول كان أوضح – ولهذا سعوا الى الاستفادة من صلتهم بهؤلاء الحكام . ومن ذلك اعفاء الكنائس من الضرائب فكان أن نص البند الرابع من الاتفاقية الموقعة بين منكو الخان الاعظم مع هيثوم ملك دولة أرمينية الصغرى فى شهر يوليو

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٩٨ نقلا عن الجوينى، تاريخ جهانكشاى ج ١ ص ١٨

(٢) د.عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٧٩

(٣) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٣

(٤) د.السيد العرينى : المغول ص ٢٤٢

(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٧

(٦) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ص ٦٩

(٧) د.مصطفى طه بدر: مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٣، على ظريف الاعظمى مختصر تاريخ بغداد ص ١٣٥

سنة ١٢٥٤م على اعفاء الكنائس فى الامبراطورية المغولية من الضرائب بكافة أنواعها" (١)

ولم يتوقف الامر عند اعفاء الكنائس ذاتها من الضرائب بل امتد الامر الى اعفاء اتباع الكنائس أيضا، فقد حصلت بعض الكنائس على اعفاءات من الضرائب لاتباعها." (٢)

ويقول ول ديورانت (٣) " واصطلح زعماء المغول مع الكنيسة الروسية وحموا لها ممتلكاتها و رجالها وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب . ومن المؤكد أن الكنيسة ساهمت فى مقابل ذلك بالكثير من الخدمات للسادة المغول .

(د) الموظفـــــون :

ويشمل ذلك الكتبة ورجال البريد والجباة ورجال الديوان وغيرهم (٤)، فقد كان هؤلاء من العاملين فى خدمة الدولة بل ومن المحصلين لهذه الضرائب .

(هـ) الشيوخ والعاجزون :

وهو اعفاء ينطوى على الرحمة ويدل على السماحة ومراعاة حال الرعية. فقد أعفى منكو خان الشيوخ والعاجزين عن الكسب من الضرائب بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك فلم يطالب الاهالى بأداء ما تأخر عليهم من الضرائب" (٥)

(و) مهن متنوعـــة :

وتلك تتمثل فى الاعفاء من الضرائب على ملاحة السفن أو امتهان الحرف اليدوية او ممارسة الطب ، اذ لما عبر هولاكو نهر جيجون أنعم على اولئك الذين قدموا له خدمات جليلة ومنح الملاحين الضرائب التى كانت تؤخذ على السفن وألغى هذا الرسم" (٦)

كما أعفت الياسا الفقراء والقراء والاطباء من الضرائب" (٧) .

ويقول القلقشندى " ومن حال التتر فى الجملة اسقاط المؤن والكلف عن العلويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والاطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومن جرى هذا المجرى " (٨) .

---

(١) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠٨

(٢) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨١

(٣) قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٤ ص ١٥٩

(٤) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٧

(٥) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٣ نقلا عن دوسون : تاريخ المغول ص ١٩٤

(٦) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ،مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٤١

(٧) د.حرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦١

(٨) د.احمد شلبى موسوعة التاريخ لاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٧ ص ٧٣٩

(٩) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١١، المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ ومابعدها

ومما يلفت النظر فى هذا القول الاخير اسقاط المؤن والكلف عن العلويين .. فلعل المغول كانوا متأثرين بالشيعة الذين كانت بلادهم تحيط بهم فى خوارزم وايمان أو أنهم أرادوا التودد الى المسلمين بتعظيم ال نبيهم ، وفى الوقت الذى كان يعطون فيه على الاستيلاء على بلادهم مؤملين ان يلقوا تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى هذا العصر". (١)

ثانيا : الاعفاء المؤقت :

وكان هذا النوع من الاعفاء يتم خلال ظروف غير عادية تنتاب صاحب هذا الاعفاء وتعجزه مؤقتا عن أداء الضريبة ومن أمثلة ذلك .

١ - حالات الوفاة :

يقول جون . ا . هامرتن" والموت يعفى أسرة الميت من دفع الضرائب لعام بأكمله" (٢) والمقصود بالاسرة هنا الزوجة والابناء وحتى تتمكن هذه الاسرة من تدبير شئونها بعد فقد عائلها فانها تعفى من الضرائب .

٢ - ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية :

يبدو أن الحروب الكثيرة التى خاضها المغول فى مختلف الانحاء قد خلفت وراءها لفترة طويلة الدمار والاوبئة والامراض كما أن المناخ غير المستقر فى بيئة الاستبس كثيرا ما كان يسفر عن كوارث طبيعية بفعل الرياح والاعاصير الثلجية .. وأمام ذلك كان الاعفاء المؤقت لحين زوال الاثار التى تترتب على هذه المصاعب فقد أعفى قوبيلاى ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقتا من الضرائب" (٣)

٣ - ضحايا الجفاف الزراعى والحشرات :

يقول ول ديورانت" والغى الخان الاعظم قوبيلاى قا ان الضرائب عن جميع الزراع الذين اضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات (٤) "

وبالطبع كان الاعفاء المؤقت هنا مرتبطا بالفترة التى يستغرقها الجفاف أو انتشار الحشرات الضارة بالمزروعات كالجراد أو ثورة العواصف وفى الحقيقة لم يكن الخان الاعظم يكتفى بالغاء الضرائب مؤقتا بل كان يساهم بفعالية فى مواجهة هذه الازمات.

وقد كتب ماركو بولو فى ذلك يقول لايكاد يمضى يوم واحد ولايوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الارز والذرة والشام وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفقراء من أهل البلاد اعظم الاثر فى نفوس الناس جميعا فأحبوه وأجلوه". (٥)

---

(١) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٣٨، ١٣٩

(٢) تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٤

(٣) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٥

(٥) نفس المصدر السابق ص ٢٢٦

الجزيــــة :

تختلف الجزية عن الضرائب فى أنها تقدير اجمالى موقت يؤدى سنويا أو بصورة متكررة يقرره الخان نظير فرض الحماية أو عدم الاعتداء أو كبديل عن فرض السيطرة والنفوذ وكل ذلك من باب اظهار السطوة والسلطان والعائد المادى أيضا .

وفى معظم الاحوال كانت هذه الجزية من الضخامة بحيث يشق على المطالب بها اداؤها فيعجز عن دفعها فيكون مصيره الهلاك أوا لتجنيد الاجبارى فى جيش المغـــول أو أن يباع كبيع الرقيق .

وكثيرا ما فرض المغول الجزية الى جوار الضرائب التى اثقلوا بها الاهالى فى كـــل مكان حتى ضج الناس وعجزوا ومن المناطق التى وقعت تحت نير الجزية :

(أ) الصين وأطرافهـــا :

تحملت الصين مؤنة الغزو المغولى أكثر من غيرها وذلك لقربها الجغرافى مـــن منغوليا ولم يحــدث فى تاريخ الاباطرة العظام كلهم من جنكيز خان الى قوبيلاى قـــا ان أن توقف الهجوم على الصين شمالا أو جنوبا واذا كانت ا لمقاومة الصينية لم تجد أمام المغـول عسكريا الا أنها كانت السبب فى فداحة ما تقرر على البلاد من غرامات كثيرة.

أما كوريا التى تعرضت للهجوم جنكيزخان" فقد خضع ملكها سنة١٢٤١م ووعد بدفــع جزية سنوية وارسال رهائن الى أوكتاى الخان الاعظم وظل الحال على ذلك حتى أيام منكو". (١)

ويبدو أن المغول وقد استخدموا الاسطول فى عهد الخاقان الاعظم قوبيلاى قـــد "نفذوا الى الهند اصلينية وجاوة فأخذوا منهما الجزية "(٢)

وحتى بورما لم تسلم من الغزو ففى سنة١٢٧١ "وبناء على رفض المطالبة المغوليـة بدفع الجزية هبطت جيوش مغولية على مدينة (باجان) ونهبتها وهدمت قلعتها". (٣)

(ب) سمرقند ومثيلاتها :

نكبت سمرقند بالمغول عقب سقوط اترار وبخارى وكبقية المدن فى التركستان وبـــلاد ما وراء النهر" فرض جنكيز خان على أهلها جزية قدرها ثلاثمائة ألف دينار (٤).

(جـ) غرب اسيـــا :

لم يسلم غرب اسيا من غزوات المغول منذ عهد الخاقان الاعظم أوكتاى بن جنكيزخـــان الذى كلف قواده بمتابعة السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى والقضاء عليه وانتهى أمـــر جلال الدين على يد أحد الموتورين الاكراد لكن قوات المغول تحركت شمالا فى اتجاه اسيـــا الصغرى وما حولها .

وفى أثناء وصاية تورا اكيناخاتون (١٢٤١م ــ ١٢٤٦م) وفى سنة٦٤١هـ حكم المغول على بلاد الروم والزموا صاحبها غياث الدين كيخسرو (٦٣٤ ــ ٦٤٣هـ) بأن يحمل اليهـــم

---

(١) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٨٤

(٢) ايلين بور: نماذج بشرية من العصور الوسطى ص ٦٤

(٣) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٦

(٤) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٦٣، ٦٤

كل يوم الف دينار ومملوكا وجارية وفرسا وكلب صيد". (١)

وكذلك حدد كيوك خان (٦٤٤هـ - ٦٤٦ هـ) مقادير الجزية التى تؤديها سلطنة السلاجقة وتشمل ٢٠٠ر٢٠٠ر١ دينار، ٥٠٠ من الثياب الحريرية الموشاة بالذهب، ٥٠٠ حصان، ٥٠٠ جمل، ٥٠٠ رأس من الغنم فضلا عن مقادير ضخمة من الهدايا تضارع فى القيمة هذه المقادير". (٢)

ولقد كانت الدول الامارات تقبل هذه الجزية بل وتعرضها بنفسها كى تتقى شر المغول وشرهم كما حدث فى مدينة سواس باسيا الصغرى فقد ملكها المغول بالامان وأخذوا أموال اهلها عوضا عن أرواحهم(٣).

وأحيانا كان بعض ا لحكام يلجأ الى قبول الجزية لاسباب خاصة جدا "فحين علم اوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران بنبأ دخول المغول بلاده وكان مثل والده مدمنا على الخمر وأعمال الفسق رفض الخروج لقتالهم وأرسل من عرض عليهم الصلح لقاء مال وثياب ودواب فقبلوا منه ذلك وساروا عنه دون أن يتعرضوا لبلاده بأذى". (٤)

ومن الذين قبلوا اداء الجزية حاكم انطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية فقد دفعوا جزية سنوية وكذلك فعل هيثوم ملك قيليتيه (أرمنية الصغرى) وتسلم شهادة بأنه من أفيال الخان كمادفعت لهم الموصل جزية سنوية(٥)

(د) روسيا والقبجاق:

كان جنوب روسيا قد ال الى جوجى بن جنكيزخان فى حياة ابيه ثم انتهى الى باتوين جوجى الذى رأى ان يوسع مملكته فى فترة ولاية الخاقان الاعظم أوكتاى وعلى هذا "ففى الفترة بين سنتى (١٢٣٧ - ١٢٤٠م) اجتاح المغول كل الامارات الروسية وأخضعوها وألزموها بدفع الجزية" (٦)

وفى سنة ١٢٦٠م اى اثناء حكم بركة خان " ارسل يطلب من الامير اسكندر أمير الروس أن يحصى عدد سكان نقوغورد ليأخذ منهم الجزية فلما سمع الاهالى ذلك ثاروا ولكن الاشراف صرفوا رسل الخان بسلام. ونفخوهم بهدايا ثمينة وأخبروهم ان الشعب يرفض دفع الجزية غير أنهم لماسمعوا أن المغول زاحفون عليهم سكن ثائر غضبهم فأرسلوا اليهم يستعطفونهم ودفعوا الجزية مرغمين ونفس الشئ حدث فى امارات سوزدال وفلاديمير ورستوف وأخيرا ذهب الامير اسكندر الى مدينة " سراى" ليتقرب من الخان ويسترضيه و يعتذر عما جرى". (٧)

---

(١) الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٥ ص ٢٠٩، رزق الله منقريوس الصدفى ، تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢٧٨، الحافظ الذهبى: العبر فى خبر من غبر ج ٥ ص ١٦٧

(٢) د. السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٠٧

(٣) رزق الله منقريوس : تاريخ دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٧٧.

(٤) اديب السيد: أرمينيا فى التاريخ العربى ص ٢٢٣

(٥) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٨٨

(٦) د.سعيد عبد الفتاح عاشور: اوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٥

وهكذا ظل باتو وخلفاوءه يستطيرون على الجزء الاكبر من روسيا مدة مائتى عام وأبعين عاما ، حيث كان ا لمغول يسمحون للامراء الروس ان يحتفظوا بأرضهم شرط أن يوءدوا عنها جزية سنوية لخان القبيلة الذهبية وأن يقوموا من حين لاخر بزيارة له أو للخان الاعظم فى قراقورم يقدمون فيها فروض الولاء والطاعة" (١) كماسبق القول .

(هـ) ايــــران :

نالت ايران كثيرا من التدمير منذ الغزو المغولى الاول وظلت مسرحا لتوالى هجماتهم أيام أوكتاى ومنكو وهولاكو "ولم ينج من التدمير الا الجزء الجنوبى منها حيث تعهد حكامه بدفع جزية ضخمة للغزاة" (٢)

التمويـــــن :

بنى المغول اقتصادهم الرعوى على نظام الاكتفاء الذاتى فكل قبيلة مسئولة عن تحقيق اكبر قدر من التكيف مع الطبيعة بحيث يتوازن الانتاج الرعوى الحيوانى مع ما يستهلك من لحوم والبان ،٠٠ وقد يتعرض هذا التوازن لبعض الاختلال نتيجة لظروف معينة فيصبح لزاما على افراد القبيلة تعويض ذلك بالصيد أوالغزو او لتحالف والا تعرضت مكانة القبيلة للانحدار بين القبائل الاخرى٠٠ فالاكتفاء الذاتى ضرورة حياتية موءكدة٠٠ يقول ابن الاثير" وهم لايحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم ، فان معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب ، يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها، وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم اذا نزلوا منزلا لايحتاجون الى شئ من خارج" (٣)

غير أن جنكيز خان وقد توج خاقانا أعظم على القبائل المغولية والتركية أصبح مسئولا عن توفير التموين لكل هذه القبائل التى لم يعد لها حق الاغارة على بعضها فى فترات القحط والجفاف.

وتفتق ذهن المغول النابه عن ضرورة انتزاع ما فى أيدى الدول المجاورة من ثروات ٠٠ ولقد كشف فى خطبه العديده الى جنوده أثناء غزو أملاك الدولة الخوارزمية عن معرفة دقيقة وتفاصيل كاملة حول مواعيد الزراعة والحصاد وأماكن تجمع الغلال ٠٠ الخ.

وفى الحقيقة كان جنكيزخان يفهم اقتصاد الحضر كما كان يفهم تماما اقتصاد البدو لكن المشكلة هى أن كليهما غير صالح للتطبيق مكان الاخر ومن هنا رأى أن يستفيد من امكانيات اقتصاد الحضر فى تموين منغوليا التى تعانى كثيرا من نقص المواد الغذائية. أما تهديده بتحويل الاراضى الزراعية الى مراع للخيول فلا يخرج عن اطار التخويف والارهاب فقد كانت سياسة انزال الرعب فى قلوب الاعداء من أنجح الوسائل لديه . وهكذا تحولت مراكز الانتاج التى افلتت من الدمار فى البلاد المفتوحة الى منابع توريد تمون منغوليا بما تحتاج اليه تباعا.

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٤ ص ١٥٩

(٢) د٠رونالد ولبر: ايران ماضيها وحاضرها ص ٧٠

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٣٦٠

وقضية التموين – بالاضافة الى الاغراض التجارية – كانت من أبرز أسباب اهتمام جنكيز خان والمغول عامة بحماية الطرق الرئيسة فى اسيا سوخصوصا طرق القوافل ولهذاعمدوا الى توفير كافة أسباب الرعاية والضمان لها بتطهيرها من قطاع الطرق واللصوص واقامة مراكزعسكرية على امتدادها للحراسة. غير أن الصراع العسكرى الحاد بين المغول أنفسهم كان يؤدى الى تدمير خطوط التموين وتعطيلها وعلى سبيل المثال حدث عندما توفى منكو سنة١٢٥٩م ان نشبت الحرب بين أخويه (قوبيلاى) و(أريق بوقا) من أجل العرش فنصب الاول نفسه خانا فى الصين ونصب الثانى نفسه فى منغوليا وكانت أولى نتائج هذا الوضع هى عجز منغوليا عن استيراد القمح من الصين فأوفد (أريق بوقا) الامير (الفو) أحد أبناء جغتاى الى تركستان ليدبر أمر استيراد المواد الغذائية والضروريات عامة" (١)

ويقول بارتولد فى بيان أثر ذلك " ان قوبيلاى لما منع وصول الميرة من الصين الى منغوليا حدثت من جراء ذلك مجاعة بتلك البلاد ولهذا كان ضروريا أن ينظم نقل الغلة من تركستان الى منغوليا" (٢). ولعل فى ذلك ما يشير الى التغيير الذى طرأ على حياة المغول فى منغوليا فقد أصبح القمح يشكل عنصرا أساسيا فى غذائهم بعد أن كانوا يقتصرون على تناول اللحوم وشرب الالبان.

عموما فان حكومة قوبيلاى قا ان أكثر من سابقاتها عمدت الى تركيز جهودها فى القضايا الاقتصادية فطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجتها (٣) واقيمت فى البلاد اهراء عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجةالبلاد من المحصولات الزراعية ولتوزع على الاهلين فى أيام القحط". (٤)

غير أن الاستقلال الفعلى الذى حظت به الممالك المغولية اثناء عهد قوبيلاى قا ان (٦٥٨ هـ – ٦٩٣هـ) جعل التموين قضية محلية واصبحت منغوليا كلها بماقيها العاصمة قراقورم تعتمد على الموارد المباشرة الاتية من الصين حيث استقر الخاقان الاعظم هناك فى بكين". (٥)

العملة المعدنية :

اذاكان المغول بحكم بداوتهم وحتى عهد جنكيزخان قد التزموا طريقة المقايضة فى عملية البيع أو الشراء فانهم قد استخدموا فيما بعد العملة المعدنية – فيما عدا الصين التى عرفت نظام العملة الورقية منذ زمن أبعد.. يقول بارتولد ." وقد ظهر فى كل الدول التى اقامها المغول ماعدا دولتهم فى الصين نظام خاص للعملة، فكانت اكبر قطعة تسمى (دينارا) وأصغر قطعة تسمى (درهما) وكان الدينار يساوى ستة دراهم وقد ثبت وزن الدرهم فى عهد خلفاء جوجى على ثلث مثقال ثم طبق هذا الوزن فيما بعد فى اسيا الوسطى وايران". (٦)

---

(١) د. بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٨٨

(٢) د.بارتولد: تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٩٩

(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٧

(٤) كتشرابين : الشرق الاقصى ص ١٦

(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٣٧٥

(٦) بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٧٣

لكن كيف كان المغول يضربون السكة(العملة المعدنية) ؟ يقول بارتولد" وقد كان الخانات المغول يضربون أسماءهم على العملة بالحروف الاويغورية". (١)

اذن تأثر المغول بحضارة الاويغور وأخذوا عنهم خطهم و استعملوا فى احدى ايـات الملك وهى ضرب السكة.

و أما فى المدن التى خضعت لحكم المغول فقد التزمت كل منها بما هى عليه وضربت السكة فيها برسم مستقل عن غيرها . فقد كان لكل مدينة طابع خاص يظهر فى شكل العملة ونقشها ونوع حروفها" (٢)

وهكذا فان المغول – رغم قوتهم العسكرية – قد خضعوا لموءثرات الحضارة فى الدول التى حكموها والتى احتفظت – رغم ضعفها العسكرى – بكثير من معالم حضارتها.

وهكذا تطور نظام المقايضة تدريجيا ليحل محله نظام العملة المعدنية ثم الورقية فيما بعد.

العملة الورقية:

يبدو أن ثمة دوافع كانت وراء استبدال العملة المعدنية بالعملة الورقية ففى ايران أخذت الشئون المالية تزداد سوءا يوما بعد يوم نتيجة لاسراف خانات المغول واستمرار الحروب وقلة الانتاج ففى عهد كيخاتو ارتبكت مالية الدولة وصارت الخزانة مهددة بالافلاس فروءى استعمال أوراق النقد الصينية (الجاو) بدلا من التعامل بالذهب والفضة". (٤) وعليه فقد اصدر كيخاتو حاكم ايران المغولى (٦٩٠ ـ ٦٩٤هـ) امرا بتداول العملة الورقية وسحب العملات الذهبية والفضية وأمر بأن تقام فى كل مدينة ادارة للعملة تسمى(جاوخانه) تقوم بصك (الجاو) أى العملة الورقية" (٥)

ولما كان الانتقال من استخدام العملة المعدنية الى العملة الورقية قد تم فجأة فان الناس فى ايران لم يتقبلوا هذا الامر بسهولة. (٦)

واضطر الحاكم المغولى أمام هذا الموقف الى فرض استخدام العملة الورقية على الناس بالقوة . يقول د.عبد السلام فهمى (٧) " وانتشرت الجاو لاول مرة فى شوال سنة٦٩٣ هـ فى مدينة تبريز لكن الاهالى الذين لم يألفوا هذا النوع من التعامل من قبل – وكانوا يخشون عمال المغول – قد أجبروا على التعامل به فكانت النتيجة أن اضطربت احوالهم وكسد سوق التجارة والمال وقل البيع والشراء".

ويصف ابن الفوطى(٨) موقف الناس من الجاو فيقول " وكان الرجل منهم يضع

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٠٨

(٢) نفس المصدر ص ١٧٣

(٣) د.فوءاد اصلياد: المغول فى التاريخ ص ٦٩

(٤) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٤.

(٥) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٥٥٣

(٦) تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٥

(٧) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣١٨

الدرهم تحت الجاو ويعطى الخباز والقصاب وغيرهما ويأخذ حاجته خوفا من أعوان السلطان".

الى هنا والامر يتمثل فى محاولة الناس تحاشى الاصطدام بأوامر السلطان المغولى. غير أن الحالة كادت أن تنذر بقيام ثورة حارقة قد تأتى على دولة المغول فى ايران ،لولا أن سارع السلطان فأصدر قانونا بابطال التعامل بهذا الورق". (١)

طبع العملة الورقيـــة :

سبق أن أشرت عند الحديث عن العملة المعدنية بأنه كان لكل مدينة طابع خاص يظهر فى شكل العملة ونقشها ونوع حروفها. فماذا كان الحال بالنسبة للعملة الورقية.

يقول عباس العزاوى (٢) عنها " وهى كاغد بشكل مستطيل عليه (تمغة) السلطان عوض السكة على الدنانير والدراهم وفى أعلاه كلمة (لا اله لا الله محمد رسول الله).

ويقول الدكتور عبد السلام فهمى " وكان الجاو يتكون من قطعة ورقية مستطيلة الشكل مدون على أطرافها الاربعة بخط خطائى (الخط المستعمل فى الصين الشمالية) وفى أسفل الورقة نقشت الشهادتان على طرفين من الورقة ، وفى أسفل الشهادتين بمسافة قليلة وفى الوسط كلمة (ابرنجين دورجى) وهو اللقب المغولى لكيخاتو الذى لقبه به الخاقان الخطائى (يقصد قوبيلاى قا ان) ومنقوش عليها فى الوسط عدة سطور مضمونها أنه بتاريخ ثلاث وتسعين وستمائة أجرى الايلخان تداول هذه العملة فى جميع البلاد، وكانت قيمة الجاو مدونة داخل دائرة فى وسط العملة وتختلف من نصف درهم الى عشرة دنانير" (٣)

ونلاحظ أن الحاكم المغولى فى ايران - الذى لم يكن مسلما- قد سمح بكتابة عبارة التوحيد الى جوار اسمه ولعلها كانت محاولة لاسترضاء المسلمين واجتذابهم الى التعامل بهذا النوع من العملة .

وعن رسم العملة الورقية التى ظهرت فى الصين فى عهد قوبيلاى قا ان يقول ادوار بروى (٤) " صنعت الاوراق النقدية (السوداء) من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود فى بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التى تمثلها حاملة خاتم الامبراطور الذى يضمن شرعيتها". (٥)

عقوبة مخالفة الاستعمال :

وتلك صدرت فى كل من ايران والصين على حد السواء وذلك لضمان التزام الناس باستعمال العملة الورقية . ففى ايران كان كل من أقدم على تغييرها أو تبديلها يعرض نفسه وأهله من النساء والاولاد والاقرباء لعقوبة شديدة". (٥)

---

(١) د. فؤاد الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص٦٩، د.السيد العرينى: المغول ص ٣٣٧

(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٥٨، د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٢

(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٤

(٤) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٩

(٥) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٨٤

وإذا كان نوع العقوبة ليس واضحا هنا . فانه كان أكثر وضوحا وصرامة فى الصين حيث فرض التداول بها تحت طائلة عقوبة الاعدام على كافة رعايا الامبراطورية" (١)

وهكذا رأينا كيف أن المغول قد أقاموا ديارا لصناعة العملة الورقية وعينوا لهـا الموظفين . (٢)

وكذلك جعلوا خاتم الامبراطور أو من ينوب عنه ضمانا لشرعيتها وفرضوا عقوبة صارمـة لمن يخالف العمل بها — غير أن اغراق الاسواق التجارية بهذه العملة فى أواخر عهـد قوبيلاى كان سببا فى العجز الذى اصاب خزانة الدولة فى الصين . بل كان احد الاسبـاب التى أدت الى انهيار سلطان المغول فى اصلين" . (٣)

---

(١) ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٩

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٣٥٨

(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٧

الفصل الرابـــع

الحياة العسكرية عند المغـــول

١ ـ تكوين الجيش " الفرق "
٢ ـ القوانين العسكرية في الياسا .
٣ ـ المعسكـــرات .
٤ ـ التدريب العسكري .
٥ ـ التموين .
٦ ـ التخطيط للحـرب .
٧ ـ محاولات استكشاف الغيب قبل الحرب .
٨ ـ نظم التجسس والاستطـلاع .
٩ ـ التفاوض مع الأعداء قبل الاشتباك .
١٠ـ استعراض الجند للتفتيش قبل الحرب .
١١ ـ وسائل الهجوم والدفـاع .
١٢ ـ الاسطول الحربي .
١٣ ـ استغلال الأسرى في الأعمال العسكرية .
١٤ ـ سياسة توزيع الغنائم .
١٥ ـ وسائل الهجوم والدفـاع .

تمهيـــد :

كان المغول فى غالبيتهم رعاة فرضت عليهم البيئة القاسية فى منغوليا حياة غاية فى الخشونة والشظف فانتقلوا هناوهناك وراء الماء والمرعى واقتتلوا فيما بينهم فى حروب قبليــة طاحنة سعيا فى طلب الأسلاب والمغانم وطلبا للسيطرة واظهار النفوذ.

وكثيرا ما جاء الشتاء قاسيا شديد البرودة وعانت المراعى من فقر شديد فى الحيــاة النباتية وهلكت أعداد كبيرة من القطعان.

حينها كان يتوجب على المغول التحول الى الصيد العام الذى يشترك فيه الجميع حتى النساء والأطفال حيث يكون الصيد وسيلة توفير الطعام والكساء من ناحية وفرصة عمليـة للتدريب العسكرى الجاد من ناحية أخرى.

وفى الحقيقة كانت هذه الأعمال كلها كافية تماما لان تعلم المغول معانى الصبـــر واحتمال الشدائد والمخاطرة فى سبيل الوصول الى الهدف كما علمتهم فنون المناورة والخـداع ووسائل عديدة للهجوم والدفاع فاتقنوا جميعا أساليب المبارزة وركوب الخيل والمصارعة.

فلما نجح جنكيز خان فى السيطرة على كافة القبائل المغولية والتركية وأخضعهـــا لسلطانه حيث توج خاقانا أعظم سنة ٦٠٣هـ ١٢٠٦م اصبحت الحاجة ملحة الى تكوين جيـش نظامى كبير فقد رأى جنكيز خان أن يفتح جبهات جديدة للقتال خارج منغوليا حتى يستنفـذ الطاقة القتالية لدى هذه القبائل التى جبلت على الغزو والاغارة وفى نفس الوقت يستغـل التدريب الممتاز الذى حصله المغول فى حملات الصيد ومباريات المصارعة والمبارزة والحـروب الطاحنة التى دارت سلفا فيما بينهم.

ولقد رأى جنكيزخان أن يبدأ بمهاجمة الصينيين لأن معلوماته أفادت أن الامبراطوريـة الضخمة فى شمال الصين لا تمتلك جيشا له مهارات يمكنها أن تصمد فى مواجهة الحـــرب الخاطفة التى تجيدها فرسان المغول الأشداء فقد كانت الفرق الصينية فى معظمها من المشاه الثقيلة تركت أساليب التدريب منذ وقت طويل فغدت على ضخامتها فريسة سهلة اغتنمهـا جنكيزخان الذى كان قد أحسن تكوين جيشه وتقسيمه.

تكوين الجيش " الفـرق " :

وضحت نتيجة للظروف السابقة الحاجة الملحة لتطوير الجيش المغولى وجعله فـى صورة نظامية تلائم المهام الثقيلة التى ستوكل اليه ومن هنا ظهر نظام الفرق المختلفة التـى تتحرك وفق " تكتيكات" وخطط القتال فقد " تولى جنكيز خان" بنفسه القيادة العليا لكافـة وحدات الجيش المغولى ثم رأى مع توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح فى جبهات عديـدة أن يضع نظاما ثابتا حازما فوزع السكان الذكور أعدادا للتعبئة عشرات ومئات وألوف، ثـم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل أوأكثر (١).

وليس بين أيدينا دليل عن مدى تـأثر نظام التعبئة هذا بتقسيم القبائل المغولية او التركية وان كنت أرجح عدم أهمية ذلك لأن القبائل كلها انصهرت تحت راية جنكيز خان فـى

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٣

بوتقة الفتح بدليل أننا لم نسمع عند أي حركة تمرد أو عصيان قبلي ضد جنكيز خان منذ توليه عرش الخاقانية.

أيا كان الأمر فقد أصبح الجيش المغولي منظما أحسن تنظيم اذ قسمه جنكيز خان الى فرق كبيرة تتدرج حسب العدد فقد كانت مكونة من فرق ضخمة بلغت مائة ألف جندي وتسمى التوك تليها فرق مكونة من عشرة الاف رجل تسمى التومان وهذه بدورها تنقسم الى فرق تتألف كل منها من ألف رجل تسمى المنجان ويندرج هذا التقسيم في الفرق فهناك فرق من مائة تسمى دن ، وفرق من عشرة تسمى أربان وتبعا لهذا التقسيم أصبح هناك قائد لكل فرقة من الفرق الكبيرة أوالصغيرة يتصرف فيها حسب ما يراه ولكن هؤلاء القواد كانوا يرجعون في النهاية الي جنكيزخان (١)

وهذا التقسيم العددي كان يدخل ضمن اطار آخر فقد كانت هناك فرق المشاة والفرسان. وتلك كان يحدد لكل منها مكانه قبل الاستعداد للقتال، ويرتبط الجميع بتنسيق قيادي عام يتم تنفيذ الخطط من خلاله كأن يتقدم الوسط وتفتح الجناحان للاطباق على العدو أو عكس ذلك مما تقتضيه ظروف كل معركة "وكانت قوات الوسط تتكون من فرقة أمامية وأخرى خلفية، ولما كانت الفرق الأمامية اكثر تعرضا لفتك الأعداء فقد كان جنودها يلبسون دروعا كاملة ويحملون السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها. (٢)

أما الفرق الخلفية فكان جنودها لايلبسون دروعا ولايحملون من أسلحة الحرب سوى القوس والنشاب ، "وكانت هذه الفرق بمثابة الفرق الخفيفة التي يسهل تنقلها من مكان لآخر وكانت تستخدم في مناورة العدو كلما تقدم حيث تندس بسرعة بين الفرق الامامية الثقيلة وتصوب نحو العدو وابلا من سهامها حتى اذا ما اختل نظام العدو أخذت الفرق الامامية تنقض عليه وتشتت شمله دون مشقة بينما تكون الفرق الحقيقية قد عادت الى مكانها بالخلف (٣)

وبالاضافة الى فرق المشاة السابقة ظلت فرق الفرسان اهم وحدات الجيش المغولي حيث ان سرعة تحركها وقدرتها الفائقة على الاستطلاع والتجسس وسهولة تموينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قد فرضت تميزها بمجندين أقل عددا وأعظم تفوقا (٤) ولقد كانت فرق الفرسان من أهم أسباب الذى حققه المغول فقد أكثر قوة وانتشارا وتنظيما من فرق أخرى للفرسان لدى الآخرين.

كذلك ابتدع جنكيز خان صنفا حديثا من الفرق العسكرية الممتازة وأبقاه تحت أمرته وهو جموع الخيالة الثقيلة الشديدة الضبط القادرة على الحركة السريعة في مختلف أنواع الأرض ويحتمل أن غير المغول قد اقتنوا جموعا كثيرة من الخيالة ، الا أنهم كانوا مفتقرين الى كفاية المغول وشجاعتهم العنيدة المتوقدة وقدرتهم الخارقة على التحول السريع من الدفاع الى الهجوم ومهارتهم الفائقة في استخدام القسي. (٥)

وبخروج المغول من الاستبس واشتباكهم مع دول تستخدم نظام القلاع والحصون في الدفاع كان عليهم أن يوفروا لانفسهم فرقا خاصة للرمى الثقيل الذى تستخدم فيه الات المنجنيق

---

(١) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٢

(٢) حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٥

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢١٥

(٤) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٥٧

(٥) د. هارولدلامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٥٧.

وهى الات ترمى الاحجار ذات الاوزان الثقيلة الى مسافات بعيدة فتدك الحصون والقلاع وبالفعل
قام بالاشراف على هذه الفرق مهندسون غير مغول فقد كانوا من الصينيين والايرانيين الذيـــن
عملوا فى خدمة المغول.

وفى الحقيقة كان الجيش منظما تنظيما دقيقا يفوق أى نظام لدى الجيوش الاخـــرى
المعاصرة ، ولقد كان هذا النظام واحدا من عوامل النصر الذى حققه المغول فى معظـــم
المعارك الحربية التى خاضوها .

القوانين العسكرية فى الياسا

توشك الياسا فى مجملها أن تكون دستورا عسكريا بالدرجة الاولى وتكاد تكون السمـــة
الغالبة على القوانين العسكرية الواردة فيها هى سمة العقوبات الصارمة مما يؤكد اهتمـــام
جنكيزخان باحكام الضبط والربط فى مختلف أقسام الجيش المغولى. ويعكس فى الجانب الآخـــر
ما كان يتصف به المغول من خشونة فى الطبع وحدة فى المعاملة.

ولقد ظهرت الياسا أو الجزء الاكبر منها فى القوريلتاى الذى عقد فى سنة٦٠٣هـ /
١٢٠٦م حيث توج جنكيزخان خاقانا أعظم على القبائل المغولية والتركية فكان من آيـــات
العظمة ان أصدر هذا الدستور الشهير" (١)

ولقد بلغ من قوة هذا القانون أنه لم يكن فى سلطة أحد أن يقوم بأى عمل حربى
الا اذا أمر الخان نفسه بذلك". (٢)

وفى الحقيقة كان كل رجل من المغول على بينة من مكانه بالضبط فى سرية العشرة
وكتيبته المائة وطابور الالف ، وفيلق العشرة الاف كذلك كان كل فيلق يعرف مكانه مـــن
الجناح الأيمن أو الجناح الأيسر أوالقلب فالجيش المغولى كان من ناحية التنظيم كالالـــة
الضخمة الدقيقة الأجزاء الجيدة التشحيم .. يديرها مهندس ماهر ويزودها بوقود كاف وبوليها
بخدمة حسنة". (٣)

وبرجع الفضل فى ذلك الى بنود تنظيم الحركة شرعتها الياسا ومنها أنه لايجوز
لاى جندى الانتقال من فرقته الى فرقة أخرى واذا حاول شخص ذلك ،فانه يقتل كمايعاقـب
الشخص الذى سمح له بالانتقال" (٤). كذلك كانت عقوبة الاعدام توقع ايضا على كل محـارب
يترك جماعته المكونة من عشرة أفراد ابان المعركة". (٥)

وبصفة عامة أكد جنكيز خان على مراعاة القاعدة العسكرية فى تعبئة الرجال الـــى
عشرات ومئات والوف وعشرات الالوف" (٦) والح على العقاب الشديد لاى خروج على نظـــام
هذه التعبئة.

---

(١) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٧ ص ٧٣٨
(٢) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩١
(٣) الكاتب الصينى ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٦٤
(٤) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٩
(٥) د.هارولدلامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٢
(٦) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤

موقف الياسا من القيادات :

كان جنكيز خان يرى أن العقاب الصارم هوالأداة الفعالة التى يمكن بواسطتها تحقيق أكبر فرص الأداء العسكرى الممتاز وكان موقنا بأهمية القدوة المثلى التى ينبغى أن يحتذيها الجند بالاضافة الى القوانين العسكرية فى الياسا ومن هنا لم يتوان لحظة واحدة فى توقيع أشد العقوبات على كل من يخطئ وبخاصة الأمراء والقواد" الذين كانوا يضربون بالهراوة عندما يقعون فى الخطأ ولايعتبرون فى ذلك اهانة لهم ولايظهرون اشمئزازا". (١) فقد كان المغول يؤمنون بأن كل خطأ يقابله عقاب. على أن الخطأ قد يكون كبيرا أو لايصح أن يقع فيه قائد كبير أو أمير ومن هنا كان العقاب فيه شئ من الاحراج والتشهير فقد كان جنكيز خان اذا غضب لأمر ارتكبه أحد قواده يأمر بعقابه علنا أمام سائر جنده وربما وكل عقابه الى رسول بسيط من رسله". (٢)

أما اذا كان الجرم يحمل معنى الاهمال الجسيم أو معنى من معانى الصبيان "كأن لا يقوم ضابط أو زعيم بتأدية واجبه أو أن يرفض الحضور امام الخاقان فانه كان يعاقب على الفور بالموت". (٣)

كذلك كان جنكيزخان يدرك تماما خطورة ان يترك أمر تنفيذ حكم الاعدام فى أيدى الضباط مباشرة دون الرجوع اليه وعلى هذا نصت الياسا على أن أى ضابط لايستطيع أن ينفذ حكم الاعدام على من هم أدنى مرتبة منه الا بعد أن يؤيد الخان نفسه هذا الحكم" (٤)

وفى الحقيقة كانت العقوبات الصارمة التى نصت عليها الياسا تستهدف تحقيق كل مقتضيات الطاعة التامة التى صارت أمرا واجبا على الجميع حين اصبح عقاب من يخالفها قاسيا جدا حتى ان الجندى أوالضابط المذنب لم يعد يقتل وحده فحسب بل تقتل أيضا زوجته وأولاده". (٥)

ويبدو هذا العقاب الأخير مروعا فالزوجة المغولية كانت تكلف بالاشتراك فى القتال والنهوض بأعباء الرجال عند غيبتهم والسهر على حراسة المعسكر بالاضافة الى أعبائها الاخرى .. ثم ما ذنب أولادها ؟!

ويخيل الى أن هذه العقوبة كانت من باب الارهاب والتخويف بالنسبة للمغول وحتى تكون ضمانا لتمام ولاء الأمراء والقواد والجنود فى طاعة الخان اذ أننى لم أعثر على حالة واحدة طبق فيها المغول هذه العقوبة على واحد منهم تطبيقا حرفيا. على حين طبقوها على كبار رجال الدولة أوالأعداء وعلى سبيل المثال ما حدث فى مذبحة قتل خورشاه الاسماعيلى وكل من كان معه من أهله وأولاده فى أيام منكوقا أن وكذلك الحال مع الخليفة العباسى المستعصم فى عهد هولاكو وأسرة الجوينيين فى عهد أرغون ... الخ .

---

(١) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ٦١
(٢) د. جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٣
(٣) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٥
(٤) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٥٧
(٥) د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٣٧

قوانين السلاح :

احتوت الياسا كذلك على مجموعة قوانين تدور حول مسئولية كل جندى عن سلاحه أثناء القتال وعن مسئولية الضباط فى التفتيش عن اى نقص او تقصير لدى الجنود فى هذا المجال . كما أكدت الياسا على ضرورة التعاون التام بين الجنود أثناء القتال ومن ذلك النصوص التالية .

١ - "كل جندى مغولى مسئول عما فى يده من سلاح ولقائده أن يحاسبه عن تقصيره ان هو شعر بنقص فى هذه الأدوات الضرورية". (١)

٢ - "يستلم الجندى السلاح من قائده المباشر حال ابتداء المعركة وعلى الضباط الاحتفاظ بالاسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة". (٢)

٣ - " يلزم القائم بأمر العسكر بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ما يسافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قد قصر فى شئ مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه". (٣)

٤ - " من وقع حمله أو قوسه أو أى شئ من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه . فان لم ينزل ولم يناوله قتل". (٤)

قوانين أخرى :

كان من الأمور التى شغلت تفكير جنكيز خان اثناء تقنين الياسا عدم الخذلان أثناء الحرب ورعاية الجرحى وطريقة الانسحاب وتنظيم نهب الأعداء وتحديد نسبة الغنائم، ولذلك احتوت الياسا على ما يلى :

١ - "يحذر المحارب" الجندى" أن يخذل رفقاءه من رجال العشرة.
٢ - كمايحذر رجال العشرة أن يتخلوا عن جريح منهم ويتركوه خلفهم.
٣ - يمنع انسحاب أو تراجع أى محارب قبل تراجع العلم من المعركة. ( )
٤ - يعاقب بالاعدام كل من يحاول القيام بنهب أموال الأعداء قبل صدور الأوامر بذلك.
٥ - يقرر للجندى من الغنائم مثل ما للضباط بعد أن تؤخذ حصة الامبراطور" ( )

هذا ولم تغفل الياسا ان هناك بعض الأشخاص قد لايمكنهم المشاركة فى الحرب أو أعمال الجندية بصورة عادية ولهذا نصت على أن الشخص الذى لايساهم فى الحرب عليه أن يؤدى خدمة أخرى للامبراطور مجانا لمدة من الزمن". (٧)

عموما فان قوانين الياسا العسكرية ظلت محترمة جدا لدى المغول حتى بعد وفاة جنكيزخان فلقد أوصى الخاقان الاعظم أخاه هولاكو المتوجه الى غزو ايران وقلاع الاسماعيلية

(١) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٦
(٢) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٢ والمقريزى ،الخطط جـ٢ ص ٢٢٠
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠، القلقشندى، صبح الاعشى جـ ٤ ص ٣١٢
(٥) د. هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ٥٦
(٦) د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤
(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥

وبغداد فى سنة ٦٤٩ هـ قال" انى موصيك بمقتضى ياسا جنكيزخان فى كليات الأمـــــور وجزئيتها ، نفذ تعاليم جنكيزخان بحذافيرها ولا تتهاون بها". (١)

ونهض هولاكو بالتنفيذ أحسن مايكون وزيادة فكان وكانت الياسا وبالا على كـــل من صادفه.

تنصيب القيادات العسكرية :

القائد عصب الجيش ومبعث القوة الكامنة فيه وبقدر ما يتمتع هذا القائد من مواصفات خاصة تكون له السيطرة على جيشه والقدرة على تحريكه فى يسر وسلاسة الى الاتجـــاه السليم فى الوقت المناسب والمكان الملائم بما يضمن له تحقيق النصر أو الافلات من الهزيمــة

ومواصفات القيادة كثيرة منها ، الموهبة ، الحنكة ، الذكاء ، وسرعة البديهة ، الشجاعة ، الصبر ، الثقة بالنفس .

وينبغى أن تجتمع هذه المواصفات كلها اومعظمها فى القائد الناجح لانه العقل المدبـر واختلال أى جزء فيه سيؤثر حتما على متطلبات المعركة وعلى موازين تحقيق النصر فيها .

وفى الحقيقة كان جنكيزخان يتمتع بكافة مواصفات القائد البارع فقد مكنته براعته رغـم صغر سنه من جمع شمل أسرته واجتياز محنة البؤس والشقاء واستعادة السيطرة على قبيلته التى أنكرته عقب وفاة ابيه بيسوكاى بهادر مسموما على أيدى أعدائه من التتار .

وبالطبع اختص جنكيزخان نفسه بمنصب القائد الأعلى لجميع جيوش المغول وظـــل محتفظا بهذا المنصب حتى وفاته عام ٦٢٤هـ .

وقد قسم جنكيز خان جيشه الى أقسام متدرجة وجعل مناصب القيادة على النحو التالى :

١ ــ النوايان : وهو قائد (التومان) الذى يبلغ عشرة الاف .
٢ ــ بيكباشى : وهو قائد (المنجان) الذى يبلغ الف رجل .
٣ ــ يوزباشى : وهو قائد (الدن) الذى يبلغ مائة رجل .
٤ ــ نياشــى : وهو قائد (الاريان) الذى يبلغ عشر رجال .

ومنع أن يتصل قائد التومان (النوايان) بآخر مثله وليس له أمر على الغير كمـــا أنه يجب أن تراعى مسألة التسلسل فى القيادة فالنفر لايراجع الا آمره وهكذا من فوقه علـــى مراتبهم". (٢)

وبالطبع كان جنكيزخان يهدف من وراء ذلك كله حفظ النظام فى جيشه ومنع تداخـل الاختصاصات وكذا حفظ مكانة القيادات وهيبتها . وفوق هذا كله يبقى هو وحده مركز الاتصال والسيطرة فتظل الامور كلها بيديه .

كذلك رأى جنكيز خان بثاقب بصيرته أن معيار اختيار القيادات العسكريـــة فعزل القواد الذين تولوا بمنطق الوراثة وحدها دون غيرها من مواصفات القيادة المهمة وعيــن

---

(١) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ مجلد ٢ جـ ٢ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧
(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ١٣٣ .

قوادا جددا " وقرر أن الترقية ستكون قاصرة على من يكون جديرا بها عن كفاية أودراية" (١)

على أن جنكيز خان كان يرى من ناحية أخرى أن هذه المناصب لا ينبغــى أن تترك للعامة من الشعب وانما تكون مقصورة على العائلات الارستقراطية (٢) وعلى من يختـاره هو من حرسه الخاص وكان يهدف من ذلك الى أن يكون قادة الجيش معروفين لديه شخصيا مالم يكونوا من أبنائه أو أقاربه.

ولكى تكون سيطرته على القواد كاملة فقد نص جنكيزخان فى الياسا "أن يأتى اليـه كل القواد فى كل عام على اختلاف مراتبهم فيواجهونه ويتلقون منه الأوامر ويصغون الى نصحه لأن من فعل ذلك تمكن أن يصير قائدا لجيش عظيم ومن لم يفعل فلا يصلح بعد للقيادة" (٣)

وفى الحقيقة كان هذا القوريلتاى العسكرى فرصة عظيمة لكى يكون الجميع على معرفة بما يجرى فى مختلف أرجاء الامبراطورية من ناحية ولكى يتم علاج نواحى القصور أو الخلـــل العسكرى من ناحية أخرى كما يجرى تعيين بعض القواد أوعزل البعض الآخر.

على أن تعيين القادة أو تكليفهم كان يتم احيانا دون عقد اجتماع "قوريلتاى" فمثـلا قرر جنكيزخان قبل الهجوم الرئيسى على الدولة الخوارزمية أن تكون القيادة العليا على سائـر الجيوش للقائد المحنك "برغوى نويون" أما مقدمة الجيوش فقد جعلت قيادتها لاثنين من القـواد "جيبى نويون" و وكان هذا التعيين فى ميدان الحرب ". (٤)

المناصب العليـــا :

كانت الرتبة العسكرية الأعلى السائدة فى أول الأمر هى رتبة (النوايان) وهو الـذى يقود (التوامان) أى العشرة آلاف. وكان هوءلاء يخضعون لقيادة الخان مباشرة باعتباره القائـد الأعلى للجيش ، فلما اتسع الغزو وتعددت جبهات القتال زادت اعداد الجيوش وزادت معهــا أعداد القيادات ومن هنا ظهرت رتبا أعلى .

(أ) الطرخـــان :

وقد منح جنكيزخان هذه الرتبة للضباط الذين خدموه بأمانة واخلاص وعلى رأسهـم "شيبه نويون" ، "سابوداى" فقد كرمهما ورفع من شأنهما ومنحهما رتبا أعلى من زملائهـــم فجعلها (طرخانات) .

والطرخان يكون فى العادة قائدا عاما لجيش يتراوح بين ثلاثين ألف أو أكثر قليـلا أى يخضع لقيادته ثلاثة قواد من (النوايان) او أربعة.

"وقد حظى الطرخانات بالعديد من المزايا فقد كان" لهم مطلق الحرية فى اختيار الاراضى التى يرغبون فى امتلاكها حيث شاءوا كما كان لهم أيضا أن ينتقوا أى نخبة من الأسرى

---

(١) د. جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٥٣

(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٥

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٣٢

(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٢٨.

أوالغنائم التى يحصلون عليها ويعفون كذلك من جميع أنواع الضرائب" (١) وزاد لهم جنكيزخان ان يدخلوا على الخان بغير استئذان ولايعاقبوا على ذنب الى تسعة ذنوب" (٢) كما كانوا يقدمون فى الحفلات ويتناول كل منهم كأسا من الشراب من يد الخان نفسه". (٣)

(ب) **الالغ نوايان :**

وهى أعلى الرتب العسكرية التى ظهرت فى عهد جنكيزخان واستمرت بعده وأول من حصل عليها تولوى بن جنكيزخان والذى كان يلقب أيضا" أمير الحرب" نظرا لخبرته العسكرية ومهارته الفائقة وكانت تحت أمرته ١٠١,٠٠٠ مقاتل أى أكثر من مائة ألف مقاتل وهى أعظم الفرق عند المغول" التوك" (٤) وتعنى كلمة" الالغ نوايان" الأمير الكبير وليس هناك سلطة تعلوه الا سلطة الخان نفسه .

هذا وقد ظلت هذه القواعد معمولا بها الى فترة متأخرة حتى ان تيمور لنك قد احتفظ بكل أمانة بمختلف القوانين العسكرية المغولية من عهد جنكيز خان بما فى ذلك الرتب العسكرية وتسمياتها" . (٥)

المستشارون العسكريون :

لم تكن الحروب القبلية التى خاضها جنكيزخان ضد خصومه فى منغوليا تخرج عن طبيعة حروب البدو التى كانت تعتمد على نظام الكر والفر كالاغارة السريعة الخاطفة والارتداد المنظم. وكلها أمور كان المغول يجيدونها تماما ، وكان الخان يجمع قواده قبل الغزو فيرسمون خطة المعركة ثم ينهضون للتنفيذ وهكذا.

فلما اتسعت حركة الغزو وانساحت جيوش المغول فى كثير من الانحاء أصبح الخان الأعظم فى حاجة الى مستشارين عسكريين أكفاء اذ أن طبيعة الحروب قد بدأت تختلف عن ذى قبل . وفى حياة جنكيزخان كان ابنه الأصغر (تولوى) امير الحرب يباشر شئون القتال واعداد الجيوش ومن ثم فقد حصل على أعلى الرتب العسكرية وهى رتبة (الالغ نوايان) وعليه فقد أصبح مستشارى والده جنكيزخان". (٦)

أما بقية المستشارين العسكرية فكانوا عبارة عن هيئة عليامكونة من (الطرخانات) الذين كان عليهم المواظبة على حضور القوريلتاى السنوى العسكرى وأن يكونوا دائما تحت نصر الخان ورهن اشارته.

وبالاضافة الى ذلك اعتمد المغول على المستشارين الصينيين والايرانيين الذين أفادوهم كثيرا فيما يتعلق بالتغلب على الأسوار والحصون القوية وكلها أمور لم يكن للمغول خبرة كبيرة فيها.

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٢٣، ٦٩
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٥
(٣) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٨
(٤) د. بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٦٥
(٥) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ٢٧٥
(٦) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٠١

ومن غير العسكريين كان هناك تجار القوافل الذين يتحركون على الطرق الرئيسة فقد كانوا – كما يقول بارتولد – مستشارى جنكيز خان الاول وعاونوه معاونة كبيرة فى محاربة العالم الاسلامى .. (١)

على أن أشهر مستشارى قوبيلاى قا آن من غير المغول كان التاجر النابه ماركوبولو. "فقد كان المغول يوكلون اليه حكم بعض اقاليم دولتهم كما كانوا يضعونه على رأس جيوشهم الغازية فى بعض المناسبات. (٢)

وهكذا .. فان المغول رغم خبرتهم العسكرية وعنصريتهم لم يترددوا فى اتخاذ المستشارين العسكريين من بين أبناء الشعوب الاخرى طالما وجدوا أن ذلك يعود عليهم فى نهاية المطاف بالنفع العام.

المعسكرات

كانت حياة المغول عسكرية فى المقام الأول وكانت الخيمة (اليورت) مسكنهم الرئيسى ومن مجموع تلك الخيام يتكون المعسكر العام للقبيلة (الاوردو) ويتحرك هذا المعسكر وفقا لما تقتضيه ظروف المناخ أو المرعى.

وكان المعسكر يقام – فى الغالب – على أدق نظام فخيمة الخان هى مركز الدائرة فى المعسكر وهى أكبر الخيام وأعلاها وتحيط بها خيام عائلته ثم المقربين من الأمراء والقواد وكان لكل عشيرة مكانها الخاص تضع فيه خيامها وعرباتها .. وفى مكان خاص وتحت حراسة مشددة كانت هناك خيمة السلاح الذى يستخدم فقط عند الحرب أو الصيد.

ولقد بلغت هذه المعسكرات أحيانا حجما كبيرا كان يتراءى عن بعد" فقد كان المغول يبنون سورا حول معسكراتهم يمتد فى بعض الأحيان الى عدة أميال ويعملون عليه أبراجا يلجأون اليها عند القتال ويحفرون الخنادق حول السور الى عشرة أذرع". (٣)

" وفى داخل المعسكر تشعل النيران بالزناد وتضرم بالمنافخ وتغذى بالأعشاب والأشواك والجذور وعادة ماكان يحلق فوق المعسكر أسراب من الغربان وتطول حوله ليلا الذئاب والثعالب والنمور. (٤)

وكان المغول يطلقون على معسكات الصيف (بيلاق) وعلى معسكرات الشتاء (قشلاق) (٥) حيث تختلف طبيعة كل معسكر منهما عن الآخر من حيث ظروف المناخ والمكان وفترة الاقامة.

(أ) معسكرات الصيف :

يشغل الصيف فى حياة المغول فى منغوليا فترة قصيرة على امتداد العام تشتد فيها الحرارة حتى تبلغ ٦٠ درجة مئوية تقريبا وهى درجة مريعة قد لايقوى الانسان أو الحيوان

---

(١) د. بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٢٣
(٢) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦٠
(٣) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٤٩
(٤) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٦٣
(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ١٣١.

على احتمالها وبخاصة ان الشتاء الذى يأتى قبلها أو بعدها تنخفض فيه درجات الحرارة الى ما تحت الصفر بكثير جدا .

وفترة الصيف القصيرة ونتيجة لذوبان الثلوج قبلها فى أثناء الربيع القصير تحتم الاتجاه شمالا حيث تقام المعسكرات الصيفية قصيرة الأجل .

وكانت معسكرات المغول الصيف تأخذ شكلا مختلفا بعض الشئ عن المعسكرات الشتوية فالخيمة أثناء النهار تعتمد على العمود الرئيسى فيها فقط حيث تبسط فوقه المظلة العلوية ويتحرر المكان من أعباء الشتاء التقليدية . ولا يكاد يظهر الاطار الخارجى للخيمة الا ليلا أو كلما اقتضت الظروف ذلك . وهكذا يبدو المعسكر المغولى الصيفى اكثر نشاطا وحيوية .

ولقد وصف (ماركوبولو) المعسكر الصيفى الجديد الذى أقيم للخاقان الأعظم قوبيلاى بين التلال التى تقع وراء سور الصين العظيم حيث كان هناك قصر من البوص أو الغاب يبيت فيه قوبيلاى أحيانا أو يبيت فى قصر آخر حتى اذا ما انتهى فصل الصيف فى شهر أغسطس هدم بيت البوص ليقام من جديد فى الربيع التالى". (١)

وفى الحقيقة كان البون شاسعا بين الحياة المترفة فى قصر قوبيلاى قا آن أو فى معسكراته الصيفية وبين شظف العيش والأخطار فى المعسكرات المغولية القديمة ، فقد كان يقام الى جانب المعسكر الامبراطورى الذى يضم المظال التى لاتحصى لأهل المقامات وعائلاتهم معسكر خاص بزوجات الخان له خدامه ومراعيه الخاصة وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى وهى أنفس المظال اطلاقا مظلة اخرى يستخدمها الامبراطور مسكنا له ويحرس مدخلها باستمرار أسياد من المراتب الرفيعة". (٢)

(ب) معسكرات الشتـاء :

كان الشتاء لدى المغول – كما ذكرت – غاية فى القسوة حيث تهب رياح الشمال العاتية فتجتاح منغوليا حاملة معها الأعاصير الثلجية والرعد والبرق ولذا كان المغول اذا ماهبت العواصف يتدثرون بأغطية ثقيلة من اللباد تحميهم أما اذا دعت الحاجة فقد كانوا يلجأون الى خيامهم الجلدية ذات القباب ليحتموا من الرياح العاصفة والبرد القارس. (٣)

وكان المغول يختارون أماكن معسكراتهم الشتوية فى أكثر المناطق دفئا وعادة مايكون ذلك فى اتجاه الجنوب حيث يجعلون باب معسكرهم فى نفس الاتجاه .

وعندما انساح المغول خارج منغوليا للغزو وعلى الرغم من أنهم صادفوا أجواء مختلفة كان بعضها شديد الحرارة ،كما هو الحال عند نهر السند كما كان بعضها شديد البرودة كما فى شمال شرق أوربا غير أنهم ظلوا محافظين على عادتهم بأن يكون أكثر المناطق دفئا حولهم مكانا لاقامة معسكر الشتاء والعكس صحيح ، ففى عام ٦١٧هـ – ١٢٢٠م كان أول ظهور

---

(١) جون.أ.هامرتن : تاريخ العالم ،جـ٥ ص ٢٤٥

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٢

(٣) د. هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٣٩

جحافل المغول فى أذربيجان وأرمنية وكان شتاء ذلك العام قد أقبل مبكرا والمغول يقاتلون فى همذان وبلاد الجبل فلما انتهوا من هذين الاقليمين ارادوا اللجوء الى مناطق أكثر دفئا ليقضوا فيها فصل الشتاء وحيث كانت اذربيجان قريبة منهم فقد آثروا دخولها والتوجه شمالا حتى بحر الخزر ليقضوا على شواطئه الدافئة فصل الشتاء." (١)

وفى سنة ٦٥٣ هـ وصل رسول بايجو نوايان الى السلطان عز الدين يطلب منه مكانا ليمضى الشتاء فيه لأن بلد (موغان) الذى كان مشتى له صار مشتى لهولاكو". (٢)

وكان هولاكو قد استغرق عامين منذ خروجه من منغوليا متوجها لغزو قلاع الاسماعيلية اقيمت له خلالها المعسكرات الفخمة واستمتع بالوان عديدة من الطرب واللهو فقد حرص كل من الأمير مسعود بك الحاكم الادارى للتركستان وبلاد ما وراء النهر والأميرة (أورغنه) الوصية على العرش والأمير أرغون أغا الاويراتى حاكم ايران وما حولها فى اتجاه الشمال والغرب على تقديم كل فروض الولاء والطاعة واظهار آيات الترحيب والسرور.

وبالطبع كانت اقامة المغول لمعسكراتهم مكلفة بل باهظة التكاليف " ففى سنة ٦٧٥ نزل أباقا بن هولاكو بغداد ليشتى بها فصار بها غلاء عظيم ومجاعة وعزت الاسعار" (٣) وفى سنة ٦٧٩ رحل المغول عن حلب عائدين الى بلادهم بما أخذوه وتفرقوا فى مشاتبهم". (٤)

(جـ) معسكرات أخرى :

وتلك كانت معسكرات دائمة لا ترتبط بالصيف أوالشتاء ومنها :

١ — معسكرات البريد :

وكانت تعتبر مراكز تجمع لسعاة البريد ورسل الخان الذين يركبون الخيل السريعة كما أنها كانت مراكز استطلاع واستكشاف ورصد لاية تحركات عسكرية معادية". فقد كان على رأس كل مرحلة بريديةمعسكر دائم به بضع من الخيل ومعها عدد من الفرسان لحراستها وجماعة من الغلمان للخدمة فضلا عن وجود خيام فى المعسكر لايواء النازلين". (٥)

وبالطبع كانت هذه المعسكرات تقع على الطرق الأساسية فى آسيا وتتصل فيما بينها برباط وثيق يربطها معا.

٢ — معسكرات حماية التجارة :

كان المغول يدركون تماما أهمية التجارة ومكانة التجار ولهذا بادروا الى حماية الطرق التجارية فأقاموا المعسكرات الخاصة بتحقيق الامن ومقاومة اللصوص وقطاع الطرق وزودوا تلك المعسكرات بحراس من قبلهم وأمروهم بحراسة التجار الاجانب ومرافقتهم حتى يصلوا سالمين الى معسكرات المغول". (٦)

---

(١) أديب السيد : أرمنية فى التاريخ العربى ص ٢٣٣
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٦٢
(٣) المرجع السابق نفسه ،ص ٥٠٠
(٤) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٣ ص ٦٨٢
(٥) د. ابراهيم العدوى: المغول والتتار ص ٣٨
(٦) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٥٠ نقلا عن الجوينى،تاريخ جهانكشاى جـ١ ص ٦٠

وهكذا ظلت المعسكرات على اختلافها تمثل مراكز تجمع المغول سواء فى السلم أو فى الحرب وان كانت السمة العسكرية هى الغالبة عليها دائما .

التدريب العسكرى

لا يستطيع جيش عسكرى قوى ان يغفل صورة من الصور جانب التدريب العسكرى المنتظم لأنه الوسيلة المثلى للحفاظ على الكفاءة العالية للمعدات والأفراد معا . كما أنه يمكن الجيش الوصول بسرعة الى حالة التأهب القصوى تحت أية ظروف.

ولقد كان جنكيز خان يدرك ذلك تماما ومن هنا كان اصراره العنيد على ضرورة مواصلة التدريب العسكرى لانه سيحفظ له التفوق الدائم على تلك الجيوش الضخمة من حوله والتى أغفلت جانب التدريب مغترة بأدوات الحرب واعداد الجند التى لاتحصى.

وسائل التدريب العسكرى :

(أ) الصيد العام :

كانت فترة الصيد العام تمثل وقتا ممتازا للتدريب العسكرى وعادة يكون ذلك عند الفراغ من الحرب او فى فصل الشتاء حيث اتضح أن" المغول كانوا يطبقون فى الحروب أساليب اطباق فرسانهم حول أعدائهم من البشر تماما كما كانوا يفعلون مع حيوانات الصيد" (١)

وفى الحقيقة كان ما يجرى فى شتاء كل سنة من حملات الصيد اللازمة لمد الجيش والبلاط باللحوم هو نفسه أسلوب المناورات المطلوبة للابقاء على تدريب العساكر" (٢)

ولذا كان جنكيزخان يوصى أولاده بالصيد والقنص ومطارده الوحوش فترة توقف القتال لانه كان يريدهم أن يكونوا فى تمرين دائم لاينقطع". (٣)

ومن خلال هذا المفهوم كان الجندى المغولى فى وقت السلم يدرب نفسه على ما سيقوم به فى وقت الحرب فيعد الات القتال ويتدرب على استعمالها ، فى صيد الحيوانات والطيور (٤) ، وكان الأطفال والنساء يشاركون الرجال فى ذلك كله.

وجدير بالذكر أن الجندى الذى كان يخطئ أثناء التدريب فى حملات الصيد كان يعاقب بشدة حسب نوع الخطأ الذى يقع فيه وخصوصا فيما يتعلق بمهارة الرمى بالنبال أو مطاردة الحيوان.

(ب) مباريات المصارعة :

المصارعة أحد فنون الرياضة البدنية التى تمتاز بالعنف والمناورة وسرعة الحركة وتحتاج الى مهارات عديدة منها قوة الجسم وسرعة البديهة وارتفاع اللياقة البدنية بوجه عام .

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص ١٢٧
(٢) د. ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤١٧
(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٢٨
(٤) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٤

"وقد كان المغول مغرمين بالمصارعة وكانوا يجدون لذة فى ممارستها ومشاهدة مبارياتها والتى كانت تنتهى عادة بدق عظام المصارعين جزافا". (١)

ولقد بلغ من شدة ولع المغول بالمصارعة أنهم كانوا "يصطحبون معهم فى أثناء حملاتهم طائفة من هؤلاء المصارعين وكانوايستدعون أيضا مهرة المصارعين من أقاليم الخطا والقبجاق ولما استولوا على اقاليم ما وراء النهر وايران حملوا معهم الى منغوليا الممتازين فى هذا الفن". (٢)

وبالطبع كانت توكل الى هؤلاء المصارعين الاشداء الذين أحسن تدريبهم مهام خاصة تتطلب مهارة عالية وقدرات مميزة .

(جـ) ركوب الخيل والمبارزة :

كان المغول ـ يجيدون ركوب الخيل منذ نعومة أظفارهم ومهارتهم فى ذلك الفن الرياضى منحتهم التفوق على كثير عصرهم بل وكانت أبرز عوامل تحقيق النصر فى المعارك الحربية ورغم ذلك كانت سباقات الخيل بينهم فى أوقات الفراغ لا تكاد تنقطع فكانوا يتبارون فيما بينهم الى مسافات كبيرة تمتد الى عشرين ميلا فى الفلاة ذهابا وايابا". (٣)

وكانت مهارة المبارزة براعة تظهر مدى القدرة على الجمع بين الفنون السابقة كلها فالجندى المغولى صائد ماهر ومصارع قوى يجيد ركوب الخيل ويتقن كافة فنون الطعن والمناورة ورغم ذلك كله هو دائم التدريب .. ومن هنا فالنصر مرهون بركابه.

فلما مر الوقت واغتر المغول بالنصر وتركوا مواصلة التدريب لغيرهم من الجيوش كان فى ذلك بداية النهاية لعصر تفوقهم العسكرى.

التموين العسكرى

يعتبر التموين العسكرى عنصرا مهما من عناصر نجاح الجيش فى أداء مختلف المهام التى يكلف بها . والقيادة الناجحة لايمكن أن تغفل هذه القاعدة مطلقا وعلى هذا فمن أدق واجباتها أن تخطط مسبقا وبدقة حتى يكون التموين العسكرى متوفرا بصورة دائمة .

ولما كانت البيئة المغولية فقيرة مقفرة فقد كان التموين ـ فى بداية الأمر يتم بصورة ذاتية" فقد كان فرسان المغول يحملون طعامهم معهم وهو عبارة عن لحم مجفف ولبن خائر يمكن أن يذوب فى الماء". (٤)

وبالطبع كان هذا الطعام البسيط يكفى بصفة مؤقتة ولهذا كان الجندى المغولى يحمل معه اناء كبيرا لطهى الطرائد قد يقتنصها فى الطريق ويعلق هذا كله بسرج حصانه". (٥)

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٠، ١٤

(٢) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٤٩

(٣) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩

(٤) المصدر السابق نفسه ،ص ٩٩

(٥) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٤

لكن الأمر لم يعد يقتصر على الحروب القبلية التى تتسم بالسرعة وقصر فترة الاشتباك اذ اتسعت حركة الغزو وتدفقت جيوش المغول خارج منغوليا والتحمت بجيوش تتمتع بميزة التموين الممتاز لانها تعتمد على بيئات زراعية غنية تمدها بكل ما تحتاج اليه وعلى هنا فقد أخذ المغول يلحقون بجيوشهم الزاحفة عربات المؤونة التى تجرها الثيران وكذلك الأبقار والأفراس هذا بالاضافة الى أن كل فرد من أفراد الجيش كان يأخذ معه مؤونة صغيرة من الجبن واللحم" (١)

وحتى ذلك الوقت لم يكن تموين الجيش المغولى يعتمد الا على نتاج قطعان الحيوان المختلفة فى منغوليا أى أنه كان لايزال تموينا ذاتيا ورغم ذلك كان جنكيز خان شديد العناية بأمور التموين فى جيشه فكان لايتوانى عن أن يمد جنوده وقواده بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس ومشرب وبدرجة جيدة مستمرة تشبه الى حد كبير مايتبع فى الجيوش المعاصرة" (٢)

فلما سقطت الصين الشمالية فى أيدى المغول سنة٦١٢ هـ أصبحت مركزا مهما من مراكزتموين الجيش المغولى بمختلف ما يحتاج اليه من المؤن بما فى ذلك القمح الذى عرف المغول لأول مرة كيف يستخدمونه كغذاء .

وعلى هذا لم تكن هناك مشكلة تموينية يعانى منها المغول أثناء بدء الهجوم على جيوش السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد فقد كانت تحت أيديهم المؤن التى جلبت من الصين ومن حوض نهر تاريم وبقية ممتلكات الخطائيين فى التركستان لهذا الغرض .

وبعد انهيار الدولة الخوارزمية " أضحت ممالك المغول متسعة وجيوشهم ورسلهم تذرع البلاد ذهابا وجيئة فبادر جنكيز خان الى اقامة مراكز على مفارق الطرق الرئيسة للتزود منها بكل مايلزم من مأكل ومشرب وعلف للدواب". (٣)

وبالطبع أصبحت مسئولية تموين هذه المراكز تقع على عاتق حكام الاقاليم الخاضعين للمغول والذين لم يدخروا وسعا فى ارضاء ساداتهم "وعلى هذا فقبل أن يسير هولاكو الى ايران عهد المغول الى حكام الولايات التى سيجتازها بأن يعدوا المأكل والمشرب للجنود". (٤)

ولقد أشرت سلفا الى تسابق كل من الأميرة (أورغنة) الوصية على عرش التركستان آنذاك والأمير مسعود بك الحاكم الادارى لبلاد ما وراء النهر وكذلك الأمير أرغون أغا الاويراتى الى تلبية كل ما يحتاج اليه هولاكو وجيشه.. وعلى هذا فخطاب التهديد الذى أرسله هولاكو الى الملوك والامراء فى ايران قبل مهاجمة قلاع الاسماعيلية أشار فيه الى الامداد بالرجال والات الحرب ولم يشر مطلقا الى التموين.

عموما. فان الدلائل كلها تؤكد على اهتمام المغول بضرورة توفير التموين المستمر لجيوشهم فى أى مكان حلت فيه وبكل وسيلة ممكنة ولو اضطروا الى فرض ضرائب جديدة أو انتزاع الممتلكات من أصحابها قسرا وبدون وجه حق .

---

(١) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٣
(٢) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٧
(٣) د.فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٦٠
(٤) حسن الامين: الغزو المغولى ص ١٠٨

التخطيط للحرب

كانت اغارات البدو التى درج عليها المغول منذ القدم لا تحتاج الى تخطيط عسكرى دقيق فهى لا تكاد تخرج عن نظام الكر والفر مما جعلها بحكم التكرار شيئا عاديا لا أثر لاعمال الفكر فيه فعندما يستصرخهم يلبونه مسرعين الى الخيل والسلاح .. وهكذا تباعا .

لكن جنكيز خان لم يكن محاربا عاديا فقد كان يتمتع بمواصفات القائد الفذ"ولم تكن أميته بمانعة أن يكون عبقريا فى الحرب" (١) فقد كان يملك حدسا عسكريا لم يتوفر لأى قائد معاصر له — وعلى هذا فحروبه مع القبائل المغولية أو التركية فى منغوليا لم تكن تهدف الى الانتقام أو جمع الغنائم والاسلاب فحسب . فقد كان يسعى الى تكوين مملكة لم يسبقه الى اقامتها زعيم مغولى قط .

ولعله من الظلم أن نرجع انتصارات جنكيز خان الى كثرة عدد رجاله أو حسن الحظ الذى صادفه أو الرعب الذى أوقعه فى نفوس أعدائه . فالحق أن الرجل كان يحسن التخطيط لكل شئ وكان حريصا على معرفة كافة نقاط القوة والضعف عند الخصوم قبل الاشتباك معهم فى الحرب ، وكان جهازه الاستطلاعى من البراعة وسرعة الانتشار والتخفى بما يكفى لكى يمده بأفضل المعلومات العسكرية والاقتصادية والسياسية التى يرغب فيها .

ومعظم الخطط المغولية فى عهد جنكيز خان كان من ابتكاره" حتى لقد رأى بعض المؤرخين أن جنكيزخان لم يكن يتولى القيادة بنفسه فى أغلب معاركه وانما كان يكتفى بوضع الخطط وتلقى الانباء واصدار الأوامر" . (٢)

وعلى افتراض صحة هذا — وهو بالتأكيد غير صحيح — فانه يؤكد مدى براعة جنكيزخان فى خطط الحرب فالمعارك التى خاضها المغول فى أيامه كللت دائما بالنصر لكن الأصح هو أن جنكيز خان كان يخطط للحرب ويشترك فيها فلقد ظل الرجل قوى البنية متماسك العافية حتى السنوات الاخيرة من حياته التى امتدت الى مابعد السبعين حتى أنه توفى فى أثناء الهجوم على قبائل التانجوت .

أما الكيفية التى كان المغول يضعون من خلالها خططهم العسكرية فتتلخص فى أن جنكيزخان اذا ما اختمرت الخطة فى ذهنه وتبلورت دعا اليه قواده فاجتمعوا فى مجلس الحرب بسرعة اذا كانت الظروف ضرورية او ملحة . أوالقوريلتاى السنوى حيث كانت تعرض الخطة العسكرية على بساط البحث فيشترك جميع القواد فى المناقشة بحرية تامة (٣) وقد تطول المناقشة والدراسة لمدة أيام وربما أسابيع حيث كان الجميع يقلبون احتمالاتها ويقدرون نتائجها حتى تتضح الخطة تماما وتصل الى أحسن حالاتها (٤) . ومن ثم اتصفت خطط المغول الحربية بالدقة والاحكام لانها درست باستفاضة واعتمدت على أدق المعلومات .

وفى الحقيقة كان المغول بارعين فى التكنيك الحربى بطريقة لم تكن تعرفها بقية الجيوش التى اصطدم بها المغول فى ذلك العصر" . (٥)

---

(١) الكاتب الصينى . ف .يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٦٤

(٢) السيد فرج : تيمورلنك قاهر العالم ص ١٦

(٣) د. ابراهيم العدوى :العرب والتتار ص ٣٩

(٤) السيد فرج: تيمورلنك قاهر العالم ،ص ١٧

(٥) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: اوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٤

وكانت الخطط تحاط بسرية تامة ـ كما كان تنفيذها يتم بأسرع ما يكون ونستطيع أن نقدر من تطبيق خطة هجوم المغول على أملاك الدولة الخوارزمية ان الجيوش المغولية كانت تتحرك على عدة محاور متوازنة وعن فهم دقيق لجغرافية المكان ومعرفة بتوزيع القوات الخوارزمية على المدن المختلفة كاترار وبخارى وسمرقند. فى الوقت الذى كان السلطان الخوارزمى الحائر المروع فى حالة انعدام وزن خطيرة وبدلا من أن يواجه المغول بجيش قوى موحد فرق جنده فى كل ناحية فأتاح فرصة سانحة لظهور العصبيات المحلية والانقسامات الحادة فى الرأى والهوى .

وكان جنكيزخان قد نجح قبل ذلك كله فى واحد من أروع أعماله العسكرية عندما نجح جنوده فى اقتحام سور الصين العظيم واستولوا على بكين عاصمة الامبراطور الذهبى فى شمال الصين .

ولقد ضرب جنكيزخان مثلا رائعا عندمافشل أحد قواده مرة أمام جلال الدين منكبرتى فصحبه بنفسه الى ميدان المعركة وشرح له خطة عدوه وبين له كيف يمكن التغلب عليه فى المرة القادمة .

وفى عهد اوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٦ ـ ٦٣٩ هـ) كانت الخطط الحربية التى نفذتها جيوش المغول فى شرق أوربا من الروعة والاتقان بحيث لم يخسر المغول معركة واحدة رغم اختلاف المناخ والتضاريس فقد كانت الخطط تنفذ فى وقتها المحدد بالضبط وبتلقائية فعالة متقنة تتجاوز تماما طاقة أى جيش اوربى فى ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربى ولم يكن فى أوربا قائد واحد وفى مقدمتهم فردريك الثانى الا يعد غمرا قليل الدربة فى الخطط الحربية بالقياس الى سابوداى القائد المغولى الشهير". (١)

فلا غرو أن نقول ان المغول لم يعتمدوا على كثافتهم العددية فى الحرب وانما كان مبعث قوتهم ـ بالاضافة الى عناصر أخرى ـ براعة خططهم الحربية.

محاولات استكشاف الغيب قبل الحرب

كان المغول قد درجوا على أن يلجأوا الى رجال الدين الشامان فيأخذون موافقتهم قبل ان يجمعوا جيشا أو يدخلوا حربا" وكان هوءلاء يعتمدون فيما يدلون به من آراء على شكل الخطوط والشقوق التى تظهر على عظام اكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون أصلح الحيوانات لهذا الغرض الاغنام والوعول وبخاصة اذا كانت ستقدم كقرابين للالهة. (٢)

وكانت هذه الاشكال اوالشقوق تصل بهم الى نتيجة عامة هى اتخاذ قرار الحرب أو الامتناع عنها .

---

(١) هـ.جـ. ويلز : موجز تاريخ العالم ص ٢٣٨

(٢) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٥٧ ، ص ٥٨.

وعندما اتصل المغول بالشعوب الاخرى المجاورة ووجدا لديهم رجال متخصصين فى الفلك والتنجيم تركوا مسألة استشارة رجال الدين الشامان " وغدا الخان هو الذى يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأى منجميه". (١)

على أن أشهر حادثة استرشد فيها المغول برأى الفلكيين كانت قبيل غزو بغداد فقد استدعى هولاكو الفلكى حسام الدين الذى كان مصاحبا له بأمر الخان الاعظم منكو ليوضح له الاحتمالات والنتائج فحاول هذا أن يثنى هولاكو عن عزمه فكان كما قاله : ستظهر ستة أنواع من الفساد أولها أن تنفق الخيول كلها، ويمرض الجند، وثانيها ان الشمس لاتطلع، وثالثها أن المطر لاينزل ،ورابعها: تهب ريح صرصر، وينهار العالم بالزلزال، وخامسها لا ينبت النبات فى الأرض ، وسادسها أن الخان الأعظم يموت فى تلك السنة. (٢)

وبالطبع لم يكن هذا كله ليرضى هولاكو أو أمراء المغول المتلهفين على الغزو وخصوصا ان الكهان البوذيين المصاحبين لهولاكو ــ ولا شك ــ قد عارضوا تنبوءات حسام الدين الذى كان فيما يبدو يحب الخير للمسلمين والخليفة ويتضح ذلك بالمقارنة مع موقف نصير الدين الطوسى وهو شيعى كان يكره الخليفة العباسى لاختلافه عنه فى المذهب" ولانه كان قد جاء مرة الى بغداد وقدم اليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها". (٣)

أى أن الأمر لم يكن مجرد الخوف من هولاكو أو الرغبة فى الافلات من عقابه والدليل أن نصير الدين الطوسى أخذ يفند رأى حسام الدين بأدلة تاريخية وبراهين من التاريخ الاسلامى فكان مماقاله" لقد استشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق آراء الجمهور وأهل الاسلام ولم يحدث فساد قط ولو قيل ان للعباسيين مكرمة خاصة بهم فان طاهرا جاء من خراسان بأمر المأمون وقتل أخاه محمد الامين وقتل المتوكل ابنه بالاتفاق مع الامراء كذلك قتل الامراء والغلمان المنتصر وا لمعتز وقتلعدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص فلم تختل الامور". (٤)

فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة ويعمل على سقوطه لاكتفى بالقول بنجاح مشروع غزو بغداد دون أن يفند أقوال حسام الدين". (٥)

أيا كان الامر فقد دفع حسام الدين حياته ثمنا لموقفه هذا اذ مر عام كامل ولم يمت بعد الخاقان الاعظم منكو فثبت عليه تهمة موالاة العباسيين وأمر هولاكو بقتله. أما نصير الدين فقد وكلت اليه مهام السفارة الى الخليفة العباسى المستعصم بعد أن أحاطت جيوش المغول ببغداد وشرعت فى مهاجمتها .

وفى الحقيقة كان معظم خانات المغول وأمراؤهم مولعين باستطلاع آراء المنجمين ومكافآتهم خيرا وشرا". وقد اتفق ان شخصا هرب من عسكر (براق) وأتى الى (اباقا)،

---

(١) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ص ٣٧٤
(٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٧٩
(٣) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ١٢٦
(٤) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٨٠
(٥) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ١٢٧

وكان خبيرا بالتنجيم فى لوح كتف الغنم فوصل الى أباقا وعرفه سبب هروبه اليه أنـــــه رأى بتنجيمه أن أباقا يضرب مصافا مع براق ويكسره ٠٠ فقال له(أباقا) ان صح ذلك أعطيتـــــك قرية تعيش فيها أنت وجميع أهلك". (١)

نظم التجسس والاستطلاع

واحدة من كبرى مفاتيح النصر التى أحسن المغول استعمالها ببراعة وتميزوا فيهـــا على غيرهم الذين لم ترق أجهزتهم فى هذا المضمار الى مستوى براعةواحكام المغول.

وتعتبر فكرة التجسس والاستطلاع فى الاصل من صنع البيئة فقد نشأ المغول بين براثن بيئة قاسية جعلت حياتهم رهنا للخوف والقلق فقد تفاجئهم الطبيعة بما ليس فـــى لحسبان أو يهاجمهم عدو متربص عضه الجوع أو دفعه الطمع فكانوا يرصدون هذا العـــدو اذا مارأوا غمائم الغبار ترتفع فى الأفق أو اذا ألصقوا آذانهم بالأرض". (٢)

وحتى فى موسم الصيد لم يكن المغول ليغفلوا هذا الجانب فما أن يبدأ الصيـــد حتى يرسل المغول – كما هى العادة المتبعة – بعض فرق الاستطلاع الى جميع الجهـــات ليرقبوا أية علامة لعدو يقترب". (٣)

ومع بداية الفتوحات ظهرت الكفاءة العسكرية المغولية فى الاستطلاع " فقد أصبـــح المغول يكونون جيشا جسورا يخاطر بالسير فى مسالك لم يجرؤ جيش من قبل على عبورها" (٤)

وفى الحقيقة كانت جميع الاحتياطات متخذة لتأمين سهولة تحرك الجيش وهـــــذه السهولة هى ما جعل المغول يتفوقون اعدائهم ويحدثون ثورة فى فن الحرب علـــــى عصرهم". (٥)

ومن جهة أخرى فكما كان فى استطاعة المغول استخدام كافة الطرق فقد كانوا علـــى صلة مستمرة بعضهم ببعض . كما كانوا على علم بكل ما يجرى حوالبهم (٦)

وبالطبع لم يكن هذا كله رهين الصدفة أوالارتجال فقد عمد جنكيز خان النابــــه الىهزية الاستفادة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوى الاطلاع فيما يتعلق بالشئون الاداريـــة والمخابرات التى تساعده على القيام بأعماله الحربية". (٧)

وبالاضافة الىذلك كان جنكيز خان وقواده يحصلون على معلومات هامة من التجـــار عن الاماكن التى يمكن عبور الجبال عندها والطرق التى تؤدى الى بلاد الشعوب الاخـــرى

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ١٨١
(٢) د٠ ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٦٤
(٣) د٠هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٥٦
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٩٨
(٥) د٠ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٧٤
(٦) د٠ هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٠
(٧) د٠ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٩٨

المجاورة والأوقات التى تكون فيها الحشائش صالحة للرعى هناك". (١)

على أن نظام البريد الذى أقامه المغول كان عاملا مهما من أبرز عناصر تدعيم الاتصال والاستطلاع" فحيثما قاد جنكيز خان جحافله أقام وراءه بريد الخيل السريع وكأن هذا البريد اسلاك برق أو خطوط سكك حديدية تمتد على طول الطريق من والى بلاد المغول" (٢)

واستمر المغول بعد جنكيز خان محافظين تماما على مختلف نظم الاستطلاع فقبل ان يتحرك جيش هولاكو من (قراقوم) متجها الى ايران ارسل الخاقان الاعظم منكو المرشدين فاختبروا الطريق الذى سيسلكه الجيش من العاصمة قراقوم حتى شاطىء نهر جيجون وأعتبرت جميع المزارع والمراعى منطقة محرمة (عسكرية) واقاموا الجسور على الانهار العميقة، وعلى مجارى المياه السريعة". (٣)

أعمال الجاسوسية :

كان المغول يكرهون ان يتجسس احدهم على الآخر ويعتبرون ذلك عملا شائنا يستحق أقصى العقوبة ولهذا " نصت الياسا على أن من تجسس قتل". (٤)

لكن حركة الفتح استلزمت قيام جهاز دقيق للجاسوسية ونظرا لوضوح الصفات الجسمية المميزة للشكل المغولى فان المغول لم يقوموا بالتجسس بأنفسهم فى بلاد اعدائهم ،وانما اعتمدوا دائما على ما يمكن أن نسميه "الطابور الخامس" وهم الخونة الذين قبلوا تحت ألوان من الاغراء العمل فى خدمة المغول.

وكان جواسيس جنكيزخان — كما قال محمود يلواج التاجر الجرجانى الذى كان يعمل فى خدمة المغول — اشخاص لهم مراكزهم التى تبعدهم عن الشبهات. (٥)

وهؤلاء بالطبع كانوا يشغلون وظائف مهمة فى الادارة أو الجيش فى بلادهم ، "وكانت العلامة التى تميزهم عند الحاجة عبارة عن اسطوانة من الذهب صغيرة الحجم عليها صور صقر مبسوط الجناحين وتحتها كتابة بحروف غريبة مثل أرجل النمل الزاحفة" (٦)

وكان هؤلاء يبعثون الى المغول بتقارير دورية عن كل صغيرة أو كبيرة تقع عليها أبصارهم خصوصا ما يتعلق بحالة الجيش المعادى وحصون المدن، ونقاط القوة والضعف فيها والحالة النفسية للاهالى وعلاقتهم بالحاكم وأهم مصادر الثراء لديهم .. الخ .

ولعل أصدق مثال عملى التخطيط الذى وضعه جنكيز خان للهجوم على منطقة ما وراء النهر فقد قسم جيوشه أربعة أقسام عهد الى الاولى منهم بفتح مدينة أترار والثانى بفتح

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وححافل المغول ص ٩٥
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٢٠
(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٣٥
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٨
(٥) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٤
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٧

البلاد التى تقع على ساحل نهر جيحون وخصوصا مدينة "جند" والثالث بفتح مدينتى بناكت وخجند وكانتا من أهم المنافذ على نهر سيمون والرابع وهو الرئيسى عليه أن ينفذ مباشرة الى وسط اقليم ما وراء النهر ويستولى على بخارى حتى يحول دون اتصال السلطان الخوارزمى ببقية جيوشه مما يؤكد أن جنكيز خان كانت لديه معلومات صحيحة عن الطرق والمسالك التى سوف يسلكها وقد استقى تلك المعلومات من خصوم السلطان محمد خوارزمشاه الذين فروا منه ولجأوا الى جنكيز خان فكانوايحثونه على مهاجمة السلطان" (١)

ولما جاء دور سمرقند تعرض من فيها لمختلف صنوف الاذى "الا من كانوا طابورا خامسا لجنكيز خان يزودنه بالاخبار ويطلعونه على الأسرار ومعظم هؤلاء ـ كالعادة ـ من كبار الموظفين" . (٢)

وفى عهد الخاقان الأعظم أوكتاى بن جنكيز خان رأى المغول أن يوسعوا دائرة الغزو خارج قارة اسيا التى كانت على اتساعها قد غدت فى معظمها واقعة تحت سيطرتهم فانطلقت جيوشهم من جنوب روسيا الى دول شرق أوربا "ومن المدهش أن المغول أقدموا على هذه المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز المجر السياسى وبالاحوال الدائرة فى بولندا ذلك أنهم حرصوا مقدما على أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجريين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال لايكادون يعرفون شيئا عن أعدائهم" (٣) .

ومن أشهر الشخصيات التى لعبت دورا خطيرا فى مجال الجاسوسية ابن العلقمى وزير الخليفة العباسى المستعصم فقد كان يكاتب المغول حتى حكى عنه أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغا وكتب ما أراد عليه بالابر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع عليه شعره وغطى ما كتبه فجهزه وقال اذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان فى اخر الكلام" اقطعوا الورقة" فضربت عنقه و هذا فى غاية المكر والخزى" . (٤)

ومن الغرائب فى هذاالمجال أيضا أن الملك الصالح الذى تولى الحكم فى الموصل وتزوج من تركان خاتون ابنة السلطان جلال الدين خوارزمشاه عندما أراد الانضمام الى سلطان مصر بيبرس ضد المغول فان زوجته هذه أرسلت رسالة الى هولاكو خان تنبئه بمسير زوجها الى بلاد الشام فأوفد فى أثره صدر الدين التبريزى فى عشرة الاف جندى وقد حظيت من جراء ذلك بأن ولاها هولاكو امارة اقليم كرمان" (٥) أما المسكين زوجها فكان جزاؤه القتل الشنيع على الصورة التى أوردناها من قبل .

عموما .. فان المغول استفادوا كثيرا من دقة نظم الاستطلاع والجاسوسية عندهم فقد كانوا بارعين فى تجنيد العناصر الموالية لهم من بين سكان البلاد التى يهاجمونها وكان أولئك بخيانتهم من عوامل الحاق الهزيمة لشعوبهم ونادرا ما كانت تنتهى خيانتهم بتحقيق الخير لهم .

ولقد اقتدى تيمورلنك ـ رغم المسافة الزمنية ـ بجنكيز خان فتميز بذلك على أهل

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٥٦، ٥٧ عن حمدالله المستوفى ، القزوينى :تاريخ كزبدة ص ٤٩٧، ٤٩٨

(٢) الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٦٩

(٣) هـ.جـ.ويلز: موجز تاريخ العالم ص ٢٣٨

(٤) حسن الأمين: الغزوالمغولى ص ٩٤ عن ابن شاكرالكتبى،فوات الوفيات ،جـ٢ص٣١٢

(٥) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد٢ جزء ٢ ص ٣٢٨

عصره وسبقهم فى براعة استخدام الجاسوسية والطابور الخامس فكلاهما كانت له مقدرة فذة فى هذا المجال ٠ (١)

التفاوض مع الاعداء قبل الاشتباك

تكاد معظم السفارات التى أوفدها المغول الى القوى المجاورة التىاحتكوا بها أن تكون ذات صفة عسكرية فقد كانت تدور حول التهديد والوعيد ذلك ان سياسة جنكيز خان وخلفائه كانت تتمثل فى ايفاد الرسل الى سكان الاقليم المزمع غزوه فيعرض عليهم أحد خيارين ٠

أ ـ الخضوع وقبول التبعية :

وفى العادة كان يترتب على ذلك الاستجابة لخطوات أخرى منها :

١ ـ الاكتفاء بدفع الجزية وترك الأمور فى الاقليم على ماهى عليه ٠

٢ ـ الالزام بهدم أسوار المدينة وردم أية خنادق حولها ٠

٣ ـ قبول "شحنة" حامية عسكرية مغولية تقيم داخل حدود الاقليم٠

٤ ـ تعيين حاكم جديد للاقليم من بين السكان الاصليين وبمعرفة المغول ٠

ب ـ رفض الاستسلام وتحمل نتيجة العصيان :

وكان ذلك يعنى اعلان الحرب بين الطرفين وعلى الاهالى المساكين أن يستعدوا لمواجهة جيش المغول الصارم الذى لايبقى ولا يرحم٠

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك رسائل قليلة بعث بها المغول الى خصومهم غير أنها ليست على درجة الارهاب والتخويف السابقة ومنها :

١ ـ رسالة جوجى بن جنكيز خان الى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد :

لما شعر جوجى بتعقب الجيش الخوارزمى له وتعتبر هذه الرسالة أول خطاب بين المغول والخوارزميين وقد ورد فيها على لسان الرسول المغولى "ان سيدى الأمير جوجى ابن جنكيزخان يرسل تحيته العاطرة اليكم وهو يسألكم بكل احترام لماذا يتعقب جيشكم الباسل جيش المغول حتى انه قطع الليل كله سائرا بأقصى مايستطيع ؟ وكذلك يعلمكم سيدى أنه وبعد أن تم تأديب بعض القبائل المتمردة بحيث لاتعود الى العصيان أبدا فان الجيوش المغولية المظفرة سائرة فى طريق العودة الى بلادها الاصلية"، وقد أمرنا مولانا جنيكزخان أن نحافظ على صلات المودة والصداقة مع الجيوش الاسلامية أينما التقينا بها وقد رأى الأمير جوجى أن يؤكد هذه النية الطيبة باقتسام الأسرى والاسلاب مع جيوش خوارزمشاه" ٠ (٢)

وواضح من الرسالة أن جوجى كان مكلفا بمهمة محدودة من قبل أبيه وهى تأديب بعض القبائل المتمردة كما ذكر الرسول المغولى وواضح أيضا أن جوجى يحاول قدر طاقته تفادى الاصطدام مع جيوش خوارزمشاه لدرجة اقتسام نصف الغنائم والأسلاب مع الجيش الخوارزمى الذى لم يفعل شيئا يستحق عليه هذه الغنيمة الباردة ٠ غير أن الشاه المتكبر تملكه الغرور فقال للرسول المغولى " ألا أبلغ أميرك أنه ان كان جنكيز خان قد أمره ألا يقاتلنى فان رب الأرباب الجبار المتعال قد أمرنى أن أحاربه ولاأهادنه" ٠ (٣)

---

(١) السيد فرج: تيمور لنك قاهر العالم ص ٨٠

(٢) الكاتب الصينى ٠ف٠يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٧٣

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٧٣

وسرعان ما اشتعلت الحرب واسفرت عن عدم قدرة السلطان الخوارزمى بجحافله العظيمة عن قهر فرقة (تومان) من جيش المغول على ان النتيجة الأخطر كانت الرعب الذى تملك قلب السلطان المتكبر الذى رأى بعينى رأسه لأول مرة كيف يقاتل المغول وأدرك الفرق الهائل بينهم وبين جنوده الذين لم يصمدوا بعد فى معركة واحدة أمام المغول حتى مات.

٢ - خطاب جنكيز خان الأول الى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد:

وكان يهدف الى اقامة علاقات تجارية بين الطرفين واستكشاف النوايا وكانت السفارة المغولية بقيادة التاجر المسلم محمود الخوارزمى الجرجانى وكان مما ورد فى هذه الرسالة، "ليس يخفى على عظيم شأنك، وقد علمت بسطة ملك وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الارض ولهذا رأيت الخير كل الخبر فى توثيق روابط الصداقة بيننا فأنت عندى مثل أعز أولادى وغير خاف عليك أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لى قبائلهم ولا شك أنك تعلم أكثر مما يعلم غيرك أن الأرض التى يحتلها جيشى الذى لايغلب أرض غنية بمناجم الفضة فلا حاجة لى اذن فى التماس الاسلاب والمغانم خارج بلادى فان رأيت أن تفتح للتجارة فى الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد" (١) وقد غضب السلطان الخوارزمى من صيغة التهديد غير المباشر الواردة فى الرسالة واشتد غضبه من عبارة (أنت عندى مثل أعز أولادى) لانه جنكيز خان لم يضعه فى مكانة الأخ" (٢) بل جعل فى مرتبة أقل هى بمفهوم العصر بمعنى التابع.

٣ - رسالة باتوخان الى الروس:

كان عهد أوكتاى بن جنكيز خان عهد توسع وصل فيه المغول الى أقصى حدود أوربا الشرقية (المجر وبولندا) وكان باتو بن جوجى قد استوى مكان أبيه فى المنطقة الغربية التى تمتد من غرب منغوليا الى جنوب روسيا والقبجاق وكان عليه أن يتوسع فى اتجاه الشمال والشرق ومن هنا "أوفد السفراء الذين خاطبوا الروس بقولهم" نحن اتون بأمر الله لسحق عبيدنا وخدامنا (البولوفتسيين) الملاعين فسالمونا أنتم تسلموا من حروبنا" فكان جواب الروس أن قتلوا الرسل فأتوا بذلك ضربا من الحماقة والجهل". (٣) اذ لم يكن لديهم حاجة الى قتل الرسل.

٤ - رسالة هولاكو الى الملك المعظم تورانشاه نائب حلب:

وكان هولاكو قد أرسل هذه الرسالة وهو يستعد لمحاربة الملك الناصر الأيوبى صاحب دمشق وكان هولاكو فيما يبدو يهدف الى تأمين الجيوش المغولية حيث كانت حلب تقع فى طريقه الى دمشق لانه بعد أن استولى على أربل وميافارقين وماردين كان عليه أن يتجه جنوبا الى دمشق عاصمة الشام ومنها الى مصر وقد جاء فى هذه الرسالة" انكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه نحن الى العسكر فان كانت الكسرة على عسكر المسلمين كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين ان شئتم طردتموهما وان شئتم قتلتوهما فلم يجب الملك المعظم الى ذلك وقال ليس لكم عندنا الا السيف"

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٥، ١٦،
الكاتب الصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٠
(٢) أ.د.احمد شلبى :موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٤٢
(٣) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٦

وكان رسول هولاكو اليهم فى ذلك صاحب (أزرن الروم) فتعجب من هذا الجواب وتألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك". (١)

ويبدو أن تورانشاه كان يأبى أن يستجيب لهولاكو وهو من الد أعداء المسلمين وأنصاره مثله كالملك هيثوم ملك أرمنية الصغرى والملك بوهمند السادس ملك انطاكية كذلك كان تورانشاه لايثق فى وعود هولاكو الذى غدر بالكثيرين من قبل كخورشاه حاكم الاسماعيلية الذى سلم له ووثق فيه.. فكان فى ذلك نهايته ونهاية أسرته كلها .

نمط مختلف :

ويقصد به ذلك النوع من السفارات الذى لم يحمل روح العداء أو طابع التهديد والوعيد الذى دأب عليه المغول فى التفاوض مع غيرهم من الشعوب الاخرى.

وقد بدأت هذه السفارات السلمية بين بركة خان زعيم مغول القبيلة الذهبية فى القبجاق (١٢٥٧ـ١٢٦٦)م والظاهر بيبرس السلطان المملوكى فى القاهرة (١٢٦٠ـ١٢٧٧م) واستمرت فى عهد خلفاء كل منهما ولقد أشرت اليها بالتفصيل عند الحديث عن انتشار الاسلام بين المغول هناك كان أهم العوامل وراء تغير أسلوب المغول فى مخاطبة الاخرين (٢) وهو نفس الشئ الذى حدث بالنسبة للايلخان المسلم أحمد تكودار (١٢٨٢ـ ١٢٨٤م) الذى تبادل رسائل الصلح والمودة مع السلطان المملوكى فى القاهرة قلاوون (١٢٧٩ـ١٢٩٠م) ،

النمط التقليدى :

ويقصد به النظام الذى درج عليه المغول فى مخاطبة خصومهم والذى أشرت اليه منذ قليل وبالطبع فان استقصاء مختلف الرسائل التى تبادلها المغول على هذا النمط عمل يحتاج الى بحث مستقل ولسوف نكتفى بايراد بعض النماذج التى تتشابه فى مضمونها رغم اختلاف أصحابها وتفاوت الفترة الزمنية بين بعضها :

١ ـ خطاب جنكيز خان الاخير الى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد :

وكان هذا عقب قيام حاكم اترار الخوارزمى بقتل تجار المغول والاستيلاء على كل ما معهم من تجارة ومتاع سنة ٦١٥ هـ فلما أرسل جنكيزخان ـ رغم كل ذلك ـ الى السلطان الخوارزمى يطلب منه معاقبة نائبه أو ارساله اليه ليعاقبه كان مصير الرسل الثلاثة الذين اوفدهم ان قتل اثنان منهم ونتفت لحية الثالث ثم القى فى العراء ليعود الى صاحبه بالخبر فأرسل جنكيز خان خطابه السافر الشهير قبل الهجوم على أملاك الخوارزميين مباشرة وقد جاء فيه "تقتلون أصحابى وتجارى وتأخذون مالى منهم ، استعدوا للحرب فانى واصل اليكم بجمع لاقبل لكم به" وقد اورد كاتب اخر صيغة قريبة من تلك..." سوف تصطلى بنار الحرب ،وما سوف يحدث بعد ذلك لانعرفه، الله وحده هو الذى يعرف". (٣)

---

(١) تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٠٣ ،ابن كثير،البداية و النهاية جـ ١٣ص ٢١٨
(٢) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٢٦٣
(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٦

٢ - خطاب هولاكو الى الملوك والسلاطين فى ايران :

وقد أرسله هولاكو سنة ٦٥٣ هـ بعد عبوره لنهر جيحون واستعداده لمهاجمة قلاع الاسماعيلية وفيه يهدد ويتوعد يقول "بناء على امر القان قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة ، فاذا اسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والالات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ،وستحمد لكم مواقفكم ،أما اذا تهاونتم فى امتثال الاوامر وأهملتم فاننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فاننا لن نقبل عذركم ،ونتوجه اليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم". (١)

٣ - خطاب هولاكو الى الخليفة العباسى المستعصم قبل غزو بغداد :

كان منكوخان قد بين لأخيه هولاكو كيفية التعامل مع الخليفة العباسى وتتلخص فى أنه اذا أطاع واستجاب فلا عدوان عليه أما اذا عصى وأبى فيكون قد جر على نفسه ويلات العذاب والهلاك. غير أن هولاكو كان يرى حتمية زوال الخلافة العباسية والغاء سلطتها تماما ولو اضطر الى قتل الخليفة وتدمير بغداد وعلى هذا ظل يضيق الخناق على الخليفة الذى لم يحسن تقدير الموقف من فترة سابقة ولقد اخترت من سلسلة الرسائل المتبادلة بينهما الرسالة الأولى التى بعث بها هولاكو الى الخليفة سنة ٦٥٥ وكان مما ورد فيها" لقد أرسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مددا من الجند ولكنك اظهرت الطاعة ولم تبعث الجند والتمست العذر ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين بين الجيش المغولى منذ جنكيز خان الى اليوم .... ومع هذا فقد مضى ما مضى فاذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون وبردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا او فليرسل كلا من الوزير سليمان شاه والد وايدار ليبلغوه رسالتنا دون نقص أوزيادة أما اذا لم يصغ الى النصح واثر الخلاف الجدال فليعبئ الجند وليعين ساحة القتال فاننا متأهبون لمحاربته". (٢)

٤ - خطاب هولاكو الى السلطان المملوكى قطز قبل معركة عين جالوت :

كانت مصر المرحلة الاخيرة فى خطة الغزو التى حددها الخاقان الاعظم منكو لأخيه هولاكو.. غير أن هولاكو كان يراها مفتاحا لما وراءها من البلاد.. ولهذا حرص قبل رحيله عائدا الى أقصى الطرق الشمالى الشرقى لايران بعدما علم أن أخاه الخان الاعظم قد توفى أثناء الحرب فى الصين حرص على أن يبعث برسالة التهديد تلك تاركا لقائده المحنك كتبغا اتمام المهمة ومما ورد فى هذه الرسالة.." من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم.. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم ويعلم سائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها .

انا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم واسلموا الينا أمركم ولا تطيلوا الخطاب واسرعوا برد الجواب فقد انصفناكم اذ راسلناكم وأيقظناكم اذ حذرناكم.

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جـ ١ ص ٢٤٠
(٢) نفس المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨.

ألا قل لمصر هلاون قد أتـــى ... بحد سيوف تنتضى وبواتــــر
يصير أعز القوم منها أذلـــة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابـــر (١)

٥ ـ رسالة أباقا بن هولاكو الى السلطان الظاهر بيبرس:

تمكن المصريون من هزيمة المغول فى عين جالوت وتولى الظاهر بيبرس بشجاعـة وحنكة اتمام المهمة الصعبة فكان أن هاجم بلاد الارمن حلفاء المغول وقلم أظافرهم تماما ثم أغار على بلاد سلاجقة الروم فى الاناضول وكانوا تحت حماية المغول منذ عهد أوكتاى بـن جنكيزخان وأخيرا أوقع هزيمة منكرة بالجيش المغولى عند صحراء (ابلستين) بالاناضول عـام ١٢٧٧م • فوجد أباقا انه من الحكمة أن يهادن المماليك ولو موقتا فأرسل الى الظاهر بيبرس يقول له" أنت مملوك بعت بسيواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الارض • واعلم أنـك لو صعدت الى السماء أوهبطت الى الارض ما تخلصت منى، فاعمل لنفسك على مصالحـة السلطان أباقا" •

وقد رد عليه السلطان الظاهر بيبرس" اعلموا أنى من ورائه بالمطالبة لأزال حتـى أنتزع منه جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض" • (٢)

ويمكننا أن نلاحظ على هذه الرسائل أمورا عدة منها :

١ ـ أن هذا النمط من الرسائل يعمد الى تقليل شأن المخاطب وتحقيره لعله يندفع الـى ما يهدف اليه المغول أصلا وهو رفض التسليم واعلان الحرب•

٢ ـ أنها كتبت بلغة عربية فصحى وبأسلوب أدبى مستوحى من الأدب العربى القديم ومعتمد على الشعر وعلى القرآن الكريم أحيانا •

٣ ـ انها تكشف عن خبرة تامة فى الاستطلاع ودقة المعلومات توفرت لدى المغول أكثـر من غيرهم •

استعراض الجند للتفتيش قبل الحرب

كان جنكيزخان حريصا كل الحرص على م بكافة القوانين واضوابط التى تضمن لجيشـه أن يكون دوما فى أفضل حالات الاستعداد للحرب ولذلك كان يتوجب على الجند المغول اذا ما انتهى القتال أن يجمعوا مختلف الاسلحة حتى التى غنموها فى الحرب وان يقوموا بتسليمها الى الضباط •

وبدهى أن ترك السلاح فى أيدى الجنود فى غير أوقات الحرب كان أمرا ينطوى علـى كثير من الخطورة" لهذا أمر جنكيز خان أن تخزن الاسلحة والرماح والدروع الثقيلة والتـروس فى المخازن تحت اشراف الضباط وأن يعتنى بها وتنظف حتى يتم النفير" • (٣)

وقبيل القتال كان يجرى استدعاء المحاربين وتوزع عليهم الاسلحة بأن يقوم كل قائد باستلام حصة فرقته من السلاح من المخازن ، ثم يقوم بتوزيعها على من هم أدنى منه رتبة من الضباط ويقوم هؤلاء بدورهم بتوزيعها على جنودهم •

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ق ٢ ص ٤٢٧ ، ٤٢٩
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ص ٢٥٤
(٣) د•هارولد لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص ٥٦

وفى يوم العرض يصطف الجنود كل فى فرقته ومكانه ومعهم أسلحتهم وأدواتهم وكان الجنود يستعدون تماما لهذا اليوم" فهماذا عرضوا الان الحرب على أمرائهم وفوا كل ما يطلب منهم حتى الخيط والابرة فقد كان أهلوهم يؤدون عنهم ما يلزمون به من جهة الخان قبل العرض .

وبعد تمام الترتيب يقوم ضباط التفتيش (الطرخانات) باستعراض الاسلحة والتأكد من صلاحيتها وكذا حسن استعداد الجند بينما يقوم نفر آخر من الضباط يعرض الاخبار عن ثروات الجهات المزمع الهجوم عليها وكثرة خيراتها لاستثارة حماسة الجند للقتال. (١)

وقد يحدث احيانا أن يقصر احد الجند فى أمر من الامور حينئذ كان قائده يبادر اليه فيعاقبه حتى لايستشرى الاهمال بين غيره من الجنود وحتى يكون هذا القائد نفسه بمنأى عن العقاب ممن هم أعلى منه رتبة.

وفى الحقيقة كان طابور العرض المغولى فرصة عملية لمعالجة كافة جوانب القصور قبل الاشتباك فى الميدان .

وسائل الهجوم والدفاع

اعتقد الكثير أن المغول حققوا انتصاراتهم المدوية بقوة الكثرة العددية ورفض البعض الاعتراف بأن المغول كانوا يتمتعون بمختلف المزايا العسكرية مثل التخطيط العسكرى الممتاز والتنفيد المتقن والاعتماد على أجهزة دقيقة فى الاستطلاع والتجسس والتدريب المتصل والاستفادة المرنة بكل ما هو جديد ونافع .

ولعل جو الفزع الذى أثاره المغول فى كل مكان حولهم جعل البعض يعتقد أنهم مغرقين فى التخلف فى الشئون العسكرية تماما كما هو ا لحال فى شئون أخرى ، لكن الحقيقة أن المغول لم ينتصروا بالرعب والفزع والدمار فقط وانما كان لهم تفوقهم العسكرى الذى أطال أمد دولهم بالقياس الى ما عرف عن البدو عبر التاريخ الذين كانوا يتقنون فقط فن الاغارة والارتداد السريع دون أن يستقروا فى مكان .

ولقد ظل واضحا أن اهتمامات خانات المغول على امتداد الامبراطورية كلها كان يتركز أصلا حول شئون الجيش والحرب أكثر من أى شئ آخر كالشئون الاقتصادية او الادارية أو العقائد الدينية ولهذا ظلت الدول التى أسسها المغول فى معظمها عسكرية الطابع والاسلوب.

الاسلحة التقليدية :

كان المغول فى أول عهد جنكيز خان يستخدمون مختلف أنواع الاسلحة التقليدية مثل : السيوف الحادة المقوسة والحراب والسهام بمختلف أنواعها والدروع الجلدية والحديدية كما استخدموا الادوات المساعدة كالمبارد لشحذ الاسلحة والابر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، والقرب الجلدية كجعاب للسهام ولحفظ (الكوميس) وانية الفخار لطهى الطعام

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٢
(٢) ا.د. ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٤٠

كما كانت هناك الفئوس لحفر الارض والبلط لقطع الاشجار وعمل الجسور . وكانوا أحيانا يستعملون اكياسا جلدية لحفظ الملابس ولعبور الانهار عند الضرورة ومظلات صغيرة للحماية من المطر أوالشمس اوالجليد .. وبالاضافة الى ذلك كانوا يستعملون الحبال فى اصطياد العدو وتقييد الاسرى أو ربط العربات بعضها ببعض . وكانت لديهم الطبول والاعلام كما كانوا يسترشدون فى النهار باشارات البيارق المستطيلة المرفوعة على الرماح وفى الليل بعلامات المصابيح الملونة" . (١)

وسنحاول – قدر الاستطاعة – الاشارة الى أهم هذه الاسلحة من خلال استعراض اسلوب المغول فى الهجوم والدفاع .

أولا : الهجوم :

كان التكتيك الاساسى فى مفهوم التخطيط العسكرى المغولى هو الهجوم باعتباره أفضل وسائل الدفاع من جهة وباعتباره عنوانا للشجاعة والبسالة من جهة أخرى وكان تخطيط الهجوم فى الغالب يعتمد على عناصر عديده مهمة منها :

أ) المباغتة : أى مفاجأة العدو الغافل وشل حركته عن الحركة أوالتفكير تماما وهو ماحدث فى أول اقتحام مغولى لسور الصين العظيم " فقد اعتاد الحراس الصينيون الذين كانوا فىنوبات حراسة السور أن يروا هؤلاء المغول على صهوات جيادهم يمرون تحت أنظارهم من غير أن يقوموا بعمل ضار أو مثير وعلى حين غرة أمر"جنكيز خان" فرقة بأن تقتحم احدى البوابات وما هى الا لحظة حتى كان جنكيز خان داخل السور العظيم" (٢) حيث أسقط فى أيدى الصينيين .

ب) سرعة الحركة: وهى عنصر أصيل فى حياة المغول العادية كان يعطيهم التفوق المطلق عند الهجوم (٣) والمناورة ولم يكن هذا العنصر متوفرا بنفس الدرجة عند غيرهم ممن حاربوهم .

جـ) السكون الحذر: فقد تعلموا جميعا كيف يمسكون ا لسنتهم عن الكلام فكان من النادر أن ترى اوتسمع الواحد منهم حتى ينقضوا جميعا على العدو كالاعصار" . (٤)

د) الالتفاف حول العدو: ويتمثل ذلك فى محاصرة العدو فى السهول من مختلف الجهات فى وقت واحد " فعندما كانت جيوش المغول تلاقى الاعداء – على ما ذكره ماركوبولو– كانت لاتدخل معه فى حرب نظامية بل كان المحاربون يدرون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم حتى اذا ما قتلوا كثيرا من الرجال والخيول كانوا يدرون على أعقابهم ويبدأون بمناخرة القوم وهم فى أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتا مزعجة تصم الاذان وتدخل الرعب فى القلوب. (٥)

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ٥ ص ٢٤٠، د.هارولد لامب : جنكيزخان وجحافل المغول ص ٤٠،٩٠، د. مصطفى طه بدر.. محنة الاسلام الكبرى ص ٦٣

(٢) د.هارولد لامب : جنكيز خانوجحافل المغول ص ٧٦

(٣) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٧١

(٤) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٤٠

(٥) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٤

وقبل أن ننتقل – بعد قليل – الى الحديث عن أساليب المغول في مواجهة القلاع والحصون نتوقف قليلا عند اشهر استخدامات المغول للاسلحة والمعدات التي اشرت الى مجملها سلفا ومنها :

* السهام :

كان المغول جميعا يتدربون على استخدام السهام منذ نعومة أظفارهم وكانت براعتهم في استخدام السهام بمهارة وكفاءة واحدة من الاسباب التي كانت تثير رعب الناس منهم حيث كانت قسيهم – رغم صلابتها وضخامتها – مرنة في أيديهم يمكنهم ثنيها الى درجة كبيرة من التوتر فتنطلق منها السهام بسرعة تقارب انطلاق الرصاص في عصرنا". (١)

كما كان سهم المحارب المغولي في العادة أكبر مما كانت أوربا تعرفه واكثر روعة" (٢)

وتعود المغول صناعة هذه الاقواس والسهام من خشب شجر الدراق او العرعر كما كانوا يجهزونها بروءوس من العظم أو خشب الشربين ويجهزون بعض السهام برأس حديدي يحصلون عليه لدى حدادى قبائل الغابات ويطلونه بالسم أحيانا" (٣) كما كانوا كذلك يثقبون بعض الروءوس المعدنية لهذه السهام حتى اذا رميت أخرجت صوتا كالصفير". (٤)

وبلغ من اهتمام المغول بالسهام ان كانت لديهم آلات تسمى (قاذفات السهام) تستعمل في قذف السهام بكثرة على الاعداء ولمسافات بعيدة" (٥) وكان بعض هذه الالات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس في وقت واحد وكل قوس يرمى سهاما يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة أذرع وكانت هذه السهام مغطاه بريش الصقور والنسور ولها حافات قصيرة قوية" (٦) . وبالطبع لم يكن لدى غير المغول مثل هذا كله لافي الصنع ولا في المهارة.

وحدث في عين جالوت وبعد أن التحم المصريون بالمغول وأجبروهم على التراجع أن فر هوءلاء المغول الى تل قريب احتموا به وأمطروا المصريين بوابل من سهامهم ولولا مثابرة المصريين واصرارهم على نيل النصر مهما كلفهم الأمر لتغير الحال.

وفي الحقيقة كان المغول يجيدون استخدام مختلف أدوات الحرب بمهارة لكنها لاترقى الى مستوى مهارتهم في قذف السهام وهم على عكس العرب في هذا الشأن والذين كانوا يرون في استخدام السيوف اعظم آيات الشجاعة والمهارة في الحرب على حين يوصف بالجبن – من وجهة نظرهم – من يستخدم الرماح أو السهام ولهذا قال المتنبي في وصف سيف الدولة الحمداني :

حقرت الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٣٩
(٢) جون أ. هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ص ٢٤٠
(٣) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ١ ص ٣٦٣
(٤) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٣
(٥) حافظ احمد بدوى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٥
(٦) د. مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ١١٤

× الخيـــــل :

كان المغول فرسانا مبرزين وكانت النساء عندهم لا يختلفن عن الرجال مهارة فى هذا الشأن فلقد درج المغول منذ نعومة أظفارهم على ركوب الخيل حتى قيل ان اعوجاج سيقانهـم منذ الصغر نجم عن ركوبهم الخيل منذ طفولتهم .

وكانت خيول المغول غريبة مثلهم فهى شديدة الصبر عصبية الحركة قصيرة القوائم لكنها كانت متمرنة أحسن تمرين حتى انها كانت تجرى — فى أثناء القتال — هنا وهناك كالكـلاب المدربة" (١)

ولم تكن سرعة الحركة والمناورة وشدة التحمل فقط هى مزاياخيول المغول فقد حـدث "عندما أراد المغول عبور نهر جيحون ان تعذر عليهم ايجاد السفن التى تصلح للعبـــور ، فصنعوا أحواضا من الخشب وكسوها بجلد البقر لئلا يتسرب الماء اليها ثم وضعوا فيهـا أسلحتهم وأمتعتهم والقوا بخيولهم فى الماء وتعلقوا بأذنابها بعد أن شدوا تلك الاحواض الـى أجسادهم فكان الفرس يجذب كل ذلك حتى عبروا كلهم دفعة واحدة " . (٢)

فلا غرو أن قال أحد المؤرخين "انانتصارات المغول المبكرة ترد بالمحـــل الأول فيما يبدو الى خفة حركتهم وسرعة خيولهم وشدة احتمالها حتى ليقال أن كربينى قد ركب مـن معسكر باتوا الى مضارب كيوك وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر ونصف دون توقف يذكر" . (٣)

× الدروع الخفيفـة :

كان المحاربون العاديون من المغول يلبسون ملابس عادية من فراء حيوانات الصيـد ونظرا لانهمجميعا يتمتعون بمزية خفة الحركة وسرعة الانقضاض والمناورة فقد كانوا يزهدون فـى استعمال الدروع الحديدية الثقيلة مثل الفرسان الاخرين وعلى هذا انحصرت الدروع عندهم فـى قلنسوة من الجلد يغطى اعلاها بالصلب أوالحديد أما دروع الصدر فكانت من الجلد وعليهـا بعض صحاف من الحديد" (٤) .

وبراعة المغول هنا تتمثل فى اختيارهم الدروع الخفيفة التى لاتعوق الحركة والتـى تنم عن الشجاعة أيضا . واذا تذكرنا مقارنة صاحب كتاب الفخرى فى الاداب السلطانية بيـن الجندى المغولى وغيره اكتشفنا مدى ذكاء المغولى فى التخلص من كل عبء يعطل حركتـه أوحركة حصانه .

هـ — الهجوم على الاسوار والابراج :

كانت حياة المغول — وهم بدو رعاة فى المقام الأول — صريحة مفتوحة مثل صحارى بلادهم ولهذا كانت حروبهم القبلية تجرى فى العراء حيث يمارسون مختلف أساليب الكر والفـر والمناورة والالتفاف .. الخ .

وعلى هذا فلم تبدأ جيوش جنكيزخان فى تعلم فن الحصار فى الحرب الا حينما دخل

(١) د.مصطفى طه بدر: محنةالاسلام الكبرى ص ٦٤
(٢) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ١٢ص ١٤٢ ، ابن كثير، البداية والنهاية فىالتاريـخ جـ ١٣ ص ٨٨ ،وجمال‌الدين بن واصل ، مفرج الكروب جـ ٤ ص ٤٥
(٣) جون أ.هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٠
(٤) د.هارولد لامب : جنكيز خان أمبراطور الناس كلهم ص ١٠٧

فى خدمته مهندس من سلكة كين اسمه ليو ـ يو ـ لين فالمغول قبل ذلك لم يألفوا مهاجمة المواقع المنيعة التحصين". (١)

على أن جنكيز خان كانت له وجهة نظر صائبة فى مسألة الأسوار نقلها رسوله الى أهل بخارى قبل الهجوم عندما عرض كبار الأهالى هناك شروطا للاستسلام.. "انما تقاس قوة الاسوار ومناعتها بقلوب المدافعين عنها ومقدار شجاعتهم ، فلا منعة للطوب اذا وهنت القلوب! انكم مغلوبون فاستسلموا كما يستسلم المغلوب وانتظروا أمرى فيكم". (٢)

أدوات هدم الأسوار:

١ ـ المجانيق :

وهى آلات ضخمة تشبه الواحدة منها البرج المتحرك وتتكون أحيانا من أربعة أدوار أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الاصفر ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات وتصعد الى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الاسوار ويتصل بكل برج آلة لها رأس ضخم وقرنان يدفعها الجنود نحو أبواب الاسوار لتهديمها" (٣)

فى الحقيقة ، كان الرومان قد استخدموا هذه الالات من قبل فهى قديمة أعاد المغول استخدامها فى مواجهة أسوار القلاع الحصينة .

وكانت هذه الالات العملاقة ترمى مختلف أنواع الاحجار وبخاصة الاحجار الضخمة فعندما هاجم المغول أسوار مدن الصين ـ بعد عهد جنكيز خان ـ وكانت مجانيقهم من صنع المسلمين والمسيحيين الذين كانوا فى خدمتهم فان تلك الالات كانت تقذف أحجارا تزن مابين ١٥٠ ، ٣٠٠ رطل". (٤)

واحيانا كان يتعذر على المغول الحصول على الاحجار المناسبة فيلجأون الى بديل عنها" حينما رأوا خوارزم وبلادها خالية من حجارة المجانيق استعاضوا عنها بأصول أشجار التوت فأخذوا يقطعون منها قطعا مدورة ثم ينقعونها فى الماء فتصير كالحجارة ثقلا وصلابة" (٥).

وبدهى أن ذلك قد تم باشارة أحد المستشارين المحليين الذين كانوا يعملون فى خدمة المغول اذ أن هذا النوع من الاشجار لم يكن معروفا فى بلاد المغول . كذلك بلغ من شدة اصرار المغول على هدم أسوار بغداد أنهم عندما لم يجدوا من الاحجار حولها مايكفى ثابروا على احضارها من جبل حمرين وجالولا وهى أماكن تبعد عن بغداد شمالا بمراحل طويلة تقطع فى ثلاثة أو أربعة أيام وبالاضافة الى ذلك كانوا يستعيضون بقطع من جذوع النخل" (٦) بعد أن يضعوها فى الماء على نفس الصورة السابقة .

٢ ـ قاذفات اللهب :

وهى آلات أصغر حجما من المجانيق وان كانت مثلها تعتمد على فكرة الروافع ،

---

(١) د. ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤١٨
(٢) الكاتب الصينى . ف . يان : جنكيزخان سفاح الشعوب ص ١٥٦
(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ قسم ١ ص ٥٦ حاشية ٨
(٤) ادوارجيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها جـ ٢ ص ٢٨٢
(٥) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ص ١٧١
(٦) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى ص ١٣٥

وكانت ترمى بقطع من الحجارة أوالخشب فى أحجام صغيرة ملفوف حولها خرق من القماش أوالكتان مشتعلة بواسطة الزيت" وكانت تلك تساعدهم فى اشعال الحرائق فى المدن المحاصرة." (١)

ولقد بدأت هذه القاذفات تظهر فى رفقة الحملات الاخيرة لجنكيز خان حيث كانت تصحبه فرقة من المهندسين الصينيين كانت هذه بين أدواتهم" (٢)

وهكذا كان المغول يستخدمون النار فى تدمير بعض المناطق ذات الطبيعة الخاصة ومن ذلك بخارى التى كان أكثر بيوتها من الخشب وأيضا قلعة (استوناوند) بالرى والتى يقول عنها القزوينى"وهى من القلاع القديمة والحصون المنيعة عمرت منذ ثلاثة آلاف سنة ولم يعرف انها اخذت قهرا الى أن تحصن بها ابن خوارزمشاه ركن الدين غورسايجى عند ورود المغول سنة ٦١٨ هـ فتحصن بها فعلم المغول به فنزلوا عليها وجمعوا حطبا كثيرا جعلوه حولها ثم اضطرموا فيه النار فانصدع صخرها وتفتت وزالت حمانتها فصعدوا اليها وقتلوا ابن خوارزمشاه" . (٣)

٣ ـ مدارج الطين :

وتكاد تكون تلك أول وسيلة تعلمها المغول فى مواجهة الاسوار وتقوم فكرتها على حفر بعض الخنادق واستعمال التراب الناجم عن الحفر فى اقامة مدارج عالية من الطين تبلغ فى ارتفاعها اسوار القلعة المزمع الهجوم عليها وأثناء بناء هذه المدارج ـ وهى تلاصق الاسوار ـ يقوم المغول بحمايتها بكل الصور الممكنة حتى لايتمكن المدافعون عن الاسوار من هدمها أثناء البناء .

وجدير بالذكر أن المغولى النابه (جنكيز خان) قد تعلم من أهل الخطا (الصين الشمالية) انفسهم كيف يتغلب على مشكلة الاسوار العالية اذ لما دافع جنود الخطا عن هذه الاسوار بنى المغول المدارج الضخمة من التراب والطين ثم بدأوا الهجوم مستخدمين تلك المدارج . (٤)

وحدث الشئ نفسه عند هجوم المغول على الطالقان (احدى ولايات الدولة الخوارزمية) فقد قصدوا قلعة (صوركوه) وهى من أمنع بلادها فحاصروها ستة أشهر فامتنعت عليهم فسار اليها جنكيزخان بنفسه وحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى اذا ما رأى امتناعها أمر بنقل الخشب والتراب حتى اجتمع منه تل مشرف على البلد فاستيقن أهل البلد الهلكة" . (٥)

وعند أسوار بغداد فكر المغول فى كيفية النفاذ اليها وهى محاطة بالخنادق . فأمر هولاكو بحفر خندق فى الناحيتين الشرقية والغربية وبنى بترابه سور محيط ببغداد وعمل له أبواب ورتب عليها أمراء المغول ثم شرع المغول فى عمل ستائر للمجانيق" . (٦)

---

(١) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٥
(٢) د.رالف لنتون : شجرة الحضارة ج ٢ ص ١٨١
(٣) القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٩٣
(٤) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٩ ، ٨٣
(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ١١١
(٦) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٢٥

وهكذا فعندما عجز المغول عن بناء المدارج العالية الملاصقة للاسوار بنى أسوارا عالية واستخدموهاوسيلة للرمى الثقيل ولفصل المدن المحاصرة عن أية مدنأخرى مجاورة.

٤ ـ وسائل أخـرى :

ومن ذلك استخدام السلالم المصنوعة منالحبال وكذلك محاولة ردم الخنادق بكل شئ تصل اليه الايدى فعندما عاد المغول بعد مهاجمة مملكة الكرج المسيحية وصلوا الى منطقة قزوين" فمروا بمدينة (شماخى) فصبر أهلها على الحصار فصنع المغول السلالم وصعدوا الى أعلى الاسوار وقيل أيضا أنهم جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك من القتلى والقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فاشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها ثلاثة أيام فانتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء فعاودوا الزحف وملازمة القتال حتى عجز أهل المدينة واستسلموا" (١).

وهكذا لم تفلح وسيلة أحبال السلالم او ردم الخنادق بالجثث الميتة .. لكن صبر المغول واصرارهم كان العامل الحاسم فى الفتح.

٥ ـ البـــارود :

يعتبر استخدام المغول للبارود على أى صورة كان دليلا على مدى استجابتهم للمتغيرات التىتوجد حولهم ،ولقد اختلفت آراء المؤرخين حول الكيفية التى تعلم بها المغول استعمال البارود فهناك من يرى أن الصينيين هم أول من استعمل البارود (٢) وأن المغول تعلموه منهم منذ عهد الخاقان أوكتاى بن جنكيزخان (١٩٢٩ ـ ١٢٤١) فقد ظهرت لديهم فى محاربة الصينيين مدافع ميدان صغيرة تقذف البارود" (٣).

غير ان مؤرخا صينيا يرى عكس ذلك .. يقول" وينكر مؤرخوا الصين انفسهم هذا الفصل ويرون أن الذى كان معروفا عند الصينيينمنذ زمن قديم شئ غير البارود ويسمى "الصواريخ النارية" وكان الصينيون يستخدمونها فى المناسبات والاعياد اما المدفع النارى الذى يحتاج الى البارود فى مقذوفاته فثبت من المصادر الصينية أنه من صناعات المسلمين وأقوى الشهادات التاريخية على ذلك ما ورد فى ديوان لغات الصين من أهل الغرب(الممالك الاسلامية فى آسيا) للمغول الذين استعملوها لاول مرة فى الهجوم على مدينة (سيانغ ـ يانغ فو) سنة١٢٣٢ ومن ثم تعلم الصينيون استعمال المدفع النارى فى الحرب" (٥)

وأغلب الظن أن المغول لم يستخدموا البارود فى عهد جنكيز خان كما لم يستخدموه فى الهجوم على الممالك الاسلامية حيث لم أعثر فى أى من المصادر الاسلامية على أى اشارة حول هذا الاستخدام لا من قبل المغول أوالمسلمين الذين حاربوهم.

---

(١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ١٤٨، ابن خلدون: العبر فى ديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ١٧٤

(٢) د.هارولدلامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠٢، حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٦ ، ادوار جيبون ـ اضمحلال الامبراطورية الرومانية جـ ٢ ص ٢٨٢

(٣) هـ.جـ. ويلز : موجز تاريخ العالم ص ٢٣٦

(٤) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين من ص ٢٤٨ : ٢٥٠

على أنه يمكننا القول أن المغول قد استعملوا البارود فى شكل قنابل نارية أو قنابل دخان تلقى على المدن المحاصرة وعلى الجيوش المعادية" (١)

ولكن ذلك كان على جبهة الصين فقط ـ وهو استعمال ساذج بالقياس الى التطور الذى حدث فى استعمال الاوربيين فيما بعد للبارود.

وعلى هذا فالبارود الذى استعمله المغول لم يكن أبعد أثرا من مجانيق الحجارة أو قاذفات اللهب ، فيما عدا تلك الانفجارات المدوية التى كانت تثير الرعب فى النفوس اكثر من أى شئ آخر.

ثانيا : شئون الدفاع :

كان التكتيك الاساسى فى التخطيط العسكرى المغولى ـ كما هو معروف ـ يعتمد على الهجوم بصفة عامة ، غير أن الامر لم يخل أحيانا فى بعض المواقف الصعبة أوالمفاجئة أوالخططية ان يتغير هذا التكتيك الى العكس ولو فى خلال فترة زمنية مؤقتة.

وبمعنى آخر فكما كان المغول يخططون للهجوم كانت لديهم وسائل للدفاع .

(أ) الهرب :

الهرب تكتيك استبسى اصيل يجسم روح الدفاع عن المغول سواء فى بيئة الاستبس أم خارجها" (٢) فقد كان المغول لايعتبرون فى الفرار من المعركة أى نقيصة لانهم كانوا فى بعض الاحيان يتظاهرون بالفرار ثم يدورون على سروجهم ويرمون أعداءهم بكل شدة وهكذا ينزلون بهم الخسائر الكبيرة" (٣).

وكذلك كان يلجأون اذا فوجئوا بهجوم مباغت الى الاعتصام وراء عرباتهم المخفاة بالادغال (٤) ثم يعاودون قذفه بالسهام فى غاية السرعة والكثافة" (٥).

وفى ايجاز شديد كان المغول يهربون من المعارك أحيانا كغيرهم أما وصفهم بأنهم لايفرون ابدا ففيه شئ من المبالغة والتهويل من جراء الفزع الذى أثاره هؤلاء المغول فى نفوس الامنين من الناس .

(ب) الانسحاب :

كان جنكيزخان يصدر أوامره الى قواده بمهام محددة وكانت تعليماته تنص على أنه لا ينبغى ان يترك أحد مهمته الاساسية الى أى مهمة أخرى ـ ايا كانت الاسباب أوالنتائج ـ دون الرجوع اليه ، ولم يكن هذا بهدف احكام قبضته على قواده فحسب وانما كان يرجع أيضا الى تنسيق عام مترابط الاجزاء كان فى العادة يحكم عامة تحركات المغول الحربية

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٠٢، حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٦
(٢) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٧١
(٣) د.مصطفى طه بدر: محنة الاسلام الكبرى ص ٦٤
(٤) د.ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ،ج ٣ ص ٣٦٤

وعلى سبيل المثال فان الفرق التى كانت تتولى مطاردة السلطان الخوارزمى الهارب علاء الدين محمد لما تكن تلتفت الى أية غنائم أو مواجهات عسكرية يمكن أن تشغلها عن أداء مهمتها ولو كانت سهلة المنال .

من خلال هذا التكنيك كانت بعض فرق المغول تضطر الى الانسحاب من مواجهة عسكرية ليس لديها تعليمات بالاشتباك فيها .

وكانت طريقة المغول فى الانسحاب واحدة فقد كان من تعليمات جنكيز خان عند الانسحاب "اتركوا نيران المعسكر مشتعلة حتى تخدع فرق العدو الاستطلاعية .

وأصدق تطبيق عملى فى هذا المضمار هو ما فعله جوجى بن جنكيز خان (١) بعد أن اضطر للاشتباك مع قوات الخوارزميين فى أول لقاء بينهما" فعندما حل الليل أشعل المغول نيران معسكرهم مظهرين نية الثبات على مواصلة القتال ثم تركوا المعسكر تحت جنح الليل فقطعوا مسافة يومين فى تلك الليلة" (٢) على حين ظل الخوارزميين الى جوار سلطانهم – متوجسين طوال الليل خشية هجوم مباغت يشنه عليهم المغول .

(جـ) الكمائن :

وسيلة دفاعية هجومية فى آن واحد تقوم على خداع الخصم الذى يتوهم أن المغول قد بدلوا خطة الهجوم وفضلوا الانسحاب لانهم عاجزين عن مواصلة القتال فيركن الى الراحة أو مطاردتهم لنيل بعض الغنائم أو الاسلاب . وهكذا كان دأب المغول اذا ملوا حصار احدى المدن فهم يتظاهرون برفع الحصار عنها حتى اذا اطمأن اعداؤهم فى داخل المدينة الى رحيلهم والقوا سلاحهم عاد المغول فجأة الى المدينة مسرعين واستولوا عليها قبل أن يستعد عدوهم للدفاع عن نفسه". (٣)

وأمثلة الكمائن التى طبقها المغول فى الحرب على اعدائهم كثيرة منها :

١ – مدينة (لياو – يانج) الصينية سنة٦١٢هـ ، اذ لما انسحب المغول تاركين أمتعتهم خارج اسوار المدينة انشغل جنود المدينة بحملها الى داخل المدينة فتركوا البوابات جميعا مفتوحة وبلغ من شدة انشغالهم بهذا الامر ان اختلط سكان المدينة بالجنود ، فما أن انبلج نور الصبح حتى انقض المغول عليهم ودخلوا المدينة خلال البوابات المفتوحة من غير مقاومة فقد ذبح المغول أفراد الحامية الصينية". (٤)

٢ – فى مدينة (بخارى) سنة ٦١٦ هـ حيث تقدم عدد كبير من المحاربين الشجعان من الحامية – خارج الاسوار – والتحموا بالمغول فى معركة حامية، فتقهقرت جنود جنكيز خان اول الامر تبعا لخطة موضوعة واطمعوا فيهم جيوش المسلمين حتى قادوهم الى كمين كانوا قد أعدوه وعندئذ طوقوهم من كل ناحية وقطعوا عليهم خط الرجعة الى المدينة وبهذا تمكنوا من القضاء عليهم جميعا". (٥)

---

(١) د. هارولد لامب: جنكيزخان وجحافل المغول ص ٦٠

(٢) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ص ٤٨

(٣) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٨.

(٤) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٨

(٥) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٦٥

٣ ـ مدينة بغداد سنة ٦٣٥هـ ،وكان ذلك فى أيام الخليفة المستنصر ، "وكان جنود الخلافة قد واقعوا المغول بقيادة (جرماغون) فانكسرت ميمنة المغول وميسرتهم ولم يبق الا القلب فحينئذ ظهرت كوامن كانت للمغول وأحاطوا بعسكر بغداد وكانوا قد ألحوا وراء المنهزمين ، فانهزمت حينئذ عساكر بغداد وقتل منهم خلق كثير" (١) .

٤ ـ مدينة حلب سنة٦٥٧ هـ ،وكانت فرق المغول قد وصلت ظاهر حلب بقيادة ايشموت ابن هولاكو) فخرج عسكر حلب لقتالهم ولم يكن ذلك من رأى ثورانشاه فتظاهر المغول بالفرار قدامهم حتى خرجوا عن البلد ثم عاود المغول الهجوم وعاونتهم كوامن لهم فهرب عسكر حلب طالبين المدينة والمغول يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق فى أبواب المدينة خلق من المنهزمين". (٢)

وهكذا برع المغول فى مختلف أساليب الهجوم والدفاع على حين لم يتعظ غيرهم من أساليبهم رغم تكرارها على امتداد فترات زمنية بعيدة كما رأينا.

الاسطول الحربى

تولى قوبيلاى خان عرش الامبراطورية المغولية سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م بعد ان تمكن من حسم الصراع على العرش لصالحه ضد أخيه أريق بوقا.

وقد اختار قوبيلاى بكين لتكون عاصمة له بدلا من قراقوم العاصمة المغولية الام فانتقل اليها واستقر بها وفى نفس الوقت كانت الامور قد استقرت بالنسبة لمختلف أجزاء الامبراطورية فالايلخانيون قد استقروا فى ايران منذ عهد هولاكو خان ،وأولاد جوجى بن جنكيز خان استقروا بدورهم فى جنوب روسيا والقبجاق ، وكذلك الحال فى خانية التركستان وبلاد ما وراء النهر التى كان يحكمها أولاد جغتاى بن جنكيز خان .

وفى الحقيقة كانت تبعية هذه الاقسام للخان الاعظم فى بكين مسألة اسمية لاتكاد تتجاوز أشكال البروتوكول السياسى بحيث لم يعد تحت الحكم الفعلى للخاقان سوى الصين بقسميها: الشمالية والجنوبية ومنغوليا وكوريا .. ومن باب اظهار القوة فقط أرسل قوبيلاى خان لاخيه هولاكو جيشا مكونا من ثلاثين الف جندى لمساندته فى الصراع مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية.. وهو ابن عم لهما معا .

وفى جانب آخر عجزت قوات قوبيلاى عن اخضاع الامير قايدو حفيد اوكتاى الذى أقام لنفسه دولة مستقلة فى آسيا الوسطى . شملت منطقة التاى وغرب منغوليا (٣) ففكر قوبيلاى قا آن فى أن يتجه الى عمل مختلف لم يسبقه اله أحد من أباطرة المغول .

بناء الاسطول :

كان الكوريون يخشون بأس اليابان التى كانت تتمتع فيما يبدو بكثير من مظاهر الثراء نتيجة لصيد اللؤلؤ فوصفوا للخان الاعظم قوبيلاى هذا الثراء وبالغوا فيه حتى بلغ من تأثر

---

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ١١٢
(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٠٢ ، د.السيد العرينى: المغول ص٢٤٧
(٣) د.السيد الباز العرينى: المغول ص ٢٧٢

قوبيلاى بهذا الوصف ان أمر بناة السفن أن يشيدوا له أسطولا ضخما". (١)

وكما توقع قوبيلاى رفض اليابانيون طلب المغول بالخضوع لسلطانهم فى نفس السنة ١٢٧٠م" (٢) فكان هذا الرفض ذريعة لاعلان الحرب.

وجرت أولى محاولات الغزو التى قام بها المغول تجاه اليابان سنة ١٢٧٤" (٣) ومعنى ذلك ان بناء الأسطول قد استغرق ثلاث سنوات تقريبا.. فهو اسطول ضخم فعلا يظهر ذلك من عدد الجنود الذين أبحروا به" من شاطئ الصين الجنوبى حيث انضم جيش مغولى عدده ٤٥,٠٠٠ مقاتل قدموا من كوريا فى شهر يونيو الى جنود الاسطول وعددهم ١٢٠,٠٠٠ مقاتل وأرسوا جميعا فى خليج (هاكو – زاكى) غير أنهم انهزموا بفضل حسن الاستعدادات اليابانية ثم هبت فى ١٥ أغسطس عاصفة عنيفة حطمت الاسطول". (٤)

وعلى الرغم من ذلك لم ييأس المغول ففى نهاية سنة ١٢٧٤ أرسلوا حملة على ظهر سفن كورية استولت على جزيرتى تسوتشيما وايكى ونزل جنودها فيمابعد على ساحل خليج (هاكو – ناكى) فى كيوشو الشمالية حيث نشبت معركة غير حاسمة كان للمغول التفوق فى السلاح والتنظيم العسكرى غير أنهم أقلعوا الى كوريا فى ليلة المعركة نظرا لخطورة مركزهم بسبب العواصف التى أنذرت بتدمير سفنهم" (٥) وعلى هذا فقد عجزالمغول فى خلال الفترة من (١٢٧٤ – ١٢٨١م) عن احتلال اليابان". (٥)

وهكذا رأينا أن قوبيلاى لما تحطم أسطوله فى المرة الاولى استخدم سفن كورية للهجوم على اليابان فى المرة الثانية لكن النتيجة جاءت واحدة فى المرتين غير أنه ظل مصمما على الفكرة ففى سنة ١٢٨١م عاود المغول مهاجمة اليابان بقوات كبيرة حملت على ظهر اسطول كورى وآخر صينى ونزلت هذه القوات فى شمالى كيوشو أيضا وبالرغم من ضخامتها حيث بلغت ١٥٠,٠٠٠ مقاتل أوقف اليابانيون زحف المغول البرى بفضل ماأقاموه من السدود لهذا الغرض كما تغلبوا عليهم فى البحر بفضل ماقامت به السفن اليابانية الصغيرة من خفة الحركة عند الالتحام فى المعركة وبعد حوالى شهرين من القتال هبت عاصفة شديدة دمرت جزءا عظيما من أسطول المغول الضخم ورحلت السفن الباقية بعد أن تكبدت خسائر فادحة. (٧)

وأمام هذه الخسارة الفادحة ومع اصرار قوبيلاى انشئ أسطول مغولى جديد غاية فى الضخامة حتى شبه بالارمادا الاسطول الأسبانى الشهير بل هو أكثر ضخامة فقد كان يتكون من ثلاثة الاف وخمسمائة سفينة وعليه مائة الف مقاتل وفى سنة ١٢٩١م بدأ الهجوم المغولى على اليابان من مخرج سكان الجزر اليابانية ليلاقوه فى أسطول بنوه على عجل وهو أسطول

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٥ ص ٢٢
(٢) د.جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٤٦
(٣) د. هارولد لامب: جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١١٦
(٤) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج٣ ص ٩٢٨
(٥) المرجع السابق ص ٩٦٢
(٦) د.ارنولد توينبى : تاريخ البشرية ج ٢ ص ١٨٠
(٧) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ص ٩٧٠

مثيل بالقياس الى الاسطول المهاجم وكما حدث فى المرات السابقة هبت "ريح عظيمة" حطمت سفن المغول اذ قذفت بها على جوانب الصخور واغرقت من بحارتهم سبعين ألفا وأخذت بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق فى بلاد اليابان". (١)

واضطر قوبيلاى بعد تكرار المحاولة والفشل الى العدول عن مشروعه الخاص باحتلال اليابان فقد تكبد جيشه وأسطوله خسائر فادحة" (٢)

ولعله يمكن ارجاع فشل الاسطول المغولى فى احتلال اليابان الى عوامل عديدة منها :

١ ــ عدم خبرة المغول بفنون القتال البحرى.

٢ ــ عدم وجودة خبرة فنية عالية فى بناء السفن لدى عمال المغول.

٣ ــ اشتراك القوات أو السفن الكورية فى القتال.

٤ ــ عدم ادراك المغول لخطورة الرياح العاتية فى التأثير على الاسطول أو نتيجة المعركة رغم تكرار المواقف نفسها فى مرات سابقة.

غزو الهند الصينية وماحولها :

قرر المغول بعد فشل حملاتهم البحرية على اليابان ان يتحركوا فى اتجاه آخر" ففى سنة ١٢٩٢م توجهت حملة بحرية مغولية للاستيلاء على جاوة غير أنها اضطرت للاقلاع عن هذه الجزيرة بعد نجاح موقت (٣) حيث تحطمت غالبية سفنهم بفعل الرياح أيضا". (٤)

وأعقب ذلك خروج جيش مغولى من كانتون بطريق البحر لاخضاع (تشامبا) فاستطاع أن يستولى على العاصمة فيجايا ولكنه اضطر للانسحاب بعد أن انتشرت الاوبئة بين صفوفه كذلك وصلت حملات برية وبحرية عقيمة الى أنام وتشامبا ومع أنها انهزمت ومات جنودها ذبحا، اعترفت هذه البلاد بالتبعية للامبراطورية" (٥) مما يؤكد استمرار الخوف من المغول.

وفى سنة ١٢٩٧م اغار المغول على باجان عاصمة بورما وحصلوا على الاعتراف لهم بالتبعية ثم عادوا مرة أخرى الى تلك البلاد لتهدئة الروساء المتناحرين سنة ١٣٠٠هـ" (٦)

وهكذا تأرجح نشاط الاسطول الحربى المغولى فى الهند الصينية وما حولها بين النجاح والفشل بسبب سوء الاحوال الجوية أوانتشار الاوبئة ا و مقاومة الأهلين هناك.

ولم يكن اباطرة الصين المغول همموحدهم الذين فكروا فى استخدام الاسطول البحرى فلربما فكر الايلخانيون فى ايران فى هذا أيضا .. يقول ادوار بروى " وقد استقر رأى الدولة الايلخانية فى ايران يوما على ان تهاجم الاسطول المصرى العامل من قواعده فى المحيط الهندى،وهى خطة لم تر النور وان كانت الايلخانية قد أعدت لها بحارة ايطاليين من مدينة جنوى" (٧)

عموما ــ لم يكن المغول موفقين فى لحروب البحرية بنفس الدرجة التى برعوا فيها فى فنون القتال الاخرى.

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٥ ص ٢٢
(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٦١
(٣) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٠
(٤) ارنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ ٢ ص ١٨٠
(٥) وليام لانجر : موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ص ٩٣٠
(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٣٠
(٧) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٥٥٥

استغلال الاسرى فى الاعمال العسكرية

كان المغول – كما ذكرت – يسيئون معاملة الاسرى على وجهالعموم ما لم تكن هناك فائدة تعود من ورائهم على المغول . ولقد قطعت الياسا اى سبيل للرحمة مع هؤلاء الاسرى عندما نصت بقسوة على "أن من اطعم أسيرا او كساه بغير اذن أهله قتله" (١)

وفى الحقيقة كان المغول ينظرون الى الاسرة أياكانت مكانتهم على أنهمعبيد أرواحهم رخيصة لاثمن لها ولا قيمة .

وفى البداية كانت عادة ذبح الاسرى عند المغول عقب نهاية اى حملة حربية فيما عدا عدد قليل يختارونه عند عودتهم الى اقاليم الاستبس راجعة – كما يقول أحد المؤرخين – الى انهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بأولئك الاسرى بعد ذلك" (٢) وعلى هذا كان جنكيز خان يصلب الاسرى نماذج من الخشب او يقطعهم اربا اويغلى أجسامهم فى القدور ، أويسلخ جلودهم وهم أحياء" (٣) ولقد عرضت عند الحديث عن شئون الحكم الى نماذج من العقاب القاتل الذى كان يقع تحت طائلته الاسرى من الحكام والقواد والامراء حتى الخليفة العباسى المستعصم نفسه .

ولم تكن النماذج على كثرتها هى الحالات الوحيدة التى تعرض لها الاسرى مع المغول فقد حدث ان هزم المغول الروس وأسروا عددا من قوادهم وكبلوهم بالاغلال وأقاموا فوقهم سماطا جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر، بينما كان الاسرى الاشراف يموتون اختناقا" . (٤)

وحدث أن أظهر الامراء الروس شجاعة فى محاربة المغول دون جدوى فكان مصيرهم غاية فى القسوة فمنهم أمير اسمه اوليغ وكانوا يلقبونه بالجميل كان وهوعلى الرمق الاخير يشتم الخان ودينه فقطعوه اربا اربا وأمسكوا رفيقه (ريزان) ولفوه بكيس وأحرقوه وكذلك أخذوا الامير (فاسيلكو) خادما للخان (باتو) فلما أبى ذل الخدمة قطعوه اربا وعندما مروا فى طريقهم بقرية اسمها (كوزلسك) ابادوا أهلها عن اخرهم وكان أميرها ولدا صغيرا اسمه فاسيلى فأغرقوه فى الدم" (٥)

وقريب من هذا ما حدث لخورشاه " ركن الدين" الاسماعيلى عندما استسلم لهولاكو فأرسله الى أخيه الخاقان الاعظم منكو فلما وصل ركابه الى (بخارى) أساء حراسه معاملته، ولم يكد يصل الى قراقوم حتى أمر (منكو) بقتله قائلا : انه كان من السفه استعمال خيول البريد فىنقله الى قراقوم" . (٦)

وبرغم هذا القتل فان المغول تنبهوا منذ عهد جنكيز خان الى ضرورة الاستفادة بالاسرى بكل صورة ممكنة " فكان المغول يلجأون الى شتى وسائل التعذيب لحمل هؤلاء

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ١٣ ص ١١٨
(٢) د. رالف لينتون : شجرة الحضارة ج٢ص ١٧٥
(٣) د. ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٤ ص ٢٢٣
(٤) المصدر السابق نفسه ،ص ١٥٨
(٥) باسيليوس فرباوى : تاريخ روسيا ص ٦٣ ، ٦٤
(٦) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٨٣

الاسرى على الاعتراف باماكن النقود والكنوز التى أخفوها". (١)

ثم تطورت الاستفادة من الاسرى فالصناع المهرة والحرفيون نقلوا الى العاصمة المغولية (قراقوم) لتزينها أو للعمل خدما فى دور السادة المغول وزوجاتهم ، والاسرى النابهون استفيد بهم فى تنظيم الدواوين وأعمال البروتوكول . والاسيرات الجميلات تحولن الى سبايا مسخرات فى خدمة السادة المغول يؤدين كل ما يطلب منهن.

وفى المجال العسكرى ظهرت اعمال شاقة كلف بها الاسرى التعساء ، ومن توانى أواعترض اوحاول الفرار كان مصيره القتل ومن هذه الاعمال :

١ — <u>تعبيد الطرق :</u>

كان المغول يهتمون اهتماما بالغا بالطرق لانها وسيلة تسهيل حركة القوافل التجارية من ناحية ووسيلة تيسير حركة الجيوش العديدة من ناحية أخرى ووسيلة تدعيم شبكة البريد المغولية من ناحية ثالثة . ووسيلة نقل المؤن والذخائر من ناحية رابعة ومن هنا أخذ المغول الرجال الاشداء من الاعداء اسرى لتعبيد الطرق" (٢) فكانوا يعملون كالحيوانات تنفيذا لرغبات الخان". (٣)

٢ — <u>أعمال الحصار :</u>

لم يكن المغول أصحاب خبرة فى مواجهة الحصون والقلاع فقد كانوا يجيدون صنوف الحرب فى العراء كما هو الحال فى بيئة الاستبس " وهذا هو ما حدا بجنكيز خان أن ينتفع بخبرة العلماء الصينيين من الاسرى فى اكتشاف طرق بناء الجسور ونسف الاسوار". (٤)

وبالاضافة الى ذلك كان المغول يسخرون جميع القادرين من الاسرى فى حفر الخنادق وتنصيب ادوات الحصار" (٥) بل كان على هؤلاء الاسرى المساكين أن يكونوا بين أيدى المغول كالترس يتقون بهم الرمى وغيره (٦) من قبل المدافعين عن الحصون والاسوار.

وكثيرا ما أكرهوهم بحد السيف الى أن ينفذوا خلال الفجوات التى يحدثونها فى أسوار المدينة وأن يملأوا الخنادق بأجسادهم لكى يعبر عليها المغول." (٧)

فلما عرف المغول استخدام (الخركات) الدبابات كانوا يسوقون الاسارى تحت الخركات نحو اسوار العدو وهم محتمون خلف هذه (الخركات) لا يظهرون". (٨)

وهكذا نهض هؤلاء الاسرى المساكين بمختلف الاعمال الشاقة فى حصار القلاع والحصون فكان مصير أغلبهم الموت واذا سلم واحد منهم بعد هذا كله فان المغول يبادرون الى حز

---

(١) د.جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٦٠
(٢) الكاتب الصينى .ف.يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١٧٠
(٣) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٣، سيد أمير على: خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٤.
(٤) د. هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٨
(٥) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٩
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ص ٨٧، ٩٠
(٧) د. جرانفيل براون : تاريخ الادب فى ايران ص ٥٥٤
(٨) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ص ١١٤

رأسه لتخلصوا منه وليفسحوا المجال للاسرى الجدد الذين سيظفرون بهم فى معركتهم القادمة!!.

٣ - الفرق غير النظامية :

اتسعت جبهات الغزو وأصبح المغول فى حاجة ملحة الى قوات عسكرية كبيرة تعاونهم فى مهاجمة المدن الحصينة أو المدن ذات الكثافة السكانية العالية وعلى هذا الاساس كان المغول" كلما سقطت فى أيديهم مدينة من مدن الصين اخذوا يسوقون أمامهم جماهير الأسرى منها عند اقتحام اسوار المدينة التى تليها فيضطر الصينيون ان يستسلموا لان ذلك خير من أن يقتلوا مواطنيهم. (١)

وما حدث فى الصين تكرر فى اثناء غزو أملاك الدولة الخوارزمية مع شئ من تطوير الفكرة " فقد كان المغول يختارون من بين الاسرى من يصلح للقتال فيكونون منهم قوات غير نظامية وكانوا يوزعون عليهم الاعلام - فى بعض الاحيان - لايهام العدو بأنجيشهم وافر العدد حتى قيل ان عدد المغول عند حصار مدينة(خجند) كان عشرين الفا فقط ، بينما كان عدد الاسرى الذين اجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة". (٢)

سياسة توزيع الغنائم

دأب البدو فى كل مكان وبدافع من بيئتهم التى كانت تضن عليهم فى العادة بالغذاء أو الكساء على الاغارة على جيرانهم طلبا للغنائم والاسلاب وطالما كان الحصول عليها سهلا او كانت هى مفعمة بالوان الثراء فقد كانت تحرك فى النفس البدوية كل غرائز الطمع والاثرة وحب المقاتلة وتأكيد الذات وهى - ولا شك - غرائز عدوانية لو اطلق لها العنان لصارت بواعث تدمير وخراب لاحدود لما قد ينتج عنها من آثار.

ولقد كان جنكيز خان يدرك هذا كله ولذا فقد عمد الى تحريك كل هذه الغرائز المدمرة بعيدا عن منغوليا فأخذ يلوح للمغول ويعدهم بغنائم وأسلاب لم تخطر لهم على بال.

وكان جنكيز خان أحيانا يكافئ الاعوان المخلصين مكافآت سخية ، ولم تكن تلك فى الواقع الا من الغنائم والاسلاب التى يحصل عليها المغول اثناء المعارك. بل ان القافلة التجارية الشهيرة التى قدم بها المغول الى مدينة اترار الخوارزمية - على ضخامتها - لم تكن تحتوى على شئ يذكر من عند المغول فقد كانت عبارة عن اسلاب المغول التى غنموها من الصين الشمالية منذ سنوات قليلة مضت.

ويبدو أن سياسة توزيع الغنائم لدى جنكيز خان كانت عادلة فعلا " فقد كان من عادة فرسان المغول الا يتوقفوا عن القتال ليجمعوا الغنائم وذلك لانهم كانوا يعلمون جيدا أنها ستوزع بالعدل والقسطاس عليهم جميعا فى النهاية" (٣) فقد دأب جنكيز خان على أن يعطى كل محارب نصيبا من الغنائم والاسلاب". (٤)

ولما كانت الياسا قد قررت للجندى من الغنائم مثل ما للضابط من الغنائم بعد أن

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٨٣
(٢) د. فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٦٢
(٣) د.هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ٧٢
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٣

تخصم حصة الامبراطور فان ذلك كان يعنى — من وجهة نظر — الضباط نوعا من الظلـــم لا يناسب مكانتهم العسكرية.

وقد حاول جنكيز خان علاج هذا الامر عندما جعل لكل من برقى الى درجة (طرخان) حق الحصول على الغنائم التى يحصل عليها فى الحرب كاملة دون أن تخصم منها حصـــة الامبراطور فقد كان أولئك — لما ذكرت — معافين من جميع أنواع الضرائب." وكان هذا الحق الذى حظى به (الطرخانات) ممنوحا أيضا للامراء من أسرة الخان". (١)

واستمرت غنائم الحرب توزع شأن الطرائد المقتنصة بين الامراء والقادة والمحاربين" (٢)

غير أن طمع هؤلاء الكبار كان لايتوقف عند حد معين ولهذا تظلم الجنود وشكـــوا الى الخاقان من أن القواد والامراء قد سلبوهم معظم غنائمهم وان سواد الشعب والرعـــاة لم يبق لهم من تلك الاسلاب شئ يذكر وسرعان ما خطر على ذهن جنكيزخان ان يعد حملة جديدة كى تكون هناك غنائم اخرى تمنعهم من القتال فيما بينهم كسابق عهدهم. (٣)

ولقد ظلت سياسة توزيع الغنائم والاسلاب هذه مستمرة لفترة كبيرة حتى اذا مااستقر المغول فى المناطق التى خضعت لهم وأقاموا حكومات ادارية منظمة حلت الضرائب والاجـــور الثابتة للمحاربين محلها.

---

(١) د. فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٥٨

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٢٦٤

(٣) الكاتب الصينى ف. يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٩٧

لماذا صمد المجتمع المغولى ولماذا انهار ؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن المغول قد أقاموا امبراطورية واسعة تفوق فى مساحتها أية امبراطورية عرفها التاريخ .. غير أنها رغم ذلك لم تخرج عن المراحل الاربعة التى حددها ابن خلدون ، البدء - النمو - الازدهار - الانهيار .

وفى عهد جنكيز خان الذى يمثل القوة والانتشار لم تظهر عوامل الضعف ، وفى عهد خليفته أوكتاى ازدادت قوة الامبراطورية وظلت تسير بقوة الدفع فى عهد أحفاده كيوك ومنكو واريق بوقا وقوبيلاى . ثم بدأت تظهر فيها دلائل الضعف والانهيار فى نهاية عهد قوبيلاى قا آن وان كانت البداية الفعلية قائمة قبل ذلك بفترة يقول الدكتور هارولد لامب (١) "وبعد وفاة جنكيز خان ووصول أحفاده الى الحكم بدأت تسرى عوامل الضعف فى المجتمع المغولى" .

ويرى الدكتور بروى أن الانهيار قد بدأ بعد انتهاء مرحلة الفتح حيث أن القوة والاستمرار عند المغول كانتا مرهونتين بالتفوق العسكرى فلما انتهى الدور العسكرى انكشف المغول حضاريا واجتماعيا فانهاروا وتلاشوا .. يقول (٢) " ان المغامرة المغولية المدهشة بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية عظيمة قد حوت فى نفسها جراثيم انحلالها فما أن انتهى الفتح حتى مست الحاجة الى تنظيم وادارة ولكن التفاوت كان عظيما جدا بين البربرية المغولية والشعوب المتحضرة التى شملتها وطمعت فى حكمها" .

ويقول الدكتور رالف لنتون (٣) " وكانت الامبراطوريات التى أنشأها المغول بفضل الغزو والفتح قصيرة العمر على وجه العموم" .

وهكذا نرى أن الاراء السابقة تدور حول الضعف الذى انتاب قوة المغول التى تركزت بصفة أساسية فى الشئون العسكرية ، وان هذا الضعف مرده على وجه العموم الى الفارق الحضارى بين المغول وغيرهم من الشعوب المتحضرة التى احتوتهم حضاريا واجتماعيا واقتصاديا .

وقد رأيت ان أعرض فى ايجاز لاهم عوامل القوة والضعف معا فى المجتمع المغولى ذاك أن اختلال عوامل القوة قد يحولها فى نفس الوقت الى عوامل ضعف

أولا : العوامل العسكرية :

أتاح التفوق العسكرى للمغول على جيرانهم أن يصبحوا سادة الموقف فبدأوا أولا بالتخلص من تسلط حكام الصين الذين كثيرا ما فرضوا عليهم الجزية ثم انقلبوا غازين فاتحين فما استقامت امامهم أية قوات صينية وما أفلحت الحصون والاسوار فى دفعهم عنها وسرعان ما وقعت الصين شمالا ثم جنوبا محتلة تحت وطأتهم وفر الاباطرة الصينيون على غير هدى .

ولم يكن الخوارزميون بأحسن حالا من الصينيين فالسلطان الخوارزمى لم يصمد أمام المغول فى معركة واحدة وهو الذى استمر متوجا احدى وعشرين سنة بكل التيه والغرور وانتهى به المطاف الى جزيرة نائية فى بحر قزوين حيث مات شريدا بلا مأوى .

---

(١) جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٥٥

(٢) تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٧

(٣) شجرة الحضارات ج ٢ ص ١٧٨

ولقد ذهبت أراج الرياح كل المحاولات المستميتة الذى قام بها جلال الدين الخوارزمى والاسماعيليون والعباسيون والروس والبلغار وغيرهم حيثتمكن المغول من هزيمة كل هـؤلاء رغم اختلاف التضاريس والمناخ والظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وفى الحقيقة كان المغول محاربين من الطراز الاول وكانت الدول المجاورة لهم - قبل غزو جنكيز خان - تجهل قدراتهم العسكرية ومميزاتهم القتالية ويؤكد ذلك سرعة الانتشار المغولى فى مساحات شاسعة فى آسيا وأوربا فى سنوات قليلة بعد بدء الغزو .

وبالطبع كانت هناك عوامل عدة أدت الى هذا التفوق المغولى .

١ - مواصفات الجندية :

وتلك توافرت فى الجندى المغولى بصورة لم تكن موجودة عند غيره وأولها الطاعة التامة للقيادة ثم يليها قوة البنية والكفاءةفى الاداء فاذا اضيف لذلك الشجاعة الفائقة والصبر والتعاون والتفانى والاخلاص . وجدنا أمامنا خامة عسكرية ممتازة يمكنها تلبية كافة الاعمال المطلوبة من اجتيازالانهار وتسلق المرتفعات والتلال وارتياد الوديان والقيعان ، ولهذا نجح المقاتل المغولى فى تحقيق النصر فى مختلف الميادين وتحت أقسى الظروف الطبيعية المختلفة مما جعله بحق اسطورة عصره فى ميدان الحرب .

٢ - التدريب :

كانت الجيوش المغولية على درجة عالية من الكفاءة القتالية ذلك أنها كانت فى حركة دائمة لا تنقطع ففى وقت السلم أو فى فصل الشتاء تكون هناك حلقات الصيد الموسمية التى يتدرب فيها الكبار والاطفال علىأفضل طرق اصطياد الحيوانات ومحاصرتها والاجهاز عليها.

كذلك كان المغول يعشقون المصارعة بما فيها من خشونة وصلابة وتنمية لقدرات عضلات الجسم .. وتلك الميزة بالذات تدر وجودها عند غيرهم من الامم المحيطة بهم .. وهى بلا شك عنصر كفاءة وامتياز . كذلك كانت هناك سباقات الخيل والمبارزة - و كلها رياضات عنيفة تحتاج ا لى مهارات خاصة وبراعة مميزة .. ولقد كان المغول يهتمون بهذه التدريبات اهتماما فائقا لا يقل عن اهتمامهم بالاعداد للحرب .

٣ - القوانين العسكرية :

كانت حياة المغولعسكرية بالدرجة الاولى ،فالخيام تنتشر فى دائرة يحيطها أحيانا سياج قوى يخصص له حراسة مشددة اى أنها كانت حياة معسكرات اكثر منها حياة عادية.

واستلزم الامر ،أنتكون هناك قوانين وضوابط عسكرية وهذا ما لم تغفله الياسا التى اشتملت على عقوبات صارمة جدا للمخالفين كانبعضها يتجاوز المخطئ الى عقاب زوجته وأطفاله .

ولم يكن جانب العقوبة القاسية هو الشئ الوحيد فى الياسا العسكرية بل كانت هناك نظم تكوين الفرق وهياكل القيادة ووسائل تنظيم سير المعسكرات وترتيب حركتها ووسائل الاتصال بين معسكرات المغول ... الخ الامر الذى حقق للجيوش المغولية - على تباعدها - سهولة الاتصال وسرعة التلبية كما حفظ لها أدق معانى الانضباط العسكرى بالقياس لعصرها أو للجيوش المناوئة لها .

٤ – مواهب القيـــادة :

مما لاشك فيه أن جنكيز خان – رغم جهالته – كان قائدا عسكريا فذا وموهوبا فمنذ سن مبكرة استطاع استعادة عرش ابيه خان مغول قبيلة(قيات)ثم تمكن من اخضاع كافـــة القبائل المغولية والتركية فى هضبة منغوليا لسلطانه .

ولم يكن جنكيزخان وحده هو الذى يتمتع بموهبة القيادة فقد كان تحت امرته أعظم قواد المغول آنذاك . سابوتاى ، شيبه نويون ، ماهولى وغيرهم من أولئك ا لجبابـــرة الذين دوخوا جيوش آسيا وأوربا معا . (١)

ولقد أدرك جنكيز خان أن القيادة أساس النجاح العسكرى كله ولهذا عزل القـــواد القدامى الين كانوايتولون مناصبهم بحق الوراثة وجعل الوصول الى مناصب القيادة بالكفـــاءة الشخصية وحسن البلاء والولاء". (٢)

٥ – أعمال الجاسوسيـة:

وهى لا تقل أهمية عن المعارك الحربية ذاتها لانها تمثل اولا صمام الامان فـــى مواجهة الاخطار الخارجية المفاجئة . كذلك تكشف أمام القيادة العسكرية مفاتيح النصـــر حيث تضع امكانيات العدو وقدراته على خريطة مكشوفة بحيث يبدو هدفا كبيرا سهلا يمكـــن اقتناصه او التخلص منه.

وقد اعتمد المغول فى ذلك على سرايا الاستطلاع المدربة التى تجيد التسلل خلـــف خطوط العدو بما تملك من وسائل التمويه والخداع.

كذلك استخدموا التجار والاتباع الذين جندوهم طابورا خامسا لهم .

وبالاضافة الى ذلك كله كانت محطات البريد المغولية فى حقيقة أمرها مراكز للتجسس والتعرف على الاخبار بصورة منتظمة ، فلا غرو اذن أن يهتم المغول بهذا الجانب الحيـوى حتى فى أوقات السلم وفى أثناء مباريات الصيد أو التدريب فى المعسكرات .

٦ – تعدد وسائل القتال :

اثبتت التجارب العملية مدى قدرة المغول على خوض الوان القتال المختلفة ففى مجال الفروسية والمبارزة لم يكن لهم نظير بشهادة اعدائهم ولمتكن خبرتهم متوقفة على حرب الصحراء ذاك أنهم هاجموا دولا زراعية تجيد فنون الحرب فى ا لوديان والمنخفضات واجتازوا الاســوار الضخمة حيث أقاموا أمامهم مدارج القش والطين وتسلقوها و استفادوا فى براعة بكافة الخبرات ، العسكرية لدى الصينيين والايرانيين فاستخدموا المجانيق وآلات النار الصينية فى الهجـــوم الذى شنوه على قلاع الاسماعيلية .. واستخدموا خيرة المهندسين الايرانيين فى استكمال غـزو الصين الجنوبية فيعهد قوبيلاى خان . الذى استخدم بالاضافة الى ذلك كله الاسطول فـــى مهاجمة سواحل اليابان وبورما وجاوة أكثر من مرة.

خلاصة القول أن أسلحة المغول وعتادهم – فى الفترة التى اتحدث عنها – كانـت موضع عناية شديدة بما جعلها احدى علامات التفوق العسكرى المغولى. الذى اتقن كل فنـون

---

(١) السيد فرج: تيمور لنك قاهر العالم ص ١٧

(٢) الكاتبالصينى ف.يان: جنكيز خان سفاح الشعوب، جونهامرتن ، تاريخ العالـم جـ ٥ ص ٢٤٠

الحرب بما فى ذلك تأمين مواصلات الجيوش وطرق التموين سواء فى حالتى الهجوم أوالدفاع .

٧ ــ الحرب النفسية :

نوع من التأثير النفسى الفعال يمارس قبيل الاشتباكات بهدف التأثير فى نفوس الاعداء بما يضعف الروح المعنوية لديهم وبزعزع من ثقتهم فى انفسهم أو قيادتهم بحيث يدب اليأس فى النفوس فتخور العزائم وتكون موءهلة للاستسلام أوالفرار قبل الحرب الفعلية .

وقد كان للمغول مظهرهم البشع البغيض فقد كانوا فعلا متوحشين متعطشين للدماء وللتدمير وكانت شهرتهم فى ذلك تسبقهم .

وقد عمل جنكيز خان على اشاعة جو من الفزع والرهبة فى نفوس اعدائه وعمل احفاده على تنمية هذا الاتجاه بكل وسيلة ممكنة .

وبالطبع كانت تلك سياسة عسكرية مغولية ناجحة لكنها لم تكن ناشئة من فراغ فان ما اقترفه المغول من آثام وجرائم كان كفيلا بأن يوقع الرعب فى النفوس التى تخلت عن ايمانها وعن ثقتها فى النصر ، ونذكر من نماذج الحروب النفسية المروعة التى أعلنها المغول فى كل مكان :

أ ــ احراق مدن كاملة كما حدث فى بخارى ذات المساكن الخشبية أو جرجانية التى أغرقت كلها بعد تحطيم السدود المقامة عليها .

ب ــ الابادة الجماعية للسكان فى بعض المدن وذبح الاف الاسرى العزل .

جـ ــ التمثيل بجثث الاعداء وأكل لحومهم ــ احيانا ــ أو شرب دمائهم .

د ــ اقامة الاهرامات من جماجم القتلى .

هـ ــ جمع آذان القتلى فى أكياس امعانا فى اظهار السطوة .

و ــ قتل الاطفال والاجنة فى بطون الامهات .

ز ــ قتل الحيوانات كالقطط والكلاب .

هذا ولقد أثرت فى أول فصول الرسالة ما أورده ابن الاثير فى كتابه الكامل وابن واصل فى كتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب عن مدى الفزع الذى تملك المسلمين بعد أن خرت قوى الخوازميين تحت ضربات المغول وسقطت فى أيديهم كبريات المدن الخوارزمية مثل : اترار وبخارى وسمرقند .. وغيرهم .

الانهيار العسكرى :

خاض المغول غمار كثير من الحروب الخارجية الطاحنة منذ عهد جنكيز خان وحتى عهد احفاده ومنكو وهولاكو وقوبيلاى غير أن موقعة عين جالوت كانت أول هزيمة حقيقية منى بها المغول منذ هذا التاريخ ، ويعتبر انتصار المصريين فيها انتصارا للحضارة وانقاذا للمدنية من هوءلاء الهمج الذين لو لم تدر عليهم الدائرة فى عين جالوت لامتد ضررهم ، ولما كان من السهل درء خطرهم عن العالم والانسانية".

وفى الحقيقة العسكرية اضعفت نتائج عين جالوت قوى الزحف المغولى وقضت على الفكرة التى كانت سائدة عندهم ،وعند الممالك المسيحية بان المغول قوم لايغلبون . (١)

---

(١) د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٥ ص ١٩٨

وفيما يتعلق بموقف المغول في عين جالوت فان الاسباب الاسياسية للهزيمة يمكن ارجاعها الى الاتى :

١ ـ وضوح معظم اساليب وخطط القتال المغولية التى لم تعد أمرا مجهولا بالنسبة للمصريين المحنكين فى القتال .

٢ ـ الاعتماد على كثرة من العناصر الاجنبية فى الجيش المغولى كالارمن والكرج والاكراد وبعض الشاميين .

٣ ـ قلة عدد الجيش المغولى اغترارا بأن النصر موات لاشك فيه.

٤ ـ عدم توفيق القيادة المغولية فى اختيار عنصرى الزمان والمكان المناسبين للقتال.

وأيا كان التقدير النهائى لاثار المعركة فانها بلاشك عرضت سمعة المغول العسكرية لهزة عنيفة جدا كان مفتاح الاجتراء عليهم فى معارك أخرى مثل عين تاس سنة ٦٧٦ هـ ، ومرج الصفر سنة ٧٠٢هـ.

وبصفة عامة كانت هناك أسباب أخرى عجلت بانهيار الاسطورة العسكرية المغولية منها تطور الناحية الخططية فى القتال عند الشعوب الاخرى والتقدم فى انشاء قوات منظمة حسنة التدريب على رأسها قادة محنكون لايقلون براعة عن قواد المغول المشهورين. (١)

وعلى الرغم من ذلك كان بوسع المغول أن يظلوا محافظين على مستواهم العسكرى لكنهم انغمسوا فى كثير من الوان البذخ والثراء واجتذبتهم حياة الاستقرار والدعة فى البلاد التى خضعت لهم فابتعدوا رويدا رويدا عن خشونتهم وصلابتهم والتزامهم بأصول التدريب العسكرى الصارم فتقرر بذلك مصيرهم المحتوم.

ثالثا : العوامل السياسية :

عاش المغول ـ قبل تكوين الامبراطورية حياة رعوية بسيطة لم تستلزم وجود اشكال متعددة للعمل السياسى ذلك أن التنظيم القبلى كان واضحا وملتزما من قبل الجميع كما أن العلاقات بالقوى الخارجية كانت قائمة على الاغارة و السلب فلم تكن ثمة مدعاة لوسائل أو أساليب سياسية فالامر لايتجاوز مجرد تبادل رسل التهديد أوالتفاوض حول الجزية كما هو الحال ـ على سبيل المثال ـ فى علاقاتهم مع الصين.

فلما تكونت الامبراطوبة وامتدت لم يتردد المغول فى الاستفادة من التجارب والنظم السياسية لدى الامم المجاورة المتحضرة ومن هنا بدأت تظهر لديهم أنماط من صور العمل السياسى تمثلت فى اجراءات البروتوكول والمراسم و التى كان منها :

أ ـ استعمال الاختام لمهر الاوامر الرسمية .

ب ـ تقديم التقارير الرسمية للخان.

جـ ـ تسجيل أقوال الخان .

د ـ مراسم توقيع الرتب والالقاب .

هـ ـ مراسم تعيين الولاة أو الوزراء أوخلعهم .

---

(١) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٩٤.

السياسة المغولية :

ارتكزت السياسة المغولية على محورين أساسيين :

أ ـ مركزية الحكم :

وتتمثل فى أن العاصمة المغولية (قراقورم) هى مركز الحكم فى الامبراطورية كلها. فالخاقان الاعظم ـ بالاضافة الى الياسا ـ هو مصدر كل التشريعات والأوامر والانعامات. وكل الحكام الاخرين نوابا عنه فى حكم الولايات وليس لهم حق الاستقلال بشئون الحكم أو ابرام المعاهدات دون الرجوع اليه ولعلنا قد لاحظنا أنا لراهب وليم روبرك قد وصل الى بلاط باتو ومنه استمر الى بلاط الخان الاعظم منكو فى قراقورم. كذلك كان الامراء الروس يقدمون الولاء لباتو فى القبجاق فيرسل بهم الى منكو الخان الاعظم لنفس الغرض.

فلما نقل قوبيلاى قا ان سنة ٦٥٨ هـ العاصمة المركزية الى (بكين) كان ذلك بداية لمرحلة مختلفة" اذ تهددت مركزية الامبراطورية بالتفسخ فقد كان البعد الشاسع بين الخاقان وبين ايلخانات ايران (أحفاد هولاكو) يحول دون سهولة الاتصال بينهما". (١)

ب ـ تقسيم الامبراطورية الى وحدات سياسية :

١ ـ مملكة ايران .. ويحكمها هولاكو وبنوه ولهم حرية الامتداد نحو الغرب.
٢ ـ مملكة التركستان وبلاد ما وراء النهر .. ويحكمها جغتاى بن جنكيز خان وأولاده.
٣ ـ مملكة جنوب روسيا .. ويحكمها أولاد جوجى بن جنكيز خان ويضاف اليها المناطق المجاورة كالقبجاق وخوارزم.
٤ ـ امبراطورية الصين ومنغوليا : وتتبع مباشرة الخاقان الاعظم.

وبالطبع فان هذا التقسيم السياسى كان فى بداية عهد قوبيلاى قا ان رغم أن بعض هذه المناطق كان قد تكون قبل هذا التاريخ مثل التركستان وجنوب ورسيا التى خضعت لحكم القبيلة الذهبية المغولية منذ عهد جنكيز خان نفسه.

وتلاحظ أن المغول فى المناطق المفتوحة قد اكتفوا بمناصب الخاناتية وقيادة الجيوش أما المناصب الادارية فقد وكلوها الى أبناء الشعوب المغلوبة فاختاروا حكاما محليين وثقوا فيهم كى ينوبوا عنهم فى تسيير شئون الدولة كجمع الضرائب والاشراف على الدواوين والمؤسسات الاجتماعية أو التعليمية .. الخ.

الانهيار السياسى:

كان المغول "رجال حرب خبرا منهم رجال حكم وادارة" (٢) فلم تكن خبرتهم السياسية كبيرة، وكانت الامبراطورية واسعة ممتدة تحتاج الى تنظيم اكثر دقة ومرونة وكانت الشعوب الخاضعة لهم أكثر تحضرا وخبرة منهم ولهذا عجزوا فى نهاية المطاف عن الاستمرار طويلا. ولعل هذا ما يدفع بالمرء الى التعرف على المنحدرات السياسية التى سببت الانهيار

---

(١) د.هارولد لامب : جنكيز خان امبراطور الناس كلهم ص ١٦٧
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارةج ٤ ص ٢٢٧

(أ) الصراع على الحكم :

وقد بدأ هذا الصراع المرير منذ عهد جنكيز خان نفسه حيث كان أولاده الثلاثة جغتاى وأوكتاى وتولوى يكونون جبهة معادية لاخيهم الاكبر (جوجى) فقد كانوا يرون أنه ليس بصاحب حق فى أن ينال جزء من السلطان مثلهم نظرا للشك الذى أحاط بصحة نسبه لأبيه " ولهذا فقد غضبوا عندما سمعوا أن جوجى ستكون له مملكة أيضا". (١)

ولقد عملوا دائما على تدمير العلاقة بين أبيهم وأخيهم الاكبر فعندما لم يحضر (جوجى) الاجتماع الاخير الذى عقده جنكيز خان متعللا بظروف المرض " فان الابناء الثلاثة الاخرين مثلوا بين الخان الاعظم وسألوه" ألا تزال تعتبره فى منزلتنا؟ وها هوذا قد ثار عليك وخرج عن طاعتك.. ! (٢)

ولم يرتح هؤلاء الا بعد مصرع أخيهم على يد عمهم الذى أرسله جنكيز خان الى مقر جوجى تنفيذا لهذا الغرض .

ورغم ذلك لم يكن الاخوة الثلاثة متفقين فيمابينهم فقد استاء اتباع (جغتاى) من تعيين (أوكتاى) خليفة لجنكيز خان وتعللوا بأن ذلك يخالف تقاليد المغول التى تقضى بأن يعين اكبر الابناء سنا ". (٣)

وبعد وفاة جنكيز خان سنة٦٢٤هـ نهض ابنه الاصغر (تولوى) بالوصاية على العرش لمدة عامين ثم وافق أخيرا على كره ومضى على دعوة (القوريلتاى) للانعقاد تحت ضغط من الوزير الصينى"بى . ليو. جوتساى" لاتخاذ اجراءات تولية أخيه (أوكتاى) منصب الخاقان الاعظم سنة ٦٢٦هـ". (٤)

ولما مات أوكتاى سنة٦٣٩ هـ ترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش فأخذت جيوش المغول ـ ولم تكن منهزمة ـ تتراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا" (٥) ولقد ظلت الوصية (توراكينا) خاتون تحاول لمدة خمس سنوات كاملة ان تصل بابنها كيوك بن أوكتاى الى منصب الخان الاعظم .

وبعد وفاة كيوك سنة ٦٤٦ هـ شب الصراع على الحكم جليا واضحا بين الامير شيرامون حفيد أوكتاى وبين الامير منكو حفيد جنكيز خان.. وقد نجح الاخير فى الاطاحة بالمؤامرة التى دبرتضده وقتل كل من اشترك فيها وكان من بين القتلى أوغول قاميش زوجة الخان الاعظم الراحل كيوك ووالدة الامير شيرامون ثم الامير شيرامون نفسه فيمابعد.

على أن أخطر صور الصراع المسلح على الحكم كانت عقب وفاة منكوقا أن فى بلاد الخطا (الصين الشمالية) "اذ أخذ أخوه قوبيلاى العساكر وخرج من بلاد الخطا ثم وصل

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٢٦
(٢) د. هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ص ١٣٧
(٣) د.حسن ابراهيم :تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٤ ص١٥٠
(٤) د.بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص٦٤٩
(٥) هـ.ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص ٢٣٨

الخان بالقرب (بكين) وأقام هناك واتفق عظماؤه والاكثرون من المغول أن يكون هو موضع أخيه قا آن .. وأما الاخ الاصغر (اريق بوقا) فقال انه عندما توجه قا آن الى بلاد الخطا سلم اليه الملك فهو الاولى ان يكون موضع أخيه. وحصلت المنازعة والمقاومة. (١)

وانتهى الامر الى انتزاع قوبيلاى قا آن العرش بما لديه من خبرة عسكرية واتباع كثيرين كما أن الظروف كانت مواتية اذ أن الجيوش المغولية التى كانت تغزو الصين كانت تحت امرته والامراء فى معظمهم كان يؤيدونه ويرونه الافضل .

وبدهى أن يستنفذ هذا الصراع جزءا كبيرا من طاقات المغول العسكرية والاقتصادية فقد كان من نتائج هذا الصراع عجز منغوليا عن استيراد القمح من الصين، فاضطر (أريق بوقا) الى ايفاد الامير (آلغو) أحد أبناء جغتاى الى تركستان ليدير أمر استيراد المواد الغذائية والضروريات عامة ومن بينها الاسلحة" (٢)

غير أن (آلغو) كان يعمل بكل طاقته من أجل مصلحته الشخصية ولم يكن فى نيته البتة تنفيذ رغبات (أريق بوقا) اذ لما جمع مبعوثو (اريق بوقا) مايحتاجون اليه منعهم (آلغو) من الرحيل ، وقتلهم ووضع يده على ماجمعوه ووزعه على جنده ثم أعلن الحرب جهرة على (اريق بوقا) الذى كان ملتحما – آنذاك – فى القتال مع قوبيلاى". (٣)

وهكذا أصبح (اريق بوقا) فى موضع لايحسد عليه فاضطر الى التخلى عن منغوليا لأخيه وغريمه فى نفس الوقت قوبيلاى وأن ينسحب الى بلاد القرغيز فى اعالى نهر الينسى ،ولما كان قوبيلاى غير قادر على مواصلة العمليات العسكرية بسبب اندلاع الاضطرابات فى الصين ،فقد اغتنم (أريق بوقا) الفرصة وهاجم حليفه الخائن (آلغو) فاحتل عاصمته (الماليق) واضطره الى الهرب الى تركستان الشرقية". (٤)

فاذا كان هذا هو الحال بالنسبة للعرش الخاقانى فكيف يكون شأن بقية الأجزاء السياسية الاخرى فى الامبراطورية .

فى ايران .. أشتد الصراع على الحكم بين الايلخانات .. تكودار وأرغون ثم بين كيخاتو وبايدو ، ثم بين بايدو وغازان.

وفى التركستان : قام الخاقان الاعظم كيوك بعزل (قراهولاكو) عن الحكم وولى مكانة نديمه فى الخمر بيسو بن جغتاى ، لكن (قراهولاكو) عاد الى الحكم مرة ثانية فى عهد الخاقان منكو وانتهى الامر الى مصرع يسوبن جغتاى ثم زوجته وعقب وفاة (قراهولاكو) تولت زوجته الاميرة (اورغنه) الوصاية على العرش فى التركستان وبلاد ماوراء النهر فلما توفى الخان الاعظم منكو وشب الصراع بين اخويه قوبيلاى وأريق بوقا عين هذا الاخير الامير (آلغو) حفيد (جغتاى) حاكما على لتركستان وبلاد (ما وراء النهر) (٥) فاضطرت الوصية (أورغنه) الى الزواج منه حتى تحفظ العرش لابنها (مباركشاه) . غير أن هذا الامير (مباركشاه)

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩١ ، وانظر بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٦٩٩ ، جون هامرتن : تاريخ العالم ج٥ ص٢٤٤

(٢) د. بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٨٨

(٣) د. بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٧٠٠

(٤) د. بارتولد : نفس المصدر السابق ص ٧٠١

(٥) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٩٠ ، د. السيد العرينى: المغول ص٢٥٦

لم يستقر فى الحكم سوى عام واحد فقط استطاع (براق) بتأييد من قوبيلاى الخان الاعظم أن يجتذب اليه تدريجيا معظم أمراء مباركشاه حتى وضع يده على ما وراء النهر، وقد اضطر مباركشاه نفسه الى الاستسلام لبراق الذى اعتلى العرش ،"ووضع يده على جميع خزائن (الغو)، و (أروغنه) (١).

وفى خانية القبجاق — لم تكن الاحوال بهذا السوء اذا كانت الامور هناك أكثر استقرار — فيما يتعلق بقضية الصراع على العرش — ربما بأثر الاسلام الذى انتشر هناك منذ عهد بركة خان (١٢٥٧ — ١٢٦٦م) • ولم أعثر الا على حالة واحدة أدى فيها الصراع على الحكم الى مقتل الحاكم • فقد تآمر الامير (طقطقاى) مع جماعة من الامراء واغتالوا الخان تلابغا المسلم وتولى مكانه (١٢٩١ — ١٣١٢م) (٢)

(ب) الحروب الداخلية :

ويقصد بها الحروب التى أعلنها الحكام المغول على بعضهم اذ لم يفلحوا فى العادة فى الاحتفاظ بعلاقات طيبة فيما بينهم ومن هنا اشتبكوا فى صراع عسكرى مرير وكان على البلاد الخاضعة لهم ان تتحمل تبعات ذلك كله فارهقت بالضرائب الباهظة والاتاوات وفقدت الامن والاستقرار وتحولت معظم مدنها الى خراب كأنها — كما يقولون — لم تغن بالامس شيئا

١ — بين القبجاق والايلخانية (ايران) :

كان بركة خان زعيم القبيلة الذهبية قد أسلم قبل اعتلائه العرش وكان على خلاف مع أبن عمه هولاكو خان لاسباب عديدة منها :

أ — المحاولة التى قامت بها (براق شين) زوجة طغان بن باتوحين ارسلت الى هولاكو ليتسلم الملك فى القبيلة الذهبية•

ب — ما فعله هولاكو ببغداد عاصمة المسلمين وقتله الخليفة العباسى المستعصم ثم قيامه ببناء المعابد البوذية فى مدينة (خوى) •

جـ — الصراع على مناطق الحدود فى شمالى شرق ايران والتى كانت تجاور حدود القبيلة الذهبية •

ولما وجد (بركة) خان أن المماليك قد هزموا جيوش هولاكو فى عين جالوت سعى فى اجراء التحالف مع الظاهر بيبرس ، وترتب على ذلك اشتعال الحرب بين بركة وهولاكو وانتهى الامر الى هلاك عشرات الالوف من جند الطرفين "وبعد انتصار بركة خان على جيوش هولاكو وقف على رأس القتلى يقول :" قبح الله هولاكو أهكذا تقتل المغل بسيوف المغل ؟! لوكانت كلمتنا مجتمعة لفتحنا الارض بكمالها" • (٣)

وقد سار أباقا بن هولاكو على نهج أبيه فاشتعلت الحرب بينه وبين خلفاء بركة وكانت سجالا بينه وبينهم لكنها بالتأكيد استنزفت كثيرا من قدراته العسكرية حتى بدا عاجزا أمام المماليك المحنكين فى شئون الحرب ، فلما هزمت جيوشه أمام الظاهر بيبرس فى صحراء ابلستين بالاناضول " ذهب الى هناك وتفقد ميدان المعركة وبكى عندما شاهد قتلى المغول

---

(١) د• بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ٧٠٦،٧٠٧

(٢) اسماعيل الخالدى : العالم الاسلامى والغزو المغولى ص ١١٢•

(٣) استراجاتوف : تاريخ القبيلة الذهبية ص ٧٢

مكدسين وحزن على رجاله حزناشديدا (١) ثم أمر بنهب بلاد الروم كلها وقتل كل المسلمين فيها حتى ان ما قتله جنوده كان يزيد على مائتى ألف نفس ". (٢)

وهكذا ظلت العلاقات متوترة بين الطرفين حتى عهد غازان خان المسلم وعلى الرغم من أن منكو تمر خان القبيلة الذهبية ارسل الى المماليك فى مصر يعلمهم باستعداده للتحالف معهم ضد الايلخانيين الا أن هؤلاء اجابوه بأن غازان قد دخل الاسلام، وقد يرجع عن سياسة العداء معهم .

٢ – الايلخانيون والجغتائيون :

كان (الغو) خان حاكم التركستان وبلاد النهر شخصية غريبة الاطوار فعلى من أن (أريق بوقا) قد اختاره ليكون حاكما وعزل من أجل ذلك الوصية على العرش (أورغنه) خاتون الا أنه سرعان ما أعلن الحرب على من تفضل عليه بهذا المنصب وانحاز الى جانب خصمه (قوبيلاى) ثم عاد فتزوج من أورغنه) خاتون بعد أن كان قد طردها من العاصمة (الماليق) "ثم انقلب بدوره معلنا العداء لقوبيلاى الخان الاعظم وأخيه هولاكو". (٣)

وهكذا كانت علاقة مغول جغتاى بالايلخانيين علاقة عداء وحروب بين الطرفين، فقد كانوا يمثلون خطرا حقيقيا يهدد الايلخانيين من الشرق ويمنعهم من انجاح خططهم العسكرية ضد خصومهم الاخرين ، كما كانوا بالفعل أداة تخريب وتدمير فى مناطق خراسان وما زاندران المتاخمة لهم" (٤)

٣ – الجغتائيون والقبجاق :

تولى بركة خان الحكم سنة ٦٥٤ هـ ولم تكن علاقاته – كما سبق – طيبة مع هولاكو أو بنيه .. كذلك لم تكن علاقاته بالجغتائيين بأحسن منها " وكان سبب كراهية (آلغو) لبركة أنه كان يعتقد ان بركة هو الذى دفع الخاقان الاعظم (منكو) الى اجتثاث ال بيته أى أن بركة مسئول عن احداث عام ١٢٥١ م التى هلك فيها معظم بيت جغتاى" (٥)

ونشبت الحرب بين الطرفين وانتهت – كما يقول بارتولد – الى أن هزم عسكر بركة، وأعقب هذه الهزيمة استيلاء (آلغو) على اترار ونهبه اياها .

ويبدو أن هذه كانت المعركة الوحيدة التى وقعت بين الطرفين (٦) فقد ظهرت فى المنطقة بينهما قوة جديدة أزعجت الخاقان الاعظم قوبيلاى وظلت مستمرة طوال حياته. فقد عجزعنها تماما.

---

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٦٢

(٢) الذهبى : العبر فى خبر من غبر جـ ٥ ص ٣٠٥

(٣) د. السيد العرينى: المغول ص ٢٧٢

(٤) د. فؤاد الصياد: الشرق الاسلامى فى عهد أسرة الايلخانيين ص ٤٤

(٥) د.بارتولد : تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص ٧٠٢

(٦) نفس المصدر السابق ص ٧٠٣

٤ ـ قايدو حفيد أوكتـــاى :

كان من نتائج الصراع على العرش بين (اريق بوقا) وأخيه (قوبيلاى) أن أقـــام (قوبيلاى) الخان الاعظم الجديد ـ آنذاك ـ فى بكين وغدت قراقورم مجرد مدينة عاديـــة اذا فقدت أهميتها الاستراتيجية السابقة وأصبحت كأى جزء تابع للخاقان الاعظم واتاح هـــذا الوضع الفرصة لظهور (قايدو) حفيد أوكتاى الذى استولى على غرب منغوليا ومنطقة جبـــال التاى وأعلن نفسه الوريث الشرعى لاوكتاى ووضع نفسه فى منزلة الخاقان الاعظم قوبيـلاى .. وقد سير اليه قوبيلاى جيشا بقيادة ابنه (تمقاق) غير أن قايدو هزمه وبدده". (١)

ولقد ناصر قايدو ـ رغم عدم اسلامه ـ بركة خان ز عيم مغول القبجاق// غير أنــه كان مشغولا بالصراع مع قوة جديدة ظهرت فى غرب منغوليا وجبال التاى ولهذا لم تحـدث بينه وبين هولاكو حروب تذكر غير أن روح العداء التى اظهرها نحو الايلخانيين لم تكـــن الا موءشرا لما قد يحدث فى أى لحظة من اشتباك عسكرى.

فلما تولى براق خان الحكم فى خانية (جغتاى) سنة ١٢٦٦م هاجم أباقا بـــن هولاكو واستولى على خراسان كلها لكن اباقا استطاع بالحيلة استدراج جيش (بـــراق) الى كمين فنزلت به ضربة شديدة سنة١٢٧٠م مر على اثرها منهزما وعاد الى بخـــارى مصابا بجرح بالغ. (٢)

وهكذا أصبح اباقا بن هولاكو ـ رغم انتصاره ـ محاصرا فبالاضافة الى صراعه مـــع خلفاء بركة خان زعيم القبجاق اصبح عليه أن يقاوم انسباءه مغول ابناء جغتاى الذيـــن كانوايغيرون عليه فيشغلونه عن حرب المماليك فى بلاد الشام وما ورائها الى مصر وكثيرا مـــا اضطر ان يحارب على جبهتين وكان طبيعيا ألا ينجح على كلتيهما كما حدث له فى أواخـــر سنة ١٢٦٩ م اذ لم يتمكن من ارسال الجيش الكافى للزحف مع الصليبيين لانهماكه بمكافحـــة جيوش جغتاى وفى سنة١٢٧٣ م اضطر الى تخريب مدينة بخارى لانها كانت قاعدة غـــارات الجغتائيين عليه". (٣)

وفى عهد غازان خان (٦٩٤ ـ ٧٠٣هـ) قام الجغتائيون بمهاجمة خراسان ثانية فقد انتهزوا فرصة عدم وجود قوات ايلخانية كافية فيها وأغاروا عليها بقيادة" أولجاى بن بـــراق " فدمروا المنطقة تماما ووصلوا حتى اقليم مازندران واقتربوا من العاصمة تبريز . لكن الاميـــر (نوروز) تمكن من انزال الهزيمة بهم واجبارهم على الفرار الى بلاد ما وراء النهر لايلـــوون على شئ. (٤)

وفى سنة٧٠٠ هـ/١٣٠٠م اضطر السلطان غازان الى العودة الى ايران فغـــادر دمشق بعد أنعلم أن مغول التركستان الجغتائيين هاجموا خراسان وعاثوا فى شرقـــى الايلخانية فسادا منتهزين خلو البلاد من جنود يدافعون عنها فقام بمحاربتهم وهزمهم وتعقبهـم فى ديارهم". (٥)

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٥٣٠
(٢) أرمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٩٤، ١٩٥
(٣) د.بارتولد: تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٩٥
(٤) د.عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ص ١٩٤، ١٩٥
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢٠٤، ٢٠٥

في تصديه لهولاكو ايلخان مغول ايران" (١) ويبدو أن قايدو كان يبغي من وراء ذلك تكوين جبهة مشتركة تصمد في مواجهة قوبيلاي ومن يحالفه من مغول التركستان وبلاد ما وراء النهر، فلعله استشعر أن قوبيلاي قد عمل على تثبت (براق) خان على عرش الماليق لكي يكون حليفا له في وجه قايدو .

وقد بدأ (براق) المودة – أول الامر – لقايدو فلما وقعت الحرب بين قايدو ومنكوتمر خان القبيلة الذهبيةحاول براق أن يستفيد من هذه الفرصة، فحمل السلاح في وجه قايدو .. غير أن هذا الاخير ما لبث أن أنهى نزاعه مع منكوتمر وأنزل من بعد ذلك ببوراق هزيمة ساحقة على شاطئ نهر سيمون فاضطر براق الى الانسحاببسرعة من تركستان الى بلاد ماوراء النهر" (٢)

ولما تم الصلح بين قايدو وبراق سنة٦٦٧هـ/١٢٦٩ م اتجه هذا الاخير – الى مهاجمة الجزء الشرقي (خراسان) من الايلخانية . في الوقت الذي كان فيه اباقا يستعد لخوض الحرب ضد المماليك في مصر والشام "وبموت بوراق سنة٦٦٩ هـ – صار قايدو السيد المطلق في كل تركستان وبلاد ماوراء النهر". (٣)

ولم يكن (دوا) بن (براق) ٦٧١هـ/٧٠٦ هـ هو الرجل الذي يمكن لبلاد ما وراء النهر أن تنشد على يديه السلم ، ولما كانت الاعمال العدوانية بين قايدو والخان الاعظم قوبيلاي قد ظلت لمدة عشرين عاماتجرى على شواطئ جيجون وسيمون فلقد اعتزم (قايدو) و(دوا) ان يمدا موئتلفين معا – ميدان المعركة حتى بلاد الخان الاعظم (تيمور) الذي خلف قوبيلاي ، ووقعت المعركة فيما بين قراقورم ونهر تامير فانهزم (قايدو) و(دوا) ومات قايدو مريضا وهو في طريقة عائدا الى بلاده" (٤)

وهكذا رأينا الى أي مدى أدت هذه الحروب الطاحنة الى افساد حياة الاهلين في معظم أرجاء اسيا . وكثيرا .. ماكانت اسباب تلك الحروب غامضة لاتعكس سوى الرغبة في التوسع او استظهار العظمة والسلطان أوالسلب والنهب . غير أن عواقبها كانت دائما وخيمة ولا طائل وراءها اذ أنها كانت دائما تعكس مدى افتقار المغول الى روح الترابط أو الحنكة السياسية .

(جـ) الفتن والقلاقل :

لم يكن الصراع على الحكم أو الحروب الداخلية التي خاضها خانات المغول في أجزاء الامبراطورية الواسعة ضد بعضهم ليخلوا من عامل اثارة الفتن والقلاقل وهو عامل – ولا شك – خطير له تأثيره الفعال .

ومن ذلك ما كان يحاك داخل القصور ذاتها مستغلا الظروف والاحداث فقد كانت هناك دسائس البطانات" (٥) ودسائس الاتباع الذين يكيدون لبعضهم سعيا وراء المصالح الخاصة اورغبة في ايقاع الاذى بالاخرين. (٦)

---

(١) د. رجب عبد الحليم : انتشار الاسلام بين المغول ص ٢٣٣

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٥٣٠

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٩٥

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٧.

(٥) د. جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٧٢

(٦) د. بارتولد : تاريخ الترك في اسيا الوسطى ص ١٩٥

وبالطبع فان انتشار الفتن والدسائس يؤدى الى فقدان الاستقرار وعجز الادارة عن ممارسة عملها • وبالتالى الى اضطراب القيادة السياسية وتخبطها فى اتخاذ القرارات ويكفى أن نتذكر ماحدث للوزراء والموظفين فى الدولة الايلخانية كي نتبين خطورة الامر • وحتى فى عهد غازان قد شملت المذابح المتتالية كبار رجال الدولة المغولية فى عهده حيث قضى على معظم امرائه ووزرائه وكبار الموظفين • (١)

ولم تكن هذه النتيجة أكثر رهبة بماحدث فى عهد خلفاء أوكتاى يقول بارتولد (٢) ولم يكد أوكتاى يموت حتى بدأت فترة كثر فيها الحكم بالاعدام وبعد عشرة أعوام كان اعضاء الاسرة الحاكمة أنفسهم أكثر تعرضا لهذا الحكم من غيرهم•

وبارتولد يشير هنا الى فترة الوصاية التى تولت فيها تورا كينا خاتون واستمرت خمس سنوات ثم فترة تولى ابنها كيوك بن أوكتاى ثم الجزء الاول من حكم منكو الذى بدأ عهده بالقضاء على مؤامرات الطامعين فى العرش ومثيرى الفتن والقلاقل حتى يتمكن من توطيد دعائم عرشه •

(د) ضعف شخصية بعض الحكام :

وضعف الحاكم لا يقصد به انعدام خبرته كرئيس أعلى يمتلك مقومات خاصة تؤهله لهذا المنصب فحسب • وانما تمتد الى جوانب أخرى كالضعف أمام الملذات الشخصية التى تشغل عن شئون الحكم ومصالح الرعية •

وعلى سبيل المثال كان الحكام المغول فى غالبيتهم مدمنين للخمر معاقرين لها غير أن كيخاتو كان مصابا علاوةعلى ذلك بالشذوذ • يقول أبو العباس القرمانى " ولما هلك أرغون خان ملك بعد أخوه كيخاتو بن أباقا وكان ينسب الى الفواحش من اللواط والفسق حتى قتل فى ربيع الاخر سنة أربع وتسعين وستمائة" • (٣)

ومن الضعف فى شخصية الحاكم أن يترك قراراته مرهونة بتأثير المقربين أيا كانت هويتهم• " ويكفى أن نذكر بأسرع انهيار مفاجئ للسيطرة المغولية فى الصين ان ذلك قد سهله ضعف الاباطرة الاخر فقد كان يتحكم فيهم أحباؤهم المفضلون او بعض المتطرفين " (٤)

وفى الحقيقة فان وفاة قوبيلاى قا آن كان ايذانا بسقوط المغول فى الصين اذ لم يأت بعده خاقان أعظم له نفس قدراته أو امكانياته الحضارية والثقافية • ومن هنا ظهرت علامات الضعف فى الحكام كالانحطاط الفكرى والادارى وترك الامور فى أيدى المقربين أو فى ايدى النساء • ولقدا شرت الى ذلك عند الحديث عن موقف المرأة المغولية من التدخل فى شئون الحكم وتأثيرها على طريقة اتخاذ القرار•

---

(١) د• عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ١٩٧•

(٢) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٧٨

(٣) القرمانى : كتاب أخبار الاول واثار الاول ص ٢٨٧
وانظر المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٧٥
ابو الفدا : تاريخ المختصر فى اخبار البشر ج ٤ ص ٢٦ : ٢٩
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٠

(٤) د• ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ص ٣٨٨

عموما . فان المقدرة السياسية للمغول لم تكن ابدا فى مستوى قدراتهم العسكرية ، ولهذا فتحوا البلدان ولكنهم عجزوا عن الاستمرار فى ادارتها وتدبير شئونها . يقول الدكتور جمال حمدان (١) " والخلاصة العامة هى ضعف كامن فى النسيج السياسى للاستبس ولهذا كانت دولهم قصيرة العمر، واثارهم هدامة وأرثهم سطحى ومن هنا شبه دورهم فى التاريخ بالشهب والنيازك بين النجوم : داوية وامضة أخاذه محطمة ولكنها مؤقتة عابرة وسرعان ما تستهلك وتحرق نفسها ".

ثالثا : العوامل الاقتصادية :

كان المغول رعاة فى اغلبهم ومن هنا ارتبطت حياتهم بقطعان الحيوانات التى غدت مصدرا للثروة الفردية وطريقا للنفوذ والسيادة فى المجتمع .

وأحيانا كان المغول يعتمدون على الصيد لتعويض فقر المرعى وبخاصة فى فصل الشتاء حين يشتد البرد وينتشر الجدب ويتجمد كل شئ تقريبا .

فلما انتشرت حركة الغزو والفتح احترف بعضهم القتال واصبح له جزء من غنائم الحرب يعود به فى نهاية المعركةثم فرضت للجند رواتبثابتة من ميزانية الدولة ، كما هو الحال فى نظام الدول المجاورة .

ثم كان ان ازدهرت التجارة وتأمنت الطرق ونشطت القوافل وراج التبادل التجارى وزادت حركة الصادرات والواردات بين أجزاء الامبراطورية المترامية الأطراف. وتعددت مصادر الدخل فى الدولة من ضرائب واتاوات ، وجزية... الخ غير أن الحالة الاقتصادية قد تأثرت بعوامل خطيرة رغم ذلك كله .

(أ) النقد الورقى :

كان الناس قد تعودوا على نظام المقايضة منذ فترات طويلة ثم انتقلوا الى نظام استخدام العملة المعدنية من الذهب او الفضة ثم ظهرت العملة الورقية فى الصين. كل هذا والمغول متوقفون عند نظام المقايضة حتىعهد جنكيز خان فلما اتسعت الامبراطورية عمد المغول – تأثرا بالصين الى محاولة تقييم استخدام العملة الورقية فى عمليتى البيع والشراء ثم فى كافة المعاملات المالية على مستوى الدولة مما أدى الى اصابة ميزانية الدولة – تدريجيا بالتضخم المالى. يقول الدكتور ادوار بروى" (٢) ونتيجة لنظام الاتاوات والضرائب بددت ثروة الامبراطورية وكأنها ممتنعة النفاذ، ولكنها تلاشت بالاكثار من النقد الورقى الذى كان أحد اسباب انهيار اليوان".

وفى ايران لم تقبل الجماهير على التعامل بالعملة الورقية (الجاو) وبعد فترة اضطر الايلخان كيخاتو الى الغائها بعد ازدياد التضخم المالى فى ميزانية الدولة واوشك الامر على الانهيار.

---

(١) أنماط من البيئات ص ٧٢

(٢) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٧٧ ،البوان: هو الاسم الذى أطلقه المؤرخون على الاسرة المغولية التى حكمت الصين منذ عهد (قوبيلاى) ٦٥٨هـ/١٢٦٠م

(ب) نفقات الحكـــــام :

عاش المغول سنوات قحط شديد فى منغوليا ثم انفتحوا على دول ذات ثراء عريـــض ورأوا العروش الفخمة تنهار تحت أقدامهم فلما صاروا حكاما عوضوا أيام البوءس والشقاء وقلـــدوا غيرهم فى استظهار العظمة و البذخ الامر الذى وصل الى حد الاسراف وتهديد ميزانية الدولة بالخطـــر .. حتى أن حاجات البلاط الامبراطورى فى عهد قوبيلاى خان ـ بما فيها من بذخ ـ انماكانت تمثل بمفردها واردات ضخمة تفد سنويا الى الدولة". (١)

وبالطبع لم يكن الامر يقتصر فقط على ما يحتاج البلاط المغولى وانما يمتد الـــى شئون أخرى كاقامة المعسكرات الصيفية الترفيهية وحفلات الشراب والولائم المستمرة ومواكـــب الخان الخ .

ولم يكن أغلب الحكام على دراية بالمسائل الاقتصادية وانما كان عليهم أن يطلبوا وعلى موظفى الدولة أن يستجيبوا أيا كانت الاسباب أو النتائج مما أربك ميزانية الدولة فى فتـــرات كثيرة ـ وحمل الاهالى المساكين الكثير من الاعباء الشاقة فعجزوا وعجزت الدولة أيضا.

(جـ) ضعف الادارة ا لماليـــة :

كان الوزير كما ذكرت من قبل يتولى مسئولية الاشراف على الشئون المالية للدولـــة ويكلف من ينوب عنه فى الاقاليم التابعة للدولة بجمع الضرائب والخراج ثم يقوم فى النهايـــة بتقديم تقرير مفصل عن الاحوال المالية للحاكم المغولى الذى لايعنيه من الامر ســـوى الاستجابة لمطالبه الشخصية أولا . ثم تأتى أو لاتأتى مصلحة الدولة بعد ذلك .

وعلىهذا كانت تقاس كفاءة الوزير . فلما كثرت الفتن والدسائس وزادت الاتهامـــات بالاختلاس والسرقة و الرشوة والابتزاز اهتز موقف الوزراء وعجزوا عن النهوض بأعمالهـــم على الوجه الصحيح . فلم تستطيع الدولة الابقاء على ادارة مالية صحيحة تؤمن جبايـــة الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة". (٢) أوغيرها.

وفى الواقع فان أى ادارة مالية كانت مهددة بالاتهام بالاختلاس من أموال الدولـــة وكانت مطالبة فى الوقت نفسه أمام الحاكم بتقديم أية مبالغ مالية مهما كانت ضخامتها والافالاعدام هو النهاية الحتمية ، أيا كانت درجة المثول المالى أومكانته وقد أشرت فيما سبق الى اعـدام جميع الوزراء فى عهد المغول فى ايران باستثناء وزير واحد هو على شاه .

عموما.. كانت هناك مظاهر عامة تؤذن بضعف الحياة الاقتصادية وعجزها يمكـــن ايجازها فى :

١ ـ عجز ميزانية الدولة عن تعمير ماخربته الحروب بين الحكام المغولين انفسهم كالتـــى حدثت بين هولاكوخان وبركة خان او بين اباقاخان وابناءعمومته الجغتائيين الذيـــن حكموا فى التركستان.. الخ.

٢ ـ تكالب بعض الحكام والقواد العسكريين على ابتزاز أموال السكان بالطرق غير المشروعة كفرض الاتاوات وانتزاع الملكية.

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٤٨

(٢) د. ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٥٥٦

٣ – تدهور النظام المالى وتضخم العجز فى ميزانية الدولة.
٤ – فشل نظام النقد الورقى لعدم تقبل الناس له .

رابعا : العوامل الاجتماعيـة :

أ – البـداوة :

اكتسب المغول من بداوتهم العديد من الصفات الاجتماعية المميزة كالصبر والكرم والصراحة والطاعة والتعاون. وكلها صفات ايجابية ساهمت فى تحقيق الترابط الاجتماعى على كافة المستويات داخل المجتمع المغولى. (الاسرة – العشيرة – القبيلة – الدولة) فكان هذا الترابط وسيلة ناجحة فى مواجهة الاخطار الخارجية والطبيعة القاسية والبحث عن مصادر للماء والرعى وفى النهاية كان هو المقياس الحقيقى لقوة المغول.

ومن هنا فان التخلى عن البداوة – وهى معين الصلابة – كان من أبرز مؤشرات الانهيار ،وذلك مالم يكن غائبا عن ذهن جنكيز خان ومن حوله فقد قال جنكيز خان ذات مرة "اننا لم نكن جزءا من الف من (الخطا) يقصد (بلاد الصين الشمالية) و السبب الاوحد الذى مكننا من مكافحتها هوبداوتنا . فان نحن شرعنا فى تشييد المدن وغيرنا عوائدنا القديمة فلن يبقى لنا مجال (١).

فهذا الرأى الذى عرضه جنكيز خان يكشف عن فهم دقيق لاثر البداوة فى حياة المغول ويكشف أيضا عن تخوف وقلق من التغيير الاجتماعى الذى سيكون حدوثه ايذانا بضياع فرص المغول فى الاستمرار .

ويقول الدكتور رالف لنتون (٢). وفى كل مرة كانوا ينبذون فيها حياتهم البدوية كانت تمتصهم الشعوب المغلوبة فى وقت قصير فاصبحوا صينيين فى الصين ومسلمين وفرسا فى أواسط اسيا".

وهكذا فاينما حاول المغول ان يغيروا جلدهم – بداوتهم – كان استمرارهم مهددا بالضياع فى البيئات الجديدة التى انتقلوا اليها حقا.. ان الكثير من القبائل المغولية التى هاجرت واستقرت فى مناطق الفتح عاشت أولا مستقلة وثانيا محافظة على بداوتها فاستمرت لكنها لما سمحت لنفسها بالانفتاح على أهالى البلدان التابعة – الذين لم يكونوا بدوا ولا رعاة وكانوا أكثر عددا وتحضرا – ذابت وفقدت هويتها الاساسية .

ب – العنصريـة :

وتلك كانت قوية جدا لدى المغول. وعمل جنكيز خان على تنمية هذا الاتجاه عند المغول الذين صاروا يرون أنفسهم عنصرا متميزا على غيرهم من الشعوب الاخرى ولهذا عاشوا مستقلين تماما – فى بادىء الامر – عن الشعوب التى خضعت لهم فلما تقادم العهد وانفتح المغول على أهالى الشعوب المتحضرة حولهم وتزوجوا منهم وزوجوهم بدأ غشاء العنصرية ينقشع تدريجيا وبدأ المغول يذوبون فى هذه الشعوب . يقول .ول.ديورانت (٣) واضمحلت دولة المغول فى الصين بذوبان المغول فى جسم الشعب الصينى نفسه فقد تزوج الصينيون من فاتحيهم ومدنوهم وغلبوهم على أمرهم".

---

(١) د. هارولد لامب : جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ص ٢١
(٢)
(٣) قصة الحضارة جـ ٤ ص ٢٢٧.

وهكذانجح الصينيون وغيرهم فى قهر عنصرية المغول وبالتالى فى احتوائهم — حقا ان بعض تجمعات المغول ظلت متمسكة بعنصريتها ولهذا احتفظت باستقلاليتها لكنها غدت فى ظل التطورات العسكرية والسياسية تجمعات ثانوية بلا خطر • كماهو الحال مع بعض الجاليات المغولية التى رفضت — بعد اضطراب الاسبراطورية أن تعود الى وطنها الاصلى فى منغوليا • وقبلت أن تقيم فى مناطق القرم والبلقان وغيرهما فى جنوب روسيا • لكن حتى هؤلاء اصبحوا الان ممتزجين فى الشعب الروسى لدرجة يستحيل معها تعيين حد فاصل بينهما" (١) .

(جـ) التكيف الاجتماعى :

اشرت من قبل الى أن المغول من خلال تكوينهم النفسى والجسمى استطاعوا أن يحققوا التوافق والتكيف مع البيئة القاسية فى منغوليا كما نجحوا خارجها فى التكيف مع البيئات الاجتماعية الاخرى بمالديهم من قدرة على الاستفادة من تجارب الاخرين ، فكان أن اقاموا المستشفيات والملاجئ والسجون كذلك أنشأوا المدارس والمكتبات والمراصد وخصصوا لها الأوقاف للانفاق عليها وساهموا بأموالهم فى تدعيمها فكان أن خطوا بثقة أهل العلم والادب والفن فأخلصوا لهم واسهموابكثير من النتاج الحضارى فى المجالات العلمية والادبية المختلفة بما جعل الحياة فى عصر المغول تمتد الى زمن أكثر مما توقعه الكثير فطالت أيامهم نسبيا فى البلاد المفتوحة بعد زمن الفتح العسكرى •

(د) العدالة الاجتماعية :

حرص جنكيز خان — بعيدا عن مصالحه ومصالح أسرته — على تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية والمساواة بين المغول • غير أن الامر تغير مع الزمن فهبت على حياة المغول رياح الطبقية الواسعة والارستقراطية وظهر نظام الاقطاع قويا متمكنا ومدعما بقوة الخان نفسه فانعكس اثر هذا كله على المغول وظهرت الفجوات الاجتماعية بين أبناء الشعب الواحد مما بادر الى انهيار النسيج الاجتماعى وبخاصة خارج الاستبس يقول الدكتور ادوار بروى (٢) عن ظاهرة التفاوت الاجتماعى بين المغول "وتلك قد خلفت بدورها فى قلب الشعب المغولى هوة بين الاسياد المتشيعين عظمة وبذخا وبين المحاربين البدو • فكان من شأن تخلف المحاربين البدو أن تعذر اخضاعهم للنظام الامر الذى هدد وحدة الامبراطورية بالخطر وكان من شأن تحضر الاسياد من جهة ثانية أن يفقد العنصر المغولى الضائع فى بحر الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها" •

(هـ) الامراض الاجتماعية :

كانت الياسا كقانون تحظى باحترام المغول على فترات طويلة وكان حكام المغول ملتزمين بنصوصها فى أغلب الحالات حتى بعد ان دخلوا الاسلام • وبالرغم من العقوبات الصارمة التى نصت عليها الياسا وأغلبها كان ينتهى الى اعدام المخطئ فان هذا كله لم يحل دون انتشار الامراض الاجتماعية بين المغول كالانحلال وتعاطى الخمور والزنا واللواط أو كالجهل وانتشار الخرافات والسحر والشعوذة •

---

(١) جون هامرتن : موسوعة تاريخ العالم جـ ٥ ص ٢٥٠

(٢) تاريخ الحضارات العام جـ ٣ ص ٣٨٧

كذلك لم تفلح الجهود التى قام بها الحكام المغول لمحاربة الاختلاس والرشوة وفـرض الاتاوات الباطلة ، مماجعل النسيج الاجتماعى للمغول عرضة للتصدع أمام التراكيب الاجتماعيـة الاخرى فى الدول الخاضعة للمغول والتى وان لم تخل من العيوب الاجتماعية - بطبيعـة الحال - الا أنها كانت أكثر قوة واستقرارا منها عند المغول .

ولعل بعد ذلك كله نجد الحديث ينساب بنا الى البحث عن دور المغول فـى الحضارة الانسانية ما لهم وماعليهم . فمن المؤكد أن دورهم لم يكن كله سلبا ، اذ لابـد أن تكون ولو بعض عوامل الايجابية .

أثر المغول فى الحضارة

مفهوم الحضارة :

ينطوى مفهوم الحضارة على جانبين مهمين متوازنين معا .

١ ـ الثقافــة :

بمعنى الرقى فى الافكار النظرية فى القانون والسياسة وقضايا التاريخ والفلسفة والاقتصاد والاداب ،وهى بذلك تعنى تحرير الانسان من هيمنة الغرائز وجمود التقاليد لانها تهديه الى اتباع الطريق القويم .

٢ ـ المدنيــة :

بمعنى الرقى فى تطبيق معطيات العلوم التجريبية كالطب والهندسة والكيمياء والفلك . وهى بذلك تستهدف السيطرةعلى الطبيعة واخضاع البيئة لمتطلبات الانسان .

وعلى هذا ، فاذا كانت الثقافة تعنى تحرير الانسان وتقويمه فالمدنية تعنى تسخير موارد الطبيعة فى خدمته واسعاده (١) ولهذا فهما متوازنان ومتلازمان .

ومن الانصاف عندما نحاول ابراز الاثر الذى تركه المغول فى الحضارة خلال الفترة من ٦٠٣هـ/٧٠٣هـ وهى الفترة التى تبدأ باعتلاء جنكيز خان عرش الخاقانية المغولية وتنتهى بوفاة حفيده قوبيلاى او بعده ببضع سنين ان نفرق بين مرحلتين فى حياة المغول .

(أ) مرحلة الغزو والتدمير :

وتبدأ من سنة٦٠٣ هـ وتنتهى فى سنة٦٥٨ هـ أى من قبل ان يغزو المغول اسراطورية الصين حتى هزيمتهم فى عين جالوت امام المصريين" فقد خرت قوى كثيرة فى آسيا وأوربا أمام زحف المغول المدمر ولذلك يعد انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالمية التى كانت ـ لولا مصر والمماليك ـ على وشك أن تنهار وان تدوسها أقدام المغول المخربة التى اتت على كل مدنية فى كل وطن حلت فيه" (٢)

(ب) مرحلة الاستقرار والامتزاج بالشعوب الاخرى :

وتبدأ عقب هزيمة المغول فى عين جالوت سنة٦٥٨ هـ وتنتهى بوفاة الايلخان المسلم محمود غازان الذى توفى بعد وفاة" قوبيلاى قا آن ببضعة سنين وتوفى عام ٧٠٣ هـ ، وهى مرحلة خفت فيها حدة التوتر بصفة عامة فى معظم أرجاء الامبراطورية وبدأ المغول يستقرون فيها بين الشعوب الاخرى الخاضعة لهم فى الصين والتركستان وبلاد ما وراء النهر وفى جنوب روسيا والقبجاق وايران وما حولها .

ومع ذلك فعلينا أن نلاحظ عدة اعتبارات مهمة :

١ ـ أن هناك بعض مواقف اوجوانب قد تشذ على قاعدة هذا التقسيم فعلى سبيل المثال كان أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٦هـ ـ ٦٣٩ هـ) بالقياس الى غيره من خانات المغول متسامحا عطوفا كثير العطف على المسلمين حتى أشاد به الكثير من المؤرخين امثال الجوزجانى والجوينى ورشيد الدين وكذلك كان منكو بن تولوى

---

(١) أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٩، ٢٠لا

(٢) د.احمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٥ ص ١٩٦

(٦٤٨هـ ــ ٦٥٥ هـ) اداريا حازما متزنا يتضح ذلك من وصيته لاخيه هولاكو قبل أن ينطلق فى حملته الشهيرة على الاسماعيلية والخلافة العباسية فقد ورد فيهــــا " ينبغى أن تجعل رائدك فى جميع الامور العقل الحكيم والرأى السديد وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن وأن ترفه عنهم وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيـــد تعميرها فى الحال ". (١)

أما فى الفترة الثانية ــ فترة الاستقرار والامتزاج ــ فاننا نجد وعلى سبيل المثـال أن الايلخان ارغون بن أباقا (حفيد هولاكو) غاية فى القسوة والبطش فقد حـــرم على المسلمين ان يتولوا المناصب الادارية العليا فى الدولة بل منعهم من مجـــرد الظهور فى البلاط .. كما كان الايلخان كيخاتو بن اباقا (٦٩٠ هـ ــ ٦٩٤ هـ) غاية فى الانحلال أدمـن الخمر ولم يتورع عن اتيان الفسق واللواط حتـــى أن المغول انفسهم ثاروا فى وجهه وقتلوه.

٢ ــ ان العقلية المغولية على امتداد هذا العصر بقسميه ورغم احتكاك المغول بالكثيـر من الشعوب المتحضرة لم تخرج للفكر الانسانى عالما واحدا أو مفكرا أو أديبــا أوفنانا او أى شئ من هذا القبيل وحتى فى المجال العسكرى الذى برعوا فيــه كانوا يستخدمون المهندسين الصينيين فى الهجوم على قلاع الاسماعيلية وكانوا أيضـا يستخدمون المهندسين الايرانيين فى مهاجمة الاسوار والحصون فى الصين أى لــم يكن لديهم مهندس بارع فى هذا المجال . ذلك كله يؤكد على القول أنهــم ــ رغم تغيير الزمن والمكان ــ ظلوا فى معظمهم مغرقين فى البدائية والبداوة.

٣ ــ أن الاعمال السلبية التى وقعت على امتداد المرحلتين كانت تتم بأيدى المغــول أنفسهم مباشرة أما الجوانب الايجابية فانها وان كانت تتم باشارتهم وموافقتهم فــان غير المغول هم الذين نهضوا بعبء اعدادها وتنفيذها . وعلى سبيل المثال ظهـرت فى المرحلة الاولى شخصيات غير مغولية حاولت قدر جهدها ورغم صعوبة موقفهـا أن تقلل من شدة الدمار الذى ارتكبه المغول مثل المستشار الصينى . يى .ليـو. جوتساى ومحمود الخوارزمى وابنه مسعود بك ، والعالم الفيلسوف نصير الديــن الطوسى .

وعلى هذا يمكننا أن نسمى المرحلة الاولى مرحلة السلبيات والثانية مرحلة الايجابيات وهذا من باب العموم.

الآثار السلبيـــة:

١ ــ التدمير والفزع :

لم يعرف التاريخ قوما جبلوا على التدمير مثل المغول. فان المرء يتملكه العجـب من كثرة المدن التى فتكوا بأهلها فى الصين وكوريا والتركستان وبلاد ما وراء النهر وروسيـا وشرقى أوربا وآسيا الصغرى وايران و العراق والشام. فالدماء جرت أنهارا والارواح ازهقـت بلا شفقة أو رحمة قتلوا الرجال والنساء والشيوخ والاطفال والاجنة فى الارحام ولم يرحمـوا الدواب والحيوانات حتى القطط والكلاب !!

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٣٧

وتركوا خلفهم فنونا من الرعب لم يعرفها التاريخ من قبل فبالاضافة الى الابادة الجماعية كان هناك أهرامات الجماجم واكياس الاذن ،وكثيرا ما تملكهم الغضب فأكلوا لحوم أعدائهم وشربوا دمائهم حتى لقد كان الغزوالمغولى بحق كابوسا مخيفا افزع البشرية جمعاء.

وعلى سبيل المثال فى سنة ٦٥٦ هـ اصدر هولاكو أوامره بنهب مدينة بغداد وذبح سكانها فخرج النساء والاطفال من بيوتهم يحملون المصاحف على أكفهم ويتضرعون الى الجنود كى يبقوا على حياتهم فوطئت أجسادهم بحوافر الخيل وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة أيام بالدماء واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال. وأعمل السيف فى رقاب المرضى بالمستشفيات والطلاب والاساتذة فى المجامع العلمية. (١)

والعجيب ان البعض يحاول التماس الاعذار للمغول فيزعم أن البيئة المغول هى التى اودعت فيهم نزعة التدمير والتعطش للدماء..! بل ويدعون أن المغول عندما يعودون الى حالتهم الطبيعية يصبحون أناسا عاديين محبين للخير والتعمير.. الخ

وهذا المثال الذى أوردناه انماكان فى فتح بغداد اى بعيد جدا عن بيئة المغول فى منغوليا وبعيد أيضا من حيث الزمان لانغزو بغداد وقع بعد وفاة جنكيزخان باثنين وثلاثين عاما .. كما أنالخليفة ورجاله كانوا قد استسلموا وخرجوا الى مقر هولاكو طائعين خاضعين.

٢ ــ تبديد القيم الانسانية :

مما لاشك فيه أن أى مجتمع مهما كانت هويته لابد أن يعانى من بعض الامراض الاجتماعية بصورة أوبأخرى. غير أن النسيج الاجتماعى لدى المغول كانيعانى من قصور شديد فى هذا المجال فقد انتشرت بينهم الامراض الاجتماعية والانحلال الخلقى كما شاع لديهم الجهل والخرافات وأعمال السحر والشعوذة.

ولقد نقلوا معهم الى المجتمعات الاخرى التى أخضعوها امراضهم تلك فكانوا وبالا وهلاكا وعبئا ضخما على أهليها وعلى حضارتها ولقد تحمل الاسلام اكبر العبء فى مقاومة ذلك كله.

ومن ناحية أخرى احتوى النسيج الاجتماعى المغولى ــ رغم عيوبه وأمراضه ــ على نزعة عنصريةمتغطرسة فقد نظر المغول الى الاخرين نظرة زراية واستخفاف فاستهانوا بثقافاتهم وحضاراتهم وشئون حياتهم وعاملوها كخدم أو عبيد فى خدمة السادة الاشراف"المغول".

٣ ــ افساد مقومات الحياة:

أ ــ الزراعة:

دأب المغول على النظر الى الزراعة على أنها مهنة زرية لاتليق بهم كما نظروا الى الزراع (أهل الاستقرار) على أنهم فى مرتبة اقل منهم .

ومنهنا فكر المغول فى بادىء الامر فى تحويل أراضى الزراعة الى مراع لخيولهم وحيواناتهم لكنهم اكتشفوا انهم لن يستفيدوا كثيرا من ذلك فرأوا أن يسخروا الفلاحين وأراضيهم فى امدادهم وجيوشهم بما يحتاجون اليه. وذلك بعد أنفرضوا عليهم الضرائب الباهظة التى أثقلت كاهلهم . فلما أخذ هؤلاء المساكين يحاولون الهرب تاركين أراضيهم اعادهم

---

(١) سيد أمير على ،خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٧

المغول بالقوة مكرهين والزموا بسداد الضرائب حتى فى سنوات الجفاف حتى اضطر البعض منهم الى ببع اولاده بيع الرقيق .

(ب) الصناعـــة :

كانت الصناعة لدى المغول أولية ساذجة لا تخرج عن صنع اللبد والسيور والحبال والسروج والجعاب والنشاب وكلها صناعات عرفها الانسان الاول فى مطلع عهد البشرية.

فلما غزا المغول البلاد المجاورة هالهم ما فيها من الوان الصناعة والفنون والزخرفة وبمنطق الانانية وضيق الافق أرسلوا الالاف من مهرة الصناع والحرفيين الى قراقورم عاصمتهم الصحراوية أملا فى انتشالها من مظاهر البدائية والتخلف. ولقد كان بوسع أولئك لو تركوا أن يعيدوا تعمير بعض ماخربه المغول فى بلادهم لكنهم تركوا اوطانهم مكرهين وتحولوا فى غالبية الاحوال الى مجرد خدم او عبيد لدى السادة المغول أو زوجاتهم ومن هنا فقدت المدن الكبرى التى اشتهرت بامكانياتها الواسعة فى الصناعات المختلفة قدرتها على الاستمرار فتراجعت عن تنفيذ ما اشتهرت به من صناعات والتى أشاد بها المؤرخون قبل حدوث الغزو المغولى . كما فى كتاب آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى ومعجم البلدان لابن ياقوت الحموى وغيرهما.

غاية الأمر أن الصناعة فى مرحلة الغزوتقهقرت الى مرتبة أدنى بكثير مما كانت عليه فى ذى قبل.

(جـ) التجارة والاقتصاد :

لم يكن المغول تجارا بالمعنى المفهوم اذ لم يتجاوز الامر أكثر من أن نساءهم كن يمارسن الوانا من المقايضة فى الاسواق مع التجار الاجانب وتأكد المغول أن التجارة على المدى الواسع سوف تعطيهم فرصة الحصول على مواد وأشياء جديدة لم يكونوا ليعرفوا عنها شيئا فعمدوا الى تأمين الطرق التجارية وحمايتها لكن هذه الطرق تعرضت للدمار أثناء حركة الغزو فى أيام جنكيز خان ثم أوكتاى بل تهددت حياة التجار اثناء الحروب الطاحنة التى شبت بين هولاكو وبركة أوبين أباقا وبراق أوبين قوبيلاى وأخيه أريق بوقا - فقد أدت هذه الحروب الى كثير من الخراب حتى أن الناس لم يتبق لهم شئ يتبادلونه واصبح الاقتصاد فى مجملة اقتصاد حرب لان الاستقرار تبدد والامن انهار وأصبح الناس فى كرب عظيم.

٤ - تشبث الحياة العقلية :

لكى يدرك المرء مدى فداحة التخريب الذى أنزله المغول بالحضارة عليه أن يحاول استجماع بعض ما كانت عليه الحركة الفكرية والادبية والعلمية قبل الغزو المغولى وان الذاكرة لتعجز عن الاحتفاظ باسماء من ساهموا فى انماء هذه الحضارة". (١)

---

(١) لمزيد من الايضاح والتفاصيل راجع: موسوعة ا لنظم ولحضاة الاسلامية ،الجزء الاول (تاريخ المناهج الاسلامية) والجزء الثانى (الفكر الاسلامى منابعه وآثاره) للاستاذ الدكتور احمد شلبى .. وفيما يتعلق بالحضارة الصينية . رالف لنتون (شجرة الحضارة) - ول ديورانت (قصة الحضارة) وادوار بروى (تاريخ الحضارات العام) .

والغريب أن المغول الذين لم يعرفوا شيئا عن الحضارة استمتعوا بتدميرها ثم بزعم بعض المدافعين عن المغول أنهم فعلوا ذلك خوفا منها ..!! والحقيقة شئ غير ذلك تماما ففي بخارى سنة٦١٦هـ وتنفيذا لأوامر جنكيز خان فقد قام الجنود على الفور بنهب المدينة ثم تحولوا للعبث بالمقدسات الاسلامية فحملوا الى فناء المسجد الكبير عدة صناديق تحوى المصاحف التى كتب فيها القرآن الكريم بخطوط ممتازة وألقوا بها تحت حوافر الخيل ثم احضروا كئوس النبيذ والمغنيات وصاروا يشربون ويرقصون ويسمعون" (١)

وماحدث فى بخارى كان صورة لما حدث وسيحدث لغيرها من المدن وهكذا "قضى الغزو المغولى - بكل أسف - على الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى فعلى سبيل المثال أضعف الغزو المغولى المكانة الادبية التى امتازت بها بلاد ما وراء النهر بعد أن كان الاهالى فى نيسابور ،ومرو يتنافسون فى ميادين الأدب ويتبارون فى الشعر والنحو والطب". (٢)

كذلك لم يتيسر لاى من بخارى وسمرقند ان تستعيدا أبدا سابق نشاطهما العقلى وصارت الحياة الفكرية فيهما وقفا على الاشتغال بالفقه والتصوف". (٣)

أما فى بغداد فان الكنوز الفنية والأدبية التى جمعها الخلفاء العباسيون المتعاقبون زهاء خمسة قرون قد دمرت عن آخرها ، وكذلك دمرت القصور والمساجد والضرائح بغية الحصول على قبابها الذهبية" (٤)

هذا.. ولقد كان من الفنون الهامة التى اهتم بها المسلمون صناعة التحف المعدنية وصناعة الزجاج والخشب وكان لهذه الصناعات جميعها مركز خاص قبل الغزو المغولى فاصيبت عقب هذا الغزو بركود عظيم . ورغم أن المتخصصين فى صناعتها حاولوا ان ينهضوا بهذه الصناعات من جديد . الا أنهم لم يفلحوا فى اعادة ما كان لها من مكانة قبل الغزو" (٥).

ولقد لاقت المكتبات ونفائس الكتب التى أبدع تأليفها كبار العلماء والمفكرين مصيرا محتوما.. وان المرء ليدهش من سر تلك المتعة الغريبة التى كان المغول يجدونها فى تدمير الكتب والخلاص منها .

على أن أخطر النتائج السلبية للغزو المغولى فى ايران كانت تقهقر اللغة العربية عن مكانتها الممتازة التى كانت تشغلها هناك فى ميادين العلم والأدب باعتبارها لغة القرآن الكريم اول مصادر الخلق والابداع فى الحضارة الاسلامية الزاهرة .

الاثار الايجابية :

انتصرت مصر للحضارة الانسانية كلها فى عين جالوت عام ٦٥٨ هـ وقد كانت المرة الأولى التى يهزم فيها المغول عسكريا بهذا الشكل المدوى كما كانت مفتاحا لهزائم مغولية عديدة امتدت من عهد هولاكو حتى نهاية عهد غازان.

---

(١) د.أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٧ ص ٧٤٤
(٢) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦٥
(٣) ارمنيوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨١
(٤) سيد أمير على : خلاصة تاريخ العرب ص ٣٤٧
(٥) حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٦٩

ولا تتوقف قيمة هذا النصر العظيم عند الناحية العسكرية وحدها .. فقد أزيلت من النفوس معانى الرعب والفزع والهلع التى استولت على الناس عشرات السنين وأصبح هناك أمل فى عودة الاستقرار والامان الى مراكز الحضارة السابقة.

والغريب أن المغول وقد انقشعت أسطورة التفوق العسكرى وانكشفت قدرتهم الحقيقية أمام المصريين لجأوا الى الغرب المسيحي للتحالف معه ضد المسلمين فى مصر والشام والاغرب أن الكنيسة فى أوربا والملوك فى شرق أوربا وغربها قبلوا هذا التحالف مع المغول – على جهلهم وعنصريتهم – ضد المسلمين...!! وأشد من هذا وأعظم أن المغول القبجاق وقد أسلموا مع بركة خان (٦٥٥هـ – ٦٦٤ هـ) قبلوا التحالف مع أخوانهم المسلمين ضد هولاكو خان أشهر سفاحى عصره.

ومن ناحية أخرى شهدت هذه المرحلة انتهاء حركة الغزو التى بدأت تتلاشى تدريجيا بعد وفاة هولاكو حيث مدت أجزاء الامبراطورية كلها وكأنها مستقلة عن سلطان الخاقان الاعظم فى بكين وبدأ المغول يستقرون بشكل ثابت بين أهالى البلاد المفتوحة .. وأخذ خانات المغول يوسعون عواصم ممالكهم ويجددونها أباقا اختار تبريز عوضا عن مراغة رغم قربهما وبنى بركة "سراى" جديدة بل ان عاصمة المغول المركزية نفسها انتقلت مع مطلع حكم الخاقان الاعظم قوبيلاى ٦٥٨ هـ – ٦٩٣ هـ من "قراقورم" مدينة الرمال السوداء الى بكين عاصمة الصين الشمالية الشهيرة، وبدت منغوليا مجرد جزءا تابع للمغول المقيمين فى الصين.

ومع هذا التلاحم مع شعوب الحضارات الخاضعة للمغول ظهرت لدى خانات المغول – وبشكل محلى – الدواوين والمراسيم الملكية وأجهزة الادارة وعمد المغول الى تغيير ألوان حياتهم بشكل عام. حيث بدأ لون جديد من الصداع لا أثر فيه للقوة العسكرية .. فقد بدأت الحضارات تعاود نشاطها من جديد ونهض الاسلام من تحت أطلال عظمته ونهضت معه حضارته الباقية فاحتوت المغول فاذا هم بعد فترة مسلمون فى ايران والتركستان وبلاد ما وراء النهر فى بلاد القبجاق وأولئك على وجه الخصوص عملوا على نشر الاسلام فى جنوب روسيا وبعض دول شرق أوربا.

" أما فى الصين فانه بمجرد انقضاء عهد الحروب والفوضى وبداية الامتزاج العنصرى بين المغيرين والاهلين افاقت الحضارة الصينية من سباتها وانتعشت انتعاشا يبهر الانظار فلعل دم المغول الجديد قد بعث القوة فى أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة كما يقال فقد قبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم وحضروهم وارتقوا ابهم". (١)

وبدأت تختفى تقريبا صورة الحاكم الامى الذى يجهل القراء والكتابة ذلك أن الجيل الذى تعلم الخط الاويغورى ومبادئ العلم وأصول الحكم قد غدا على قمة السلطة الان فى مختلف ارجاء الامبراطورية.

وبتأثير رجال الحضارة عمد المغول الى تدعيم الاوقاف فظهرت المستشفيات العامة والملاجئ ودور رعاية المسنين والعجزة والايتام واقيمت فى بكين وتبريز وغيرهما المعاهد العلميةو المراصد الفلكية وشجع بعض خانات المغول العلماء والمفكرين فافتتحت المكتبات

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٤ ص ١٠٧، ١٠٨

العامة وازدهرت حركة الترجمة والتأليف فى عدد من العلوم والاداب كالتاريخ والفلسفة والطب والفلك .

وقد عمد بعض سلاطين المغول بعد أن اكتشفوا مقدار ما ارتكبه اسلافهم من جرم فى حق الحضارة وأصحابها - الى تشجيع بعض الصناعات المحلية كصناعة الفخار ونجارة الخشب والتصوير والرسم والسجاد والنسيج على أن هذا كله لم يخل من رغبة فى تطوير العاصمة وحدها وتجميلها واقامة مقبرة فخمة للخان فيها على غرار مافعله السلطان السلجوقى سنجر فى عاصمته (مرو) قبل اكثر من قرن من الزمان . وفى الحقيقة لم يتجه المغول الى ذلك الا فى عهد السلطان محمود غازان ٦٩٤ - ٧٠٣ هـ وأخيه" الجانيو" الذى بنى لنفسه مدينة جديدة اسماها "السلطانية".

على أن أهم الايجابيات التى تحققت مع مجيء المغول كانت اسقاطهم كافة الحواجز السياسية والعوائق المادية التى كانت تعوق الاتصال بين آسيا وأوربا وفى الحقيقة .فان الغزو المغولى الصارم كان قد كشف قبلاعن حقيقة الدول التى هيمنت على الحضارات - آنذاك - فى آسيا . فاذا بها ممالك ضخمة منتفخة الاوداج لكنها فى الوقت نفسه تخفى وراء قشرتها الظاهرية القوية كل معانى الترهل والخور والعجز .

وقد ترتب على هذا الاتصال الذى حققه المغول نتائج مهمة.

١ - توسيع دائرة التبادل التجارى بين قارتى آسيا وأوربا وخصوصا بين شرقى آسيا وغربى أوربا حيث نهضت المدن الايطالية التجارية الشهيرة مثل جنوة والبندقية بدور خطير فى تدعيم التجارة واقامة مراكز تجارية مهمة ومستعمرات على امتداد طرق القوافل فأدى ذلك الى تنشيط الحياة العامة فى بعض المدن الرئيسية كتبريز عاصمة الايلخانيين وسراى عاصمة القبجاق.

٢ - كثرة تبادل السفارات السياسية بين المغول وملوك دول غرب آوربا انجلترا وفرنسا والبابا فى روما والامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية أدى الى كشف الغطاء عن حقيقة حياة المغول ونظمهم وعاداتهم وتقاليدهم أمام الغرب على حين أطلعوا هم على ما لدى الغرب من نظم وأساليب فى الحياة والحكم والادارة وكذا فى الاتجاهات الدينية المسيحية الكاثوليكية .

٣ - اقبال الكثيرين من المغامرين والمبشرين الكاثوليكيين على اقتحام آسيا فى اتجاه بلاد المغول والصين ومن أشهر هؤلاء ماركوبولو وأبوه وعمه . ومن هؤلاء من كتب مؤلفات مهمة عن تاريخ المغول وحياتهم وكل ما يتعلق بهم لدرجة أنه قد قيل أن ما كتبوه كان سبب فى تشجيع حركة الكشوف الجغرافية التى نهض به ماجلان وغيره، ومنهم من قام بمهمة السفارة المزدوجة بين خانات المغول فى الصين والبابا فى روماولقد بلغ من شدة اعجاب الخاقان الاعظم قوبيلاى قا آن بماركو بولو أن عهد اليه - بالاضافة الى ما سبق - بحكم احدى الولايات فى الصين الفترة طويلة تقارب عشرين عاما.

٤ - ازداد الامتزاج بين الحضارتين الصينية والاسلامية فظهرت فنون الصين فى النقش والرسم والالوان على أوانى الخزف والمعدن والمنسوجات بعامة فى ايران فبلغت درجة عالية من الجمال والاتقان . كما أن الموظفين والمترجمين والدعاة البوذيين الذين صحبوا المغول الى ايران لابد أن يكونوا قد أثروا فى الحياة هناك بصورة أو بأخرى.

نقطة أخيـــرة :

اختلفت آراء المؤرخين حول النتائج التى أسفر عنها الغزو المغولى فمعظم هـــذه الآراء براهم مفسرين لاخير فيهم ولا ما فى الذى جاء معهم وبعض الاراء يرى أن هذا الغـــزو قد تضمن فى ثناياه بعض جوانب من الخير فلم يكن كله شر وعلى رأس هؤلاء المستشـــرق الروسى بارتولد والمستشرق الانجليزى جرانفيل براون .. ولكن بعض الاراء وان اعترفت بمثالـــب المغول فانها توشك أن تمتدحهم وتثنى عليهم بأكثر مما يستحقون ومن ذلك القول " ان اختلاط المغول بالمسلمين قد أدى الى خلق جيل جديد من العرب والمغول ونتج عن هذا الخليـــط تجديد فى الحياة العقلية فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون فى تفكيرهم عن تلـــك الطائفة التى عرفها العالم الاسلامى قبل تلك الغزوات المغولية . وقد نتج عن هذا تغييـــر فى الحياة الثقافية الاسلامية بوجه عام وخاصة بعد أن طبع المغول المسلمين فى هذه البـــلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصة التى حملوها معهم من موطنهم الاصلى والتى اقتبسوها عـــن الصينيين بعد غزوهم بلادهم". (١)

وقد يقبل المرء – على حذر وتشكك – القول بأن المغول قد حملوا معهم كنـــوز الصينيين الى غرب آسيا، وكذلك القول بأن حضارة المسلمين لابد أن تكون قد انعكســـت على المغول أنفسهم وبمعنى أدق على الذين اسلموا منهم بصفة أعم أو أغلب.

وقد تمضى أكثر من هذا فنقبل القول بأن اندماج الحضارتين الصينية والاسلاميـــة – على اختلافهما – قد أدى الى ظهور آراء جديدة واكتشافات حديثة لم تكن موجودة من قبـــل وان هذا كله أدى الى انتعاش واضح فى جانب أو أكثر من جوانب الحضارة بعامة.

لكن تبقى اسئلة عديدة حول الرأى السابق :

١ – أين ومتى ظهر هذا الجيل العربى المغولى ؟! أيكون فى العراق أم الشام أم فى ايران؟ وما هوالنتاج الذى قدمه هذا الجيل بالتحديد ؟

٢ – ما الطابع المغولى الخاص الذى طبع المغول المسلمين به ؟

٣ – ماهى الثقافة الخاصة للمغول ؟ أهى معتقدات البوذية ؟ أم أفكار كونفوشيـــوس أم مجموعة من نظم الحكم وأساليب الادارة ؟

٤ – كيف أثرت هذه الثقافة المغولية المأخوذة عن الصين فى تغيير الثقافة الاسلاميـــة بوجه عام ؟ أو حتى بوجه خاص ؟

وفى الحقيقة وعلى قدر علمى فان اثنين مغوليين كانا يتمتعان بصفة الثقافة قوبيـــلاى قا آن الخان الاعظم فى بكين وكانت ثقافته صينية صرفة والسلطان المسلم محمود غازان فـــى تبريز وكانت ثقافته اسلامية ساعدته كثيرا فى اجراء كثير من الاصلاحات الاجتماعية والادارية فى عهده مع المام بعديد من اللغات غير المغولية . غير أن المنية لم تمهله فمات فى عنفـــوان الشباب وخلفه أخوه (الجانيو) فكان للاسف صوره من عمه الايلخان كيخاتوبل اشد ضررا وايلاما.

هذا .. وكانت فترة ولاية قوبيلاى قا آن قد انتهت بوفاته سنة ٦٩٣ هـ على حين اعتلى غازان عرش الايلخانية فى ايران سنة ٦٩٤ هـ اى أنهما غير معاصرين لبعضهما من الناحية الادارية او السياسية .

---

(١)

غاية القول أن كلامن الحضارتين الاسلامية والصينية قد استعادت مكانتها بعد زوال فترة الغزو المغولى المروع فلما استردت نفسها هضمت الغزاة فلم يبق لهم من أثر لأنهم ما ذهبوا الى مكان أو غادروه .

فالحضارة الانسانية هى الباقية وهى الكلمة الطيبة التى أشار اليها القرآن الكريم فى قوله تعالى " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون" (١).

---

(١) سورة ابراهيم الاية رقم(٢٤،٢٥)

قائمة المصـــادر

أولا : المصادر العربيــة :

ابن الاثير : الجزرى (على بن أحمد بن أبى الكرم)
١ ـ الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة سنة ١٣٠٣هـ

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا
٢ ـ الفخرى فى الاداب السلطانية و الدول الاسلامية ـ مطبعة الموسوعات سنة١٣١٧هـ مصر ـ باب الشعرية ٠

ابن العبرى : غريغورس ابو الفرج بن أهرون الطبيب المالطى
٣ ـ تاريخ مختصر الدول ـ المطبعة الكاثوليكية ـ ببروت ـ لبنان ١٩٥٨

ابن الفوطى: كمال الدين عبد الرازق
٤ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى أخبار المائة السابعة ـ مطبعة دار الكتـب المصرية ـ القاهرة سنة ١٣٩١هـ

ابن الوردى : زين الدين عمر
٥ ـ تتمة المختصر فى أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردى ـ جـ ٢ ـ المطبعـة الوهابية ـ القاهرة ـ الطبعة الاولى سنة ١٢٨٥هـ

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى
٦ ـ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ـ مطبعة الشعب ـ القاهرة سنـة ١٩٦٦

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكى
٧ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ١ ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦ـ تحقيق الدكتور احمد يوسف نجاتى ٠
٨ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ الجزء السابع ـ نشر الهيئة المصريـــة للتأليف والنشر ـ ا لقاهرة ـ سنة ١٩٧٠

ابن خلدون : ولى الدين
٩ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم مـن ذوى السلطان الاكبر جـ ٥ ـ مطبعة ببروت ـ ١٣٩١ هـ /١٩٧١م

ابن‌عربشاه : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم
١٠ ـ عجائب المقدور فى نوائب تيمور ـ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ـ سنة ١٩٧٩ تحقيق الدكتور على محمد على ٠

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن‌عمربن كثير القرشى
١١ـ البداية والنهاية فى التاريخ جـ ١٣ ـ مطبعة السعادة ـ بجوار محافظة مصر ـ القاهرة سنة ١٣٥١هـ

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم
١٢ـ مفرج ا لكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٤ ، مكتبة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٢

ابوالفدا : عماد الدين اسماعيل بن الملك الافضل على صاحب حماه
١٣ـ كتاب المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ بالقاهرة ـ الطبعة الاولى

الحافظ الذهبى: (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد عثمان)
١٤ـ العبر فى خبر من غبر جـ ٥ ـ مطبعة حكومة الكويت ـ الكويت سنة١٩٦٦
١٥ـ دول الاسلام جـ ٢ ـ الطبعة الثانية ـ حيدر آباد سنة ١٣٣٧

الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد
١٦ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ المجلد الثالث ـ جـ ٥ ـ المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ـ ببروت

الديار بكرى : حسن بن محمد الحسن
١٧ـ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ـ جـ ٢ ـ المطبعة الوهابية ـ مصر ـ مؤسسة شعبان للنشر ـ ببروت .

الشوكانى : محمد بن على
١٨ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ جـ ٢ ـ مطبعة السخاوى القاهرة الطبعة الاولى سنة١٣٤٨هـ

الصدفى : رزق الله منقريوس
١٩ـ تاريخ دول الاسلام ـ جـ ٢ ـ مطبعة الهلال بالفجالة ـ القاهرة ـ سنة١٩٠٧م

القرمانى : العباس احمد بن يوسف الدمشقى
٢٠ـ كتاب أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ـ توزيع مكتبة المتنبى ـ القاهرة ـ طبع عالم الكتب ـ ببروت .

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود
٢١ـ أثار البلاد وأخبار العباد ـ نشر دار صادر ببروت سنة١٩٦٩م

القلقشندى : ابو العباس أحمد
٢٢ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشا ـ جـ ٢ ـ مطبعة مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩١٩م القاهرة

الكتبى : فخر الدين محمد بن أحمد
٢٣ـ فوات الوفيات والذيل عليها ـ جـ ٤/١ ـ مطبعة دار صادر ببروت سنة١٣٧٤هـ

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على
٢٤ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ جـ ١ ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤ ـ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة
٢٥ـ الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) ببروت سنة١٩٥٩

النسوى : نور الدين محمد أحمد بن أحمد بن على بن محمد المنشئ
٢٦ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة سنة١٩٥٣ تحقيق حافظ أحمد حمدى

النظامى العروضى السمرقندى
٢٧ـ جهار مقاله(المقالات الاربع) مطبعة لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٤٩ الطبعة الاولى: ترجمةعن الفارسية الدكتور عبد الوهاب عزم والدكتور يحيى الخشاب

رشيد الدين فضل الله الهمذانى: فضل الله بن عماد الله بن الخير بن موفق الدولة
٢٨ـ جامع التواريخ ـ المجلد الثانى ـ جـ ١ ـ مطبعة وزارة الثقافة سنة١٩٦٠م نشر كاترمير ـ ترجمة الدكتور محمد صادق نشأت و الدكتور محمد موسى هنداوى ، والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد.

مفضل أبو الفضائل
٢٩ ـ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد جـ ٢ ـ مكتبة مدرسة القضاء الشرعى ـ القاهرة سنة ١٩٣٠

م. م. الرمزى
٣٠ ـ تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار ـ جـ ١ ـ المطبعة الكريمية والحسنية ، ببلدة أور بنوزع (تركيا)

ثانيا : المراجع العربية :

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور)
٣١ـ العرب والتتار ـ المكتبة الثقافية بوزارة الثقافة سنة١٩٦٣ ـ القاهرة
٣٢ـ التاريخ الاسلامى آفاقه السياسية وابعاده الحضارية ـ مكتبة الانجلو المصرية سنة١٩٧٦ القاهرة

ابراهيم زرقانه (دكتور)
٣٣ـ جغرافية السلالات البشرية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة سنة١٩٨٥
٣٤ـ العائلة البشرية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٧٥

أحمد جاب الله شلبى (دكتور)
٣٥ـ موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٥ ص ١٩٦٧
٣٦ـ موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٧ سنة ١٩٧٧
٣٧ـ الفكر الاسلامى منابعه وآثاره جـ ٢ ـ الطبعة السادسة سنة١٩٧٨
٣٨ـ اديان الهند الكبرى ـ الطبعة السابعة سنة١٩٨٤ مكتبة النهضة المصرية
٣٩ـ مقارنة الاديان (١) المسيحية ـ الطبعة الثانية ١٩٨٤
٤٠ـ (٢) اليهودية ـ الطبعة الثانية ١٩٨٨
٤١ـ (٣) الاسلام ـ الطبعة الثامنة ١٩٨٥

أحمد كمال الدين حلمى(دكتور)
٤٢ـ السلاجقة فى التاريخ الحضارة ـ دار البحوث العلمية للنشر بالكويت سنة١٩٧٥

اديب السيد
٤٣ـ ارمينية فى التاريخ العربى ـ المطبعة الحديثة فى حلب سنة١٩٧٢

اسماعيل عبد العزيز الخالدى
٤٤ـ العالم الاسلامى والغزو المغولى ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ الطبعة الاولى ١٩٨١

السيد البازالعرينى
٤٥ ـ المغول ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت) سنة١٩٨١

السيد فرج
٤٦ ـ تيمور لنك قاهر العالم ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة سنة١٩٥٧ ـ الطبعة الثانية

أنور الجنـــدى
٤٧- الموسوعة الاسلامية والعربية - ج ٥ - ببروت - مطبعة مؤسسة الرسالــة - الطبعة الاولى سنة ١٩٨٤

بدر الدين حى الصينى :
٤٨ - العلاقات بين العرب واصلين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الاولى سنة١٩٥٠

جمال حمدان : (دكتور)
٤٩- انماط من البيئات - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة١٩٦٥

حافظ أحمد حمدى
٥٠- الدولة الخوارزمية والمغول - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٤٩
٥١- الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى - نشر دار الفكر العربى - القاهرة - سنة ١٩٥٠

حسن ابراهيم حسن : (دكتور)
٥٢- تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى - ج ٤ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة١٩٨٢

حسن الاميـن
٥٣- الغزو ا لمغولى - دار التعاون للمطبوعات ، بيروت - لبنان سنة١٩٧٦

حسن خليفة (دكتور)
٥٤- الدولة العبساية - قيامها وسقوطها - المطبعة الحديثة - شارع خيرت - القاهرة

حسين مؤنس (دكتور)
٥٥- الشرق الاسلامى فى العصر الحديث - مطبعة حجازى - القاهرة سنة١٩٣٨

خصباك : جعفر حسين (دكتور)
٥٦- العراق فى عهد المغول الايلخانيين - مطبعة العانى ببغداد - الطبعة الاولـى سنة ١٩٦٨

دولت أحمد صادق (دكتور)
٥٧- جغرافية العالم - مكتبة الانجلو المصرية سنة١٩٨٣

الخربوطلى : على حسنى(دكتور)
٥٨- غروب الخلافة الاسلامية - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة سنة١٩٦٠

رجب محمد عبد الحليم (دكتور)
٥٩- انتشار الاسلام بين المغول - دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع سنة١٩٨٦

سعد صادق محمد
٦٠- ابن تيمية امام السيف والقلم - نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة١٩٧٣

سعيد عبد الفتاح عاشور(دكتور)
٦١- اوروبا العصور الوسطى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - الطبعة السادسة ١٩٧٥
٦٢- الحركة الصليبية فى العصور الوسطى - ج ٢ - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة الطبعة الثانية سنة١٩٦٣

سيد أمير على
٦٣- مختصر تاريخ العرب - مؤسسة العلم للملايين - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٦١ ترجمة عفيف البعلبكى

صادق نشأت ومصطفى حجازى (دكتور)
٦٤ـ صفحات عن ايران ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة١٩٦٠

عباس العـــازوى
٦٥ـ تاريخ العراق بين احتلالين (حكومةالمغول) ج ١ ـ مطبعة بغداد سنة١٩٣٥

عبد العزيز جنكيز خان
٦٦ـ تركستان قلب آسيا ـ طبع ونشر الجمعية الخيرية التركستانية سنة١٩٤٥ الطبعـــة الاولى .

عبد السلام عبد العزيز فهمى (دكتور)
٦٧ـ تاريخ الدولة المغولية فى ايران ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة١٩٨١

عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)
٦٨ـ سلاجقة ايران والعراق ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة سنة١٩٥٩

عبد المنعم النمر (دكتور)
٦٩ـ تاريخ الاسلام فى الهند ـ مطبعة دار العهد الحديث ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ الطبعة الاولى.

على حسين الشلش : (دكتور)
٧٠ـ الاقاليم المناخية ـ مطبعة جامعة البصرة سنة١٩٨١ ـ الطبعة الاولى

على ظريف الاعظمى
٧١ـ مختصر تاريخ بغداد ـ مطبعة الفران ـ بغداد سنة١٩٢٦م

فؤاد عبد المعطى الصياد : (دكتور)
٧٢ـ المغول فى التاريخ من جنكيز خان الى هولاكو خان ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة سنة١٩٦٠

٧٣ـ مؤرخ المغول الكبير ـ رشيد الدين فضل الله الهمذانى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م

٧٤ـ الشرق الاسلامى فى عهد الايلخانيين (اسرة هولاكو) منشورات مركز الوثائق والدراسات الانسانية ـ جامعة قطر سنة١٩٨٧

محمد السيد غلاب (دكتور)
٧٥ـ تطور الجنس البشرى ـ دار المعارف الاسكندرية سنة١٩٥٥ ـ الطبعة الاولى

محمد جمال الدين سرور (دكتور)
٧٦ـ دولة الظاهر بيبرس ـ مطبعة دار الفكر العربى سنة١٩٦٠

محمد حسين هيكل (دكتور)
٧٧ـ الصديق ابو بكر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة١٩٨٣

محمد خميس الزوكه (دكتور)
٧٨ـ آسيا ـ دراسة فى الجغرافيا الاقليمية ـ مطبعة دار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية الطبعة الاولى سنة١٩٨٦ .

محمد صالحداود القزاز : (دكتور)

٧٩- الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الاخير (٥١٢هـ - ٦٥٦هـ) مطبعة القضاء والتحف العراق سنة١٩٧١

محمد عبد الله عنان (دكتور)

٨٠- مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة سنـ×ـة ١٩٣٤ - الطبعة الثانية .

محمد عبد المنعم الشرقاوى - محمد محمود الصياد (دكتور)

٨١- هذا العالم - دار المعارف المصرية - القاهرة سنة١٩٥٢

٨٢- ملامح الهند وباكستان - مكتبة دار المعارف المصرية - القاهرة ١٩٥٢

محمد عوض محمد (دكتور)

٨٣- سكان هذا الكوكب - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة١٩٤٧ الطبعة الثانية

محمد ماهر حماده (دكتور)

٨٤- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى -مطبعة منشورات الرسالة - بيروت سنة١٩٧٩ الطبعة الاولى .

مصطفى طه بدر (دكتور)

٨٥- محنةالاسلام الكبرى (زوال الخلافة العباسية على أيدى المغول) مكتبة المكتب الثقافى الدولى - الجيزة سنة١٩٤٦

٨٦- مغول ا يران بين المسيحية والاسلام - مطبعة دار الفكر - القاهرة سنة١٩٤٧

يسرى الجوهرى : (دكتور)

٨٧- السلالات البشرية - دار النهضة - القاهرة - الطبعة الاولى سنة١٩٦٦

يوسف عبد المجيد فايد (دكتور)

٨٨- الاسس العامة للجغرافيا - دار الثقافة للطباعة والنشر سنة١٩٨١- القاهرة.

يوسف رزق الله غنيمة

٨٩- نزهة المشتاق فى يهود العراق - مطبعة العانى - بغداد سنة١٩٣٦

ثالثا : المراجع الاجنبية (المترجمة)

أ.ج. اوبرى وآخرون (دكتور)

٩٠ - تراث فارس - مطبعة دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٩٥٩ ترجمة د. يحيى الخشاب وآخرين

ادوارد جيبون (دكتور)

٩١- اضمحلال الامبراطورية الرومانيةوسقوطها - جـ ٢ - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ترجمة لويس اسكندر.

استراجانـــوف

٩٢- تاريخ القبيلة الذهبية - مطبعة كلية دار العلوم - القاهرة سنة١٩٨٤

أرنولد : سير توماس

٩٣ـ الدعوة الى الاسلام ـ(بحث فى تاريخ نشر العقيدة الاسلامية) مكتبة النهضة المصرية القاهرة ـ مطبعة الشبكشى سنة ١٩٤٧
ترجمة د٠حسن ابراهيم حسن ، د٠ عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى

ايلين بـــور

٩٤ـ نماذج بشرية من العصور الوسطى ـ منشورات دار الثقافة ـ ببروت عام١٩٥٧ ـ ترجمة محمد توفيق حسين

بارتولد : فلاديمير

٩٥ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة سنة١٩٥٨
ترجمة د٠ احمد السعيد سليمان

٩٦ـ تاريخ التركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ـ الطبعة الاولى سنة١٩٨١ مطبعة حكومة الكويت ٠ نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم

٩٧ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ترجمة حمزه طاهر ٠

باسيليوس خرباوى

٩٨ـ تاريخ روسيا ـ مطبعة مكتبة القضاء الشرعى

براون : ادوار جرانفيل : (دكتور)

٩٩ـ تاريخ الادب فى ايران من الفردوس الى السعدى ـ مطبعة السعادة ـ القاهـــرة سنة ١٩٥٤ ، ترجمة د٠ ابراهيم ابن الشواربى

بروى : ادوار (دكتور)

١٠٠ـ تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) ج ٣ ـ مطبعة منشورات عويدات لبنـــان سنة ١٩٦٥ ، الطبعة الاولى ـ ترجمة يوسف اسعد

تشسترا ٠ أ٠ بين

١٠١ـ الشرق الاقصى ـ مكتبة مصر سنة ١٩٥٨ ـ ترجمة حسين الحوت

توينبى : ارنولـــد

١٠٢ـ تاريخ البشرية ـ ج ٢ ـ المطبعة الاهلية للنشر والتوزيع ببروت سنة١٩٨٢
ترجمة د٠ نقولا زيادة

ج ٠ ف ٠ انستد

١٠٣ـ عرض جغرافى للعالم من الوجهة البشرية ـ موءسسة سجل العرب ـ القاهرة ١٩٦٦
ترجمة رمزىيس ، محمد مرسى ابو الليل

جورج كيرك

١٠٤ـ موجز تاريخ الشرق الاوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر ـ الناشر مركـــز كتب الشرق الاوسط (قصر النيل) سنة١٩٥٤ ترجمة عمر الاسكندرانى

جون أ٠ هامرتن

١٠٥ـ تاريخ العالم ـ ج ٥ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ترجمة ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ٠

دونالد ولبر : (دكتور)

١٠٦- ايران ماضيها وحاضرها - مطبعة دار الرائد العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧١ ترجمة د٠ عبد النعيم حسين

رالف لنتون (دكتور)

١٠٧- شجرة الحضارة - ج ٢ - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ترجمة د٠أحمد فخرى٠

ستيفين رنسيمان

١٠٨- تاريخ الحروب الصليبية - ج ٣ - دار الثقافة - بيروت - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٨ - نقلة الى العربية د٠ السيد الباز العرينى

غوستاف لوبون

١٠٩- حضارة العرب - دار احياء الكتب العربية - عيسى الباب الحلبى وشركاه سنة١٩٥٦ ترجمة عادل زعيتر

ف ٠ بان ٠ الكاتب الصينى

١١٠- جنكيز خان - سفاح الشعوب - مطبعة دار الهلال - القاهرة سنة١٩٥١ ترجمة صوفى عبد الله

فامبرى : ارمنبوس

١١١- تاريخ بخارى المؤسسة المصرية العامةللتأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة١٩٦٥ ترجمة د٠ احمد محمود الساعاتى ٠

لامب : هارولد (دكتور)

١١٢- جنكيز خان وجحافل المغول - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - سنة ١٩٦٢ ترجمة مترى امين

١١٣- جنكيز خان امبراطور الناس كلهم - مكتبة الانجلو الصمرية القاهرة سنة١٩٥٦ ،ترجمة بهاء الدين نورى٠

هـ٠أ٠ل ٠فيشر

١١٤- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى - مطبعة دار المعارف بالقاهرة سنة١٩٥٤ ترجمة د٠ محمد مصطفى زيادة ٠

هـ٠ج٠ ويلز

١١٥- موجز تاريخ العالم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة سنة١٩٥٨ ترجمة عبد العزيزجاويد

ول ديورانت

١١٦- قصة الحضارة - ج ٤ مطبعة لجنة التأليف والنشر سنة١٩٥٠ ترجمة محمد بدران

١١٧- قصة الحضارة - ج٥ - نفس المطبعة - سنة١٩٥١ ترجمة د٠زكى نجيب محمود

وليام لانجر

١١٨- موسوعة تاريخ العالم - ج ٢ ، ج ٤ - مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٥٩ ترجمة د٠محمد مصطفى زيادة ٠

جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

المجتمع المغولي في عصر الأباطرة العظام
من جنكيز خان إلى قوبيلاي خان
٦٠٣هـ - ٦٩٣هـ

رسالة ماجستير

إعداد
صبري عبد اللطيف سليم

إشراف
أ.د/أحمد جاب الله شلبي

١٤٠٩ - ١٩٨٩م